**The Old Patagonian Express**

**By Train Through the Americas**

**Paul Theroux**

**---**

**اكسبرس باتاغونيا العتيق**

**بول ثيرو**

**ترجمة أميمة الزبير**

**----**

**كُتُب بول ثيرو**

**الكتب الخيالية**

والدو

فونغ والهنود

البنات في العمل

عشاق الغابة

الخطيئة مع آني

القديس جاك

البيت الأسود

ترسانة العائلة

ملف القنصل

بطاقة عيد الميلاد

قصر الصور

ثلوج لندن

نهاية العالم

ساحل البعوض

سفارة لندن

شارع هاف مون

أو-زون

تأريخي السري

حلقة شيكاغو

ميلوري الساحرة

حياتي الأخرى

كولون تونغ

النقد

ف. س. نايبول

**الكتب الواقعية**

بازار السكة الحديدية الكبير

اكسبرس باتاغونيا العتيق

المملكة جارة البحر

عبر الصين بحرًا

شروق الشمس مع وحوش البحر

الطريق الإمبريالي

ركوب الديك الحديدي

إلى أطراف الأرض

جزائر أوقيانيا السعيدة

أعمدة هرقل

*إكسبرس باتاغونيا*

*العتيق*

عبر الأمريكتين بالقطار

**بول ثيرو**

من مطبوعات مارينر للكتب

شركة هوتن ميلفن

بوسطن \* نيويورك

يتقدم الكاتب بالشكر والعرفان على إذن استخدام مقتطفات من الأعمال التالية:

شنغهاي ليل- 1933 الإخوة وارنر. حقوق النشر جددت. جميع الحقوق محفوظة. استخدمت بإذن.

"اللياما" من "آيات منذرة" لهيلاير بيلوك. نشرت عام 1941 بواسطة شركة ألفريد أ. نوبف.

"ورقة جافة" حقوق النشر 1942، لوالاس ستيفنز.

أعيدت طباعتها من قصائد والاس استيفنز المجمعة بإذن من شركة الفريد أ. نوبف.

"النهر" من القصائد الكاملة والرسائل المختارة والنثر لهارت كرين. حررت بمقدمة وملاحظات بقلم بروم ويبر. حقوق النشر محفوظة 1933.

1958، 1966 لديفيد مان، وإرنست كاننغهام استخدمت بإذن هيئة ليفررايت للنشر

حقوق النشر مسجلة 1979 لشركة كتّاب لكين كود

حقوق نشر المقدمة مسجلة عام 1997 لبول ثيرو

**جميع الحقوق محفوظة**

لمعلومات حول إعادة إنتاج مختارات من هذا الكتاب، اكتبوا إلى الأذونات، شركة هوتن ميفلين،

215 بارك افينيو ساوث، نيويورك.

نيويورك 10003

مكتبة الكونغرس بيانات تصنيف المطبوعة

بول ثيرو

اكسبرس باتاغونيا العتيق: عبر الأمريكتين بالقطار

1. أمريكا- وصف ورحلة-1951- 2. سفر بالسكة الحديدية- أمريكا

3. ثيرو، بول-رحلات-أمريكا 1. مؤلف E27.2.T47 9i7'.04'53 79-15353  
ISBN O-395-27788-4  
ISBN 0-395-52105**-x (pbk.)**

**طُبع في الولايات المتحدة الأمريكية**

**رسم الخرائط: ريتشارد ساندرسون**

إلى ليل شانغهاي التي تخصني

ومع الحب

إلى آن، ومارسيل، ولويس

كان القطار هو القطعة الوحيدة من الحياة في كل هذه الأرض اليباب، كان هو الممثل الوحيد، والمشهد الواحد الممكنة رؤيته في هذه الحالة من جمود الطبيعة والبشر معاً. وعندما أفكر في الطريقة التي مُددت بها الطرق الحديدية عبر هذه البرية القاحلة التي لا يسكنها سوى القبائل الهمجية، وكيف في كل مرحلة من مراحل البناء، تنبثق المدن الواضح ارتجالها، الحافلة بالذهب والشهوة والموت، ثم تبيد من جديد، والآن لا شيء سوى محطات جانبية في الصحراء، كيف يعمل هؤلاء الأجلاف القراصنة الصينيون ذوو الجدائل جنباً إلى جنب مع أشرار الحدود ومتبلدي المشاعرالقادمين من أوربا، يتحدثون معاً بلهجة مختلطة، وأغلبها وعيد، وقمار، وشرب، وشجار وقتل مثل الذئاب.كيف سمع الإله المجنّح سيّد كل أنحاء أمريكا في رقدته الأبدية، صرخة "عربة الطب الشريرة" التي يقودها أعداؤه، ثم عندما يفضي تفكيري إلى تذكر أنّ سادة نبلاء في مسوح رهبان هم مَنْ أحدثوا هذه الفوضى الملحمية، ودون أن تتجاوز طموحاتهم تحقيق ثروة من المال، وبالتالي زيارة باريس؛ يبدو لي، أعترف، كما لو أنّ هذه الخطوط الحديدية إنجازات مثالية للعصر الذي نعيش فيه، كأنها تجمع في قصة واحدة كل أطراف العالم، و درجات الهيكل الاجتماعي كلها، تضع بين يدي أحد الكتاب العظماء، أشد الموضوعات تأثيراً واتساعاً، وتشعبّا من أجل عمل أدبي خالد.

فإن كان ما يلزمنا رواية غرامية، أو مقابلة، أو ملحمة بطولية، إذن ماهي بلدة طروادة بالنسبة لهذا؟

-*روبرت لويز استيفنسن، المهاجر الهاوي*

"أدب رومانطيقي!" حداد موسم التذاكر، " لم يركض قط ليلحق بقطاره. ولكنه مرّ بعربة، وحارس وبوق- "ثم غادر المحليّ- متأخراً مرة أخرى.!"

رومانسية محيّرة....وخفية تماماً

رومانسية أتت على متن قطار التاسعة والربع.

*رديارد كيبلنغ- الملك.*

**المحتويات**

المقدمة XI

1. قطار ليك شور المحدود

2. قطار النجمة الوحيدة

3. نسر الآزتيك

4. من إل خاروشو إلى فيراكروز

5. قطار الركاب إلى تاباشولا

6. قطار الساعة السابعة والنصف إلى مدينة غواتيمالا

7. قطار الساعة السابعة إلى زكابا

8. عربة القطار إلى سان سلفادور

9. القطار المحلي إلى كوتوكو

10. خط الأطنلطي: قطار الساعة 12:00 إلى ليمون

11. خط المحيط الهاديء: قطار الساعة 10:00 إلى بنتاريناس

12. قطار طلقة بالبوا إلى كولون

13. إكسبرس الشمس إلى بوغوتا

14. إكسبرس كاليما

15. الأوتوفيرو إلى غواياكيل

16. قطار سييرا

17. قطار الركاب إلى ماشو بيكشو

18. قطار الباناميركانو

19. قطار "نجمة الشمال" إلى بيونس آيرس

20. قطار أنفاق بيونس آيرس

21. إكسبرس بحيرات الجنوب

22. اكسبرس باتاغونيا العتيق

**مقدمة**

بعض الناس يعدّون كتب الرحلات ضمن الأدب الروائي، لما فيها من عناصر الابتكار، وأنّها تنبع من المخيلة، وأنّها نوع من الوحوش الغريبة: نصفها حيوان الكتابة الواقعية النثري الصغير، ونصفها الآخر وحش الكتابة الخيالية الأسطوري، وهناك يقف، يتحدانا أن نسمّيه. دون شك هناك كتب ينطبق عليها هذا الوصف، الرحلات والنزهات التي حوّلها الكتّاب إلى ملاحم وأوديسيات. أنت تريد كتابة رواية ولكن ليس لديك عنوان، ولا شخصيات، ولا مشاهد، فتأخذ رحلة- لبضعة أشهر، بلا مغالاة في التكلفة، ولا شدة في الخطورة- تكتبها، وتضفي على نفسك فيها من سحنات الرعب، والسخرية، والدراما ما استطعت، لأنّك بطل هذه-الماذا؟ المهمة، ربما ولكن بامتيازات كاملة.

لا أتبع في أعمالي هذا النهج مطلقاً. وعندما أقرأ كتاباً كهذا، وألمح فيه زيفاً، أو اختلاقاً، أو بهرجة، لا أستطيع مواصلة القراءة.

مسرحة الذات حتمية في أي كتاب رحلات، ينظر معظم الرحالة، مع كونهم مشائين كئيبين ومبتذلين، لأنفسهم على أنّهم مغامرون منعزلون بل أبطال. ولكن الشيء الغريب أنّ أبطال السفر الحقيقيين نادراً ما يكتبون عن رحلاتهم. في 1988 جدّف رجل في قاربه الكاياك من سان دييغو عابراً ثلاثة آلاف وخمسمئة ميلٍ في المحيط الهاديء حتى ماوي في جزر هاواي. لم يأخذ هذا الخبر أكثر من مساحة ضئيلة في الصحيفة، لأنّه أوشك أن يموت- كان بلا طعام ولا ماء طوال الأيام الثلاثة الأخيرة من رحلته التي دامت ثلاثة وستين يوماً. لم يكتب شيئاً عن هذه التجربة القاسية قط، ومع ذلك وصلني للتو كتابٌ سميكٌ يصف رحلات رجل شاب في حواضر فرنسا ("من الكتب الأساسية للمولعين بفرنسا، ومبغضيها، والذوّاقة، والشرهين، وأيّ مسافر فضولي في بلاد الغال الحديثة حقاً.")، كأنّ هذا المكان المميز الفريد، المريح، والمبتذل أرضٌ مجهولة ما.

أوهـ، أعرف، أنّ جزءاً كبيراً منه لم يكتشف بعد في هذاالبلد الذي يبدو بلداً عريقاً أليفاً ومملاً، ذلك العدو الحبيب، إلى آخره. ولكني شخصياً أفضل قراءة مغامرة ما. كنت أنشد المغامرة عندما انطلقت في تلك الرحلة التي صارت كتاب اكسبرس باتاغونيا العتيق. أردت مغادرة باب منزلي في ميدفورد، ماساتشوسيتس، والتوجه صوب باتاغونيا، وأن أقوم بذلك برّاً. تمنيت أن أخرج تدريجياً من المكان المريح الأليف حيث ولدت -هكذا اعتقدت- إلى بقعة قصيّة نائية في الجزء الجنوبي من أمريكا الجنوبية. أردت أن أصل بين المعروف والمجهول: أن أمضي إلى ابعد مكان عن الوطن يسعني الوصول إليه ، دون أن أغادر النصف الغربي من كوكب الأرض. لن تكون رحلة دائرية كالتي وصفتها في بازار السكة الحديدية الكبير، ولكن في رحلة خطية، من هنا إلى هناك على مسافة بعيدة جداً.

لطالما أزعجني أنْ يُستغنى عن المقدمات عندما أقرأ عن رحلة استكشافية. وأتحدث عن هذا في بداية كتاب اكسبرس باتاغونيا العتيق، في الفصل الذي يبدأ بـــ :" السفر فعل متلاشٍ، رحلة منفردة على طريق جغرافي منقطع إلى النسيان." في أول كتاب سفر لم أفعل سوى السفر بعيداً، الانطلاق باتجاه الشرق، في هذا الكتاب، شعرت أنني كنت في تجربة واعية للمكان والزمان. كان هدفي أن آخذ القطار الذي يأخذه الجميع في طريقهم إلى العمل، ثم المضي قدماً، مغيّراً القطار بعد الآخر حتى نهاية الخط، التي ظننتها – مستعينا بخارطة- محطة صغيرة تدعى إيسكويل في وسط باتاغونيا.

كنت أكثر حرصاً في كتاب السفر هذا من كتابي الأول. لشيء واحد، لقد صممت على تعلّم اللغة. كوني لا أتحدث الهندية، واليابانية، والفارسية، أو الأوردية (ضمن لغات أخرى) جعل كتابي الأول طريفاً إلى حدٍ ما. اعتقدت أنّه كان من السهولة بمكن أن أطلق النكات،. ولا أريد أن أكون جاهلاً لهذا الحد مرة أخرى. عليه تعلّمت اللغة.

قصدت مدرسة ليلية في ساوث لندن، واستمعت إلى شرائط اللغة. أردت فهم ما يجري. أحد المفاهيم الشائعة حول كتب السفر أنّها حول المسافر في العادة. أردت تجاوز هذه الأنانية السخيفة، ومحاولة معرفة الأماكن التي كنت أمرّ عبرها. كنت أعرف شيئاً عن السياسة لكنْ القليل جداً عن السمات الجغرافية لهذه البلدان. كان أحد أهدافي تحديد خصائص كل مكان، حتى يحصل كل من يقرأ الكتاب لاحقاً على فكرة واضحة عن السلفادور، أو كوستاريكا، أو بيرو، وهكذا لن تصبح مجرد كومة هلامية وغير متمايزة من جمهوريات الموز.

لم أهدف إلى تحويل هذا الكتاب لرواية. أنهيت لتوي روايتي قصر الصور بينما كنت أخطط للرحلة. كان هذا في صيف 1977. انطلقت في ظهيرة يوم قارس البرد من أيام شهر فبراير من عام 1978، تاركاً منزلي القديم في ميدفورد، على متن القطار إلى بوسطن، ومن ثم قطار آخر من بوسطن إلى شيكاغو، وهكذا دواليك. كانت السماء سوداء تقريباً، وملبّدة بغيوم العاصفة التي تسببت في واحدة من أسوأ العواصف الثلجية في الذاكرة الحية لإقليم الشمال الشرقي. قرأت حول هذه الثلوج في المكسيك المشبعة بالبخار. ما أسهل الوصول إلى هناك، وواصلت المسير جنوباً في قطارات تتنافس في القِدَم. بما أنني ألّفت كتاب رحلات من قبل، وعرفت بعض نقاط ضعفي وقوتي، تكونت لدي فكرة عامة عن نوع الرحلات التي أريد القيام بها. أكثر من أي شيء آخر اردت لقاء أشخاص غير عاديين، وكنت أرغب في منحهم حياة- لأنَّ الكتاب سيكون سلسلة من اللوحات الشخصية، والمشاهد، والوجوه. كنت أعتقد دائماً أنَّ أفضل أنواع الكتابة هي التصويرية، وفي قصر الصور تعمدت الكتابة حول مُصوِّرة: كانت معظم تصريحاتها عن التصوير الفوتوغرافي هي آرائي السرّية عن الكتابة. أردت أن يكون هذا الكتاب غنيًّا بالوجوه والأصوات، وبخلفية وواجهة مميزتين.

كنت محظوظاً بمن التقيت من أشخاص. كانت قناة بنما في الأخبار: عقد الرئيس كارتر مؤتمراً لتسليم القناة مجدداً إلى الباتاغونيين. كان الزونيون-اسم لطيف- غاضبين حيال ما حسبوه خيانة من كارتر. ووجدت رجلاً عاقلاً للحديث عن هذه المسائل، وغيرها: السيد رايس، موظف المشرحة المسؤول في مشرحة غورغاس. وهناك آخرون: السيدة في فيراكروز التي تبحث عن حبيبها، السيد ثورنبيري في كوستاريكا، القس الإيرلندي الذي أسس عائلة صغيرة في الإكوادور، وخورخي لويس بورخيس في بيونس آيرس. وحاولت أيضاً رسم صور للبلدات والمدن. ويمكن رؤيتها- كما أعتقد، (على سبيل المثال) في الوصف الذي يبدأ بعبارة في "مدينة غواتيمالا، مكان يمتد أفقياً بدرجة مفرطة، مثل مدينة مستلقية على ظهرها،" ثم الأعمال المتعلقة بالهزات الأرضية. نظرت عن كثب، وأصختُ السمعَ، وتنشقتُ، ودونتُ كل شيء.

أخبرني صديقي بروس شاتوين أنّه ألّف كتابه (***في باتاغونيا)*** بعد أن قرأ بازار السكة الحديدية الكبير. خطّ في نسختي من هذا الكتاب: " لبول ثيرو، الذي-من غير قصدٍ- قدح شرارة هذا العمل."

أخبرته عن تساؤلي الدائم حول طريقة سفره إلى باتاغونيا- لأنّه أغفل هذا الجزء. كتب عن كونه هناك، ولكني أردت الكتابة حول الرحلة إلى هناك.

دائما ما سكنت هذه الفكرة خلدي، وجعلتني دقيقاً حيال رحلتي. عرفت أنني حالما أصل إلى باتاغونيا، سأنظر حولي ثم أعود إلى الديار. ألفت كتابي ليكون الأفضل حول الذهاب إلى هناك.

على الرغم منّي، التهيت بما رأيت. أنا روائي. لم استطع تجاهل الفرص التي كانت تُقدم لي على هيئة شخصيات مقترحة، ومشاهد درامية، وفوق ذلك معرفة أنّ علي تضمينها في كتابي عن الرحلة. وعندما باتوا هناك، ثبتوا للأبد- لم أعد قادراً على إخراجهم مرة أخرى، ومنحهم شكلاً خيالياً.

ما أذهلني هو مدى كثافة الدغل هناك، في مكان قريب جداً من الولايات المتحدة. لقد كنت في نيو إنجلاند الباردة، والآن، بفاصل قليلة فقط، صرت في مكان بدا كنسخة بالية من الفردوس، لا طرق، ولا مصانع، لا منازل ولا إرساليات حتى. قد يجيء شخص ما هنا، ويبدأ حياته من الصفر تماماً، يبني بلدة تخصه، ويصنع عالماً له هو. كان يساورني هذا الشعور بشدة في كوستاريكا.

كنا على الساحل، نسافر بمحاذاة الشاطيء الذي تحفّه أشجار النخيل. كان هذا هو ساحل البعوض الذي يمتد من بورتو باريوس في غواتيمالا حتى كولون في بنما. إنّه موحش ويبدو مشهداً مثالياً لقصة المنبوذين. القرى والموانيء القليلة التي تقع بمحاذاته قد هُجِرت، لقد تدهورت بتدهور الشحن. وعادت إلى الغابة. كانت الأمواج الهائلة تتدحرج باتجاهنا، والرغوة البيضاء ساطعة في الغسق، لقد تكسرت تماماً عند أقدام أشجار نخيل الجوز القريبة من القضبان. في هذا الوقت من اليوم، هبوط الليل، والبحر آخر ما يُظلم: يبدو أنّه يلتقط الأضواء التي تنزلق من السماء، والأشجار سوداء. في ضوء هذا البحر الساطع، وما زالت السماء الشرقية زرقاء شاحبة، وزخات الموج المتكسر، قعقعت عجلات القطار باتجاه مدينة ليمون.

تخيلت هؤلاء المنبوذين، عائلة تهرب من الولايات المتحدة، وربطتهم بعدد من الإرساليات والقسس الذين ما زلت ألتقي بهم. كان القسيس المجرد من صلاحياته في الإكوادور (الفصل 15) مثالياً. منبوذ روحي يعيش حياة سرية بعيدة عن موطنه. ولكني أقسمت أن أكون صادقاً في كتاب رحلاتي، وأضمّن كل ما يهم من الأشياء والأشخاص، وكتبت مرة عن ذاك القسيس. أعلم أني لا أستطيع العودة له، وإعادة تشكيله خيالياً. ومع ذلك عرفت أنني عندما أنهيت كتاب الرحلات هذا سأبدأ التفكير جدّيا في هذه الرواية عن المنبوذين على **ساحل البعوض.**

وصلت باتاغونيا، وعدت إلى لندن. كتبت الكتاب. ما ندمت عليه في سفري أنني لم أزر نيكاراغوا- نُصحت بعدم زيارتها، بسبب حرب الغوريلا التي اجتاحت البلاد وقتها- وندمت على اضطراري للطيران من بنما إلى بارانكويلا، ومن غواياكيل إلى ليما. أكره الطائرات، ومتى ما كنت في واحدة منها- أعاني من الطائرات بدون طيار التي تصمّ الآذان، وبرودة الهواء التي تختص بها الطائرات- لطالما شككت أنّ البر الذي نطير حوله غنيّ ومدهش وأنني أفوّت كل ذلك.

السفر بالطائرة بسيط ومزعج جداً ومدعاة للقلق. إنّه مثل أن تكون في عيادة طبيب الأسنان، حتى مقاعد الطائرة تشبه مقاعد طبيب الأسنان. السفر الجوّي أشد مشقة بكثير، وبطيء جدًا، ولكنه غير مريح إنسانياً ، ومطمئن في العادة. كما إنني ندمت أيضاً على تضييع الفرصة لزيارة البرازيل. وربما صار هذا كتاباً آخر.

مزاج هذا الكتاب، الذي كان كئيباً في بعض الأحيان، جاء نتيجة لمعرفتي باللغة الإسبانية. كان من السهل علي التندر والتظارف عندما سافرت لكتابة بازار السكة الحديدية. كانت فكرتي عما يقوله الناس باللغة اليابانية والهندية ضئيلة. ولكن ربما كان التحدث إلى الناس بلغتهم الخاصة، وسماع عبارات ردودهم الخجولة، أو عنف غضبهم، أو كناياتهم عن العجز محزناً.

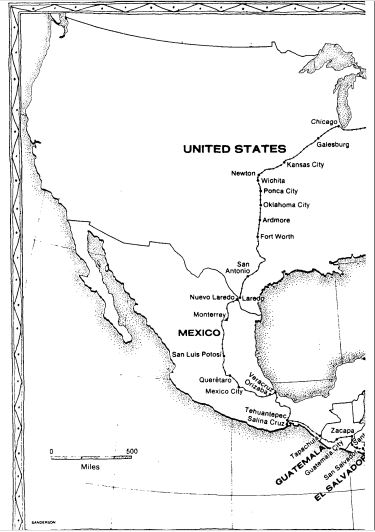
كان علي المرور بتجربة مشابهة بعد ثماني سنوات، السفر إلى الصين، وسماع الناس يعبرّون عن قلقهم باللغة الصينية.

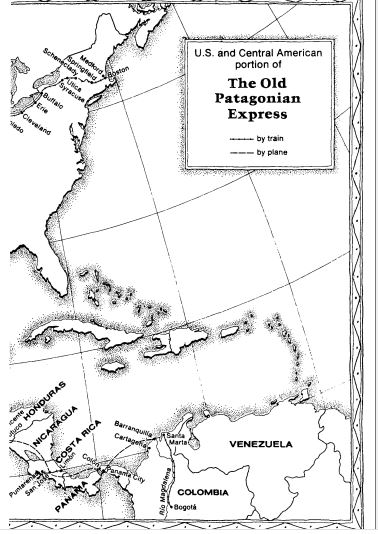
كتاب كهذا، أو أي كتاب قرأته ليس بمشكلة تُدْرس ويُعلق عليها. إنّه شيء كتبته لأمنح المتعة، شيء للاستمتاع به. ينبغي أن تتحلى بالقدرة على رؤية هؤلاء الناس والأشخاص وسماعهم والتعرف إلى روائحهم. بالطبع كان بعضها مؤلماً، ولكن السفر-محض حركة- يجب أن يوحي بالأمل. اليأس هو الكرسي الوثير، إنّه اللامبالاة، والعيون الجامدة الخالية من لمعة الفضول.

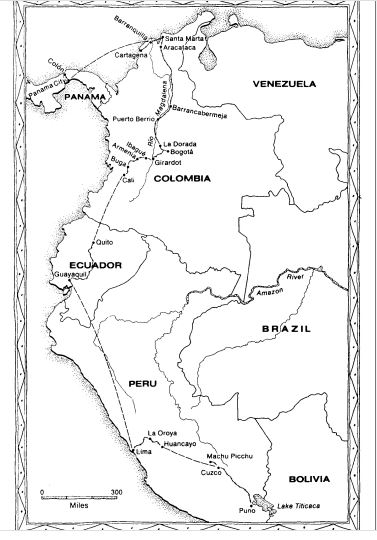
أعتقد أنّ الرحّالة متفائلون بطبيعتهم، وإلا فلن يستطيعوا الذهاب إلى أي مكان، وينبغي أن يعكس كتاب الرحلات ذلك التفاؤل العام ذاته.

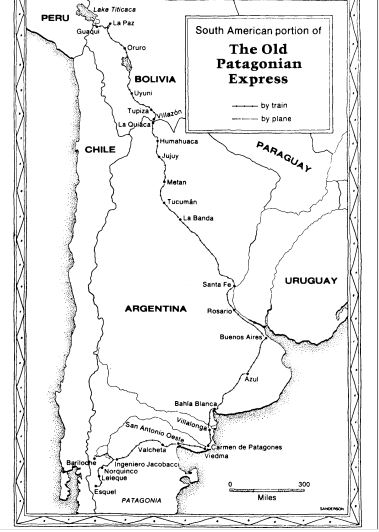
عندما أنهيت هذا الكتاب، بدأت تدوين الملاحظات لروايتي التالية. ساحل البعوض، ولكن قبل أن أبدأ، عدت إلى أمريكا الوسطى. سافرت عبر مجاهل هندوراس. دونت الملاحظات، لكن تجنبت بحرص استخدامها في مقال أو قصة. لقد صارت مستودعاً لكل ما أعرفه عن موسكيشيا، مسرح أحداث روايتي. كتابة ذلك الكتاب ليست بتقرير صحافي مفخم، بل تكاد يكون تحوّلاً لا يوصف، وهذا هو الخيال.

أبريل 1997



**-**





**-**

.

**The Old Patagonian Express**

**By Train Through the Americas**

**Paul Theroux**

**---**

**اكسبرس باتاغونيا العتيق**

**بول ثيرو**

**ترجمة أميمة الزبير**

**---**

**-1-**

**قطار ليك-شور المحدود**

ثمة واحدٌ منا، في قطار الأنفاق السريع ذاك، لا يتجه إلى العمل. تعرفونه فوراً من حجم حقيبته. وتنجحوا دائما في معرفة المتسكع مما على وجهه من سيماء غطرسة المتشردين. فهو يبدو كمن يحمل سراً في فمه- أو كما لو كان على وشك أن ينفخ فقاعة ما. لكن لِمّ الخجل؟

استيقظت في غرفة نومي، وفي منزل أمضيت فيه أجمل أيام حياتي. كان الثلج ينتشر حول المنزل بكثافة، حيث كانت هناك آثار أقدام متجمدة عبر الفناء وحتى سلة النفايات. وقعت عاصفة ثلجية للتو، ويتوقع **أن** تهبّ عاصفة أخرى قريباً. ارتديت ملابسي، وأحكمت رباط حذائي بعناية فوق العادة، ولم أحلق فقد عزمت على تربية شاربي. ربتُّ على جيوبي لأتأكد من أنّ قلمي ذا السن الدوارة، وجواز السفر، بأمان.

نزلت إلى الأسفل، مروراً بساعة الوقواق المنبهة الخاصة بأمي، وثم إلى دائرة ويلنغتون للحاق بالقطار. كان صباحاً بارداً لحد الشلل، ويوماً ملائماً تماماً لشد الرحال إلى جنوب أمريكا.

بالنسبة للبعض هذا هو القطار المتجه إلى ميدان سوليفان، أو شارع ميلك، أو في الأغلب إلى مرتفعات أورينت، أما بالنسبة لي فكان هذا هو قطاري المتجه إلى باتاغونيا. تحدث رجلان بلغة أجنبية همساً، وثمة آخرون يحملون علب الغداء، والحقائب وحقائب اليد، وسيدة واحدة تحمل ذلك النوع من حقائب المتاجر الكبيرة المميزة بتغضناتها، والتي تشي بأنّها ذاهبة لإعادة أو استبدال غرض غير مرغوب فيه (الحقيبة الاصلية تعزز احتمال المهمة المحرجة). غيّر الطقس المتجمد الوجوه في العربة متعددة الأعراق: بدت صفحات الخدود البيضاء ممسوحة بالطباشير الوردي، وهرب الدم من وجوه الصينيين، واكتست سحنات السود باللون الرماديّ أو الرماديّ المصفر. في الفجر وصلت الحرارة 12 درجة على مقياس فهرنهايت، وعندما انتصف الصباح كانت 9 درجات ولم تتوقف عن الانخفاض. اندفعت الرياح الباردة إلى داخل العربة عندما فتحت الأبواب في هايماركت، فأخرست همهمات الأجانب. بدوا كما لو أنّهم من حوض البحر المتوسط، وجفلوا من تيار الهواء. كانوا-معظمهم- يجلسون في مساحة ضيقة، تلتصق مرافقهم بجنوبهم، وأكفهم في حجورهم، بأجساد منحنية حفاظاً على الدفء.

لديهم مصالح يتعهدونها في المدينة- أعمال، أو تسوّق، أو مصارف، اللحظة المحرجة على طاولة استرجاع النقود. لدى اثنان منهم دفتران، يستقر كل منهما على حجر صاحبه، وقد كتب على جانب الكتاب الذي يقابلني مقدمة عامة في علم الاجتماع. ورجل يمسح بعينيه عناوين صحيفة العالم، وآخر يحشو الأوراق في حقيبة يده بإبهامه.أخبرت سيدة ابنتها الصغيرة أن تتوقف عن الركل، وتجلس بهدوء. والآن أصبحوا جميعاً في طريقهم إلى الخارج، حيث الأرصفة العاصفة، وبعد أربع محطات، كانت العربة قد فرغت من نصف ركابها. سيعودوا في المساء، بعد قضاء اليوم في الحديث عن الطقس. ولكنهم سيرتدون ملابس ملائمة- ملابس العمل تحت معاطف الاسكيمو، والقفازات ولفائف الساق، والقبعات الصوفية. بدا التسليم على ملامحهم، وهو علامة فعلية على الإرهاق. ليس ثمة أثر للمتعة، كل هذا كان اعتيادياً ومألوفاً، فقد كان ركوب القطار من أنشطتهم اليومية. لا أحد ينظر من النافذة. لقد رأوا المرسى، وهضبة بانكر، والملصقات واللافتات من قبل. ولم ينظروا أيضاً لبعضهم البعض. تتوقف النظرات قبيل بوصات قليلة من أعينهم. وعلى الرغم من أنّهم لم يولوها انتباهاً إلا أنَّ اللافتات فوق رؤوسهم كانت تخاطبهم. كانوا من الأهالي المحليين، يهتمون، ويعرف المعلنون من يستهدفون بإعلاناتهم. ***أتحتاج نموذج ضريبة الدخل****؟* وتحتها، شاب يرتدي سترة القوات البحرية، كشف عن أسنانه، وابتلع ريقه، ***صرف الصكوك المالية في جميع أنحاء ماساشوستس***. سيدة في لون شعب الهوتنتوت الرمادي المصفرّ وهي تحتضن حقيبة التسوق خاصتها. **تطوّع في إحدى مدارس بوسطن العامة**. ليست فكرة سيئة بالنسبة لمفتش الحقيبة الصغيرة الضِجر من كل شيء، صاحب القبعة الروسية. **مال الرهن؟ لدينا الكثير منه**. لم ينظر أحد إلى الأعلى. **أسقف ومزاريب**. **احصل على درجة جامعية في وقت فراغك**. **مطعم**. **محطة إذاعة**. **حملة لوقف التدخين**.

اللافتات التي لا تعنيني. هذه شؤون محلية، ولكني كنت راحلاً هذا الصباح. وعندما تكون راحلاً، تغدو الوعود في الإعلانات جوفاء. المال، المدرسة، المنزل، الإذاعة: كنت أتركها خلفي، وأثناء هذه الرحلة القصيرة من دائرة ويلنغتون إلى شارع ستيت، اصبحت كلمات الإعلانات محض ثرثرة استجداء، مثل هذر عديم المعنى بلغة غير مفهومة أتجاهله، كنت أنسحب بعيداً عن منزلي. بعيداً عن البرد، والجليد اللامع الخاطف للأبصار، لم يكن ثمة أمر ذو أهمية كبرى في رحيلي، لا شيء في اللحظة الراهنة عدا أننا بينما كنا على مشارف المحطة الجنوبية، كنت أقرب بميل إلى باتاغونيا.

\*\*\*\*

السفر فعل تلاشٍ، رحلة انفرادية على طريق جغرافي متقطع ينتهي بخيمة.

ماذا حلّ بوارنغ؟

منذ أن غافلنا وراوغ[[1]](#footnote-1)

إلا إن كتاب الرحلات على العكس تماماً، يعود المتوحّد مزهواً ليحكي قصصه على مهل.

إنّه أبسط أنواع السرد، تفسير هو ذريعة في ذاته، لشد الرحال والسفر. إنّها نقلة، منحها التكرار اللفظي نظاماً. هذا النوع من الاختفاء أساسي، لكن القليل فقط يعود صامتاً. ومع ذلك فقد جرى العرف بوضع أدب الرحلات تحت المجهر، ليبدأ- مثل روايات كثر- في وسط الأحداث، استدراج القاريء إلى مكان غريب بدون حتى دليل يقوده إليه.

فقد يبدأ الكتاب بعبارة: " اتخذ النمل الأبيض من أرجوحتي وجبة،" أو " هناك في الأسفل، يغوص الوادي البتاغوني بصخوره الرمادية، التي اكتسبت من العصور السحيقة خطوطاً، وقسمّتها مياه الفيضان." أو لنختر فعليا ثلاثًا من الجمل الأولى من ثلاثة كتب في متناول اليد:

" قبيل الظهيرة في الأول من شهر مارس، عام 1898، وجدت نفسي أدخل لأول مرة في ميناء ممبسا الضيق، والذي ربما كان خطِراً، على الساحل الشرقي لأفريقية." (المقدم. جي. إتش. باترسون، آكلو البشر على نهر تسافو).

"مرحباً!" كتبت على لافتة كبيرة بجانب الطريق بينما تكمل العربة صعودها المتعرج من حرّ السهول الهندية الجنوبية إلى طقس يقترب من البرودة المزعجة." (مولي بانترداونز، اوتي بريسيرفد Oaty Preserved)

"أطل من شرفة غرفتي على منظر بانورامي لمدينة أكرا، عاصمة غانا." (البرتو مورافيا. إلى أي قبيلة ينتمي؟)

سؤالي العادي الذي لم أجد له إجابة في –معظم- كتب الرحلات هو: كيف وصلت إلى هناك؟ حتى بدون الإشارة إلى الدافعية، أرحب بالمقدمات، طالما تتسم الرحلة ذاتها في أحيانٍ كثيرةٍ بسحر يعادل الوصول. ومع ذلك، ولأنَّ الفضول ينطوي على التأخير، والتأخير يعتبر رفاهية (لكن لِمَ العجلة على أية حال؟) لقد اعتدنا على الحياة التي تشبه سلسلة من لحظات الوصول أو المغادرة، أو الانتصارات، أو الإخفاقات، بلا شيء يستحق الذكر بين هذا وذاك. القمم مهمة، ولكن ماذا عن منحدرات بارناسوس الدنيا؟ لم نفقد إيماننا بالرحيل عن الوطن، إلا أنَّ النصوص نادرة. الرحيل تصفه لحظة من الهلع، وفحص بطاقات السفر في صالة مطار ما، أو قبلة مرتعشة على جانب الطريق لغاية " أطل من شرفة غرفتي على منظر بانورامي ...".

السفر شيء آخر في الحقيقة. من اللحظة التي تستيقظ فيها، وأنت تنوي السفر لأرض أجنبية، وأنت تزداد قرباً مع كل خطوة (اجتزت الآن ساعة الكوكو، وأسير الآن على فولتون إلى فيلسواي).

تحدث كتاب آكلي الرجال على ضفاف التسافو، عن أسود تلتهم عمال الطرق الحديدة الهنود في كينيا في أواخر القرن الماضي. إلا أنني كنت سأراهن على وجود كتاب أكثر إبهاراً وإثارة للاهتمام حول الرحلة البحرية من ساوثامبتون إلى ممبسا، وتركه المقدم باترسون بدون كتابة، لأسباب تخصه هو.

صار أدب الرحلات غثّاً، الافتتاحيات المعتادة، تلك النظرة الساخرة من وراء النافذة من داخل الطائرة المائلة. الطرفة الافتتاحية، والاجتهاد في ترك انطباع مؤثر، صار أمراً شائعاً ومألوفاً حتى صارت الكتابة عنها أقرب للمستحيل؟ كيف يسير الأمر؟ " يفيض الوادي الاستوائي الأخضر في الأسفل، المزارع كلحاف من القطع الملونة، وبينما كنا نخرج من بين السحاب، استطعت النظر إلى الشوارع المتسخة في الطريق إلى المرتفعات، والسيارات غاية في الصغر مثل الدمى.

درنا حول المطار، وطرنا على ارتفاع منخفض بغرض الهبوط. رأيت أشجار النخيل الفخمة، والحصاد، وأسطح المنازل المتداعية، والحقول المربعة تربطها مع بعضها البعض الأسيجة المؤقتة، والناس مثل النمل، تنوع ألوان ..." لم أجد هذا النوع من الظنون مقنعاً كفايةً. عندما كنت أستقل الطائرة، كان قلبي يكاد يقفز من فمي، أتساءل ما إذا كنا سنسقط- أليس الجميع مثلي؟ تمر ذكريات حياتي أمام عيني، اختيارات سريعة لأمور تافهة، ومثيرة للشفقة. ثم يخبرني صوت ما بأن أظل في مقعدي حتى تتوقف الطائرة تماماً، وعندما نهبط، تبدأ مكبرات الصوت في عزف نسخة أوركسترالية لمقطوعة "نهر القمر".

ربما لو كنت أجرؤ على النظر حولي لرأيت كاتب رحلات يدوّن: " يفيض الوادي الاستوائي الأخضر في الأسفل.."

وفي هذه الأثناء، ماذا عن الرحلة ذاتها؟ ربما ليس ثمة ما يقال. ليس هناك الكثير الجدير بالذكر حول معظم رحلات الطائرة. لا يستحق الذكر منها إلا ما كان كارثياً، لذلك تصف الرحلة الطيبة بالنفي: لم تُختطف، لم تسقط، لم تتقيأ، لم تتأخر، لم تصب بالغثيان بسبب الطعام. إذن فأنت تشعر بالامتنان. الامتنان يبعث على الراحة، ويصفو ذهنك، وهو أمر طبيعي، لأنّ راكب الطائرة هو مسافر في الزمن. يزحف في اسطوانة مفروشة بالسجاد، تفوح منها رائحة مطهّرٍ، وهو مربوط فيها ليعود إلى وطنه، أو يرحل عنه. الوقت بالتقريب، أو في جميع الأحوال شائه: فهو يغادر في منطقة زمنية، ويصل في أخرى. ومن اللحظة التي يخطو فيها إلى داخل الأسطوانة ويثني ركبتيه على المقعد من الأمام، في وضع قائم غير مريح يركّز عقله على الوصول - منذ لحظة المغادرة. وهذا إن كان يشعر بشيء على الإطلاق. فإن نظر من النافذة، لن يرى سوى سهل أجرد من طبقات السحاب، وفوقه الفضاء الشاسع. الوقت فارغ مما يمكن رؤيته. هذاهو السبب الذي يجعل الكثيرين يأسفون على السفر بالطائرة. ويقولون " ما أريده حقاً هو نسيان تلك الطيور البلاستيكية العملاقة، والحصول على قارب شراعي ثلاثي الصواري، والوقوف فقط هناك على سطح الجزء الخلفي منه، يتراقص شعري مع الريح."

ولكن، ولا داع للاعتذار. الرحلة بالطائرة قد لا تُعدّ سفراً بمعناه المقبول على أية حال، لكنها بالتأكيد ضرب من السحر. إذ يمكن لأي شخص يملك ثمن البطاقة أن يستدعي صخرة دراشنفيلز الحصينة، أو بحيرة إيزل إينسفري بكل بساطة عن طريق استخدام الدرج المتنقل المناسب، لنقل من مطار لوغان في بوسطن مثلاً. لكن يجدر القول بإنّ مافي الانتقال مرة واحدة على مصعد من نزهة للذهن يفوق ما يجده المرء في رحلة الطائرة بكاملها. أما البقية- البلد الأجنبي، وما يمثله الوصول- فهو ركضة سريعة في مطار تفوح فيه رائحة الشر.

إن كان تصوّر الراكب لهذه الأنواع من النقل كسفر، وقدم كتابه للجمهور، فأول ما يقابله القاريء الأجنبي إما رجل الجمارك مفتش الملابس، أو عفريت ذو شارب في مكتب الهجرة.

وعلى الرغم من أنّه أصبح وسيلة عالمية، إلا إننا ما زلنا- ويتعين علينا ذلك- آسفين على حقيقة أنّ الطائرات أكسبتنا تبلداً في الحس تجاه الفضاء، فنحن مثقلون كعشاق في بزّات معدنية.

هذا جليّ لا لبس فيه. ما يهمني هو الاستيقاظ في الصباح، والانتقال بالتدريج من المألوف إلى الخارج عن العادة، مروراً بما يشذ عن المألوف، إلى الأغرب، ثم الأجنبي المحض.

الرحلة هي ما يهم، وليس الوصول، الطيران وليس الهبوط. الشعور بالتعرض للخديعة بتلك الطريقة من كتب السفر الأخرى، والتساؤل عن ماهية ما حرمت منه، جعلني أقرر خوض التجربة بأن أسافر إلى البلاد التي تناولتها كتاب السفر، إلى أقصى الجنوب حيث تسير القطارات من ميدفورد، وماساتشوستس، لإنهاء كتابي حيث تبدأ كتب السفر. ليس ثمة خيار أفضل. أمكنني إدراك ذلك في هذه المرحلة من حياتي ككاتب. لقد أنهيت لتوي رواية، وأمضيت عامين بعيداً عن الأنشطة التي تتطلب الخروج. وجدت أثناء بحثي عن شيء آخر أكتبه، أنني كنت أتخبط كيفما اتفق، بدلاً عن إصابة كبد الحقيقة.

لقد كرهت الطقس البارد. رغبت في بعض الإشراق. لم تكن لدي وظيفة. أين المشكلة؟ لقد درست الخرائط واكتشفت أنّ هناك خطًا متصلًا من منزلي في ميدفورد لغاية هضبة باتاغونيا العظمى في الارجنتين الجنوبية.

وهناك في بلدة إيسكويل، ينتهي خط السكة الحديدية. ليس ثمة خط يصل إلى تييرا ديل فويغو، ولكن هناك الكثير من الخطوط الحديدية بين ميدفورد وإيسكويل.

وأنا في مزاج الترحال هذا صعدت على متن أول قطار يستقله الناس للذهاب إلى العمل. ينزلون هم، فرحلة القطار قد انتهت، وأبقى في مكاني فرحلتي للتو ابتدأت.

\*\*\*\*

في محطة ساوث وبشرتي تغضنت مثل قطعة من قماش الكريب من قسوة البرد، وصل بعض الأصدقاء. وقد جعلهم البخار المتصاعد من أسفل القطار يبدون كما لو أنهم خلقوا من الضباب، وتنتشر أنفاسهم كالسحب.

احتسينا الشمبانيا على كؤوس من الورق، وقفزنا حتى نشعر بالدفء. ظهرت عائلتي في المشهد، ينفخون على الأيدي. في حماسه المعهود، ينسى والدي اسمي، ولكن إخوتي كانوا هادئين، أحدهم كان ساخرا، والآخر يحدّق باتجاه شاب أنيق على المنصة يقول: " إنّه ذرة خزامى[[2]](#footnote-2)، احترس يابول إنّه يصعد!" ركبت ولوّحت إلى من كانوا في وداعي.

بينما كان قطار ليك-شور ينسحب خارج رصيف 15، شعرت كما لو أننا ما زلنا في وضع الاستعداد، كما لو أنّ الجميع سينزلوا قريباً، وسأكون الوحيد الذي يظل على متن القطار حتى نهاية الخط. كانت فكرة لطيفة، لكني احتفظت بها لنفسي. إن سألني أحد الغرباء عن وجهتي، أقول شيكاغو. كان في الأمر شيء من الماورائيات، لقد بدا من النحس، الإفصاح عن وجهتي الحقيقة والرحلة في بدايتها. كنت أيضاً أتجنب استفزاز السائل باسماء سخيفة للمناطق (تاباشولا، ماناغوا، بوغوتا)، أو إثارة فضوله وابتدار حوار أقرب إلى التحرّي. على أية حال، ما أزال في الوطن، وما يزال كل شيء مألوفاً: ظهور صخور المدن البنية المنحنية، وترف أبراج جامعة بوسطن الباذخ، وعبر نهر تشارلز المتجمد، ناطحات هارفارد البيضاء، التي تشبه أيّ منها في هشاشتها تلك محاولة فاشلة لبرج عاجي.

كان الهواء بارداً وصافياً، وقد نقل صوت صافرة القطر إلى أرجاء حي باك باي. تتسم صافرات القطارات الأمريكية بتغيير حلومر في نغمتها، وأقل القطارات أهمية يعزف نغمة الوحدة هذه بإتقان للحالمين على طوال الخطوط.

وهي ما تعرف بالنغمة لثالثة المصغّرة في علم الموسيقى الكلاسيكية: هوو-ويي/ يوو-ويي! وكانت هناك بعض الحركة على الطرق الملحية، ولكن ليس ثمة مشاة. كان الطقس بارداً جداً للسير في أي مكان.

بدت ضواحي بوسطن خالية من السكان: المشهد خالٍ من البشر، كل الأبواب والنوافذ مغلقة بإحكام، وركام الثلج المتساقط مكدّس على جوانب الشوارع الخالية، ويغطي السيارات الواقفة.

مررنا بمحطة بث تلفزيوني مشيدة لتبدو كمنزل ريفي، وببركة بط صناعية، ومستودع أسلحة ذي أسوار رمادية كاذبة، لا تتجاوز عسكريته ما لقلعة مرسومة على ظهر علبة رقائق الذرة التي تجمّع باستخدام المقص والصمغ.

أعرف أسماء هذه الضواحي، لقد زرت هذه المنطقة عدة مرات، ولكن لأنني كنت أقصد وجهة نائية فقد رأيت كل بقعة مررنا بها بالاهتمام ذاته. كما لو أنني كنت أغادر المنزل لأول مرة، وآخرها.

مدركاً مدى فهمي لهذه الأماكن، تشبثت بما كان مألوفاً وتلكأت في التخلي عنها بسبب المسافة. ذلك الجسر، تلك الكنيسة، ذاك الحقل. لا يهزني الرحيل في حد ذاته، بل أشعر أكثر بتباطؤ في استحضار الحزن بينما يمر كل من الأمكنة المألوفة بسرعة عبر النافذة ويختفي، ليصبح جزءاً من الماضي. صار الوقت مرئياً، يتحرك بتحرك المشاهد. تُعرض علي كل ثانية تمر بينما ينطلق القطار، وهو يدغدغ الأبنية بسرعة تبعث فيّ مشاعر الحزن. لي أحد عشر من الأنسباء هنا في فرامينغهام. ثمة أكواخ هنا، وغابات وريفة، وزكائب مغطاة بالثلج على جنبات الهضبة؛ الثلج هنا أنظف مما رأيناه في بوسطن. وبعض من الإنسانية. في هذه الظهيرة الشتوية، كان الأطفال ينحنون متزلجين على زلاجات فوق بركة متجمدة بين المباني المهجورة. بعدها بلحظات اجتزنا حاجزاً طبقياً: منازل ضخمة مستطيلة، بعضها به برك للسباحة معبأة بالثلج. أوقف قطار ليك-شور المحدود الحركة في شارع ماين حيث أوعز الشرطيّ الذي اكتسى وجهه المنتفخ بلون السلامي للسيارات بالتوقف مشيراً بقفازين كمخالب الدب، لم أكن قد ابتعدت كثيراً، وكان بوسعي القفز من على القطار وإيجاد طريقي بسهولة عائداً إلى ميدفورد على إحدى الحافلات. أعرف هذه المناطق جيداً، إلا أنني رأيت أشياء جديدة: نمط مختلف للثلج في الضواحي، أسماء الرفاق على واجهات المتاجر- "والي،" و"ديفز"، و "أينجي"، وبشكل متكرر، أعلام أمريكية- النجوم والخطوط ترفرف على محطات الوقود، والمتاجر الكبيرة على امتداد عدة أمتار، وبرج كنيسة كوعاء الفلفل. لم أذكر أنني قد رأيته من قبل، ولكني لم أندفع مبتعداً عن منزلي هكذا من قبل. إلا إنّ طول الرحلة التي أنوي القيام بها سمح لي بالانتباه للتفاصيل. لكن الأعلام أذهلتني. هل رُفعت فخراً نابعاً من وطنية صادقة، أم تحذيراً للدخلاء، أم زينة في المناسبات الوطنية؟ ولماذا كان هناك علم صغير، يرفرف بإخلاص فوق عمود بباحة ذلك المنزل المتهدم؟ وبسبب هذا بدا الأمر كهوس أمريكي، نوع من تقديس الصور الذي يرتبط عندي بأكثر العقول السياسية تخلفاً.

كان الثلج برونزياً من أثر الشمس الغاربة، وها هي المصانع بدت لناظري ترفع الأعلام وتعلن عن منتجاتها على مداخنها القرميدية العالية: لحوم سيندر المتبّلة، وعلى أخرى، كلمة واحدة ، ومثل مستودع الأسلحة السابق، بأسواره الكاذبة، هنا كاتدرائية ذات ركائز زائفة، وبرج جرس بلا جرس وبعض المنازل ذات الأعمدة التي لا تدعم سقفها، محض زينة زائفة تتكرر في أطلال قصر فقد رونقه. لم يك ثمة إدعاء بعدم زيفه بل إصرار شائع جداً على الجمال في المباني الأمريكية التي روجّت للزيف ليصبح مقبولاً قانونياً في طرز العمارة.

وبين بلدات المصانع الصغيرة- التي تباعدت أكثر فأكثر الآن- ازدادت الغابات الكثيفة حلكة، وجذوع أشجار الصنوبر كانت سوداء، وتتوارى خلفها أشكال المنابر. بينما كنا نقترب من سبرينغفيلد، كان الليل يهبط على التلال العارية، وفي الوديان المغطاة بالجليد ضوء فسفوري ينبعث من الثلج العميق الذي انزلق باتجاه الغدران، وقد اخشوشنت سطوحها من أثر التيار. كانت المياه حاضرة في المشهد باستمرار منذ أن غادرنا بوسطن: البحيرات المتجمدة، والبرك، والأنهار نصف المتجمدة، أو الجداول التي تتناثر على ضفافها أكوام صغيرة من الثلج، وقد تحولت مياهها الجارية إلى حبر في زرقة الغسق. ثم غابت الشمس، وانحدر في إثرها الضوء الذي سال عبر السماء إلى حيث استقرت، والبقع التي أحدثها انعكاس الغابات في النوافذ بدت أفتح لوناً. في الجانب الأقصى من الطريق، رجل يرتدي قفازين صوفيين، يقف وحيداً بجانب مضخات الوقود في محطته، وهو يراقب مرورنا.

لم يطل الوقت قبل أن نصل إلى سبرينغفيلد. لدي ذكريات واضحة للمكان، خروجي من القطار في هذه المحطة في ليلة شتوية، وعبور الجسر الطويل فوق نهر كونكتيكت لأتنقل متطفلاً طوال الطريق إلى امهيرست. كان هناك جليد طافيًا على النهر الليلة، أيضاً، ومنحدرات الغابة المظلمة على الجانب القصيّ، والريح شديدة البرودة. ذكريات المدرسة كانت بالنسبة لي على الدوام ذكريات العوز، ونقص الخبرة، وما عانيته من نفاذ صبر كئيب، وفقر، بالإضافة إلى بعض الأحزان الأخرى. لكن حركة السفر رحيمة. قبل أن أستطيع تذكر الكثير، قبل أن تغرقني هذه البلدة وهذا النهر في ذكرى معينة. صفّر القطار فسّرع دخولي لحالة النسيان الليلي. سافرنا غرباً عبر غابات ماساتشوسيتس، والجليد على الضفاف يكتم قعقعة القطار. ولكن حتى في ذلك الظلام أدركته. لم يكن الليل البهيم، والظلمة المتصلة في أراضٍ نائية أجنبية. بل كان الظلام الذي لا يكتنف سوى الغرباء. كان مساءً عادياً في هذا الوقت من السنة في هذا المكان، وكنت أعرف جميع الأشباح هنا. إنّها عتمة الوطن.

كنت لا أزال في مقصورتي. كنت مخمورًا من أثر الشمبانيا التي احتسيتها في محطة ساوث، ومع إني كنت أحمل نسخة من كتاب النخيل البّري لويليام فوكنر في حجري، إلا أنني لم أقرأ أكثر من ثلاث صفحات. كتبت باستعجال على غلافها الخلفي وجه شرطي مثل السلامي، ومياه في لون الحبر وأعلام. أمضيت ما تبقى من الوقت ووجهي قبالة النافذة. لم أر أي ركاب آخرين- لم أنظر. لم يكن لدي فكرة عمن يسافر على هذا القطار، خلت وأنا في هذه الحالة من الاضطراب، أنَّ هناك ما يكفي من الوقت للتواصل لاحقاً- إن لم يكن الليلة، فغداً في شيكاغو أو بعد غدٍ في تكساس. أو ربما تركت الأمر برمته حتى أمريكا الاسبانية، أو أي مناخ آخر- أجلس هنا أقرأ فقط حتى يتغير الطقس، ثم أخرج للتسكع. ولكن استغلق علي فوكنر، تغلب فضولي على خمولي.

كان هناك رجل في ردهة عربة النوم (كانت عربة النوم الوحيدة على القطار، وكان لها اسم: الأوركيدة الفضية). كان يجلس ويقابل النافذة بوجهه وذراعيه، كان يحدّق، على ما أعتقد، في يتسفيلد أو بيركشاير- حقل من أشجار البتولا كصفحة بيضاء محاصر بين الليل والجليد، وصف من أعمدة السياج تبديه أكداس الركام التي طمرت نصفه تحتها، وأشجار الأرز الصغيرة التي تحاكي أطيافها المصابيح، ورقائق الثلج التي خطت رسماً يقتفي أثر الرياح على لوح الزجاج أمام أنفه.

قال: " هذا مثل قطار الترانس-سيبيريان".

قلت أنا: " لا إنّه ليس كذلك".

فأجفل، وعاد إلى تحديقه. سرت حتى نهاية العربة ولكني شعرت بالسوء لفظاظتي معه. نظرت خلفي ورأيته ما زال في مكانه، يتأمل الظلام. كان شيخاً، وما قاله لي كان يشي باللطف. تظاهرت بالنظر من النافذة أنا الآخر، وعندما قام وسار باتجاهي، كان يؤدي نوعاً من التانغو ليحافظ على اتزانه، على طريقة بعض الناس في السير على متن السفن أثناء العواصف- قلت: " في الحقيقة ليس في سيبريا هذا الكم من الثلج." فمضى في سبيله قائلاً:" حقاً؟". رده اللاذع جعلني أجزم أنني خسرته.

لا يوجد طعام قبل أن نصل إلى الباني، عندما يُلحق قسم من قطار نيويورك يشتمل على عربة طعام بهذا القطار. لذلك اتجهت إلى عربة الاستراحة، واحتسيت الجعة. حشوت غليوني، وأشعلته، لأستمتع بالضبابية الساطعة التي يبعثها الانعكاس الكسول لدخان الغليون فيّ. أحطت نفسي بشرنقة من الدخان، وطافت سحب منه حولي، كثيفة ومريحة للغاية، لدرجة بدت معها الفتاة التي دخلت العربة وجلست قبالتي كطفل تائه في الضباب.

وضعت على طاولتها ثلاث حقائب بلاستيكية منتفخة، ثم ثنت ساقيها تحتها. ولفت ذراعيها في حجرها، وظلت تحدقّ في أسفل العربة كالتمثال. لاحظت توترها. في الطاولة المجاورة رجل مستغرق في قصة مات هيلم[[3]](#footnote-3)، وبقربه اثنان من رجال الخطوط الحديدية- يحملان أدواتهما- ويلعبان البوكر. وثمة صبي يحمل جهاز مذياع لالتقاط بث الموجات القصيرة، ولكن صوته ضاع في خضم الجلبة العالية التي تحدثها حركة القطار. رجل في زيه الرسمي- من العاملين على القطار- كان يقلّب القهوة، ولدى قدميه مصباح زيتي قديم. جلست إلى طاولة موظف القطار، ولكن في صمت، امرأة تختلس قضمات من قطعة حلوى. يطغى عليها شعور بالذنب وهي تفعل ذلك، كما لو خشيت أن يصرخ شخص ما في أي لحظة. "ضعي هذا الشيء جانباً!"

"هلا توقفت عن التدخين؟"

كانت الفتاة ذات الحقائب، والنظرة الحجرية.

بحثت عن لافتة التدخين ممنوع. لم تكن موجودة. قلت: " هل يزعجك؟"

قالت: " إنّه يقتل عينيّ."

وضعت غليوني، وأخذت رشفة من الجعة.

قالت: " هذه الأشياء سامة."

وبدلاً عن النظر إليها، نظرت إلى حقائبها. قلت: " يقولون إنّ الفول السوداني يسبب السرطان."

عبست في وجهي متشفية، وقالت: " بذور اليقطين."

فأشحت بعيداً.

" وهذا لوز."

فكرت في إشعال غليوني من جديد.

" وهذا جوز الكاجو."

اسمها ويندي. كان وجهها قطعة بيضاوية من البراءة، خالٍ من أي تعبير عن التساؤل. حسنها كان بعيداً عن مفهوم الجمال لدي بقدر ما كانت البساطة، وبالتالي لم تثر اهتمامي على الإطلاق. ولكن لا تثريب عليها: من الصعب على أي شخص أن يكون مثيراً للاهتمام في العشرين. كانت طالبة، قالت، أنّها كانت في طريقها إلى اوهايو. ارتدت تنورة هندية، وحذاء لامبرجاك يغطي الساقين، ووزن سترتها الجلدية اضفى على كتفيها استدارة.

" ماذا تدرسين يا وندي؟"

" الفلسفة الشرقية؟ أنا مهتمة بمذهب الِزِن "

قلت في نفسي، يا للمسيح. ولكنها ما زالت تتحدث. قالت إنها تتعلم عن الـ [Hole]أي العمق ، أو ربما [Whole]-الكل. لا تعني أيّة واحدة منهما شيئا بعينه بالنسبة لي. لم تدرس كثيراً، كما قالت، ولم تحظ بمعلمين أكفاء. ولكنها ظنت أنّها حالما تذهب إلى اليابان أو بورما ستتعلم الكثير جداً. ستبقى في أوهايو لبضع سنوات بعد. قالت إنّ ما يهمها في البوذية هو شمولها لحياتك بكاملها. مثل إن كل ما فعلته- لا يخرج عن البوذية. وكل شيء حدث في العالم- هو أيضاً من البوذية.

" ليس السياسة" قلت أنا. " تلك ليست بوذية. إنّها حيل فقط."

"هذا ما يقوله الجميع، ولكنهم على خطأ. لقد كنت أقرأ ماركس. ماركس بوذيٍ على نحو ما."

هل تحاول استدراجي؟ قلت: " ماركس كان بوذياً بقدر ما تكون علبة الجعة هذه. ولكن على أية حال خلتنا نتحدث عن السياسة. إنّها نقيض الفكرة- إنّها أنانية، ضيقة، ومخادعة. كلها أنصاف حقائق واختصارات. ربما قد يغيّر قليل من الساسة البوذيين الأمور،لكن في بورما، حيث...."

" خذ هذه، وأشارت إلى أكياس المكسرات خاصتها. "أنا نباتية أتبع حمية خالية من المطبوخات ومنتجات الألبان. ربما كنت على حق في ما يتعلق بتخطئة السياسة ككل. أعتقد أنَّ الناس مخطئون بشأن جميع الأمور، أعني تماماً. إنّهم يتناولون الأكل غير الصحي. يستهلكون ما يضرهم. انظر إليهم!"

كانت السيدة البدينة ما تزال تأكل قطعة الحلوى، أو ربما قطعة حلوى ثانية. " إنّهم يدمرون أنفسهم فقط، ولا يدركون ذلك حتى. إنّهم يدخنون حتى الموت. انظر إلى الدخان في هذه العربة."

قلت: " بعض ذاك دخاني."

"إنّه يقتل عينيّ".

قلت: "حمية خالية من مشتقات الحليب، هذا يعني أنك لا تشربين الحليب."

" صحيح."

"ماذا عن الجبن؟ الجبن طيب. وتحتاجين الحصول على الكالسيوم."

" احصل على حاجتي من الكالسيوم من جوز عين الجمل." قالت. "هل هذا صحيح؟ على أي حال يسبب لي اللبن المخاط. اللبن هو أهم أسباب المخاط."

" لم أكن أعلم ذلك."

" كنت أستخدم صندوقاً من المناديل الورقية كل يوم."

" صندوق؟ هذا كثير جداً."

قالت:" إنه الحليب. يسبب لي المخاط." "كانت تسيل بشدة لدرجة لا تصدق."

"هل هذا هو السبب في إصابة الناس بالرشح؟ بسبب الحليب؟"

هتفت: "أجل!"

تساءلت عما إذا كانت على حق. أنوف مستهلكي الحليب تسيل. الأطفال يشربون الحليب. لذلك تسيل أنوفهم. وأنوف الأطفال تسيل. ولكن هذه الحجة ما تزال تذهلني. تسيل أنوف الجميع ما عدا هي، على ما يبدو.

" تسبب لك مشتقات الحليب الصداع أيضاً."

"تقصدين إنّها تسبب لك الصداع."

" نعم. مثل تلك الليلة. كانت أختي تعلم أنني نباتية. لذلك تقدم لي الباذنجان بالجبن. لم تعرف أنني أتبع حمية خالية من الأطعمة المطبوخة ومشتقات الألبان. نظرت إليه. وحالما رأيت مطبوخاً وفيه جبن، عرفت أنني سأتوعك. ولكنها أمضت اليوم بطوله في طهيه، لذلك لم يكن لدي خيار آخر. الطريف في الأمر إنني أحببت طعمه. يا إلهي، مرضت بعدها! وبدأ أنفي يسيل."

أخبرتها أنَّ المهاتما غاندي في سيرته الذاتية ذكر أنّ أكل اللحم جعل البشر شهوانيين. وفي عمر الثالثة عشر، الذي يمرح فيه معظم الأطفال الأمريكيين مع فريق ليتل ليغ أو ينكبون على قذف الكرات من أفواههم، تزوج غاندي، وكان نباتياً.

قالت ويندي: " ولكنه ليس زواجاً حقيقياً، كان نوعاً من الطقوس الهندوسية."

" تمت الخطوبة عندما كان في السابعة من العمر. وختمت الصفقة بالزواج. كان كلاهما في الثالثة عشر، وبدأ يعاشرها- مع أنني لست واثقة ما إذا كان على المرء استخدام هذه المفردة لوصف ممارسة حب المهاتما."

تساءلت ويندي. قررت أن أحاول مجدداً. سألت، هل لاحظت انخفاضاً في رغبتها الجنسية منذ أن بدأت تحوّلها إلى الحمية النباتية غير المطبوخة؟

فقالت: " كنت أعاني الأرق، والمرض- أعني المرض الشديد. وأقرّ إني كنت أفقد القدرة على التحكم بالغضب. أعتقد أنّ أكل اللحوم يجعل الناس عدائيين."

"ولكن ماذا عن الرغبة الجنسية؟ الغلمة، الشبق- لا أدري ماهي الكلمة المناسبة."

" هل تعني الجنس؟ ليس من المفترض أن يكون عنيفاً. يجب أن يكون لطيفاً ورائعاً. وفيه هدوء." قلت لنفسي، ربما إن كنت نباتية. ما زالت تثرثر بطريقتها المتحذلقة كطلاب الجامعات.

" أفهم جسدي أفضل الآن... لقد بت أفهم جسدي جيداً للغاية. يا صاح، أستطيع معرفة ما إذا كان هناك فرق طفيف في معدل السكر بدمي. أشعر به يرتفع وينخفض، مستوى السكر بدمي. عندما أتناول أشياء معينة."

سألتها ما إذا تعرضت للمرض الشديد قط. قالت لا على الإطلاق. هل شعرت بتوعك بسيط؟ كانت إجابتها استثنائية: " لا أؤمن بالجراثيم."

قلت في دهشة: " هل تعنين أنك لا تؤمنين بوجود الجراثيم؟ هل هي مجرد وهم بصري تحت المجهر؟ غبار، بقع صغيرة- وأشياء من هذا القبيل؟"

" لا أعتقد أنّ الجراثيم تسبب المرض. الجراثيم كائنات حية- كائنات صغيرة حية لا تسبب أي ضرر." قلت:"مثل الصراصير والذباب، مخلوقات صغيرة ودودة؟"

كانت مصممة: " الجراثيم لا تصيبك بالمرض. الطعام هو الذي يفعل. إن أكلت طعاماً سيئاً سيضعف أعضاءك، وستمرض. إنّها أعضاؤك التي تصيبك بالمرض. قلبك، وأمعاؤك."

" ولكن ما الذي يصيب أعضاءك بالمرض؟"

" الطعام الضار. إنّه يضعفها. إن أكلت طعاماً صحياً مثلما أفعل" قالت وهي تشير إلى بذور اليقطين، "سوف لن تمرض. مثلما لا أمرض أنا. وإن أصبت بالرشح والتهاب الحنجرة، لا أسميه بردا."

" ألا تفعلين؟"

"لا، لأنّه بسبب أكل شيء ضار. عليه آكُل شيئاً صحياً." قررت أن أتخلى عن استفساري حول المرض كونه مسألة رشح، وليس سرطاناً، أو طاعوناً دبلياً. قلت لنفسي، لننتقل إلى التفاصيل. ماذا لديها من طعام لذلك اليوم؟

" هذه بذور اليقطين، وعين الجمل، واللوز. موزة، وتفاحة. وبعض الزبيب. شريحة خبز من القمح الكامل- محمصة. إن لم تحمصها تصاب بالرشح."

" ربما كنتِ تشنين حرباً على الذواقة، هه؟"

قالت: " أعرف أنّ لدي آراء أصولية جداً"

قلت:" لم أكن لأصفها بالأصولية، إنّها آراء متعجرفة، متغطرسة. بوسعك القول إنّها أنانية. تكمن الطرافة في إنها بكونها متغطرسة وأنانية وتفكيرها في الصحة، والنقاء طوال الوقت قد تحوّلك إلى الفاشية. *حميتي الغذائية، وأمعائي*. ونفسي- إنّه أسلوب حديث الناس من جناح اليمين. ربما الشيء التالي الذي ستهذين حوله هو نقاء العرق." تنازلت متحولة إلى النقيض: " أقرّ بأنّ بعض آرائي متحفظة. لكن ماذا بعد؟"

" حسناً، أولاً، بعيداً عن أمعائك، هناك عالم كبير. الشرق الأوسط. قناة بنما. السجناء السياسيون الذين تُنزع أظافرهم في إيران. الأسر التي تتضور جوعاً في الهند."

لم يؤثر عليها ما قلته كثيراً، بيد أنّه جعلها تتحول إلى موضوع الأُسر- ربما كان السبب ذكر الهنود الجائعين. قالت إنّها كانت تكره الأُسر. لم تستطع فعل شيء حيال الأمر، فقط كانت تكرهها.

قلت: " بماذا تذكرك الأسرة؟" " سيارة عائلية، أم، أب، أربعة أو خمسة أطفال يتناولون الهامبورغر. إنّها فظيعة حقاً إنهم في كل مكان- ينتشرون، ويتجولون في المكان."

" إذن تعتقدين أنّ الأُسر لطخة على المشهد؟"

قالت: " حسناً، نعم."

كانت تدرس في هذه الكلية في أوهايو لثلاث سنوات. لم تأخذ خلال تلك الفترة دورة تدريبية في الأدب قط. والأغرب من ذلك أنّها كانت أول مرة تستقل القطار في حياتها. لقد أحبّت القطار كما قالت، ولكنها لم تصرّح.

تساءلت عما كانت طموحاتها.

قالت: "أعتقد أنني أود العمل في مجال الطعام. أدرّس الناس حول الطعام. ماذا عليهم أن يأكلوا. وأخبرهم لمَ يمرضون. "

كان هذا صوت المفوّض، وبعدها بلحظة قالت بصوت حالم،

" أحياناً أنظر إلى قطعة جبن. وأعلم إنّها طيبة المذاق. أعلم أنني سأحبها. ولكني أعلم أيضاً أنني سأشعر بتوعك في اليوم التالي إن أكلتها."

قلت: " هذا ما أفكر به عندما أرى قارورة شمبانيا كبيرة، فطيرة أرنب، وطبقًا من الفطائر المحشوة بالقشدة مع صوص الشيكولاتة."

في ذلك الوقت لا أعتقد أنّ ويندي كانت مجنونة بالمعنى الجدّي للكلمة. لكن بعدها، وعندما تذكرت حوارنا، بدت لي مجنونة للغاية، وغافلة تماماً. لقد ذكرت لها بشكل عرضي أنني زرت بورما العليا، وأفريقيا. ووصفت لها حب ليوبولد بلوم[[4]](#footnote-4) "لنكهة البول الخفيفة" في قطع الكُلى التي تناولها على الإفطار. أظهرت لها معرفة بالبوذية وعادات الأكل لدى الأقزام في كالهاري، وحياة غاندي الزوجية المبكرة. كنت شخصاً مميزاً جداً، ألم أكن؟ ولكنها لم تسألني سؤالا واحداً خلال حوارنا كله. لم تسأل ماذا أعمل، ولا من أين جئت، ولا إلى أين أتجه. وعندما لم أكن أطرح عليها الأسئلة من جانبي، كان الحوار منولوجاً من جانبها. كانت تتفوه بتعميمات وردية بصوتها ذي الرجفة المحببة، وتسحب ساقيها مرة أخرى إلى وضع زهرة اللوتس عندما تنزلقان حرتين، لقد كانت نموذجاً للاستغراق في النفس والدعاية الذاتية في أتم صورهما. كانت ترى الأنانية بوذية. مازلت أحبّ براءة طلاب الجامعة الأمريكيين، لكنها ذكرتني بعدد ممن أعرف أنّهم كانوا غير مستعدين للتعلّم.

لابد أنّ الحديث عن الطعام كان بسبب تأخر الوقت، وشعوري بالجوع. ولكن ها نحن قد وصلنا إلى الباني. استأذنت، وهرعت إلى عربة الطعام التي أُلحقت لتوها بالقطار. كانت الأميال التالية تأريخية: كان القطار يتنقل بين ألباني وشنيكتادي لمدة 150 عاماً، منذ إنشاء خط الموهوك وهدسون الحديدي، الأقدم في أمريكا. وبعده، المسار الذي يليه ويسمى بقنال إري. كان هو الخط الحديدي الذي أخرج القنوات، والطرق المائية من سوق العمل، على الرغم من أنّ فعالية الخطوط الحديدية كانت موضع نزاع مرير بين الشركات المنافسة. ولكن الحقائق كانت واضحة لا خلاف عليها: في خمسينيات القرن التاسع عشر كان القطار يستغرق 14 يوماً ونصف ليصل إلى شيكاغو من نيويورك عبر الماء، أما عبر الطرق الحديدية فقد كان يستغرق ستة أيام ونصف.

قدمت وجبة آمتراك بسرعة، على يد نادل يحمل منشفة. شطيرة لحم صببتُ عليها صوص التباسكو، وكان هذا هو انتقامي من ويندي، وتفضيلها الالفا الفا النيئة. وبينما كنت آكل، جلس مدير المبيعات واسمه هوريس تشيك (كان يبيع معدات لصنع لصور الفوتوغرافية على رخص القيادة)، وتناول شطيرة هامبورغر. كان هو الآخر يتحدث وحده، لكن دون أن يؤذي أحداً. وكان يصدر صفيراً من الفتحة بين أسنانه الأمامية في كل مرة يحاول فيها توضيح أهمية نقطة ما.

كان يمضغ ويثرثر.

" جميع الطائرات ممتلئة. صفير. لذلك أخذت القطار. لم أستقل هذا القطار من قبل. ببساطة. صفير. الثالثة صباحاً. وها نحن في روشستر. سآخذ تاكسي للمنزل. زوجتي ستغضب بشدة إن اتصلت بها في الثالثة صباحًا من المحطة. المرة التالية سآخذ الأطفال. سأنزلهم. صفير. سأتركهم يركضون. الطقس حار هنا. أحب البرد. سبعة وستون، ثمانية وستون. تكره زوجتي البرد. لا أستطيع النوم. أذهب إلى النافذة. و، صفير، أفتحها، فتصرخ في وجهي. تستيقظ وتصرخ فقط، صفير. معظم النساء هكذا. إنّهن يحببن الطقس أكثر دفئاً بأربع درجات عن الرجال. صفير. لا أعلم ما السبب. الأجسام. الأجسام مختلفة، منظمات الحرارة مختلفة. هل هذا أفضل من القيادة؟ تراهن على ذلك! القيادة! ثماني ساعات، أربعة عشر كوباً من القهوة. صفير. إلا أنَّ هذا الهامبورغر. أتذوق الحشو. أيها النادل!"

ثمة ثلج وجليد بالخارج. لكل شارع عمود إنارة خاص به، وأمامه تماماً، بقعة مستديرة من الثلج- ولا شيء آخر. في منتصف الليل، رأيت وأنا أنظر من مقصورتي، منزلاً أبيض اللون على هضبة. كان في كل نافذة من نوافذ هذا المنزل مصباح مضاء، وبدت هذه النوافذ الساطعة كأنّها تزيد من حجم المنزل في الوقت ذاته تخون فراغه. في الساعة الثانية من الصباح التالي، اجتزنا سرقوسة. كنت نائماً، أو ربما جرفتني الذكريات. ولكن اسم المدينة على جدول مواعيد آمتراك المرفق مع وجبة الإفطار ذكرني بأمطار سرقوسة الغزيرة، و لقاء بالصدفة في حانة أورانج مع الشاعر المغمور آنذاك ديلمور شوارتز[[5]](#footnote-5)، وقاعة الدرس (كان تدريباً لقوات حفظ السلام، وكنت أتعلم الشينيانجا[[6]](#footnote-6)) التي سمعت بها خبر اغتيال كينيدي، وذكرى مزعجة عن السيدة المختصة في علم الأنسنة ، والتي لم تقتنع بحماستي، ماتت لاحقاً- ليس لهذا السبب- ميتة عنيفة عندما هوت على سيارتها شجرة فقتلتها هي وعشيقتها- معلمة رياضة دخلت معها في علاقة مثلية.

تركنا مدينة بوفالو وقنال إري خلفنا، أيضاً، ولم يكن هذا سيئاً. لقد استيقظت في مقصورتي، ووجدت الطقس حاراً، تشققت شفتاي، وتسلخت أناملي. ولكن كانت هناك حواجز من البخار الكثيف بين العربات، حيث الطقس شديد البرودة، والجليد على نوافذ عربة الأكل.

مسحت الثلج، لكني لم أر سوى الضباب الرمادي المزرق الذي غبّش المشهد بإشراق غائم. توقف القطار في هذا الضباب الخفيف. ولعدة دقائق، لم يحدث شيء. ثم في ذلك الضباب بدا جذع شجرة يتجلى. نزفت خيطاً من اللون البرتقالي، وتوسّع هذا الخيط، إلى زخة، تزايدت، وصبغت اللحاء المتحلل مثل جرح يتسرب لونه في ضمادة رمادية. ثم أضاء الجذع كله، وتوهجت من خلفه عناقيد العشب، وفجأة، الأشجار. سرعان ما سرت نار الفجر تلمع في الحقول، وعندما نضح المشهد بالضوء- الجذع والأشجار والثلج- تحرّك القطار.

قالت سيدة على الطاولة المجاورة: " أوهايو".

بدا زوجها منزعجاً، في قميصه الأصفر الواسع، وقال: " إنّها لا تبدو كأوهايو."

أعرف ما كان يقصده.

قال النادل: " نعم، تلك أوهايو، حسناً. سنكون في كليفلاند قريباً. كليفلاند، أوهايو." هناك وراء القضبان مباشرة توجد غابة من الأغصان المغطاة بالثلج، وأشجار حور ثلجية، مثل أشباح أشرعة، وصوارٍ في بحر من الجليد. تضخم الدردار والزان في مشاهد ثلجية صافية من الدانتيل المبعثر. والثلج المستوي الذي كنسته الرياح، بخصلات شعر من العشب المتكسر مدفون حتى أطرافه. إذن حتى أوهايو، مغطاة بالثلج، قد تكون أرض الأحلام.

غرق القطار في ضوء الشمس وبدا أشد خواءً. لم أر السيد تشيك، أو أسمع صفيره؛ و ذهبت ويندي، آكلة الأطعمة النيئة. بدا لي هنا- ولم أك بعيدا جداً عن منزلي- كأنَّ المزيد من المألوف ينسرب بعيداً. لم أحبّ في الحقيقة أيًا منهما، ولكني الآن أفتقدهما. بقية الأشخاص على القطار كانوا غرباء.

التقطت كتابي. غافلني النوم بينما كنت أقرأه الليلة الماضية، ما زال هو النخيل البريّ، وما زال مبهماً. ما الذي دفعني للنوم؟ ربما هذه الجملة، أو بالأحرى، نهاية الجملة الطويلة المتلتوية: " كان ضريح الحب، والنعش النتن للجثة الميتة المحمولة بين شخوص الخالدين السائرين على الأقدام، الأنجاس عديمي حاسة الشم، الذين يطالبون باللحم البالي."

لم أكن متأكدًا مما كان فوكنر يرمي إليه، إلا إنّه بدا لي وصفًا منصفًا للسجق الذي كنت آكله في وقت مبكر من ذاك الصباح في أوهايو. كان ما تبقى من الإفطار شهياً- بيض مخفوق، وقطعة لحم، وثمرة ليمون هندي، وقهوة. قبل سنوات، لاحظت كيف تعكس القطارات ثقافة البلد بدقة. كان للبلد المنكوب البائس قطارات منكوبة وبائسة، والشعب الفخور الكفء بالمثل ينعكس على وسائل النقل فيه، كما هو الحال في اليابان. هناك أمل في الهند لأنّ القطارات تعتبر أكثر أهمية من عربات الجر التي يقودها بعض الهنود. عربات الطعام، كما عرفت، تحكي القصة كلها (وإن لم يكن بالقطار عربة طعام، فإنّ البلد غير جدير بالاهتمام): كشك الشعيرية في القطار الماليزي، البورشت والتصرفات المشينة في القطار العابر لصحراء سيبيريا، السمك المدخن والخبز المقلي على الطائر الاسكتلندي، هنا في ليك شور المحدود التابع لشركة آمتراك تحققت من قائمة الأفطار واكتشفت إمكانية طلب بلودي ماري، أو سكرودرايفر[[7]](#footnote-7)- " قائمة خيارات صباحية"، كما وُصف ذلك الحقن الصباحي للفودكا في جسمي. ليس ثمة قطار آخر في العالم يمكّن الراكب من طلب شراب قوي في تلك الساعة من الصباح. كانت آمتراك تحاول جهدها. بالقرب من قطعة الخبز المحمص خاصتي، مطوية آمتراك التي تقول إنّ المسار التالي من الرحلة سيكون مستقيماً تماماً لمسافة 133 ميلاً- ليس ثمة منحنيات في أي جزء منه. فنسخت جملة فوكنر الدموية تلك بدون أن يندلق حبر قلمي بسبب تمايل القطار. وبحلول منتصف الغداة، تجمد ذلك البخار الذي رأيته بين العربات.

كان البخار يتصاعد من كل ممرات القطار مثل ثلاجة فائقة بطبقات معقدة من الصقيع تغطيها، وفقاقيع صلبة من الثلج، وبخار جديد ينصب عبر شقوق الغلاف المطاطي. كان جميلاً، هذا الثلج، والجليد، وليس أجمل من الخارج، لكنه كان مزعجاً أيضاً. تجاوزت الساعة الآن الحادية عشرة، ولم نصل إلى كليفلاند. أين كانت كليفلاند؟ ولم أكن الوحيد الذي يشعر بالحيرة. فوق وتحت القطار، كان الركّاب ينبهون المحصّلين ويقولون لهم:" ماذا حدث بخصوص كليفلاند؟ قلتم من المفترض أن نكون هناك بحلول هذا الوقت. ما القصة؟" إلا أنَّ كلفيلاند قد تكون الآن خارج النافذة، مطمورة تحت الجليد. كان محصلّي ينحني على نافذة متجمدة. أردت أن أسأله عما حدث بشأن كليفلاند. ولكن قبل أن أتمكن من الحديث، قال: " أنا أبحث عن عامل التحويلة"

"أثمة خطب؟"

"أوه لا، فقط كل مرة نمر بهذه المنطقة كان يرمينيبِكرة ثلج."

" بالمناسبة، أين كليفلاند؟"

" بعيدة جداً. ألم تعرف أننا كنا متأخرين أربع ساعات؟ التحويلة المتجمدة عند قنال إيري عطلتنا."

" علي اللحاق بقطار الرابعة والنصف بشيكاغو."

" سوف لن تنجح أبداً."

قلت:" جميل." وحدقت بعيداً.

" لا تقلق، سأبعث ببرقية مبكرة من مدينة إلكهارت. وعندما نصل إلى شيكاغو، سوف ألقي بالأمر برمته بين يدي آمتراك. سيضعونك في فندق هوليداي إن. ستكون بخير." " ولكني لن أكون في تكساس."

" أترك لي هذا الأمر سيدي." ولمس بيده مقدمة قبعته. " هل رأيت ثلجاً كهذا قط؟ يا إلهي، إنّه فظيع." نظر خارج النافذة مرة أخرى، وتنهد. " لا أستطيع تخيل ما قد حدث لموظف التحويلة ذاك. ربما تعرض لعضة صقيع."

مضت ساعات قبل أن نصل إلى كليفلاند، وكما هو الحال في معظم حالات التأخير، تسبب بطء وصولنا بخيبة أمل. شعرت أنني فكرت في الامر بالقدر المستحق. والآن، أصابني الثلج بالملل، والبيوت بالكآبة- كانت أكواخ صغيرة، ليست أكبر من السيارات المتوقفة إلى جانبها.

الطرفة الكبرى تمثلت في أنّ كليفلاند، التي حاصرتها العاصفة الثلجية في الأسبوع الماضي، كانت تبث برامج إذاعية عن تقنيات النجاة في المنزل. معلومات، كما قد يخاله أحدهم، ترحيباً بمستكشفي القارة القطبية- حول أكياس النوم، وحرارة الجسم، والحفاظ على دفء المرافق العامة في أوقات الطواريء، والطبخ على مواقد ستيرنو المعلّبة، وما إلى ذلك- إنَّ هذه المدينة، المتجمدة تحت ركام الثلج، كانت تروج لنفسها بالقصة الطويلة تاجر كليفلاند البسيط، والتي تتحدث عن افتقار الروس الشائه لمهارة إزالة الثلج. الروس! تحت عنوان لطخة على تاج موسكو لإزالة الجليد، ,تبدأ القصة مع خبر موسكو. تبدأ القصة كالتالي: " عرفت هذه المدينة من قبل بمهارات إزالة الثلج التي تبددت بشكل خطير هذا الشتاء بسبب تركيبة من تضافر الأخطاء البيروقراطية وهبوط الثلج المفاجيء بغزارة."

واستمرت القصة بذات الأسلوب الشامت:" المشكلة على ما يبدو لا تكمن في عدم وجود معدات خاصة...يشتكي السكان بمرارة هذا الشتاء من حالة الحزن التي أصابت الشوارع... وما زالت ثلوج ديسمبر الغزيرة، والقصور في اللوائح المنظمة لإيقاف السيارات تبدو ذريعة واهية لانسداد الشوارع الذي استمر لأسابيع عدة." إنّها عجرفة الغرب الأوسط. وحتى تتعجرف في أوهايو لابد أن تأتي على ذكر الروس. ويا حبذا لو ذكرت سيبريا، التي تشببهها أوهايو في فصل الشتاء كثيرًا والحق يقال. قرأت قطعة أخبارية في كليفلاند. قرأت تاجر كليفلاند البسيط كلها. تأخرنا في كليفلاند ساعتين تقريباً. وعندما سألت المحصّل عن السبب، قال إنّه الثلج، وإنًّ القضبان انبعجت بسبب الثلج. "إنّه شتاء سيء حقاً."

أخبرته أنّ القطارات في سيبريا تعمل وفق الوقت المحدد لها.

لكنها كانت وضيعة وبائسة و.كنت لأختار كليفلاند عوضاً عن إركتسك في أي وقت، حتى إن كانت كليفلاند أقسى برداً-وكان هذا واضحاً. ذهبت لعربة النادي، وطلبت شيئاً من قائمة اخترني الصباحية، واستأنفت قراءة النخيل البريّ. ثم طلبت شيئاً من قائمة اخترني مجدداً، وأتبعته بآخر. فكرت في الرابع وطلبته، ولكني قررت أن أرتشفه على مهل. إن تناولت المزيد من هذه القائمة فسأصل إلى حد الثمالة.

" ماذا تقرأ؟"

كانت سيدة خمسينية بدينة في وجهها نمش، تحتسي التونيك الخالي من السكر من علبة معدنية. أريتها العنوان.

قالت: " لقد سمعت عنه. أجيد هو؟"

"له مميزاته."

ثم ضحكت. ولكن لا علاقة لفوكنر بذلك. كان لدي ذات مرة على قطار آمتراك- وليس على مسافة بعيدة من هنا- كتاب لم يسأل عنه أحد، إلا أنّه أثار اهتماماً كبيراً. كان سيرة ذاتية لكاتب حكايات رعب. هـ ب. لفكرافت، وعنوانه Lovecraft [[8]](#footnote-8)، فأخذ رفاقي من الركاب يعتقدون -طوال الرحلة التي استمرت يومين- أنني كنت أدسُّ أنفي في كتاب عن الأساليب الجنسية.

كانت من فلاغستاف، قالت: " ومن أين أنت؟"

" بوسطن"

"حقاً" كانت مستغربة. قالت: هلا طلبت منك شيئاً فقلته؟ قل G-o-d"

" God"

فصفقت بيديها مبتهجة، كانت ذات حجم صغير على الرغم من بدانتها، صغيرة جداً ولها وجه عريض مسطّح. كانت أسنانها محدودبة، مائلة جميعها، كما لو كانت قد سويت بمبرد. كنت مندهشاً للسعادة التي منحتها إياها بقول الكلمة. قالت تحاكي لهجتي: " Gawd، ماذا تقول؟"[[9]](#footnote-9)

" أقول:gahd"

" أنا متأكدة أنّه يفهم."

"لقد أحببت سماعك تقولها. كنت على هذا القطار منذ أسبوع مضى. متجهة إلى الشرق. كنا متأخرين بسبب الثلج، ولكنها كانت رحلة رائعة. لقد أنزلونا في فندق هوليداي إنّ!"

" آمل ألا يفعلوا ذلك معنا."

" لا تقل ذلك"

"لست ضد فندق هوليداي في شيء، فقط علي أن ألحق بقطار ما."

" ونحن كذلك. أراهن على أنّ وجهتنا أبعد من وجهتك- فلاغستاف، أتذكر؟" أخذت رشفة أخرى من مشروب التونيك وقالت، "في النهاية تطلب الأمر أياماً- أياماً- من نيويورك إلى شيكاغو. كان الثلج في كل مكان! وكان هناك صبي على القطار، من بوسطن. لقد كان يجلس على المقعد بجانبي." ابتسمت- نظرة شقية لكن متحفظة نوعاً ما. " لقد نمنا معاً."

" كان هذا حظاً."

" أعلم ماذا تظن، ولكنه ليس كذلك. كان على جانبه وكنت على جانبي. لكن" – بدت تقية- " نمنا معاً، يا له من وقت. لم أشرب، لكنه كان ثملاً بما يكفي لكلينا. هل أخبرتك أنّه كان في السابعة والعشرين من العمر؟ من بوسطن. وكان يقول لي طوال الليل: " يا إلهي، أنتِ جميلة،" وقبلني، لا أدري كم. " يا إلهي، كم أنتِ جميلة."

" أكان هذا في فندق هوليداي؟"

قالت: " على القطار. واحدة من الليالي في عربة المقاعد. كانت ليلة غالية على قلبي جداً."

قلت إنّها تبدو تجربة رائعة، وحاولت تخيلها، الرجل الشاب المخمور يتحسس هذه المرأة البدينة ذات النمش بينما عربة المقاعد تغط في شخيرها (برائحتها- المعتادة ليلاً-التي تفوح من الجوارب القديمة، والشطائر الفاسدة(.

" ليس لطيفاً فقط. بل كان مهماً. كنت أحتاجه وقتها، وهذا هو سبب رحلتي للشرق."

" للقاء هذا الرجل؟"

"لا، لا" قالت بتأثر:" توفيت والدتي."

"أنا آسف."

"عرفت بالخبر في فلاغستاف، ولحقت بالقطار. ثم حوصرنا في شيكاغو، إن كنت تحسب النزول في فندق هوليداي حصاراً! قابلت جاك بالقرب من توليدو- حوالي هذا المكان تقريباً، إن كانت هذه توليدو." نظرت من النافذة. " يا إلهي، إنّك جميلة حقاً." لقد أبهجتني فعلاً. جاءت في وقت تزاحمت عليّ فيه الهموم."

" تعازيّ. لابد أنّ الذهاب للمنزل لحضور جنازة أمر محزن للغاية."

قالت:" بل جنازتان."

"عفواً؟"

" توفي والدي أيضاً."

"مؤخراً؟"

"الثلاثاء"

كان هذا يوم السبت. قلت: " يا إلهي."

ابتسمت هي. "أحب أن أسمعك تقول ذلك."

" أعني، إنّه خبر مؤسف عن والدك."

" كان صدمة. ظننت أنني ذاهبة للمنزل لجنازة أمي، ولكني اكتشفت أنّ كليهما توفى." قال والدي: "اكثري من زيارتك للمنزل يا عزيزتي." وقلت سأفعل. فلاغستاف بعيدة، ولكني لدي شقتي الخاصة، وأجني قدراً لا بأس به من المال. ثم توفى."

"رحلة حزينة."

"وعلي العودة. لم يستطيعوا دفنهم. علي العودة لمراسم الدفن."

"كنت أعتقد أنّهم دُفنوا بالفعل."

نظرت لي بحدة. " إنّهم لا يستطيعون دفن الناس في مدينة نيويورك."

سألتها أن تعيد عليّ هذه الجملة الغريبة. ففعلت، بالنبرة ذاتها.

قلت: " يا إلهي"

ابتسمت: " أنت تتحدث مثل جاك."

يا لها من أسنان غريبة لجدة من الأسكيمو. " لم لا يستطيعون دفن الناس في مدينة نيو يورك؟" " الأرض قاسية جداً. إنّها متجمدة. لا يستطيعون الحفر..."

قلت لنفسي، *في شتاء عام 78 الشديد وعندما كانت الأرض قاسية جداً لم يستطيعوا دفن الناس، وكانت المشارح مكدّسة حتى العوارض الخشبية، قررت أن استقل القطار إلى الأجزاء المشمسة من أمريكا الاسبانية...*

ذهبت سيدة فلاغستاف إلى حال سبيلها، ولكن على مدى الثماني أو التسع ساعات التالية، كنت أسمع صوتها الخافت، الجاف مثل كعكة الذرة وهو يكرر ببطء، " لأنّهم لا يستطيعون دفن الناس في مدينة نيو يورك." مرتان، عندما رأتني، قالت "Gawd!"وضحكت.

التحويلة المتجمدة، والقضبان المنبعجة، والثلج: كنا متأخرين، ومحصّلي مصمم على عدم وجود أمل في الوصول بالوقت المحدد، أو تحويل مساري إلى فورت ورث. قال في إحدى محطات إنديانا: " ليس لديك فرصة لأي منهما ولا في الجحيم." كان يحمل كرة ثلج. وكانت هناك مشكلة جديدة. تعرضت إحدى العجلات لحرارة مفرطة، فانفجرت المنصهرة ( أعتقد أنني فهمت هذا الأمر على الوجه الصحيح)، وكانت هناك رائحة غاز فاترة تتسرب من ذيل القطار. خُفضت سرعة القطار حتى15 ميلا في الساعة تقريباً لتفادي وقوع انفجار، وظللنا نزحف هكذا حتى سنحت الفرصة لفصل العربة المتضررة من قطار ليك-شور المحدود. تسنى لنا في إلكهارت التخلص من هذه العربة المتضررة، ولكن العملية استغرقت وقتاً طويلاً دون مبرر.

أثناء وقوفنا، كانت الأمور هادئة في عربة النوم، الأوركيدة الفضية. المحصّل وحده الذي كان مزعجاً. قال إنّ البخار كان يتجمد ويخنق المكابح. كان يركض جيئة وذهاباً في جدية بادية، وهو يحمل مكنسة دفع، وأخبرني أنّ عمله هذا أفضل بكثير من الوظيفة السابقة. كان يجلس على مكتب في شركة إلكترونيات، " لكني كنت أفضل التعامل مع الجمهور." " المشكلة فيك" قال جامع التذاكر، الذي شاهد تصاعد قلق المحصّل، " إنه استباقك القدر قبل وقوعه." " ربما كان الأمر كذلك." ضرب المحصّل المكنسة على الثلج الذي تجمّع بداخل الباب. " مع ذلك ليست بأسوأ من الرحلة الأخيرة. كانت تلك موزة متجمدة."

قال المحصّل: " لدي ركابي لأفكّر بهم." ركّابي!. كان هناك ثلاثة منا في الأوركيدة الفضية- آل بانس وشخصي الضعيف. أول شيء قال لي السيد بانس، إنّ أهل أمه كانوا على باخرة مايفلاور. ارتدى السيد بانس قبعة بأغطية للأذنين، وأحاط جسده بكنزتين. لقد أراد الحديث عن عائلته وكيب كود. قالت السيدة بانس إنّ أوهايو كانت أقبح من كيب كود.

كان بانس يلتقي في النسب بهوغوينوت أيضاً. رأيت بانس العجوز من ناحية ما مملًا بصورة غير عادية. يتباهى الأمريكي خاصة بما كان عليه أسلافه المهاجرون من عوز وفقر. إلا إنّ السيد بانس كان عظيماً منذ البداية. استمعت بقدر ما استطعت من الصبر. وربما، اعتقدت، كان هو بانس الذي أسأت إليه في ذلك اليوم الأول. ("هذا يشبه القطار العابر للصحراء السيبرية" "لا، إنّه ليس كذلك"). بعدها صرت أتجنب آل بانس.

وفي إلكهارت أيضاً ساد رعب كبير بين ركاب قطار ليك شور المحدود. يعرف الجميع الآن أني قد أفوّت قطاري في شيكاغو. ثمة مجموعة كبيرة من الفتيات العازبات يتجهن إلى نيو أورليانز، وماردي غراس. كان على بعض الأزواج المسنين اللحاق بعبّارة رحلات بحرية في سان فرانسسكو: كانوا قلقين جداً. ورجل شاب من كنساس قال إنّ زوجته ستظن إنّه هجرها للأبد. وهمس زوجان من السود، وسمعت فتاة سوداء تقول:" أوه، التقط الصورة." واحدة من فتيات ماردي غراس نظرت إلى ساعتها وقالت:" كنا لنحتفل في هذا الوقت."

أثّرت السيدة من فلاغستاف، التي توفى والداها للتو، في هذا المزاج ليتحول إلى احتفالي، وعلى الأقل، مدعاة للاحتفال. لقد أوضحت أنّها كانت على متن القطار متجهة إلى الشرق قبل عشرة أيام فقط. وقد حدث الشيء ذاته، تأخير، وثلج، وتفويت مواعيد. فاستضافت شركة آمتراك الجميع في فندق هوليداي في شيكاغو وأعطت كل واحد قسيمة للوجبة، وأربعة دولارات أجرة التاكسي، ومكالمة هاتفية واحدة مجاناً. قالت، إنّ آمتراك قد تفعل الشيء ذاته هذه المرة.

انتشرت الأخبار في أرجاء القطار كدليل على حسن نوايا آمتراك، وتم الإعلان عن وجبة مجانية في عربة الطعام: حساء، ودجاج مقلي، ومثلجات الفانيلا. وقد برر هذا ما قالته سيدة فلاغستاف التي تخلت عن حزنها وقالت: " وانتظر حتى نصل إلى شيكاغوا!."

في أماكن أخرى كان الركّاب ينفقون دولارات سيارة الأجرة الأربعة التي لم يُمنحوها بعد.

" حسنًا، رالف" قال صبي ذو شعر مدهون لساقي الحانة، ووضع دولاراً واحداً.

"هيا نثمل."

" لقد كنا نجلس هنا لثمانِي ساعات"

قال الأعلى صوتاً من بين الشبان الثلاثة.

" نحن سُكارى بالفعل"

قال رالف الساقي: " أنا أعمل وقتاً إضافياً."، ولكنه بدأ وضع مكعبات الثلج في الأكواب البلاستيكية طائعاً مختاراً.

كانت هناك أصوات أخرى. هذا: " لا تذهب للمنزل في الربيع أبداً. الأمر لا يستوي أبداً." وهذا:" يسوع المسيح" (فترة صمت) "كان أسوداً كأثيوبيّ. قسمات بيض، ووجهٍ ملون." " (صمت) " جميع الأوصاف العادية محض هراء."

ومرة أخرى:" ..لأنهم لا يستطيعون دفن الناس في نيويورك." كانوا جميعاً سعداء بشدة.

كانوا جميعهم سعداء على نحو مخيف. سعداء بالتأخير، وفرحون بالثلج (بدأ يتساقط مرة أخرى)، واحتفوا هم بوعود قطعتها سيدة من فلاغستاف عن ليلة أو ربما اثنتين في فندق هوليداي. أما أنا فلم أشاركهم المرح، ولم أشعر بالتعاطف مع أي منهم، وعندما اكتشفت أنَّ العربة التي ستفصل تقع بين الأوركيدة الفضية وهذا الحشد، أخبرت المحصّل أنني سأعود لفراشي. " ايقظني عندما نصل إلى شيكاغو."

" قد لا نصل إلى هناك قبل الساعة التاسعة."

قلت: " رائع"، ورحت في سبات عميق وعلى وجهي كتاب النخيّل البريّ.

أيقظني المحصّل في التاسعة إلا عشر دقائق. " شيكاغو!" قفزت، وجذبت حقيبتي. وبينما كنت أهرول مسرعاً على الرصيف، عبر وسائد البخار المنبعثة من جانب القطار التي أضفت على وصولي هالة من غموض ومجد الأفلام القديمة، إبر الثلج تبلورت على عدسات نظارتي، فاستطعت أن أرى بالكاد.

كانت فتاة فلاغستاف على حق تماماً. مُنحت أربعة دولارات، وسريراً في فندق هوليداي، وقسائم ثلاث وجبات. كل من فقد موعد قطاره، حصل على التعويض ذاته. آل بانس، والمجموعة المخمورة من عربة النادي، وشاب كنساس، وفتيات ماردي غراس، والبيض الضاحكون الذين غفوا طوال الرحلة على المقاعد الرخيصة بغرفة الجلوس، والمسنون المتجهون إلى سان فرانسسكو، وسيدة فلاغستاف. كان في استقبالنا طاقم آمتراك، ثم أُرسلنا في طريقنا.

هتفت سيدة كانت تحمل حقيبتي تسوق: " أراكم في الفندق!"

لم تصدق حظها.

وقال مغفل: " هذا يكلّف امتراك ثروة!"

الثلج الكثيف، ومفاجأة الفندق، وشيكاغو، بدت غير حقيقية. ولكن ضخم الضيوف الآخرون في فندق هوليداي من هذه اللاواقعية. كانوا سوداً في أزياء رسمية غريبة- أزرار خضراء برّاقة، وقبعات بيضاء مرتفعة، وضفائر ذهبية، أو أزياء رسمية حمراء، أو بيضاء ذات ميداليات، أو بيجية وضفائر فضية مطوية على هيئة حلقات حول الأكتاف.

هل كانت فرقة؟ تساءلت، أم نظام شرطة على طراز فن البوب؟ لم يكونوا أيًا من ذلك. هؤلاء الرجال(لا ترتدي زوجاتهم زياً رسمياً) كانوا أعضاء في نظام ولاء قرون الوعل. كما أوضحت ديباجات الكتف التي ارتدوها، بحروف صغيرة. ألقى الرجال تحية الوعول، وتصافحوا بالأيدي مصافحة الوعول، وساروا برسمية شديدة حول البهو في أحذية القرون البيضاء، وبدوا منزعجين قليلاً من الأشخاص الذين ألقت بهم العاصفة إلى هذا الفندق للتو. لم تكن هناك مواجهة. فركاب آمتراك قد خلقوا لعدم الاعتراض. قاعة الرقص، وصالة الضيافة، وأعضاء القرون(الذين حمل بعضهم سيوفاً) وقفوا، وحيوا ببعضهم البعض، خلتهم وقفوا لأنَّ الجلوس يذهب بتغضنات بناطيلهم.

كانت بركة السباحة تغمرها الأضواء، ويملؤها الثلج. وقد رسمت أشجار النخيل الخضراء على الجدار الخارجي. بدت كأنها تضرب بجذورها في أعماق الثلج المتراكم. كانت المدينة متجمدة. وثمة كعكات من الثلج في النهر.

تكدست ثلوج الأسبوع الماضي على جنبات الطريق. وكان هناك ثلج جديد في الشوارع. ومع هذا الثلج الذي يتساقط حديثاً، هبت عاصفة متجمدة، فجعلت تلك الحبيبات المتساقطة الدقيقة من القيادة أمراً خطيرا.

كان إنجيل جدعون في غرفتي مفتوحاً على سفر التثنية 2:25. قلت لنفسي: هل ثمة رسالة لأجلي هنا؟ " "لاَ يُقْتَلُ الآبَاءُ عَنِ الأَوْلاَدِ، وَلاَ يُقْتَلُ الأَوْلاَدُ عَنِ الآبَاءِ. كُلُّ إِنْسَانٍ بِخَطِيَّتِهِ يُقْتَلُ.." آمين. أغلقت الإنجيل، وأخرجت فوكنر.

ويا للمصادفة، كان لدى فوكنر رسالة.

قرأت: "هذا هو فصل الشتاء في شيكاغو، الايام البائدة تحتضر في أضواء النيون على وجوه أحاطت بها بتلات من الفرو، لزوجات وبنات مليونيرات الأخشاب والماشية وعشيقات السياسيين العائدات من أوربا...أبناء سمساري لندن، وفرسان ميدلاند من صانعي الأحذية..."

ومضى في السخرية من مكانتهم، ثم وصف كيف ذهبوا جميعاً باتجاه الجنوب وهجروا ثلوج شيكاغو.

كانوا "ينتمون لذلك العرق، الذي يختار بدون كياسة الاستكشاف، أو التسلح بالدفاتر وآلات التصوير والحقائب المبطنة ليمضي موسم العطلات المسيحية في أدغال البرية المظلمة والملعونة."

لم أكن متأكداً من كياستي في الاستكشاف، وليس لدي آلة تصوير ولا حقيبة مبطنة، ولكنْ أربعة وعشرون ساعة في فندق هوليداي إن، في شيكاغو أقنعتني بأني كلما أسرعت في الوصول إلى الغابات البرية مهما كانت مظلمة ومؤلمة كان أفضل.

**-2-**

**قطار النجمة**

**الوحيدة**

يبدو لي أن لا شيء أجمل في السفر من الركوب في قطار مع هبوط الليل، وإقفال باب غرفة النوم في مدينة ثلجية، صاخبة، ومعرفة أنّ الصباح سيطلع علىّ بمشهد جديد. قلت لنفسي: سأترك كل شيء ورائي في سبيل أريكة نوم على متن قطار سريع يطوي الأرض نحو الجنوب.

وكان من المستحيل أن أكون من ركاب قطار النجمة الوحيدة خارج شيكاغو، أبدأ مسيري عبر ست ولايات، بدون أن أسمع ألحان جميع الأغنيات التي تحتفي بالقطار. نصف أغنيات الجاز هي موسيقى قطارات، وحركة وضوضاء القطار نفسه تجسد إيقاع الجاز. هذا ليس غريباً: عصر الجاز هو كذلك عصر السكة الحديد. كان الموسيقيون لا يسافرون إلا بالقطار، وتتسلل الإيقاعات الوثّابة، والطقطقة النقّارة، والصفير الحزين إلى الأغنيات، والمدن المجاورة لخط القطار: وإلا كيف ستبرر إذن دخول أسماء مدن جوبلين وكنساس إلى كلمات أغنية ما؟ خرجنا من محطة يونيون باتجاه جولييت، وهذا المزج اللطيف بين الخصوصية والحركة- نوتات باص العجلات على القضبان- قدمت لي لحناً ثم كلمات. قالت العجلات: " أليس كل شيء مثل سيكار أبي الضخم؟- لا، ليس كذلك.."

علّقت معطفي، وأخرجت متعلقاتي، وصببت لنفسي كأساً من خمر الجِن، وراقبت آخر ألوان الغروب تختفي من ثلوج جولييت.

حافظ على مالك، وعلى خمرك

وعربتك الفخمة

ليس ثمة ما يشبه سيكار أبي الكبير

لا يهم إن كان مفلسًا فقيرًا،

"لانّه مدخّن قدير..

تخذ لك طاولة فريدة، في حانة المدينة المجيدة

لا شيء مثل سيكار أبي الكبير

إنّه يهبني نفساً صغير

لكنني بمثله لا أكتفي

بداية لا بأس بها. سليمة الإيقاع كما يبدو لي، ولكنها كانت تحتاج المزيد من التنقيح. على أية حال كان رجل التذاكر هنا.

قال وهو ينظر إلى تذكرتي: "لقد تم ترفيعك تلقائياً، نادني حال احتجت إلى أي شيء."

قلت: " هل سيكون هناك غيري في هذه الغرفة؟"

"لا. المكان كله لك."

"ماذا عن تقرير الطقس؟"

" فظيع، كنت أعمل على هذا القطار لخمسين عاماً، هذا أسوأ شتاء أشهده قط. عشر درجات تحت الصفر في شيكاغو، و سرعة الرياح مئات الأميال في الساعة. لقد ألقت باللافتات أرضاً في كليفلاند.شي![[10]](#footnote-10)"

هناك أمر واحد يتعلق بالطقس البارد: إنّه يخرج الإحصائي الكامن بداخل كلٍ منا. درجات الحرارة، سرعة الرياح، لطالما كانت عوامل البرودة مختلفة، لكنها كانت سيئة دائمًا. وحتى إن لم تكن هناك مبالغات كما يبدو عليه الحال، فبوسعي أن أخرج من هذا التجلّد في يوم أو نحوه. لم أر منذ خروجي من بوسطن شجرة خضراء واحدة، ولا مسطحًا مائيًا غير متجمد. لكن الأمل موجود دائماً. كنت أتجه إلى الجنوب- جنوباً أبعد مما قد يصدق أي واحد على متن هذا القطار المتجه إلى الجنوب.

في مكان ما في الأسفل، كانت الرياح في أشجار النخيل. ومن جهة أخرى وصلنا الآن فقط إلى ستريتر، إلينوي.

كانت ستريتر مظلمة، اللمحة اليتيمة لي من غالسبيرغ كانت مستطيلاً من الثلج، ولافتة كتب عليها :موقف سيارات، ومظلة صغيرة مضاءة، وسيارة نصف مدفونة- مشهد بسخافة أغلفة مجلةنيويوركر القديمة. لقد رأيت هذا من غرفة الطعام، وأنا أرفع بصري عن وجبتي المكونة من سمك الهالبوت ونبيذ الشابليه.

ويستند على قارورة النبيذ كتاب الرجل النحيل لداشيل هاميت. لقد مررت بسرعة على فولكنر، وتركته في شيكاغو في درج طاولة فخمة بفندق هوليداي، مع إنجيل جدعون.

الإجرام في كتاب الرجل الرقيق لم يصل في مستوى إلهائه نصف ما بلغه الشرب. شرب الجميع في هذا الكتاب: لقد كان في عالم هاميت، موعداً أبدياً للكوكتيل. فولكنر أزعجني بالافتقار الشديد إلى الاتساق، وأصابتني ميتافيزيقيتهالمتوطئة بالتوتر. كانت إنجليزية هاميت أكثر وضوحاً، لكن الحبكة أسهل تخيلاً، والعمل الاستقصائي فيها بدا كذريعة واهية لجلسات الشرب.

حولت انتباهي إلى الأشخاص الثلاثة الجالسين على الطاولة المجاورة، وهم يتشدقون في سعادة. زوجان في منتصف العمر انتبها لجلوس على طاولتهما وكان أيضاً من تكساس. كانت ملابسه سوداء اللون، ولكنها بدت مبهرجة، مثل واحد من أولئك الوعاظ الفاسقين الذين قد تلتقيهم من مرة لأخرى في الروايات المهمة التي تجري أحداثها في مثل هذا المكان. كانت الساعة التاسعة، وكنا في قلعة ماديسون، بولاية إيوا، على الضفة الغربية لنهر المسيسبي.

" نعم ميس العظيم" قال النادل عندما سألته ليؤكد هذا. وأخذ طبقي الفارغ بعيداً ودندن لبقية الضيوف: " المسيسبي، المسيسبي". كان الواعظ، مثل الزوجين- وهذا زاد من حماستهما- من سان تون. كان الثلاثة عائدين من نيويورك. تبادلوا رواية القصص المرعبة- قصص رعب شرقية عن المخدرات والعنف. " في إحدى الليالي كنا في طريق العودة إلى فندقنا ورأيت هذا الرجل.." هذا النوع من القصص. وهذا النوع من الردود السريعة :" هل تعتقد أنّ هذا مخيف؟ لدي صديق كان في حديقة سنترال.." وسرعان ما صاروا يتذكرون تكساس. ثم يتباهون. في النهاية أخذ تباهيهم منحى غير متوقع. تحدثوا عن كل الأشخاص الذين عرفوهم في تكساس وكانوا يحملون مسدسات. " كان نسيبي يحمل مسدساً طوال حياته" و" رون يعرف سياسياً لم يذهب إلى أي مكان دون أن يحمل مسدسه." و"كان لجدي مسدسٌ جميلٌ."

"الجميع يحمل سلاحاً في تلك الأيام،" قال الواعظ.

قالت السيدة: " لقد أعطاه لوالدي."

قال الواعظ:" كان لأبي مسدسان، واحد هنا وواحد هنا." وضرب على كل من جيبيه.

قالت السيدة إنَّ والدها حاول في أحد الأيام أن يأخذ المسدس إلى أحد متاجر دالاس الكبيرة. وكان غريباً في المدينة، من سان تون. استيقظ في ذلك الصباح وحزم مسدسه، مثل ما يفعل دائماً. لا شيء مضحك في ذلك. كان يفعل الشيء ذاته كل يوم من أيام حياته. فذهب إلى المتجر وهو يحمل مسدسه القديم. كان رجلاً ضخم الجثة، يزيد طوله عن ستة أقدام. عرفت فتيات المتجر أنّها عملية سطو حالما رأينه، فأطلقن جرس الإنذار. سادت الفوضى وارتفعت الأصوات لكن أبي لم يعترض على أي شيء. سحب مسدسه عندما رأى الشرطة وقال: " حسناً بُني، هلم لنهزمهم!"

قال زوج السيدة، إنَّ ذلك الأب كان في الثامنة والأربعين من عمره عندئذٍ.

" حسناً بنيّ، هلم لنهزمهم.!"

استمع الواعظ لهذه القصة بنظرة هزيمة متجهمة. كان صامتاً للحظة ثم قال:" أصيب والدي بثماني نوبات قلبية."

نظرت إليه السيدة، وقال زوجها:" عجباً."

قال الواعظ: "انسداد في الشرايين، نجا من الثمانية جميعاً."

سأل الرجل: " هل هو من سان تون أيضاً؟"

قال الواعظ: " نعم بالتأكيد، لقد كان منها."

قالت السيدة: " لابد أنّه كان قوياً."

قال الواعظ:" ليس بوسع شرقي أن ينجو من ذاك، الغربي وحده يستطيع تجاوز ثماني نوبات."

قوبل هذا باتفاق عام. أردت أن أسأل ماذا يفعل الغربي بثماني نوبات قلبية، ولكني آثرت راحة البال.

بدأت السيدة: " نعود للشرق..."

حان وقت الذهاب. عدت إلى غرفة نومي عبر سلسلة من الثلاجات الفائقة التبريد، وصناديق الثلج التي تتوسط العربات، فجذبت الأغطية على رأسي، وقلت لكنساس طابت ليلتك.

حدثت نفسي، سأظل هنا، ولن أنهض من فراشي إن رأيت الثلج على الأرض صباح الغد.

\*\*\*\*

الفجر في مدينة بونكا، أوكلاهوما كان شتوياً لامعاً تحت سماء رمادية في لون طحين الشعير. نحن الآن على مسافة ثمانمائة ميل جنوب شيكاغو، ونتجه إلى مدينة بيري. كانت الأرض مقفرة ومستوية، ولم تكف لإبقائي في فراشي آثار الثلج الذي انتفخت منه الجلود في المنخفضات والأخاديد، مثل جثث الفقم المبعثرة.

لم أدرك إلى أي مدى كانت شدة البرد هناك في أوكلاهوما حتى رأيت البرك الإهليجية البيضاء المتجمدة والدروب الثلجية الضيقة وسط حوض النهر الصخري. أما البقية فكانت بضعة أشجارعارية بنية، وسرب صغير من الماشية البنية ضائع وسط ذلك الفراغ، وهو يقضم العشب البنيّ. في أعلى جزء من قبة السماء، تلاشى لون الشعير الحزين، وانسرب ليحل محله قوس بلون الزبرجد. كانت الشمس شقاً قرمزياً، وخرزة حمراء فوق كتلة الحبوب، جزيرة أفقية تسير ببطء فويق الأفق.

لعشرين دقيقة أو نحوها، ولعدد مماثل من الأميال، ظلت الأرض خالية حرفياً: لا منازل، لا بشر، وقليل جداً من الثلج، فقط ذلك اللون البني الذي لا يتغير. إنّه سطح الأرض القفر، الأرض القديمة المغطاة بالعشب الخفيف، سوّت الرياح بالأرض كل بقعة من العشب، وليس ثمة بقرة تتسكع في أي مكان حتى تمنحها فرصة المقارنة.

إنّها حدائق الصحراء، هذه

الحقول اليباب، جميلة، ولا متناهية،

لا اسم لها في لغة الانجليز

البراري

وصلنا إلى بيري. أسلوب أكواخ بيري ينتمي لمدينتي ماساتشوسيتس وأوهايو، ولبعضها أسقف مكسوة بورق القطران، ومكيّفات هواء صدئة على النوافذ، توارت خلف السيارات الكبيرة الباهتة ألوانها بفعل الشمس والمتوقفة في ممراتها الجانبية.

كانت السيارات في سعة الشوارع. ولكن أحد بيوت بيري كان مرتفعاً وأبيضَ، بشرفات، وجملونات، وأسقف منحدرة، و ألواح حديثة الطلاء. لم يكن ليبدو غير مألوف في فدان من المروج الخضراء بمدينة كيب كود، ولكنْ في بيري، محاطٌ بالحجارة المسحوقة، ويشمخ في البراري كمنارة، كأنّها أحجية، إلا إنّها أحجية حية، واضحة التصميم، لا تحتاج لحل. وكان هذا الوضوح الواثق سمة أمريكية خالصة، ووجدته ملفتاً للنظرفي أسلوبها كموقف سيارات للطواريء(المظلة المضاءة، واللافتة، والسيارة المدفونة) التي رأيتها الليلة السابقة في غالسبيرغ، أو بركة السباحة المتجمدة بأشجار النخيل المرسومة في شيكاغو. ما كنت لأجدها جميلة هكذا إن لم ار فيها أيضاً شيئًا من الطرافة. ولكنها الفكاهة الأمريكية، واضحة، وطازجة، ونصف مبتذلة، ونصف عبقرية، وصورتها لا تنسى، مثل الدقيقة التي أمضيناها في نورمان، بأوكلاهوما: دار السينما القريبة في زاوية شارعي ماين وجونز، النجوم والخطوط ترفرف فوق واجهات المتاجر، السيارات الخمس المتوقفة، الصف المتطرف من المباني المنخفضة للغاية، ويمتد شارع ماين في خط مستقيم تماماً من هنا- محطة القطار- حتى نهاية المدينة، وتلك اللطخة البنية من أرض البراري في نهاية الشارع.

قال المحصّل في مدينة أوكلاهوما: " إنّ الطقس بارد هنا، يا بنيّ!"

و نصحني بالبقاء في القطار. مدينة أوكلاهوما لا تختلف حقاً عن البراري. كانت المظلات، والمتاجر والمخازن أكبر حجماً، ولكن الأشكال هي ذاتها، ومثل بيري، لها منظر مؤقت، وغير مكتمل كبقعة كانت مغمورة في البراري. ليس لهذه المدن الغربية عمر واضح. كانت مستوطنات لخدمة المعمودية: حيث كان المواطنون يعملون ويتعبدون، وهدموا المباني التي لم يعودوا بحاجتها، ووضعوا بدلها أخرى مربعة، ولم يكلفوا أنفسهم عناء تزيينها بشيء غير الأعلام. لذلك تهاوت المدن، بالكاد يمكن تمييز شارع رئيسي من غيره، الكنيسة ومكتب البريد تخذا الطراز ذاته، المباني ذات الطابقين في مركز المدينة، والمباني ذات الطابق الواحد في أطرافها. ولم أتذكر مدى قدم هذه الأماكن، أو أدرك نفحة من رومانسيتها قبل أن أرى منزلاً بعينه، أو إسطبلاً أو شارعاً جانبيا به صف من المظلات المسودة المكسورة.

قال رجل يدخل عربة الأكل ليتناول إفطاره: " أتريد أن تسمع شيئاً مريعاً، لقد انضم للقطار خمسة وأربعون ألفاً من أطفال المدارس للتو."

احتج والتقط القائمة، التي استخدمت كمفرش.

أنهيت شرب قهوتي، وبينما كنت عائدًا إلى عربتي، رأيت ما كان يقصده. لم يكن العدد الذي ذكره صحيحًا، ربما مائتان أو ثلاثمئة، أطفال ونساء، يرتدي كل منهم ديباجة باسمه: ريكي، سالي، تريسي، كيم، وكاثي، وكانت كاثي جميلة، كانت تثرثر مع ماريلين، التي كانت أيضاً غاية في الجمال. وقفت كلاهما بجانب طفلاتهن الصغيرات المستديرات.

قالت كاثي وهي تنظر للأسفل:" لقد أصيب بابا بنوبة برد حادة، كان عليّ أن ألزمه الفراش."

قالت ماريلين: " أبونا في المكتب كالعادة." ولدى سماعهن، قالت امرأة أخرى بنبرة أمهات التلفزيون:" وأين أبونا، حبيبتي؟ أخبريهم أين أبونا؟" لعقت ابنتها الصغيرة أصبعاً ونظرت إلى الأرض: " أبونا في رحلة! وعندما يعود، سنخبره بأننا أيضاً كنا في رحلة. رحلة على القطار."

في الغالب كانت هذه- وأنا متأكد- محاكاة ذاتية. في أجمل أزيائهن، خرجن من مطابخهن في رحلة نهارية إلى فورث وورث، كن محملات بأطفالهن. كان حس الحرية، لكنه لم يكن كافياً كما هو واضح: غدا سيكونون في المنزل، يلعنون الأعمال المنزلية، ويكرهون الأدوار النمطية للأب والأم. كان لديهن الحسن الخادع الذي اتسمت به ربات منازل الإعلانات التلفزيونية لبيع رقائق الصابون ومضادات التعرق. إن كان عددهن عشرة فقط أو نحوها، لما اهتممت بحالهن. لكن صار المئات منهن محافظات، ويتحدثن بتهكم لطيف عن آبائهن، كانت هذه عينة رائعة لموهبة ضائعة.

بدا من غير المنصف- على أقل تقدير- أنّه في أكثر البلدان المتقدمة اجتماعياً على وجه الأرض، ثمة مجموعة لا تختلف في تصرفاتها عن أكثر المجتمعات الشعبية تحفظاً. باستثناء شخصي الضعيف- وأنا أمر فقط مرور الكرام- لم يكن هناك رجال بالغون في العربات الثلاث التي شغلوها. كان الأمر أشبه بسياق الفصل بين الجنسين في هذه العربات، وهو ليس قميئاً فقط بالنسبة لدعاة النسوية، بل أكثر إثارة للشفقة من وجهة نظر المتشددين هنا أيضاً. وبما إنّ نصف أولئك الشابات الحسناوات على الأقل ربما تخذن علم الاجتماع تخصصاً رئيسياً لهن، فلابد وقد لاحظن كيف صرن شديدات الشبه بنساء شعب الدينكا في جنوب السودان.

ذهبت إلى مقصورتي، ولم يسعني سوى الاستغراق في التفكير. وتذكرت عندما رأيت مضخة في البراري، إنني كنت أراقبها طوال الساعات الثلاث الماضية، حركة مغزل أسود للأعلى والأسفل منصوباً على برج، يتأرجح في جميع أنحاء اوكلاهوما، أحياناً في مجموعات، ولكن في أكثر الأوقات أداة غريبة وحيدة بذراع متأرجح وسط الخواء.

بعد بورسيل، تسعمائة ميل من شيكاغو، خرجنا من العصر الجليدي. كانت الجداول رطبة، ولم تكبلها الثلوج، وبقايا الثلج باتت قليلة جداً، منثورة على الارض كالشظايا، أو قصاصات الورق، وسط العشب المتراص. هنا، مدينة قوامها شارعان من الأكواخ، وفناء الأخشاب، ومتجر بقالة، وعلم أمريكي، وبعد لحظة، البراري. بحثت عن التفاصيل، وبعد ساعة أو نحوها من إمعان النظر، كنت سعيداً لرؤية شجرة من وقت لآخر، أو بئر بمضخة يدوية لكسر الرتابة. تساءلت عما يكون عليه الحال إن وُلدت في مكان كهذا، حيث أن تولد في مكان كهذا حيث الواجهة الأمامية هي الأهم- الشرفة، وواجهة المتجر، والشارع الرئيسي. أما البقية فقد كانت خواء، أم بدت لي كذلك لأني كنت غريباً، أمرّ عبر المكان على متن قطار؟ لم تكن لدي رغبة في التوقف. يحتفي الأوكلاهوميّ، أو التكساسيّ بحريته ويتحدث عن تقييد النيويوركي، ولكن هذه المدن صدمتني كونها مقيّدة لدرجة خانقة.

كان ثمة نمط دفاعي في أسلوب تخطيطها، كما لو أنّها نابعة من خوف مشترك. والنمط؟ كان دائرة مثل دائرة من العربات. حتى إنّ المنازل البيضاوية الصغيرة تخذت شكل العربات،- عربات بلا عجلات، أوقفت هناك بلا سبب سوى وجود أخرى تقف هناك بالفعل. كانت الأرض واسعة، ولكن المنازل في مجموعات، وبوضع الجيران والشوارع في الحسبان، فقد كانت تقابل بظهورها فضاء البراري الشاسع.

عشرة أميال خارج آردمور، على الحدود بين أوكلاهوما وتكساس، قال رجل عجوز بجانب النافذة: " جين أوتري". ولكن فوّت المكان بسبب طلبي تفسيراً منه، الذي لم يكن مدينة أخرى لرعاة البقر بل محطة قطار أخرى، صغيرة جداً انطلق عبرها قطار النجمة الوحيدة دون أن يخفف من سرعته.

قال الرجل: " ربما ولد هنا، أو دفُن."

تميزت الحدود مع تكساس بمشهد التلال المنخفضة الجافة التي تحوّلت إلى سهول خضراء رمادية. لا ثلج هناك، ولا جليد، والطقس بدا معتدلاً. ثم ظهرت الطيور السوداء، ومزارع يقود جراراً حرث حقلاً، وقد حفر ستة خطوط من الأرض أثناء سيره. ارتحت لرؤيته بدون قفازات. إذن لقد تغير الطقس، إنّه مطلع فصل الربيع هنا في أول أسبوع من شهر فبراير، إن ظللت في هذا القطار فسيحلّ صيفي بعد أيام قلائل. أما مسافر الجو فبوسعه الطيران إلى أي مناخ في برهة وجيزة، ولكن راكب الخطوط الحديدة على القطار السريع المتجه جنوباً يحظى برؤية الطقس وهو يتبدل ساعة بعد ساعة، ويراقب تفاصيل هذه التغيرات. وفي غرينزفيل كانت الزراعة، والكثير من عمليات الحرث، وبعض البراعم التي لا تزيد عن بوصة في حجمها. وكانت هناك أشجار تحفّ المنازل، وأكبر فسحة مما رأيت في مستوطنات أوكلاهوما. كانت هذه مساكن متكاملة، ذات آبار ملحقة بها، ومراوح رياح، وما قد يكون حدائق تفاح. هنا حيث الرجل الأحمر قام بإزاحة أوراق الشجر بعيداً، ليحفر منقّباً عن لحاء شافٍ أو جذر مهديء. وعلى جانبي الطريق تتساقط من أشجار التفاح ثمارها الشهية.

كان اتجاه قطار النجمة الوحيدة- مقارنة بأي كتاب خرائط تأريخي- هو اتجاه تحرك الماشية الرئيسي شمالاً، ما يعرف بدرب شيشولم. في البداية، وفي ستينيات القرن التاسع عشر، كانت الماشية تقُاد عبر ما كان يعرف بالإقليم الهندي في أوكلاهوما،إلى نهاية الخط في أبيلين، بمدينة كنساس. ازدهرت جميع مدن طريق الحديد العظمى بسبب الماشية التي كانت تحصر وتصنّف هناك قبل تحميلها على القطارات المتجهة إلى شيكاغو. وقد كانت بعض الماشية المنقولة على الطريق الطويل من ريو غراند بريّة، ولكنها تُعامل جميعها على الطراز المكسيكي: لقد اكتسب رعاة البقر الأمريكيون الوهق وكاوية الوسم، واللغة بما في ذلك اللهجة، من رعاة الماشية المكسيكيين.

كان درب شيشولم هو الوحيد من الطرق، التي سلكتها الماشية من سيداليا عبر آركنساس وميسوري، بينما سار درب غودنايت-لافنغ على طول نهر بيكوس. استولت الخطوط الحديدية على هذه المسارات (وجود امدادات المياه على طول الطريق، العنصر الذي حدد مسار درب شيشولم، لم يكن أقل أهمية بالنسبة لعطش القاطرات البخارية)، ولم تستبدل الماشية بالركاب إلا مؤخراً كمصدر دخل للسكك الحديدية. رأيت قطعانًا من الماشية وأسرابًا من البط تهرب، و طيورًا سوداء كبيرة الحجم تحلّق في حركة دائرية، ربما تكون صقوراً، ولكن حتى هنا، على بعد ألف ميل تقريباً من شيكاغو، ما زالت الأشجار عارية. لم أر شجرة واحدة خضراء لأربعة أيام من السفر عبر البلاد. ظللت أراقب الطريق لأرى واحدة ولكني رأيت المزيد من الطيور الجارحة، أو مضخات الطواحين الهوائية، أو الجياد التي ترعى العشب. كانت هنا منازل، ولكن ليست مدنًا بأي حال من الأحوال، جميع الأشجار التي رأيتها كانت ميتة، لكنها ما زالت واقفة مثل شماعات معاطف عجفاء على طول احواض الوادي الجافة. وراء مساكن المزارعين ذات الأسقف الصدئة تلك كان فضاء خاليا، وأقرب للقضبان، عادة بجانب سياج من السلك الشائك، كنت أرى ما توقعت أن أراه، حطام عظام الماشية، مفاصل ابيضت، وأكوامًا من الفقرات، وجماجم مشقوقة ومحاجر جوفاء.

\*\*\*\*

كان فخر تكساس، المبتذل الوددود لكنه عنيد، رجلًا مفرط البدانة، يرتدي قبعته العميقة، في صالون الدولار الفضي بوسط مدينة فورث وورث في فبراير. ربما كان يشير إلى التحدي- كان اليوم مكفهراً بارداً، والحانة مظلمة كقبو (ضؤوها الوحيد هو الوميض الذي يشع من تحت ماء حوض السمك الذي يفور على رف قوارير الويسكي.) لقد اختبأت طلباً للتدفئة، ولقراءة صحيفة فورث وورث ستار تيلجرام في هدوء. وحالما اعتادت عيناي على الظلام، جلست بقرب حوض سمك الزينة لأقرأ. تعيّن علي أن أتخذ قراراً أيضاً: كان بوسعي قضاء الليلة في فورت وورث أو الرحيل إلى لاريدو في غضون ساعات، لكني تركت حقيبة سفري في محطة القطار. ولم يعجبني منظر فورت وورث. لقد اقترحت عليَّ باعتبارها أكثر لطفاً وأسهل فهماً من مدينة دالاس، إلا أنها بدت في تلك الظهيرة من شهر فبراير رمادية تماماً، ومغطاة بالغبار، إحدى بلدات تكساس غير المهمة، رياح الصحراء تلقي بأغلفة الشطائر الملطخة بصلصة الكاتشب الحمراء على الرجال الذين يتشبثون بقبعاتهم السخيفة. جميع الأماكن العامة ترفع ذات اللافتة المشؤومة (أو أكثر، لافتتين، أنا لا أحصي، **ليس عليك أن تكون مجنونا لتعمل هنا- ولكنه مُجدٍ**!). واستمر التحذير كما يلي:

**قد يشغل هذا المقر رجل شرطة مسلح بمسدس ناري، فإن أُمرت بالتوقف امتثل من فضلك!**

-قسم شرطة فورت وورث.

وربما كان تعليقاً على ودية فورت وورث أنَّ المواطنين كانوا بحاجة إلى تذكير بأنّ الرجل الذي يحمل مسدساً نارياً يؤدي عمله، وليس كما قد يبدو لك شخصًا يعشق تماثيل الحمام المصنوعة من الصلصال.

كانت اللافتة في جميع الشركات المالية، وفي المتاجر التي تبيع أدوات الغرب الأمريكي. لدى فورت وورث ما يزيد عن حاجتها من هاتين التجارتين: بوسعك أن تحصل على رهن، وبدلة راعي بقر مذهبّة في أية زاوية من المدينة. كانت ايضاً في مركز التبرع بالدم (**50 دولاراً لنصف اللتر**، وشخصان بائسان ينتظران فتح أوردتهما)، وحيث اللافتة في مكتب دافع الكفالات تقول: **(خدمة 24 ساعة)**، وتحمل أيضاً صورة شيطان مسكين مكبل اليدين بالأصفاد. وفي جميع قاعات الطعام الحريف. وفي الدولار الفضي أيضاً، ولكن في الوقت الذي لجأت فيه إلى ذلك المكان، كنت قد اعتدت عليه حتى أنّه لم يعد يخيفني. في الضوء المقرقر بحوض السمك، قرأت الصحيفة. وكانت العناوين العريضة ناقمة على المشكلات المحلية. تخطيتها إلى صفحة الرياضة، هنا كان الخبر الرئيسي عبارة عن سرد جذل مفصّل للمعرض الجنوبي الغربي، ومسابقة رعاة البقر للماشية اللاحمة. لا كرة قاعدة، ولا كرة قدم، ولا هوكي- فقط المكافيء الأمريكي لصيد الدببة. مسابقة رعاة البقر- هل كانت ضرباً من الرياضة؟ غطى التقرير الصفحة بكاملها، والصفحة التالية أيضاً ("ركوب الثيران" و"ربط العجل"). اتسم هؤلاء الناس بالجدية. " ليس من وقت طويل جداً" قال الرجل البدين ذو القبعة الواسعة، مستخدماً طريقة صياغة للجمل غير مألوفة بالنسبة لي، ويجعلها تبدو- بالنطق البطيء- كجملة مكتملة، " كان الناس هنا ليثوروا إن لم يقرأوا نتائج مسابقة رعاة البقر. بالتأكيد، نحن سعداء بالحصول عليها."

لكن أخبار مسابقة رعاة البقر كانت تزيد قليلاً عن كونها أوراق أرصدة لتدوين انتصارات سائس يصوّر وهو يعذّب ثوراً. وكنت أراه نصراً مشكوكًا فيه، وجمع ألفي دولار- لم يكن هناك ذكر للأساليب- بالنسبة لي كان نصراً صعب المنال إن لم يك لا يستحق. بجانب بربريتها كانت هذه هي صفحة الرياضة الأولى التي أرى فيها علامات الدولار بجانب كل نتيجة. آملاً في بعض الراحة الخفيفة انتقلت إلى قسم رسائل المحرر. فوق كل شيء، إن كنت سأمضي الليلة هنا، فقد يكون من المفيد أن أحصل على مفتاح لفهم شخصية المدينة. بدأت الرسالة الأولى: " من المعلوم على نحو عام أنَّ نظرية التطور كانت تعلّم في المدارس العامة باعتبارها حقيقة.." اتبع ذلك سخرية أكثر سخافة عن العلم الذي يناقض "القيم الأخلاقية"، وكل ما قد يشير إلى احتمال أن تصبح التجارب على شاكلة تجارب اسكوب[[11]](#footnote-11) على القرود من اهتمامات فورت وورث بعد معرض الماشية اللاحمة.

الخطاب الثاني: تمسكوا بقنال بنما بحق المسيح! الخطاب الثالث كان إدانة سافرة للجنة تكساس الديمقراطية لدعوتها سيزار تشافيز إلى تكساس. وهو يعني ضمناً أنَّ السيد تشافيز كان مشاكساً لرغبته في تنظيم عمال المزارع. أُختتم هذا الخطاب بعبارة:" الاتحادات تدمر اقتصادنا الوطني، وتزيد من العطالة، والتضخم أكثر من أي سبب آخر."

الاتحادات، والقنال، والإنجيل: إنهم لا يتطرقون إلى الأساسيات في فورت وورث- فهم لم يبتعدوا عنها أصلًّا. لم أجد القوة الكافية للاختلاف مع آدم وحواء، وقوانين عمالة الأطفال، فناولت الصحيفة للبدين، واتجهت خارجاً صوب الدولار الفضي مارّا باللافتة المضاءة (استمع إلى إذاعة ريدنيك!)، ثم إلى محطة القطار. كان هناك بعض التأخير، لكني قابلت أثناء انتظاري رجلاً سعيداً جداً. كان من الوافدين الجدد إلى مدينة فورت وورث، كما قال، ولكن إقامته ستة أشهر بالمدينة أقنعته بالفرص اللانهائية في المكان الذي قررت صرف النظر عنه بكل سهولة في ظهيرة يوم واحد.

قال:" التنس، الغولف، البولينغ، والسباحة."

قلت: " بوسعك ممارسة هذه الرياضات في كليفلاند."

قال بلكنة غريبة: "هنا يمكنك فعل أي شيء."

قلت:" أأنجليزي أنت؟"

نعم، في الحقيقة، كان لندنيا. لقد عمل كشرطي في حي بائس جنوب لندن، ولكنه ملّ من الضرائب والكساد العام والميول البريطانية للهواة والفاشلين، فهاجر إلى فورت وورث: "من أجل الأطفال أكثر من أي شيء آخر."

في لندن، كشرطي يعتمر خوذة مضحكة، وغير مسلح سوى بعصاه الليلية وصفارته، كان هدفاً للسخرية. لقد كان دائماً يتمنى أن يلعب الغولف. ولكن رجال الشرطة في لندن لا يلعبون الغولف. كان يحب السباحة. لكن من لا يستطيع أن يكون سباحاً جاداً في حمامات توتنغ العامة. لقد كان في ذيل الهيكل المعاشي، وعلى آخر درجة من السلم الاجتماعي. أما هنا، بصفته كاتبًا في فندق بمدينة راكبي الثيران، وصائدي العجول، ودافعي الكفالات، وبائعي بدلات رعاة البقر بالجملة، والمتشدقين الأصوليين- بحسب تعبيرهم- حُمر الرقاب[[12]](#footnote-12)، ميزته لهجته الجنوب لندنية الرقيقة، كارستقراطي، وأكسبته نفوذ تشرتشل.

قال:" أنا سأظل."

قلت: " بوسعك أن تعمل في الشرطة هنا."

قال:" إنهم يبلون حسناً هنا."

تمنيت له حظاً طيباً، ثم مضيت في طريقي إلى لاريدو، وأنا مطمئن بعض الشيء، وما زلت ملتزماً بمسار الماشية المعكوس هذا-درب شيشولم- الذي ورثته الخطوط الحديدية.

**-3-**

**نسر الآزتيك**

**---**

كانت ليلة ماطرة في لاريدو- لم يتأخر الوقت، لكن بدا المكان مهجوراً. مدينة حدودية محترمة تمتد على مساحة شاسعة في الطرف القصيّ من خط آمتراك، وتقع ضمن شبكة هندسية من الشوارع السوداء اللامعة على مرتفع ترابي، يبدو كمحجر حديث بما فيه من خدوش وتجريف.

في الأسفل كان ريو غراند، غدير هاديء، ينحدر مارًا بلاريدو في حوض بعمق المصرف الصحي، تقع مكسيكو على ضفته الجنوبية. زادت أنوار المدينة الساطعة من سطوة خوائها. وفي هذا الضوء عرفت أنّ هوية المدينة أقرب إلى المكسيكية منها إلى التكسانية. تتلألأ الأضواء، دليلاً على الحياة، كما تفعل دائماً. ولكن أين الناس؟ انتشرت دوائر الضوء في كل زاوية. كانت لافتات المرور والتوقف تومض وتنطفيء، وقد غمرت الأنوار واجهات المتاجر مزدوجة الطوابق، والمصابيح المنيرة في نوافذ منازل الطابق الواحد، وكانت الحفر ثقوباً مضيئة في أسطح الشوارع المبللة. كان لهذه الإنارة أثرٌ غريبٌ، كأنّها مدينة طاعون تُضاء في مواجهة اللصوص. المتاجر مغلقة تماماً، والكنائس مضاءة بمصابيح مظللة على أعمدة إنارة مقوّسة، لا حانات. كشف كل هذا الضوء عن خواء المكان بتوهّج مميت بدلاً عن منحه انطباعاً بالدفء والحيوية.

لا سيارات تنتظر عند الإشارة الحمراء، ولا مشاة في أجزاء الشارع المخصصة للعبور. ساد الصمت في أرجاء المدينة، سرت في الهواء البارد همسات قلب لا تكاد تخطئها الآذان، ضجة موسيقى تُعزف على البعد. سرت، وسرت من فندقي حتى النهر، ومن النهر إلى الميدان، ومن ثم في متاهة الشوارع حتى كدت أجزم بأنني ضللت الطريق. لم أر شيئاً. وربما مما يبعث على الخوف رؤية إشارة تومض- على بعد أربعة مجمعات سكنية- خلتها برهانًا على الحياة: فتحة سقاية، أو مطعم، أوحفل، وسرت نحوها لأصل والماء يقطر مني، وأنفاسي مقطوعة فاكتشفتُ أنّه كان متجر أحذية، أو قاعة جنائز، مغلقة أثناء الليل. لذا ، لم أسمع سوى صوت خطاي وأنا أسير في شوارع لاريدو، و شجاعة وقعها الزائفة، وترنحها في الأزقة، وزخاتها عندما عدت جذلاً إلى المعلم الوحيد الذي أعرفه- النهر.

لم يصدر النهر ذاته أي صوت، على الرغم من حركته القوية، المدوّمة مثل سرب من الثعابين الحريرية في الوادي الذي جُرد من كل آجامه وأشجاره حتى يسهل على الشرطة تمشيطه بدورياتهم.

تربط الولايات المتحدة بالمكسيك ثلاثة جسور هنا. وأنا أقف على التل، سمعت ضجة الموسيقى أعلى وأعلى: كانت تصدر من الجانب المكسيكي من النهر، مجرد ضوضاء عالية مثل صوت مذياع ينساب من بيت الجيران. والآن استطعت رؤية النهر المتعرّج بوضوح. لقد انبهرت أن يُتخذ النهر حداً. الماء محايد، وجريانه غير المنحاز يجعل الحدود الوطنية تبدو مثل أقدار الله. بالنظر إلى الجنوب، ما وراء الضفة الأخرى للنهر، أدركت أنني كنت أنظر باتجاه قارة أخرى، وبلد آخر، وعالم آخر. كانت ثمة أصوات - الموسيقى، وليست الموسيقى فقط بل الأضواء وأصوات الأبواق، والسيارات. كان الحد الفاصل حقيقياً: يتبع الناس هنا أساليب مختلفة في أداء أعمالهم، وبإمعان النظر استطعت رؤية الأشجار المحفوفة بلافتات النيون تعلن عن الجعة، واختناق المرور، ومصدر الموسيقى: دلت عليها السيارات والشاحنات وليس البشر. ووراء ذلك، بعد مدينة لاريدو الجديدة المكسيكية، ثمة منحدر أسود- جمهوريات امريكا اللاتينية المسكونة الرتيبة. وقفت سيارة خلفي. فزعت، ثم اطمأننت عندما عرفت أنّها سيارة أجرة. أعطيت السائق اسم فندقي، ودلفت داخلها، ولكن عندما حاولت ابتدار حوار أجابني بهمهمة. إنّه لا يفهم غير لغته. قلت له بالإسبانية:"المكان هاديء هنا." كانت هذه أول مرة أتحدث باللغة الإسبانية في رحلتي هذه. بعدها، كانت جميع حواراتي تقريباً باللغة الإسبانية. ولكن أثناء هذا السرد، عليّ محاولة تجنّب التأثير على المفردات الإسبانية، وترجمة جميع الحوارات إلى اللغة الإنجليزية. لم يكن لدي صبر للكلمات الممتزجة باللهجة المحلية مثل:" “[وجبة]Carramba!” قال "campesino" [المزارع]، وهو يأكل الامبانادا[فطائر السامبوسة] خاصته."

قال سائق التاكسي: " لاريدو،". هز كتفيه.

"أين ذهب جميع الناس؟"

"الجانب الآخر."

"لاريدو الجديدة؟"

قال:" مدينة "الفتيان"". باغتتني اللغة الإنجليزية ، ودغدغتني العبارة. قال: وعاد في هذه المرة للغة الإسبانية مجدداً: " ثمة ألف مومس في المنطقة."

كان رقماً تقريبياً، ولكني اقتنعت. وكان هذا يفسر بالطبع ما يحدث لهذه المدينة. تتحول لاريدو بعد هبوط الليل إلى لاريدو الجديدة، تاركة المصابيح مضاءة. هذا هو السبب في مظهر لاريدو الوقور، والرقيق حتى، في الطريق المتعفن الذي جرفته الأمطار: كانت النوادي، والحانات، والمواخير في الضفة الأخرى للنهر. تقع ضاحية الضوء الأحمر على بعد عشر دقائق، في بلد آخر.

ولكن ما كان يتجلى من هذه الأخلاقيات في الجغرافيا العابرة للحدود أكثر مما يرى بالعين. إن كان للتكسانيين أفضل ما في هذين العالمين بقرار بقاء الملاهي المترفة في الجانب المكسيكي من الجسر الدولي- ينساب النهر مثل جدل مربك غريب الأطوار، بين الفضيلة والرذيلة- فقد حاز المكسيكيون سمة اللباقة الكافية لإبقاء مدينة "الفتيان" مموهة بالتدهور على الجانب الآخر من القضبان، وهو مثال آخر على جغرافية الأخلاق.

التقسيمات في كل مكان: لا أحد يريد أن يعيش بجوار ماخور، لكنَّ المدينتين كلتاهما تأسستا بسبب "مدينة الفتيان." إذ بدون الدعارة والرشاوى، لن تحصل لاريدو الجديدة على ما يكفي من التمويل الإداري لزراعة أزهارالغرنوقي في الميدان حول تمثال بطلها ذي الإيماءة المعتوهة. لا للدعاية لنفسها كسوق لأعمال الخيزران، وفنون عزف الغيثار الفولكلورية- فشراء السلال ليس غرض جميع من يقصد لاريدو. لاريدو بحاجة إلى رذالة المدينة الشقيقة لتحافظ على ازدحام كنائسها. بمدينة لاريدو مطار وكنائس، وفي مدينة لاريدو الجديدة مواخير ومصانع سلال. كلا المدينتين انجذبت على ما يبدو إلى تخصص تملك ناصيته. كان هذا تفكيراً سليماً من الناحية الاقتصادية، في تطبيق حرفي لنظرية الميزة النسبية التي وضعها الاقتصادي البارز ديفيد ريكاردو.

بدا هذا للوهلة الأولى نوعاً مثالياً من علاقة المشروم والروث الموجودة على حدود كثير من البلدان غير المتكافئة. ولكن كلما أطلت التفكير فيها، بدت لي لاريدو كجميع مدن الولايات المتحدة، ولاريدو الجديدة كجميع مدن أمريكا اللاتينية. كانت الحدود أكثر من مجرد مثال للنفاق المريح. لقد مثَّل أيضاً كل ما يحتاجه المرء ليتعرف إلى القيم الأخلاقية للأمريكتين، والعلاقة بين الكفاءة المتزمتة شمال الحدود، واضطراب التخلف والشغف- فوضى الجنس والجوع- جنوبها. ليس الأمر بتلك البساطة، إذ أنّ الوضاعة والنبل فيهما معاً بوضوح، بيد أنّ عبور النهر(لا يدعوه المكسيكيون ريو غراند، بل ريو برافو ديل نورت) بصفتي مسافراً عاطلاً يشق طريقه نحو الجنوب حاملاً حقيبة من الملابس المتسخة، وحزمة من جداول مواعيد القطارات، وخارطة، وزوجًا من الأحذية المانعة للتسرب لا أكثر، جعلني أشعر كما لو كنت أمثل فيلماً مهماً. عبور الحدود الوطنية ورؤية فرق كهذا على الجهة الأخرى كان له دور في ذلك: حقاً، كل سمة بشرية هناك، كان لها وقع رمزي. إنها لا تزيد عن مائتي ياردة، ولكن تفوح منها رائحة لاريدو الجديدة. إنّها رائحة غياب القانون، أكثر دخاناً، تعبق بنكهة الفلفل الحار، والعطور الرخيصة. لقد جئت من مدينة تكساس النظيفة، واستطعت أن أرى حالما تركتها، زحام الناس على الطرف الأقصى من الجسر، اختناق المرور، والمعاكسات، ونفخ الأبواق، ينتظر بعض الناس السماح لهم بالدخول للولايات المتحدة، ولكن أكثر من يعبرون الحدود- يعرفون أنّها- حدود الفقر. يدخل المكسيكيون الولايات المتحدة لما توفره لهم من فرص للعمل. إنّهم يفعلون ذلك بطريقة غير شرعية- من المستحيل نظرياً على مسكيكي فقير الدخول قانونياً إن كان ينوي البحث عن عمل. وإن يقبض عليهم يُلقى بهم في السجن، ويمضون فترة قصيرة، ثم يُرحّلون. ويتجهون في غضون أيام إلى الولايات المتحدة، حيث يستطيعون دائماً إيجاد وظيفة كعمال في المزارع بأجرة يوم زهيدة. الحل بسيط: إن أجزنا قانونًا يلزم مزارعي الولايات المتحدة بتوظيف الرجال الذي يحملون تأشيرة دخول وتصاريح عمل فقط، لن تكون هناك مشكلة. ليس ثمة قانون كهذا. لقد ضمن اتحاد أصحاب المزارع هذا الأمر، وإلا كيف سيتمكن اولئك التنابلة المستعبِدون من حصاد محاصيلهم إن لم يجدوا مكسيكيين يستغلونهم؟ استطعت أن أرى عن كثب تفاصيل الفوضى. الجنود ورجال الشرطة المتسعكون جعلوا المدينةَ تبدو أكثر افتقاراً للقانون، وكان الصخب مرعباً، وبدت السمات الوطنية على الفور- ارتدى رجال الشرطة أحذية مرتفعة، وليس ثمة مومس إلا ولها حليفها الطبيعي، سواء أكانت امرأة مسنّة أو معاقة. كان الطقس باردًا ماطرًا، والشعور العام في المدينة يبعث على الضجر. ما زلنا في فبراير، والسياح لن يصلوا قبل أشهر.

في منتصف المسافة عبر الجسر، مررت بصندوق بريد صديء عليه علامة محظور. كان يتعلق بالمخدرات. والعقوبات معلنة باللغتين: خمس سنوات للمخدرات الخفيفة، خمسة عشر عاماً للثقيلة. لقد حاولت أن أسترق النظر إلى الداخل، ولكني لم أتمكن من رؤية أي شيء، فضربته بقبضتي. أصدر صوتاً عالياً: لابد أنّه كان خالياً. واصلت السير حتى الحاجز، خمسة سنتات في المدخل الدوار، ثم كنت في المكسيك في سهولة الصعود إلى حافلة. على الرغم من تربية شاربي لأبدو لاتينياً، إلا أنّ الأمر لم يفلح. اتبعت الإشارات حتى عبرت بوابة الجمرك مع أربعة من الغرينغو[[13]](#footnote-13): بدونا أبرياء. لم يكن ثمة شك في وصولي، ولبرهة ابتسم الرجال عديمو الرقاب، ورجال الشرطة المتعجرفون، والحيوانات المشوّهة في حالة من العدمية الكئيبة. كان بائع الثوم يجسّد أمريكا اللاتينية، نحيلًا، ويرتدي قميصًا ممزقًا، وقبعة لزجة الملمس، وكان متسخًا للغاية، ظل يصيح مرددا العبارة ذاتها مراراً. لم تكن هذه السمات وحدها لتجذب الانتباه، بل لأنّ له نظيرًا في كليفلاند. وقد تميز بطريقة حمل بضاعته. كان لديه إكليل من رؤوس الثوم حول عنقه، وآخر حول وسطه، وعلى ذراعيه حبال منها، كان يهزها في قبضته. لقد كان يصارع شاقًا طريقه داخل الزحام وخارجه، وتتقافز كتل الثوم على جسده. هل من مثال أفضل من هذا الرجل لإيضاح الفروق الثقافية؟ في جانب تكساس من الجسر كان ليعتقل لمخالفته بعض اللوائح الصحية، أما هنا، فلم يكترث له أحد. ماهو الغريب في ارتداء كتل من الثوم حول عنقك؟ ربما لا شيء، عدا أنّك قد لا تفعل ذلك إن لم تكن مكسيكياً، وما كنت لانتبه إن لم أك أمريكيًا.

***©* © ©**

مدينة الفتيان- المنطقة- هي اسم على مسمى، لأنًّ كثيرًا منها يعكس بوقاحة فردوس الكوابيس الجنسية لفانتازيا الصبا المحرّمة. إنّه الخوف والرغبة، ضاحية كاملة من الرغبة الجنسية، قد يرى فيها المرء التبعات الوخيمة في كل أمنية جشعة. إنّه الطفل الذي يتوق في خدرٍ إلى إثارة عناق حبيب، ولكن لا طفل يستمتع بهذه الفانتازيا قبل أن يعرف المعادل والمقابل للقلق الذي يعتريه عندما يُطارد من قبل هذا المخلوق ذاته.

شهور من الطقس الشتوي والمطر، وعطالة موسمية قد حوّلت مومسات المنطقة إلى نماذج أشد بؤساً من عشيقات الشياطين. لقد كنَّ يصحن، يشددن الأكمام، ويتجاذبن بالأذرع، في تجسيد تنافسي للجزء العقابي من الفانتازيا الجنسية. شعرت كأنني ليوبولد بلووم وهو يسير في طريقه الخجول إلى الماخور اللانهائي لمدينة الليل، ونسبة لأنّ المرء هنا لا يستطيع التعبير عن اهتمامه دون التعرض للإهانة. ما زاد الأمر سوءاً بالنسبة لي هو أنني كنت مجرد فضولي، لا أنوي حضًا ولا نهيًا. فُهمت خطأ كواحد من معظم أنواع البشر المتضررين عاطفياً والمثيرين للشفقة، أو كمتلصص قصير النظر، لفت انتباهي نوع ملحاح من الكائنات الجنسية لدى وصولي إلى سوق اللحم هذا. وقلت: *إني أنظر فقط*. لكن أنى للبغايا بالصبر على هذا السلوك.

"سيدي!"

"آسف، عليّ اللحاق بقطار."

" في أي وقت يغادر؟"

"ساعة تقريباً."

" ذاك وقت كثير يا سيدي".

الأطفال المهملون، السيدات المسنّات، المعوقون وباعة أوراق اليانصيب، والشباب القذر المتحمس، والرجال الذين يبيعون صواني الشفرات المطوية، وحانات التيكيلا، وأسطوانة الابتزاز المتواصلة، والفنادق التي تمور بالبراغيث- تكاد تصيبني بالجنون. عليّ الإقرار بقدر من الافتتان، لكني خشيت أن أدفع ثمن فضولي. قالت إحدى الفتيات الحسناوات وهي ترفع تنورتها، بإيماءة كسلى عابرة: "إن لم تكن مهتماً بهذا الأمر فلم أنت هنا؟".

كان سؤالاً وجيهاً، ولكن لا إجابة عندي. غادرت. ذهبت إلى مكتب السكة الحديدية المكسيكية لأشتري تذكرة قطاري. كانت البلدة معطوبة جدًا- ليس هناك مبنى بدون نافذة محطمة، أو شارع بلا عربة مهشمة، ولا مزراب لم تسده النفايات، وفي موسم التعرّق هذا وبدون أي حرارة تبرر قذارتها، أو تضفي عليها بعض الرومانسية، كانت قميئة بقسوة. ولكنه مهرجاننا، وليس مهرجان المكسيك. يلزمه الزوار. ظل بعض السكان أنقياء. ذكرت وأنا أدفع نفقات إقامتي في أريكة النوم على قطار نسر الآزتيك، للمديرة الودود أنني جئت لتوي من المنطقة، فأدارت عينيها ثم قالت: " هل أخبرك شيئًا؟ لا أعرف أين يكون ذاك المكان."

" إنّه ليس بعيداً. عليك فقط.."

" لا تخبرني لقد مكثت هنا عامين. أعرف بيتي. أعرف مكتبي. أعرف كنيستي. هذا كل ما أحتاجه."

ونصحتني بقضاء وقتي في مشاهدة التحف بدلًا عن التسكع في المنطقة. وعملت بنصيحتها في طريقي إلى المحطة. حتماً كانت هناك سلال، وبطاقات بريدية، و مُدىً مطوية ولكن هناك أيضاً كانت تماثيل الكلاب والمسيح الجصّية، ومنحوتات لنساء يجلسن القرفصاء، وشتى ضروب الأغراض الدينية: المسابح ضخمة كحبل سفينة، وخرزاتها في حجم كرات البيسبول. وعلى جانب الطريق حوامل المشغولات الحديدية الصدئة بسبب مياه الأمطار، وتماثيل القديسين الكئيبة التي استشهدت في قسوة على أيدي من قاموا بتلوينها، ومنقوش على كل منها عبارة: تذكار من لاريدو الجديدة. "

التحف "وهي الكلمة التي لا تحتاج إلى شرح فعلياً، فهي تعني العجيبة أو النادرة." إنّها شيء لا هدف من ورائه سوى إثبات وصولك: جوزة الهند المنقوش عليها وجه سعدان، ومنفضة سجائر قادحة، وقبعة السومبريرو- لا قيمة لها بدون نقش اسم مدينة لاريدو الجديدة عليها، لكنني لم أر في المنطقة ماهو اكثر ابتذالاً منها. كان هناك رجل على مقربة من المحطة يصهر أنابيب الزجاج، ثم يسحبها لتصبح أرق، ويصنع منها سيارات مصغرة. تكاد مهارته تبلغ مستوى الإبداع الفني، إلا أنَّ النتيجة –كونها لم تتعد السيارة ذاتها كل مرة- افتقرت إلى أي نوع من الخيال. استغرقت القطعة الرقيقة، التحفة الزجاجية هذه ساعات، لقد اجتهد ليصنع تذكاراً سخيفاً مما يمكن أن يكون شيئاً جميلاً. هل صنع شيئاً مختلفاً قط؟

قال الرجل:" لا، فقط هذه السيارة، رأيت صورتها في مجلة."

سألته متى رأى الصورة.

"لم يطرح أحد علي هذا السؤال من قبل! رأيتها قبل عشر سنوات أو أكثر"

"أين تعلمت هذا العمل؟"

" في بويبلا- ليس هنا." رفع أنظاره من موقد اللحام وقال: " هل تظن أنَّ بوسع أحد ما تعلم أي شيء في لاريدو الجديدة؟ هذا أحد الفنون الشعبية في بويبلا. لقد علمت زوجتي وأطفالي أيضاً. تصنّع زوجتي آلات بيانو صغيرة، وابني يصنع حيوانات."

المرة تلو الأخرى، يصنع السيارة ذاتها، آلة البيانو ذاتها، والحيوان ذاته. لم أكن لأنزعج لهذه الدرجة إن كان ينتج أعداداً كبيرة من الأغراض. ولكن المهارة المتقنة، والصبر في النهاية لم ينتجا سوى سقط المتاع. يا له من هدر عظيم، ولكنه لا يختلف عن المنطقة التي تحوّلت فيها الفتيات الصغيرات الحسناوات إلى مومسات نزقات جشعات.

في وقت مبكر من تلك الظهيرة تركت حقيبتي في مطعم المحطة. طلبت قسم الأمتعة. جلست فتاة مكسيكية على طاولة تقيأ عليها شخص ما، دفعت بطبق الفاصوليا المعدني جانباً وقالت: " هذه هي." أعطتني قطعة ورق كتب عليها اسم "بول" بأحمر الشفاه على الحقيبة. لم يكن لدي أدنى أمل بالعثور عليها مرة أخرى. والآن محاولاً استعادتها، قدمت الورقة لفتاة أخرى. ضحكت هذه على الورقة، ودعت رجلاً أحولَ لينضم إليها ويفحص الورقة. فضحك هو الآخر.

قلت: "ما المضحك لهذه الدرجة؟"

قال الرجل أحول العينين:"نحن لا نستطيع قراءة خطها."

قالت الفتاة، وهي تحكّ بطنها:" إنها تكتب باللغة الصينية." وابتسمت وهي تنظر للورقة: " ماهو المكتوب هنا- خمسون أم خمسة؟"

"لنقل خمسة، أو لنسأل الفتاة. أين هي؟"

"شي!" الآن صار الرجل الأحول يتحدث باللغة الإنجليزية-

قال بلهجة ركيكة: "هي ذهبت إلى الشاطيء."

ظنوا أنّ هذا الأمر كان مضحكاً للغاية.

قلت: "حقيبة سفري، أين هي؟"

قالت الفتاة: "ضاعت" ولكن قبل أن أصدر أية ردة فعل، ضحكت وسحبتها خارج المطبخ.

كانت عربة النوم في قطار نسر الآزتيك على بعد مائة ياردة من القضبان، وكنت أتنفس بصعوبة عندما وصلتها. حذائي الإنجليزي المقاوم للتسرب، الذي جلبته لهذه الرحلة على وجه الخصوص لم يقاوم التسرّب هنا، وابتلت ملابسي. حملت حقيبتي على رأسي على طريقة الحمّالين، ولكن كل ما جنيته من هذا هوالصداع النصفي وتسرب مياه الأمطار عبر فتحة ياقتي.

وقف رجل بزيّ رسمي أسود على المدخل، يعترض طريقي: " أنت لا يمكنك ركوب القطار، لأنك لم تمر عبر الجمرك." كان هذا صحيحاً على الرغم من أنني تساءلت كيف له أن يعرف هذا الأمر؟

قلت: " أين الجمرك؟"

أشار إلى الطرف القصيّ من الطريق الذي غمرته المياه وقال بقرف:" هناك."

رفعت حقيبة سفري فوق رأسي مرة أخرى، ظانّا أنني لن أتبلل أكثر من ذلك، وسرت في طريقي أخوض في المياه على الرصيف.

سألت سيدة تتجول بالعلكة والبسكويت، فضحكت عليّ. ثم سألتُ صبياً صغيرا. غطى وجهه. وسألت رجلاً يحمل لوحاً.

قال: " انتظر."

كان المطر يقطر من خلال ثقوب في سقف الرصيف، وقد دفع المكسيكيون أمتعتهم أمامهم وطفقوا يحشرونها عبر نوافذ عربة الدرجة الثانية. وحتى الآن ما زال عدد الركاب ليس كبيراً، بالنسبة لقطار سريع ذي سمعة طيبة. كانت المحطة قديمة وتكاد تكون مهجورة.

تحدثت بائعة العلكة إلى بائع الدجاج المقلي، ولعب الأطفال الحفاة المطاردة، واستمر هطول المطر، ولم يكن صيباً منعشاً منظِّفاً بل كان قاتم اللون، مضجراً، مثل قطع من السخام المتساقط، الذي يلوّث كل ما يمسه على ما يبدو.

ثم رأيت الرجل الذي يرتدي الزي الأسود، والذي اعترض طريق دخولي إلى عربة النوم. كان مبتلًا الآن، وبدا غاضبًا.

قلت:" أنا لا أرى قسم الجمارك."

فأراني أنبوبة أحمر الشفاه، وقال: " هذه هي الجمارك."

ودون أي سؤال آخر، علّم حقيبتي بخط من أحمر الشفاه، وتمطى، وتأوه وقال:" اسرع، القطار على وشك المغادرة."

"آسف لقد جعلتك تنتظر."

كانت عربتا النوم في هذا القطار أمريكيتين قديمتين، من خط حديد أمريكي أعلن إفلاسه. المقصورة حوت مقاعد جلوس وثيرة، وقطع ديكور فنية على الزوايا بهيئة ملائكة، ومرايا ثلاثية الوجوه، ولم تكن جميلة فقط بل مريحة أيضاً وذات بُسُطٍ.

كان كل شيء رأيته في لاريدو الجديدة يبدو لي في حالة من الإهمال، لا شيء يُصان، ولا شيء يُعتنى به، إلا أنّ هذا القطار بعربات النوم المستعملة كان في حال جيدة، وفي غضون سنوات قليلة سيصبح قطعة أثرية مصونة بحال ممتازة. لقد حدث الأمر مصادفة. لم يكن لدى المكسيكيين المال لإعادة بناء عربات النوم بالكروم والبلاستيك كما فعلت آمتراك، ولكن بالمحافظة عليها جيداً تمكنوا من الحفاظ على قطع الديكور الفنية في حالتها الأصلية.

كانت معظم العربات خالية. وبالسير عبرها قبيل إطلاق الصافرة مباشرة، رأيت عائلة مكسيكية، بعض الأطفال يسافرون رفقة والدتهم، وزوجًا من السياح الأمريكيين على وجهيهما انزعاج، وسيدة غامزة متوسطة العمر في معطف من جلد الفهد المقلّد.

في حجرة النوم المقابلة لغرفتي في الناحية الأخرى من الممر، كانت هناك سيدة مسنة ورفيقتها الحسناء، فتاة في الخامسة والعشرين من العمر. كانت السيدة المسنّة تتودد إلي، وتحتد مع الفتاة، التي افترضتُ أنّها ابنتها. كانت الفتاة خجولة للغاية، أضفت ملابسها الرمادية(ارتدت السيدة المسنّة فرو المنك على عنقها) ووجهها العذب- بحزنه الإنجليزي الشاحب- على قسماتها نقاءً عميقًا. لقد حاولت طوال الطريق إلى مدينة مكسيكو أن أتحدث إلى هذه الفتاة، ولكن في كل مرة تقاطعني المرأة المسنّة بسؤال تلو الآخر ولم تسمح للفتاة أن تجيب قط.

خلصت إلى أنّ خضوع الفتاة كان أشد من خضوع بنت لأمّها: لقد كانت خادمة تحرص على التزام الصمت. عيناها خضراوان. وأعتقد أنّ غطرسة المرأة المسنّة لن تحول بينها وبين معرفة مدى جاذبية هذه الفتاة، أو الدوافع الحقيقية لأسئلتي. كان في هذا الثنائي شيء روسيّ، قديم الطراز ولا يُدرك كنهه.

كنت في مقصورتي، أحتسي التيكيلا، وأفكّر كيف قد أصبح كل شيء مختلفاً، قريبة جداً هذه الفوضى المكسيكية الجزلى من الولايات المتحدة(كنت أستطيع رؤية المتاجر الكبرى من المحطة على مرتفعات لاريدو الجرداء).

"معذرة."

إنّه المحصّل، دخل المقصورة وهو يتحدث، وكان لم يزل يتقدم إلى الداخل عندما قال:" سأضع هذه في الأعلى هناك فقط."

كان يحمل حقيبة تسوّق ورقية كبيرة محشوة بالعديد من الحقائب الأصغر حجماً.

ابتسم ابتسامة واسعة، ثم حملها إلى الأعلى. وأشار إلى رف الأمتعة فوق المغسلة.

قلت: "كنت سأضع حقيبتي هناك."

" لا مشكلة. ضع أنت حقيبتك أسفل السرير. انظر. دعني أقوم بذلك."

جثا على ركبتيه، ودفع بالحقيبة حتى توارت عن الأنظار، وعلق على جمالها. لم يخطر لي أن أذكره بأنّ هذه مقصورتي.

سألت:"ما تلك؟"

أمسك بالحقيبة بإحكام أكثر وابتسم مرة أخرى.

قال بمرح. " بعض الأشياء، هذا كل شيء."

دفع الحقيبة على رف الأمتعة- كانت أكثر انتفاخاً من أن تُستوعب تحت السرير- وقال: "لا مشكلة، اتفقنا؟"

شغلت كامل مساحة الرف.

قلت: "لا أعلم."

سحبت الفتحة إليّ قليلاً محاولاً إلقاء نظرة إلى داخل الحقيبة. وبضحكة قلقة وضع يده على كتفي، وأزاحني بعيداً: "كل شيء على ما يرام!"

كان يضحك وهذه المرة بنوع من الامتنان الحصيف.   
قلت: " لم لا تضعها في مكان آخر؟"

قال: " هنا أفضل بكثير، حقيبتك صغيرة. تلك فكرة جيدة- كنت دائماً أسافر بحقائب صغيرة. إنّها تناسب المساحة هناك في الأسفل."

" ماهو هذا الشيء؟"

لم يجب. ولم يبعد يده عن كتفي. والآن صار يضغط برفق، وأجلسني. رجع إلى الوراء، ونظر إلى يسار ويمين الممر، ثم تراجع إلى الخلف، وانحنى قائلاً بلغة إسبانية جذلى: " الأمور طيبة. أنت سائح. لا مشكلة."

ابتسمت له، وللحقيبة: " حسن جداً إذن."

توقف عن الضحك. وأعتقد أنّ به قلقَا من رغبتي في قبول الحقيبة. فأغلق باب المقصورة قليلاً، وقال:" لا تقل شيئاً."

وضع أصبعاً في شفتيه واستنشق الهواء.

حاولت النهوض قائلاً:" أقول شيئاً؟ لمن؟"

أشار لي بالعودة إلى مقعدي. " لا تقل أي شيء."

أوصد الباب.

نظرت إلى الحقيبة.

بعد برهة وجيزة، طُرق الباب. المحصّل ذاته، وابتسامة جديدة: "العشاء جاهز!"

انتظر هو، وعندما غادرت المقصورة، أغلق هو الباب. كنت في غرفة الطعام التي حاولت فيها ابتدار حوار مع الفتاة خضراء العينين.

أجابت المرأة المسنّة على جميع أسئلتي. كانت لدي عبوتان من الجعة البوهيمية، ودجاجة نحيلة. أعدت المحاولة. ولاحظت أنّ المرأة المسنّة تجيب دائماً بالضمير "أنا" بدلًا عن "نحن". "أنا ذاهبة إلى مدينة مكسيكو."، "لقد كنت في لاريدو الجديدة." إذن كانت الفتاة في أغلب الاحتمالات خادمة، جزءًا من متاع السيدة المسنّة.

بالتركيز على هذه المشكلة، لاحظت بالكاد دخول ثلاثة من الرجال بالزي الرسمي إلى غرفة الطعام. رأيتهم..مسدسات، وشوارب، وهراوات، ورقاب قصيرة- ثم ذهبوا. بالمكسيك أعداد كبيرة من الرجال الذين يرتدون أزياء رسمية غامضة: بدوا جزءًا من المشهد العام.

قالت المرأة المسنّة: " أنا أعيش في كويواكان". زال بعض من أحمر الشفاه الذي تضعه بسبب الأكل، فوضعت المزيد منه.

قلت:"ألم يعش تروتسكي هناك؟"

أتى رجل في زي ضيافة أبيض ووقف إلى جانب ذراعي.

"عد إلى مقصورتك. إنّهم يريدونك."

"من يريدني؟"

"الجمارك."

"لقد اجتزت الفحص الجمركي." تحدثت باللغة الإنجليزية في قلق من المشكلة.

" أتتحدث الإسبانية."

"لا"

نظرت إليّ المرأة المسنّة بحدة ولم تقل شيئاً.

قال المضيف:" الرجال. إنّهم يريدونك."

"سأنهي هذه الجعة فقط."

أبعد المضيف الكأس عن متناول يدي. "الآن."

كان الرجال الثلاثة المسلحون بأزيائهم الرسمية ينتظرونني أمام المقصورة. اختفى المحصّل عن الأنظار، إلا أنّ المقصورة فُتحت ومن الواضح أنّهما غادرا وتركاني أواجه الأمر وحدي.

قلت: " مساء الخير." فتبادلا النظرات المتجهمة لدى سماع لغتي الإنجليزية. أخذت جواز سفري، وتذكرة القطار، وبطاقتي الصحية، ولوحت لهم لألفت انتباههم. " سوف تجدون أنّ لدي بطاقة سائح مكسيكي، وتطعيم ضد الجدري، وجواز سفر ساري المفعول. انظروا." قلّبت صفحات إضافية من جواز سفري وعرضت عليهم الدمغات البورمية الملصقة بتأشيرة بورما، وإذن إعادة الدخول إلى لاوس، والإيصال الذي يصرّح لي بالدخول المفتوح إلى غواتيمالا. شتت هذا انتباههم للحظة- فغمغموا وقلبوا الصفحات- ودخل أقبحهم إلى المقصورة و ضرب بهراوته على رف الأمتعة.

"هل هذه لك؟"

قررت ألا أفهم الاسبانية. حتى أعطي إجابة صادقة كان علي إدخال المحصّل في الصورة- وربما كان الأمر يخصه أكثر مني. ولكن في وقت مبكر من ذلك اليوم رأيت ضابط جمرك متنمرًا يضايق مكسيكياً مسنّا بسلسلة من الإهانات المرتجلة. كان الشيخ برفقة صبي صغير، واحتوت حقيبتهما على ثلاثين كرة تنس. جعلهما ضابط الجمارك يفرغان الحقيبة، وتدحرجت كرات التنس في جميع الاتجاهات، وبينما كان الضحيتان يطاردانها، طفق ضابط الجمارك يركل الكرات ويكرر بلغة إسبانية: " لقد اكتفيت من تبريركما!." أصابني هذا الحادث بكراهية لا ترحم تجاه جميع ضباط الجمارك المكسيكيين والتي كانت أكبر من غضبي الشديد على المحصّل الذي تسبب في مشكلتي الحالية.

بدون أن أقول نعم أو لا، قلت بسرعة باللغة الإنجليزية: " كانت هذه هنا لبعض الوقت، حوالي ساعتين."

قال باللغة الإسبانية لدى سماعه إجابتي: " هي لك إذن."

" لم أرها من قبل في حياتي."

"إنّها له." هتف باللغة الاسبانية، فزمجر الرجلان في الممر. ابتسمت للرجل وقلت له: يبدو أنّ لدينا سوء فهم كبيرًا هنا." توقفت، وسحبت حقيبتي من تحت المقعد وقلت:" انظروا. لقد كنت في الجمارك بالفعل- هناك لطخة بأحمر الشفاه على الجانب. سأفتحها لكم بكل سرور. لدي بعض الملابس القديمة، وبعض الخرائط.."

قال الرجل باللغة الإسبانية: " ألا تتحدث اللغة الإسبانية؟"

قلت باللغة الإنجليزية: "لقد دخلت المكسيك قبل يوم واحد. لا نستطيع توقع المعجزات، هل نستطيع؟ أنا سائح."

فصاح بمن في الممر:" هذا الرجل سائح."

وبينما كنا نتحدث، زادت سرعة القطار، فترنح، فاصطدمنا ببعضنا البعض. وعندما مال رجل الجمارك، ذهبت يداه إلى هراوته، ومسدسه ليحافظ على توازنه. كانت عيناه ضيقتين، وفي صوته نبرة تهديد بينما كان يقول باللغة الإسبانية وفي بطء:" إذن كل هذا لك، شاملاً الطرد الموجود في الرف العلوي؟"

قلت بلغة إنجليزية: " ماذا تريد أن ترى بالضبط؟"

فنظر مرة أخرى إلى الحقيبة وضغطها. كان فيها صوت رنين. بدا مرتاباً للغاية، ولكنه أيضاً كان حزيناً لأنّي كنت أستحق بعض الخصوصية كوني سائحاً.

كان ذاك المحصّل يعرف هذا الأمر بالتفصيل.

قال ضابط الجمرك:" رحلة طيبة."

"وأنت كذلك."

وعندما غادروا. عدت إلى عربة الطعام وأنهيت جعتي. كان النُدل يتهامسون، وهم يجمعون الأطباق من الطاولات.

وصلنا إلى إحدى المحطات، وعندما توقفنا، كنت متأكداً من مغادرة ضباط الجمارك. هرعت إلى مقصورتي، وفضولي يكاد يقتلني لمعرفة محتويات الحقيبة. شعرت بعد ما حدث بأحقيتي في النظر داخلها. كانت العربة فارغة. مقصورتي كما تركتها. نظرت إلى الباب من خلفي، ووقفت في المرحاض حتى أستطيع النظر بوضوح إلى رف الأمتعة. لكن حقيبة التسوق اختفت.

كنا قد غادرنا لوريدو الجديدة في الغسق. والمحطات القليلة التي توقفنا فيها مؤخراً في المساء كانت ضعيفة الإضاءة، ولم أستطع معرفة اسمائها المكتوبة على اللافتات. سهرت في قراءة رواية "الرجل النحيل"، التي قد وضعتها جانباً في تكساس. لقد استغلقت عليّ حبكتها تماماً، لكن شرب الخمر ما زال يثير اهتمامي. جميع الشخصيات عاقرت الخمر. لقد تقابلوا من أجل كؤوس الشراب المشكّل، وتآمروا في الحديث الذي قالوه عن الشرب وكانوا مخمورين دائماً. نيك، وتشارلز، ومحقق هاميت شرب أكثر منهم جميعاً. أصيب بدوار الخمر، ثم شرب ليعالج الدوار. شرب قبل الإفطار، وطوال اليوم، وآخر شيء فعله في الليل كان احتساء كأس. في صباح ما كان يشعر بالسوء، فقال وهو يشكو:" علي أن أذهب إلى الفراش صاحياً،" ثم صب لنفسه شراباً قوياً. ألهاني الشراب عن الأدلة كما منعتني تشنجات وجه رئيس مالاوي باندا من سماع أي مما قاله. ولكن لم كل هذا الكحول في هذه القصة البوليسية؟ لأنّها وضعت-وكتبت- أثناء الحظر. علّق إيفلين واغ مرة بأنّ سبب وجود وجبات كبيرة في رواية " العودة إلى كنيسة برايدزهيد"[Brideshead Revisited] هو أنّها كتبت في زمن الحرب وفترة حصص التموين، عندما كان الحديث عن جميع الأشياء التي يمكن صنعها من فول الصويا. وبحلول منتصف الليل كنت قد أنهيت قراءة رواية "الرجل النحيل" وزجاجة التيكيلا.

لم تفدني الاستعانة بغطاء ثانٍ في مقصورتي. استيقظت ثلاث أو أربع مرات وأنا أرتعش من البرد، وفي ظني - من السهل جداً خداع الذات في قطار مظلم- أني عدت إلى منزلي في ميدفورد. رافقني شعوري بالبرد حتى الصباح التالي، الستائر مسدلة، لم أكن متأكداً في أي بلد كنت. دفعت الستائر إلى الأعلى، ورأيت شروق الشمس خلف شجرة خضراء، كانت شجرة منعزلة، ومنحتها الشمس الطالعة سمة رمزية في المشهد الحجري. كانت عموداً شاحباً، مرصعاً بفاكهة كالقنابل اليدوية، ولكن بينما كنت أراقبها تزداد سمكاً، واختلافاً عن الاشجار حتى تحولت في آخر المطاف إلى شجيرة صبّار. كان هناك المزيد من أشجار الصبّار- بعضها يشبه المصابيح المحروقة، وبعضها أكثر شبها بالشمعدانات، حيث لا أشجار. كانت الشمس، في ذلك الصباح الباكر مشرقة وكست التلال التي تعرجت على البعد زرقة، وأضفت على أشواك الصبّار الحادة وهجاً. وامتدت ظلال الصباح الطويلة ثابتة ومظلمة كما البحيرات، وزينت الأرض الوعرة بالحدود المستقيمة. تساءلت عما إذا كان الطقس باردًا في الخارج حتى رأيت رجلاً- الآدمي الوحيد في تلك الصحراء- في عربة يجرها حمار، ولها صرير على طريق ربما كان في الأصل جدولاً جافاً. كان الرجل يرتدي ملابس ثقيلة وقد أطبقت قبعته الواسعة على أذنيه. ولف حول وجهه وشاحاً كستنائي اللون، وسترة مبطنة بالخرق المشرقة الألوان. ما زال الوقت مبكراً. وبينما ترتفع الشمس في السماء، ويزداد النهار حرارة، تنشط الروائح، حتى إن ذلك المزيج المكسيكي العجيب من التوهج والانطفاء، والسماء الزرقاء والتشرد، يتحقق ويزداد رسوخاً.

ها هي بلدة بوكاس الكئيبة في هذا الطقس المشمس. هنا كانت أربع شجرات خضر، وكنيسة على هضبة شديدة الانحدار، احمرّ لونها الأبيض بسبب الغبار، وحجم نبات الصبار كبير جداً بحيث تُربط الأبقار على جذوعه الشوكية. ولكن معظم البلدة كان متشابهاً، الكنيسة كانت تشبه المنزل، والمنازل كانت ملاجيء، وأكثر الأشجار كانت صبّاراً، وبعد التجريف الذي اعترى التربة السطحية بدت المحصولات مثل الفلفل الأحمر والذرة هزيلة غثة. بعض الأطفال في ملابسهم الممزقة قفزوا ليشاهدوا القطار، ثم ركضوا لدى سماعهم صوت البوق إلى الطريق الرملي لرؤية شاحنة الكوكاكولا المحملة جداً، وهي تغوص حتى محورها في الرمال- وتتجه إلى متجر البلدة الوحيد.

عادة ما يضع المكسيكيون نفايات البلدة على طول قضبان السكة الحديد. والأوساخ التي يرميها الفقراء جداً سيئة فوق التصّور، وعلى الرغم من أنّها ستنطفيء لكن حرقها من الأساس أسوأ بكثير. في مقلب بوكاس الذي يعتبر جزءاً من محطة بوكاس، ثمة كلبان ينقبّان في كومة نفايات، وخنزيران آخران. ومضت هذه الحيوانات في التنقيب- محتفظة بمسافات بينها- ولاحظت أنّ كلا الكلبين كانا يعرجان، وكان أحد الخنزيرين أجدع الأذن. تليق الحيوانات المشوّهة بالمدينة المشوّهة، والأطفال الشعث، وملاجيء المدينة المتداعية. توقفت شاحنة الكوكا كولا. والآن كان الأطفال يراقبون رجلاً يسحب خنزيراً هائجاً عبر القضبان. كانت قائمتا المخلوق الخلفيتين مقيدتين، وقد سحب الرجل المخلوق الصارخ إلى الوراء. أنا لا أعتبر نفسي من محبي الحيوانات، ولكن هناك فرق كبير بين عدم حبها والتمثيل بها وتعذيبها.

ثم رأيت شبهاً بين أحوال الحيوانات الأليفة والأشخاص الذين يسيئون معاملتها. إنّه الازدراء ذاته، إذ يشترك الكلب المضروب، والسيدة التي تحمل العصا في الخوف البادي في عينيّ كل منهما. إنّ الأشخاص الذين تعرضوا للضرب هم من يضربون حيواناتهم.

قال المحصّل:"بوكاس، تعني قبلة." قال هذا ومس شفتيه ثم ضحك.

قلت بلغة إسبانية: " لم لم تخبرني أنّك مهرّب؟"

"أنا لست مهرّباً."

"إنّها ليست محظورة، إنّها بعض الأشياء فقط."

"لم وضعتها في غرفتي؟"

" هذا أفضل من وضعها في غرفتي."

"إذن لم أخذتها من غرفتي؟"

كان صامتاً. وكنت سأتركه، لكني تذكرت مجدداً أنّه كان سيتسبب في دخولي سجن لاريدو الجديدة هذا الصباح.

قلت:" لقد وضعتها في غرفتي لأنّها محظورة."

"كلا"

"أنت مهرّب."

"أبداً"

"أنت خائف من الشرطة؟"

"نعم"

سحب الرجل الأشعث خارج القطار خنزيره عبر القضبان. والآن صار يسحب الخنزير ليرفعه على شاحنة بصندوق تقف قرب المحطة. صرخ الخنزير، وتناثرت الحجارة من احتكاك أقدامه بالأرض، بدا مسعوراً لأنّه كان ذكياً بما يكفي ليتيقن من حتمية خسارته.

قال المحصّل:" رجال الشرطة يضايقوننا. إنّهم لا يضايقونك. انظر، هذه ليست الولايات المتحدة. هؤلاء الرجال يريدون المال. فهمت؟" صنع الرجل مخلباً من أصابع يده البنيّة وسحبها، "هذا ما يريدون- المال."

"ماذا كان في الحقيبة؟ مخدرات؟"

قال:" مخدرات!" بصق خارج الباب معبّراً عن مدى سخافة السؤال.

"ماذا إذن؟"

"أواني مطبخ."

"هل تهرّبون أواني الطبخ؟"

"أنا لا أهرّب أي شيء. أنا أشتري أواني الطبخ من لاريدو. وآخذها لمنزلي."

"أليس لديكم أواني طبخ في مدينة مكسيكو؟"

قال:"في مكسيكو لدينا هراء" أومأ ثم أضاف:" بالطبع لدينا أواني طبخ. ولكنها غالية. وهي رخيصة في أمريكا."

"لقد سألني رجل الجمارك إن كانت تخصني."

"ماذا قلت له؟"

" لقد قلت لي :" لا تقل شيئاً" لم أقل شيئاً."

" أترى؟ لا مشكلة!"

"لقد كانوا في حالة من الغضب الشديد."

"بالطبع. لكن ماذا بيدهم فعله؟ أنت سائح."

انطلقت صافرة القطار لتبتلع صرخات الخنزير. وبدأ القطار يسير خارج بوكاس.

قال المحصّل:" إنّه سهل عليكم أيها السائحون."

"إنّه سهل عليكم أنتم أيها المهربون بفضلنا نحن السائحون."

هناك في تكساس، قال وهو يلوّح بيده، خذ الشارع الرئيسي، والمركز التجاري الحديث وعدد من الشركات المالية. يقول التكساسيون: " جميعها لم تكن سوى صحراء قبل سنوات قليلة." يسلك المكسيكي نهجاً مختلفاً. إنّه يلحّ عليك لتتجاهل الظروف السيئة الراهنة، وتتأمل أمجاد الماضي. وبينما كنا ندخل إلى سان لويس بوتوسي قبيل ظهيرة ذاك اليوم الذي بدأ بارداً، والآن صار مشمساً وقائظ الحرّ، رأيت الأطفال العراة، والكلاب العرجاء، والسكن في فناء القطار الذي كان يحوي خمسين شاحنة، وتغطية الأبواب بالغسيل الباهت، وإضافة خن للدجاج، والأطفال، ورفع صوت الراديو الخاص به، يصنع المكسيكي من شاحنته كوخاً، ويتظاهر بأنّه منزل. إنّه حي فقير مخيف ونتن الرائحة، ولكن الرجل المكسيكي الواقف على باب نسر الآزتيك معي كان يبتسم.

قال:" قبل سنوات طويلة، كان هذا منجم فضة."

العربات التي تقاربت بينها المسافات الآن، صارت مرعبة، وحتى شجيرات الغرنوقي، والنساء اللواتي يحضرّن الطعام في المداخل، والديوك التي تصيح من الأسلاك، كلها لا تستطيع تغطية قسوة حقيقة أنّ الشاحنات لن تغادر المكان شبراً. كانت عربات لنقل الماشية، وتنكرت لوظيفتها السابقة هنا في سان لويس بوتوسي.

كان الرجل المكسيكي متحمساً. ولكنه كان يستعد للنزول من القطار، فهو يعيش هنا.

قال إنّ هذا المكان كان مشهوراً. كانت هناك كنائس كثيرة جميلة في سان لويس بوتوسي، كانت مثالية جداً، وغاية في الروعة، والقدم.

سألت: " هل هناك أي كاثوليك؟"

فأعطاني ضحكة صغيرة ماكرة ثلاثية الإيقاع، وغمزة ملحدة. " كثير جداً!"

"لماذا يعيش هؤلاء الناس في عربات الماشية؟"

قال وهو يشير إلى أعلى الشاحنات:" هناك في الأعلى، قصر هيدالغو، إنّه مبنى رائع. قصر الحكومة. كان بينيتو خواريز هناك- لابد أنّك سمعت عنه. أصدَر أمراً بإعدام ماكسيميليان في هذا المكان ذاته ".

شد شاربه، وابتسم فخوراً بوطنه. ولكن الفخر الوطني المكسيكي كان ماضوياً ومتجذراً في كراهية الأجانب.لدى قلة من بلدان العالم أسباب أعظم لتكون كارهة للأجانب. ومن جهة أخرى تعود أصول هذه الكراهية تجاه الأجانب إلى هنا، سان لويس بوتوسي. مثل العديد من الإصلاحيين دخل بينيتو خواريز في الديون: يبدو إنّها حالة ملازمة للحكومات الإصلاحية. وعندما علّق سداد الديون الوطنية، غزته القوات الاسبانية، والبريطانية، والفرنسية مجتمعة. ولكن في النهاية تبقت القوات الفرنسية، وعندما رأى عجزه عن حماية مدينة مكسيكو، انسحب خواريز إلى بوتوسي، ودخلت القوات الفرنسية مدينة مكسيكو في شهر يونيو من عام 1863، ونصّبت ماكسيميليان الآرشيدوق النمسوي امبراطوراً جديداً لمدينة مكسيكو. اتسم حكم ماكسيميليان بالاضطراب والتخبط، كان طاغية حسن النوايا. ولكنه كان ضعيفًا ويحتاج إلى حضور الفرنسيين ليحافظ على سلطته، كان حظه من الدعم الشعبي ضئيلاً. (على أية حال قيل إنّ الهنود أحبوه لأنّه كان أشقرَ. مثل كواتزلكوتل[[14]](#footnote-14)، وكورتيز[[15]](#footnote-15) الذي ذاع صيت غرابته لشبهه بالثعبان ذي الريش أيضاً)، الأسوأ من ذلك، كان ماكسيمليان أجنبياً. كراهية المكسيكيين للأجانب أمر أقوى من أي ميل إلى المشاحنات الداخلية، وهي لم تكن موجودة قبل وقت طويل من التنديد بماكسيمليان عبر منابر كنائس الكاثوليك لإصابته بمرض الزُهريّ. ولم تنجب منه زوجته الامبراطورة شارلوت: وعُدّ هذا برهاناً على ذاك. قامت شارلوت برحلة مستميتة إلى أوربا لحشد الدعم لصالح زوجها، ولكن لم تجد سوى التجاهل، ففقدت عقلها وتوفيت مختلة العقل. وفي أثناء ذلك، دخلت أمريكا في الحرب الأهلية، وطالبت الفرنسيين بالانسحاب من المكسيك في الوقت ذاته. وبعد الحرب الأهلية بدأت أمريكا- التي لم تعترف قط بماكسيمليان- بتسليح خواريز ووقع ماكسيميليان في الأسر أثناء حرب الغوريلا التي أندلعت في المكسيك عام 1867، فاستعاد خواريز مدينة سان لويس بوتوسي واتخذها عاصمة له. عززت المساعدة الأمريكية الإيمان بقضية القومية المكسيكية لدينا. فوق كل شيء كان خواريز نقي العرق من الهنود الزابوتيك، وكان أحد الحكّام المكسيكيين القلائل الذين انتهت حياتهم بميتة طبيعية. ولكن خلفه الشرير الجشع بورفيريو دياز رحَّب- لقاء ثمن مقبوض- بأولئك الذين نسميهم الآن محسنين ورواداً، آل هيرست، وشركة حديد الولايات المتحدة، وشركة الأناكوندا، وشركة ستاندرد للنفط، وشركة آل غوغنهايم. على الرغم من أنّ رالف والدو إيمرسون كان يكتب طوال الوقت في زمن حكم سانتا آنا المصاب بجنون الارتياب (طالب سانتا آنا بأن يلقّب بصاحب السمو الأرفع- كثيراً ما خلع الطغاة المكسيكيون على أنفسهم ألقاباً ملكية: نصّب إتوربيدي الجزار الكريولي نفسه باسم أوغسطين الأول)، وكانت أبياته معارضة لمغامرة آل **غنغهايم تحديداً**:

ولكن من الذي يثرثر

عن ثقافة الإنسان،

عن حياة وفنون أفضل

اذهب، أيها العظاءة العمياء، اذهب،

انظرإلى الدول الكبرى

المكسيك المسرعة

ببندقية وبسكين

لم تكن المكسيك تحت حكم دياز صناعية، أو بائسة، أو مهادنة هكذا. أمريكا الإسبانية ملعونة بغرور رجال الدولة الفاسدين، بينما ظل الهنود والفلاحون كما هم. وفي تلك الثورة الدموية التي أفرزتها دكتاتورية دياز- ثورة الفلاحين عام 1910، والتي وصفت في كتب ب. ترافن ثورة المشانق، وخمسٍ غيرها من روايات الأدغال المغرضة – عندما تسلل دياز خلسة على متن قطار بناه بنفسه، وهرب متخفياً إلى فيراكروز ثم منها إلى منفاه في باريس.

" وهناك"- مازال الرجل المكسيكي يتحدث-" في بوتوسي، كُتب نشيدنا الوطني." وقف القطار على رصيف طويل. " وهذه واحدة من أحدث محطات السكة الحديد في البلاد."

كان يتحدث عن المبنى نفسه، ضريح لمسافرين مخدرين، حملت جدرانه العليا جصّيات فرناندو ليل. وكانت تتبع الأسلوب المكسيكي في التصميم الداخلي للمباني العامة، الميل لمشاهد الحشود والقطع الحربية بدلاً عن ورق الحائط. في هذه حشد مسعور يبدو أنّه منكبّ على تفكيك قاطرتين مطاطيتين، وهرج تحت سماء تُرعد، وأقنعة، وسهام، ومعاول، ورموز صاعقة: ربما اتخذها بينيتو خواريز شعاراً. إن استخدم الفنانون المكسيكيون قماش الكتان العادي في الرسم، لما رأيت هذه النتيجة. كتب إلدوس هاكسلي في كتابه وراء خليج المكسيك " لفتت جصّيات دييغو ريفيرا في فناء وزارة التربية الانتباه لكثرتها. لابد أنّ هناك حوالي خمسة أو ستة أفدنة منها." ومن الفنون الجدارية التي رأيتها في المكسيك، خلصت إلى أنَّ الفنانين استلهموا جل أعمالهم من غلّي جيمسون[[16]](#footnote-16).

ذهبتُ إلى الميدان، واشتريت صحيفة مكسيكية وأربع موزات. بقية الركاب اشتروا كتباً مصوّرة. لدى عودتي إلى الرصيف، وأثناء انتظار تحرّك القطار شاهدت تلك الفتاة ذات الوجه الشاحب والعينين الخضراوين وكانت تحمل مجلة ابتاعتها للتو. عندما رأيتها كانت كتاباً مصّوراً، فانطفأ جل شغفي. لم تكن رؤية امرأة حسناء تقرأ كتاباً مصوّراً أمراً مشجعاً. لكن المرأة المسنّة لم تك تحمل شيئاً. أكانت الفتاة خضراء العينين تحمل كتاب المرأة المسنّة المصوّر؟ صرت مهتماً بالفتاة من جديد، وانسللت متجهاً إليها.

"كان الطقس بارداً ليلة أمس."

لم تقل الفتاة شيئاً.

قالت المرأة المسنّة: " لا تدفئة في هذا القطار."

قلت للفتاة:" على الأقل الطقس دافيء الآن."

ثنت الفتاة كتاب القصص المصوّرة على هيئة أنبوب، وأمسكت به.

قالت السيدة المسنّة: " أنت تتقن الإسبانية. أتمنى لو تعلمّني بعض الإنجليزية. أعتقد أنني كبرت على التعلّم!"

نظرت لي بحياء من وراء أهداب وشاحها ثم صعدت إلى القطار. تبعتها الفتاة طواعية، وهي ترفع حاشية ثوب المرأة المسنّة من الدرجات المتربة.

كانت السيدة ذات معطف جلد الفهد على الرصيف أيضاً. وهي الأخرى كانت تحمل كتاباً مصوّراً بيدها. ابتسمت لي وقالت: " أنت أمريكي، بوسعي أن أجزم بذلك."

"نعم. من ماساتشوسيتس."

" بعيد جداً."

"أنا ذاهب إلى أبعد من ذلك حتى." في هذه اللحظة كنت مسافراً لستة أيام فقط: ولكني أصبت بالقلق عندما تذكرت مدى بعد باتاغونيا."

"في المكسيك؟"

"نعم، ثم غواتيمالا، وبنما، وبيرو..." توقفت هناك. بدا لي الحديث أنّ عن الوجهات مجلبة لسوء الحظ."

قالت: " لم أذهب قط إلى أمريكا الوسطى."

" ماذا عن أمريكا الجنوبية؟"

"أبداً، ولكن بيرو- أليست في أمريكا الوسطى؟ لا؟ بالقرب من فيزويلا؟"

"لا أعتقد ذلك."

هزت رأسها في شك. " كم تطول إجازتك؟"

"شهران، ربما أكثر."

"إذن سترى ما يكفي."

انطلقت الصافرة. فأسرعنا إلى الدرج.

قالت: " شهران إجازة! هذه هي وظيفة أحلامي. ماذا تعمل؟"

"أنا مدرّس."

" أنت مدرّس محظوظ."

"هذا صحيح."

قمت بفتح صحيفة إل سول دي سان لويس[[17]](#footnote-17) في مقصورتي، ورأيت على الصفحة الأولى صورة سفينة غارقة في ميناء بوسطن، والعنوان الرئيسي: الفوضى والموت عقب عاصفة عنيفة في الولايات المتحدة. كان الخبر مفزعاً: بلغ ارتفاع الثلج قدمين في بوسطن، وعدد من الوفيات، وأغرق انقطاع التيار الكهربائي المدينة في ظلام دامس. كانت هذه واحدة من أسوأ العواصف في تأريخ بوسطن. لقد جعلتني أشعر كأني طفيلي، مذنب، ومتسلل نجح في الهرب، كما لو كنت أعلم مسبقاً أنني أفر من الفوضى والموت في سبيل هذه الرحلة على متن قطار مشمس. وضعت الصحيفة جانباً، ونظرت من النافذة. في واجهة المشهد، وفي أخدود بلون البسكويت، قطيع من الأغنام تقضم خصلات الشعب وصبي جلس القرفصاء تحت شجرة. الشمس تتوهج في سماء صافية. وعلى البعد كانت بقايا منجم الفضة المهجور في صحراء قاحلة صفراء تحفّها تلال وعرة، وشجيرات مثل اليُّكة التي تصنع منها خمر التيكيلا، وصبّار بأشكال غريبة- أشياء صلبة كبيرة تشبه أشجار ضخمة نمت عليها مضارب البنغ بونغ، أو حزم من السيوف، أو باقة من تشكيلات الأنابيب الشائكة.

ظللت أقرأ عن العاصفة الثلجية طوال نصف الساعة التالية، ومن وقت لآخر- بين الفقرات أو عند قلب الصفحة- كنت أنظر لأريح عينيّ، وأرى رجلاً يحرث التراب بثورين، وشفرة حرث صغيرة، أو مجموعة من النساء الجاثيات، يغسلن عند الجدول الضحل، أو حمار صغير محمّل بحطب الوقود. ثم الخبر: تُركت السيارات وقد تقطعت بها السبل..أغلقت المكاتب..أصيب البعض بالنوبات القلبية...أغلق الجليد والثلج الطرق..

سمعت طرقات. كان مضيف عربة الأكل، يقرع مجموعة من الأجراس. هتف:"الغداء! النداء الأول للغداء!"

الغداء وصحيفة الصباح في قطار نسر الآزتيك: كان هذا رائعاً. غيمة حارة تظلل السهول، التي كستها الزروع خضرة، ارتفعت الحرارة حتى لم يعد ثمة ما يتحرك سوانا. لا أحد في الحقول، ولا عند الجداول امرأة تغسل ثيابها، على الرغم من بقايا الرغوة على المياه الضحلة. اجتزنا كويريتارو، حيث أُعدم ماكسيميليان، وهنا جلس المكسيكيون بسحناتهم السمراء القوية، يحدّقون من مداخل المنازل. كانوا مختلفين تماماً عن المهرجين ذوي الأسنان الذهبية الذين رأيتهم في لاريدو الجديدة، لقد بدوا عصاة، مستهجنين تحت حواف قبعاتهم العريضة. أمام المنازل بعض الظل، وفي وهج شمس هذه الظهيرة اللوّاحة لا يتحرك شيء.

سرعان ما كنا في شبه الصحراء، ونحن ننطلق بسرعة عبر السحابة القائظة تمكنت من رؤية مخطط بقلم الرصاص لسلسلة جبال مادري الشرقية. في وسط هذه السهل المخبوز بأشعة الشمس، ثمة حمار صغير مربوط بقرب شجرة صغيرة، مخلوق ساكن في بركة من الظِّل.

انتهى الغداء. وغفا النُدل الثلاثة والطباخ على طاولة بالزاوية. نهضت، وكنت أسير عبر عربة الأكل عندما اصطدمت التعاشيق فترنحت. ارتج القطار واقفاً فجأة، فسقطت مرشات الملح والفلفل على الأرض.

قال نادل وهو يفتح عينًا واحدة:"عجل صغير سمين، ولكن فات أوان القلق عليه الآن".

صعد قطار نسر الآزتيك عبر كيروروجان، وهو إقليم تلال شديدة الانحدار تغطيها أشجار صغيرة. تحرك ببطء مكنني من قطف الزهور البرية على طول الطريق أثناء صعوده الحلزوني. ولكنه انحدر عند هبوطه بسرعة صاخبة رقًصت تعاشيق القطار الرومبا تحت الدهليز حيث كنت أقف لأتنسم الهواء. انقشع الضباب في هذا الارتفاع البارد، واستطعت الرؤية لخمسين ميلاً أو أكثر عبر السهل الأخضر المزرق. هذا لأنّ القطار ظل يتحرك جيئة وذهاباً على سفوح التلال، وكان المنظر يتغير باستمرار: من هذا السهل إلى سلسلة من التلال، ومن ثم إلى الوديان الخصبة ذات أشجار طويلة تشبه الريش في أعمدة على طول ضفاف الأنهار المزبدة، وأحياناً مضيق من ألواح الجرانيت العمودية. كانت أشجار الكافور، أفريقية مثل المشهد، الذي كان هائلاً من الصخر والفضاء.

لا أحد في المحطة النظيفة في هويتشبان. لم يصعد أحد، ولم ينزل، فقط رجل الإشارة غامر بالخروج من القطار حاملاً رايته. في هذا المكان كما في غيره من الأمكنة تُغسل الملابس في الصباح عند النهر، وتنشر لتجف، إلا أنها كانت تعلّق على أشجار الصبار هنا على الطريقة المكسيكية، وتحوّل إلى شخوص تربض في أسمال نظيفة. يهتز القطار بشدة عند الرصيف في هويتشبان فيضفي على المكان هيبة عظيمة، ولكن عندما غادرنا نظرت إلى الوراء، فبدت كأن وحدة حارقة تهبط على المحطة الصغيرة مثلما يهبط الغبار على الأرض وظل شجر الصبّار منحنياً تكسوه أسماله، مثل أشباح ركاب تخلفوا عن القطار.

أثناء تلك الظهيرة الطويلة، قرأت قاموس الشيطان، لامبروسي بيرس، وهو كتاب سخرية سوداء، و تهكم مغرور. التفتّ أولاً إلى السكة الحديدية، حيث يعرفها بيرس بأنّها: رئيسة عدد من الأجهزة الميكانيكية التي تمكننا من الابتعاد عن المكان الذي كنّا، إلى مكان آخر حيث لسنا أفضل مما كنا عليه.

قدمان من الثلج في بوسطن، وفوضى ووفيات، وانقطاع كهرباء في درجات حرارة تحت الصفر، وخارج نافذتي هنا، شمس المكسيك المشرقة، والتلال القديمة، وأصص أزهارالغرنوقي القرمزية في صناديق نوافذ الأكواخ. ويستأنف بيرس: " ولهذا الغرض فقد رفع المتفائل السكة الحديدية إلى مكانة علية، لأنّها تسمح له بالانتقال بآمال عظام."

لم يكن بيرس عبقرياً، لكنه مضحك أحياناً، مع إنّه يخطيء في الهدف من وقت لآخر، فيفرض وجهة نظره، ليبدو متكلفاً ومبهرجاً. لقد كان يدعى الأمريكي الظريف، ولكن أسلوب فكاهته اللاذع لا يكاد يؤهله لهذا الوصف. لم يكن غاضباً ولا مجنوناً ولا عارفاً كالظريف، وعاش في عصر اتسم ببساطة الذائقة الأدبية. إن كانت أمريكا في القرن التاسع عشر معقدة بما يكفي لتحتاج إلى ظريف، لأنتجت واحداً. لكل بلد كُتَّابه الذين يحتاجهم ويستحقهم، ولذلك أنتجت نيكاراغوا كاتبًا واحدًا في مائتي عام من الأدب- شاعر عادي. لقد وجدت في الطرائف التي ألفها بيرس حول النساء والأطفال غباءًا تقليديًا، ولكنها أثارت اهتمامي بما يكفي لقراءة هذا الكتاب في الجزء الذي اختفى فيه من المكسيك. كان كل سطر فيه أشبه بمرثية مكتوبة على عجل، بيد أنَّ مرثيته كانت في خطاب كتبه عام 1913، قبيل اختفائه مباشرة. كتب بيرس، وكان في الحادية والسبعين من العمر: " أن تكون غرينغو في المكسيك، آه، إنّه القتل الرحيم!"

باتجاه تولا، صحراء خالية من الشجر، ترتفع قمم تلالها كالأهرامات. إنّها عاصمة التولتيك، بأعمدتها ومعابدها، وهرمها الشاهق. من الواضح أنّ أهرام المكسيك في تيتوهواكان، وأوكمال، وتيشن إيتزا- نتاج عمل أشخاص يتطلعون لصنع جبال: قاموا بتأليف المشهد والأمكنة، وقلدوها. كان الإله الملك قد أثبت أنّه قادر على نسخ الجغرافيا الإلهية، وكان الهرم دليلاً جلياً على هذه المحاولة. في بريّة تولا، كان المشهد محطماً، ولكن من شأن عمل التولتيك أن ينجو لحقبة زمنية أخرى.

قبيل حلول الظلام، رأيت حقلاً من السيوف المشهرة. ربما كان نبات السيزال، ولكنه أشبه بنبات التيكيلا الذي تركني عصيره القوي في حالة من الهلوسة الذاهلة.

كان المحصّل-المهرّب- يبتسم عندما وصلنا إلى مدينة مكسيكو. وعرض علي حمل حقيبتي، ذكرني بألا أترك شيئاً خلفي، وأخبرني بمدى المتعة التي سأحظى بها في مدينة مكسيكو. لم أكافئه على خدمته ببقشيش، أعتقد أنّه كان يعرف عندما شكرته ببرود أنّه تجاوز حدوده واستغلني للإفلات بحقيبته المحظورة. المحطة كبيرة وباردة. لم أزرها من قبل. مدينة مكسيكو بسكانها الذين يبلغ عددهم أثني عشر مليوناً، وبشحاذيها من السكان الأصليين (ملتهمي السيوف، وآكلي النيران وهم يؤدون حيلهم على الرصيف بالقرب من مواقف الحافلات حتى يحصلون على العملات النقدية من المتفرجين واحداً واحداً.)

هذا المكان جذاب من بعض النواحي. وثلاثة أرباع المليون الذين يعيشون في نيتزاهوالكويوتل بالقرب من المطار لديهم تمييز مريب لمن يقطن ما يعرف "بأكبر حي عشوائي في النصف الغربي من الكرة الارضية." لم تكن بي رغبة قوية لرؤية مدينة مكسيكو مرة أخرى. إنّها- مكان خطير قد تضيع فيه، عاصمة موبوءة بالضباب الدخاني، و ذات أبعاد ماموثية، وهذا هو على الأرجح السبب في اختيار المنفيين الأكثر عناداً لهذا البلد-ليون تروتسكي، وب. ترافين- مدينة مكسيكو لتكون ملاذاً لهم.

إن كنت سأدخل مدينة، فإني أفضل أن أفعل ذلك في الصباح الباكر، حيث يكون لدي اليوم بطوله. لذلك وبلا تفكير في الأمر. اتجهت إلى مكتب بطاقات السفر في البهو، واشتريت بطاقة في عربة النوم إلى فيراكروز وصعدت على متن القطار. كان أرخص من غرفة في فندق، وعلى أية حال، قال لي الناس إنّ فيراكروز على ساحل الخليج كانت أكثر دفئاً.

===

**---**

**-4-**

**قطار إل خاروشو إلى فيراكروز**

**---**

قبل أن أصعد على متن قطار إل خاروشو ( كلمة تعني " الريفي الجلف" وهي الصفة التي يطلقها الفيراكوزيون على أنفسهم.) ذهبت إلى المطعم في محطة بوينا فيستا، واشتريت وجبة غداء مغلفة. لم يكن لدي وقت للأكل قبل مغادرة مدينة مكسيكو، وليس ثمة عربة أكل في قطار إل خاروشو. لكن ومع ذلك لم يكن قرار شراء الوجبة المغلفة موفقاً. وقررت ألا أكرر هذا الخطأ. كانت علبة الطعام مزيّنة زينة رشيقة، وبداخلها واحدة من تلك الوجبات التقليدية التي يجمّعها الأشخاص الذين يتسمون بإخلاص شديد في إتمام المهام ولكن بدون أدنى قدر من الاهتمام بالذوق. كان قوامها شطيرتي لحم على خبز قديم، وبيضة نصف مستوية، وثمرة برتقال صعبة التقشير، وقطعة كعك متعفنة. شققت البرتقالة بمدية لاريدو الجديدة خاصتي، واستخدمت العصير لتخفيف التاكيلا. ألقيت بالباقي من النافذة حالما غادرت المحطة. افترضت أنّ ذلك الغذاء المقزز كان إحدى العقوبات على رفضي البقاء في مدينة مكسيكو أكثر من ساعة واحدة.

لكني لم أكن زائر معالم سياحية، وكنت سعيداً بوجودي في عربة نوم يجرّها قطار يضرب الأرض صوب الساحل. لا متعة في السفر على جوعٍ، ولكن التيكيلا كابحة شهية ممتازة. ضمنت لي أيضاً نوماً هانئاً، وأحلاماً مفعمة بالحياة والرضا- كان تأثيرها عليّ أقرب إلى خدر المهلوسات الذاهل منه إلى دوار الكحول- سأكون عند استيقاظي في وسط فيراكروز. رافعاً قدميّ وقد عبقت مقصورتي بدخان الغليون في تلك الليلة على متن القطار الليلي السريع المتجه إلى فيراكروز، مغادراً هذا الارتفاع الضبابي إلى حيث الحرارة الرطبة، وأشجار النخيل الساحلية، وبذينك الأوقيتين من التيكيلا المنكّهة بالبرتقال في كأسي، شعرت بسعادة غامرة. انطلقت الصافرة، فمالت عربة النوم عند إحدى المنعطفات وانفرجت الستائر: عتمة، وبعض الأضواء الساطعة، وشعور طفيف بالخطر، مما زاد من كثافة رومانسية اللحظة. فتحت مديتي المطوية وقطعت شريحة من البرتقالة أضفتها إلى مشروبي. كنت في مهمة سرية( بدأ تأثير التيكيلا يظهر)، أسافر متنكراً على هيئة معلم لغة إنجليزية بسيط، لأنجز مهمة صعبة لإعادة اكتشاف المكسيك. كانت هذا السكين في يدي سلاحاً فتاكًا، وكنت مخموراً حد تصديق أنّي سأبقر بطن كل من يدفعه غباؤه لمهاجمتي. كان القطار، والطقس، ووجهتي، ومزاجي محض فانتازيا – سخيفة وممتعة.وعندما أنهيت كأسي، حشرت السكين في جيب سترتي الجلدية السوداء وتسللت إلى الممر لأختلس نظرة إلى الركّاب الآخرين. كان هناك شبح يربض قرب بابي، وهو يحمل صندوقًا مشبوهًا.

قال: " أتريد قطعة من كعك الشيكولاتة؟"

قالها وهو يخطيء التهجئة.

"لا شكراً."

"تفضل، لدي الكثير منها."

أخذت منه كعكة واحدة من قبيل التأدب. كان طويلًا ودودًا وقال إنّ اسمه بيب، من فيراكروز. قال إنّه أدرك أنني أمريكي، ولكنه أضاف بسرعة، أنّ السبب ليس نطقي للاسبانية، بل مظهري. قال من المؤسف إنني قصدت فيراكروزا الآن، لأنّ المهرجان انتهى للتو. لقد فوّت أشياء رائعة جداً. الفرق الموسيقية- لقد كانت فرقًا صاخبة! ترقص – في الشوارع! المواكب- طويلة جداً! الموسيقى- الطبول، والأبواق، وآلات الماريمبا! وكذلك إقامة الصلوات بالكنائس، وتناول الأطعمة الشهية، وشرب التيكيلا المذهلة، والترفيه بجميع أنواعه.

أزال وصفه كل ما شعرت به من ندم حيال تفويت مهرجان فيراكروز. لقد تنفست الصعداء لعدم اضطراري تحمّل ذاك المنظر السوقيّ، الذي كنت على ثقة من أنّه سيكون مصدر إزعاج وكآبة لي، أو قد يمنعني النوم على أية حال.

لكنّي قلت: " يا لحسرتي لقد فوّته."

"بوسعك العودة العام القادم."

"بالطبع."

" هل تريد قطعة أخرى من كعك الشيكولاتة؟"

"لا شكراً، لم أنهِ هذه بعد." وددت لو يذهب بعيداً. انتظرت للحظة، تثاءبت، وقلت: " أنا "متزوج"للغاية."

نظر لي باستغراب.

"متزوج جداً؟ رائع." ولكن نظرة الحيرة لم تفارق وجهه.

" ألست متزوجاً؟"

"أنا ما زلت في الثامنة عشرة."

حيّرني هذا. قلت له: " "متزوج"- أليس هذا ما تقوله عندما ترغب في النوم؟"

"أتعني مرهق؟"

"تلك هي." بدت الكلمة الإسبانية أقرب إلى: " casado"، “cansado”: متزوج ومرهق.

إلا إنّ هذا الحديث المزدوج أفادني. خالني معتوهاً بلا شك. ودعني، ووضع صندوق الكعك خاصته تحت ذراعه، ابتعد. لم أرَ أناساً آخرين في عربة النوم.

"الرحلة من فيراكروز [إلى مدينة مكسيكو] في رأيي هي الأجمل في العالم من حيث المؤثرات الاستعراضية،" يكتب العرّاف أليستر كراولي في-كتابه- الاعترافات.أوصاني الناس أن إذهبْ إلى فيراكروز أثناء النهار، وشاهدْ حقول القصب، وبركان أوريزابا، وانظر إلى الفلاحين، والحدائق. ولكن أمريكا اللاتينية غنية بالبراكين، وحقول القصب، والفلاحين، وتبدو أحياناً كما لو أنّه ليس هناك سوى القليل مما يمكن رؤيته غيرها. تبهرني- أكثر فكرة- الوصول فجرًا إلى فيراكروزا. كان قطار خاروشو السريع مريحاً، وسمعت أنّ محطتي التالية لتبديل القطار إلى تابشولا والحدود مع غواتيمالا سيئة جداً.

وددت لو حصلت على يوم آخر في فيراكروزا للتحضير لذلك. وسأكون مستعداً. كان قطار إل خاروشو السريع أحد تلك القطارات –وهي الآن أندر مما كانت عليه- التي تصعد إليها منهكًا، وتغادرها بكامل لياقتك. صدف أن كنت ثملاً في هذه الضاحية من مدينة مكسيكو، ولكن القطار كان يتحرك ببطء: سيطلع علي الصباح في فيراكروز وأنا صاحٍ.

كانت المقصورة حارّة ومشبعة بالبخار عندما استيقظت، النافذة مغطاة بالضباب، وعندما مسحتها رأيت أنَّ الفجر كان هنا شعاعاً أصفرَ رغوياً، وعلى المستنقعات الخضراء الرطبة رذاذ خفيف.

كانت السحب في لون الطين، ومنخفضة ورقيقة مثل قطع من آشنات اسبانية ميتة. كنا نقترب من ساحل الخليج، حيث أشجار النخيل الباسقة على الأفق، كمظلات مضحكة تحت المطر. الصمت مطبق. حتى المطر لم يصدر صوتًا. ولكن شعرت بألم شديد في أذنيّ، شعور من هبط في طائرة سيئة الضغط. كنا على ارتفاع كبير، ونياماً، فلم أستطع معادلة الضغط بالبلع. والآن على مستوى البحر، صمّت طبلتا أذنيّ عن صوت أي مغرد هذا الصباح، في ألم محرّق.

حرصاً على الابتعاد عن النوافذ المتسخة، والمقصورة المحتقنة، وآملاً في إنعاش أذني ببعض التنفس العميق، اتجهت إلى الجزء الخلفي من عربة النوم.

كانت نافذة الدهليز مفتوحة. ابتلعت بعض الهواء وشاهدت مرور الأحياء الفقيرة إلى الوراء. زال الاحتقان عن أذنيّ: استطعت الآن سماع قعقعة القطار.

" انظر إلى هؤلاء الناس،" قال المحصّل.

كانت هناك اكشاك على طول خط القطار، ودجاج مبلل، وأطفال متجهمون. تساءلت عما سيقول المحصّل تالياً.

"إنّهم على حق. انظر إليهم- هذه هي الحياة.!"

"أي حياة؟" كل ما أراه كان أكواخاً، ودجاجاً ورجالًا تقطر قبعاتهم من المطر. قال: " هادئة جداً." وهو يؤميء برأسه في تعاطف ناحية الأكواخ. الأشخاص المتكبرون حقاً عادة ما يفكّرون بضحاياهم على طريقة العارف ببواطن الأمور. هذا المكسيكي نظر في حكمة وقال: " غاية في السكينة، ليست كمدينة مكسيكو. إنّها ليست سريعة هنا- ولا يتفرق الجميع كلٌ في اتجاه. إنّهم لا يعلمون ماهي الحياة. ولكن انظر إلى كل هذه الدعة."

قلت:" كم تتمنى أن تعيش في ذاك المنزل؟"

لم يكن منزلاً. كان كشكاً من الورق المقوى، والصفيح الصديء. الثقوب محفورة في القصدير لتشكيل النوافذ، والطوب المكسور يحمل أجزاء من البلاستيك فوق السقف الراشح. يتشمم كلب قمامة قرب الباب، حيث راقبتنا امراة بدينة مرهقة في معطف مشقوق ونحن نمر بها، فأدركنا لمحة من الرعب الأعظم الذي يتوارى في الداخل.

"آهـٍ!" قال المحصّل وبدا متأثراً.

لم يكن يفترض بي أن أطرح عليه هذا السؤال. لكنه توقع أن أتفق معه- نعم، كم هو آمن هذا الكوخ الصغير؟ يا للشاعرية! يبدو أنّ جلّ الوديّة المكسيكية تعتمد على مدى اتفاقك مع ما يقولون. الاختلاف، أو الاتفاق البسيط كان يعتبر إشارة على العنف. هل هو نقص في الشعور بالأمان؟كنت أسأل نفسي- أم عدم الثقة في اللطف هو ما حوّل كل لوحة إلى جصيّة من أربعة أفدنة، وكل كتّاب مصور إلى مطوية تكره النساء. لم أكن سيئاً في اللغة الإسبانية، ولكني وجدت صعوبة في إدارة حوار مع أي مكسيكي ما لم يكن إما محض مزاح، أو حديث مباشر تماماً. في أحد أوقات الظهيرة شديدة الحرارة أوقفت عربة تاكسي أمام فيراكروز مباشرة، ولكن قبل أن أخبره بوجهتي، قال السائق:" أتريد مومساً؟"

قلت: "أنا متعب، ومتزوج أيضاً."

قال السائق:" أفهمك."

" إلى جانب أني لا أرى فيهن جمّالاً."

قال: "لا، لسن جميلات على الإطلاق، ولكنهن شابات. هذا شيء مهم."

وصلت إلى فيراكروز في الساعة السابعة صباحاً، وجدت فندقاً في ساحة الدستور الجميلة، وذهبت في نزهة. لم يكن لدي شيء أفعله على الإطلاق: لم أكن أعرف شخصاً في فيراكروز، ولن يغادر القطار إلى حدود غواتيمالا قبل يومين. ومع ذلك، لم يبد هذا المكان سيئاً. هناك قلة من عوامل الجذب السياحية في فيراكروز، هناك قلعة عتيقة، وعلى مسافة ميلين تقريباً إلى الجنوب يوجد شاطيء. كانت الكتب الإرشادية حذرة حول وصف هذه المدينة القميئة: فيدعوها أحدهم بالمدينة "الضخمة"، وآخر "بالمنوّعة الألوان". إنّها ميناء مندثر، وقد زاحمت الأحياء الفقيرة، والحداثة المبتذلة في قلبها حطام المباني العتيقة الغريبة. بخلاف أية مدينة مكسيكية أخرى، كانت بها مقاهٍ على الأرصفة، حيث يتسوّل الأطفال المشردون ، ويكمل عازفو الماريمبا ما نقص من الأذى الذي أصاب طبلتيْ أذنيّ، والذي بدأ عند بداية هبوطنا من مرتفعات أوريزابا. يعامل المكسيكيون الأطفال المشردين كما يعامل غيرهم من الناس القطط المشردة (يعامل المكسيكيون القطط المشردة كالهوام)، فيحملونهم على حجورهم، ويشترون لهم المثلجات، وأثناء ذلك يتحدث الجميع بصوت عال حتى يُسمِعوا محدثيهم في وسط ضجيج آلات الماريمبا. وعندما لم أجد في ساحتي ما يسليني، سرت لمسافة ميل حتى قلعة سان خوان دي أُلوا. على الرغم من أنَّ القلعة كانت يوماً ما على الجزيرة (نزل كورتيز هنا أثناء أسبوع الآلام عام 1519)، سُد المرفأ تماماً حتى أصبح الآن جزءًا من اليابسة، وله طريق بيني، وهناك المصانع الدبقة، والأكواخ، والكتابة على الجدران التي يبدو أنّها من ثوابت المناطق الحضرية في المكسيك. تضم القلعة معرضاً دائماً لماضي فيراكروزا- سِجل صوري للاجتياحات، والمهمات التأديبية، وهزائم الجيش المحلي. كانت احتفاء مكسيكياً بالإذلال الذي يعدونه تأريخاً. إن كانت النقوش والصور القديمة تعبّر عن مدى سخرية وعدوانية البلدان الأخرى- وأهمها الولايات المتحدة – تجاه المكسيك، فإنَّ إذاعة المعرض في فيراكروز دعت المكسيكي لصباحٍ من لعق الجراح، واحتقار الذات. فيراكروز معروفة بلقب "المدينة البطولية"، وهذه عبارة لاذعة في المكسيك: حيث البطل هناك يوشك أن يكون جثة غالباً. كانت السماء تمطر بلا هوادة طوال ساعات الصباح، لكن قبل أن أغادرالقلعة، ارتفعت الغيوم، وابيضت، وانقسمت إلى وحدات منفصلة كزهرات القرنبيط. وجدت متراساً مشمساً في القلعة وقرأت الصحيفة. كانت الأخبار السيئة عن عاصفة بوسطن الثلجية ما تزال تترى. على الرغم من مرأى المياه المتلألئة وأشجارالنخيل العالية- حملت إلىّ نسمة بحرية عليلة أصوات صيحات النوارس- كان صعباً علي أن أتخيل شكل المدينة التي أطفأ الثلج أنوارها، أو السيارات المدفونة تحت ركام الجليد، أو الألم المحسوس لعضة الصقيع. أعصى المشاعر على الذاكرة هو الألم: الذاكرة رحيمة.

عنوان رئيسي آخر: خاتمة سيئة للمهرجان، وتحته: القبض على عشرة من مهووسي الجنس. وتحت ذلك، ولكن ثمة 22 آخرون مازالوا طلقاء. مفاد الخبر أنّ عصابة قوامها اثنان وثلاثون مهووساً بالجنس، امضوا أيام المرافع في استدراج النساء ("الأمهات والبنات") إلى الأدغال واغتصابهن. "هوجمت نساء كثر من قبل المهووسين في غرف فنادقهن." تطلق العصابة على نفسها اسم الخراطيم. لم أفطن لمعنى الاسم: تساءلت عما إذا كان يشير إلى وضعية القوس في المضاجعة؟ ظهرالعشرة الذين قُبض عليهم في صورة فوتوغرافية ملونة. كانوا من الشباب العاديين، يحنون رؤوسهم في خجل، مرتدين ستراتهم الفضفاضة وبناطيل الجينز الأزرق، وربما كانوا أيضاً من الفريق الخاسر في لعبة شد الحبل في أخويةٍ ما- وهو ما توحي به كآبتهم، والوجوه المبتسمة في قمصانهم، والتي طبعت عليها أسماء الكليات الأمريكية: جامعة إيوا، ولاية تكساس، كلية امهيرست. كانوا يُدعون "مهووسين" في عشرات الأماكن على الصفحة، بيد أنّ أحداً منهم لم يُدان. أُوردت أسماؤهم الكاملة وبعد كل اسم- وهذا تقليد متبع في الإبلاغ عن الجرائم بالمكسيك- لقب: الصيني، الملك، المغني، السارية، الشجاع، الحصان، الأسد، الساحر، وهلمّ جراً. كان التأنّق مهماً للذكر المكسيكي، ولكن خرطوماً يدعى المغنّي، ويرتدي كنزة جامعية ليغتصب امرأة خلال عطلة مسيحية رسمية في فيراكروزا لهو في نظري مزيج عجيب من أساليب التأنق.

لاحقاً في ذلك اليوم رأيت شيئاً غريباً بالدرجة ذاتها. مررت بكنيسة حيث تقف ثماني سيارات شحن جديدة لتُبارك بدلو من المياه المقدسة، على يد كاهن حوله أربعة مساعدين يحملون الشموع والصلبان. في حد ذاته، لم يكن هذا مصدر الغرابة- كانت المنازل تُبارك في بوسطن، ويُبارك اسطول الصيد كل عام في غلوشيستر. ولكن ما استغربته هنا بعد أن نثر الكاهن الماء المقدس على الأبواب والعجلات، والرفرف الخلفي والغطاء، دخل الكاهن تحت السيارة ليغمر المحرّك بالماء المقدس كما لو أنّ القدير عاجز عن اختراق أجزاء هيكل العربة. ربما كانوا ينظرون لله على أنّه أجنبي آخر لا يمكن الاعتماد عليه، فيشملونه بسوء ظنهم كما يفعلون مع جميع الأجانب الآخرين. كان المسيح دون شك أجنبياً، والدليل على جميع بطاقاتهم البريدية الدينية.

وحتى أطري نفسي بأنّ لدي أمرًا مهمًا أقوم به في فيراكروز، كتبت قائمة المؤن التي أريد شراءها من أجل رحلتي إلى غواتيمالا. ثم تذكرت أنني لا أملك تذكرة. ذهبت فوراً إلى محطة القطار.

" لا أستطيع أن أبيعك تذكرة اليوم،" قال الرجل من وراء النافذة.

"متى أستطيع شراء واحدة؟"

"متى تغادر؟"

"الخميس."

"حسناً، سأبيعك واحدة يوم الخميس."

"لم لا أستطيع شراء تذكرتي اليوم؟"

"ليست جاهزة بعد."

"ماذا إن لم أجد مقعداً يوم الخميس؟"

ضحك وقال:" في ذلك المطر، دائماً توجد مقاعد."

كان ذلك يوم قابلت سائق التاكسي الذي عرض علي مومساً. قلت أنا لست مهتماً، ولكن سألته ما الذي يمكن فعله في فيراكروز بخلاف ذلك، فأخبرني أنّ علي الذهاب إلى القلعة. لقد ذهبت إلى القلعة. اذهب في نزهة على الأقدام حول المدينة، ثم قال- الكنائس الجميلة، المطاعم الممتازة، والحانات الزاخرة بالمومسات. هززت رأسي. قال:" من المؤسف أنك لم تكن هنا قبل بضعة أيام، لقد كان المهرجان رائعاً."

"ربما سأذهب للسباحة."

قال: "فكرة رائعة، لدينا أفضل شاطيء في العالم."

اسمه الموكامبو، زرته في الصباح التالي. كان الشاطيء نفسه نظيفاً رائقاً، واكتست مياهه لونا مشتتاً من تأثير بقع النفط الطافية. كان هناك حوالي خمسين شخصاً على ميل من الرمل، ولكن ليس منهم من يسبح. كان هذا بمثابة تحذير لي. تناولت حساء السمك، وانضم إلي رجل ظننته ذا روحٍ ودودة إلى أن عرض علي تصويري مقابل دولارين.

قلت له:" سأعطيك خمسين سنتاً."

فالتقط لي صورة.

قال: "هل أحببت طعام فيراكروز."

"هذا الحساء به رأس سمكة."

"نحن نأكل رؤوس السمك دائماً."

"لم آكل رأس السمك منذ أن كنت في أفريقيا."

عبس وشعر بالإهانة من المقارنة، وذهب إلى طاولة أخرى.

استأجرت أحد مقاعد الشاطيء، وراقبت الأطفال وهم ينثرون الرمل، وتمنيت لو كنت في طريقي إلى الجنوب. كانت سعادة مختلسة، التسكع في هذا الشاطيء الخالي. كرهت التفكير في كوني أقتل الوقت فقط، ولكن مثل شخصية دي فريز الشخصية التي أعجبت بها دائماً، كنت أفعل هذا دفاعاً عن النفس. دخلت حافلة إلى الشاطيء، وخرج الأربعون شخصاً. نمّت ملامحهم عن سحنة هندية قوية. ارتدى الرجال ملابس عاملي المزارع، والنساء تنانير طويلة، وأوشحة. انقسموا إلى مجموعتين- الرجال والأولاد، والنساء والأطفال- ثم تجمعوا في ظل شجرتين. وقف الرجال وجلست السيدات. كانوا يراقبون الأمواج المتكسرة ويهمسون. ظلوا بملابسهم، ولم يخلعوا أحذيتهم. لم يألفوا الشاطيء، وبدوا في غاية من الحياء، ربما جاءوا من مسافة بعيدة في نزهة. لقد وقفوا لالتقاط الصورة في حرج، وبعد ساعات عندما غادرت، كانوا ما يزالون هناك، وقف الرجال وجلست السيدات، يحدقّون في الموج الزيتي باستغراب. إن كانوا من عوام الريف المكسيكي (وهذا ما يبدو) فهم جهلة يعيشون في أكواخٍ من غرفة واحدة، ونادراً ما يأكلون اللحم أو البيض، ويجنون أقل من خمسة عشر دولاراً في الأسبوع.

قبل إغلاق المتاجر تلك الظهيرة، قمت برحلة للتبضع. اشتريت سلّة، وملأتها بأرغفة الخبز الصغيرة، ورطلٍ من الجبن، وبعض شرائح اللحم، و- لأنّ القطار بدون عربة الأكل في العادة قطار لا تتوفر المشروبات على متنه- قوارير من الجعة، وعصير الجريب-فروت، ومياه غازية. كان الأمر أشبه بتعبئة سلة لنزهة تمتد ليومين من الزمان، وكان هذا من قبيل الاحتياط المعقول. لا يحمل مسافرو القطار المكسيكيون أطعمتهم، بل يحثونك على الاحتذاء بهم، اشتر الأكلات المحلية من النساء والأطفال في كل محطة من محطات السكك الحديدية. ولكن الأكلات المحلية كانت تُحمل على حوض غسيل من الصفيح على رأس بائعها، وبما أنّها خارج مستوى نظر البائع من المستحيل على البائع المتجول الذي يصيح:" الدجاج الشهي!"أن يرى الذباب الذي تجمع عليها. في العادة المرأة هي التي تبيع الطعام المكسيكي على أرصفة السكك الحديدية حاملة حوض من الذباب فوق رأسها.

عزمت على الذهاب للفراش مبكراً، حتى أستيقظ فجراً لشراء تذكرتي إلى تابشولا. وعندما أطفأت الأنوار، سمعت الموسيقى، كسى الظلام الصوت وضوحاً، وكانت تردداته أكبر من أن تصدرمن أحد أجهزة الراديو. كانت فرقة نحاسية ذات صوت قوي ومرتفع:

أرض الأمل والمجد، أمُّ الأحرار

كيف نعظمك، يا من منحتِنا الحياة

أغنية "البهاء والمناسبة"[[18]](#footnote-18)؟ في فيراكروز؟ في الساعة الحادية عشرة ليلاً؟

لتمتد حدودك أكثر في الآفاق

وليشدد من أزرك، بعد، ربِّي قوّاك

ارتديت ملابسي ونزلت إلى الطابق السفلي.

في وسط الميدان، بالقرب من النوافير الأربعة كانت فرقة البحرية المكسيكية بأزيائها البيضاء تمنح الشاعر إلغار[[19]](#footnote-19) ما يستحق من الاهتمام. لمعت الأضواء في أغصان أشجار الأبنوس، وكانت هناك كشافات ضوئية أيضاً، قرمزية، تتراقص على الشرفات والنخيل. وقد اجتمع حشد كبير للاستماع، لعب الأطفال حوال النافورة، وأخذ الناس كلابهم للتمشية، وسار العشّاق يداً بيد. كان الليل بارداً، ومنعشاً، والناس مرحين ونشطين. أعتقد أنّه واحد من أجمل المشاهد التي رأيتها قط. في قسمات المكسيكيين ملاحة وحكمة. الطمأنينة النابعة من الإصغاء إلى الموسيقى العذبة. كنت متأخراً، وقد هبت نسمة ناعمة عبر الأشجار، وذهبت تلك القسوة الاستوائية التي بدت لي ثابتة في فيراكروز، كان هؤلاء أناساً طيبين، وكان هذا مكاناً جميلاً. انتهت الأغنية. ثمة تصفيق. بدأت الفرقة تعزف لحن: "واشنطن بوست " العسكري[[20]](#footnote-20)، وتسكعت في محيط الميدان.كان ثمة خطر طفيف في هذا، لأنّ المهرجان انتهى لتوّه. وكانت فيراكروز حافلة بالمومسات العاطلات، وبينما كنت أتجول أدركت أنَّ معظمهن حضرن هنا إلى الميدان للاستماع إلى الفرقة- في الحقيقة شكلت الفتيات ذوات العيون الداكنة، في تنانير مشقوقة، وفساتين مفتوحة العنق الجزء الأكبر من الحضور، واللواتي كنّ يهتفن بي عندما مررت بجانبهن: " لنذهب إلى منزلي،" أو تبدأ المسير معي وتهمس:" نيْك؟" أدهشني هذا كونه مضحكاً أكثر منه ساراً- الكبرياء العسكري لموسيقى المارش، والأضواء القرمزية على أشجار وارفة، وشرفات الميدان، والدعوة الهامسة لهؤلاء الفتيات الشبقات.

تعزف الفرقة الآن أحد ألحان ويبير[[21]](#footnote-21). قررت أن أجلس على أريكة، وأمنحها اهتمامي كله. جلست على مقعدٍ خال بالقرب من ثنائيٍ انهمكا في الثرثرة. كانا يتحدثان في الوقت ذاته. كانت المرأة شقراء، وتقول للرجل بلغة إنجليزية أن يذهب. وكان الرجل يعرض عليها مشروباً، وقضاء وقت طيب معه باللغة الإسبانية. تشبثت هي بموقفها، وكان هو يحاول إرضاءها- كان أصغر منها بكثير. استمعت باهتمام كبير، أذهلني شاربه، وكان يأمل ألا أكون قد سمعته. تقول المرأة:"زوجي- أتفهم؟- سيوافيني إلى هنا في غضون خمس دقائق."

وقال الرجل بلغة اسبانية: " أعرف مكاناً جميلاً. إنّه قريب من هنا."

التفتت المرأة إلي:" أتتحدث اللغة الإنجليزية؟"

أجبتها بنعم.

"هلا تخبر هؤلاء الناس أن يذهبوا بعيداً؟"

التفتُّ إلى الرجل، صرت الآن أواجهه، واستطعت إدراك أنّه دون الخامسة والعشرين. " تريد منك السيدة الابتعاد."

هزّ كتفه، وحدجني بنظرة قوية. لم يتحدث، ولكن لسان حاله كان يقول: " أنت الفائز." وذهب. لحقته فتاتان بسرعة.

قالت السيدة: " اضطررت لضرب أحدهم على رأسه هذا الصباح بمظلتي. لم يكن ليتركني."

كانت في أواخر الأربعينات من العمر، وجذابة على نحو هش ومبهرج. كانت تضع مكياجاً ثقيلاً، وظلالاً للعيون، ومجوهرات مكسيكية سميكة من الفضة والتركواز. كان شعرها بلاتيني اللون، بتدرجات قرمزية وخضراء- ربما كان هذا من تأثير أضواء الميدان. سترتها بيضاء، وحقيبة يدها كذلك، وحذاؤها كان أبيضَ. ليس بوسع أي كان لوم المكسيكي على مراودته إياها، إذ أنّها تشبه إلى حد كبير نمط السيدة الأمريكية التي يتكرر ظهورها كثيراً في مسرحيات تينيسي ويليامز والمجلات المصوّرة المكسيكية، المصطافة ذات الرغبة الجنسية المعذبة، ومشكلات الشرب، والاسم الرمزي التي جاءت للمكسيك لتبحث عن عشيق. كان اسمها نيكي. وهي في فيراكروز منذ تسعة أيام، وعندما أبديت اندهاشي لهذا قالت: " قد أمكث هنا شهراً- من يدري؟- وربما أطول بكثير."

قلت: " لابد أنّك استمرأتِ العيش هنا."

قالت وهي تمعن النظر فيّ: "لقد فعلت، ماذا تفعل أنت هنا؟"

"أطيل شاربي."

لم تضحك. قالت: "أنا أبحث عن صديق."

نهضت، وسرت مبتعداً. أسلوب حديثها كان هو السبب.

"إنّه مريض جداً، يحتاج للمساعدة." كان صوتها هو الذي يشي بالعجز، إلا أنَّ وجهها كان ثابتاً. " لا أعرف أين هو. لقد أرسلته في طائرة من مازاتلان. أعطيته المال، وبعض الملابس، وبطاقة سفر. لم يستقل طائرة من قبل. لا أعرف أين هو. هل تقرأ الصحف؟"

"طوال الوقت."

"هل رأيت هذا؟"

أرتني الصحيفة. كانت مطوية حتى تُبرزعموداً عريضاً، وتحت فئة الإعلانات الشخصية كان هناك صندوق ذو إطار أسود يحمل عنواناً باللغة الإسبانية: مطلوب العثور عليه عاجلاً. كانت هناك صورة وديباجة. الصورة مشرقة للغاية، كالتي تؤخذ للناس في الملاهي الليلية على يد واحد من أولئك المصوّرين المزعجين الذين يهتفون: "صورة، صورة!" في هذه الصورة ترتدي نيكي نظارات شمسية، وقميصاً مسائياً- وجه متألق وأكثر امتلاءً- تجلس على طاولة (زهور وكؤوس نبيذ) مع رجل نحيل ذي شارب. كان يبدو خائفاً قليلاً، وماكراً بعض الشيء، لكنْ ذراعه تلتف حولها موحية بالزهو.

قرأت الرسالة: السنيورة نيكي: تتمنى التواصل مع زوجها السنيور خوسيه بسرعة عاجلة، والذي كان يعيش في مازاتلان. من المتوقع أنّه الآن في فيراكروز. على من يتعرف عليه من هذه الصورة الاتصال فوراً.

وبعدها تعليمات مفصلة للاتصال بنيكي، وثلاثة أرقام للاتصال الهاتفي.

قلت: " هل اتصل بك أحد؟"

قالت:"لا." وأعادت الصحيفة إلى حقيبة يدها.

"اليوم هو أول يوم لنشرها. سأمدد النشر لأسبوع كامل."

"لابد أنّه مكلّف جداً."

"لدي ما يكفي من المال، إنّه مريض. على مشارف الموت من مرض السلّ. قال إنّه يريد رؤية أمه. أرسلته على متن الطائرة من مازاتلان، وبقيت هناك لعدة أيام- أعطيته رقم فندقي. لكن ساورني القلق عندما لم يتصل، لذلك جئت إلى هنا. أمّه هنا- وهذه هي وجهته. ولكني لا أستطيع العثور عليه."

"لم لا تحاولين العثور على أمّه؟"

"لا أستطيع الوصول إليها هي الأخرى. أترى، هو لا يعرف عنوانها. هو يعرف فقط أنّه كان بالقرب من محطة الحافلات. رسم لي صورة للمنزل. حسناً. وجدت شيئاً يشبه ذاك المنزل ولكن لا أحد يعرفه هناك. كان سيصل إلى مدينة المكسيك بالطائرة ويأخذ الحافلة من هناك- بتلك الطريقة يستطيع الوصول إلى منزل أمّه. إنّ الأمر معقد."

ومريب أيضاً، قلت لنفسي، ولكن بدلاً عن الحديث، أصدرت صوتاً ينمّ عن التعاطف.

"ولكن الأمر جدّي. إنّه مريض. وزنه لا يتجاوز مئة رطلٍ الآن، وربما أقل. هناك مستشفى في خالابا. قد يكون بوسعهم مساعدته. سأدفع." نظرت إلى الفرقة. كانت تعزف أغنيات منوعة من فيلم سيدتي الجميلة[[22]](#footnote-22).

"بالفعل، لقد ذهبت اليوم إلى مكتب إحصاء الوفيات لأعرف ما إذا كان قد توفى. لم يمت، على الأقل."

"في فيراكروز؟"

"ماذا تعني؟"

" ربما توفي في مدينة مكسيكو."

"إنّه لا يعرف أحدًا في مدينة مكسيكو. ولم يكن ليظل هناك. كان ليأتي إلى هنا مباشرة."

ولكنه ركب الطائرة، واختفى. خلال تسعة أيام من البحث لم تعرف له نيكي أثراً. ربما كان هذا من تأثير رواية داشيل هاميت التي أنهيت قراءتها لتوي. ولكني وجدت نفسي أحقق في وضعها بتهكمية محقق. لا شي قد يكون أكثر ميلودرامية، أو أشبه بفيلم بوغارت: قبيل منتصف الليل في فيراكروز، عزفت الموسيقى أغنيات الحب الساخرة، الميدان مزدحم بالعاهرات الودودات، والمرأة ذات الرداء الأبيض تصف اختفاء زوجها المكسيكي. ربما كان هذا النوع من الأفلام الفانتازية، الذي يُتاح للمسافر وحده، واحداً من الأسباب الرئيسية للسفر. لقد كانت تمثل هي ذاتها دور سيدة رائدة في بحثها الدرامي، ولعبتُ دوري بكل سرور. كنا بعيدين عن المنزل: بوسعنا أن نكون ما نريد من الشخصيات. يوفر السفر فرصاً رائعة للممثل الهاوي. وإن لم أر نفسي في دور بوغارت هذا، لكنت رثيت لها، وقلت يا للعار، ألم تستطع العثور على الرجل؟ بدلاً من ذلك، كنت متباعداً. أردت أن أعرف كل شيء.

قلت: " هل يعلم هو ببحثك عنه؟"

" لا، هو لا يعرف أنّي هنا. هو يخالني هناك في دنفر. عندما غادرنا، كان يريد أن يعود إلى وطنه ليرى أمّه. لم يعد لوطنه لثماني سنوات. أترى هذا ما كان محيّراً بالنسبة له. كان يعيش في مازاتلان. إنّه صياد فقير- بالكاد يستطيع القراءة.

" أمر مثير للاهتمام، أنتِ تعيشين في دنفر، وهو يعيش في مازاتلان."

"هذا صحيح!"

"وأنت متزوجة به؟"

"لا. من أين أتتك هذه الفكرة؟ نحن لسنا متزوجين. إنّه صديق."

"مكتوب في الصحيفة إنّه زوجك."

"لم أكتب ذاك. أنا لا أتحدث الإسبانية."

"هذا هو المكتوب. باللغة الإسبانية. إنّه زوجك."

لم أعد بوغارت. بل مونتغمري كليفت، في دور الطبيب النفسي في فيلم (فجأة في الصيف الماضي). تعطيه كاثرين هيبورن شهادة وفاة سباستيان فينابل. كان سباستيان قد أُكل حياً، أكله أولاد صغار، وقد ذُكر التشويه في الشهادة. قالت: " إنّها باللغة الإسبانية"، معتقدة أنّ السر الرهيب في أمان.

فأجاب مونتغمري كليفت ببرود، أنا أقرأ اللغة الإسبانية.

قالت نيكي: " هذا خطأ، إنّه ليس زوجي. هو إنسان جميل."

أخذت تفكر في الأمر. كانت الفرقة تعزف إحدى مقطوعات الفالس.

قالت:" قابلته قبل عام، عندما كنت في مازاتلان. كنت على شفا انهيار عصبي- تركني زوجي، ولم أدر إلى أين أذهب. بدأت أسير على الشاطيء. رآني خوسيه، وخرج من قاربه. مد يده ولمسني. كان يبتسم.." خفت صوتها.

ثم استأنفت:" لقد كان حنوناً. هذا ما كنت أحتاجه. كنت منهارة. أنقذني."

"ما نوع القارب؟"

قالت " قارب صغير- هوصياد فقير،" أغمضت نصف أغماضة واستأنفت:"لقد وضع يده ولمسني. ثم عرفته جيداً. خرجنا نأكل سوياً في أحد المطاعم. كان معدماً- لم يتزوج- لا يملك سنتاً واحداً. لم يكن يملك ملابس جيدة قط. لم يأكل في مطعم جيد، لم يدر ماذا يفعل. كان كل شيء جديداً بالنسبة له. لم يفهم سبب سخائي معه قلت له " أنت أنقذتني." كان يبتسم فقط. أعطيته المال، وأمضينا وقتاً رائعاً لبضعة أسابيع بعد ذلك. ثم أخبرني أنّه مصاب بالسّل."

"ولكنه لم يكن يتحدث اللغة الأنجليزية أليس كذلك؟"

"كلمات قليلة فقط."

"أصدقتِه عندما قال إنّه مصاب بالسلّ؟"

"لم يكن يكذب، إن كان هذا ما تظنه. لقد قابلت طبيبه. أخبرني الطبيب أنّه يحتاج للعلاج. لذلك أقسمت أن أساعده. وهذا هو السبب في مجيئي إلى مازاتلان قبل شهر. لأساعده. فقد المزيد من الوزن. لم يستطع الذهاب للصيد. قلقت عليه حقاً. سألته ماذا يريد. قال إنّه يريد رؤية أمه. أعطيته المال والأغراض وأخذته إلى الطائرة، وعندما لم أسمع خبراً منه جئت بنفسي إلى هنا. "

" هذا يبدو كرماً كبيراً منك. كان بوسعك أن تمضي وقتاً طيباً. بدلاً عن ذلك أنتِ تجوبين فيراكروز بحثاً عن هذه الروح التائهة."

همست: " هذا ما أراد الله أن أفعله."

"نعم؟"

"وسأجده، إن أراد الله ذلك."

"أمصممة على ذلك؟"

"نحن مواليد برج القوس عنيدون جداً- الأنواع المغامرة حقاً. ما هو برجك؟"

"الحمل"

"طموح"

"ذاك أنا."

قالت:" حقاً أعتقد أنّ هذا ابتلاء من الله."

"وكيف ذاك؟"

قالت:"مسألة خوسيه هذه بسيطة. مررت بتجربة طلاق قاسية جداً. ثم بعض الأمور الأخرى."

" في ما يتعلق بخوسيه، إن كان أمّياً، فلابد أنّ والدته كذلك أمّية. في هذه الحالة لن ترى إعلانك في الصحيفة. لذا لم لا توصي بطباعة ملصق- صورة وبعض التفاصيل- وتضعيه في مكان قريب من محطة الحافلات، وحيث يفترض أن يقع منزل أمّه."

"أعتقد أني سأحاول ذلك."

قدمت لها بعض المقترحات الأخرى: استئجار محقق خاص، إذاعة رسائل عبر الراديو. ثم خطر لي أنّ خوسيه قد يكون عاد إلى مازاتلان، فإن كان قلقاً أو مريضاً سيفعل ذلك. أما إن كان يحاول خداعها- وأشك في أنّه يفعل- فسيفعل هذا حتماً عندما ينفذ ماله. اتفقت معي إنّه ربما عاد، ولكن ليس لما قلته من أسباب.

" أنا سأبقى هنا حتى أجده. ولكن حتى إن وجدته غداً سأبقى شهراً. لقد أحببت المكان. هذه بلدة جميلة حقاً."

"هل جئت هنا لحضور المهرجان؟ لا؟ أكانت رحلة، هل بوسعك إخباري. كان الجميع هنا في الميدان..."

والآن تعزف الفرقة عملاً لروسيني، افتتاحية أوبرا حلّاق إشبيلية.

"...، يشربون، ويرقصون. كان الجميع ودوداً. قابلت أناسًا كثيرين. كنت أحتفل كل ليلة. هذا هو السبب في عدم ممانعتي البقاء هنا والبحث عن خوسيه. و أممم، التقيت برجل."

"رجل من الأهالي؟"

" مكسيكي. منحني ذبذبات جميلة. مثلما فعلت أنت. أنت إيجابي- طباعة ملصقات، ورسائل إذاعية، هذا ما أحتاجه."

" هذا الرجل الجديد الذي التقيته- قد يعقّد الأمور."

هزّت رأسها:" إنّه يناسبني."

"ماذا لو عرف أنك تبحثين عن خوسيه. قد ينزعج."

"إنّه يعرف كل شيء عنه. لقد ناقشنا الأمر. بجانب "-أضافت بعد لحظة،- " خوسيه يحتضر."

انتهى الحفل. كان الوقت متأخراً، وشعرت بجوع شديد. قلت إنني ذاهب إلى مطعم، وقالت نيكي: " أتمانع إن انضممت إليك؟"

تناولنا سمك النهاش الأحمر، وأخبرتني عن طلاقاتها. كان زوجها الأول عنيفاً، والثاني كان صعلوكاً. كانت هذه كلمتها.

"صعلوك حقيقي؟"

"حقاً، كان كسولاً جداً- لم، لقد كان يعمل معي، أتعلم؟ خلال زواجنا. ولكنه كان كسولاً حتى إننّي اضطررت إلى فصله."

"متى طلقته؟"

"لا، قبل ذلك بوقت طويل فصلته من العمل، ولكن ظللنا زوجين. كان هذا قبل خمس سنوات من الآن. بعدها كان يتسكع حول المنزل. وعندما لم أتحمل المزيد من أفعاله. طلقته. ثم خمّن ماذا؟ ذهب إلى محاميه وحاول أن يجعلني أدفع له مالاً للصيانة. كان علي أن أدفع له."

"ماهو نوع العمل الذي تزاولينه؟"

قالت: " أملك أكواخاً، سبعة وخمسون- أعني سبعًا وخمسين وحدة. كنت أملك مائة وثمانٍ وعشرين. لكنْ هذه السبع والخمسون كانت في ثمانية عشر موقعاً مختلفاً. يا إلهي هذه مشكلة. دائماً يطلب الناس الطلاء، وإصلاح الأشياء، وسقفًا جديدًا."

لم تعد في نظري امرأة تعذبها الرغبة وتعيش في المكسيك. لقد كانت تملك العقارات. كانت هنا تعيش على أجرة أكواخها. قالت إنّها لا تدفع أية ضرائب بسبب "نفقاتها" وتلك تبدو "ممتازة حقاً" على الورق لقد كان الله رحيماً بي."

" هل ستبيعين أكواخك؟"

" على الأرجح. أود العيش هنا. أنا فعلا مجنونة بالمكسيك."

" وهل تجنين ربحاً ببيعها؟"

"هذا كل مافي الأمر."

" ولم لا تدعين هؤلاء الناس يعيشون بلا أجرة؟ أنهم يسدونك صنيعاً بالحفاظ عليها في حالة جيدة. سيحب الله منك ذاك. وسوف تجنين الأرباح أيضاً."

قالت: " هذا سخيف."

وصلت الفاتورة.

قالت: "سأدفع عن نفسي."

قلت لها: " وفري عليك، قد يظهر خوسيه."

ابتسمت لي: " أنت تبدو رجلاً مثيراً للاهتمام نوعاً ما."

لم أقل كلمة واحدة عني. ولا تعرف حتى اسمي. ربما كان هذا التردد مثيراً للاهتمام؟ ولكنه لم يكن تردد: إنّها لم تسأل.

قلت: " ربما سأراك غداً."

"سأكون في فندق ديليجنسيا"

أنا أقيم في الديليجنسيا أيضاً. قررت ألا أخبرها بهذا الأمر. قلت: "آمل أن تجدي ما تبحثين عنه."

في اليوم التالي نهضت مبكراً وأسرعت إلى محطة القطار لشراء بطاقة سفر إلى تاباشولا. كانت عملية بسيطة، وما زال هناك الكثير من الوقت للعودة إلى الفندق لتناول طعام الإفطار. وبينما كنت أتناول طعامي، رأيت نيكي تمر عبر الردهة. اشترت صحيفة. فاختبأت أنا وراء أحد الأعمدة. جالت هي بنظرها في المكان. وعندما خلا لي الطريق، سرت في طريقي إلى المحطة. كانت الشمس فوق الميدان. سيكون يومًا قائظ الحرارة.

**---**

**-5-**

**قطار الركّاب إلى تاباشولا**

**---**

أتممت اثنتي عشرة ساعة على متن القطار. ثمة ما يعيب قطاري هذا، يوم كامل من الترحال، ولم نبتعد سوى مائة متر أو نحوها، كان جلّها عبر المستنقعات. أصابتني الحرارة بالغثيان، وضجيج الأبواب الموصدة، ورنة سندان الواصلات سببت لي الصداع.

حلّ الليل الآن، وما زال الضجيج مستمراً، و البرد الشديد أيضاً. كانت العربة مفتوحة، ومعظم المقاعد الثمانين مشغولة، وجميع النوافذ محطمة تقريباً، أو مفتوحة على مصراعيها.

كانت مصابيح السقف خافتة جداً، أقل مما يسمح بالقراءة، وأكثر توهجاً مما جعلها تحول بين النوم وجفنيّ. بقية الركّاب نائمون، وقد علا شخير الجالس قبالة الممر. أما الرجل في المقعد خلفي- والذي ظلّ طوال النهار يتنهد ويلعن ويركل ظهر مقعدي في استياء واضح- فقد توسّد قبضة يده وراح في نوم عميق.

بدأت أتعرض للعض من العناكب والنمل الذي لاحظته أثناء النهار، يزحف داخل وخارج المساند المثقوبة والمحشّوة بشعر الحصان. أم هل هو البعوض؟

شعرت بالحكة والوخز في كاحليّ. تجاوز الوقت الساعة التاسعة للتو، وكنت أمسك بنسخة من كتاب(ويلسون المغفل). تخليت عن محاولة قراءتها، وانتقلت إلى الورقة الخالية من الكتاب ودونت عليها: درجتان: كلتاهما متسخة وغير مريحة.

لا خصوصية، ولا راحة. بل مراوحة مستمرة بين التوقف والحركة، محرك معطّل، وركّاب مزعجون.

اتساءل في أيام كهذه علام هذا العناء: أترك الاستقرار، والأصدقاء من أجل الفوضى والغرباء؟ أحنّ إلى وطني، وأشعر بأنني معاقب على أنانية رحيلي.

تماماً كما قال كروزو عن جزيرته. من المستحيل أن ترتاح في هذا المقعد. جوّ سجن: جدران الزنزانة اللعينة البنية والضوء الخافت. الضجيج أيضاً: إزعاج مصنع، صوت حركة القطار، تلحق بنا دقاته عبر النوافذ المفتوحة، من الأسوار القريبة للأدغال على جانب القضبان**.**

توقفتُ. الكتابة قد تزيد شعورك بالوحدة.

رأيت شيئاً اليوم: طائر مالك الحزين، أبيض نحيل يقف في مستنقع.

لم يتبق سوى نصف بوصة فقط من الصفحة.

هؤلاء الناس عائدون إلى الوطن. يشتكون من الرحلة، ولكنهم سيصلون إلى المنزل غداً. وأنا مسافر لألحق بقطار آخر. وكنت أود بدلاً عن ذلك....

ثم نمت. الفرق بين النوم واليقظة على القطار هو أنني في حال اليقظة كنت أضرب البعوض. بينما عجزت أثناء نومي عن طرده، على الرغم من شعوري باللسع. لم أجد في نفسي الرغبة في طرده.

طائر مالك الحزين الذي رأيته على المستنقع بالقرب من بيدراس نيغراس، كان طويلاً ويقظاً، يا له من مخلوق رشيق، متناسق الشكل ويبدو غريباً للغاية وسط فوضى المستنقعات تلك. بعدها بساعة، غابت الرطوبة عن المشهد كليّاً: أشجارٌ متربة متجذرة في الأرض الجافة، عشبٌ ذابلٌ، وأوراق جافة محروقة، وأكواخ طينية مسقوفة بسعف النخيل كالتي تراها في أفقر مناطق أفريقية.

تباطأ القطار حتى توقف، كثيراً ما كان يحدث هذا بالقرب من حقلٍ للقصب حيث لا تكاد ترى محطة بالجوار، حتى إنني شككت في وجود خلل بالمحرك. رأيت مجموعات من الرجال يهمزون المحرك وهم يعدّلون من وضع قبعات القشّ على رؤوسهم. ثم بدأنا مرة أخرى السير ببطء لأميال قليلة ثم نتوقف.

في إحدى الوقفات- كانت محطة لا تعطّلاً- صعد صبي إلى العربة ووقف أمام الأريكة. وطفق يغني بصوت عذب للغاية. كان الركّاب محرجين في البداية، ولكن مع الأغنية الثانية والثالثة بدأوا يصفقون. تشجّع الصبي. وغنى الرابعة. انطلقت الصافرة. عاد مرة أخرى إلى خلف الأريكة ليجمع المال من الناس. أبهرني عمره بقدر ما فعل صوته: كان في العشرين تقريباً، كبر بما يكفي ليصبح قاطع قصب، أو عامل مزرعة (إلا أنَّ عمال المزارع في في المكسيك يعملون بمتوسط 135 يوماً في السنة.)

لم يبد الغناء مهنة ثانية له، ولكن ربما كان يؤديه فقط عندما يمر القطار بقريته.

وصلنا إلى تييرا بلانكا[الأرض البيضاء]. الاسم الوصفي لا يدل على المكان. الأسماء الاسبانية تطلق من قبيل التهكم أو التبسيط، ونادراً ما تدل على مسمياتها.

عادة ما تُذكر الحجّة على نحو مختلف، لبيان مدى رتابة، وحرفية، وافتقار المستكشف او رسّام الخرائط الاسباني إلى ملكة الخيال. فقد يطلق الشاهد لرؤيته نهراً قاتم اللون عليه اسم: ريو نيغرو [النهر الأسود] فوراً. وهو اسم شائع في أنحاء أمريكا اللاتينية. ولكنه لا يناسب لون الماء على الإطلاق. وكذلك أنهار كلورادو الأربعة التي رأيتها لا تمت للون الأحمر بصلة لا من قريب ولا من بعيد. كانت بيدرا نيغرا أرض مستنقعات وليست حجارة سوداء. ولم أر أيائل في فينادو تيرتو، ولا عظاءات في لاغارتوس، ولم تكن أياً من بحيرات لاغونا فيرد خضراء اللون. بدت مدينة لادورادا رصاصية اللون وليست ذهبية. بروغريسو[التقدم] في غواتيمالا كانت متقهقرة: لا ليبيرتاد[الحرية] في السلفادور كانت معقلاً للقمع في البلاد حيث عزّ الخلاص. ولم تكن لا باز[السلام] آمنة، ولا كانت لا ديموكراسيا ديمقراطية. لا يقتصر الأمر هنا على الحرفية- بل النزوات والطرافة. تشير أسماء الأماكن إلى الجمال، والحرية والطهر، أو الألوان القوية: ولكن الأماكن المسماة على نحو يثير الشفقة، كانت شيئاً آخر. هل تزيّنت الخارطة بعبارات المدح والصفات اللطيفة بسبب مجانبة الدقة عمداً أم عدم التدقيق؟ عانى اللاتينيون معايشةَ الحقائق الفاترة، وإن لم تكن الاسماء الجذابة قادرة على فرض سحرها على الأماكن، فهي تمسح على الأقل عنها الكدر. ودائما ما تكون هناك فرصة لاسم ذي شجون قد يبعث في النفس شعوراً يجعل البلدة العادية مُحتَملة.

أمعنت النظر في تييرا بلانكا. كانت بُنيةً قفراً. ثمة دجاجات تتبختر على رصيف المحطّة، ورجال يرفعون بالات، وأطفال يشيرون إلى الركاب الذين يشرفون من نوفذ القطار. بائعو الطعام (كانت ساعة الغذاء) يصيحون بأسماء الأغراض التي يحملونها: الفطائر، واللوبيا، والزلابية، والذرة في أكوازها، والكعك المكوّب، وشطائر الجبن، والدجاج المقلي، والموز، والبرتقال، والأناناس، والبطيخ. لديّ زاد. شققت إحدى الأرغفة الصغيرة وحشوتها باللحم والجبن. جلست عائلة تقصد غواتيمالا قبالة الممر، يأكل أفرادها الدجاج الملوّث بالذباب الذي اشتروه للتو، ويحدّقون فيّ.

قالت الأم:" هذه شطيرة كبيرة."

قلت: " نحن ندعوها شطيرةً غواصةً"

واصلوا التحديق.

رفعتها وقلت: " نسبةً لهيئتها، مثل الغواصة."

نظروا شزراً. لم يروا غوّاصةً من قبل.

قالت الأم:" بالطبع."

في الساعات القليلة التالية، توقف القطار ثماني مرات بعد. لم يتوقف في المحطات. بل كان يهديء من السرعة عندما يقترب من حقول القصب، أو المستنقعات، أو في الغابات الحارة، ثم سكت المحرك الصاخب واهتز حتى توقف. تضجّر الركّاب، ونظروا من خارج الشبّاك، وعندما لم يروا محطة قالوا: " خلاء،" أو " لا أعلم."

وربما كانوا يتحدثون بسعادة أثناء تحرّك القطار، ثم اقتضبت أحاديثهم بعد توقفه، وعبست قسماتهم، وتنهدت صدورهم. و بين الفينة والأخرى ينكسر هذا الصمت المطبق بصيحة من خارج النافذة: " موز!"

وحيثما توقفنا، سواءً أكان هذا في أحد المستنقعات، أو في غابة تبدو خالية، يظهر بائع طعام، أو فتاة صغيرة في ثوبٍ ممزق، ونداء: " موز!" وأنا في طريقي إلى تابشولا بالقطار لم أخف من الجوع أبداً. لدى المرور ببعض حقول القصب حوالي الساعة الثانية من تلك الظهيرة، تعجبت من كثافتها، إذ كانت السيقان الخضراء عصية الاختراق حقاً، منيعة كحائط من البامبو- شعرت بتباطؤ سرعة القطار. ثم توقف. امتعض الركّاب. التقطت كتاب (ويلسون المغفل)، وبدأت أقرأ. مضت ساعة- ظهيرة رطبة بطيئة، والمذياع يرنّ في العربة التالية. جاء بائع الموز ومضى. صنعت لنفسي شطيرة. احتسيت زجاجة مياه غازية.

ثم أدركت أنني ربما أكملت طعامي، وأنهيت قراءة كتابي قبل أن نبدأ التحرّك مرة أخرى. هذا الطعام، وهذا الكتاب: كانا كل ما لدي لأواصل رحلتي. شرع القطار في المسير. رفعت قدميّ، وتنفست الصعداء. سار القطار لمائة ياردة ثم توقف. ثمة شخص في العربة التالية يصيح: " يا والدة الإله!" ونحن على جسر طويل أحمر من العوارض الفولاذية، ومن تحتنا نهرٌ. بحثت عن خارطتي، وتتبعت خط السكة الحديد من فيراكروز حتى وجدت تييرا بلانكا والمستنقعات، ونهر: إذن كان هذا نهر ريو بابالوبان. يقول الدليل الإرشادي إنّ مجرى النهر الذي تجتمع مياهه في البابالوبان يعادل "ضعف حجم هولندا"، لكنْ البلدة المجاورة حظيت بأهمية "أدنى" " لقد ظللنا على الجسر لمدة ساعة أخرى- ساعة مزعجة، لأننا حاولنا الخروج والسير في الجوار، ولم يكن على الجسر ممر للمشاة، وبدا تيار النهر خطيراً. فكرت في الأكل، ولكني اكتفيت بالتفكير فيه. وبهذا المعدل لن نصل إلى تابشولا قبل أيام. علق الركّاب في القطار، الذي كان هو الآخر عالقاً في الجسر، وتعذر إصلاحه، والآن يصرخ الأطفال الغواتيماليون في الأسرة الكبيرة وهم يشرفون من النافذة على الخارج:" دعونا نذهب!، دعونا نذهب!"

لم ينقطع صراخهم حتى غابت الشمس. تساءلت ما إذا كان علي استئناف القراءة. إنّها الأمر الوحيد الذي حماني من الجنون خلال فترات الملل المحض تلك. ولكن إن أنهيت قراءة (ويلسون المغفل)- الكتاب الذي كنت استمتع بقراءته- فلن يكون لدي شيء آخر أقرأه. رحت أتسكع جيئة وذهاباً في القطار الطويل، وبدا الأمر بالفعل كما لو أنني على متنه لأكثر من يوم. عندها تحرّك، ولم يزد على مائتي ياردة قبل أن يتوقف. كنا في قرية بابالوبان. "قليلة الأهمية" كانت عبارة مغالية جداً. ثمة متجران، وبعض الأكواخ، وبعض الخنازير، وأشجار البابايا. هبطت الشمس إلى مستوى النوافذ وأرسلت أشعتها الحارقة إلى داخل القطار.

كان هناك مكسيكيٌ يجلس على أريكة مكسورة مسافة قريبة من القضبان عندما وصل القطار. كانت الشجرة التي اختارها ليجلس تحتها صغيرة جداً، وراقبته عن كثب لأرى ما سيفعل عندما تصل إليه أشعة الشمس. لم يتحرك لمدة نصف ساعة، على الرغم من أنّ ثمة خنزيرين مقيدين إلى الشجرة، يئنان، ويتنشقان أطراف الحبال. بدا كأنه لم ير الخنزيرين، ولم ينظر إلى القطار، ولم ينتبه للشمس. انزلقت أشعة الشمس من الأغصان المنخفضة إلى قبعته. ظل الرجل ساكناً. خنخت الخنازير. انتقلت الشمس إلى الأسفل، لتضيء أنف الرجل، لم يتحرك الرجل على الفور: سحب قدميه، وأجفل، ولكن ببطء شديد، كما لو أنّه يدخل طوراً جديداً في إغفاءته تلك، ثم أمال قبعته، ووضع أنفه في ظلها. عاد إلى هدوئه مرة أخرى. ولكن كانت الشمس تتحرك: لحق الضوء بوجهه (والخنازير التي حاولت أن تنجو بنفسها منه)، وكز الرجل قبعته بأصبعه مجدداً. لم يراقب القطار، تجاهل الخنزيرين، كان في حال بين اليقظة والنوم، والآن مثل وجه زهرة عباد الشمس يقظة ذابلة تتبع الشمس المتعامدة فوق رأسه. بينما كنت أمعن النظر في هذا الرجل، الذي كان أشبه بمزولة، صعد قزم إلى القطار. عيناه في مستوى عينيّ، بيد أنني كنت جالساً، ورأيت مدى بروزهما، وكيف لم يخرق لونهما الرمادي الملتهب بؤبؤه: كان ضريراً. ولكنه كان يزقزق بطريقة مازحة متوسلاً المال. ملابسه ممزقة، ومربوط بجديلة كحزمة من الأسمال، كانت هناك عقد وحلقات من الخيوط المهترئة المشدودة على جسمه كله.

تحدث إليه الركاب بينما كان يجمع العملات، وهو يعرج عبر العربة يضحك ويجيب عليهم.

قالوا:" هلم ندفع هذا القطار ليتحرك."

قال الرجل الضرير: " أنا أفعل أقصى ما بوسعي."

قالوا:" أين نحن؟"

قال القزم الضرير: "بابالوبان، إنّها بلدة جميلة. لم لا تبقون؟"

قال الركاب: " لا نريد البقاء هنا!"

ضحك القزم الضرير وذهب وهو يطرق بعصاه الأرض إلى العربة التالية.

سمعته وهو يقول:" مساء الخير..."

كان هناك المزيد من الناس الذين صعدوا إلى القطار للتسوّل – امرأة مسنّة على ذراعيها طفل رضيع، وطفلان نحيلان- وبائعا الطعام- الأطفال الذين يحملون أباريق القهوة، وأحواض الفطائر، والنساء بائعات الخبز، والأسماك الهزيلة.

وركض بعض الأطفال الآخرين من بابالوبان دخولاً وخروجاً من القطار، وسار الرجال ببطء من المتجر القريب ليتحدثوا إلى الركّاب. على مدى ساعات قليلة( كانت الظهيرة في أواخر وقتها، وجاء الرجال من القطع في حقول القصب ليتوقفوا إلى جانب القطار ويسمعوا الأخبار)، لم يعد القطار الواقف يبدو كشيء يهدر عبر قرية بابالوبان التي تقع على ضفاف النهر. أما القرويون الذين كانوا يراقبونه على الأرجح دائماً من على البعد، فقد صعدوا إلى القطار لاستخدام المرحاض، ولوحوا لأصدقائهم من النوافذ، وكان الدجاج ينقر وينقنق تحت العربات، بذات القدر من الثقة الذي يتمتع به الركّاب الذين تسربوا إلى المتجر حيث وقفوا يحتسون المشروبات الغازية. صار القطار الآن جزءاً من البلدة. لا يعرف أي كان على وجه التحديد ماهو العطب الذي أصاب قطارنا. قال أحد الرجال، هناك عطل، وأخبرني آخر أنّ محركنا معطّل. لم يكن ثمة خوف. الحرارة بلغت تسعين درجة طوال اليوم، سلبت الشمس الجميع طاقتهم. تساءل بعض الناس، وليس ثمة هلع. بدأ الجميع يشعر أنّه في وطنه في بابالوبان. لن نصل إلى تابشولا قبل اليوم التالي، ولا يعرف أحد على وجه التحديد طول المسافة الباقيةتبقى من مسافة.

(وعلى سبيل قتل الوقت، سألت الناس عن المسافة التي قطعناها من فيراكروز، لم يعرف أيٌ منهم الإجابة الصحيحة: 100 ميل). في بلد التأخير المزمن، كان هذا التأخير متوقعاً، وعلى أية حال، كانت المدينة لطيفة، والطقس دافئاً، وقد تحوّل كل زوج من المقاعد إلى عش من الأطعمة المغلفة والوسائد والأطفال النائمين. توقف الرجل الجالس ورائي عن ركل مقعدي. كان هادئاً تماماً. وقال: أعتقد أننا سنمضي الليلة هنا."

قالت السيدة الغواتيمالية لأطفالها: " أعتقد أنّه على حق، أوه، حسناً." لم يبد شيء أطول من تأخير مفاجيء.

لا شيء أصعب وصفاً أو أكثر إثارة للملل في القراءة من عبارة:" مرت ساعة،" يكتب أحدهم. ولا ملل في العبارة، لا رائحة، ولا حرارة، ولا ضوضاء، ولا أي من الذباب المندفع باستمرار من باب المرحاض الباهت لونه بلا مقبض، ولا يمكن إغلاقه." " ساعة أخرى مرت." ما أصعب الإشارة إلى جهازي المذياع، والخنازير الباكية، وصيحات الأطفال، والمقعد المحشو بالعناكب التي تخرج منحنية من بطانته. بدت الحرارة ذاتها من عوامل إبطاء الوقت. إن كانت القرية أكبر قليلاً، كنت لأحزم أمتعتي وألتحق بأقرب فندق. ولكنّ كانت القرية صغيرة، ولن يكون هناك قطار آخر إلى تابشولا لثلاثة أيام. أدركت أنّ لدي فقط خمسين صفحة أو أكثر لأقرأها من (ويلسون المغفل). فقررت توفيرها، سأحتفظ بالجزء الأفضل لوقت لاحق، عندما تتعب أعصابي فأكون أكثر احتياجاً لها.

قاومت الرغبة في مواصلة القراءة، وبدلاً عن ذلك قرأت المقدمة.

كانت تلك تجربة مزعجة للغاية، التعبير الجدي للموضوع يتباين مع الغسق المقترب، وضوضاء هذه القرية المكسيكية المتداعية وروائحها أزكمت القطار.

إحدى الطرق لرؤية مدى صدق هذه المفارقة، هي مقارنتها بجين اوستن. التي لقيت الحياة الاجتماعية في رواياتها قبولاً وقدمت أسساً لقيمها الأخلاقية الصارمة...

صرخت طفلة في الجهة الأخرى من الممر: يااااااااااااااا!

ابتسم أخوها وقرصها مرة أخرى.

وبدون أن يُحرك المكسيكي الجالس في الظل قبعته، هرش رأسه. قَبَعَت الخنازير. وكان المذياع في المتجر يصيح ويطقطق. علت ضحكات الرجلين قرب الباب. صاح بائع جوّال: " جعة باردة!" "موز!" "مثلجات!" " لقد قرصني!"

*في كتابها، لم تكن القيم الاجتماعية في حد ذاتها قيماً أخلاقية ولكن المفارقة بينت كيف قد تكون، وإلى أي مدى، نوع دقيق وحافل من.....*

سمعت ضحكة ثم:"لم أفعل!" فتاتان حسناوان في الزي المدرسي أخضر اللون تسيران بجانب القطار، وتحتضنان كتبهما. ذواتا شعر أسود، وأعين متوهجة، وكانتا تضحكان.

*الوعي الاجتماعي دقيق وشامل هو أيضاً، في آخر الأمر، وعي أخلاقي مُحقق...*

أغلقت الكتاب. نشأت مشاجرة في طرف العربة- لا شيء خطير: صياح، ومعاندة، وتلويح بالأذرع. رائحة المرحاض تزداد سوءاً. توقفنا لساعات، ولكن لم يتوقف الناس عن التغوّط في أنبوب القصدير، وتجمعت كومة مقرفة على القضبان تحت العربة. انجذب إليها الذباب: الذي كان ضخم الحجم مرتفع الأزيز، واحتشد في سرب هبط عبر النوافذ، التي لم تكن مغلقة. عاد بائع الجعة، ووضع صندوقه على الأرض وجلس عليه. كان مبحوح الصوت من الصياح. فسألني هامساً إن كنت أريد واحدة. على الرغم من أنني أملك اثنتين اشتريت اثنتين غيرهما. ففوق كل شيء كانت هذه فترة سعيدة، وستأتي بعدها ليلة طويلة. كان هناك صف خالٍ من المقاعد في الطرف الأقصى من القطار. تمددت حتى أستمتع بالغروب، نفثت دخان غليوني، وسمحت لنفسي بقراءة باب آخر من كتاب (ويلسون المغفل). هبط الليل على بابالوبان. كانت الكلاب تنبح، وتحولت أصوات القرية إلى همهمات، ما زالت أجهزة المذياع تعمل، وتحدث الناس في القطار بهدوء أكثر في الظلام. كانت هناك صراصير، صوتها في سرعة الصنجات، لم أسمع صوت صراصير منذ فترة طويلة- كان الصوت مهدئاً. وأبهجتني الرواية: أي كتاب رائع كان هذا! اعتقدت أنني كنت أعرف القصة. لكن كل ما تذكرته كان عمل البصمات، والأطفال المتطابقين والجريمة.

افتقدت التهكم: كانت القصة عن الحرية والعبودية، والهوية والتنكر، وصبغات العرق التي تحولت إلى سمات. كانت تحفة بربرية، ذات سخرية قاسية قاتمة، أكثر عبقرية وتشاؤماً من أي شيء قرأته لمارك توين قط. لقد كانت مستوحاة من قصة شعبية: الأطفال المتحولون. إذ تحوّل الطفل العبد إلى سيد، وابن السيد إلى عبد. ولكن إشارات العرق الخفية جعلتها كابوساً من الظلم المقنّع. لقد بدأت كملهاة عن توأمين سياميين. رأى توين هذا الأمر كأنّه عيب: " قصتان في واحدة، ملهاة ومأساة."

لقد قرر أن يجدد القصة: "لقد سحبت الملهاة، وتركت المأساة." ولكن المأساة كانت غاية في المرارة، وهذه الرواية التي نادراً ما تُقرأ- واحدة من أكثر الروايات الكوميدية سوداوية في الأدب الأمريكي المقروء- تُعتبر قصة لمحامٍ ريفي، صاحب شخصية مضحكة المظهر، يكسب إحدى القضايا باستخدام البصمات. لم يغط نصره على حقيقة الهزيمة التي طالت جميع الشخصيات الأخرى بما فيها الشخصية الرئيسية. منحتني موضوع محاضرة: كيف- بتمحيص الاختيار- نبسّط كتّابنا: الأدب الأمريكي مقتطفات مما هو محتمل أو مغري.

في هذه الأثناء جنّ الليل في بابالوبان. نظرت إلى الأعلى ورأيت محركاً منفصلاً يقترب من الجسر. مرّ بنا، وبعدها بخمس دقائق كانت هناك هزّة، وترنح، ثم عاد القطار يسير من جديد على خطوط الحديد.

الصفّارة الحادة والأطفال الغواتيماليون يصيحون:" لنذهب!"

أضيئت مصابيح القرية، ولكنها كانت متوهجة وبلا تظليل، وسرعان ما اجتزناها والقرويون الذين كانوا ينظرون للقطار وهو يغادر، كان بعضهم يلوّح لنا بتردد كما لو أنّهم يتوقعون أن نتوقف من جديد. لكنّنا لم نتوقف. غسل النسيم النقي عربات القطار بمروره، واستطعنا رؤية السماء بعيداً عن الأشجار وأنوار القرية المتوهجة. إنّه الغروب، الذي رآه هنا منذ خمسمائة سنة في هذه البقعة ذاتها أحد شعراء الآزتيك:

أبانا..**الشمس**

في زي يزخر بالريش، يدفع نفسه

إلى داخل إناء من الجواهر

مزين بقلادة تركواز

تحت وابل غزير لا ينتهي

من الزهور الملونة

ظل الوميض لبضع دقائق، ثم صارت الغابة الخضراء، والمستنقع كتلاً من الظلال، وسادت الظلمة التامة.

لم تكفني أربعة مصابيح صغيرة- كانت المصابيع الباقية معطلة أو مفقودة- للقراءة في ضوئها. وضعت كتابي جانباً، وشربت، ثم نظرت من النافذة.

هناك وقفات قليلة- بعض القرى، بعض المستوطنات التي كانت أقل من القرى. رأيت المداخل تهتز في ضوء الشموع، وقد اكتست الأجزاء الداخلية من الكوخ لوناً أبيضَ من أثر المصابيح. في أحد المداخل، كان منظراً مثيراً جدا لفتاة أو امرأة، وهي تتكيء على ركيزة، مائلة إلى الأمام، ساقاها متباعدتان، ذراعاها مرفوعتان إلى الأعلى، والضوء من خلفها يبرز رشاقة جسدها تحت الفستان الشفاف- وقد شكّل هذا المنظر الجميل مستطيلاً مضيئاً حفته ليلة مكسيكية بلا ملامح، وترك فيّ اضطراباً من أثره وشيئًا من القلق. في إحدى البلدات مال صبي خارج القطار ونادى على فتاة تبيع سنابل الذرة. قال: " أين نحن؟"

أخذت الفتاة صينية سنابل الذرة من رأسها وحدّقت فيه. كان سؤالاً صعباً.

قال الفتى: " إنّها لا تعرف أين نحن!"

نظرت الفتاة إلى الفتى الضاحك على القطار. كانت تعرف أين هي. ولكن الصبي لم يسأل عن هذا.

أيقظ الولد أباه، وأخاه، وهزّ رأسه ناحيتي: " إنّها لا تعرف أين نحن!." قالها بصوت عالٍ سمعته الفتاة التي تحمل الصينية.

قلت: " أعلم أين نحن."

سأل الفتى:" أين؟"

"في القطار"

وجدوا في ما قلت طرافة بالغة. كررها الصبي، وازداد الضحك هذه المرة. في الحقيقة، كنا في بلدة سويلتا، وهي مكان مزدحم، ومعنى الاسم "مُرتخٍ". بعد هذا لم أستطع النوم أو القراءة، خربشت هذه الملاحظات على الصفحة الخالية في كتابي: درجتان كلتاهما غير مريحة ومتسخة...

كنت أشعر بالحنين إلى الوطن. هل ثمة معنى لهذه الرحلة عدا حقيقة أنني كنت أشد قلقاً من احتمال البقاء في مكتبي واحتمال شتاء آخر؟ لقد سافرت وأنا في روح معنوية طيبة، ولكني لم أكن مستكشفاً: من المفروض أنّ تكون هذه متعة، وليس اختباراً للجلد أو الصبر. لم أشعر بمتعة في شقاء السفر حتى أخرج للعشاء فيه. لقد كنت أشعر بالفضول إزاء الاستيقاظ صباحاً في منزلي، واللحاق بالقطار المحلي في الصباح بمنزلي، واللحاق بالقطار المحلي، والبقاء فيه بينما ينزل الركاب إلى أعمالهم. وتغيير القطارات في نهاية الخط، وتكرار العملية ذاتها إلى أن تنتهي القطارات، وأصل إلى بتاغونيا.

أكثر كآبة من خاطرة الحنين إلى الوطن: كتاب رحلات كان ذكرى شيء ما قرأته عن جاك كيرواك. في عمر الخمسين وقد ترك كتاب على الدرب [On The Road] قبل زمن. قرر أن يسافر متطفلاً على السائقين عبر أمريكا مرة أخرى. كان أكثر بدانة آنذاك، وشعر بالهزيمة، لكنه كان على قناعة بقدرته على تكرار ملحمته في السفر عبر البلاد. لذلك ترك نيويورك ميمماً شطر كاليفورنيا. كانت ملامحه الجادّة لا تتغير، لكن تغيرت الأحوال. وصل الرجل الحزين إلى نيوجيرسي، ووقف هناك لساعات تحت المطر، وهو يحاول أن يدبّر من يقلّه، حتى استسلم في نهاية المطاف، واستقل الحافلة عائداً إلى منزله.

ودون أن أعي أنني كنت نائماً أيقظني البعوض والبرد. فحشرت طرف بنطالي في جوربي(ولكن هذا البعوض تمكن من قرصي من فوق الجوارب)، وارتديت كنزة دافئة، ومعطف جلدٍ كنت قد حملتهما معي لمجابهة طقس مرتفعات الأنديز. وتكوّرت مرة أخرى، فنمت كجذع شجرة حتى الفجر. لم أظن أنّ بقدرتي التأقلم هكذا، و نلت بعد التغلب على شقاء ليلة مروّعة على مقعد ممزق في قطار بارد نتن ما نلت مما يلازم مثل هذه الرحلات من رائق التفاؤل، وطيّب الفكاهة.

شعرت بالقوة، وعرفت أنَّ قوتي كانت مضحكة. في السادسة من ذاك الصباح، رمقت ساعتي. كانت مصابيح العربة معطلة والظلام دامسًا. وبعد ذاك بلحظات، طلع الفجر. لم يظهر قرص الشمس، لكن دفقة من الضوء بددت الظلام وانتشرت في جميع الاتجاهات، فكست السماء الشاسعة نعومة زرقاء بنفحة الأوزون. ومعها نسمة دافئة، واستعاد المنظر الطبيعي توازنه، وعبقت العربة بأريج الندى الصحراوي. لم أر انبلاج فجر بهذه السرعة من قبل، ولكني لم أنم أيضاً بتلك الطريقة. كانت النوافذ مفتوحة، وليس ثمة ظل: مثل النوم على أريكة حديقة عامة. وعلى البعد ثمة جبال: كشف ضوء الشمس عن رؤوسها الصغيرة، وأكتافها العريضة، خشنة وأرجوانية، وبها أشجار صغيرة سوداء رقيقة كرموش العين على منحدراتها. متعرّجة باتجاه الشرق، أما إلى الجنوب فكانت غابات متفرقة متربة. توقّف القطار. هنا أرض خلاء. بدت فتاة على النافذة: "قهوة!" صبت لي بعضاً منها في كوب ورقي، رشفتها بينما استأنفنا الرحلة على طول المحيط المنخفض لذاك الجرف.

كان هذا هو الجزء المتاخم للمحيط الهاديء من برزخ تيهوانتبيك، أضيق نقطة في المكسيك- ضيقة جداً، وكانت تعتبر لفترة طويلة مكاناً مناسباً لحفر قناة بين الساحلين.

وأكثر قرباً وملاءمةً من بنما لأنها كانت أقرب للولايات المتحدة. تهيوانتيبيك- مكان حار كئيب المنظر- ذو تأريخ مثير للاهتمام. كان عامراً دائماً، وتحت هيمنة الهنود أكثر الأحيان. هؤلاء الهنود، الزابوتيكيون، أناسٌ يُنسبون إلى أمهاتهم: كانت النساء تمتلك الأراضي، وتصطاد الأسماك، وتفلح الأرض، وتدير الحكم المحلي، أما الرجال فيتسكعون في الجوار تعلو وجوههم نظرة غباء أورثها لهم خمول أجسادهم.

شهدت المحطات في ذلك الصباح على رسوخ هذا التقليد: النساء العاملات، والرجال صفر اليدين. ولكن ربما قلل المرء من قدرتهم على الانتفاضة: الصبر في معظم الأحيان يبدو كالهزيمة، والصمت مثل الحوار.

وقعت أولى ثورات الهنود في المكسيك هنا في عام 1680. تمرد هؤلاء الناس، وهيمنوا بعدها ولمدة ثماني سنوات على معظم أجزاء البرزخ.

وعندما أطلقت المشروعات الكبيرة في السنوات التي تلتها لزيادة أهمية البرزخ لم يساهم الهنود، بل وقفوا جانباً يتفرجون على المشروعات وهي تنهار واحداً بعد الآخر. في كتاب الرحلات المرح المبهج هذا، الإنديز الغربية والأراضي الاسبانية، كتب أنطوني ترولوب إنّ هذا الجزء من المكسيك كان:" الممر الذي اختاره كورتيز واستخدمه للضغط على الحكومة الإسبانية.. كان الخط ليمتد من خليج كامبيشاي، على طول نهر كوتزاكولكوز إلى تيهونتبيك والمحيط الهاديء."

ترولوب الذي رأى أنّ المسارات الجنوبية عبر بنما وكوستاريكا- كان قد سافر إلى كليهما- ستكون باهظة وغير عملية، كان يكتب في 1860. وبعد ذاك بعشر سنوات أرسل الرئيس أوليس س. غرانت (نعم هو نفسه) البعثة التيهونتبيكية إلى هنا، وكلفها باستكشاف إمكانيات حفر قنال. بلغ عدد البعثات بالإجمال سبعاً، ومع ذلك لم يكتمل شق القناة، وقد عبر البرزخ عشرات الآلاف من المسافرين، أولاً على ظهور البغال، ثم بالعربات التي تجرّها الدواب، ثم بالقطار.

كان واحدًا من أفضل الطرق للوصول إلى كاليفورنيا مروراً الساحل الشرقي للولايات المتحدة، وقد زادت حمى الذهب عام1849 من حركة السفر على نحو واسع. ومع حركة الناس جيئة وذهاباً عبر تيهونتبيك (تحت أعين الهنود الحزينة أو الساخرة -بحسب ما يُفترض)، كانت المصلحة من ضم هذا الشريحة واضحةً، وحثت الحكومة الأمريكية المكسيكيين على تسليمه مرات عديدة.

لم يستطع عناد المكسيكيين من الصمود في وجه الجشع الأمريكي، وعلى الرغم من تنازل المكسيكيين عن جميع ما نسميه الآن بالولايات الغريبة، لكنهم رغم كل ما حدث رفضوا تسليم تهونتيبيك. شيدت الخطوط الحديدية في 1894 عبر المضيق، وصارت تجارة رائجة. واحد من أشد خطوط العالم الحديدية المعروفة نشاطاً على الإطلاق، كان يسيّر في أوج عهوده ستين قطاراً يومياً. إنّها حقيقة مذهلة، إذ لم يتبق من ذلك النشاط والفعالية سوى القليل، مثل هذا الجزء الضئيل من الأعمال اليدوية للبنائين والوسطاء.

ما تبقى من سكة حديد تيهونتبيك الوطنية أقل من أطلال حضارة المايا في أوكسمال أو بالينكو، وليس ثمة ما يشي في مجاري الأنهار الذاوية، أو الخطوط المتربة التي تربط المدن البائسة بأنّ هذا كان يوماً ما من معابر العالم العظيمة، لكنْ بعض الطرق الحديدية ما زالت قائمة. مُد الخط عام 1913 ليقترن بما يسمى الخطوط الأمريكية العامّة عند الحدود مع غواتيمالا، ولكنه ضاع سدى. في السنة التالية افتتحت قناة بنما، وأفلست جميع الخطوط الحديدية، وطرق البغال، والعبّارات، وطرق العربات التي تجرّها الجياد في أمريكا الوسطى. مذاك، بدأت تهونتبيك تذوي، ولم يفلح حتى اكتشاف النفط في معالجة المضيق وإعادة الإزدهار إليه بأي شكل من الأشكال (قبله بفترة طويلة، وجده الآزتيك في كتل لزجة تم استخلاصها من الأرض، وكانت مادته السحرية تُشعل في الاحتفالات الدينية). يبدو الآن مثيراً للشفقة، إنّه بلد صعب، وحار وعقيم، يعيش الهنود حياة عادية يوماً بيوم، محاصرين بالحروب، وتقل المدن والقرى عما كانت عليه في عهد حضارة الآزتيك. ولكن تعلّم المكسيكيون كيف يستمدون الراحة من الماضي- من أحداث حقيقية، أو البساطة الخرافات المطمئنة- وحتى بين الهضاب المغطاة بشجيرات الصبّار، وصحراء تهونتبيك الوعرة احتفى المكسيكي الماضوي جداً بفكرة أنّ الأرض قد عاشت-من قبل- أياماً مجيدة.

صارت سلسلة الجبال الآن مثل قلعة، ثم أشبه بكاتدرائية(إلا إنّه شريط آخر من سلسلة جبال ماديرا في حمائية الأمهات)- يرافقنا طوال اليوم. ولكننا لم نتسلقه قط. سرنا باتجاه الجنوب على طول الأراضي المنخفضة الحارة وكلما توغلنا جنوباً ازدادت القرى الهندية بدائية وصغراً، وصار الناس أكثر رمزية: طفل عارٍ، امرأة تحمل سلة، رجل على ظهر حصان يقف في ضوء الشمس المتشظي أمام كوخ طيني بائس. وبينما كان الصباح يمضي انسحب الناس، وبحلول الساعة الحادية عشرة كنا نُراقب من نوافذ الأكواخ التي صارت أصغر بكثير. الظل نادر: نامت كلاب القرية الهزيلة تحت بطون الأبقار التي جمدت في أماكنها بسبب طعنات العشب الخشن. كان الماء في الجنوب الغربي- ضباب أخضر مزرق، وفراغ لامع، انحصرت الأرض السهلية في مشهدين، تلألؤ في جانب وزوارق في لون بني غريب. كان هذا هو مار مويرتو، البحر الميت، بحيرات معيّنة الشكل على ساحل المحيط الهاديء. وعندما اقترب القطار أكثر، كانت الأحصنة مربوطة إلى أعمدة باحات حانات القرية، والرجال يجلسون إلى الطاولات بالقرب من النوافذ، وتصطاد النساء والفتيات الجمبري والأسماك ذات الحراشف القرمزية، ويحملنها في دلاء.

كانت عيناي رطبتيْن من الحرارة، ومن خلال هذا الضباب رأيت خنازير قاتمة اللون وبساتين جوز الهند، وأشجار الموز، ومن ورائها الجبال الصخرية.

عبرنا إلى داخل ولاية تشيباس. في تشيباس بدت الجبال أعلى ارتفاعاً، والأرض المحيطة بها أشد حرارة، وكان هذان المنظران المتباينان غير مشجعين، وفوق ذاك لم يشيا بأي اجتهاد للبشر لدرجة أن الأشخاص بدوا كرواد، وافدين جدد صبورين لم يتركوا بصمتهم على المكان بعد. كان هذا ما بين المحطات، ولكن المحطات نفسها بدت كمواقع نائية أيضاً. سألت المحصّل في بلدة آرياغا عن الزمن المتوقع لوصولنا إلى تابشولا. فعدّ على أصابعه، ثم ضحك لأننا كنا متأخرين أكثر من عشر ساعات.

فقال: "ربما الليلة، لا تقلق."

"أنا لست قلقاً."

لست قلقاً لكني سئمت من هذا القطار الحار المزدحم. ربما كنت لأستمتع ببطء حركة القطار، لولا المقاعد المحطمة، ودورة المياه المعطلّة، والأرضية المغطاة بالأتربة.

أوهن الحرّ أجساد الركّاب، وألقى بهم منهارين على المقاعد، مفتوحة أفواههم كما لو أنّهم- جميعاً- قتلوا بالرصاص أو الغاز.

قال المحصّل: " سأعود، وسأخبرك عندما نقترب من تابشولا. حسناً؟"

"شكراً لك."

ولكن الوصول إلى تابشولا لم يكن بالأمر الجلل. لم تكن تابشولاً مكاناً مميزاً. إنّها ببساطة آخر محطة في هذا الخط.

كنت قد أنهيت معظم طعامي عندما وصلنا إلى بيخيخيابان. ولم يتبق سوى بعض شرائح اللحم الباهتة، وبعض الجبن المتعرّق الذي أصبح من أثر الحرارة طرياً كالعجين- ألقيت به من النافذة. وكنت قد أنهيت أيضاً قراءة كتاب (ويلسون المغفل). كانت بيخيخيابان سوق بلدة، مشهدًا متحركًا لم يزده وصول القطار إلا جنوناً على مابه. ظل القطار في وسط البلدة لنصف ساعة، ولم يتمكن أثناءها أي من المتسوقين، أو البائعين الجائلين، أو السيارات المحطمة عبور الطريق. كما لم يسمح المحصّل لأي شخص بالمرور عبر القطار. لذا ظلوا واقفين تحت حر الشمس بسلالهم، وقد زادت رائحة الأسماك التي يحملونها سوءاً وهم ينتظرون.

كانوا يحملون الدجاج والدجاج الرومي أيضاً، والذرة والبقول. كانوا هنوداً- أناساً قصار القامة، مربعي الوجوه، تشخص أبصارهم في هذا الاقتحام. إن تساءل المرء عمن هم على وجه التحديد، فعليه فقط الاستماع لجاكز سوستال[[23]](#footnote-23) على إذاعة الآزتيك. فهو يلفت انتباهنا- قبل أن يتطرق إلى الإنجازات الفنية والثقافية للنبلاء- في ما يشبه المقدمة الهامسة إلى مجموعة أخرى. إذ يكتب: " يظل الفلاح على هامش المدن اللامعة الغنية- ناهواتل، أوتومي، زابوتيك، وغيرها- يمارس صبره وحياته الكادحة مغموراً خامل الذكر. نحن نكاد لا نعرف عنه شيئاً.لم يكن مثيراً لاهتمام المؤرخين المحليين ولا الإسبان، بكوخه، وحقل الذرة، ودجاجه الروميّ، وأسرته الصغيرة الأحادية الزوج أو الزوجة، وكانوا لا يذكرونه إلا مروراً.لكن من المهم الحديث عنه في هذه المرحلة، على الأقل لمجرد إدراك حضوره الصامت، في الظلال المتوارية خلف بريق الحضارة المدنية، و الذي زادته نكبة 1521 [الغزو الاسباني] وانهيار جميع السلطات، وجميع المفاهيم، والإطار المجتمعي بكامله، والدين كلّه، ونجا بمفرده، وبمفرده ما زال يعيش."

هو-أو هي على الأرجح - باعتني بعض الفطائر والأرز في بيخيخيابان. احتسيت آخر ما بقي لي من المياه الغازية (استخدمت النصف الثاني من الزجاجة لتنظيف أسناني)، تحركنا مرة أخرى. أحبطني شعوري بالإرهاق الشديد في منظر طبيعي جميل كما لو أنني أغفو في حفل. رفع القطار السرعة، وانطلق على طول هذه السافنا، دائراً حول الجبال الشامخة، ولكن سلبتني الحرارة والقذارة وإرهاقي، والآن ضجيج القطار المسرع، القدرة على التركيز، أو تثبيت نظرتي على الصخور اللامعة، أو الأشجار المنعطفة بخفة إلى الوراء. كان الشعور بهذا القدر من التعب والعجز أشبه بالعقاب، لكن العقاب الأكبر تمثّل في معرفة كيف أغواني أفضل مافي تشيباس. كنت أبذل جهدي لأبقى يقظاً فأصبت بالإجهاد، وأربكني الهواء المتوهجّ والأرض الصفراء قبل أن أنام.

استيقظت وأنا أتصبب عرقاً، متى ما توقف القطار في المدن الصغيرة مثل مابستيبيك، ومارغاريتاس حيث تسبح الواجهة في الألوان: الجاكراندا، الجهنمية، والكركديه- حوار الدرجات اللونية المتباينة، عدا ذلك الصحراء ذات الأشجار هشة، والتربة القاحلة التي دمرتها حقول الذرة والتبغ.

صرنا الآن في عمق الأرض النائية، وتعرفت لاحقاً على البقعة البعيدة، كانت مزيجاً من القرى الهندية والطرق السيئة، وخط السكة الحديد الوحيد الذي عبّر عن الصينيين، الذين بدورهم أعلنوا عن أنفسهم في لافتات المتاجر:**كازا وونغ**، أو **شين هيرمانوس**، لكنْ هذا لم يكن عادياً: لقد جاءوا مع خط الحديد، وأقاموا. أعتقدت أنّ الطقس ربما كان حارّاً في الصباح، لأنّ الظهيرة كانت لا تطاق من الحر، وفي سوكنكوسكو شعرت بالغثيان من أثر ذلك الحرّ. سرت بطول القطار لأجد بعض الماء المعلّب حتى أتناوله مع ملح الفواكه خاصتي، قابلت رجلاً في البداية خلته أمريكياً. لم أقابل متحدثاً باللغة الإنجليزية منذ أن غادرت فيراكروز. حييته- سعيداً بأن يكون لدي من يفهم مشاعر انزعاجي. أجفل مني. كان يرتدي سترة، وكانت عدسات نظارته مغلفة بالغبار، وكان يملك خارطة صغيرة، جلس وحيداً في الدرجة الثانية. كان ألمانياً بالتأكيد. ولم يكن يتحدث الإنجليزية ولا الإسبانية. وعندما سألته بلغة ألمانية مكسرة، إن كان في القطار من قبل، قال من فيراكروز.

ولكني لم أره في فيراكروز، أو بابالوبان، أو أي مكان آخر. حسناً، قال، لم أترك هذا المقعد. ماذا أكل هو؟

" شطيرة جبن".

" طوال يومين؟"

قال: " نعم، لا أحب دورة المياه. لا آكل، حتى لا استخدم دورة المياه. كانت لدي عبوة بيبسي كولا. لكني سآكل في غواتيمالا."

"ربما لن نصل إلى جواتيمالا قبل الغد."

" إذن سآكل غداً. من الجيد أن تظل جائعاً لبضعة أيام."

يأكل الناس كثيراً جداً- خاصة هؤلاءالناس. أتراهم يستخدمون دورة المياه؟"

"إلى أين أنت ذاهب في غواتيمالا؟ "

"ربما إلى الآثار. لا أعلم- علي العودة للعمل الأسبوع المقبل".

"عائداً إلى...؟"

"ألمانيا"

"آه" كان يركب في الدرجة الثانية. بالدرجة الثانية مقاعد بلاستيكية سوداء ممزقة. أما الدرجة الأولى فبها مساند للأذرع. لكن الثانية كانت أكثر ازدحاماً. كيف راقت له؟

ابتسم لي. كانت أول مرة يبتسم فيها، وكانت ابتسامة نصر، وسعادة حقيقية.

قال: " ثلاث دولارات."

لا مستكشف، ولا متطفل، ولا حقيبة ظهر، أو بوصلة. فقط حقيبة سفر مرتبة، ونظارات صغيرة مذهّبة الإطار مغطاة بالغبار، وقارورة بيبسي فارغة، وغلاف شطيرة، جالساً مع الثورة الجيرمانية، ونحن في أقاصي تشيباس المتقلبة. كانت خارطته صغيرة، وليس لديه كتاب آخر، لم يحتس الجعة. باختصار: بخيل.

قطار آخر، به مقصورات ومقاعد مرقّمة، ربما ألقت بنا على بعضنا البعض، ولكنت عانيت من رفقته الكئيبة ليومين.

إن كانت ثمة فضيلة في خضم الفوضى التي عمّت القطار المكسيكي بإهمال، فهي السماح لراكب بالصعود إلى عرباته البائسة. لا قواعد، أو إن كانت ثمة قواعد فلا أحد يلتزم بها.

لذلك لم يصعب علي رفض صحبة هذا الرجل- ليس لأنّه لم يعرضها علي. الأشخاص البخلاء لا يبخلون فقط بالمال، بل حتى بالصداقات- مرتابون، مشككون، وغير مكترثين. على نحو ما أُعجبت بتحفظه على الرغم من أنّ تحفظه لم يكن نابعاً من شيء أكثر إثارة للإعجاب عن أنانيته، وحبه لكل ماهو زهيد بخس الثمن.

لكن بعدم رغبته في المجازفة، عرّض نفسه لأكبر مجازفة: أن يكون منفرداً في مكان شديد الحرارة، وفوضوي يحتاج فيه المرء إلى أصدقائه بشدة.

قلت:" رحلة طيبة."

هزّ رأسه ولم يبتسم. وكان هذا كل شيء. لقاء بالصدفة لا أكثر. بالكاد مررنا ببعضنا في ذلك الركن القصيّ من العالم.

متجر صيني آخر، والمزيد من حقول التبغ، وفي الظهيرة تلبدت السماء بالغيوم لكن لم تنخفض الحرارة.

اتكأت على المقعد، وخلدت للنوم مرة أخرى، ولم استيقظ حتى سمعت أحد الأطفال الغواتيماليين يصيح- كما كان يفعل منذ أن كنا في فيراكروز- " لنذهب!" ولكن هذه المرة كان يصرخ فيّ. استيقظت في الظلام.

توقف القطار، وعندها مالت الأم الغواتيمالية ناحيتي: "إن كنت ذاهبًا إلى الحدود- سبق وقلت ذلك- فبوسعنا تشارك سيارة الأجرة وتوفير بعض المال. لدي فقط ثلاث حقائب وهؤلاء الأطفال الأربعة. بوسعنا أن نجلس على المقعد الخلفي، وتجلس أنت في المقعد الأمامي بجانب السائق. ما رأيك؟"

كانت رحلة مزعجة، وبإصغائي إليها رأيت فرصتي في مغادرة المكسيك، وهذا القطار، وهذه البلدة ليست سوى خطوة عبر الحدود. لاحقاً أدركت أنّني سأكون أفضل حالاً إن حللت بفندق في تابشولا، ولكني كنت في غاية التوق لأغادرها آنئذٍ. لذلك قلت نعم، وبعد نصف ساعة، وفي ظلام تام. كنت أسير عبر الجسر فوق نهر سوشيات. وورائي الهضاب ذات الثنيّات، وحقول موز المكسيك، وأمامي جبهة صخرية سوداء، وعلى جروفها وتلالها، غابة زرقاء قاتمة، وقد برزت الليليانا البيضاء وكروم العنب في ضوء القمر، وعندما هدأ هدير النهر، استطعت سماع صياح الخفافيش.

**-6-**

**قطار الساعة السابعة والنصف إلى مدينة غواتيمالا**

**---**

بدت غواتيمالا فجأة: حَدٌّ نهري، وعلى الضفة البعيدة جروف غنية بالأشجار والكروم المتدلية. سحب العاصفة كانت تمر من أمام القمر، الذي منحها أشكال الكهنة ذوي القلانس والرايات الرمادية. كانت مدينة تيكون أومان صغيرة للغاية بحيث بدت تابشولا بالمقارنة معها عاصمة، ولافتات تابشولا التي رأيتها تعلن عن فندق (غرف ممتازة مريحة، وأسعار مغرية) ظلت في ذاكرتي وأنا أتناول وجبة رديئة من الفاصوليا في غرفة سيئة الإضاءة في أردأ فنادق تيكون أومان، كان اسمه اللؤلؤة. قبل مئات السنين كتب مسافر بريطاني في غواتيمالا: " غريب يصل دون مقدمات، لا يسعه سوى أن يذهب إلى أرخص نُزل..مخصص لإقامة سائقي البغال، وقطعان الماشية، وحثالة تجّار التجزئة." كنت وحيداً- ليس ثمة سائق بغل على مدى النظر. كنت لأرحب بصحبته. كان هناك كلب بجانب الباب، يمضغ البراغيث من مؤخرته. أعطيته قطعة غضروف من طبقي، وراقبت عينيه الضاريتين بينما كان يعمل فيها أسنانه عضّاً. فكرت في حظي الميمون الذي يسر لي قطاراً يخرجني من هذا المكان صباحاً. "

قال مدير الفندق: " مبكراً جداً"

أجبته:" كلما بكرت كان أفضل."

لم تكن تيكون أومان سوى محطة نهائية في خط القطار لا غير. ولكن في وقت ما، قامت مملكة غواتيمالا في المنطقة الممتدة من هنا حتى بنما- التي كانت آنذاك محافظة مهمشة في غواتيمالا. عانت المملكة من عدم الاستقرار، واستمرار المشكلات، وعندما تمخض الحكم الدستوري عن سلسلة من الثورات، و استقلال عقيم، زادت فيها القلاقل وانعدم الاستقرار. كما تعرضت أيضاً إلى تهديد المكسيك- على يد حاكمها الأحمق إيتوربيدي، الذي نصبّ نفسه في حفل مديح ذاتي: " إمبراطوراً بأمر العناية الإلهية والمجلس الوطني" كان مثار سخرية بوليفار. كان الاستقلال الغواتيمالي يعني تشكيل مجالس بلدية، صوتت في عام 1822 لصالح قرار ضم غواتيمالا للمكسيك، بحجة أنّ انضمامها للمكسيك أفضل من الإذلال في معركة معهم. ولكن عدم استقرار المكسيك كان واضحاً منذ البداية، إذ عُدّ إتوربيدي مستبداً، وعقب ذلك بعام انسحبت غواتيمالا وأعلن مجلسها الوطني استقلال المحافظات الخمس: غواتيمالا، وكوستاريكا، وهندوراس ونيكاراغوا، والسلفادور.

كانت هذه كونفيدرالية اسمية، المحافظات المتحدة لأمريكا الوسطى، بيد أنّ المسافر الأجنبي ظل يدعوها غواتيمالا طوال السنوات الثماني التالية، واعتبر مغامرته في أحراش كوستاريكا ونيكاراغوا ورحلاته بالقوارب عبر بحيرة هوبانغو في السلفادور سفراً داخل حدود غواتيمالا. فإن كانت "غواتيمالا" اسماً خاطئاً لمجموعة الأقطار هذه، كانت "المحافظات المتحدة" نوعاً من الانتهاك الغبي للغة التي تسمي الدكتاتورية القميئة في أيامنا هذه "جمهورية شعبية".

اندلعت الحرب الاهلية على الفور في البلدان الخمس: كانت بين الخشّابين وسكان المدن، والمحافظين ضد الليبراليين، والهنود ضد الإسبان، والمزارع الأجير ضد مالك الارض. تنازعت المحافظات، وتفككت الوحدة بين الاتهامات الحادة ونيران المدافع. خلال خمسة عشر عاماً، عاشت المنطقة هرجًا سياسيًا واجتماعيًا، كما سماه أحد المؤرخين: " الاضطراب الخماسي." تذمر المسافرون الأمريكيون والبريطانيون من صعوبة شق طرقهم بين القرى، ولاحظوا مدى ضآلة معرفة أمريكا الشمالية بهذا النسيج الجغرافي الواهي الذي تتأرجح عليه أمريكا الجنوبية. من الصعب وضع الاسماء على استقامتها. فغواتيمالا تأخذ شكل السندان بجانب مكسيكو، والسلفادور هي الشيء الصغير الذي تضغطه نقطة هندوراس إلى شكل طوف مستطيل، وتثبت عدم جدارته بالانطلاق في المحيط، نيكاراغوا إسفين، وكوستاريكا هي سوار المعصم على كُمِّ بنما الطويل. أما بليز فخالية من خطوط القطارات. وبالنظر إلى تأريخها- ليس الشغب، والحرب الأهلية، والثورات فقط، بل أيضاً الهزّات الأرضية والأنشطة البركانية المستمرة- من الغريب أنّها ما زالت موجودة ولم تنهار وتختفي تحت البحر فجأة. من ناحية علمية جيولوجية تقع هذه البلدان على واحدة من أخطر صدوع كوكبنا، شق بركاني يهدد بالانهيار كل عام، وابتلاعها هي وخصومها بأسوأ طريقة يمكن تخيلها. الحقيقة العجيبة هنا أنَّ فخر هذه البلدان الأكبر هو براكينها: فهي على كل شعار وطني، وفي معظم العملات، وتحضر بشدة في خرافاتها. كان كل هذا ماثلًا أمامي، ولكني عزمت على الالتزام بمساري، والتعامل معها كل بلد على حدة.

لاحقتني نظرات الحيرة من مدير الفندق عندما أخبرته أنني أحاول اللحاق بالقطار."

قال: " الحافلة أسرع."

قلت: " أنا لست في عجلة من أمري."

"القطار قديم جداً."

"القطار المكسيكي إلى تابشولا كان قديماً."

"ولكنْ هذا متسخ أيضاً."

"سأستحم عندما أصل إلى مدينة غواتيمالا."

"السيّاح الآخرون جميعهم يستقلون الحافلات أو سيارات الأجرة."

"أنا لست سائحاً."

قال بعد أن أدرك أني حزمت أمري: " نعم. القطار مثير للاهتمام. لكن لسبب ما لا يستقله أحد."

كان مخطئاً حيال ذاك، لسبب واحد. كانت المحطة مزدحمة في وقت مبكر من الصباح التالي. مزارعون نحيلو الأجسام، بأغطية الرأس المرتخية وقبعات القش العريضة، ونساء هنديات بشعورهن المجدولة، ومواليدهن الرضع في الأغمطة، والأطفال الحفاة. قد حمل كل شخص حزمة كبيرة، سلة مربوطة بأغصان الكروم، أو حقيبة مصنوعة يدوياً. خلصت إلى أنّ هذا هو سبب اختيارهم القطار- أمتعتهم التي لن تُستقبل بالترحاب في الحافلة. اتخذ القطار طريقاً آخرَ غير الذي سلكته الحافلات، وتكلفة القطار من تيكون أومان إلى مدينة غواتميالا أقل من دولارين. حتى عشر دقائق قبل أن يتحرك القطار وقفنا بأمر الشرطي على مسافة من حاجز الرصيف ونحن نحمل بطاقات السفر- كانت أشرطة من الورق عليها قائمة بجميع المحطات المتوسطة: وقد وضعت علامة في كل تذكرة، بجانب المحطة التي يتجه إليها الراكب.

الفرق بين القطارات المكسيكية والغواتيمالية اتضح حالما سمح لنا بالصعود على متن القطار. كانت العربات- الأربع كلها- عبارة عن حجرات خشبية صغيرة جداً بنوافذ كبيرة. ولم يكن ثمة زجاج بالنوافذ، ولا طلاء على الخشب. كانت عبارة عن تجويف ضيق يشبه تلك القطارات الني نراها في مدن الملاهي القديمة، أصغر وأقدم من أن تحفل به.

كانت المقاعد صغيرة أيضاً وامتلأت في غضون خمس دقائق من مغادرتنا. جلست لصق سيدة هندية، وضعت ذقنها على لحاف أحمر على كتفها حالما تحركنا، وراحت في نوم عميق، وطفلتها النحيلة القلقة في فستان ممزق تحدّق فيّ. لا يتحدث أحد في هذا القطار إلا لغرض التفاوض مع الباعة الذين يمدّون الفاكهة نحونا في المحطات على طول الطريق. وعلى الرغم من أنني كنت راضيًا عن معرفة أنّ القطار كان امتداداً للقطار الذي أخذته من بوسطن في ذلك الصباح المتجمد قبل أسبوعين، ولكن قطار الركّاب المتجه إلى مدينة غواتيمالا هذا لم يبشر براحة ولا رفقة، وفي هذا اليوم كان هواؤه معبأ بالدخان والضباب. لم أتوقع شيئاً معيناً في الحقيقة، سوى رحلة صعبة جداً خلال غابة كثيفة ورطبة. الغابة التي لا تشرف أشجارها القاتمة من علٍ تعطي انطباعاً بمقلب قمامة: حيث الأغلفة، والخيوط، والصناديق المحطمة، وقطع القماش، التي رأيتها لم تكن نفايات بل أوراقًا ميتة وكرومًا وأزهارًا. الغابة نفسها كانت رمادية هذا الصباح الغائم، وكان القطار يقعقع على القضبان، ويكشف عن ندوبه (السقف المحترق، المقاعد المشقوقة)، ويقف، ويتحرك دون أي إشارة تشي بذلك- لا يعتمد عليه بالنسبة لي، إن لم يكن شديد الخطورة. ويبدو على الخريطة كرحلة بينية بسيطة: فيراكروز- تابشولا- تيكون أومان- مدينة غواتيمالا- يومين كأقصى حد. ولكن الخريطة كانت مضللة، وهذا القطار، بما يصدره من أنّات في المنعطفات، والطرق الصاعدة قليلاً، ولا يشير مظهره بالنسبة لي عن قدرة على إكمال الرحلة. كانت وجوه الركاب عابسة، كما لو أنهم يتفقون معي في ما ذهبت إليه. كان الطريق خالياً، ولكن على بعد عشرة أقدام، ظهرت الغابة وكانت كثيفة جداً لم يدخلها ضوء.

مر بوسطنيّ من هذا الطريق عام 1886، وسحرته عذرية المكان، واعتبر دخول السكة الحديد عليه نوعاً من الرعب. قال هذا بنوع من التعجرف المتعلق بموضوع السفر، والتفاخر بمجد الترحال عبر الغابات المجهولة مع مجموعات الهنود، ودباغي جلود البغال (إيفلين ووه يكتب مقدمة لكتاب عندما كان السفر رائعاً، عبارة البخيل، بالتفاخر النزِق ذاته). " كان المسافرون القدامى يعرفون كيف أنّ البلد يفقد خصوصيته عندما يتحول مد السفر إلى الخارج عبر مدنه وطرقه الفرعية." ويكتب وليام ت. بريغهام في كتابه غواتيمالا:

(أعتقد أنّه وليام بريغهام ذاته الذي عرض نفسه لصدمة كهربائية في هاواي عندما لمس عصا خشبية شحنها ساحر من الأهالي بفولتية عالية سحرية). سرعان ما حدد بريغهام مخاوفه:" عندما تمتد خطوط السكة الحديد الشمالية عبر غواتميالا، وعندما يقطع الخط العابر للقارات سهول هندوراس، وتوحد قناة نيكاراغوا بين المحيطين الأطلسي والهاديء، سينكسر السحر، ويُستبدل طريق البغال، وحاملي الحُزم، ويغدو السفر عبر أمريكا الوسطى في رتابة وسهولة رحلة من شيكاغو إلى شايان."

كم كان مخطئاً.

كانت تشيباس قاحلة- أرض صخرية عارية كأن لم يسكنها بشر من قبل. كان هذا الجزء من غواتيمالا غنيًا بالغابات على الحدود (ظهرت الحدود الوطنية فجأة على الأرض المرتفعة، والأشجار المغطاة بالكروم)، وبينما كنا نهبط إلى كوتيبيك وريتالهوليو، اتسم المشهد بالمدارية في فوضاه(انبسطت الغابات، وقل حجم البيوت، وزاد فقرها ورداءة صناعتها)، واقتصر التناسق على حقول الذرة الواسعة. في مدينة مكسيكو رأيت القصب المقطوع في عربات شحن الخطوط الحديدية، وهنا يحمّل في العربات والشاحنات المترنحة القديمة، وسُحبت حزم منه على الطريق، وألقيت، حتى تعبثرت في معظم الطرقات، وبدا كما لو أنّها اُكتسحت بعاصفة هوجاء، وألقت بهذه الأغصان العارية أرضاً. لقد أكسب قطع القصب غواتيمالا رائحة عذبة وتبعث على الغثيان. أطلق الرجال ذوو المناجل هذه الرائحة السكرية، ولكنها أثقلت الهواء مع ارتفاع الحرارة نهاراً. كانت حلاوة مؤذية، كشراب محروق، بنفحة خضر، ويخلف طعمًا كيميائيًا حارقًا. وفيه أيضاً رائحة غير محببة ولاذعة للغاية، الشعور بالغثيان الذي قد يسببه لك حرق السكر في النار، وتحويله إلى رماد أسود. هذه هي ذروة حصاد القصب وقد جعلت الروائح، والشاحنات المحملة، وجماعات العمال من غواتيمالا تبدو كسوق رائج ولكن من نوع زراعي قديم الطراز. سرنا بمحازاة طريق، وكنا نعبره من حين لآخر، إلا أننا لم نقترب في معظم الأحيان من الأماكن المأهولة بالسكان. المدن صغيرة، ومتهدمة، وفي بلد حافلات الركّاب هذا يعيش معظم الناس في الطرقات. أدركت بعد بضع وقفات أنّ هذا القطار يعدُّ محليّا وليس على متنه من يقصد مسافة بعيدة.

الركاب الذين انضموا للرحلة من تيكون أومان يقصدون السوق في كوتيبيك، التي كانت على طريق- أو إليه عبر ريتالهوليو- الساحل الذي يبعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً. وصلنا إلى لا **ديموغراسيا** بحلول الظهر. وفي ذلك الوقت، عرفت أنّها سميت هكذا على سبيل السخرية، ولكن ربما كان يناسب المكان ذا الرائحة الحلوة الحامضة، والأكواخ المصنوعة من العصي والورق المقوى والصفيح المطروق، وأجهزة المذياع الصاخبة وصياح الناس- بعضهم يدعون إلى الحافلات، والبعض يبيع الفاكهة، ولكن أغلبهم يقفون وهم يتوشحون الألحفة وينظرون إلى القطار في أسى. الأطفال المتعبون يجلسون القرفصاء في الوحل.

وهنا عربة فخمة وسط الحطام، وثمة منزل جميل بين الأكواخ. الديمقراطية نظام حكم فوضوي، وثمة تناسب عشوائي ما بين الاسم وهذه المدينة البعيدة عن النظام. ولكن ماهو حجم الديمقراطية هنا؟ ملصقات الانتخابات على أعمدة شرفات المتاجر. ستعقد الانتخابات في غضون أشهر قليلة. حاولت أن أشرك الركّاب في الحديث السياسي ونحن في طريقنا إلى مدينة غواتيمالا، ولكني اكتشفت على الفور أنّ الغواتيماليين لا يتمتعون بالصراحة التي وجدتها في المكسيكيين. " كان إيشفيريا Echeverria لصاً ومنافقاً" أخبرني رجل: " لوبيز بورتيللو مثله تماماً- اعطه الوقت الكافي." كان الغواتيماليون حذرين: يهزون الأكتاف، يبصقون، ويديرون أعينهم، ولا يتحدثون عن ميولهم السياسية. ولكن من يلمهم؟ حُكم البلد في قبضة الحزب الأصولي المناويء للشيوعية مثار إعجاب وكالة مخابراتنا المركزية، مدة اثني عشر عاماً، وما زال يتصور أنّ المعادين للشيوعية الأصوليين هم بالقدر ذاته معادون للديمقراطية. في أواخر عام 1960 وبدايات السبعينيات، تصاعدت موجة حراك الغوريلا- اختطافات، اغتيالات، وتفجيرات، لكن الجيش أثبت عدم كفاءته في مواجهة عناصر الغوريلا في غواتيمالا نسبة للبطء الدائم في تنفيذ القانون. كان الحل بسيطاً. استشاري سفارة الملحق العسكري بالسفارة الأمريكية- وجد مقتولاً في وقت لاحق، تم تشكيل عدد من فرق الحراسة، وكتيبة اغتيال أهلية لا تخضع لإشراف أحد، واليد البيضاء، نسخة غواتيمالا من وحدة متطوعي الغشتابو المسؤولة عن الآلاف من من عمليات الاغتيال والتعذيب. بدا من الغريب أنّ يتمكن بلد صغير كهذا من إفراز نزيف دموي لهذا الحد. تُحمّل منظومة الإرهاب والإرهاب المضاد مسؤولية العديد من حالات الوفاة. وقد تسأل أنت، ما المغزى من ذلك؟ خمسة وسبعون بالمائة من سكان غواتيمالا من المزارعين التقليديين: مزارعون في حدٍ الكفاف وعمال أُجراء لقطع القصب، وقطف حبوب القهوة، وجمع القطن. أما الحكومة فبينما تصرّ على ديمقراطيتها، وعدم حبسها الناس، تزوّر الاقتراع، وتسمح لليد البيضاء وعدد من الجماعات المسلحة الأخرى بإرهاب السكان الذين لديهم من الأسباب ما يبرر اكتئابهم. )هناك الكثير من المسلحين المستقلين في غواتيمالا- زعم نائب الرئيس في عام 1975 أنَّ لديه في حزبه فقط ما يكفي من الرجال المسلحين لغزو بيليز، إن أظهر الجيش جبناً أو عزوفاً عن القتال) ولدى وضع هذه الظروف في الحسبان، لم أستغرب أنّ لا ديموغراسيا كانت متسخة، أو أن زملائي الركّاب على متن القطار كانوا مكتئبين. ما استغربته: إنّ الحكومة التي كانت تعقد الانتخابات، وتشجع الناس على التصويت بدت ديمقراطية. أظهر الجيش نوعاً من الحياد، والصحف اليومية لم تكترث، وظل مجتمع الفلاحين متعطشاً ومقيداً. وإن قيل لأي فلاح إنّه يعيش في بلد حر، سيشعر بالحيرة، لما تنطوي عليه المقولة من تناقض وواقعه المعاش. وربما قد لا يربكه هذا، فلديه أسباب لتصديق- وفق الظاهر- أنّ الديمقراطية بالية، والبيروقراطية تحت سيطرة الفاسدين، والجماعات المسلحة. عندما يرى المرء حكومة غواتيمالا تدّعي الفكر السامي في أهدافها الاجتماعية، ولا تحقق سوى نتائج عادية، لا يتفاجأ إن فضّل الفلاح الشيوعية باعتبارها إصلاحاً. كان مرضاً امريكياً لاتينياً: الحكومة الوضيعة تطلق على الديموقراطية اسماً شريراً، ولا تترك للناس خياراً سوى البحث عن بديل. قد يقول المتهكم- وقد قابلت الكثيرين منهم- إن الحكومة المستبدة تناسب هؤلاء الناس أكثر. لقد كنت أعتقد أنّه محض هراء. يدير معظم الدول من غواتيمالا إلى الأرجنتين طغاة لا يهتمون سوى بالمصلحة الشخصية، الأمر الذي يزيد من حتمية الانتقام من الفوضوية السياسية بلا رحمة. كانت الحيل الخسيسة واضحة من هذا القطار مثل صف من اللافتات الإعلانية عن آلات الحلاقة من علامة بورما.

حلاوة القصب النتنة، والتحلل في القرى البائسة جميعها، والأطفال التعساء، والأكواخ المتداعية، ووجوه ركّاب القطار الواجمة- جميعها دعتني إلى التأمل والتفكير.

وكوني أخذت القطار، توهمت أنني لم أكن بعيداً جداً عن بوسطن- لقد عبرت الحدود الأمريكية قبل أسبوع واحد فقط. بخلاف ما يعتري المرء عقب رحلة بالطائرة من مشاعر التوهان والانقطاع، يبعث فيّ القطار شعوراً بالاستمرارية، التي تجعل غواتيمالا تبدو غريبة ومحيّرة. وفي هذا الخط المتفرع من بوسطن، وجدت الهنود الحفاة، والأطفال الجائعين، والفلاحين المتجهمين كلٌّ مسلح بمديتين واحدة إلى كل ساق من القدم إلى الركبة.

خيّم جو من الكآبة على القطار. كان هذا هو الحد الأدنى من السلم الاجتماعي، ومعظم الأشخاص يريدون الذهاب إلى القرية التالية في رحلة تكلف عشرة سنتات لبيع ما قيمته دولار واحد من الموز. والأطفال يثرثرون وحدهم دون سواهم. علت وجوه الكبار لامبالاة فظّة، ومن رأيتهم يراقبونني بدوا مرتابين وعندما تلتقي أعيننا يشيحون بوجوهم. عفويون في الحوار. لم يطرحوا أية أسئلة على الإطلاق، وإجاباتهم مقتضبة.

قلت لرجل على الرصيف في كوتيبيك: " الطقس بارد هنا. أهو بارد هكذا دائماً؟"

قال:"أحياناً" وسار مبتعدًا.

وفي سانتا لوشيا سالت رجلًا عن مدى بعد المكان الذي جاء منه، فقال:"مازاتنانغو"

"هل تعيش في مازاتنانغو؟"

"لا." ولم يقل شيئًا بعدها.

وعندما تحرك القطار بدّل مقعده.

في لا ديموغراسيا أخبرت أحدهم أنني أقصد زكابا. لم يقل شيئًا. قلت إنني آخذ القطار إلى زكابا ولم يقل شيئاً. تساءلت عما إذا كان أصمًا.

قلت: " هل الوصول إلى زكابا صعباً؟"

قال:" نعم" وعاد إلى صمته من جديد.

كان يدخن لفافة تبع، ومثلها على معظم أفواه من يركبون القطار. بدا كما لو أنّه بلد المدخنين الشرهين. علّق رحالة بريطاني قائلاً: " في غواتيمالا صيحات تحتاج لأكثر من منظمة خيرية عادية لتتحدث عنها باحترام، ومن أهمها يبرز الاستخدام المفرط للتبغ من كلا الجنسين." كان هذا في 1828. واسم الرحالة هنري دان- يقدر مايدخنه الرجال بعشرين سيكاراً في اليوم، والنساء بخمسين لفافة تبغ عادية". لا أحد على متن قطاري يدخن سيكاراً ولكن كما قلت، يمثل الركّاب الطبقات الأفقر في البلاد. ويساعد ركوب القطار إن كان المرء يود أن يعرف. المعرفة كانت مثل الأمان من الاكتئاب، ولكنها كانت أيضاً منهجًا للحقيقة. بالنسبة لمعظم السياح، تعدّ غواتيمالاً عملاً مدته أربعة أيام بين الغرائب والأطلال، صلاة في كنائس العاصمة، ويوم لتنشق الزهور في انتيغوا ، وآخر في السوق الهندي المنّوع في تشيكيكاستنانغو، ونزهة في معابد المايا بتيكال. أعتقد أنني سأجد هذه الخطة أكثر إثارة للاكتئاب، وأقل إرضاء من جولتي المرهقة بين الحدود المكسيكية والمحافظات الساحلية.

كانت عجلات القطار تصرّ وتقعقع، ولكنه رغم ذلك وصل في وقته: الساعة 3:20 كنا في سانتا ماريا، كما جاء في جدول مواعيد كوك العالمي، وبينما كنت أتناول الموزة الخامسة في هذا اليوم، تأملت تقدمنا صعوداً حتى إسكوينتلا، اعلى مرتفعات مدينة غواتيمالا، والآن هناك براكين تحيط بنا من كل اتجاه، أو تلال بركانية تشبه مساند الأقدام التي يدعوها المكسيكيون(أفران صغيرة). كانت أبرد، في حين زادت حمرة الشمس وارتفع حد التلال ليقابلها حيث تطفو لترسم شكل كأس، بالقرب من المحيط الهاديء.

ألقى الظلام المتزايد بصور ظلية عبر التلال. أما الأجزاء البيضاء فكانت قبعات وقمصان قاطعي القصب الذين يسيرون في رحلة الإياب. ولكنه لم يكن غسقاً عادياً في الغاب، بقالب من الظل تحت الأوراق العريضة اللامعة، والأكواخ المتلألئة، وتدافع الخنازير والأغنام. وعلى البعد بدت السماء يغمرها اللهب، وعندما اقتربنا، زاد حجم النيران: نيران حرق نفايات القصب في الحقول المنحدرة، ترسل سحباً بألوان بنفسجية، وبرتقالية وقرمزية تطفو ثم تتلاشى ألوانها لتصبح بيضاء حتى يمتصها الليل. ثم يغلف هذا الدخان القضبان وصرنا كأننا على متن قاطرة بخارية عتيقة في ممر جبلي بآسيا عبر ضباب برائحة السكاكر الفاسدة.

هدرنا مروراً بثلاثة رجال وغادرنا،

ما زالوا جائعين على القضبان، وهم يحدقون في أنوار القطار

الخلفية وهي تتأرجح، تقترب، وتنسرب وامضة قبل أن

تغيب تمامًا عن النظر.

آخر منظر رأيته في ضوء النهار كان صفاً من البراكين تشبه قممًا جبلية رسمها طفل، ذات جوانب صلبة منحدرة، وقمم ضيقة. وعندما اقتربنا من مدينة غواتيمالا لم تكن هناك مناظر يمكن الحديث عنها. كانت هناك نيران قصب، ورأيت أنوار السيارات على الطرقات، ولكن ما عدا ذلك كان سواداً مع بعض المصابيح المبعثرة، والآن برج كنيسة مضاء في قرية جبلية. كان الجو بارداً بينما كنا نمر عبر الأراضي المرتفعة حتى ندخل المدينة المقامة على الهضبة: الأكواخ، المنازل، ومصابيح الشوارع، والمباني. عبرنا جسراً فوق شارع عام، نظر الركاب الذين جاءوا من الساحل لوهج الشمس بالأسفل، والزحام الذي لم يبشر بخير.

\* \* \*

مدينة غواتيمالا مكان أفقي إلى حد كبير، مثل مدينة تستلقي على ظهرها. قبحها، الذي كان يبدو خطيراً (المباني المنخفضة التعسة على واجهات الشارع صدوع من أثر الهزة الأرضية، والمباني تبتسم لك بخوف.، الأكثر قبحًا على هذه الشوارع- حيث مررنا بآخر منزل متهدم-كان مخروطاً بركانيًا أزرق اللون منتفخًا. استطعت رؤية البراكين من نافذة غرفتي بالفندق. كنت في الطابق الثالث، وهو الطابق الأخير أيضاً. كانت براكين طويلة وبدت على وشك الثوران ونفث حممها. جمالها لا يُنكر، ولكنه كان جمال الساحرات. خسفت ثورات نيرانها بهذه المدينة فانهارت. العاصمة الأولى دمرتها سيول المياه. لذلك نُقلت العاصمة مسافة ثلاثة أميال إلى أنتيغوا في منتصف القرن السادس عشر. في عام 1773، سُويت انتيغوا بالأرض بهزة أرضية، وعثر هنا على موقع أكثر استقراراً- كان على الأقل أبعد من منحدرات البراكين الكبيرة، في وادي الارميتاج، الذي كان في السابق قرية هندية. شيدت الكنائس- عشر على طراز اسباني محبب، وأبراج رشيقة ومداخل وقباب بلمسات نهائية رائعة. وزُلزلت الأرض، ليس كثيراً لكن بما يكفي لتصدعها. وتركت آثارها وشقوقها بين النوافذ وفصلت بينها وبين الزجاج الملطخ، وبين الراعي وقطيعه الهزيل، والقديس وعمله، والشهيد وجلاديه، وقد فرّق بين المسحاء وصلبانهم، وانتهكت بنية تماثيل العذراء بالمعبد، إذ تبعثرت وجوه البورسلين الأبيض، والأنامل، و على نحو يبث الرعب في قلوب المصلين المؤمنة أحياناً. أُصلحت النوافذ، والتماثيل، والمباني، وزينت المذابح بوفرة من الأوراق الذهبية. بدا كما لو أنّ الكنائس قد شيدت من جديد كليّاً، ولكن حركة الزلازل لم تتوقف في الحقيقة قط. إذ أنّه لا مناص من مواجهتها في غواتيمالا. وفي عام 1917 لفظت جميع كنائس المدينة وبيوتها ومواخيرها أهليها إلى الشوارع. قضى الآلاف نحبهم، عُدت تلك الهزة الارضية غير المسبوقة عقاباً قدرياً، وهرب الكثيرون إلى الساحل الكاريبي حيث لن يضطروا إلا لمواجهة الهمج.

أما الغواتيماليون الذين كانوا متجهمين في أفضل أحوالهم، أظهروا استسلاماً ملوماً- يقترب في بعض الأحيان من الشعور بالذنب- عندما يثار موضوع الزلازل. وكان تشارلز داروين رائعًا في وصفه حس التوهان والهلع الروحي الذي تبثه الهزّات الأرضية في الناس. وقد عايش بنفسه هزّة أرضية عندما رست سفينة البيغل على ساحل تشيلي. كتب قائلاً: " زلزال مدمر. حطم على الفور واحدة من أقدم روابطنا: الأرض، رمز الصلابة ذاتها، انزاحت من تحت أقدامنا مثل قشرة رقيقة فوق سائل- ثانية واحدة غزت العقل بقلق وخوف لا يتأتى بساعات من التأمل." وعندما يتحدث الغواتيمالي عن الزلازل المتكررة، يبدو أنّه يشير بطريقة غير مباشرة إلى إنّها عقاب مستحق. حكم، متنبأ به في سفر الرؤية ( "ما أوشك أن يقع" ) في الإصحاح السادس، الختم السادس:

"*وإذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسح من شعر والقمر صار كالدم، ونجوم السماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة. والسماء انفلقت كدرج ملتف وتزحزح كل جبل وجزيرة من موضعهما. واختبأ ملوك الأرض والعظماء والأغنياء والأمراء والأقوياء وكل عبد وكل حر في المغارات و خلف صخور الجبال..."[[24]](#footnote-24)*

لم تكن زلازل غواتيمالا بأسوأ من مشهد يوم القيامة. أعيد بناء المدينة. ليس ثمة مكان آخر للتحول إليه. وقد تركت الزلازل المتعاقبة آثارها على مدينة غواتيمالا، ولكن هذه التغضنات- جزء من ملامح غواتيمالا- ليست بسبب التشوه بقدر ما هي نتيجة أنماط البناء التي طغت على المعمار الاسباني.

تتشكل المدينة اليوم من شرفات الأكواخ، والجص المتناثر من المنازل الاستعمارية الزائفة، مجمعات سكنية من طابقين، والآن الفنادق الأكثر ارتفاعاً على الطراز الأمريكي (يتساءل المرء لكم من الزمن ستصمد هذه المسوخ؟)

وقد أعيد بناء بعض الكنائس من جديد، فضاع جمالها بين عمليات الترميم. أثارت فيّ الكنائس شعوراً بالحزن، لكن عقب ذلك بأيام قليلة، صار الذهاب إلى الكنيسة هو وسيلتي الوحيدة للترويح عن النفس.

كتب روبرت دنلوب عام 1847: " يفتقر سكان غواتيمالا على ما يبدو إلى الرغبة في الترفيه العام التي تشيع في معظم المدن،" من الصعب جداً معرفة مجانبة هذه التقييمات القديمة للصواب من عدمه.

" الترفيه الوحيد بالنسبة للمواطنين هو المواكب الدينية، التي تعرض فيها صور القديسين...، وتُقام هذه المواكب بمعدل اثنان أو ثلاثة كل شهر." اخترتكنيسة الرحمة [La Merced] لأسباب تأريخية ودينية وأخرى تتعلق بالزلازل. كان هذا عيد السيدة مريم سيدة الرحمة التي كرّست لها هذه الكنيسة. ظهرت على الكنيسة إمارات التأثر بالزلازل. ولكن ليس بقدر الكاتدرائية التي ينبغي أن تُصنف ضمن المباني غير الآمنة بسبب أقواسها وأعمدتها المتصدعة، والجزء المفقود من سقفها. لا ميرسد هي الأخرى متضررة، إلا أنَّ الفارس آرثر موريليه أوصى بها (وصفه مترجمه بأنّه "سيد فرنسي يحب الترفيه، والاستغراق في الدراسة العلمية)، إذ وصفها في كتابه أسفار في أميركا الوسطى (1871): " كنيسة جميلة في موقع ممتاز. من وجهة نظر فنية، ومع إنّ أبراجها ليست في حلٍ من الانتقاد، إلا إنها تحافظ على جزء كبير من أصالة المبنى."

اجتمع مئات الأشخاص أمام كنيسة الرحمة، بانتظار السماح لهم بالدخول- كان العدد كبيراً حتى أنني اضطررت الدخول من مدخل جانبي. في الداخل، كانت هناك ثلاثة أنشطة قيد التنفيذ. حشد كبير جدًا في الممر الرئيسي يزحف ليقترب من كاهن ذي عباءة يحمل شمعة طويلة في شمعدان فضي- كان الغرض الذي يحمله في حجم مسدس ناري. ومجموعة أخرى انتشر افرادها على مسافات أبعد من بعضهم البعض ، ، عائلات يلتقط لها بعض الرجال صوراً بآلات تصوير ضوئية. أما المجموعة الأخيرة فقد تجمعت حول طاولة معدة بالقرب من مشهد صلب قاسٍ، كانوا يوقعون على دفتر أوراق ويناولون رجلاً عملات نقدية، كان هذا، كما عرفت، اشتراكاً في مسابقة يا نصيب.

كان الناس يصلون في المعابد الصغيرة، والمذابح الأصغر، وهم يشعلون الشموع، ويحملون شموعاً رفيعة، أو يتحدثون في مودة. في كنيسة صغيرة جانبية رسم لعذراء تشكينكويرا، سيدة سوداء بوجه أبنوسي. سجد الغواتيماليون السود أمام السيدة العذراء السوداء "المحملة بالألعاب الفخمة، تستقبل إجلال المؤمنين من العرق الأفريقي حصراً" بحسب تعليق موريليه (هناك الكثير منهم، مستوطنة السود في ليفنغستون على الساحل الكاريبي تتحدث الإنجليزية). أما المسافرون الأقل تعاطفاً من موريليت- يفترض المرء أنهم من الإنجيليين المتزمتين- فكانوا ينظرون للكاثوليكية الغواتيمالية على أنّها بربرية. لذا لم ير دنلوب في أعياد القديسين بغواتيمالا أكثر من كونها مناسبات لإطلاق " كميات كبيرة من الألعاب النارية"، وكان يشمئز من التماثيل. كتب دون قائلاً: " معظم صور القديسين ليست سوى منحوتات عادية جداً، مشوهة بملابس غريبة ومبتذلة."

والدوس هكسلي الذي تكلّف نوعاً من البوذية الساخرة الذاهلة- (شكل تعاليه الخِرف منح روايته السخيفة الجزيرة بعداً خيالياً)-متهكما على الإصلاحيين الغواتيماليين، حتى دعته جولته السياحية الجماعية إلى انتيغوا، حيث استأنف تهكمه.

يتعين على كل من يجد في خدمة الكنيسة في غواتيمالا علمانية مسعورة- ويعتقد بضرورة القضاء عليها- أن يذهب إلى الطرف الشمالي من بوسطن في يوم القديس انطوني ويدرس احتمال الهرب من مشاجرات عشرة آلاف إيطالي يعلّقون أوراق الدولار في لهفة على رداء شفيعهم القديس، الذي يُحمل على هودج مرورًا بصالات البتزا وجلسات المافيا في موكب يرأسه كاهن يبكي، وستة من المساعدين يبتسمون.

مقارنة بذلك، ما كان يحدث في كنيسة الرحمة كان أكثر جدية. ظهر الكاهن ذو الشمعة الفضية وهو يناضل ليشق طريقه عبر زحام السيدات (لم يكن هناك غير النساء في هذا الجزء من الكنيسة). فعليًا كان يحاول السماح للنساء بالوصول إلى الشمعة والإمساك بها. انتظرت امرأة، ثم قفزت فأمسكت بالشمعة بكلتا يديها، وهتفت منتشية، انتزع الكاهن الشمعة من يديها، وجعل امرأة أخرى تغوص في سبيلها.

استأنف الكاهن الحركة الدائرية، وتحول لون رداؤه الأبيض إلى الرمادي بفعل التعرّق. صار حاملو آلات التصوير الضوئية أفضل تنظيماً. كان لديهم مروجون يهرعون إلى المجموعات العائلية، ويلتقطون لهم الصور نظير دولارين. (كان هناك مصوران بالقرب من القديس سباستيان، الذي كانت شهادته ذات قيمة خاصة.) احتدمت المنافسة هناك، وأحصيت أربعة عشر مصوراً، ومثلهم من المروجين. انتشروا في المكان من باب الخزانة، إلى جرن المعمودية، وفي كل جزء من الكنيسة، وبجوار جميع المذابح، قفزت مصابيح الإضاءة، وشهق الهنود السذج وهم يرون وجوهم الذاهلة تتضح في لقطات مربعة حافلة بالألوان.

كانت بطريقة ما المعجزة التي يرجونها، على الرغم من ارتفاع الثمن: دولاران يعادلان أجر أسبوع كامل. كان اليانصيب أقل كلفة. على الطاولة بالقرب من المسيح المصلوب كان الحشد أشد ازدحاماً، حتى إنني اضطررت إلى الوقوف لخمسة عشر دقيقة قبل أن أحظى بلمحة على اللوحة، أو الرسم، الذي يوضّح الجائزة. كان من الجليّ أنَّ الثقافة ليست من سمات هذا البلد. ولم يكن باستطاعة المواطنين- إلا القليل منهم- التوقيع بأسمائهم؛ بينما أخبر البقية سيدة ترتدي وشاحاً أسود باسمائهم. كانت تنسخ الاسم ، وعنوان الشخص ببطء ، يسلمها الشخص عشرة سنتات، ويتلقى قطعة ورق عليها رقم. معظم ظهورهم كانت أشبه بحقائب الظهر المتدلية، أو حوامل الأطفال. انتظرت حتى وقع أحدهم الورقة، ثم تبعته بينما يسير بعيدا وهو ينظر مبتسماً لقسيمته.

قلت: " معذرة، ولكن ما الذي تتمنى الفوز به؟"

" ألم تر التمثال؟"

"لا."

"إنّه على الطاولة. تعال." قادني وراء المتزاحمين، وأشار. وعندما رأت السيدة ذات الوشاح الأسود أنني أجنبي، يتوق لإلقاء نظرة على التمثال، رفعته إلى الأعلى حتى أُعجب به.

" إنّه جميل أليس كذلك؟"

قلت: " جميل جداً"

"أعتقد أنّه غالٍ جداً."

"بالطبع."

سمعت ذلك بعض النسوة من الهنود. فأومأن: وابتسمن- كنَّ بلا اسنان، وقلن إنّه جميل جداً، ومضين في الثرثرة عن اسمائهن، أو الغناء، ودفعن المال. الجائزة في اليانصيب- كانت أكثر من مجرد تمثال- كانت استثنائية. صورة المسيح، ارتفاعها حوالي قدمين، وهو يدير ظهره. كان يرتدي تاجاً من الذهب، ويعتمر قبعة حمراء مشرقة ذات حواف ذهبية، وكان يطرق بيده اليمنى على باب كوخ. يكاد يكون نسخة من أكواخ الريف الإنجليزي: جدار كوخ بلاستيكي من الحجر، وأعمدة بلاستيكية في الأفاريز؛ ونوافذ مائلة بألواح بلاستيكية؛ وباب من خشب البلوط والبلاستيك، محاط بورود صناعية متسلقة بعضها أزرق وبعضها أصفر. وهي ليست من نوع زهرة الصباح- لأنّها ذات أشواك صناعية.

عرفتني التربية الكاثوليكية إلى المسيح على الصليب، وفي القارب، وهو يُجلد، ويعمل في حانوت النجار، ويصلي، ويندد بالصيارفة، ويقف على النهر للمعمودية.

لم أر المسيح يطرق باب كوخ إنجليزي قط، لكنْ في ذاكرتي صورة مشوشة للوحة تصوّر شيئاً مماثلاً (بعد خمسة أشهر، وبينما كنت أسير عبر كاتدرائية سان بول في لندن، رأيت لوحة "نور العالم" لهولمان هانت، وانتبهت لعلاقتها بتلك القطعة من المجموعة الغواتيمالية).

سألت الرجل الغواتيمالي: " ماذا يفعل يسوع؟"

قال: " كما ترى، يطرق على الباب،" الطرق كلمة عنيفة في اللغة الاسبانية- أشبه بالضرب بالمطرقة، أو الخنق. ويسوع لم يكن يفعل ذلك.

" لم يفعل ذلك؟"

ضحك الرجل. "يريد الدخول. أعتقد أنّه يريد الدخول."

وضعت السيدة ذات الوشاح الأسود وشاحها. وقالت: " إنّه ثقيل."

قلت: " هل ذاك المنزل في غواتيمالا؟"

قال الرجل: " نعم،" وقف على أطراف أصابعه ونظر مرة أخرى. " لا أستطيع الجزم بذلك."

" هل يرمز المنزل لأي شيء؟"

" المنزل الصغير؟ إنّه يرمز لبيت."

لم نصل إلى شيء. استأذن الرجل، قائلاً إنّه يريد أن يُقدم لوحته.

كان هناك قس بالجوار.

"لدي سؤال. أيها الأب."

أجاب بترحاب.

" لقد أعجبني تمثال المسيح في اليانصيب."

قال: " تمثال جميل."

"نعم، إلام يرمز؟"

"إنّه يرمز ليسوع الذي يزور منزلاً. المنزل مرسوم. أنت أمريكي أليس كذلك؟ يأتي إلى هنا أميريكيون كثر."

" لم أر شيئاً كهذا من قبل."

" إنّه يانصيب مميز جداً. يوم عيدنا." وانحنى.

أراد أن يهرب مني.

" هل ورد ذلك في الكتاب المقدس؟ يسوع في المنزل الصغير؟"

"أوه، نعم. يذهب يسوع للبيوت الصغيرة. إنّه يزور الناس. يعظ وما إلى ذلك."

بدا كما لو أنّه يختلق هذا الحديث اختلاقاً. فقلت " اين في الإنجيل بالضبط..."

قال:" أتأذن لي؟" ثم ضم رداءه ومضى. " مرحباً في غواتيمالاً."

ربما ظنني أسخر-لم أفعل. كنت فقط أحاول الحصول على معلومة.

إن لم يكن فندقي نُزلاً رديئاً تديره عجوز شمطاء نزقة، لوجدت-ربما- نسخة من إنجيل جدعون على طاولة في غرفتي. ولكن لا طاولة هناك ولا إنجيل.

قالت العجوز:" لدي غرفة بحمام،"

كان الحمام أنبوب مرشة صدئًا متدليًا من السقف على حلقة من السلك.

بعد يومين في هذا الفندق، كنت مستعداً لأخذ أي قطار- حتى وإن كان غواتيمالياً."

وفي وقت لاحق، وجدت النص الإنجيلي الذي استوحيت منه جائزة اليانصيب تلك. كان في سفر الرؤيا، وليس ببعيد عن إشارة الزلازل. في الإصحاح الثالث، يقول المسيح: " إِنِّي كُلُّ مَنْ أُحِبُّهُ أُوَبِّخُهُ وَأُؤَدِّبُهُ. فَكُنْ غَيُورًا وَتُبْ، ها أنَاذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي."

سخّرت وقتي في غواتيمالا للنقاهة من رحلتي الشاقة بالقطار من فيراكروز. احتجت لنزهات أطول سيراً على الأقدام، وليلتين من النوم الهاديء، وأجريت مكالمة هاتفية مع لندن (اشتاقت إلي زوجتي. أخبرتها أني أحبها، وقال أطفالي إنّهم صنعوا امرأة ثلج، كلفتني المكالمة 114 دولاراً)، ثم قمت بجولة في البارات حيث أملت أن أقابل بعض الغواتيماليين من أصحاب القصص الشائقة. أحاطت بي مجموعة من السيّاح المحبطين، سرت من أحد أطراف المدينة إلى الآخر، من منطقة إلى أخرى عبر سوق التحف (الأقمصة المطرّزة، والسلال، والفخار- أعمال خرقاء لهنود بنظرات منكسرة)، وسوق الطعام (رؤوس خنازير مسلوخة، وسجق أسود، ومنظر من العصور الوسطى لأطفال صغار يحزمون باقات الزهور بأصابع مدماة، تحت صياح متعالٍ من رجال عجزة قساة). كانت مدينة كبيرة، ولكنها ليست مضيافة. اشتهرت بالسرقة، لكنها لم تصدمني بعد كمدينة خطرة، بل مكان عادي وصامت. أشرت إلى العجوز الشمطاء في الفندق أنَّ المدينة في رأيي تفتقر إلى أسباب الترفيه.

فقالت: " عليك أن تذهب إلى السوق في تشيشيكاستينانغو"

"هذا ما يفعله الجميع."

وهذا هو السبب في عزوفي عنه، قلت لنفسي، وأجبتها: "أنا أخطط للذهاب إلى زكابا."

ضحكت. لم أرها تضحك من قبل. كانت مفزعة جداً.

"أتيت إلى هنا لتذهب إلى زكابا!"

"هذا صحيح."

"هل تعلم مدى درجة الحرارة في زكابا؟"

"لم أزرها من قبل."

قالت:" اسمع، لا شيء في زكابا. لا شيء، لا شيء."

قلت:" "ثمة قطار يتجه إلى زكابا، وقطار يغادرها، إلى سان سلفادور."

صاحت مرة أخرى:" هل رأيت ذاك القطار؟"

بدأ الأمر يزعجني. أردت أن أخبرها رأيي في فندقها.

قالت: " عندما كنت فتاة صغيرة، امتلك والدي مزرعة في مازاتنانغو. كنت أستقل القطار دائماً. وكانت الرحلة تستغرق يوماً كاملاً! أحببتها، لأني كنت فتاة صغيرة. ولكني الآن لست فتاة صغيرة.- وهو أمر لا جدال فيه- لذا لم أستقل القطار مذاك. عليك أن تسافر بالحافلة. انسَ زكابا. اذهبْ إلى تيكال، وشاهد انتيغوا، اشتر بعض الأغراض من السوق، ولكن لا تذهب إلى زكابا."

قصدت محطة القطار. كانت هناك لافتة فوق نافذتي بيع التذاكر. تقول: السفر بالقطار أقل تكلفة!. خطت على إحدى النافذتين عبارة: إلى الباسفيكي، وعلى الأخرى: إلى الأطلنطي. دفعت دولاراً واشتريت تذكرة إلى زكابا، والتي كانت في منتصف المسافة على الخط الأطلنطي.

لم يكن القطار سيغادر قبل السابعة في الصباح التالي، عليه ذهبت في آخر نزهة لي على الأقدام. أخذتني هذه النزهة إلى المنطقة الرابعة، وكنيسة لم أتوقع في الحقيقة أن أجدها في غواتيمالا، أو في نصف الكرة الأرضية هذا. لا أذيع سراً إن قلت إنّ كنيسة كابيلا دي يوريتا تُعد محاكاة ساخرة للطراز الروسي الأرثوذكسي، مع إنّها ذات قباب بصلية وأيقونات. إنّها قلعة غريبة، وقد طليت جدرانها الخرسانية باللون القرمزي لتحاكي القرميد، وعلى برجها الرئيسي أربعة أكواز مثلجات مخروطية، وتحت البرج أربعة عشر عموداً، تشبه في زينتها لافتات محلات الحلاقة الأسطوانية. بها شرفات، وأروقة، وصفوف من البراعم الأسمنتية على أسقفها المصقولة، وأربع ساعات غير مضبوطة، ومسوخ، وكلب بالحجم ضعف الطبيعي، متشبث بأحد الأكواز الأربعة. على الواجهة تماثيل الإنجيليين الأربعة، ويطلّ الرسل الاثنا عشر من النوافذ، وثلاثة مسحاء، ونسر ذو رأسين. تخذت الكنيسة اللونين الأحمر والأسود، حديد صديء وبلاط. على لوحي الباب الصنوبري نقوش، على الأيسر أطلال غواتيمالية، وعلى الأيمن مقبرة غواتيمالية. وفوق الباب لفيفة باللغة الإسبانية تقول: "معبد سيدتنا سيدة المعاناة" مع إهداء لدون بيدرو دي الفارادو و ميسيا. وعلى درع دون بيدرو، صورة قائد ينسحب بجيشه، وتحته ثلاثة براكين أحدها ثائر.

بالداخل ثلاث سيدات في المنصة الأمامية يؤدين ترنيمة إلى مريم. ماهـ-ريــــــ-اه، غنين بشغف، ولكن بنشاز. ماه-رييياه. وخلف الكنيسة خمسة هنود، وسيدة برفقتها كلب صغير. كان هؤلاء الأتقياء في غمرة من المشاعر، ومن لا يفعل في مثل هذا المكان؟- بجانب شرفة الجوقة البربرية الطراز، والمذبح الإسباني المزخرف، وتمثال المسيح العريض المسجى، مغطىً بستار من الدانتيل، يشرف عليه تمثال العذراء في رداء أسود، وعلى صدرها سبعة خناجر فضية.

كانت جميع التماثيل كاسية، وكثير من الباقات على الآنية الثقيلة المذهّبة حقيقية. الجدران مغطاة بجصّيات بهيجة متسخة، ونقوش حجرية- أشجار، وشموع، وأشعة شمس، وألسنة لهب. بالقرب من المنبر كان ثمة نقش واضح لعظة الجبل. حتى الكلب الصغير كان صامتاً. وإنّه لأمر غريب أن تصمد هذه الكنيسة الفخمة في مواجهة مائة عام من الهزّات الأرضية.

وكذلك مدرسة البوليتيكنيك، لم تمس بأذى هي الأخرى، وكانت على مسافة أبعد قليلاً في شارع ريفورما. بدا أنّ أغرب المباني على الإطلاق هي التي صمدت أمام الزلازل.

كانت مدرسة البوليتيكنيك قلعة في اتساع مدينتين، ذات أبراج مراقبة مزيفة، ومواقع حراسة بدت مثل فتحات لوضع البنادق. كانت مطلية باللون الرمادي، وعلى البرج المركزي نقش لشعار: الفضيلة- العلم-القوة. كان الشارع الواسع الظليل الذي تقف عليه مدرسة البوليتكنيك، به خط من التماثيل: عجل برونزي عظيم(دهن قضيبه بطلاء أحمر)، وفهد، وأيل، وثور آخر(هو الهائج)، وأسد يقتل تمساحاً، وخنزيران بريان يصطرعان(يعض أحدهما بطن الآخر). وفي ملتقى هذا الطريق بالشارع العام تمثال- أسود، أكاليل، عذارى، ومصفوفة من القواعد يعلوها فدائي. في الجوار ثمة فتحة مصرف مكشوفة، عميقة مثل بئر، وأعرض منها مرتين.

كان الشارع خالياً، لا مارة غيري. سرت وبدا لي أنّ الطريقة التي اجتازت بها الكنيسة المضحكة، والقصر المزيف والتماثيل المتوحشة أسوأ الهزات الأرضية في العالم، لم تخل من حكمة، لقد نجت كما يسلم الأغبياء من الأذى. واصلت المسير، وبعد هبوط الليل مباشرة، وجدت مطعماً نباتياً في ضاحية مظلمة. كان في قاعة الطعام ثلاثة أشخاص غيري، أحدهم- يرتدي عمامة، وله لحية طويلة، وسوار يرتديه أتباع الديانة السيخية- كان شاباً من كاليفورنيا. أخبرني إنّه وصل حد رفض السيخية، ولكن لم يقرر الحلاقة، وكانت العمامة تمنحه ثقة بالنفس. كان الطاعمون جميعهم من المهندسين المعماريين، يصممون المنازل لمن شردتهم هزة عام 1976، قبل عامين.

سألتهم: " هل تصممون المنازل فقط، أم تقومون ببنائها أيضاً؟"

قال الرجل ذو العمامة: " نصمم، ونصنع الطوب الخرساني، ونخطط القرى، ونشيد المنازل- كل شيء."

أفهمته أنّ مثل هذه المثالية الزائدة عن الحد قد تنقلب إلى الضد.

دون شك مهمة الحكومة هي إسكان الناس؟ فإن احتاجوا المال، بمقدورهم بيع بعض هذه التماثيل كمخلفات معدنية.

قال أحد الآخرين: " نحن نعمل تحت إشراف الحكومة."

قلت ألن يكون من الأفضل تعليم هؤلاء الناس كيف يشيدون المنازل، وتركهم يقومون بهذه الوظيفة؟"

قال الرجل ذو العمامة: ما نفعله، هو وضع ثلاثة جدران. فإن أراد أحدهم منزلاً عليه إكماله- ووضع الجدار الرابع والسقف."

قدرت هذا العمل. بدا لي أنّه يحقق توازناً سليماً، الثقة في المثالية مخففة بتدابير احتياطية. قلت إنني وجدت الغواتيماليين-حتى الآن- في غاية الكآبة. كيف وجدتموهم؟"

قال أحدهم للرجل ذي العمامة: " اجبْ أنت، فقد مكثت هنا عاماً."

قال الرجل ذو العمامة وهو يربت على لحيته في حكمة: " إنهم مثقلون، ولديهم ما يكفي من الأسباب لذلك."

**-7-**

**قطار الساعة السابعة**

**إلى مدينة زكابا**

**---**

كانت مدينة قاسية، ولكنها اكتست في الساعة السادسة صباحًا بمسحة من الغموض بفضل الضباب الخفيف الذي أضفى عليها أيضاً بساطة كالتي تكلل قمم الجبال. موّهت الشبّورة- قبل أن تبددها أشعة الشمس المشرقة- خطوط شوارعها الرتيبة المستقيمة، وبيضَت منازلها المنخفضة، وجعلت أهلها الحزانى يبدون كالأشباح وهم يظهرون للحظات قبل أن يبتعدوا، كأرواح منتقمة ترسل نظرات خاطفة في أنحاء المكان الذي تسكنه. ثم أصبحت مدينة غواتيمالا كئيبة هكذاً، أثرًا بعد عينٍ، ورسما بلا جسد، وبدا الهنود والفلاحون الفقراء، من لا سلطة لهم، زرق السحنات، على مافيهم من جرأة ويقظة، و كأنّهم تلبسوا المدينة في هذه الساعة كما تتلبس الأرواح الممسوسين. لا رياح هنا، وقد تعلّق الضباب في الغيوم الرمادية الناعمة، على بعد قدم من الأرض. حتى محطة السكة الحديد، التي لا يبدو منها سوى سقف من القرميد، تقمصت شخصية المحطة الكبرى: لا سبيل إلى التحقق من عدم وجود خمسة طوابق تمتد فوقها تنتهي ببرج ساعة تتوّجه الحمائم والزخارف الحديدية، وقد توارى سقفها الصغير المصنوع من الصفيح خلف الضباب الذي حاصرته البراكين. كان ثمة عشرون شخصاً يقفون بالقرب من نافذة بيع بطاقات السفر بالمحطة- بملابس مهلهلة، لكنها بدت كخدعة بصرية أخرى من سحر الضباب.

كانوا يحملون السلال، وصناديق الورق المقوى، والمناجل. كانوا هنوداً، ومزارعين تضرروا من قسوة الطقس يقفون صامتين في نداوة ذاك الصباح. بينهم رجل مظهره مميز، يعتمر قبعة خالية من البقع، وله شارب أبيض، ويرتدي معطفاً مشقوق الذيل طفق يدخن لفافة شيروت. النصف الأعلى من جسمه يوحي بأنّه عمدة، أما بنطاله فكان رثاً، وقدماه حافيتان. سرعان ما لاحظ ملمعو الأحذية الصغار المقيمون بالجوار أمره. كانوا بدورهم حفاة الأقدام. قُرع جرس التنبيه. فُتحت البوابة، واجتزناها إلى الرصيف. كانت العربات أسوأ من تلك التي أتت بي من تيكون أومان- زادت من سوئها الرطوبةُ التي خلفها الضباب. تمزقت المقاعد المبطنة وبرزت منها الحشيات واليايات؛ أما المقاعد الخشبية فمخلخلة، وكانت الرطوبة هي القاسم المشترك بين الأولى والثانية . كانت العربة ذاتها تحفة أثرية منذ العشرينات، لم تكن جميلة ولا مريحة، لكنها بالكاد صندوق صغير مهمل، أنتنته الأوساخ، وتدلت من سقفه أسلاك عارية. كانت عربة خشبية تشبه عربات الترولي كسائر قطارات أمريكا الوسطى، ذات سقف مقوّس وشرفة في كل من طرفيها.

لم تكن زكابا على طريق السياحة، وإن كانت كذلك لخصصت لها حافلة مريحة، مزودة بيايات تخفف من أثر الصدمة. راعى مجلس غواتيمالا للسياحة احتياجات الزوار. أما زكابا فلم يسكنها سوى المزارعين الحفاة وقطارهم الذي يضاهي منظره وجوههم كآبة واكفهراراً.

جلسنا في العربة المبللة، نستمع إلى ثرثرة راديو الفتاة الأخضر. أمسكته الفتاة في ثنية ذراعها، وبالأخرى حملت طفلاً. رجل يحمل مفتاح ربط يسير عبر العربة.

قال الرجل الجالس إلى جانبي: " هذه العربة معطلة."

قلت: "صدقت."

علت صيحة، تبعها تدافع عام، بينما كان ركّاب هذه العربة يهرولون في طريقهم إلى العربة التالية.

راقبت الهنود وهم يسحبون السلال، والنساء يدفعن الأطفال، والرجال يحملون المناجل. أحنى معظم الناس رؤوسهم وساروا في طريقهم إلى العربة التالية لا يلوون على شيء. بقيت وحدي في العربة لبضع دقائق بعد.

قال الرجل الذي يحمل مفتاح الربط: "اخرج"، ولهذا تبعت الآخرين- ازدحم ركاب عربتين في واحدة- واعتبرت نفسي محظوظاً إذ وجدت مقعداً.

قلت للهنود محاولاً الاندماج مع الأشخاص الذين يشاركونني هذه الرحلة التي تستغرق اليوم بطوله نحو المحافظة الشرقية: "صباح الخير، كيف الحال؟" قال رجل يضحك على يساري وهو يلاعب صبياً نحيلاً على ساقه: " لا يتحدث هؤلاء اللغة الإسبانية. هم يعرفون منها كلمات قليلة فقط- هذا هو كل مافي الأمر."

قلت: " هذا كل ما أعرفه."

"لا، أنت تبلي بلاء حسنًا."

" من جانب آخر، إنجليزيتي أفضل قليلاً."

ضحك الرجل- بصوت أعلى. أدركت أنّه ثمل. لكن كيف استطاع أن يشرب في هذا الوقت الباكر جداً من الصباح،هذا ما لم أستطع الجزم به. تأرجح القطار إلى الخلف وإلى الأمام، والعربة المعطلة لم تكن بأسوأ من العربة التي تقلّنا الآن، فتوقعت التأخير.

معي صحيفة الصباح، ورواية لأقرأها، لكن في الساعة السابعة تماماً انطلق بوق القطار الحاد، ومعه انبرى القطار يسابق الريح وسط الضباب، على حافة طريق موحل. عند أول تقاطع سمعنا ضجة بالخارج، ووقفت امرأة بالداخل ثم شرعت في الضحك والحديث بصوت عالٍ. أبطأ القطار عند التقاطع فرأيت صبيًا يجري على جانب الطريق وهو يحمل حزمة. صاحت المرأة تحث الصبي على الإسراع، لكن في تلك اللحظة وضع جندي بقرب الباب (ثمة جنديان في كل من عربات القطار الثلاث) بندقيته الآلية، وانحنى للخارج والتقط الحزمة وناولها للمرأة.

قالت المرأة: " إنّه طعامي."

لم يبعد الركاب نظراتهم عنها.

قالت: " لقد نسيتها هذا الصباح، وذاك كان ابني."

قال لي الرجل المخمور في المقعد المجاور: " إنّه عداء سريع! وذاك الجندي سريع جداً أيضاً هه!" وضع الجندي بندقيته تحت ذراعه، واتخذ مكانه بجانب الباب، وحملق في الرجل مشدوهاً. لابد أنك ظننت من طريقة مسح الجنود للأكواخ على طول خط القطار، وبنادقهم في وضع الاستعداد، أنّهم يتوقعون التعرّض لإطلاق نار كثيف. ولكن لم يهدد سلامة القطار ماهو أخطر من قشرة موزة.

كانت هذه الأكواخ، وبعضها في حي عشوائي بالقرب من سان سالفادور، أسوأ ما رأيت في أمريكا الوسطى. فقر الريف سيء، ولكن ثمة أمل في حقل يقطين، أو منظر دجاج، أو حقل ماشية، حتى إن لم تكن ملكًا لساكني الأكواخ، فهي تمثل فرصاً سانحة لسارقي الماشية الجياع.

إلا أنّ هذا الحي الفقير في ضواحي مدينة غواتيمالا، ليس سوى مجموعة مبعثرة من الأكواخ الهزيلة المصنوعة من الورق والصفيح. إنّها أتعس ما رأيت في حياتي. واكتشفت أنّ قاطنيها ممن شردهم الزلزال الأخير- لاذوا بهذا المكان قبل عامين وربما بقوا هنا حتى الممات، أو حتى تجليهم الحكومة عنه، وتشعل النار في الأكشاك حتى لا ينزعج السيّاح من هذا المنظر البائس. صُنعت الأكواخ من بقايا الأخشاب، وأغصان الشجر، والورق المقوى وقطع البلاستيك، والأسمال، وأبواب السيارات، وسعف النخيل، واللافتات المعدنية المنزوعة عن قوائمها، والعشب المجدول لتسييج حظائر الدجاج. وانبعث الدخان من العشش التي حضرت في المشهد لعشرين دقيقة- على مسافة أميال، أمام كل منزل أوقدت نار الطبخ، عليها علبة صفيح مسوّدة تغلي.

ينهض الأطفال باكراً في المناطق الاستوائية، بدا هذا الحي كما لو لم يسكنه غير الأطفال، المتسخين جداً، وأنوفهم تسيل، يلوحون للقطار من وراء حجب الضباب الصفراء. أظهر ركاب القطار المتجهون إلى زكابا عدم اكتراثهم لرؤية هذا الحي الفقير، ولكن ليس عليهم تثريب. فليس ثمة فرق يذكر بينهم وبين ساكني تلك الأكواخ. والآن اختفى كل شيء، خلا المشهد من الأكشاك، والأشجار، والناس، والدخان، والكلاب ونباحها.أفسحت الأرض المجال للخواء، وغابت أصوات الطيور والحشرات، وفي ذاك الصمت رجع الصدى بوهن صوت غربان من بعيد. كانت تجربة مثيرة للشعور بالرحابة. كنا على جسر، نعبر مضيقاً عميقاً. نظرت من النافذة؛ خطف المنظر أنفاسي- تخدرت ساقاي، وبدأ الطنين يعلو في أذني. على عمق مئات الأمتار، عبر دعامات جسر صدئة، رأيت أخدوداً صخرياً تحتنا. كنا نغادر هضبة مدينة غواتيمالا، ونشق طريقنا عبر هذا الجسر الوعر (كان طويلاً جداً، لم أتمكن من رؤية نهايته) إلى الجبال في الشمال الشرقي للمدينة. وبدا لي من الخطير جداً اجتيازه بالنسبة لهذا القطار تحديداً، ليس بسبب قدمه أو عدم ثباته في الحركة على الجسر، بل لأنَّ جميع نوافذه كانت مفتوحة. فانحنيت إلى الخارج وأنا أستجمع شجاعتي من هول الصدمة، وأخذت لمحة أخرى على المضيق. كان جافاً لا ماء فيه. وكانت هناك نتوءات صخرية تشق ما تبقى من قطع الضباب، بينما يتراجع الريف- في سرعة خاطفة- وتعدو إلى الوراء الشجيرات الشوكية التي علقت عليها نتف من الفرو. رفرف في خضم هذا البياض السادر غرابان، ثم استقرّا. نظرت للأسفل تجاه ظهري الغرابين، كان هذا المنظر، وخلفيته البيضاء، مثل لمحة على السماء- أشكال الطيور في الغيوم- كما لو أنّ القطار انقلب رأساً على عقب. ليس سوى الضباب فوق القطار، ولكن تحته كانت قطع السحاب، والطيور وأشعة الشمس. حار عقلي في هذا المشهد المعكوس. أغلقت النافذة.

ضربني صبي في الثامنة أو التاسعة من عمره على ركبتي:" افتح النافذة!".

قلت:" لا."

"أريد أن أنظر إلى الخارج!"

قلت: "إنّه خطر."

فصاح وهو يحاول أن يجتازني: " أريد أن أرى!"

قلت:" اجلس. إنّه خطر جداً."

اتجهت أنظار الناس نحوي.

وجّه الصبي الحديث إلى والده- الرجل المخمور. " أريد النظر من النافذة. إنّه يمنعني!"

ابتسمت للرجل المسنّ:" سيسقط في الوادي."

قال الرجل المسنّ للطفل وهو يدفعه جانباً: أنت، ستسقط في الوادي!"

وجم الصبي. وقالي لي الرجل المسنّ: " إنه مزعج كالعادة. سيقع في مصيبة يوماً ما.". ادركت أنَّ الرجل المخمور كان غاضباً. فقلت وأنا أحاول تهدئته: "ابنك ولد طيب، لكن هذا القطار خطر جداً، لذا..."

قال الرجل المسنّ: " هذا القطار ليس خطراً، إنّه قطار قديم عادم الفائدة. لا يسوى شيئاً."

قلت: " صحيح." وأومأ الهنود أن نعم. أسعدني معرفة أنّ هؤلاء الناس على وعي بأن هذا القطار قطعة من الخردة. ظننت، لما رأيت من صمتهم، أنّهم لم يلاحظوا ذلك.

كان بانتظارنا عدد أكبر من الجسور، والمضائق الزاخرة بالصخور والغيوم، ولكن ليس من بينها ماهو أكثر رعباً من الأول ذاك. لكنْ هذا الجزء من الرحلة ذكّرني بالرحلة عبر مضيق خيبر، على متن القطار المحطم إلى بيشاور. الأمر تعدى منظر الجبال الوعرة من داخل عربة محطمة، بل كان مشهداً لعشرات الأجزاء من القضبان- أمامنا عبر الوادي، وواحد تحت ذاك، وآخر فوق هناك، وآخر بمحازاته، والمزيد من فوق ومن تحت على طول الطريق حتى قاع الوادي. ليست عشرات من خطوط القطارات، بل قطع من الخط الذي كنا نسير عليه، أقسام ستقود هذا المحرك المنقطع الأنفاس حول أربعة جبال، إلى جسر آخر هابط، وصعود آخر إلى الأقسام العاصفة التي تحيط بهذه الجروف القصيّة.

سرنا في دوائر، يصمت فيها المحرك أحياناً بسبب بعده عنا على الطرف الأبعد من جرف ما، بينما في أوقات أخرى تضيق المنعطفات لدرجة مرور جزء منه بنا بقوة في أحد المنعطفات الحادة كأنه قطار آخر تماماً يسير في الاتجاه المعاكس.

كان قاع الوادي صخرياً، وقد ارتفع الضباب هنا. كشفت الشمس عن منظر بنيّ مقفر، وتبين أنّ النباتات التي بدت من الأعلى كغابات خضراء باهتة اللون ليست إلا شجيرات شوكية وتجمعات من الصبّار لا ظل لها من رقتها. خِلت غواتيمالا خضراء- كلها مثل الأدغال التي أحاطت بتيكون أومان- ولكن بالمرور من الغرب إلى الشرق ثم الانعطاف باتجاه الشمال الشرقي إلى زكابا، صار البلد أشد جدبًا وأفقر حالاً، وأوعر مجالاً.

والآن، في وادي موتاغوا- رُسم في الخارطة مرتفعٌ يجري خلاله نهراً- وكنا في صحراء ظامئة: لا أثر لنهر على هذه الأرض القفر العطشى. كانت الجبال حجراً، ومجاري الأنهار صخوراً، ولا أثر لبشر. بل كانت أسوأ في الأجزاء العليا حيث امتدت الأرض الخاوية غبراء اللون على مد النظر حتى قرص الشمس. وكان القطار يتوقف كل عشر أو خمس عشرة دقيقة. يقفز عندها الجنود خارجاً ويتخذون وضعية منحنية على الأرض، وضعية إطلاق النار. ثم قد يثب بعض قلة من الركّاب إلى الأرض، وبدون النظر إلى القطار خلفهم، يشرعون في السير في الصحراء- متوارين وراء الصخور- قبل أن يبدأ القطار في التحرك مرة أخرى. أغلب هذه المحطات غير مدرجة على بطاقات السفر، مجرد لافتات، و مجموعة من نباتات الصبّار، ولا شيء زيادة على ذلك. كانت أغواس كالينتس واحدة منها: لافتة، بعض الصبّار، وكومة من الصخور في سفح جبل جاف. تحركنا، ورأيت مجرى نهرٍ بلا ماء يحاكي في هيئته طريقاً ما، ولكن بالقرب منه رأيت منظراً غريباً- دفقات هائلة من بخار أبيض تنبعث من ينابيع حارة استمد منها هذا المكان اسمه، تفور من تحت ذاك الجبل الذي لم يكن سوى بركان. ثمة برك ساخنة حول البخار المتصاعد، وكانت النساء يغسلن الملابس في مياهها. حتى الصبّار لم يستطع العيش بين هذه النوافير. تزبد المياه المغلية في الصخور العارية، وتنسرب خلال الشقوق، والكائنات الوحيدة التي يمكن رؤيتها في هذا الركن الميّت من الصحراء هنّ النساء الجاثمات يعملن أياديهن على الغسيل دعكاً.

لم تكن أول محطة كبرى مثل غيرها من المحطات، بل كانت صفاً من المتاجر، ومدرسة، وبعض الأشجار الطويلة الجافة. كان الناس يتفرجون من وراء أبواب الحوانيت، ويركض الأطفال في فناء المدرسة لينظروا إلى القطار(يمر قطاران فقط كل أسبوع).

نزل هنا عدد من الناس، ولكن لم ينضم أحد. ولأنّ القطار لم يأت بانتظام، ولا يعوّل عليه، فلم يتكبد حتى بائعي الطعام مشقة الحضور إلى هذه المحطة. وصاح صبي يحمل علبة شراب يسأل ما إذا كان ثمة من يرغب في كأس- ولا شيء آخر. لكن نزل هندي يجلس على المقعد المقابل لمقعدي، فسنحت لي الفرصة لأمد ساقيّ. معظم الركاب ناموا تحت تأثير حرارة الطقس. وساعدتهم أجسامهم الهزيلة على الجلوس بارتياح بل والاتكاء على هذه المقاعد. ملت إلى الأمام وأجبرت نفسي على كتابة ملاحظات في الصفحات الخالية من الكتاب الذي منعني التعب من قراءته. كتاب بو :حكاية آرثر غوردون بيم[[25]](#footnote-25). ومن وقت لآخر كنت أدخن غليوني. لم أتحدث إلى أحد ولم يحادثني أحد. ليس ثمة حوار واحد يدور على هذا القطار. ما أدهشني منذ أن غادرت فيراكروز أنَّ القطارات التي سافرت على متنها لم تبد مشجعة. أُذكر باستمرار بأنني كنت أسافر وحدي. لم أتوقع أن يكون الناس على هذه الدرجة من العناد، ولا القطارات في هذا المستوى من البلى. افترضت أنّي سأجد الجميع كالمعتاد: الفلاحون، وعمال الزراعة، والهنود، والهيبيز، والعمال، وسود السواحل، والأمريكيين بحقائب الظهر، وخرائط الطرق، وبعض السياح. ولكن القطار لم يحمل سوى الفقراء جداً- واختار البقية الحافلة. ولم يكن هؤلاء فقراء فقط، بل أشخاصًا مهزومين، يعتمرون القبعات، ويسيرون حفاة، ولم تتجه نظراتهم المرتابة إلى الغرباء فقط، بل إلى بعضهم البعض أيضًا. كانوا بالكاد رفقاء مصلحة، ومع إنني أحببت صليل عجلات القطار، واغتبطت على هذا المسار المجهول عبر أمريكا الوسطى، إلا أنَّ هذا زاد من شعور الوحدة في سفري، هي ضريبة حس الاكتشاف هذا- من كان يظن أن تكون غواتيمالا صحراء كهذه؟- ما فاق تجربة مروري عبر عجائب منظر برز فجأة، هو أنني كنت غريباً يسافر مع غرباء.

لقد كانوا إما غافلين عن وجودي أو مستغربين. كانوا يختلسون النظرات إلى غليوني، ولكن عندما خاطبتهم بلغتهم، أبدوا ممانعة واضحة تجاه الحوار (من خلال هزات الأكتاف، أوالغمغمات). وعلى الجهة الأخرى من الممر، امرأة تبيع وتبصق. كانت تتنحنح ثم تبصق- تف!- على الأرض عند قدميها. أزعجني هذا الأمر(وأصابني الركّاب السائرون في هذه الفوضى بالغثيان)، لكن ما أتى بعد ذلك كان أسوأ وأنكأ. في إحدى المحطات الصغيرة، دخلت القطار امرأة تبيع القهوة التي تحملها في جرة فخار. لم أكن قد تناولت إفطاري، وفوق ذلك، خلت تلك القهوة ساخنة، وأنّها قد تكون الشيء الوحيد الذي سيجعلني أعرق فيبرد جلدي.

(في أشد مناطق بورما حراً، يشرب البورميون الحكماء أكواب الشاي الساخن، ويحافظون بتلك الطريقة على اعتدال حرارتهم.)

كانت بائعة القهوة تغمس كوباً من الصفيح في جرّتها، ثم تصب مافيه في كوب سحبته من جيبها، وناولته لمشتر. وعندما أنهى الشخص قهوته، استعادت المرأة الكوب، وكررت العملية. وهكذا كان الجميع يستخدم الكوب ذاته. حتى إن لم أدر، أو إن استطعت إقناع نفسي بألا خوف علي من الشرب، لكنت اشتريت القهوة. ولكن قبل أن يأتي دوري، دعت المرأة الباصقة بائعة القهوة.

وسألتها: " بكم؟"

أخبرتها بائعة القهوة بالسعر: سنتان.

بصقت المرأة، شربت، ومسحت فمها وأعادت الكوب.

وجاء دوري.

قلت: " ألديك كوب آخر؟"

قالت: "متأسفة" وسارت مبتعدة.

بعدها، صعدت فتاة صغيرة، وهي تحمل بعض البطيخ. كان معظمه مقطعاً إلى شرائح. قلت لها: " هذه الشرائح كبيرة جدا بالنسبة لي" وتناولت مديتي المطوية. كان تقطيع شريحتي بنفسي اتقاء الإصابة بالكوليرا(" هذه مناسبة في الحجم تقريباً، أها؟": لاحظت أنَّ ما ظننته بذوراً سوداء على الشرائح المقطعة كان ذباباً أسودَ لامعاً. تقهقرت الجبال وتباعدت. ودرنا حول المنحدرات وهبطنا إلى المنطقة المقفرة، استقام خط القطار.

كنت أبحث عن نهر موتاغوا طيلة الساعات القليلة التالية، ولكنه لم يكن في المشهد. كان هذا وادي الموت. الأرض هنا أشد نعومة وقتامة من الرمل، كانت مسحوقة، بنية فاتحة، ثارت لحركة القطار الصغير. فانتشر غبارها على جميع شجيرات الصبّار، التي تحولت إلى أشباه الطبول. لا شيء أشد تعاسة من صبّار ميت، فهو لا ينهار، ولكنه يتحول إلى اللون الرمادي، ويتصلب، ويبدو كالحجر. أما الباقي فانقسم ما بين شجيرة قصيرة، وحجر منفرد، ومرة غير بعيد من سكة القطار، رأيت ضلوع وجمجمة بقرة، أكثر بياضاً من التي رأيتها في تكساس. الرائحة الوحيدة التي وجدتها هنا هي غبار هذا السهل المسحوق. السمة الرئيسية للصحراء، بجانب غياب الماء، هي أنّها بلا رائحة. جعلت أفكر فيما قالته لي السيدة في الفندق: ***لا تذهب إلى زكابا***!.

ولكن إن لم آت إلى هنا، لما عرفت مدى هذا البؤس. كانت الحرارة شديدة، ولكنها قابلة للاحتمال، أولم أشتك من البرد قبل فترة قصيرة في شيكاغو؟ هذا ما سعيت له. وهذا هو هو الدرب الذي سلكه البغّالون إلى السلفادور، وكان أيضاً- رغم ندرة استخدامه هذه الأيام- الطريق الرئيسي للسفر إلى بورتو باريوس، وما يعرف بالساحل الأطلسي. كان سيئاً، إلا إنّه سيكون محتملاً إن لم يزدد سوءًا عن هذا الحد- كان من الصعب تخيل ماهو أسوأ.

كنت أخشى شيئاً واحداً: أن يتوقف القطار، مثل ذاك، بدون إنذار ولا في محطة، سيتوقف هذا المحرك في الحر، وسنعلق هنا. لقد حدث هذا على واحدة من الخطوط الحديدية المحترمة على بعد مئة ميل من فيراكروز، ولم يستطع المكسيكيون تفسير ذلك. من الواضح أنّ هذه الخطوط أقدم، والمحرك أضعف. لنفترض أنّه توقف. فكرت. *نفترض أنّه توقف هنا، ولم يدر مرة أخرى*؟ كانت الساعة العاشرة صباحاً، واكتظت العربات المفتوحة بالناس، لا يوجد ماء في القطار، وليس ثمة طريق لأميال، ولا مظلة حتى. كم سيستغرق الأمر حتى الموت؟ أعتقد إنّه لا يستغرق وقتاً طويلاً في هذه الصحراء المترامية. ليس ثمة ما يطمئن، وبعد نصف ساعة، وصلنا إلى بلدة بروغريسو. سلك ألدوس هكسلي هذا الطريق في 1933: " بينما كنا نخرج من المحطة، لاحظت أنّ المكان يسمى بروغريسو. أزعجتني الحقيقة، بوسعي أن أكتشف التورية دون عناء." كانت بروغريسو مجموعة من الأكواخ المشيدة من الطين اللبن، ومسقوفة بسعف النخيل. (غريب: ليس ثمة نخيل في الجوار، ولا أشجار من أي نوع). ورانشو، بعد بضعة أميال من هنا، ليست بأفضل، ولا أكثر تقدماً من بروغريسو، وليس ثمة مزارع في رانشو [Rancho:تعني مزرعة بالإسبانية]. كانت هذه أشد الأماكن التي رأيتها بعد محافظات أوغندا الشمالية حرارة، وغباراً، وبؤساً. الفرق الوحيد الواضح هو

شعرت بالعطش الشديد في هذه الحرارة القائظة. كان فمي جافاً وشعرت كما لو أنني أكلت حفنة من فراش العث. بعد ساعة اشتريت قارورة مياه غازية، وشربتها دافئة، لكن الحرارة لم تنخفض. ولم يتغير المنظر بالخارج. من وقفة إلى أخرى، الصبّار، والتراب الناعم هو كل ما قد تقع عليه العين. يصعد أناس إلى القطار، وينزل آخرون، وينام أناس، وتبصق المرأة العجوز. وأفكر مرة بعد الأخرى: ماذا لو تعطل المحرك بنا؟ ماذا سيحدث؟ ورأيت رجلاً نحيلاً، مثل ملاك الموت، يراقبنا من تحت ظل شجرة صبّار.

عندما تجاوزت مرحلة توقّع رؤية شيء مختلف، ظهر حوض ماء أسود طويل أمام القطار- بركة ري. أصبحت قناة ضيقة، تصب من العيون في الحقول- ذرة صفراء في مالينا، وتبغ في هيكارو. كانت الخضرة مذهلة، وكنت قد اعتدت على درجات الصحراء لحد أنّ هذا اللون بدا كالمعجزة في عيني. ولكنه كان فوق كل شيء لم يكن أكبر من رقعة صغيرة في صحراء هائلة. ظهرت هيكارو في بلد الهزات الأرضية. المنازل قليلة، ولكني رأيت أنَّ في كل منها شقاً أو سقفاً منهاراً، أو حائطاً متصدعاً. ولكنهم مع ذلك ما زالوا يعيشون فيها، تأقلم الناس على الحياة في وجود فجوة في المنزل، أو في غياب جدار عنه. وكانت هناك منازل تُبنى هنا أيضاً: بلا شك هي منازل خططها أولئك المعماريون الأمريكيون الذين قابلتهم في مدينة غواتيمالا. ولكني لا أستطيع أنْ أجزم بنجاح المشروعات التي تدعمها الحكومة. كانت هناك الكثير من المنازل بثلاثة جدران فقط، وبلا أسقف، بينت عدم نية أي شخص في إنهائها واتخاذها مسكناً. كانت بلدة هيكارو محطمة: وكشفت الكارثة عن أنَّ ما أعيد بناؤه منها جزء صغير جداً. وصلنا كبناس. حيث أشجار جوز الهند. وقد قطعت امرأة كومة من جوز الهند بمنجل، ومررتها إلى داخل القطار- خمسة سنتات. شرب الركّاب ماء جوز الهند، وتخلصوا من الباقي. حاولت الخنازير إلصاق أنوفها بجوز الهند، وأكل لبّها. ولكن تسللت المرأة ببراعة إلى الثمار- ثلاث قطعات من منجلها وصارت وعاء للشرب: لم تستطع الخنازير إدخال أنوفها فيها. فأنّت، وطفقت تقضم القشور بصوت عالٍ.

وقفنا لفترة طويلة في كبناس. كانت محطة خشبية، وافترضت أنَّ القرية كانت في بقعة ما على الجانب الآخر من التل الرملي. يبدو أنّ محطات القطارات في أمريكا الوسطى تقع دائماً في طرف البلدة، وليس في وسطها. الحرارة ارتفعت في القطار، وصار الآن مثل الفرن. جذبت كومة بقايا جوز الهند الذباب، وغمغم الناس. رأيت بعض العمال يحدثون جلبة بجانب المحرك، وحاولت الخروج.

"هل هذه محطتك؟" كان جندياً، أحد حراسنا المسلحين.

قلت: "لا"

قال دافعاً بندقيته تجاهي:" عد إذن!"

قلت لنفسي: ربما هنا. ربما هذه هي نهاية الخط.

بدأ أحد الرجال المسنين يتحدث بصوت مرتفع. كان يسخر من المكان. ظننت أنّ الحر قد نال منه.

"كبناس! إنّها مضحكة! أتعلم ماهي الكبنات؟ إنّها الأكواخ الصغيرة- تجدها بالقرب من الفنادق، وأكشاك المرطبات. وفي أحيان أخرى بالقرب من الشاطيء."

صمت الركّاب. ولكن لم يحتج الرجل إلى من يشجعه. " كبناس جميلة جداً وحسنة المناظر. تجلس هناك وتشرب ما طاب من الشراب البارد. هذا هو السبب في إطلاق اسم كبناس عليها. *وهم يطلقون على هذا المكان القذر اسم ابناس* ؟" ولدى سماع هذا الصراخ، فتحت امرأة هندية تجلس على المقعد المجاور إحدى عينيها، ولكن لم تر سوى رجل أحمر الوجه يجفف قبعته من العرق بمنديل. فأغمضت عينها.

" هذه ليست كبناس- لابد أنّ لها اسمًا آخر. "

قُرع جرس الإنذار. كان يتنفس بصعوبة. " لقد رأيت كبناس الحقيقية. إنّها لا تشبه هذه على الإطلاق."

لم يهتم أحد. ولكني سررت إذ رأيت هؤلاء المزارعين الدُرد والهنود الناعسين يضحكون على هذا المكان. كان البؤس واضحاً أمام أعينهم، ويعلمون أنّ القطار كان خردة. وبعد كل هذا، لم أنغمس في أية رقابة ذاتية طوعية على أفكاري.

شيء آخر، أكثر غرابة، حقيقة أنَّ هؤلاء الناس الذين لم يرغبوا في الحديث، لم يمانعوا في الوقوف وإلقاء خطبة غاضبة هادرة. عاد الرجل إلى هدوئه عندما استأنف القطار الحركة. كانت قرية أنطون برام صغيرة جداً لذلك لم يُذكر اسمها على التذكرة.

"أنطون برام!" صاح الرجل من خلفي.

" يا له من اسم سخيف!" قالت زوجته.

ابتسم الركّاب. ولكنْ لِمَ لَمْ يضحكوا على بروغريسو؟

دخلنا واديًا قفرًا آخرًا، أحرقت الشمس كل الألوان كما في الأول، ولكنه كان أكثر انبساطاً من سابقه، وبدا لي أشد حراً. كانت النباتات غريبة. هنا نما الصبار إلى طول يضاهي أشجار الحور. ماتت الأشجار الحقيقية الأصغر حجماً، وفقدت لحاءها، وصارت شاحبة مثل جلد البشر. وكانت هناك بعض نبتات من الشبرم، وأعشاب السعدة التي كانت تستخدم لأغراض طبية من قبل بعض الناس، وغيرها من أنواع الصبار ذي الجذع الأسطواني، وحجمه مثل أشجار التفاح. الصبّار عنيد. بعد أن ماتت الشجيرات ذات الأنظمة الجذرية الأقل تعقيداً، والأوراق الأسوغ للأكل، أو استهلكت بالرعي، ظل الصبّار، تبعد سيقانه الحيوانات، وشعره الأبيض يظلل جلده القاسي ويمنع التبخّر. وتحت أصفى سماء زرقاء نبتت المزيد من الأعشاب الرائعة: تنبت حشيشة الكلاب في مجموعات من الأنابيب البنية المشعرة، والصبّار الأجاصيّ الشوكي، والحشائش المتشابكة على امتداد الأفق. كان القطار يسير بسرعة عشرة أميال في الساعة، لذلك كان من المستحيل تصنيف نباتات هذا المكان على الصفحات الأخيرة من كتابي رواية بو، وإيجاد معنى ما للغز أعشاش الدبابير الطينية المتصدعة.

شغلني هذا العمل حتى ساعتين بعذ ذاك، رأيت جرّاراً، وظلاً، وبعض المنازل البالية، ثم مبنى رباعي الطوابق من الألواح الرمادية، وبه شرفة في كل طابق: فندق السكة الحديد.

وصلنا**ثكابا**. كانت محطة متربة في نهاية طريق أغبر والآن، في منتصف الظهيرة، والحرّ خانقٌ. مجموعة من الناس على حاجز المحطة يهتفون باتجاه القطار. تجاوزتهم، واقتربت من الفندق- كان مكاناً مخيفاً وغير مريح- سمعت ضجيج مولّد كهربائي، ورأيت رجالاً يحفرون بالقرب من الفندق. كانت الأرض من الطين الصلب: فاحتاجوا مثقاباً هوائياًلحفرها.

لا راحة في الفندق. ما تمكنت من رؤيته في المدينة لم يقنعني بالبقاء: الأكواخ المتصدعة، وبرج الكنيسة الأصفر، والمزيد من الصبّار. إذن هذه هي زكابا. لم تبالغ المرأة التي قابلتها في مدينة غواتيمالا. بدت مكاناً رهيباً، وحارّاً مثل أي من القرى البائسة الواقعة على خط السكة الحديد، إن لم تكن أشد حرّاً منها. وجدت مكتب مدير المحطة. كان لديه مروحة، وتقويم، وخزانة ملفات خشبية، ومخرز ورق. كان ضجيج المولّد عاليًا حتى هنا، لذا اضطررت إلى رفع صوتي.

قلت: "معذرة، متى يغادر القطار إلى الحدود؟"

" أي حدود تريد عبورها؟"

لم يكن سؤالاً عابراً: نحن أقرب إلى هندوراس من السلفادور.

" أنا أحاول الوصول إلى ميتابان، في السلفادور."

" نعم هناك قطار متوجه إلى ميتابان بعد يومين، يوم الأربعاء في السادسة والثلث صباحاً. هل تريد تذكرة؟"

يومان هنا! قلت، "لا شكراً لك."

خرج القطار من زكابا وكان الآن في طريقه شمالاً إلى بورتو باريوس. كان رصيف المحطة خالياً، وما زال الغبار يهبط. تمعنت في جدول مواعيد كوك[[26]](#footnote-26) خاصتي، ورأيت أنني لو عبرت الحدود إلى ميتابان أو سانتا آنا قد أجد رحلة ترانزيت إلى سان سلفادور في اليوم التالي. قررت فعل ذلك- لم تكن الحدود بعيدة جداً، ربما ثلاثين ميلاً. كان يراقبني رجل. ذهبت إليه وسألته ما إذا كانت هناك محطة حافلات في زكابا.

"إلى أين انت ذاهب؟"

"السلفادور."

"سيء جداً. جميع حافلات السلفادور تغادر في الصباح الباكر." ولكنه كان يبتسم.

قلت:" أود الذهاب إلى مدينة سانتا آنا."

قال: " لدي سيارة، ولكن تكلفة الوقود باهظة جداً.

"سأعطيك خمس دولارات.

"مقابل عشرة دولارات سأخذك إلى أوغوياتو. إنّها على الحدود."

" هل هي بعيدة؟"

" ليس جداً"

حالما غادرنا **ثكابا**، أصبحنا خارج الصحراء. رأيت التلال الخضراء، أكمل استدارة، ونهرًا يجري خلالها. تحدثت إلى الرجل. كان اسمه سبستيانو، ولم يكن يعمل- قال الجميع في غواتيمالا يعانون البطالة. كان من **ثكابا**. وكان يكره **زكابا**، ولكنه زار مدينة غواتيمالا، وكان يظن أنَّ هذا أسوأ كثيراً. وقال في وقت ما لاحقاً: " هناك شيء أعتقد أنّ علي إخبارك به. " وهو يبطىء عند منعطف ما على الطريق. انسحب إلى الجانب وتوقف، وابتسم بخجل قائلاً " ليس لدي رخصة قيادة، وهذه السيارة- ليست مرخصة. ولا تأمين عليها أيضاً- إن لم تكن مسجّلا فما الفائدة من التأمين؟"

قلت: "أمر مثير للاهتمام، ولكن لم أوقفت السيارة."

قال: " لا أستطيع أن آخذك أبعد من هنا. إن فعلت، سيسألني شرطي الحدود عن رخصتي وما إلى ذلك. وأنا ليس لدي رخصة، فسيعتقلني، وربما أساء معاملتي. لا يسعني رشوتهم- ليس لدي مال."

قلت: " لديك عشرة دولارات"

ضحك وقال: " هذا ثمن الوقود!"

"إذن ماذا علي فعله."

سار إلى الجهة الأخرى، وفتح الباب. وقال:" إمش،"

"أبعيدة هي المسافة؟"

"ليست بعيدة جداً."

وابتعد بالسيارة. وقفت للحظة على هذا الطريق في حدود غواتيمالا، وبدأت أسير. قال إنّه ليس بعيداً جداً. كان ميلاً. ليس ثمة زحام. فقط الأشجار الخضراء هنا، والطيور المغردة. لم تكن حقيبة سفري ثقيلة، لذلك أحببت السير. كانت الحدود عبارة عن مظلة. صبي في قميص رياضي ختم على جواز سفري، وطلب المال. سألني عما إذا كنت أحمل أية عقاقير. قلت لا. ماذا أفعل الآن؟ سألته.

قال إصعد إلى الأعلى في هذا الطريق. ستجد منزلاً آخر. تلك هي السلفادور.

كان طريقاً ظليلاً، يدور حول التلة، مارًا بمرج، وجدول يبقبق. يا له من تحوّل في المشهد العام! في وقت سابق من هذا اليوم، خطر لي أنني سأذوي وأموت في قفار وادي موتاغوا، وهانذا الآن أتهادى بين هضاب خضر مسنّمة في أصيل يوم مشمس متنزهاً أمشي على قدمي من غواتيمالا إلى السلفادور، في انتعاش وعذوبة يوم صيف في ماستشوسيتس. كان عبور الحدود مثل أسعد نزهة قمت بها، وتذكرني بسرور تسكعي في طريق امهرست إلى شوتسبري. كانت هناك سيارة تقف جوار كوخ، إنّه مكتب الحدود. خرج جندي وتفحّص حقيبتي. " ما هذا؟"

"كتاب. باللغة الإنجليزية. حكاية آرثر غوردون بيم."

قال:" هناك، أبرز جواز سفرك."

سأل ضابط الهجرة: " إلى أين تذهب؟"

"سانتا آنا."

وصلت سيارة إلى المظلة، وخرج منها رجل، ووقف خلفي.

قال:" أنا سأمر بسانتا آنا. أترغب في الإنضمام إلي؟

"كم يكلفني ذلك؟"

"مجاناً."

عليه ذهبت إلى سانتا آنا، التي لم تكن بعيدة. مررنا ببحيرة غويخا، والمزيد من البراكين، وحقول القهوة، والتبغ.

قال الرجل عندما وصلت إلى سانتا آنا: "لم لا تأتِي معي إلى سان سلفادور؟ أنا مسافر اليوم"

"سأبقى هنا على ما أظن."

"لم أكن لأنصحك بالبقاء. هذا المكان مليء باللصوص والنشالين والقتلة. أنا لا أمزح."

ولكن حلّ الليل، وقررت البقاء في سانتا آنا.

**-8-**

**عربة القطار إلى سان سلفادور**

**---**

التعاسة وحدها هي سيدة المشهد في المدينة؛ في الحقيقة لقد كانت مريحة. كانت مزيجاً لطيفاً من السمات. في كل المناحي. سانتا آنا، أكثر مدن امريكا الوسطى أمريكانية، لقد كانت مكاناً مثالياً- مثالياً في مواقفه التقية، وفتياته الجميلات، ومثالياً كان نعاسها، حرّها المعبّق برائحة القهوة، وميادينها الوريفة، وفي الأناقة المتربة لمبانيها العتيقة التي يكسوها بياضها عند هبوط الليل لونًا فسفوريًا مشرقًا. حتى بركانها كان على أفضل حال. فندقي، فلوريدا، كان مجرد متاهة من طابق واحد، به أشجار نخيل في أصص فخارية، ومقاعد من الخيرزان، وطعام جيد: سمك طازج، من بحيرة غويجا القريبة، يتبعه قدح من قهوة سانتا آنا المخملية المسحوقة، وتحلية سانتا آنا، قطعة كعك طيبة من الموز والفاصوليا المهروسة، تقدم مع القشدة. تكلفة هذا الفندق الجميل أربعة دولارات في الليلة الواحدة. كان أسود اللون من الميدان. كانت جميع مباني سانتا آنا مميزة- كان هناك ثلاثة منها- في الميدان: الكاتدرائية المشيدة على الطراز القوطي الحديث، ومبنى البلدية بأعمدته الفخمة كأعمدة قصر دوقي، و مسرح سانتا آنا الذي كان في يوم ما دارًا للأوبرا.

لا أعتقد أنَّ المسرح كان سيبدو مميزاً للغاية في مناخ آخر، ولكن في هذه المدينة الاستوائية الهادئة على الهضاب الغريبة القريبة من السلفادور كان المسرح رائعاً وغريباً- ولم يكن ثمة شيء هنا للسائح ذي الذهنية المترفة، او المولع بالأطلال.

كان أسلوبها جمهورياً غريكورومانيًا مجنوناً، وكان حديث الطلاء، وتقليدياً على نحو لا يُختلف على ابتذاله، وعلى واجهاته تماثيل الأطفال الجميلة، والملائكة ذات الأبواق، وأقنعة الضحك والبكاء، وجزء من ربّات الإلهام: ميلبوميني المكتنزة، وتاليا المتوثبة، وكاليوبي بقيثارتها على حجرها، وتريبسيكوري(والعضلات تظهر من ثوبها كاملة مثل عضلات مدربي الرشاقة). ثمة أعمدة أيضاً، ورواق روماني، وصورة بركان ملتهب على أحد الدروع، في جمال تناسق إيزالكو، الذي كان أمام المدينة مباشرة، والذي ربما كان نموذجاً لهذا الشعار. كانت مسرحاً جميلاً في نهاية القرن، ولم يكن مهملاً بالكامل، لقد كان في وقت ما يهب سانتا آنا الحفلات الموسيقية والأوبرالية، ولكن استسلمت سانتا آنا لهذه الاضمحلال ثقافياً، وغذته، فتقلص دور المسرح هو الآخر ليقتصر على عرض الأفلام.

في ذلك الأسبوع، كان العرض لفيلم نيويورك، نيويورك[[27]](#footnote-27). لقد أحببت سانتا آنا فوراً، كان مناخها معتدلاً وأهلها يقظين، متجاوبين، وكانت صغيرة بما يكفي لتأخذني في نزهة قصيرة إلى ضواحيها، حيث الهضاب داكنة الخضرة، وتلمع بشجيرات القهوة. لقد كان الغواتيماليين الذين يعانون الضغوط الشديدة ممن قابلتهم يقسمّون الناس، وبدا الهنود في المناطق النائية تائهين في يأس، أما السلفادور، كما تدل عليه سانتا آنا، فقد كان بلداً هجيناً، حيوياً، وزاخر بالأحاديث، ينتمي أهله لطائفة من الكاثوليكية القائمة على الشعائر الحسية. يمسك السلفادوريون الاتقياء في الكاتدرائية بأقدام القديسين، ويتمسحون بالآثار، والنساء مع أطفالهن- يتذكرن دائماً إلقاء قطعة من العملات في الشق، ويشعلن شمعة أولاً- وتمسك إحداهن بطرف طوق المسيح وتمسح بشراشيبه على رأس الطفل. ولكن ليس لأي مواطن في هذه المدينة فكرة واضحة عن مكان محطة القطار. كان عليَّ السفر من الحدود بسيارة، بعد ليلتين في سانتا آنا، اعتقدت أنَّ علي المضي قدماً نحو العاصمة. كان هناك قطار يسافر مرتين يومياً، أو هذا ما يشير إليه جدول المواعيد، ووجهني عدد من الناس في شيء من التردد نحو محطة القطار. لكني بحثت في المدينة، ولم تكن محطة القطار حيث قالوا. وهكذا صرت معتاداً على الشوارع الضيقة في سانتا آنا. ظلت المحطة تراوغني. وعندما وجدتها في صباح يومي الثالث، على بعد ميل واحد من الفندق، وفي جزء من المدينة بدأ ينحدر نحو الحقول المحروثة، والمحاصيل النقدية، وراء سياج عالٍ، وفي جزء مهجور بعيداً رجل يجلس في مكتب خال- مدير المحطة- فهمت لم لا يعرف أحد أين كانت. لا أحد يستخدم القطار. كانت هناك طريق رئيسية من سانتا آنا إلى سان سلفادور. نحن نستقل الحافلة. بدا هذا هو شعار أمريكا الوسطى كإجابة لجميع اعلانات الطرق الحديدية التي تقول خذوا القطار، إنّه أقل تكلفة. كانت المسألة تتعلق بالسرعة: استغرقت الحافلة ساعتين، والقطار الظهيرة بطولها.كانت المحطة لا تشبه أية محطة أخرى رأيتها من قبل. في تصميمها بدت مثل سقيفة معالجة التبغ التي قد تراها في وادي كونيكتيكت: مبنى خشبي أخضر ذو جوانب مضلعة، تصر الرياح بين شظاياها. كانت جميع العربات في المقدمة: اربع عربات خشبية، وعربة ديزل واحدة. على هذه العربات ديباجات الأولى، والثانية، لكنهما كانتا قذرتين بالقدر ذاته.وعلى الجانب كانت هناك عربة بخارية محطمة، بمدخنة مخروطية الشكل، منقوش على سخانّها عبارة: أشغال بالدوين للمحركات، فلادلفيا، بنسلفانيا-110. ربما كان عمرها مائة عام، ولكن مأمور المحطة أكد لي أنّها تعمل على أكمل وجه. وعلى مقربة من المحطة عربة خشبية مدهونة باللون الفضي، أشبه بعربات القطار الكهربائي. كان لهذه الآلة الغريبة محركها الخاص، وهي- كما قال مأمور المحطة- التي كانت تقود الرحلة من هنا إلى سان سلفادور.

سأل مأمور المحطة: " من أين أتيت؟"

"بوسطن"

"بالطائرة؟"

"بالقطار."

شدّ على يدي وقال: "والآن هذا أمر أود فعله!" لقد زار زكابا كما قال، ولكنها لم ترق له كثيراً- كان الغواتيماليون أشخاصًا مرتبكين. أما الهندوراسيون فكانوا أسوأ. ولكن ماذا عن مساري من بوسطن. أمطرني بالأسئلة: كم ساعة من شيكاغو إلى فورت نورث؟ ماهو نوع القطارات؟ والقطارات المكسيكية-هل هي جيدة كما قيل عنها؟ أي من القطارات كانت تشتمل على عربات أكل، وعربات بالمانز[[28]](#footnote-28)؟وهل رأيت أي شيء مثل القاطرة البخارية؟ "أخبرني الناس أنّها باتت تكلف الكثير من المال الآن. أعتقد أنهم على حق." إلى أين أتجه من هنا؟ وعندما قلت له الارجنتين، قال: "رائع، ولكن كن على حذر في نيكاراغوا- ثمة ثورة هناك في هذه اللحظة. ذلك الرجل الفظ سوموزا[[29]](#footnote-29)."

كنا نقف بالقرب من القاطرة. هزّ مأمور المحطة رأسه وهو ينظر إليها وقال: " إنّها قديمةجداً. ولكنها تعمل" كانت ستغادر إلى سان سلفادور بعد الغداء. تحققت من ذلك من أمام محطة فلوريدا، وعند تلك المحطة ابتعت تذكرتي- صفقة رابحة 35 سنتاً لكل 35 ميلاً. خططت لأجلس بالقرب مقدمة القاطرة، ولكن المحرّك كان يصدر صوتاً مزعجاً.

وحالما كنا في الطريق، وجدت اثنين من السلفادوريين في الخلف لأتبادل معهما أطراف الحديث. كان كلاهما من رجال المبيعات، في منتصف العشرينيات. كان الفريدو ممتليء الجسم، داكن البشرة، وبدا رياضياً مثل ممارسي تمارين القرفصة، وكان يبيع أحواض البلاستيك والمعدات المنزلية. ماريو كان رفيعاً، وكان ذا ضحكة ثرثرة بلا معنى.

كان يبيع معجون الأسنان، والزيت، والصابون، والزبد. لقد أرسلتهما شركتاهما إلى سانتا آنا، وكانت منطقتهما في سانتا آنا وحولها، وكل غرب السلفادور تقريباً. قلت إنها منطقة واسعة على ما يبدو. ذكراني بأنّه كانت بلداً صغيراً: كان عليهما زيارة عشرين أو ثلاثين متجراً في اليوم حتى يكسبا المال. كنا نتحدث باللغة الإسبانية. هل كانا يتحدثان اللغة الإنجليزية؟ " للحد الكافي،" قال ماريو باللغة الإسبانية وأطلق ضحكته.

قال الفريدو:" أعرف ما يكفي، كنت في أريسبوورغ لشهرين، أدرس اللغة الإنجليزية."

"بنسلفانيا؟"

"ميسيسيبيي."

" قل شيئًا باللغة الإنجليزية."

نظر إلي الفريدو شذرا. قال:" نهد،" ثم نطق بكلمات نابية، جردها نطقه المريع مما بها من فحش.

قال ماريو:" اللغة الاسبانية أفضل من الإنجليزية."

قال الفريدو:" أعتقد أنّ ذلك صحيح."

قلت:" كلام فارغ، كيف للغة أن تكون أفضل من الأخرى؟ يعتمد الأمر على ما تحاول قوله."

قال ماريو: " في جميع الأحوال، اللغة الاسبانية لغة أكثر إسهاباً، أما الإنجليزية فمختصرة وعملية."

"هل شكسبير مختصر وعمليّ؟"

قال الفريدو: " لدينا شكسبير باللغة الإسبانية."

تشبث ماريو برأيه وقال: " لدينا كلمات عدد أكبر من الكلمات في اللغة الإسبانية."

"أكثر مفردات من اللغةالإنجليزية؟"

قال هو:"أكثر بكثير."

توقفت القاطرة لتقل الركاب. بدأنا الآن السير، وغير بعيد من القضبان كان ثمة خنزير مشعر أرقط يحرث العشب بأنفه. أومأ ماريو إلى الخنزير وقال:" على سبيل المثال، لنأخذ كلمة "خنزير". لدينا خمس كلمات تدل على الخنزير. كم كلمة لديكم؟"

" قلت أربعة: Hog، وsow، وpiglet، وswine. "

اسمع، وطفق يحصي على أصابعه:" marrano، وcochino، وcerdo، وtunco، وCuche، ما رأيك بهذا؟"

قال الفريدو: " وكلمتان للدلالة على "الكلب"، Chuncho وcan."

قال ماريو:" لدينا حوالي سبعة اسماءللأطفال، أو الطفل."

" في هندوراس لديهم ثمانية!"

قال ألفريدو:" كم اسماً للكلب لديكم ؟"

قلت: " أربعة، puppy، وmutt، وmongrel، وcur. ذاك يفوق ما لديكم."

قال ماريو: "حسناً لدينا أربعة اسماء للعجل."

يا إلهي، قلت لنفسي، يا له من حوار سخيف.

ذكر ماريو اسماء العجل: novillo، وbuey، وtorrete، وguiriche.

قلت لهما: " لقد فزتما." توقفت العربة مرة أخرى، وبينما ذهب الفريدو وماريو إلى الخارج لشراء مشروب الكولا، بحثت في حقيبة سفري عن قاموس اللغة الإسبانية، وتحققت من بعض الكلمات. وعندما استأنفت العربة المسير، قلت: "buey، لا تعني عجلاً، بل ثوراً"

قال ماريو: " إنّه الحيوان ذاته."

تجادلنا حول الأمر حتى قال الفريدو:" نعم في الولايات المتحدة يختلف الثور عما لدينا. لقد رأيت الثيران في اريسبوورغ."

كنا نمر عبر جبال جميلة، بركانية وشديدة الانحدار. وعلى عدد من المنحدرات السفلية نمت شجيرات بنّ القهوة. لم نكن على مسافة بعيدة من غواتيمالا حتى الآن، وأدهشني أنَّ ذلك المشهد البديع يتغير بسرعة من بلد إلى آخر، والذي لم يكن فقط أشد خضرة وانحدارا مما رأيته على الحدود في وادي موتاغوا، ولكن تبدو عليه العناية، والتنسيق الريفي، وسحرٌ أضفى عليه عذوبة وجاذبية.

لم أعرف أنّ السلفادور كانت تستورد معظم خضرواتها من غواتيمالا، لكنْ السلفادور كانت هي الأكر حركة، وتماسكاً. كان عبئها الحقيقي هو حجمها. فما الشكوى التي قد يرفعها مكان صغير كهذا؟ لقد سمعت أنّها تدار من قبل أربع عشرة عائلة، وتشير احصائيات سوداوية إلى التكبّر المضحك، والصراع الاجتماعي، بالإضافة إلى المعارضة الساخطة- يستشيط الطلاب الماركسيون غضباً. أكد ماريو والفريدو صحة هذا الأمر.

قال الفريدو:" لا أحب الحديث حول السياسة، ولكن الشرطة شرسة في هذا البلد، والحكومة عسكرية. ماذا ترى يا ماريو؟"

هزّ ماريو رأسه. كان من الواضح أنّه آثر الحديث عن شيء آخر.

وصلنا في الساعة الثالثة والنصف تقريباً إلى مدينة كويتزالتيبيك. رسم ماريو والفريدو إشارة الصليب فور رؤيتهما إحدى الكنائس. وقامت النساء في عربة القطار بالشيء ذاته. نزع بعض الرجال قبعاتهم أيضاً.

قال الفريدو: " أكاثوليكي أنت؟"

قمت بسرعة برسم علامة الصليب، حتى لا أخيب ظنه.

قال الفريدو:" ما معنى الهواشا باللغة الإنجليزية؟"

"ماهذه؟ أهي من لغة النهواتل؟" ضحك الفريدو قائلاً:" لا." ليس ثمة لغات هندية منطوقة في السلفادور. هواشا كلمة إنجليزية، وأصرّ على ذلك، لكن ماذا تعني؟ قلت إنها غير مألوفة بالنسبة لي. هلا استخدمتها في جملة؟ تنحنح، وأحنى ظهره، وقال بلغة إنجليزية:" هواشا تعمل عندما يجف البئر."

قال ماريو:" اللغة الإنجليزية." وهو يشخر في سخرية. على الرغم من أنّ كليهما مسافر باعتباره رجل مبيعات، إلا أنّهما أملا في الترقي بشركتيهما، وفي تلك الأيام، قد يُرقى إلى منصب مكتبي في سان سلفادور. عمل ماريو بنظام العمولة المباشرة، وكان ربح الفريدو على نظام ائتمان لم أستوعبه. كان بائعاً ذا موهبة في التفسيرات المطولة الغامضة، ويرهق المستمع حتى الإذعان دون أن يسمح له بالفهم. لقد قلت إنَّ كليهما بدا طموحًا. آهـٍ، أجل قال الفريدو إنّ السلفادوريين كانوا أذكي بكثير من غيرهم من سكان أمريكا الوسطى.

قال الفريدو:" نحن مثل الاسرائيليين"

"هل ستغزو واحداً؟"

" كنا قادرين على الاستيلاء على هندوراس قبل سنوات خلت."

قال ماريو:" لدي طموح" قال إنّ رجل المبيعات في شركته، الذي كان يبيع معظم صناديق صابون الرينسو في تلك السنة سيربح رحلة مجانية إلى جزيرة سان اندرز. اعتقد أنّ لديه فرصة جيدة للفوز، لقد باع آلاف الصناديق. ازدادت الوديان عمقاً.

وكانت الجبال تزداد قتامة، في الشمس الغاربة. كانت عربة القطار صغيرة، ولكنها امتلأت في وقت وجيز، وخمنت أنها ستستبدل بعد وقت ليس بالطويل، وسيتم تعليق خدمة الخطوط الحديدية ما عدا شحن القهوة. في وقت متأخر من بعد الظهر مررنا عبر غابة كثيفة. قال الفريدو إنّ هناك بركة سباحة في الجوار، يرفدها شلال، وإنّها كانت مكاناً مذهلاً لخطب ود الفتيات. كان ليسعد بأخذي إلى هناك. قلت إنني سأواصل طريقي إلى كوتكو، ونيكاراغوا. قال هو لن يذهب إلى نيكاراغوا ولا بأي ثمن. لم يزر أيٌّ من الفريدو أو ماري، من قبل هندوراس أو نيكاراغوا ، واللتان تقعان في الجوار.

ظلت السلفادور متوارية. تقع في وادٍ تحفّه الجبال التي تجعل الهواء دخانّياً من أثر احتباسه بينها. كان إلى يميننا الطريق السريع- طريق عموم أمريكا السريع. قال الفريدو إنّه كان طريقاً سريعاً لكنه لم يخل من خطورة. أههما حقيقة أنّ الجزء من الطريق الواقع على بعد عشرة أميال من سان سلفادور، يستخدم كمدرج اضطراري لهبوط الطائرات. قلت إنّني أفضّل أن أكون على هذه القاطرة التي تسير الهوينى عبر مزارع القهوة، عن أن أكون في حافلة تسير باتجاه طائرة تتدرج. أي شيء كان سيفعله هذان في العاصمة؟ عمل، هكذا قالا، مقابلة المدير، ورفع الطلبات. ثم قال ماريو في شيء من التردد إنّه كان في طريقه لرؤية خليلته أيضاً- لم تكن لديه خليلة بعد في سانتا آنا، وقد دفعته أخلاق الريف السائدة هناك إلى إلهاء نفسه عن ذلك. وكان لالفريدو خليلتان أو ثلاث. والسبب الرئيسي وراء رحلته إلى سان سلفادور هذه("رجاءً لا تخبر مديري!) كان لمشاهدة مباراة كرة القدم تلك الليلة. كان متوقعاً أن تكون واحدة من أفضل المباريات ذاك العام. حيث كانت السلفادور تلعب ضد المكسيك في الملعب القومي، وقد كانت المكسيك مدرجة في جدول مباريات كأس العالم في الارجنتين. إنّها فرصة السلفادور لتثبت نفسها. لقد قرأت عن كرة قدم أمريكا اللاتينية- الفوضى، والشغب، والحشود المتحيزة المتحمسة، كانت الملاعب طريقة للتنفيس عن الإحباطات السياسية.

أعرف حقاً أنّ المرء إن أراد أن يفهم البريطانيين لاستعان على ذلك بمشاهدة مباراة كرة قدم؛ ثم لن يبدو البريطانيون شرفاء مزمومي الشفاه. في الحقيقة كانت مباراة كرة القدم البريطانية مناسبة للمتفرجين الشباب لممارسة أحد أشكال حرب العصابات. كانت الطقوس الرياضية العضلية دائماً تُعد استعراضاً للغرائز الأكثر وحشية في الشخصية القومية. والسبب الأكبر في الاهتمام بالألعاب الأوليميبية أنّها كانت أشبه بحرب عالمية إيمائية. " هل تمانع إن ذهبت للمباراة معك؟" بدا القلق على وجه الفريدو، وقال: "ستكون مزدحمة للغاية."

" وربما حدثت مشكلات. خير لك أن تذهب إلى بركة السباحة غداً- للفتيات." " هل تظن أنني جئت إلى السلفادور لأطلب ودَّ الفتيات في بركة سباحة عامة؟"

"أجئت إلى السلفادور لترى مباراة كرة القدم؟"

قلت: " نعم." كانت محطة سان سلفادور في نهاية قسم منفصل من الطريق في منطقة كئيبة من المدينة. جمع رجل ما تذكرتي في قبعة بورك-باي، وقميص رياضي، يضع مسدساً على خصره. كانت المحطة مجرد سلسلة من حظائر البضائع، حيث عسكّر أشخاص في شدة من الفقر، ينتظرون قطار الصباح المتجه إلى كوتوكو: كبار السن، والصغار جداً- يبدو أنّه هو نمط ضحايا الفقر في أمريكا الوسطى. أعطاني الفريدو اسم فندق، وقال إنّه سيقابلني هناك قبل ساعة من انطلاق المباراة في الساعة التاسعة. كانت المباريات تقام في وقت متأخر، كما قال، لأنّ الطقس أفضل وقتئذٍ.

ولكن الآن وبعد هبوط الظلام، والحرارة الرطبة ما زالت تخنقني. بدأت أتمنى لو لم أغادر سانتا آنا. سان سلفادور معرضة للزلازل، ولم تكن مكاناً جميلاً، بل شاسعة، وصاخبة، ومبانيها عاطلة عن الجمال، وفي وهج الكشافات لمعت حُبيبات الغبار الطافية في الهواء. لِمَ قد يأتي أيّ كان إلى هنا؟

قال لي أمريكي في سان سلفادور: "لا تحكم إلا عن تجربة، أنت لم تر نيكاراغوا بعد!"

تأخر الفريدو. تعذر بالزحام المروري: " سيكون هناك مليون شخص في الملعب." أحضر معه صديقين صبيين- كان يتباهى-كانا يدرسان اللغة الإنجليزية. سألتهما باللغة الإنجليزية:" كيف حالكما؟"

قال أحدهما:" رجاءً؟" ضحك الآخر. قال الأول باللغة الاسبانية:" ما زلنا في الدرس الثاني." بسبب الزحام، وخطورة لصوص السيارات في الملعب. أوقف الفريدو سيارته على بعد نصف ميل، في منزل أحد أصدقائه. كان المنزل جديرًا بشيء من التأمل. كان عبارة عن عدد من المقصورات المكعبة مثبتة على الأشجار، حيث تستند الأغصان المورقة على الغرف. وكانت الملابس المعلّقة على الأغصان بمثابة الجدران، ويحيط بها سياج منيع. سألت الصديق عن مدة سكناه هناك. قال إنّ عائلته عاشت في هذا المنزل سنين عدداً. لم أسأل عما حدث عندما هطلت الأمطار، لكنْ الفقر في قطر فقير له آثار دقيقة. سرنا على طول التلة باتجاه الملعب، وعبرنا جسراً، نظرت في المضيق وتوقعت أن أرى نهراً، ورأيت أسقفَ منحدرةً، ونيران طبخ، ومصابيح. وجهت سؤالي لالفريدو: " من يعيش هناك؟" فقال:" أشخاص فقراء." كان الآخرون يسيرون باتجاه الملعب أيضاً. انضممنا لموكب من المشجعين المهرولين، وبينما كنا نقترب من المعلب بدأوا في الصياح، والتدافع في تلّهف. انطلق الموكب فوق التلال تحت الملعب، يصطدم بحدائق الناس، ويحتك بمصدات السيارات المتوقفة. هنا كان الغبار سميكاً، وأقدام المشجعين تثيره فيرتفع حتى أصبح ضباباً بنيّا كلوحة داكنة لمشهد مسيرة، وقد تسلطت عليه الكشافات المخروطية. كان الموكب يعدو الآن، وقد حجبت سحابة الغبار الفريدو وأصدقاءه. وكل عشرة أقدام، يمر بي صبية وهم يهزّون البطاقات في وجهي هاتفين: " شمسية! شمسية! شمسية[[30]](#footnote-30)!" كان هؤلاء هم متعهدو الرهانات. كانوا يبيعون تذاكر زهيدة بهامش ربح للناس الذين لا يملكون الوقت ولا الشجاعة للوقوف في صف طويل أمام نافذة بيع التذاكر. كانت تسميات المواقع هي تلك المعتادة في صراع الثيران: "الشمسية" كانت الأرخص والأكثر شحوباً، "المظلات" كانت الأغلى وتقع تحت المظلة. شققت طريقي بصعوبة عبر المضاربين، وأضعت الفريدو، ووجدت طريقي إلى أعلى التلة حيث الملعب الذي كان يشبه في هيئته براد الشاي. كان مشهداً سماوياً. وقد انبعث زحام الناس من الظلمة إلى الضباب البنّي المتوهج، والصياح، والغبار المتصاعد، وسفح الجبل المشتعل تحت سماء، توارت نجومها، بسبب الغبار. في تلك اللحظة، فكرت في الرجوع، لكن جرفني تيار البشر إلى الأمام باتجاه الملعب، حيث كان هدير المتفرجين بالداخل أشبه باللهب المتصاعد من مدفأة. تناول الحشد تلك الصيحة واندفع بقوة فتجاوزني مثيراً الغبار. كانت هناك نساء يقلين الموز، وفطائر اللحم على نيران أشعلنها بالأرصفة التي تمر من أمام محيط الملعب وحوله. وجعلت الأدخنة التي انبعثت من هذه النيران وذلك الغبار كل المصابيح تبدو كما لو أنها تحترق بلهب دخانّي. ظهر المضاربون مجدداً على مسافة أقرب من الملعب. والآن أصابتهم لوثة من الهستريا. كانت اللعبة على وشك أن تبدأ، ولم يكونوا قد باعوا تذاكرهم بعد. فجذبوا ذراعيّ ودفعوا بالتذاكر في وجهي، وصاحوا. وبنظرة واحدة إلى صفوف الناس لدى نوافذ التذاكر قلت لنفسي ليس لدي فرصة على الإطلاق في شراء تذكرة بطريقة قانونية. كنت أفكر في هذا السؤال عندما ظهر الفريدو من بين الغبار والدخان. فقال: " انزع ساعة يدك.، وخاتمك. وضعهما في جيبك. كن حذراً فمعظم هؤلاء الناس لصوص. سيسرقونك." فعلت كما قيل لي. " ماذا عن التذاكر؟ هل علينا شراء بعض تذاكر المقاعد الشمسية من هؤلاء الشباب؟"

"لا، سأشتري تذاكر المظلات. " " هل هي باهظة الثمن؟" "

"طبعاً، ولكن هذه ستكون مباراة رائعة. ما كنت لأشاهد مباراة كهذه في سانتا آنا على أية حال، ستكون المظلات أكثر هدوءًا." نظر الفريدو حوله. " اختبيء هناك وراء ذلك الحائط، سأحضر التذاكر."

اختفى الفريدو في صف الكونغا، أمام إحدى نوافذ بيع التذاكر. وظهر مرة أخرى في منتصف الطابور، وتجاوز بعض الناس، يشقّ طريقه إلى الأمام دافعاً الناس بمرفقيه، وقاتل حتى وصل إلى النافذة في وقت وجيز أدهش الجميع حتى أصدقائه بسرعته. جاء صوبنا يبتسم، ويلوح بالتذاكر من فرحة النصر. خضعنا للتفتيش لدى المدخل، مررنا عبر نفق ضيق، وخرجنا في النهاية إلى الملعب. من الخارج كان يبدو كغلاية الشاي، ومن الداخل اتخذ شكلاً أقرب إلى طبق عريض، سلطانية ممتلئة بالوجوه الصارخة. في وسطه مستطيل من العشب على حالته الأصلية. كان هؤلاء-45000 شخصاً- نموذجاً للمجتمع السلفادوري. لم يكن نصف الملعب فقط حيث جلس قسم المقاعد الشمسية( وهو مزدحم: لا يُرى فيه مقعدٌ واحدٌ شاغر)؛ أو الأفضل هنداماً والذين كانوا يضاهون النصف المزدحم في المظلات (لم يكن ثمة فرق في جودة المقاعد ليلا في غير موسم الأمطار: كنا نجلس على درجات من الخرسانة، ولكن مقاعدنا كانت أغلى من الشمسية، حيث الازدحام أقل.) كان هناك قسم لم يذكره الفريدو: الشرفات.

فوقنا، وفي خمس من مدرجات قاعة كانت تدور حول نصف الملعب، كان أصحاب الشرفات. وأصحاب الشرفات لديهم تذاكر الموسم. أصحاب الشرفات لديهم غرف صغيرة، بحجم الخزانة، ولكنها لا تقل عن متوسط حجم الأكواخ السلفادورية، بوسعي رؤية قوارير النبيذ، والكؤوس وأطباق الطعام. لدى أصحاب الشرفات مقاعد مطوية، وإطلالة أفضل على الميدان. لم يكن ثمة أناس كثر في قسم الشرفات- مائتان أو ثلاثمائة- ولكن $2000 مقابل تذكرة موسمية في بلد يبلغ دخل الفرد السنوي فيه 373$، أمر يمكن فهم أسبابه. لقد كان أصحاب الشرفات يواجهون المقاعد الشمسية وهتافاتها، وما وراء الملعب، هضبة. وما خلته نباتات متكتلة ومتعددة الألوان تغطي الهضبة كان، كما أدركت، كومة من السلفادوريين يقفون على السطح، أو يتشبثون بالجوانب. ثمة آلاف منهم في هذا الزحام، وقد كان المنظر مرعباً أكثر من الجزء غير المظلل من الملعب. لقد كشفتهم أضواء الملعب، كانت هناك حركة زحف محسوسة بين الأجساد، إنه كثيب نمل. عزُف النشيدان الوطنيان أغنيات تنبعث من مكبر الصوت من أسطوانات مشروخة، ثم بدأت المباراة. كان الفائز واضحاً منذ البداية. كان فريق المكسيك أكبر حجماً وأسرع، وبدا أنّه يتبع خطة محكمة. وكان لدى فريق السلفادورلاعبان يحتكران الكرة، وكان لاعبو الفريق هزيلي الأجسام و صغار الحجم وغير منظمين. تهامس الجمهور احتقاراً للمكسيكيين، وشجعوا السلفادور. ذهب واحد من محتكري الكرة السلفادوريين، وصوّب الكرة لكنه أخطأ الهدف، فالتقطها المكسيكيون، وعذّبوا السلفادوريين بتمريرها من رجل إلى آخر، ثم أحرز المكسيكيون هدفاً في الدقيقة الخامسة عشرة من المباراة. عمّ الملعب السكون، بينما كان اللاعبون المكسيكيون يقبَلون بعضهم البعض. عقب ذلك بدقائق رُكلت الكرة نحو قسم المظلات. وأعيدت مرة أخرى إلى الميدان، واستؤنفت المباراة. ثم ألقيت إلى قسم المقاعد المكشوفة. واصطرع الجالسون عليها. فحازها رجل، ولكن قفزوا عليه، وقّذفت الكرة إلى الأعلى وذهب أصحاب المنطقة المكشوفة وراءها. حاول أحدهم الركض على المدرجات وهو يحملها. ولكنهم لحقوا به، وأخذوا منه الكرة عنوة. بدأت المشاجرة، والآن صارت أعداد من شاغري المقاعد المكشوفة تتبادل اللكمات في سبيل الوصول للكرة. بدأ الجالسون في المقاعد العليا من هذا القسم بإلقاء القوارير وعلب المشروبات، والأوراق المكرمشة على المتشاجرين من الجالسين على المقاعد المكشوفة، ومطر من الأغراض- فطائر اللحم، والموز، والمحارم- استمر بالهطول. كانت المظلات، والشرفات وكثيب النمل جميعهم يتفرجون على هذا الصراع، واللاعبون أيضاً. توقفت المباراة. ركل اللاعبون المكسيكيون النجيلة، بينما صاح فريق السلفادوريين على الجالسين على المقاعد المكشوفة: " اعيدوا الكرة من فضلكم." كان هذا صوت المذيع، وكان أجشًّا. " إن لم تُعاد الكرة، لن تستمر المباراة." وتسبب نداؤه هذا في زيادة كثافة الأشياء المقذوفة من المقاعد العليا- أكواب، ووسائد، والمزيد من الزجاجات. انكسرت الزجاجات بصوت انتثار الماء على المقاعد الخرسانية. وبدأ الجالسون على المقاعد السفلية المكشوفة في إلقاء الأشياء إلى الأعلى بدورهم ليعيدوها لأصحابها، وصار من المستحيل معرفة الوجهة التي طارت إليها الكرة.

لم تعد الكرة، فكرر المذيع تحذيره. جلس اللاعبون على أرض الميدان، وشرعوا في تمارين الإحماء حتى ألقيت كرة جديدة إلى الميدان بعد عشر دقائق من اختفاء الأولى.

علا هتاف المتفرجين، ولكن سرعان ما راحوا في صمت من جديد. أحرزت المكسيك هدفاً آخر، وبسرعة هبطت الكرة من جديد بعد ركلة خاطئة إلى المدرجات المظللة. دار صراع حول هذه الكرة، ولم تُلق إلى الأسفل، وكان بوسع المرء رؤية الكرة تتنقل خلال القسم. بالكاد يمكن رؤيتها الآن، ولكن لم يكن من الممكن تحديد مكانها وسط المشاجرة العامة- مرة هنا، وأخرى هناك. صبّ الجالسون على الشرفات الماء على المدرجات المظللة، ولكن لم تُسلم الكرة. والآن جاء دور أصحاب المقاعد المكشوفة ليروا كيف يتصرف السلفادوريون في المقاعد المظللة- والذين كانوا أفضل حالاً إلى حدٍ ما- مثل الخنازير. رفع المذيع صوته محذراً: لن تُستأنف المباراة، إن لم تُرجع الكرة. لم يلق التحذير سوى التجاهل، وبعد وقت طويل سار الحكم إلى الميدان حاملاً كرة جديدة.

وقد ضاعت الكرات الخمس بالطريقة ذاتها. هبطت الرابعة غير بعيد من حيث أجلس، وكنت أرى تلك اللكمات الحقيقية تسدد، والدم الحقيقي يتفجر من أنوف السلفادوريين والزجاجات المكسورة، والشجار على الكرة حوّل الأمر إلى مسابقة قائمة بذاتها، أكثر همجية من تلك التي تدور في الميدان، وتمارس بنوع من الشراسة الطائشة التي تقرأ عنها في كتب رياضات العصور الوسطى الدموية.

كانت تحذيرات المذيع مجرد تهديد شكلي، ولم تتدخل الشرطة- كانوا يقفون على الميدان ويتركون المتفرجين يأخذون حقهم بأنفسهم. أصيب اللاعبون بالملل: صاروا يركضون في الميدان، ويؤدون تمارين الرفع. وعندما استؤنف اللعب، ووقتما تستلم المكسيك الكرة، كانت تتحرك ببراعة على أرض الملعب وتدخل المرمى في كل مرة. ولكن هذه المباراة، وهذه الأهداف- لم تكن أكثر من فواصل رياضية، في رياضة أكثر دموية، ومع اقتراب منتصف الليل(ولم تنته المباراة بعد)- تنوعت بإلقاء الجالسين على المقاعد المكشوفة الألعاب النارية على بعضهم البعض وباتجاه الملعب.

وفي آخر مرة أوقفت المباراة واندلعت المشاجرات بين الجالسين في المقاعد المكشوفة- وصارت الكرة تقفز من أحد متفرجي المقاعد المكشوفة المهلهلي الهندام إلى الآخر- وأطلقت البالونات من المقاعد العليا. ولكنها لم تكن بالونات. كانت بيضاء، ومنتفخة، وذات حلمة في طرفها، أطلقت الأولى، ثم العشرات. وتسبب هذا في موجة من الضحك، وقد كانت تُضرب من قسم إلى آخر. كانت موانع حمل طبعاً. وتسببت لألفريدو في حرج عظيم. قال وأنفاسه تتسارع من الحرج: " هذا أمر سيء جداً." فاعتذر عن المقاطعات، والشجارات، وتأخير اللعب. والآن هذه- العشرات من القطع المطاطية المحمولة جواً. كانت المباراة مخزية، وانتهت بارتباك، وشجار، وفوضى. لكنها سلطت الضوء على وسائل الترفيه لدى السلفادوريين. وكما في الشيء الآخر-موانع الحمل المنفوخة- اكتشفت لاحقاً أنَّ السلفادور تحتضن أضخم برنامج لتنظيم الأسرة، يتبع لوكالة التنمية الدولية في امريكا الوسطى. لست على يقين من أنّ معدل الولادات قد تأثر أم لا، لكن لابد أنّ حفلات عيد ميلاد الأطفال في ريف السلفادور تزخر بالمرح بسبب البالونات المجانية.

فازت المكسيك بالمباراة، ستة مقابل واحد. قال الفريدو إنّ هدف السلفادور كان أفضل أهداف المباراة، ضربة رأسية من مسافة 30 ياردة. ساعده هذا على حفظ ما تبقى من ماء وجهه. ولكن كان الناس يغادرون أثناء النصف الثاني، وبدا البقية بالكاد يلاحظون أو يهتمون لانتهاء المباراة. وقبيل مغادرتنا الملعب مباشرة، نظرت إلى الأعلى حيث كثيب النمل. كان التل مرة أخرى، لا أحد عليه، وبإجلائه من المتفرجين بدا غاية في الصغر. بالخارج، على مدرجات الملعب، كان المشهد أشبه بتلك الجداريات المروعة التي تصوّر الجحيم في كنائس امريكا اللاتينية. كان اللون جهنمياً، والغبار الأصفر ناعماً في حركة لولبية بين حفر كأفواه البراكين، والسيارات الصغيرة، بأنوارها الشريرة تتحرك ببطء من حفرة إلى أخرى مثل الشياطين الآلية. أينما اتجه نظرك- على الجداريات- ترى لافتات مطبوعة، ومبهرجة، بحروف ذهبية عليها عبارات: الشهوة، الغضب، الجشع، السكر، الشراهة، السرقة، الكبرياء، الغيرة، الربا، القمار، هنا، وبعد منتصف الليل كانت مجموعات من الفتيان يتنازعون على الفتيات في فظاظة، ومجموعات من البشر يتقاتلون، ويحصون ما كسبوا من المال، يترنحون ويرتشفون من زجاجات، ويشتمون المكسيك بألفاظ بذيئة، ويضربون أغطية السيارات، أو يتبارزون بأغصان انتزعوها من الأشجار، أو ما قاموا بثنيه من هوائيات السيارات. وكانوا يثيرون الغبار ويصيحون. وتعالت أبواق السيارات مثل آهات ألم قاسية، وقد قُلبت إحدى السيارات على أيدي عصابة من الشباب العاري الصدر المتصبب عرقاً. كان الكثيرون يركضون مبتعدين عن الموكب، وهم يغطون الوجوه بالمحارم. لكن كانت هناك عشرات الألوف من البشر، والحيوانات أيضاً- كلاب تزمجر وتنكمش كما في الرؤية التقليدية للجحيم. وكان الجو حارّاً: الهواء قاتم و ملوّث يصعب تنفسه، ومتخم برائحة العرق، كان كثيفاً لدرجة أنّه حجب الضوء. وفي مذاقه شيء من رائحة النار والرماد. لم يتفرق الجمع، كانوا في شدة من الغضب لا تسمح بعودتهم إلى المنازل، وشدة من الإهانة بسبب الهزيمة لا تسمح بتجاهل الجرح. كان الحشد صاخباً، ويتحرك كما لو أنّه يُدفع ويُصد: كان يرقص بجنون بينما بدا كحفرة عميقة. كان الفريدو يعرف طريقاً مختصراً. فعبر موقف السيارات، وشق طريقه عبر بستان من الأشجار المحطمة خلف بعض الأكواخ. رأيت الناس ينامون على الأرض، ولكن لا أستطيع الجزم ما إذا كانوا جرحى، أونائمين، أو حتى أمواتًا. سألته عن الجمهور. فقال:" ماذا قلت لك؟ أنت نادم على المجيء أليس كذلك؟"

قلت: "لا" وكنت أعني ذلك. أشعر الآن بالرضا. لا معنى من السفر بلا مجازفات كهذه. أمضيت الأمسية بطولها وأنا أتأمل ما رأيت، في محاولة لتذكر التفاصيل، وعرفت أنني لن أذهب إلى أية مباراة كرة قدم في أمريكا اللاتينية مرة أخرى.

لم تكن مباراة كرة القدم هي المناسبة الوحيدة في سان سلفادور تلك الأمسية. كان المعجبون يثيرون الشغب في الكاتدرائية في الملعب الوطني، كان رئيس أساقفة السلفادور يتلقى درجة الدكتوراة الفخرية من رئيس جامعة جورج تاون. وكان رئيس الأساقفة يعمد من وراء تعميم هذه المراسم إلى تحدي الحكومة، وتقديم خطبة يسوعية. كان ثمة عشرة آلاف شخص في الكاتدرائية، وقيل لي إنّ هذا الحشد مخيف بالقدر ذاته إن غضب. قبل عشر سنوات، كانت "حرب كرة القدم" التي تعرف أيضاً باسم "حرب المائة ساعة"، التي نشبت بين السلفادور وهندوراس- بدأت بالفريقين والمتفرجين المشاغبين، ثم انضم الجيشان الوطنيان. كان السبب يكمن في افتقار السلفادور إلى الأراضي. لقد تسلل السلفادوريون عبر الحدود إلى هندوراس، للزراعة، ووضع اليد، والعمل في مزارع الموز. كانوا يعملون بجهد، ولكن عندما أحاط الهندوراسيين بالخبر، حاولوا تقييد الدخول عبر الحدود مع السلفادور، وحاكموا واضعي اليد، وأعادوهم إلى بلادهم. وكما هو الحال في مثل هذه المشكلات، كانت هناك قصص فظيعة: اغتصاب، وقتل، وتعذيب. لكن لم ترق إلى مستوى الأعمال العدائية الكبرى حتى أقيمت مباريات كرة القدم المهمة استعداداً لكأس العالم دورة 1970. في يونيو 1969، وقعت أعمال عنف بعد مباراة السلفادور وهندوراس في تيغوسيغالبا، وأعيدت هذه المباراة بعد أسبوع في سان سلفادور. خلال أيام، بدأ الجيش السلفادوري هجماته المسلحة على هندوراس- وكانت شرارتها قد انطلقت من مباراة كرة القدم، إذ أخذت عدوانية المشجعين على محمل الجد. على الرغم من أنّ الحرب لم تزد على الأيام الأربعة إلا قليلاً، فقد قضى في نهايتها ألفا شخص ما بين جندي ومدني، معظمهم من الهندوراسيين.

قبل عام مضى، أقيمت انتخابات في السلفادور، وزّورت النتائج. وقعت أحداث عنف، وكان ثمة مشاهد جمهرة من النوع الذي رأيته في مباراة الكرة، ولكن هذه المرة في شوارع العاصمة. أطلق الرصاص على الطلاب، واعتُقل الناس. وهكذا وجدت السلفادور نفسها في دكتاتورية عسكرية أخرى. كانت هذه الواقعة وحشية على نحو خاص. السياسة موضوع قذر، لكني سأقول الآتي: يخبرك الناس أنَّ الدكتاتوريات ضرورية أحياناً لحفظ النظام، وأنّ هذا النوع من الحكم الموغل في المركزية مستقر ويمكن الاعتماد عليه. ولكن نادراً ما يكون الأمر كذلك. إنّه يكاد أن يكون بيروقرطياً ويفتقر للاستقامة والاستقرار ويتسم بالتقلّب والبربرية، ويثير ذات السمات في من يخضعون لهذا الحكم.

عندما عدت إلى فندقي، الذي لم يكن من الجودة بمكان، كتبت عن مباراة كرة القدم. أصابتني الكتابة بالأرق، وكان ثمة ضوضاء في الغرفة- أصوات كشط من السقف. فتحت كتاب بو، حكاية آرثر غوردون بيم، وشرعت في القراءة. كانت- منذ أول فصل- قصة مرعبة. يسافر بيم متهربا خلسة، فيُحاصر بين طوابق السفينة، بدون ماء ولا طعام، ويعاني من ترنح السفينة. كان كلبه معه. جن جنون الكلب وذهب إليه. كان بيم على مشارف الموت، ولم يُحرر من محبسه هذا إلا ليكتشف وجود تمرد على السفينة، وأنّ هناك عاصفة أخرى. كل هذا الوقت، وفي غرفتي الضيقة، كنت أسمع أصوات الكشط المزعجة. أطفأت المصباح، وخلدت للنوم، ورأيت حلماً مزعجاً: عاصفة، وعتمة، ورياح، وجرذان تخربش في الخزانة. أيقظني الحلم المزعج. تحسست حتى وصلت لمفتاح المصباح. وفي ضوئه، استطعت رؤية فتحة ما في السقف، فوق رأسي مباشرة، في حجم الربع[[31]](#footnote-31). لم تكن هناك من قبل. راقبتها لبضع دقائق، ثم ظهر زوج من الأسنان الصفر بينما كانتا تقضمان الحافة. لم أعد للنوم تلك الليلة.

**-9-**

**القطار المحلي إلى كوتوكو**

**---**

حتى السلفادوريون، بإخلاصهم لبلدهم الصغير، ووطنيتهم العنيفة، يعدّون كوتوكو حفرة. وأنت ستعرف عندما ترى نيكاراغوا عبر المياه، أنًّ نهاية الخط لن تكون بعيدة. هذه حقيقة ملحوظة. يتوقف القطار تماماً عند كوتوكو. وبعد ذاك، يأتي دور رحلة العبّارة التي تستمر ما بين ثماني إلى إحدى عشرة ساعة(يعتمد الأمر على المد والجزر) عبر خليج فونسيكا إلى نيكاراغوا. إن لم تكن ثمة ثورة هنود، أو تمرد فلاحين، أو حرب أهلية، ستكون قادراً على الوصول إلى نيكاراغوا براً، وإن كان ذلك **لمجرد** الحكم على مدى المبالغة المتهورة في النظرة الشائعة بأنّ نيكاراغوا هي أسوأ بقعة في العالم: الأشد حرارة، والأفقر، الأسوأ حكومة، بمناظرها المروعة، وقوانينها المتخلفة، وطعامها المقرف. لقد طمعت في التحقق من هذا. البلد غير المضياف، مثل رحلة قطار مزعجة، قد تضفي على حكاية المسافر نبرة بطولية. وعلى الرغم من أنني عانيت بعض المتاعب في رحلتي من المحطة الجنوبية إلى محطة سان سلفادور المركزية، إلا أنّها لم تخل في غالب الوقت من سلاسة. ولكن نيكاراغوا كانت صعبة إلى حد ما. كنت أفكر كثيراً في نيكاراغوا منذ أن قرأت قبل أشهر من مغادرة بوسطن، أنّ حرب الغوريلا( التي كانت ثورة هندية في جزء منها) قد امتدت من ماناغوا إلى القرى الصغيرة. وتساءلت لماذا بدت جميع تلك القرى كأنّها على مسار رحلتي عبر البلاد؟ كانت طريقتي في وضع مسار الرحلة في العادة لا تتضمن الصحف. لقد حصلت على أفضل ما يمكن من الخرائط، والكتيبات الإرشادية، وما استطعت الحصول عليه من جداول القطارات. حاولت تحديد الخطوط الحديدية التي يمكن الجمع بينها. لم اكترث للفنادق اهتمامي، افترضت أنَّ المدن تستحق الزيارة طالما حازت من الأهمية ما يكفي لإدراجها على الخارطة. (كانت بعض المفاجآت محتومة: أدرجت زكابا على معظم الخرائط. سانتا آنا لم تكن، ولكنها كانت اكتشافاً يغري المسافر ويشجعه).

لقد سمعت أنّ نيكاراغوا هي أفغانستان امريكا الوسطى، ولكن بمعزل عن هذه الصورة الغائمة، والحقيقة التأريخية بأنّ نيكاراغوا كانت في الفترة من 1855 إلى 1857 تُحكم من قبل رجل من تينسي، طوله خمسة أقدام، واسمه ويليام ووكر (قام بتغيير اللغة الرسمية إلى الإنجليزية، وأسس للعبودية، وخطط لإلحاق نيكاراغوا بالجنوب الأمريكي، أعدم هذا القزم في 1860).

كنت أعرف القليل عن البلد. كان يرزح تحت حكم آل سوموزا الهمجي لأربعين عاماً تقريباً- وكانت هذه معلومة عامة. ولكن حرب الغوريلا هذه؟ تضاربت تقارير الصحف- التي أعتمد عليها الآن- في تقييم جديتها. كنت أشتري الصحف من انحاء المكسيك، وغواتيمالا، والسلفادور، وحاولت اكتشاف ما يحدث في نيكاراغوا. سارت الأخبار دائماً كما يبدو من سيء إلى أسوأ. تهاجم الغوريلا قسم الشرطة، في أحد الأيام، تلاها أنَّ سوموزا يفرض حظر التجوّال. ثم الغوريلا تسطو على بنك (قمت بترجمة العناوين بحرص)وسوموزا يفرض السيطرة. قرأت في سانتا آنا الغوريلا تقتل عشرة. وفي سان سلفادور كان العنوان الرئيسي سوموزا يعتقل 200، والهنود يتقدمون. وقرأت أخيراً: هدوء صعب يسود في نيكاراغوا. ولكن قبيل مغادرة سان سلفادور مباشرة كان ثمة أخبار في لا برينسا تقول: الغوريلا تشتري أسلحة بقيمة 5مليون دولار من الولايات المتحدة. ظل الرئيس كارتر على الحياد تجاه قضية نيكاراغوا، وقد بدا أنّ الولايات المتحدة تأمل الإطاحة بسوموزا. كان هذا أملاً بريئاً، ولم يكن يفيدني بشيء. بنهاية فبراير، لم تكن الثورة قد هبت بعد، ولكن كان القتال ما يزال دائراً على نحو متقطع، وثمة تقارير عن مذابح، وكان سوموزا على سدة الحكم. بدا كما لو أنّه سيظل في منصبه لأربعين سنة أخرى، أو يورث ابنه مقاليد الحكم (أو أدوات التعذيب في حالة نيكاراغوا) في غالب الحال.

بدأت أشعر بالقلق حيال عبور نيكاراغوا. قررت أن أمضي إلى الحدود حيث أتحدث إلى الناس هناك. إن كانت الأخبار مازالت سيئة، سأوجه رحلتي إلى ما حولها.

السفر إلى كوتوكو بالقطار لاستطلاع نيكاراغوا كان مثل الذهاب إلى طبيب الأسنان على أمل أن تكون العيادة مغلقة، لأنَّ طبيب الأسنان يعاني من ألم شديد بالظهر. لم يحدث معي هذا في عيادة طبيب الأسنان، بل على حدود نيكاراغوا، هكذا كان رجائي.

قال السلفادوري في حاجزه الحدودي بجانب رصيف العبّارة: "لا يمكنك دخول نيكاراغوا".

هل كان ثمة مشهد أكثر وحلاً في كل العالم. احتمال أشد قتامة من خليج فونسيكا؟

" الحدود مغلقة. سيعيدك الجنود."

كان هذا أفضل من وقف تنفيذ الإعدام. أُعفيت من أي مسؤولية للسفر عبر نيكاراغوا.

عدت إلى سان سلفادور. غيرت غرفة فندقي إلى أخرى كنت متأكداً من خلوها من الجرذان. لكن لم يكن لديَّ ما أفعله في سان سلفادور بعد. قدمت محاضرة حول الموضوع الذي خطر لي على القطار المتجه إلى تابشولا: كتب مغمورة لكتّاب أمريكيين. ويلسون المغفل، قاموس الشيطان، والنخيل البريّ. نظرت إلى الجامعة، ولم يكن ثمة من بوسعه تفسير وجود جدارية لماركس، وإنجلز، ولينين في الجامعة في ظل هذه الديكتاتورية اليمينية. كان لديَّ يوم آخر، لذلك قررت أن استقل قطار كوتوكو مرة أخرى ولكن هذه المرة لأقف على الطريق. علمت من رحلتي السابقة أنّ تلك المسافة قبل سان ميغيل، والتي تعادل ثلاثة أرباع الطريق إلى كوتوكو، ما عادت الرحلة تثير اهتمامي.

وكما حدث من قبل، كانت هناك عربتا ركاب، ولا يزيد عدد الركاب على الخمسة وعشرين شخصاً. بينما كنا ننتظر دخول القطار إلى الرصيف، سألت البعض عن وجهتهم. قالوا سان فنسنت. كان يوم السوق في سان فنسنت. أكانت سان فنسنت جميلة؟ قالوا: أوه للغاية. عليه قررت أنْ أنزل من القطار في سان فنسنت. لم يشبه أيًا من القطارات الأخرى. كانت القطارات السلفادورية معطلة مثل الغواتيمالية، ولكن ثمة اختلافات. ربما أعيدت للحياة من قبل شركة الفاكهة ذاتها، لكنها تطورت على نحو مختلف. وهذا يجوز في الخطوط العالمية، لم أرَ قط قطارين متشابهين ولو قليلاً. إل خاروشو كان يختلف عن غولدن بلوبايب بقدر اختلاف الاسم. إنّه اختلاف يتجاوز الاختلافات القومية، تأخذ القطارات شخصية مساراتها. يتضح تفرد القطار المحلي إلى كوتوكو منذ أن تصعد على متنه. هنا، في المدخل، كان الرجل الحزين الأسمر الضئيل ذاته الذي حياني من القاطرة. كان يرتدي قميصه الرياضي، ويحمل مسدسه في قرابه، وبضع رصاصات في حزام الذخيرة. أملت ألا يُستفز لدرجة إطلاقها. لأني كنت متأكداً أنّها قد تنفجر في وجهه إن فعل، وكنت لأُقتل لكن ليس بالرصاصات إنما بالشظايا.

ثقب الرجل تذكرتي، وزحف القطار إلى الرصيف، فصعدت. كانت جميع المقاعد ممزقة. وقد كانت محشوة بشعر الحصان، الاتكاء على الظهر مؤلم. "

هذه المقاعد في حال مزرية حقاً." قال الرجل السلفادوري في الجهة الأخرى من الممر معتذراً. ركل المقعد الذي أمامه ومضى في حديثه: " لكنها قوية- انظر، المقاعد ذاتها جيدة. ولكنها ممزقة ومتسخة. عليهم إصلاحها."

قلت: " لم لا يصلحونها؟"

"لأنّ الجميع يستقل الحافلة."

" إن أصلحوها لاستقلّ الجميع القطار."

قال:" صحيح، ولكن عندها سيكون القطار مزدحماً بكل العالم."

اتفقت معه، ليس لأني أعتقد بما قاله، ولكن لأنني سئمت من محاضرة الناس حول الفوضى. كانت أمريكا الوسطى عبارة عن أسلاك شائكة، كما لو أنّ نيو إنجلاند قد تحولت إلى أطلال، وأماكن مثل جزيرة رودس، وكونيكتيكت صارت تدار من قبل جنرالات مهووسين، ورجال شرطة فاسدين، كما لو أنهم تحولوا إلى طغاة بلا أخلاق، وصارت بيوتًا جبرية للقومية. لا عجب في رؤيتها كدول متدهورة، وأباطرة مثل فانديربيلت، وشركات رأسمالية مثل شركة الفاكهة الأمريكية استولت عليها، وحاولت إدارتها.

لابد أنّ ذلك كان سهلا بما يكفي. لكن الأباطرة، والشركات الكبرى لم تتمتع بالأخلاق، أو التعاطف، أو حس الشرعية لتساعد هذه الأماكن على النجاح: بل كانوا يتصرفون من منطلق الاحتقار، والمصلحة الشخصية، لقد كانوا أدنى من المستعمرين- كانوا مبتزين، وانتجوا مبتزين.

بلا قانون، أصبحت البلدان غريبة بلا إنصاف، وعنيفة لحدٍ بشع. يستحق السلفادوريون الهدوء، ولكنه ليس بالبلد الهاديء. كرة القدم، أبسط رياضة في العالم، أصبحت في هذا المكان مشاجرة عامة للإحباط الضارب حيث المتفرجين هم مركز الاهتمام. لِمَ لا ينبغي أن نحظى ببعض اللهو؟ نحن نعيش كالكلاب. وقد يجيبون. كرة القدم لم تكن كرة قدم. والكنيسة لم تكن كنيسة، وهذا القطار لم يشبه أي قطار صعدت على متنه قط. وعندما يصل إلى هذه الحال، قد تأخذ أية شركة قطارات التأمين من الأضرار، وتبدأ من جديد، كما يفعلون في الهند. ولكن هذه هي السلفادور وليست الهند. في الحقيقة كان الناس في غرب البنغال ليضحكوا على كومة الخردة هذه، والتي تدل على شيء ما. ولكن أسوأ القطارات تمر عبر أفضل المناظر حقاً. أفضل القطارات- قطارات الطلقة في اليابان، القطار الأزرق من باريس إلى كانيه، الاسكتلندي الطائر- هذه أفعوانيات باهظة الثمن، لا أكثر، إذ تذهب السرعة بمتعة الرحلة.

لكن القطار المحلي إلى كوتوكو هو التهادي عبر المشاهد الرائعة. إن لم يضطر المرء إلى الهرب على يد مثقّب التذاكر ذي المسدس، أو العربات القذرة، أو المقاعد المؤلمة، فسيحظى بأعظم مناظر جنوب ماساتشوسيتس. والقطار يسير ببطء لدرجة أنّه يترك انطباعاً بأنّ السلفادور في كبر حجم تكساس. إنّه أثر المحرك الضعيف، وجميع الوقفات: ثلاث ساعات ونصف الساعة للذهاب إلى سان فنسنت على بعد أربعين ميلاً. وتظهر المناظر بعد برهة من الوقت. بدا لي السلفادور بلداً منظماً، وخصباً، ومزدهراً. وهو كذلك في الغرب. ولكن شرق العاصمة، على الجانب الآخر من القضبان- هنا، يحلّ الجفاف.

يبدأ من حيث تنتهي مكاتب المحطة في مقلع على حدود البلدة. ولم يكن ثمة شيء سوى الحجر على مدار ساعة كاملة، بينما كان القطار يسير. رعب العصر بالأكواخ الصغيرة: الطين والبامبو، والكرتون والعصي، والصفيح، والطين، وعلى الأسقف كل نوع من النفايات لتثبيت الأشياء، بما أنّ المرء لا يستطيع طرق المسامير على الطين أو الكرتون. كانت الأسقف مزيجًا مدهشًا من الأشياء المحطمة. انظر إلى هذه: آلة خياطة صدئة، موقد حديدي مفكك، ستة إطارات، طوب، علب قصدير، وصخور، وعلى ذاك، خشب مشقوق، وغصن شجرة، وبعض الحجارة. كانت الأكواخ تميل على بعضها البعض وقد دُعمت على الجوانب المنحدرة من المقلع، وضغطت على القضبان، بلا زينة، سوى صورة المسيح، أو أحد القديسين، وليس ثمة ألوان سوى الأسمال المتدلية لتجف على شعب ثلاثية من جذوع الأشجار. إنه بلد يزرع حبوب القهوة. ثمن القهوة باهظ. ولكن هؤلاء الناس يعيشون حقاً مثل الكلاب، والكلاب نفسها تبدو كأنّها تتراجع في تطورها لتصبح كائنات خائفة لا تنبح بل تعرج، وتتسلل، وتدس أنوفها في الشجيرات المتربة. تحولت الكلاب إلى أنواع من جامعات الروث، أو مثل نوع خنزير الأرض البائس على وجه التحديد.

والآن يتحرك القطار ببطء شديد، وكان خالياً ومهملاً لحد أنّ أطفال الحي العشوائي صعدوا على متنه، وصرخوا، وركضوا على طول الممرات، يقفزون من مقعد إلى آخر. خرجوا قافزين عند امتداد الحي العشوائي، على المنعطف التالي. وإن ظل أطفال الحي العشوائي على القطار لعشر دقائق أخرى كانوا سيروا الريف الممتد والأشجار والزهور البرية، والطيور المغردة. ولكن الأطفال لا يتسكعون في الريف. ربما كان هذا ممنوعاً، أو ربما كانوا يتبعون غريزة ساكني العشوائيات، والتي تتركز على السعي لحماية الحي العشوائي وألا يتجاوزوا حدوده. إنّهم في العالم الخارجي معرضون لرجال الشرطة، وملّاك الأراضي، ومفتشي الضرائب، ويسهل التعرّف عليهم في أسمالهم البالية، وإهانتهم أيضاً. عليه في ساعات النهار، يكون الحي العشوائي يعجّ بالناس والحركة، وفي أمريكا الوسطى، دائمًا ما يكون الحد الفاصل جدولاً أو مجرى مائياً، أو خط قطار. وبعد ذلك الحد الطبيعي مباشرة، ينتهي الحي الفقير ويبدأ الدغل أو المرعى. هنا ينتهي الحي الفقير بمزارع حبوب القهوة، ويجوز افتراض أنّ هؤلاء الأشخاص البؤساء الذين رأيتهم في وقت سابق من جامعي البنّ. مما عرفته لاحقاً، أنَّ أجورهم لم تكن ذات صلة بثمن القهوة. تسلقنا بعض التلال المنخفضة، ثم مررنا بحافة تلّ أكثر ارتفاعاً. نظرت عبر الوادي ورأيت بحيرة- بحيرة إلوبانغو- وبركان تشينشونتيبيك. ومن هذه المرتفعات إلى سان فنسنت، حيث قصرت المشاهد بسبب انحدار القطار باتجاه المنخفضات الشرقية، زاد حجم كل من البحيرة والبِرَك، وتغيرت ألوانها بينما كانت الشمس تسير من ورائهما. أول لمحة كانت غاية في الروعة، ولكن البحيرة تضخمت، وارتفع البركان، وصارا على مسافة أميال طويلة أجمل فأجمل حتى بلغا درجة لا تصدق من البهاء. تغير لون مياه البحيرة بينما كان القطار يصعد إلى سلسلته البركانية الخاصة، وينتقل عبر القمم، ماراً بالجانب الشمالي لهذه البحيرة. كانت هناك جزيرة على البحيرة. وقد ظهرت في عام 1880، عندما هبط مستوى المياه فجأة، وما زالت هناك، مثل سفينة أميرال منزوعة الصواري في هذا البحر المظلم. وبين البحيرة والقطار هضاب منخفضة ذات مزارع خضراء، ومنحدر طويل من قمم الأشجار. الأقرب إلى القطار كانت بساتين الموز والبرتقال، وتجمعات طويلة من سيقان البامبو الأصفر المتأرجحة. النباتات القريبة كانت باهتة ومتربة، ولكن على البعد اكتست بخضرة زمردية، وبدت كثيفة وارفة.

صارت البحيرة الآن وردية اللون، عليها وشاح من الأقراص الزرق، والآن سوداء، تتخللها أخاديد من البياض الرغوي، ثم تخضبت بلون الورد، واستمدت شواطئها لونها من أشد الأشجار اخضراراً. لقد كانت أكثر من مجرد مسطح مائي بالنسبة للهنود الذين يعيشون إلى جانبها، والذين كان لهم فيها غسل، وصيد ورواء.

يتكرر في الكتيبات الارشادية تزوير أهميتها للسياح السذج. يقول أحد هذه الكتيبات إنّ الهنود قبيل الغزو الاسباني "اعتادوا استرضاء آلهة الحصاد بإغراق أربع عذارى كل عام." حسناً، ربما كان هذا صحيحاً، وهو يقدم دليلا على الطرفة التي تقول إنّ السبب في التخلي عن ذاك الطقس هو عدم وجود الضحايا الملائمة. ولكن التضحية البشرية استمرت حتى القرن السابق في هذه البحيرة، ولم تكن تمت إلى آلهة الحصاد بأية علاقة. كان إجراءً معقدًا، ذا مغزى. كان ثمة شاهد اسمه دون كاميلو غالفر. كان مفتشاً عاماً في سان سلفادور في ستينيات القرن التاسع عشر. وفي 1880 وصف ما اكتشفه بشأن الممارسات المتعطشة للدماء للهنود الذين عاشوا بالقرب من بحيرة إلوبانغو، فكتب قائلاً: " يقول أهل المدن المحيطة بالبحيرة، الكونجوتيبيك، والتيكساكوانغو، والتيبيزونتس، إنّه عندما تأتي الزلازل من البحيرة، والتي يدل عليها اختفاء الأسماك، فهي اشارة على أنّ الوحش سيد هذه المناطق الذي يسكن أعماق البحيرة كان يأكل الأسماك."

ليس ربّ حصاد، بل وحش، وكان خوف الهنود هو إن لم يُعط هذا المسخ "أطيب وألذ غذاء يليق بقوته وشراهته" فسيأكل جميع أسماك البحيرة، " كما يأكل الرجال الفواكه، للانتعاش وتهدئة الجوع."

دمدمت البحيرة ومعها البركان، وبدأ السمك يختفي، الهنود " اجتمع المتضررون بشدة من مجاعة الاسماك بأمر زعمائهم."

جاء العرّافون في أزيائهم الرسمية، وقلانسهم وأشاروا على الهنود بما عليهم فعله: توجب عليهم إلقاء الزهور والفواكه في البحيرة. كان هذا ينجح أحياناً: وتوقفت الهزّات. لكن إن استمرت، يجتمع الهنود مرة أخرى، ويشار عليهم بإلقاء الحيوانات، ويحبّذ في هذه الحالة السناجب، والغُرَير، والأرماديلو، وتلك المسماة تالتوساس[[32]](#footnote-32). ينبغي أن تؤسر الحيوانات حية، وتُلقى في الماء وهي لا تزال ترفس. وإن عثر على هندي وهو يرمي بحيوان ميت في البحيرة سيواجه عقوبة شديدة، خنقاً بأغصان الكرمة لأنّ الوحش السيد قد يغضب لإطعامه لحماً ميتاً. وكانت دراسة مستوى الماء تستغرق أياماً، وأعداد الأسماك، هي علامات الزلازل. إن ظلت العلامات سيئة يتصرف "السحرة". يأخذون فتاة يتراوح عمرها بين السادسة والتاسعة، وتزين بالزهور" ويأخذها السحرة في منتصف الليل إلى منتصف البحيرة، ويلقوا بها هناك، مربوطة اليدين والقدمين. ومثبت على عنقها حجر. في اليوم التالي، إن ظهرت الطفلة على سطح الماء، واستمرت الهزّات تُلقى في البحيرة ضحية ثانية في مراسم مماثلة. يستأنف دون كاميلو " في الأعوام من 1861 و 1862عندما زرت هذه المدن، أخبروني أنّهم حافظوا على هذه العادة البربرية لمنع موت السمك." إذن كان هناك سبب، ولم يتبجح به الهنود. في الحقيقة، أضاف دون كاميلو أنّهم تحدثوا إليه: "بتحفظ شديد".

كانت البحيرة قد اكتست زرقة منحوسة، تبعها ضباب رمادي كالأشباح، وما زال القطار يصعد. ليس ثمة وادٍ واحد بالأسفل بل خمسون، ومشهد لقمم خضراء. كان من الصعب تصديق أنّ التلال التي تربض على مسافة بعيدة في الأسفل قد تكون مرتفعة، ولكن القطار كان يعبر الجرف من علو شاهق، وكان درساً في المقياس لمقارنة التلال ببركان شينشونتيبيك. كنا قد اقتربنا منه، واستمر حجمه في الزيادة، وبدا الآن كالماموث، وأسود، يستحيل تسلقه. لكنه ظل في المدى، في ذلك المناخ الآخر الوريف. عبر القطار سلسلة الجبال الأشد حرارة. انتشر الغبار في العربات. نهضت، وسِرتُ من عربة إلى أخرى لأمرّن ساقيّ، وعندما عدت أدراجي تعرفت على مقعدي من لونه: كانت طبقة الغبار به أرق من المقاعد الأخرى، غطيت بذلك المسحوق البنّي. لم يكن للعربات أبواب، ولا زجاج على النوافذ- كانت مفتوحة على مصاريعها، وقد ثارت بها عاصفة رملية هرب منها الحمّالون والمحصلّون، وجميع طاقم القطار ولاذوا بسطوح العربات حيث لا يصل إليهم الغبار. جلسوا وهم يمسكون بالأنابيب والعجلات على السطح، أو يقفون مباعدين بين أرجلهم في وسط العربة. كان القطار المتجه إلى زكابا مترباً، ولكن لم تكن ثمة ريح في وادي موتاغوا. هنا، كنا على مستوى مرتفع، وقد اجتمعت حركة القطار بالرياح الجبلية الشديدة لخلق عاصفة هوجاء عارمة، ألقت على القطار حجاباً بنياً يستحيل معه رؤية أي شيء لفترات طويلة. من المستحيل رؤية أي شيء لفترات طويلة.

تقرفص الركاب، وأحنوا رؤوسهم، وغطوا وجوههم بقمصانهم. كان القطار يصدر دوياً وطرقاً صاخبين، ومن الصعب التقاط نفس، وأكثر من كل شيء آخر، كان الأمر كما لو كنا نركض عبر نفق صغير متسخ قبل أن ينهار. وخارج قرية ميكابا، سار القطار عبر حوض من الشطآن الرملية شديدة الانحدار. وقد ألصقت فتاة صبية ربما في الثامنة من العمر نفسها على الشاطيء وتناثر الغبار حولها. كانت تمسك بصغير ماعز بين ذراعيها حتى تمنعه من الركض خوفاً ناحية القضبان، وبدت في ضيق من الغبار والضجيج، وعلى وجهها تعبير مخنوق معذّب. وعندما مرت العاصفة الرملية، وعادت السماء زرقاء رحبة، كان صرير عجلات القطار قد ضاع في الهواء الخالي، وبدونا كما لو كنا في طائرة على ارتفاع منخفض، تنزلق بارتفاع الأشجار نحو الوديان بالأسفل. كانت خدعة المنظر، طريقة اتزان القطار على الجرف الضيق، تعطي فرصة للنظر إلى كل شيء سوى قضبانه. وعلى الرغم من أنَّ القطار كان بطيئاً من قبل إلا أنّه استجمع سرعته على هذه الهضبة، ولكن القعقعة لم تكن واضحة. انطلقت هذه القاطرة العتيقة وعرباتها في الهواء مثل سكة حديد ارتفعت لتسافر عبر السماء. لا يحظى المرء في كثير من الأحيان بمشهد كهذا في قطار، وقد كان جميلاً جدا حتى إنني نسيت الحرارة والغبار، والمقاعد المحطمة، وابتهجت بمنظر التلال بالأسفل، والتلال الأقرب بما فيها من أشجار البنّ وسيقان البامبو.

على مدى نصف الساعة التالية من هذا الهبوط، كنا في رحلة غوص على سكة حديد هوائية عبر تلال خضرة محضة. تغير المنظر، ظلت القرى كما هي. وتقول لنفسك: لقد كنت هنا من قبل. القرية صغيرة، وتحمل اسم قديس. كانت المحطة عبارة عن مظلة مفتوحة من ثلاثة جوانب، وبقربها أكوام من قشور البرتقال، وقشور جوز الهند المفتوحة بشعرها الليفي، ونفايات الورق والقوارير. وتلك القطرات الرمادية من مياه الصرف التي تتجمع في برك خضراء صفراء، وتلك المرأة تحمل على رأسها سلة، وفي السلة موز، والذباب على الموز، وتلك الكومة من أربطة الخطوط الحديدية، ومصفوفة من براميل مزيتة، بهتت علامة الكوكا كولا إلى اللون الوردي، والأطفال العشرة المتسخون، والبنت الصغيرة التي تحمل الطفل العاري على ظهرها، والولد حامل المذياع الطنان في حجم علبة الأحذية، وأشجار الموز، والأكواخ الأربعة، والكلب الأعرج، والخنزير الباكي، والرجل الناعس يرتاح رأسه على كتفه الأيسر، وحافة قبعته محطمة. لقد كنت هنا، لقد رأيت الدرب المطروق والدخان، والشمس فوق الأشجار في تلك الزاوية الحارقة تماماً، والعربة المحطمة المرتكزة على عجلاتها المعدنية، والدجاجات تنقر الحصى من المظلة، والوجه وراء الستار البالي في نافذة الكوخ، وناظر المحطة في قميصه ذي الأكمام، وبنطاله القاتم، يقف منتبهاً في الشمس حاملاً سجله، وأوراق أشجار القرية سميكة جداً بذلك الغبار لدرجة أنّها صارت كالميتة. يبدو ذلك مألوفاً جداً حتى إنك بدأت تتساءل ما إذا كنت تسافر في دائرة صغيرة، مغادراً في الصباح وتصل كل يوم في حر الظهيرة لهذه القرية ذاتها، بخنزيرها وأهلها وأشجارها الذاوية، رؤيا التدهور التي تتكرر مثل حلم يتطلب أن تعود مراراً وتكراراً إلى المشهد ذاته، في شبهه سخرية عجيبة. هل يمكن أن تكون بعد أسابيع من السفر بالقطار أنك لم تذهب لأبعد من هذا وقد عدت فقط مرة أخرى إلى هذا المكان القذر؟ لا، على الرغم من أنك قد رأيت مئات مثله منذ عبور ريو غراندي. أنت لم تأت إلى هنا من قبل. وعندما تنطلق صافرة القطار وتنزل، لأنك رأيت الكثير من المغادرات كهذه، لا تترك القرية انطباعاً. يثير القطار المتسارع القطار، وتختفي تحت الأكواخ. ولكن في مكان ما من الذاكرة، تتجمع هذه الأماكن، حتى تصلي من أجل شيء مختلف، قليل من أمل لتمنحها الأمل. لمعرفة أنّ فقر المجتمع ليس رؤية ما في قلبه، ولكن من الصعب جداً النظر لما وراء هذه الأشياء المثيرة للشفقة.

صعدنا سلسلة هضاب أخرى، وألهاني المضيق الواقع إلى الجنوب. نمت أشجار طويلة ملتوية تحيط بها أحشاء الكروم الرفيعة على المنحدرات وجروف المضيق، كبداية غابة. الأرض كانت أشد انحداراً مما يلائم المحاصيل، وأكثر انحداراً حتى لبناء الأكواخ أو تمهيد الدروب. كانت برية وغير مأهولة: كانت الطيور تحلّق فيها على جانبي المضيق، ولكنها بدت أشد خوفاً من أن تجازف بالطيران عبره. كانت تصفّر لدى رؤية القطار. بحثت عن المزيد، ملت من خارج النافذة، ولكن صار كل شيء أسودَ فجأة. دخلنا نفقاً. بدأ الركّاب يصرخون. دائمًا ما كان مواطنو أمريكا الوسطى يصرخون في الأنفاق. ولكني لم أكن أعرف ما إذا كانوا يصرخون من الحماسة أم من الرعب. لم تكن بعربات هذا القطار مصابيح، ورافقت ذاك الظلام زخة من الغبار تكثفت بينما كان القطار يتخبط. شعرت بالغبار يعصف بوجهي، وشعرت به في شعري، كما لو أنني كنت في حفرة وكان التراب يُهال فوقي. فعلت ما رأيت الركاب يفعلونه مسبقاً: دفنت وجهي في قميصي وكنت أتنفس من وراء القماش. ظللنا في النفق لخمس دقائق، وهو وقت طويل لإمضائه في غصة عمياء، وسماع صراخ الناس. ولكن لم يصرخ الجميع. كانت أمامي سيدة عجوز أخبرتني أنّها ذاهبة إلى سان فنسنت لبيع صندوق برتقالها. وقد نامت قبل ساعة. كانت تنام عندما دخلنا النفق، وكانت تنام عندما غادرناه. كان رأسها ملقى إلى الخلف وفمها مفتوحاً، لم تغير وضعها.

انبرى القطار خارج النفق وضاعت جلبته في ضوء الشمس والهواء الصافي. كنا نتأرجح على جانب الجبل، وصوت المحرك المكتوم-كتمته موجة الهواء- كان مثل هدوء مهيب على مدى عشرة أميال من وادي جيبوا، الذي بدأ عند مدخل النفق، وهبط بمستوى منحدر تزلج قبل أن يرتفع لدى سفح البركان. وكان البركان أغمق خضرة من المنظر الخارجي الذي انبثق منه، وكان مخططاً كرسم أسد من الضوء والظل، شكلت بعض هذه الخطوط أكتافه، وبعضها مخالبه الأمامية، وبعضٌ الخاصرة مثل العضلات، والأرباع الخلفية. ولكن كان به نقش، خطر لي أن أنظر إليه وبدا كما لو أنني أسرع باتجاهه على القطار، مثل أبي الهول مقطوع الرأس، أخضر وبارز، كما لو أنّ رأسه تدحرج بعيداً تاركاً جسم الأسد خاصته مصوناً كاملاً. كان من السهل فهم كيف أنَّ الهنود آمنوا بأنّ سادةً من الوحوش يسكنوا أراضيهم. ليس للجبال فقط مناحٍ متوحشة- بل أشكال حيوانات، ومخالب العمالقة الدبقة، والعفاريت- ولكنها تدمدم، وتهدر وترتعد وتصرخ، وتهز أكواخ الهنود الهشة، لقد حرقوا الهنود أحياء ودفنوهم في الرماد وجعلوا السمك يختفي وأكلوا أطفالهم. وغرائب المشهد هذه كانت ما تزال مصدراً للخوف. طوال الدقائق الأربعين التالية كنا نتدحرج تحت وادي الجبل ناحية ظلال البركان. ولكن ببطء كنا نتحرك، وبدا الأمر كما لو كنا عالقين في سرعة لدى حافة الوادي والبركان كان يرتفع وينثني، كاشفاً عن ظهر الأسد الرقيق، ويطول ربما يتمدد ليعيد انفجاره حتى توقعت في النهاية أن يثور ويدوي. اختفى-كل شيء سوى هذين التلين اللذين كانا صلبين كما القوائم الأمامية. كنا في سان فنسنت، وهي المدينة الأقرب، والأعمق بين القائمتين الأماميتين. نزل معظم الركاب هنا، متعثرين بين القضبان. ليس ثمة من يجمع التذاكر هنا. كان الموظفون يراقبون من أماكنهم تحت ظلال الأشجار. انطلقت الصافرة، وترنح القطار في طريقه إلى كوتوكو. ثم استقر الغبار وسكنت معه البلدة الريفية سكوناً حزيناً في تلك الظهيرة القائظ. سألت عن الطريق إلى السوق. أعطاني الصبي وصفاً بسيطًا: اتبع هذا الطريق. بدا متفاجئاً من حاجة أي شخص للإرشادات في هذا المكان الصغير. ولكن محطة القطار لم تكن في مركز المدينة، بل كانت على بعد نصف ميل في طريق البلدة الرئيسي، المتجه من المحطة إلى المركز التجاري. معظم منازل سان فنسنت تقع على الشارع. ويبدأ الطريق رملياً، ثم يتحول إلى حجري، ومن ثم مرصوفاً بالحصى، وخرسانياً بالقرب من المركز التجاري. السوق، الذي سمعت أنّه مثير للاهتمام، كان مثل بازار شرقي-سقائف منصوبة على عدد من المروج الصغيرة. وداخل كل خيمة كومة من الفواكه أو الخضروات، أو الحيوانات الميتة المتدلية من مشانق مؤقتة، أو صناديق أقلام الرصاص، أو أمشاط الجيب.

وكان جميع الناس في كل قسم معين يبيعون سلعاً متشابهة: الفواكه، أو الخضر، أو اللحم، أو الأغراض المنزلية، وعلى البعد كان ثمة قسم تفوح منه رائحة الأسماك الفاسدة. اشتريت زجاجة مياه غازية، ولاحظت ألا أحد ينادي على أي شيء. تجمع الباعة الجوّالة في مجموعات- الرجال هنا، والنساء هناك- ويتحدثون بودية. في طرف السوق كان ثمة ميدان، ومقابل الميدان كنيسة سان فنسنت. إنّها واحدة من أقدم الكنائس في أمريكا الوسطى. وتسمى إل بيلار. شيدها الأسبان في هذه البلدة النائية، ولم تخضع لأية عمليات ترميم، ولم تحتج لذلك حتى. لقد أقيمت لتصمد في وجه حصار الوثنية ودمار الزلازل. وقد نجت منهما جميعاً، ما عدا بعض النوافذ المحطمة، ولا يبدو عليها إلا القليل من علامات البلى أو القدم. أسوارها بسمك ثلاثة أقدام، وأعمدتها- التي يبلغ محيطها اثني عشر قدماً- عبارة عن ركائز منخفضة عريضة بسمك أعمدة الكاتدرائيات. ولكن إل بيلار أكبر قليلاً من أن تكون معبداً. إنّه شكل الأضرحة التي رأيتها في ريف غواتيمالا، بيضاء مستديرة، وبها قباب كالمساجد، وزخارف المحتلين التي أضفاها الإسبان على كنائسهم الريفية، ولكن تجصيصها لن يخفي مظهرها العدواني، ولا زجاج نوافذها الملطخ، أو الصلبان التي تحول دون أن تبدو كما كانت دائماً- قلعة. في مطلع القرن التاسع عشر، نشبت مجموعة من حروب الهنود في هذا الجزء من أمريكا الوسطى. استطاع الهنود بغلبة أعدادهم، وشراستهم هزيمة الإسبان في مناطق معينة، وتأسيس معاقل هندية، وممالك صغيرة في حدود المستعمرة الاسبانية.

ومن تلك الأماكن قاموا بغزو المدن الاسبانية وأرهبوا السكان من وقت لآخر. وخلال ثلاثينات القرن التاسع عشر، دارت معارك، كانت أكبر أعداد الهنود بقيادة زعيم، أغوستينو أكويناس- كان مسيحيا- أتت به شجاعته هنا إلى إل بيلار في سان فنسنت. وكإهانة للإسبان، هرع أكويناس إلى إل بيلار وانتزع التاج من تمثال القديس جوزيف. ووضعه على رأسه، معلناً الحرب على الإسبان. ثم خرج إلى الجبال، وبسيطرته على منطقة كبيرة مع مواطنيه الهنود، خاض إحدى حروب الغوريلا. لم تبد الكنيسة مختلفة جداً عما كانت عليه عندما نعق بها أكويناس ودنسها. أقواسها ثقيلة، رخامها ثابت، والمذبح الخشبي المنقوش أغمق قليلاً، وفي تصميمها الداخلي ما يشبه مقبرة ضيقة. ربما كانت هي أكثرالمباني قدسية في المدينة، وبالتأكيد هي أقواها. وبلا شك اشتهرت بكونها حصناً. كانت هناك إحدى عشرة سيدة راكعات يصلين في المقاعد الأمامية. والحرارة في الكنيسة معتدلة، لذلك تخذت مقعدًا في الخلف وحاولت رؤية تمثال القديس جوزيف. صدرت من الرؤوس الأحد عشر المتسحة بالسواد همهمة الصلاة الدؤوب ذاتها، كانت طبخاً على نار هادئة، أصوات منخفضة مثل حساء سلفادوري سميك القوام يغمغم في قدر، إيقاع الفقاعات هو نفسه إيقاع صيغة الصلاة. كنَّ مثل الأشباح، صف من العجائز في زي أسود، يهمهن بصلوات مكتومة في الكنيسة المظلمة، وتصنع أشعة الشمس المتسربة من بين الثغور في زجاج النوافذ الملطخ أعمدة من النور بدت كأنّها تخترق الجدران، وكانت هناك رائحة شمع محروق، وقد رفرفت ألسنة لهب الشمعة في رعشة مستمرة، مثل أصوات هؤلاء السيدات المسنّات.

داخل إل بيلار، ربما كان عام 1831، وهؤلاء زوجات وأمهات الجنود الإسبان يصلين من أجل الخلاص من هجمات الهنود المحمومة. صدر رنين جرس من الموهف**[[33]](#footnote-33)**. جلست باحتشام وخشوع، مستقيم الظهر، في استجابة غريزية. كانت هذه هي العادة: لم أستطع دخول الكنيسة بدون أن أركع، وأغمس أصابعي في جرن الماء المقدس.

خطا كاهن نحو حاجز المذبح، يتبعه مساعدان. رفع الكاهن ذراعيه، وبتلك الإيماءة، اكتسى بذاك الألق المسرحي لمدير حفلات نادي ليلي- ولكن ربما كان هذا من وسامته، والمساعد المتقن تصفيف شعره يبدو عالقاً في لطفه اللاهوتي. لقد كان يصلي لكن بتهذيب، إسباني ليس لاتينياً، ثم مد إحدى ذراعيه تجاه ركن الكنيسة الذي كان متوارياً عني. قام بحركة صغيرة من رسغه، تلويحة بكفه، ثم بدأت الموسيقى. لم تكن موسيقى نمطية. كان هناك زوج من آلات الغيتار الكهربائي، وكلارنيت، وجلاجل، ومجموعة كاملة من الطبول- حالما بدأت العزف، غيرت موقعي حتى أستطيع مشاهدة الموسيقيين. كانت النوتة الحزينة القاسية لموسيقى البوب النشاز لدرجة أنني كنت أتفاداها لأيام، النعيق، والخبط الذي سمعته في البداية يصدر من المكسيك بينما كنت أقف على ضفة النهر العليا في لاريدو. ومذاك- لم أستطع إبعادها عن مرمى مسامعي إلا في ما ندر. كيف أصفها؟ كان مع أنين الغيثار إيقاع غير منسجم، ومع كل دقة ما يشبه تكسّر الفخار على الأرض، هزّ فتاة وصبي الجلاجل وغنيا- وكانت هذه قطة تصيح في محاولة للتناغم، ولكن لم تبلغ حتى نغمة خربشة مجنونة لسرب من الجراد. كانا يغنيان ترنيمة بالطبع. في مكان يجسّد فيه المسيح كشاب لاتيني غاية في الوسامة، بعضلات قوية، وعينين زرقاوين، وشعر مملس، كان الدين نوعاً من الحب. في بعض طوائف الكاثوليك، وعلى نحو متكرر في أمريكا الإسبانية، صارت الصلاة حبّا مع المسيح. إنّه ليس ربّا فظيعاً، ولا مدمراً، ولا بارداً ولا زاهداً منتقماً، إنّه الأمير، والشخصية الرجولية المطلقة أيضًا.

كانت الترنيمة أغنية حب، ولكنها أسبانو أمريكية جداً، تضج بعاطفة شديدة، وكلمة الحب تتكرر في كل بيت. وقد كانت عالية الصوت جداً. إنّها عبادة، ولكن ليس ثمة فرق جوهري بين ما كان يدور هنا في هذه الكنيسة العتيقة وما قد يسمعه المرء من الفونوغراف في آخر الشارع بالحانة الأمريكية.

لقد جلبت الكنيسة للناس. هي لم تجعل الناس أكثر تقوى، بالكاد رأوا فيها فرصة للترفيه عن أنفسهم، وطرد الملل عن الخدمة. القداس، أو صلوات الأمسيات تلك، كانت مناسبة للتركيز الذهني على الصلاة، وحولتها هذه الموسيقى إلى تسلية.

بدت الموسيقى من هذا النوع الصاخب خاصةً مهمة في أمريكا الإسبانية، لأنّها تحول دون التفكير مطلقاً. الأبله صاحب المذياع المصغّر في القطار، وفتية القرية المجتمعون حول صندوق الناطق، والرجل في سانتا آنا، الذي جلب آلة التسجيل خاصته إلى مائدة الإفطار وظل يبحلق في سماعتها المكبرة، يهدف كلُّ من هزّ الأرجل وعضّ الأصابع، ومصَّ الأسنان إلى أمر واحد- نشوة ذاتية لمن كان يعيش في مكان حيث الكحول غالية، والمخدرات ممنوعة. إنّه الصمم وضعف الذاكرة، ليس احتفاء بشيء سوى الجمال الضائع والقلوب الكسيرة. ليس لحنًا خالدًا، إنّها شظايا زجاج تتساقط بلا توقف في المرحاض، وهدير الطبول، وهمهمات المغنين. كان الأشخاص الذين قابلتهم في رحلتي يخبرونني أنّ الموسيقى راقت لهم. ليست موسيقى البوب التي في الولايات المتحدة، بل هذه الموسيقى. كنت أعرف ما يقصدون. لقد أحبوا الانجراف وراء آذانهم. في هذه الأثناء جلس الكاهن بجانب المذبح، وعلى وجهه علامات الرضا عن نفسه. حسناً، ربما هو تأثير الموسيقى. حالما بدأ العزف، شرع الناس في التدفق إلى الكنيسة: أطفال المدرسة بحقائب كتبهم، وأزيائهم الموحدة، وأطفال حفاة، وصغار بشعور ناعمة ملتفة كانوا يمرحون في الساحة، ورجال مسنون يتمتمون ويحملون الخناجر، واثنان من فتية المزارع يثبتان قبعتي قش على صدريهما، وسيدة معها حوض غسيل من الصفيح، وعصابة من الأولاد، وكلب حائر.

جلس الكلب في الوسط، وطفق يضرب طرف ذيله بالبلاط. كانت الموسيقى عالية بما يكفي لتصل إلى السوق في آخر الشارع، فقد كانت هنا ثلاث سيدات يرتدين تنانير طويلة، ويحملن سلالًا فارغة، ومحافظ جلدية.

جلس البعض وانتظر البعض في الجزء الخلفي من الكنيسة. وكانوا يراقبون الفرقة وليس وعاء القربان، وكانوا يبتسمون. أوه نعم، هذا هو ما يعنيه الدين- الفرح، الابتسام، السعادة، الله معكم، صفق بأصابعك، لقد أنقذ العالم. كان هناك اثنان من ضاربي الصنج.

توقفت الموسيقى. نهض الكاهن. بدأت الصلوات. وتوجه الأشخاص الذين وصلوا إلى الكنيسة أثناء الأغنية إلى الباب الخلفي. و لم تتحرك السيدات المسنّات الإحدى عشرة في المقاعد الأمامية، بل بقين للاعتراف. سار الكاهن جيئة وذهاباً في حاجز المذبح. وقدم خطبة مقتضبة:

قال: الله يحبكم، ينبغي عليكم أن تتعلموا كيف تحبوه. ليس من السهل في العالم المعاصر أن تفردوا وقتاً لله. ثمة مغريات، و قد ظهرت الخطيئة في كل مكان. من الضروري الاجتهاد، والإخلاص في العمل لوجه الله. آمين.

موجة من التصفيق مجدداً، وبدأت الموسيقى. وفي هذه المرة كانت أعلى، وجذبت أناساً أكثر من الميدان أتوا للاستماع. كانت أغنية مشابهة، وعواء، ضرب، قلب، قلب، عواء، رطم، دوبي-دو، ضرب، رطم، رطم. لم يكن ثمة تردد بين المتفرجين عند انتهائها. فقد هربوا مع الرطم الأخير.

ولكن ليس لفترة طويلة. عقب ذلك بعشر دقائق- (صلاتان، دقيقة تأمل، بعض الأعمال بالمبخرة، وحديث حماسي)- بدأت الفرقة العزف من جديد وعاد الناس. استمر هذا الروتين لساعة كاملة، وكان ما يزال مستمراً عندما غادرت- أثناء إحدى الأغاني، ليس الخطب، ولا الصلوات، كان عليَّ اللحاق بالقطار. اكتست السماء باللونين القرمزي والوردي، والبركان باللون الأسود، والمجاري المخيفة بالغبار البرتقالي ملأت الوديان، والبحيرة كانت متوهجة مثل بركة من الحمم المنصهرة.

**-10-**

**خط الأطلنطي: قطار الساعة 12:00 إلى ليمون**

**---**

تفاجأت قليلاً بوجود رجل صيني في الحانة بسان خوسيه، كوستاريكا. الصينيون ليسوا من محبي الحانات. قد يأتون مرة في العام، إن كانت المناسبة تستحق، وكان برفقتهم آخرون، أو على سبيل التحدي، وشربوا زجاجة براندي كاملة، ثم يتحولون إلى اللون الأحمر، يتفوهون بالترهات، أو العبارات المسيئة بصوت عالٍ، يتقيأون، ويُحملون إلى المنزل حملاً. الشرب هو سخريتهم المجنونة من البهجة- ولكنه سلوك ضار- وهم لا يجدون فيه أي متعة. إذن ماذا يفعل هذا الرجل الصيني هنا؟ لقد تحدثنا بحذر في البداية، كما يفعل الغرباء، وصولاً إلى اتفاق حول العموميات قبل المجازفة بالحديث عن أي شيء شخصي.

بعدها أخبرني هو. حسناً قال إنه كان يملك حانته الخاصة. وكذلك مطعماً، وفندقاً. لقد كان من مواطني كوستاريكا. كان اختياراً مقصوداً. لقد كره جميع البلدان الأخرى التي زارها من قبل.

سألته: " أيٍ منها؟" كنا نتحدث باللغة الإسبانية. قال إنّ إنجليزيته ضعيفة.

أخبرته أنّ مهارتي في الحديث باللغة الكانتونية ليست بأحسن حال.

قال: "جميع البلدان، غادرتُ الصين في 1954. كنت رجلاً شابًا ورغبت في السفر. ذهبت للمكسيك- جبت أرجاءها- ولكني لم أحبها. ذهبت إلى غواتيمالا، وجميع نواحيها. نيكاراغوا- تلك كانت سيئة جداً. بنما- لم أحبها. حتى هندوراس والسلفادور- ذينك البلدين. "

" ماذا عن الولايات المتحدة؟"

" جبتها بطولها. ربما كانت بلداً ممتازاً لكني لم أعتقد ذلك. لم أستطع العيش هناك. كنت ما زلت مسافراً وقلت لنفسي:" ماهو أفضل بلد؟" لقد كان هو كوستاريكا- أحببت المكان هنا جداً. لذلك بقيت."

حتى الآن لم أر غير سان خوسيه، ولكني أخذت برأيه. بدت مدينة مميزة. إن هدأت مدينتا سان سلفادور وغواتيمالا، وأخليت من جميع الأكواخ، وأُعيد إسكان الناس في منازل مرتبة، ودهنت المباني، وقُيدت الكلاب الضالة وأُطعمت، ومُنح الأطفال أحذية، وجمعت القمامة من الحدائق، وسُرح العسكر- ليس ثمة جيش في كوستاريكا- وأُطلق سراح جميع السجناء السياسيين، أعتقد أنّ هذه المدن ستبدأ في اكتساب بعض الشبه بسان خوسيه. لقد مضغت طرف غليوني في السلفادور حتى تفتت من الإحباط. أما في سان خوسيه فقد حصلت على ذراع جديدة لغليوني (واشتريت واحداً احتياطيا من أجل رحلة بنما). كانت مكاناً من ذاك النوع. الطقس لطيف، والخدمة جيدة، والمدينة منظمة.

كانوا قد أجروا انتخابات للتو. في بقية بلدان أمريكا الوسطى قد تكون الانتخابات عملاً إجرامياً مروّعًا. وكانت الانتخابات في كوستاريكا عادلة، وأقرب للاحتفال. قالت لي امرأة في سان خوسيه: " تعين عليك أن تكون هنا لتشهد الانتخابات." كما لو أنني فوّت حفلاً. في أهل كوستاريكا فخر بحكومتهم الكريمة، ومعدل مرتفع للإلمام بالقراءة والكتابة، ودماثة الخلق. السمة الوحيدة التي تجمع بين كوستاريكا وجيرانها في أمريكا الوسطى هي الكراهية المتبادلة. لا تسمع كلمة طيبة واحدة عن غواتيمالا أو السلفادور، ونيكاراغوا، وبنما- إذ تسود كراهية الدول التي تنحصر كوستاريكا بينها بصراحة. كوستاريكا متعجرفة مثل غيرها من تلك الدول، ولكنها تفوقهم بسبب آخر لتفعل ذلك.

قال لي أحد اصحاب المتاجر:" إنّهم –في تلك الأماكن- لا يحبّون الأمريكان".

كان يقول أمرين في الحقيقة: إنّ الأمريكان ليسوا مكروهين في كوستاريكا، وإنّ الكوستاريكيين هم أمريكيون فخرياً. وهو ما يقوله لك الأجانب حول سبب اعتقادهم أنّ كوستاريكا بلد ناجحة. " إنّها دولة بيضاء." يقولون هذا في تردد. " أعني أنَّ جميع أهلها بيض، أليس كذلك." هذا زيف- لا يتطلب الأمر سوى أن تأخذ القطار إلى ليمون لتكشف عنه. ولكني كنت أستمتع بسان خوسيه، لذلك أجلت رحلتي بالقطار إلى ليمون. واكتشفت أنّ الكوستاريكيين كانوا مهذبين وخدومين. على خلاف الأجانب. تذهب إلى مكان أزخم مثل كوتوكو وتفكر كيف أنّه يناسب بالضبط خلفية الذباب المتطاير في فيلم بوغارت. فهو يتسم بالحرارة والانطلاقية السينمائية البائسة، والقذارة التي بلغ سيلها الزبى، والحانات التي تبدو أكثر فساداً، ترتبط في ذهنك بالأمريكيين الأشرار الذين يعملون في مهمات خطيرة.

ولكنْ ليس ثمة أمريكيون في كوتوكو، والخطر كل الخطر يكمن في مياه الشرب. إنّها ليست المدينة الموبوءة بالملاريا التي قد يقصدها الأجنبي، ولكنها مدينة استوائية مضيافة حيث يسعك- إزاء ما يواجهك من ملل فيها- أن تحظى بوجبة طيبة، وماخور آمن في كثير من الأحيان، وتؤسس عملاً تجاريا، أو تنفذ عملية قتل.

تعيش كوستاريكا حالة ازدهار، الرخاء واضح في سان خوسيه. مدينة سان خوسيه مكان يمكن بالكاد أن نصفه بالرومانسية، ولكنه أعلى تركيزًا للأجانب في أمريكا الوسطى-بعد بنما. بعضهم لصوص ومحتالون صغار، وآخرون نصابون على مستوى عالٍ. يدَّعي روبرت فيسكو أنّه يعيش في ضواحي سان خوسيه لأنّه يحبّ الطقس؛ ولكنه زعم اختلاسه ما يقارب نصف مليار دولار من إحدى شركات الاستثمار أيضاً. (يُعد منزل فيسكو بسياجه العالي، وآلات التصوير التلفزيونية ضد السرقة في الأشجار، واحداً من معالم مدينة سان خوسيه، وهناك إشارة تدل السياح عليه في طريقهم إلى بركان إرازيي.) ليس جميع الأجانب في سان خوسيه من المحتالين. ثمة تجار خشب وباعة كتب، وصيادلة، وأباطرة آيس كريم. وهناك أناس متقاعدون من جميع أنحاء الولايات المتحدة، والذين اشتروا شققًا جماعية، وقطع أراضي، يجلسون في الظل يشكرون الله على أنّهم ليسوا في سان بيت. الفرق هو-على عكس فلوريدا- قلة أمراض الشيخوخة التي تذكرهم بأنهم يقتربون من الموت في كوستاريكا.

قال كابتن راغلز: " أعتقد أنّهم سيكونوا أفضل حالاً في فلوريدا، لسبب واحد، سيحصلون على رعاية طيبة بمعايير أفضل، الله وحده يعلم ما هو نوع القسطرة الذي يتعين عليك وضعها حتى تُقنع الطبيب أن يلتفت إليك ".

اندي راغلز- "الكابتن" لم يكن عسكرياً، كان قبطان خطوط جوية-وكان هو ذاته من فلوريدا، ظل يسأل بصوت عالٍ ما الذي يفعله في سان خوسيه بحق الله.

كنا في حانة فندق رويال داتش، وكان اندي مصمماً على الشرب حتى الثمالة. قال إنّه ليس مسموحاً له بالشرب أثناء العمل، ولا يمكنه الشرب إن كان مدرجاً في جدول الطيران على الإطلاق.كانت عطلة طيبة بالنسبة له، كما قال، حفلة في رفقة مومس فاتنة للغاية.

قال: " لكن لدينا جعة مثل هذه في فلوريدا، والفتيات أجمل بكثير. يا بول، أعتقد أنني ارتكبت خطأ كبيراً جدا بالقدوم إلى هنا. ولكني حصلت على تخفيض في تكلفة الطيران."

تحدثنا عن الدين: كان اندي معمّدا. وعن السياسة: في رأي اندي، كان نيكسون دمية. تحدثنا عن العرق. وابتهج اندى لهذا الموضوع. قال إنّ هناك خمسة أعراق بالعالم. كان الرجل الأضيق أفقاً سيقول اثنان. الهنود في أمريكا الوسطى كانوا بالطبع منغوليين "انحدروا خلال مضيق برينغ، عندما كان يابسة. خذ هنودنا مثلاً- إنّهم منغوليون حتى النخاع." لم أرتح للحديث عن العرق، كان الاتجاه العام لمثل هذا الحديث يسير باتجاه اوشفيتز[[34]](#footnote-34). كنت سعيداً عندما قال:" كيف تنطق اسم عاصمة كنتاكي؟ لويفيل، أو لويزفيل؟"

قلت: "ليويفيل"

قال:" خطأ. إنّها فرانكفورت."

قهقه هو. " تلك قديمة."

سألته عن عاصمة فولتا العليا. لم يكن اندي يعرف أنّ اوغادوغو هي عاصمة فولتا العليا. فأجاب بنيفادا. لم أعرف أنّ مدينة كارسون كانت عاصمتها، وأخطأت في إلينوي أيضاً. كانت معرفة اندي بعواصم الدول أفضل من جميع من قابلتهم، وأنا شخص يفخر بمعرفته بالعواصم.

أخطأ هو في نيو هامشاير (كونكورد) وسريلانكا (كولمبو)، وليس سوى ذلك ماعدا فولتا العليا. واشتري لي ثلاثة أكواب جعة. واشتريت له ستة. كان اندي معتدل المزاج عند السكر، وقال ذلك، وبما أنّه كان في سان خوسيه لثلاثةأيام، أراد أن يريني المدينة. ولكن كان هناك رجل إلى يمينه يستمع إلى حوارنا، وعندما وقف اندي ليغادر، قال الرجل بلهجة إسبانية واضحة "أعتقد أنّ شركتكم هي الأسوأ في العالم. هذا هو رأيي. وأنا في طريقي إلى ميامي، لكني لن أستقل طائراتكم. إنّها الأسوأ." ابتسم لي اندي. وقال الرجل:" دائمًا لديكم زبون غير راضٍ، أليس كذلك؟ إنّه لأمر مزرٍ. مزرٍ حقاً."

ظننت أنّ اندي سيضربه. ولكن عادت الابتسامة إلى وجهه المحمر، وقال: " أخمن أنك مررت بتجربة طيران سيئة. مطبّ جوي بسيط؟"، رفع يده وخفضها، " كأن الطائرة تصعد ثم تهبط، أليس كذلك؟"

"لقد سافرت كثيرًا بالطائرة."

قال اندي:" تصحيح، تجربتا طيران سيئتان؟"

"لن أسافر على متن طائراتكم مرة أخرى."

"سأذكر هذا للرئيس عندما أراه في المرة المقبلة."

" لك أن تخبره بشيء آخر من أجلي؟"

قال اندي بهدوء شديد: " انتظر سيدي، ما أريد معرفته هو ما يفعله اسكتلندي مثلك هنا؟"

بدا الإسبانيّ مذهولاً من هذه المزحة.

أعطاه اندي ظهره ورفع كمه عن ساعة يده.

"وقت الطعام."

"سآخذك في جولة حول البلدة يا فتى. أنت جديد هنا في هذه البلدة. سأريك المعالم الرئيسية. وعليك البقاء صامتاً إن قابلنا أياً من أصدقائي. سأقول إنك رجل إنجليزي، جئت لتوك من لندن. لا تقل كلمة واحدة، لن يعرفوا الفرق. "

ذهبنا لحانة تدعى نادينا [Our Club]. كانت صاخبة ومظلمة، واستطعت أن أتبين في تلك العتمة رجالاً متخفين يضاجعون مومسات.

قال اندي:" فليستعدوا." " اطلب الجعة لي ولهذا السيد. لا يهم النوع." كانت الفتاة وراء الطاولة ترتدي ثوباً بفتحة عنق منخفضة. مسحت الطاولة بممسحة قماش.

قال اندي: " أنت تبدين فتاة ذكية، تعرف من..." (ابتعدت الفتاة) "أوه، إنّك لا تصغي. يا بول أتعرف من هو أعظم شاعر في العالم؟ لا ليس شكسبير. ألا تستطيع التخمين؟ روديارد كيبلنغ."جلبت لنا الفتاة قارورتي جعة.

قال اندي: " لقد كنت أقبل التسلية حيث أجدها. اعط الفتاة دولارين يا بول- مازلت تدين لي على مدينة سيلم في أوريغون. أتذكر؟ وأنا احتلت، وتسكعت في دوري."

استغرق في تلاوة قصيدة "السيدات"

لم يبد أنّه لاحظ وجود رجل بدين جداً وسيء، يشرب وحده على مسافة أربعة أمتار منه ويأكل الفول السوداني من قصعة، كان يراقبنا.

هزّ الرجل حبات الفول السوداني في يده، كما يفعل لاعب النرد، قبل أن يلقيها في فمه، ثم اتجهت يده الأخرى لمشروبه. أخذ رشفة، وتناول المزيد من حبات الفول السوداني. وضع المشروب، وهزّ حبات الفول السوداني، وقذفها في فمه. كانت حركاته تنم عن نهم لا يهدأ، ولكن ظلت عيناه مثبتتين علينا. كان صوت اندي أجشَّ، يكاد أن يكون خشناً، لكنْ به نبرة حزن.

**دمية في فنجان شاي كانت**

**ولكنّا عشنا، كزوجين حقيقيين صدقاً**

**ومنها عرفت النساء**

قال الرجل البدين وهو يمضغ الفول السوداني: "كان هذا بلداً عظيماً."

نظرت باتجاهه. كان يضحك بحزن، ووجدتْ يدُه اليسرى طريقها إلى طبق الفول السوداني. لم ينظر إلى الأسفل.

كان اندي يقول،

**وسحرت جنية رائعة**

**زوجة الزنجي في ماو[[35]](#footnote-35)**

**علمتني لغة الغجر**

**كانت مثل بركان...**

قال الرجل البدين:" البغايا في كل مكان."

قدرت وزنه بثلاثمائة رطل. كان رأسه أصلعَ تماماً، وله ذراعان ضخمتان بيضاوين عليهما وشوم زرقاء تبدو مثل الكدمات.

قال اندي: " أنت بالكاد تتحرك بالنسبة للمومسات."

**لذلك طعنتني بسكين ذات ليلة لأني تمنيت لو كانت بيضاء**

**وعرفت منها النساء**

"يأتي الأمريكيون، يشترون الأعمال الصغيرة- شركات التاكسي، المشروبات الخفيفة، ومحطات الوقود. ثم يجلسون في مكاتبهم ويحصون أموالهم. الحكومة تريدهم، لأنّهم نظفوا المكان، وأرسلوا المومسات إلى بنما، لأنَّ هؤلاءالناس الذين جاءوا جميعم من نيويورك -فعلياً- يهود في الغالب الأعم."

لم يتوقف اندي عن الإنشاد ولكنه انتهى بسرعة قائلاً:

" سيدة الكولونيل، وجودي أوغريدي كانتا أختين في إثارة الغضب."

هل قلت شيئًا سيدي؟"

قال الرجل البدين، وكان يأكل كما لو أنّه في تحدٍ:"اليهود"

قال اندي:" اسمع ذاك يا بول."

واتجه إلى الرجل البدين "ولكن هنا، ألست كذلك؟"

قال الرجل البدين:" أنا عابر سبيل ليس إلا." شراب، فول سوداني، شراب، فول سوداني: لم يتوقف.

قال اندي: " بالتأكيد، أنت تأتي هنا بأموالك. ولكن إن فعل غيرك هذا تنتقده."

إذن فقد سمع شكوى الرجل البدين! مع إنّه كان مشغولاً بتلاوة قصيدة "السيدات".

كانت نبرة اندي حكيمة. قال: " حسنًا يا سيدي، أنت محق في ما ذهبت إليه، لن أخالفك فيما تقول. ولكني أيضاً محق في رأيي، وأقول إنَّ روبرت و. سيرفس يأتي في المرتبة الثانية."

وبدأ اندي يتلو قصيدة " محرقة سام ماكجي".

تعتع، وشتم، ثم استعاد تركيزه وتلا قصيدة "سيدتي" لروبرت سيرفس بكاملها.

**جذبت لنفسي امرأة من الشارع**

**بلا حياء، ولكن، آهـ، جدُ جميلة!**

ظل الرجل البدين صامتاً لعدة دقائق، ولكن عندما انتهى اندي، استأنف الحديث.

قال: " ليس فقط اليهود، بل كل من بيده بضع دلارات. لقد دمروا المكان. سأقول لكم شيئًا واحدًا- لقد اُنتخب كرازو للتو، وسيطردهم جميعاً. سيعودوا إلى نيويورك جميعاً، حيث ينتمون. المشكلة هي أنَّ المومسات لن يعدن."

توجهت يده إلى الطبق، وخربشت. والآن نظر إلى الأسفل. كان الطبق خاليًا.

فقال مرة أخرى: " لن تعود المومسات."

قال اندي: " من أين أنت، يا سيدي؟ "

"تكساس."

"أعرف. أتعرف كيف؟ لأني عرفت أنك مهتم بالشعر. تكساس. نعم فعلت. الآن اصغ إليَّ. أعرف أنك لست هنديًا أمريكيا."

قال البدين: " ذاك حديث الجعة."

تجول يده الخالية من الفول السوداني على الطاولة، تبحث أصابعه الجشعة الضخمة عن الطعام.

"..ولكني أتساءل ما إذا كان بوسعك أن تسديني معروفاً."

"نعم؟"

قال اندي: " مجرد طلب،" كان قد جثم على مقعد الحانة المرتفع. كان صوته خاليًا من المشاعر، ولكنه كان يأخذ جرعة بين كل عبارة وأخرى، ويفصل بين عبارات حديثه: " أتساءل ما إذا كان بمقدورك أن تحضر لي، أم لا،" أخذ رشفة من الجعة، " طلب، أمم،" جرعة أخرى، "انضمام، أمم" والآن هو يشرب ويتذوق شفتيه، "كو كلوكس كلان[[36]](#footnote-36)." شهق الرجل شافطاً البلغم ثم بصق على الأرض.

قال اندي، " أتقدم لي تلك الخدمة الصغيرة؟"

"بوسعك أن تغسل الملاءات." شخر الرجل السمين.

قال اندي: " أعرف أنه يتمتع بحس الفكاهة، إنّه تكساسي بحق.، رجل مسلٍ. وأقول لكم، إني لأود أن أجلس هنا طوال الليل لأتبادل معه النكات فقط. ولكن بول، أعتقد أنني احتسيت ما يكفي من الجعة."

تدلى اندي من مقعده المرتفع، وحاول الوقوف، وبدأ يتداعي. استعاد توازنه مستنداً على طاولة الحانة، ونفخ شدقيه قائلاً:" نعم، إن لم تستطع الوقوف، فقد اكتفيت. الآن اخبرني، ماهو اسم ذلك الفندق الذي أقيم فيه؟"

بعد أن ذهب اندي، قال الرجل البدين: إنّه محظوظ لأني في مزاج رائق. كنت سأكسر ذراعه."

الرجل البدين اسمه ديبس، كان شرطياً في تكساس، ولكنه تقاعد، وأشار إلى أنّ السبب في تقاعده هو عدم السماح لرجال الشرطة أن يكونوا عنيفين بما يكفي. ولكن يا ديبس؟ حسناً، أردت في مرة أو مرتين تفجير أدمغة الناس، ولكن لِمَ يفترض بك أن تقوم بفعل كهذا. ربما كان بوسعه أن يفعله بسهولة، ويعدّه مقاومة للاعتقال. وقد سخر منه الأشرار ولم يكن مسموحاً له إطلاق النار. أصبح عامل بناء، يقود جرّافة، ثم ترك العمل لأنَّ الجميع كانوا يحصلون على أموال ضمان الاجتماعي، لكن لِمَ ليس هو؟ وأصبح الآن حارساً شخصياً ("لأحد اليهود") وحمّالاً.

سألته على الرغم من أنني كنت أكثر فضولاً حيال السبب في فقدانه شعره :" ماذا يعمل الحمّالون بالتحديد؟"

"يحملون الأشياء. أنا كنت أحمل المال."

سافر في الأسابيع القليلة الماضية إلى المكسيك، وبنما، وهندوراس. يحمل ما يعادل خمسين ألف دولار من البيزو إلى مونتريال، وثمانين ألف دولار كندي إلى هندوراس، وبنما. كان يعمل لحساب رجل بعينه، وقال عندما سألته عن السبب في نقل هذه الكميات الكبيرة من العملات جيئة وذهاباً عبر الحدود الوطنية، ضحك. ولكنه تحدث عن كيفية نقل المال- في حقيبة. قال: " ستتفاجأ بمقدار المال الذي يمكنك حمله في حقيبة صغيرة. الأمر سهل. ليس من بلد يفتش أمتعتك عند المغادرة. وموظفو الجمارك في الولايات المتحدة وكندا لا يهتمون إن فتحوا حقيبة ما ووجدوها ملأى بعملة البيزو. أحياناً لا يفتحونها حتى. ولكن عندما يفعلون يرسلون اللعنات. لم يروا قط هذا القدر من المال في حياتهم."

كان واضحاً لي لماذا تم توظيف ديبس بهذا العمل. كان قوياً، وكان ضخماً كمنزل، كان على درجة كبيرة من الغباء، والإخلاص. لم يكن يدخل في التفاصيل حول مخدمه، أو السبب في نقل المال، لكنه قال في لحظة ما: " ربما كان اسمه ديبس وربما لم يكن." كان لديه وهم بأهمية الذات، وحمل هذه الكميات من المال يغذي وهمه.

كان فخوراً بحقيقة عدم نجاح أي كان في سرقته.

"خمن لم؟"

قلت لا أستطيع التخمين.

قال: " لأني لست سكيّراً."

رفع كأسه: " أترى هذا؟ إنّه مشروب الكوكاكولا. إن شربت أي شيء أقوى سيقضى عليَّ، لهذا أنا لا أشرب، لا أستطيع الشرب. السكارى يُسرقون. من المحتمل أن تُسرق إن شربت. لقد كنت تشرب الجعة طوال الليل. بوسعي حمل خمسين ألفاً عبر أسوأ جزء من مدينة بنما ولا شيء يحدث لي."

"ستكون يقظاً."

"خمن السبب الآخر؟"

" لا أستطيع أن أخمّن."

" لأني أجيد الكارتيه، وبوسعي كسر ذراعك."

مال ديب إلى الأمام مستعرضاً أوشامه. بدا كما لو أنّه أراد كسر ذراعي. قال: " وأنا لست غبياً أيضاً. يُسرق الناس بسبب ذلك. إنّهم أغبياء. يذهبون إلى الأماكن الخطأ. يسكرون. ولا يجيدون الكاراتيه."

واعتقدت أيضاً أنّهم أخف وزناً من ثلاثمائة رطل. صدمني ديبس كونه شخصية خطيرة جداً، وبدون وجود اندي رغلز في الجوار ليقوم بصرف انتباه ديبس. شعرت بالضعف أكثر. كان لديبس شغف واحد: المومسات. كان يحب أخذ اثنتين أو ثلاث في المرة الواحدة.

"كل ما أفعله هو الاستلقاء- وسيقمن بكامل المهمة."

كان يتباهى بأنّه لم يدفع لهن أبداً. كنَّ يحببنه، يدخل إلى أحد المواخير ويجتمعن حوله، يعلو صوتهن، ويتشاجرن لإمضاء ليلة على هذا الجبل الأصلع. لم يكن يعرف السبب في ذلك. ربما من تأثير وسامتي.!" أراد أن يأخذني إلى حيث قال إنّه الماخور الوحيد الممتاز في سان خوسيه. وكنت متأخراً جداً، قلت، كان الوقت يقترب من منتصف الليل. قال إنّ منتصف الليل هو أفضل وقت- حيث البغايا قد استيقظن لتوهن.

قلت له: " ماذا عن الغد؟"، وأنا أعرف أني ساكون في ليمون غداً.

قال: " أنت جبان،" وكنت أستطيع سماع ضحكه بينما كنت أسير على الدرج صاعداً نحو الشارع.

كان هناك خطان للقطارات في كوستاريكا، لكل محطته الخاصة في سان خوسيه.

تشي مساراتهما بلامبالاة كوستاريكا بجيرانها: إنّهما يتجهان نحو السواحل وليس أي من الحدود. تسافر خطوط الباسيفيك إلى بونتاريناس على خليج نيكويا؛ وخطوط الأطلنطي إلى ليمون. كانت محطة الأطلنطي هي أقدمهما، وقد ظل جزء من هذا الخط يعمل قرابة المائة عام. أمام المحطة تربض قاطرة بخارية مثبتة على كتل خرسانية لتثير إعجاب المسافرين. قاطرة كهذه كانت لتطوي القضبان في السلفادور متجهة إلى سانتا آنا، وفي غواتيمالا كان من الممكن صهرها واستخدامها كقنابل ضد البشر من قبل اليد البيضاء[[37]](#footnote-37).

يغادر قطار ليمون محطة الخطوط الاطلنطية كل يوم ظهراً. وهو ليس بالقطار الرائع، ولكن بمعايير امريكا الوسطى فهو البريتون بيل[[38]](#footnote-38). كانت هناك خمسة مقاعد ركاب جماعية، ودرجتان، ولا عربات شحن. كنت تواقاً لركوب هذا القطار لأنّ مساره اشتهر بكونه الأجمل في العالم. من العاصمة المعتدلة الطقس في الجبال، عبر الوديان العميقة على الشمال الشرقي، إلى الساحل الاستوائي الذي أسماه كولومبس كوستا ريكا بسبب غاباته الفائقة الخصوبة، عندما وصل هناك في رحلته الرابعة عم 1502.

في رحلته الثالثة ظن أنّه وصل جنة عدن، وفي الرابعة اعتقد أنّه وصل إلى إحدى روائع آسيا الخضراء. (مشّط كولومبس الساحل شمالاً وجنوباً، وأقعده المرض في بنما لأربعة أشهر، ولم يخبره أي أحد أنّ هناك محيطاً شاسعاً آخرَ على الجانب الآخر للجبال – صمَّ أهل المنطقة من الهنود آذانهم عن طلبه هذه المعلومة.) إنّه أجمل مسارات أمريكا الوسطى مناظرَ، ولكن كان لديَّ سبب آخر قوي للرغبة في اختيار هذا القطار لمغادرة سان خوسيه.

أمضيت الكثير من وقتي منذ وصولي إلى كوستاريكا برفقة اللاجئين الأمريكيين المفرطين في شرب الكحول- أندي راغلز والشرير ديب لم يكونا سوى اثنين منهم كنت سعيداً برفقتهما، لم تكن السلفادور على تلك الدرجة من المرح. ولكني كنت مستعدًا وقتئذ للانطلاق وحدي. السفر في أفضل حالاته عملٌ فردي: لترَ، وتتحقق، وتقيّم، عليك أن تكون بمفردك وبلا قيود. قد يضللك الآخرون، وتزاحم انطباعاتك العفوية آراءهم، فإن كانوا صحبة طيبة يعيقون نظرتك، وإن كانوا مملين يفسدون صمتك بالإفادات المتضاربة، ويشتتون انتباهك بأوه انظر، إنّها تمطر، وترى الكثيرمن الأشجار هنا. السفر وحدك قد يكون موحشاً لحد فظيع (وهو غير مفهوم لدى الياباني الذي يمر بك وهو يبتسم بحزن لرؤية بستان من نبات الحوذان المكسيكي، ويميل لقول أشياء مثل *أين بقية فريقك*؟). فكرت في أمسية بغرفة الفندق في مدينة غريبة. كنت قد حدثّت يومياتي:

لقد اشتقت للرفقة: ماذا أفعل؟ لا أعرف أحداً هنا، لذا أخرج وأسير لأكتشف شوارع المدينة الثلاثة، وأحسد المتسكعين من الأزواج، ومن برفقة أطفالهم. المتاحف والكنائس مغلقة، وعندما اقترب الوقت من منتصف الليل خلت الشوارع. لا تحمل شيئاً ثمينًا، حُذرت، لأنّه سيُسرق. إن تعرضت للسطو فسأعتذر بأقصى عباراتي الاسبانية تهذيباً: *أنا آسف سيدي، لكني لا أملك شيئاً قيماً معي*. هل من طريقة مؤكدة أكثر من هذه لإثارة غضب اللص، ودفعه إلى العنف؟ السير في هذه الشوارع المظلمة خطير، ولكن الحانات مفتوحة. كان راغلز وديبس ينتظران. إنهما يببدان لعنة الملل، لكن يساورني شك ملح بأني إن بقيت في موطني، وتسكعت في بوسطن حتى منتصف الليل، كنت سألتقي براغلز، وديبس في صالة الساعة الثانية (20 فتاة جامعية عارية تماماً!!!). لم أكن مضطراً للسفر بالقطار إلى كوستاريكا من أجل ذلك. من الصعب التفكير بذهن صاف، أو على نحو مستقيم في رفقة الآخرين. ليس فقط لأني أشعر بمراقبة ضميري، ولكن تصعب معالجة التصورات الضرورية للكتابة في وجود شخص ما يفكر بصوت عالٍ على مسافة قريبة.

لقد تحول اتجاهي، لكني لا أسعى للتحول بل للاكتشاف. المطلوب هو وضوح الشعور بالوحدة لالتقاط تلك الرؤية التي مهما كانت عادية، تتسم في مزاجي الخاص بالتميز والجدارة بالاهتمام. ثمة شيء ما في الشعور بالضيق يسّرع من ذهني، ويزيد من حساسيته لتقبل الانطباعات اللحظية السريعة. وقد تُدخض هذه الانطباعات في وقت لاحق أو تحذف، ولكنها قد تُؤكد أيضاً أو تشذّب، وعلى أية حال حظيت بالرضا على إتمام العمل وحدي. السفر ليس عطلة، وقد كان دائماً المعاكس للراحة. قال لي الناس في وداعي بمحطة ساوث: احظ بوقت طيب، لم تكن الرحلة كما أملتها على وجه الدقة. اشتقت للقليل من المغامرة، وبعض الخطر، حدث غير سار، وإزعاج قوي، وتجربة لرفقتي، ورومانسية العزلة ببساطة. هذا ما خلته سيحدث معي على ذلك القطار المتجه إلى ليمون. وجدت مقعداً على الزاوية بجانب النافذة، وشرعت في مراقبة المنازل يتناقص حجمها بينما نقترب من ضواحي سان خوسيه. زادت صغرًا ولكن ليس كبقية منازل الضواحي في أمريكا الوسطى، لم تزدد قذارة، وتداعياً في أطراف المدينة. كانت أعلام الحملة ما زالت ترفرف، وشعارات الانتخابات، والملصقات مثبتة على جدران بعض منازل المدينة. كانت بيوت المزارع والأكواخ، والبيوت المربعة المسقوفة بالصفيح، ومنازل الكرتون والخرسانة في مستعمرات صغيرة وردية، وخضراء، وصفراء ليمونية، وفي الضواحي الخارجية المتمدنة كانت من الطوب الأحمر والأبيض، وقد سوّيت مروجها.

وأسرعنا بعدها نحو الريف-وبدون المرور بمقلب للقمامة أو حي عشوائي، أو النهر الملوّث بكتل رغوة الصابون الرمادية التي كانت حدوداً لكل مدينة رأيتها حتى الآن. سرنا عبر بساتين الموز وحقول البن. وقد كانت هذه مزارعَ ظليلة، تحفّها تلال مكسوة بالغابات الخضراء.

كان الطقس معتدلاً في هذا اليوم من أواخر شهر فبراير، وثمة مربّي نحلٍ كوستاريكي بالقرب من القضبان، مثل شرلوك هولمز في تقاعده، بجسده النحيل، وأنف الصقر ذاته. نظر من فوق خلاياه المزدحمة، وابتسم للقطار. حتى أفقر وأصغر المنازل كان مطلياً بدقة، والدُرج نظيفة، والستائر المنشّاة تصطفق عبر النوافذ. في الفناءات تكدست جذوع الأخشاب، وحديقة الخضروات، وحدود من الأزهار. كانت منازل صغيرة عزيزة، وكساها الكبرياء كرامة وفخارا.

كان فيها كمال، وشيء من الرسمية، وانعكست في أسلوب هندام ركاب القطار- الفتيات في قبعاتهن الشمسية، والسيدات في أوشحتهن، والرجال يرتدون قبعات الفيدورا. كان أكثر من نصف ركاب القطار من السود. خلت هذا الأمر غريبًا: لم أتذكر أني رأيت أيًا من السود في سان خوسيه. كانت سلالهم وحقائب التسوق تميزهم في كوستاريكا، ليسوا سيّاحاً، وطوال الجزء الأول من الرحلة كانوا يثرثرون مع البيض على القطار. كانوا يتحدثون باللغة الإسبانية، ويتعارفون، ويضحكون ويمزحون. آمل أني أحضرت *ما يكفي من الطعام*، قالت سيدة سوداء في قبعتها الشمسية. *أطفالي لا يتوقفون عن الأكل*. ثم سمعت: " ابعد رأسك عن النافذة!" بلهجة غريبة. كانت المرأة ذاتها، والآن يرفعون أصواتهم باللغة الإنجليزية. كان أحد ابنائها الصغار، يرتدي قميصاً صوفياً أزرق اللون، ويتدلى من إحدى النوافذ. ولكن رأسه كان على مسافة بعيدة في الخارج، فلم يسمعها.

والآن سمعها "ستقطع الشجرة رأسه!" أدار رأسه إليها لكنه لم يرعوِ. قالت بلهجة مختلفة: " لا يجوز فعل ذلك." وضربت كتفه. عاد الصبي إلى الجلوس في مقعده وقهقه ضاحكاً وهو ينظر إلى أخته. قالت السيدة السوداء بالإسبانية: "ينبغي علي مراقبتهم طوال الوقت." كانت تلحن اللغة الإنجليزية، وتتلعثم في الإسبانية. مررنا خلال بقع من نور الشمس في غابة ظليلة رائعة الجمال. لم يكن السفر في الظل عادياً، خلال الغابات التي تمتد فوق القضبان. في العادة كانت هناك حرارة على جانبي القضبان كليهما، وتضرب الشمس من خلال النوافذ. ولكن هنا يضفي ضوء الشمس على الزجاج بقعَ ضوء ويومض داخل القطار، والأشجار كانت كثيفة جداً حتى استحالت رؤية ما وراء الأوتاد الخشبية الرشيقة، وفرجات النور. كنا بين الجبال. في مساحة بين الأشجار فتحت مثل بوابة، وعلى البعد بساتين الصنوبر نمت داكنة فوق الهضاب، وتحتها في حفرة قاتمة كانت مزرعة ألبان، ومَنْشَرة، وقرية منازلها خشبية وكومة من الخشب.

شقها نهر جارٍ، يتلألأ ماؤه قبل أن يغوص في الوادي المظلم، وبدا المكان في عيني كقرية في فيرمونت رأيتها وأنا طفل. ربما شلالات بيلوز، أو تقاطع نهر وايت. ولم يفارقني خيال الفيرمونتية حتى إنني رأيت في هذه القرية صفاً من أشجار النخيل الملكي. جئنا إلى كارتاغو، وهو سوق المدينة آنذاك. هنا في عام 1886، بدأ خط الطريق الحديدي بالمضارب الأمريكي، مينور كيث. تُعرض المجرفة الفضية التذكارية، وعليها نقش جميل في المتحف الوطني بسان خوسيه، مع بقية الآنية الفخارية، والأقنعة والمجوهرات الذهبية ولوحات الفدائيين الكوستاريكيين ورؤسائهم من حقبة ما قبل كولومبس(وقد عرضت أيضاً عكازات المشي أيضاً، كل واحدة على حدة و الشوارب مثلها).

ثمة لوحة لكارتاغو في ذلك المتحف تصوّر نتيجة هزّة عام 1910 الهائلة. إنّها لوحة رائعة، لأنّ قبضان السكة الحديد تظهر في وسط المدينة بالضبط، في مقدمة اللوحة، وقد تغطى كاملها بأحجار البناء التي سقطت من جدار أحد الأديرة. سوّت الهزّة بكارتاغو الأرض، ولكن عدا الخطوط الحديدية التي رُممت، لم يتبق شيء من كارتاغو القديمة.

كان المقعد المجاور لمقعدي خالياً. وعندما غادرنا كارتاغو مباشرة جلس عليه رجل شاب، وسألني عن مدى بعد وجهتي. قال إنّه ذاهب إلى سيكيريس.

قال إنّ ليمون كانت مدينة جميلة، ولكني قد أشكو زحامها. لن نصل إلى سيكيريس قبل ساعات، وكان يأمل أن أعلمه شيئاً من اللغة الإنجليزية. كان قد حاول تعلّمها لكنه وجد في ذلك مشقة.

كان اسمه لويس الفارادو كما قال. سألته إن كان بوسعنا التغاضي عن الدرس.

قال: "الأمر لا يعدو كونك تبدو كمعلم. أعتقد أنّ بوسعك مساعدتي" وقال بالإسبانية: " هل أحببت كوستاريكا؟"

أخبرته أنني أراها بلداً جميلاً.

"لم تعتقد ذلك؟"

قلت: الجبال.

"إنّها ليست كجبال أوريغون تلك في جمالها، أو علو ارتفاعها."

قلت: النهر.

كان في الوادي ذلك النهر الجميل.

" الأنهار في أوريغون أجمل بكثير."

أخبرته أنني أجد أهل كوستاريكا لطفاء للغاية.

" الناس في بوسطن يبتسمون دائماً. وهم أكثر ودّاً من أهل كوستاريكا."

قلت أنا:" إنّه بلد أخضر، هل زرت أوريغون؟"

قلت أنا: "لا، هل فعلت؟"

لقد فعل. كانت هذه هي الرحلة الوحيدة له خارج كوستاريكا- فصل صيف في أوريغون، محاولاً تعلّم اللغة الإنجليزية. كانت زيارة مذهلة، إلا أنَّ دروس اللغة الإنجليزية لم تثمر.

لم يزر نيكاراغوا أو بنما: إنهما مكانان قذران. قال ينبغي أن أعود للولايات المتحدة وأزور أوريغون بدلاً عن الذهاب إلى بنما.

كان النهر يجري تحتنا، والمشهد قد صار أوسع، وأبسط، وأشد رهبة، سلسلتان متوازيتان من الجبال، وبينهما أخدود- سحيق لحد أصابني بالقلق. وفي المضيق نوافير من الرطوبة، الرذاذ المتناثر من النهر المزبد. كان هذا نهر ريفنتازون. نهر سريع الجريان، وقوته شقت جانبي الجبال فتكّون الوادي العميق، الممتليء بركام انهياراتها -الجدران الصخرية المنهارة، والصخور التي يجري فوقها النهر، والزبد العكر في المنحدرات- التي ترقد على بعد أربعمائة قدم أسفل القطار.

شجيرات حبوب البُن القصيرة لم تحجب المنظر. رأيت كيف استوى المضيق من جريان المادة البيضاء في قعر الوادي. ويبلغ طول وادي ريفنتازون أربعين ميلاً. الجبال في أماكن شاهقة الارتفاع مما يضطر القطار للهبوط عبر أنفاق (الصراخ، وارتفاع الصياح في العربة، ورائحة الجدران الرطبة) إلى جانب الجرف الذي يقرّبه من النهر كثيرا حتى تصطدم زخاته مياهه بالنوافذ، ثم يصعد مرة أخرى مسرعاً على الجسور والقناطر. كان دائمًا ما يصنع زاوية عند الاتجاه نحو الجسور، حتى تتسنى رؤيتها كاملة، وكانت تبدو كشبكة من العوارض الرشيقة، أو في بعض الأحيان جذوع الأخشاب مشدودة بين جرفين. بدا كما لو أنَّ هذا منظر لجسر على مسار آخر، أو أننا سنمر عبره. ولكن كان القطار ينعطف دائماً بحدة مصدرًا أصواتًا مزعجة حالما يبدأ السير فيه، وبدا الغدير تحته خطيراً جدًا- شلالات متدرجة تندفع نحو غدير أكبر هناك، سألت نفسي كيف تكون كوستاريكا مختلفة جداً عن جارتيها ولكنها كانت جميلة جداً وبها وفرة من أشجار الصنوبر مثل فيرمونت، وقد سقيت للتو. هنا مَنْشرة خشب، وهناك مزرعة ألبان، وأبقار تقضم العشب على جوانب التل، وجياد غير آبهة بالقطار، مقيدة إلى أسيجة. بعدها، كنت سأقابل بائع خيول أمريكيًا في كوستاريكا.

قال: "كانت خيولي لتثب وتشنق نفسها إن ربطتها على تلك المسافة القريبة من القضبان." إنّها سلسلة حديد جبلية- في الجزء الأول من الرحلة، ويسافر القطار في رفّ صخري ضيّق شُقّ في جانب الجبل. ضيّق إلى أي مدى؟ حسناً في مكان ما منه اضطرت إحدى الأبقار للدخول في القضبان. لا شيء سوى جدار الجبل إلى اليسار، ونزلة النهر إلى اليمين. احتارت البقرة، وجعلت تتمايل أمام القاطرة، التي هدأت من سرعتها حتى لا تقتلها. كانت تقف أحياناً وتضع أنفها في جدار الجبل، تشمشم الهواء من طرف الجرف، ثم تبعد مرة أخرى، وهي تتأرجح يمنة ويسرة، متصلبة القدمين كما تركض الأبقار. كانت سكة القطار من الضيق بحيث لم تسمح لها بالمرور لذلك ركضت وهي ترتج، ويتأرجح ذيلها على هذا الرفّ الصخري الشاهق لمسافة ميل تقريباً. كانت شجيرات حبوب البن كثيفة في الجزء الأقرب إلى النهر، وثمة أشجار كاكاو أيضاً، والأوراق العريضة، والحبيبات المنتفخة، والبراعم التي تشبه البكرات.

كان تدوين الملاحظات أسهل هنا، إذ أنّ القطار يسير ببطء شديد على القضبان المسطحة بجانب حوض النهر. ولكن لم تكن ملاحظاتي كثيرة. كتبت: *صخور*، وادٍ- نهر- رذاذ- جسر هشّ- بقرة عالقة- كاكاو.

"أنتم أيها الأمريكيون تحبّون السفر منفردين." كان هذا لويس.

قلت: "أنا أكره السفر وحيداً. إنّه يبعث على الكآبة. أفتقد زوجتي وأطفالي. ولكني أرى بوضوح عندما أكون وحدي."

" أنتم لا تتحدثون إلى بعضكم البعض، أيها الأمريكيون."

" هل تعني في أوريغون؟"

" هنا، أثناء السفر."

"نحن نتحدث طوال الوقت! من قال إنّ الأمريكيين لا يحدثون بعضهم البعض؟"

قال لويس: " هناك أمريكي، ألا تراه؟ لماذا لا تتحدث إليه؟"

كان الرجل يرتدي قبعة زرقاء، قبعة بارني فيلد بحافة واقية من الشمس، كان قميصه أخضر فاتح اللون، وقَصة بنطاله كالبحّارة. على الرغم من أنّه كان جالساً، لكنْ يد حقيبته كانت معلقة على كتفه، وقد تشبث بالحقيبة جيداً، كما لو أنّها تحوي شيئاً ثميناً. حرقت الشمس بشرته، وخمنت أنّه في الستينات من العمر- كان شعر ذراعيه أبيض اللون. جلس قرب السود، الذين كانوا يتحدثون باللغتين الإسبانية والإنجليزية، ولكنه لم يتحدث مع أي أحد.

قلت: " لم أعرف أنّه أمريكي."

عدّ لويس هذا الأمر مضحكا. " أنت لا تعلم إنّه كان أمريكياً؟"

أفترض أنّ السبب يكمن في قبعته التي عدّها لويس- في سذاجة- شبابية. كان السيرلانكيون يرتدون القبعات الصوفية وقبعات الفيدورا. قبعة هذا الرجل كانت منحرفة بزاوية غير مألوفة، ولم تلائم وجهه المتجعد.

قال لويس:" تحدث إليه."

"لا، أشكرك."

أتحدث إلى هذا الرجل العجوز لمجرد أنّ لويس أراد أن يسمعنا نتحدث الإنجليزية؟ لقد قابلت ما يكفي من الأمريكيين في سان خوسيه. إنّه السبب في مغادرتي المدينة، بحثًا عن شاطيء المحيط الهندي غير المأهول كما عُرف عنه. ربما انتهى بي الأمر وأنا أتبادل الحكايات مع أسود أشيب الرأس في حانة بمدينة ليمون، حكايات الفرائين، والقرصنة على شاطيء البعوض[[39]](#footnote-39).

قلت له: "هيا، تحدث إليه. فربما علمك شيئاً من اللغة الإنجليزية."

كنت أخشى شيئاً آخر بعد: تحريف الرفقة. لم أرد أن أرى الأشياء بعين أي شخص آخر. عرفت هذه التجربة، فإن أشاروا إلى شيء رأيته بالفعل، ستدرك أن تصورك كان أوضح، وإن أشاروا إلى شيء ما أغفلته، ستشعر بالخداع، وأفدحه أن تقدمه أنت لاحقاً على أنّه رأيك الخاص. الأمر مزعج في الحالين. أوه انظر، إنّها تمطر، هذا سيء بقدر أن يكون للكوستاريكيين وحدة خاصة بهم لقياس الطول: هي الفارا[[40]](#footnote-40).

أردت أن أركّز كل انتباهي على ماهو خارج النافذة، أردت تذكر الوادي، وهذا النهر، وهذه الجبال، والنسمة المنعشة في القطار، وعطر الأزهار البرية التي تنمو بالقرب من القضبان. كتبت: أزهار حسنة المنظر.

نهض لويس وهو يبتسم بعصبية. سار عبر الممر، وغمغم للرجل العجوز. لم يفهم العجوز. حاول لويس مرة أخرى. قلت لنفسي:" أيها الوغد." والآن التفت الرجل العجوز تجاهي وابتسم لي. نهض. وأخذ لويس مقعد الرجل. جاء الرجل العجوز نحوي، وجلس على مقعد لويس.

قال: " سعيد لرؤيتك يا صبي."

لقد فوّت جولته السياحية. كانت ستكون على قطار حصري تماماً حتى ليمون.

ورحلة بالقارب على الساحل، ومع الفوج المسافر طاهٍ، وهناك بعض الوجبات المذهل. كان ليرى القرود والببغاوات.

بالعودة إلى ليمون: السباحة قليلاً، فندق أربعة نجوم، ثم حافلة إلى المطار، وطائرة إلى سان خوسيه. كانت تلك هي الجولة. لكن (كان النهر يحطّم زورقاً قديمًا إلى أجزاء، وأولئك الصبية الصغار- أكانوا يصطادون حقاً؟) فهم مدير الفندق الوقت خطأ، وغادر الفوج في السادسة وليس التاسعة، عليه وفي آخرلحظة، عندما لم يجد ما يفعله في سان خوسيه، سأل الرجل العجوز عن القطار، وقفز داخله، هكذا وحسب. ومن يدري، ربما لحق ببقيتهم، وفوق كل شيء، دفع دولاراته الثلاثمائة وهاهو هنا يحمل إيصاله، وكتيب القسائم.

أمامنا ست ساعات قبل أن نصل إلى ليمون.

" أتعرف كم من الوقت سيستغرق القطار؟"

قلت:" أنا لا أمانع إن استغرق القطار أربعة أيام."

تكفل هذا الرد به لفترة، ولكن حالما عادت روعة الوادي للظهور بدأ الثرثرة. كان اسمه ثورنبيري، وكان يعيش في نيو هامشاير، وهو رسام-يرسم الصور. لم يكن رساماً طوال عمره. واضطر حتى قبل وقت قريب إلى أن يكسب عيشه من العمل كفنان تجاري ومصمم إعلانات. كانت فترة عصيبة، وكان قلقاً بشأن الطريقة التي تضمن له الحصول على المال الكافي لشراء البقالة، ولكن قبل سنوات قليلة حصل على بعض المال- مبلغ مالي كبير حقاً- وانطلق في رحلة لرؤية العالم. سافر إلى هاواي، وإيطاليا، وفرنسا، والانديز الغربية، وكولومبيا، والاسكا، وكاليفورنيا، وإيرلندا، والمكسيك، وغواتيمالا. وكانت انطباعاته عن غواتيمالا تختلف عن انطباعاتي. لقد أحبّ غواتيمالا، أحبّ الأزهار، وأمضى أسبوعين في انتيغوا مع زميل له لطيف كان يقيم الحفلات كل ليلة. لم يذهب السيد ثورنبيري إلى زكابا. " هذه المشاهد تخلب لبّي." كانت للسيد ثورنبيري طريقة عجيبة في الحديث. كان يغمض عينيه حتى تصبحا مجرد شقّين. وينكمش وجهه كأنّه يكشّر لإضحاك الناس، ويتربّع فهمه كالمبتسم، ثم يتحدث من بين أسنانه دون أن يحرّك شفتيه. إنها طريقة حديث الناس عندما يرفعون براميل الرماد، كأنهم يلوون وجوههم، ويتأوهون الكلمات.

ثمة أمور كثيرة خلبت لبّ السيد ثورنبيري: هدير النهر، وروعة الوادي، الأكواخ الصغيرة، والصخورالكبيرة، والمناخ أكثرها أثراً عليه- وقد اكتشف ماهو أشد حرارة. كانت عبارة غريبة من رجل في عمره، فقبل كل شيء كان السيد ثورنبيري رساماً. تساءلت لماذا لم يجلب معه دفتر رسمه. وكرر أنّه ترك الفندق في آخر لحظة. وكان كما قال- يسافر خفيفاً.

" أين حقيبتك؟"

أشرت إلى حقيبتي على رف الأمتعة.

" إنّها كبيرة جداً."

" هذا كل شيء أملكه. ربما التقيت بامرأة جميلة في ليمون وقررت أن أقضي ما تبقى من حياتي هناك."

" لقد فعلت هذا من قبل."

قلت: " كنتُ أمزح"

ولكن السيد ثورنبيري كان ما زال عابساً.

" في حالتي كانت كارثة."

ورأيت بزاوية عيني أنّ النهر كان يفور، والرجال يقفون على الجزء الضحل- لم أستطع معرفة ما كانوا يفعلون- وقد نمت الزهور الزرقاء والزهرية بجانب القضبان.

قال السيد ثورنبيري: " كان ذلك الزميل الذي في أنتييغوا يملك منزلاً جميلاً، وحوله سور، عليه من زهور ست الحسن ما يشبه تلك تماماً."

قلت: " إذن هذه هي زهور ست الحسن؟ كنت أتساءل."

أخبرني السيد ثورنبيري عن رسوماته. لا يمكنك أن تكون رساماً أثناء حقبة الركود، لم أستطع جني المال من هذا العمل. لقد عملت في ديترويت ومدينة نيويورك. عانى فيه ما عانى. ثلاثة أطفال ولكن زوجته توفت عندما كان الثالث ما يزال رضيعاً- أصيبت بعدوى السلّ ولم يكن قادراً على نفقات طبيب ماهر، لهذا توفيت، وكان عليه أن يربيّ أطفاله بنفسه. لقد كبروا وتزوجوا، وذهب إلى نيو هامشاير لتعلّم الرسم الذي طالما تمنى ممارسته.

كان مكانًا لطيفاً، شمال نيو هامشاير، في الحقيقة قال إنّه كان يشبه كثيراً هذا الجزء من كوستاريكا.

" اعتقدت أنّها تبدو مثل فيرمونت. شلالات بيلوز."

"ليس حقاً."

ثمة كتل خشبية في الماء، كتل ضخمة وقاتمة تصطدم ببعضها وتعلق في الصخور. لماذا جذوع الأشجار؟ لم أرد سؤال السيد ثورنبيري، لماذا كانت هنا. إنّه لم يقم هنا لفترة أطول مما فعلت. كيف له أن يعرف لماذا كان هذا النهر الذي لا بيوت حوله الآن، يحمل في تياراته جذوع الأشجار في طول أعمدة الهاتف وضعف سمكها؟ كنت لأركز في ما أرى: لأكتشف الإجابة. ركزّت ولم أكتشف شيئاً.

قال السيد ثورنبيري: "مَنْشرة، أترى تلك الأشياء الداكنة في الماء؟" أخذ يحدّق، وصار فمه مربّعاً. " جذوع الأشجار." اللعنة، فكرت، ورأيت المنشرة. إذن هذا هو السبب في وجود الكتل هنا. لقد قطعت في أعلى النهر. لا بد أنهم....

" لابد أنّهم وضعوا هذه الأخشاب لتطفو على الماء حتى تقطع إلى كتل صغيرة،"

قلت: " إنّهم يفعلون هذا في موطني."

قال السيد ثورنبيري: " هذا ما يحدث في بلدي."

ظل صامتًا لبضع دقائق. أخرج آلة تصوير من حقيبة كتفه، والتقط الصور من النافذة. لم يكن من السهل عليه التقاط الصور من ورائي، ولكني سأشقى إن تخليت عن مقعدي بالزاوية.

نحن في وادٍ آخر بارد، ذي أعمدة صخرية في كل الاتجاهات من حولنا. و رأيت بركة من المياه.

قال السيد ثورنبيري: " بركة مياه؟"

قلت: " جميلة جداً،" هل هذا ما تعين علي قوله؟

قال السيد ثورنبيري: " ماذا؟"

" بركة ماء جميلة."

مال السيد ثورنبيري إلى الأمام. قال: " كاكاو"

"رأيت بعضاً منها هناك"

"ولكن يوجد هنا المزيد منها. أشجار ناضجة.[[41]](#footnote-41)"

هل كان يخالني أعمى؟ قلت: " على أية حال، بينها بعض أشجار القهوة."

قال السيد ثورنبيري، وهو يمعن النظر: " عنبية".

مال بجسمه على النافذة فوق حِجري والتقط صورة. لا، لم أكن لأتخلى عن مقعدي لأجله. لم ألمح عنبية القهوة فكيف له أن يراها؟ لم أرد رؤيتها.

" الحمراء ناضجة. ربما سنرى أناساً يجمعونها عن قريب. يا إلهي، أنا أكره هذا القطار."

أزال ذلك التعبير سيماء التعب من ملامحه: " لقد أسرَتني."

بالتأكيد كان الفنان ليحضر دفتره، وبعض الأقلام، ويخربش بتركيز وفي صمت.

لكن كل ما فعله السيد ثورنبيري بآلة تصويره أو حديثه كان غبياً، كان يسمي ما يراه من أشياء وحسب، لا أكثر.

أردت إقناع نفسي بأنّه كذب بشأن كونه رساماً. ليس ثمة رسام يثرثر بلا هدف هكذا.

قال السيد ثورنبيري: " سعدت بلقائك!، كدت أجن في ذلك المقعد".

لم أقل شيئاً. ونظرت باتجاه النافذة.

قال السيد ثورنبيري: " كأنّه خط أنابيب،"

كان ثمة أنبوب صديء بالقرب من القضبان، يسير بمحازاتنا في المستنقع الذي حل محلّ النهر. لم أر النهر وهو يغيب. كانت هناك أشجار نخيل، وذاك الأنبوب الصديء، أشبه بخط أنابيب كما قال. ظهرت بعض الجروف الوعرة خلف أشجار النخيل، وصعدنا نحو الجروف، وأسفلنا كانت الجداول. . .

قال السيد ثورنبيري: " جداول"

والآن بعض الأكواخ، أكثر جمالاً، مثل أكواخ المزارعين، خشبية ولكنها متينة البناء، مرفوعة على سوارٍ فوق الأرض المشبعة بالماء. وقفنا لدى قرية سوامب-ماوث: حيث المزيد من تلك الأكواخ.

قال السيد ثورنبيري: " الفقر."

قلت: " لا تكن سخيفاً"

هذه منازل خشبية جيدة، ذات أسقف واسعة من الصفيح، وتطل من النوافذ وجوه عليها سيماء الصحة، ويقف على الشرفات أطفال مهندمون. لم يكونوا أناساً أثرياء، ولكنهم ليسوا فقراء أيضاً.

بدا لي مذهلاً كم تبعد سان خوسيه من ليمون- كان أشبه بدغل كثيف تكثر فيه الكروم، وسافانا غنية، وأناس يعيشون في أكواخ جافة متقنة الصنع. معظم هؤلاء الناس من السود، وكذلك معظم الركاب في هذا القطار الآن. سرت نحو آخر العربة تجنباً للسيد ثورنبيري، وتحدثت مع رجل عجوز أسود.

قال إنَّ السود جُلبوا إلى هنا من ماليزيا لبناء الطرق الحديدية. قال باللغة الإنجليزية: " لم نصب بالمرض، ولكنْ البريطانيون جميعهم أصيبوا."

كان والده مواطنًا كوستاريكيًا، وأمه جامايكية. اللغة الإنجليزية هي لغته الأولى، مما سمح لي بأخذ لمحة عن خلفية العائلة الاجتماعية- اضطلعت والدته بمهمة تربيته. كان ينتقد الأولاد السود الذين يصيحون ويضحكون في ممر القطار. "لم يكونوا كأجدادهم الذين كانوا يحبون العمل."

كانت المنازل على الطراز الهند-غربي أيضاً. ولابد أنّها كانت من النوع الذي رأيته في ريف الجنوب. في قرى الزراعة على نهر المسيسييبي وألاباما، ولكنها كانت أفضل في الترتيب والمتانة.

ثمة مزرعة موز في كل فناء رطب، وفي كل قرية متجر عام، تحمل لافتته اسماً صينياً في أغلب الأحوال، وقد كانت معظم المتاجر ملحقة بمبنى آخر، كان بمثابة حانة، ووكالة مضاربة. يسود في هذه القرى جو من الود والصداقة، وعلى الرغم من أنّ الكثير من الأسر كانت سوداء خالصة، إلا أنّ الأسر المختلطة الأعراق موجودة أيضاً. أشار السيد ثورنبيري إلى هذا حالما عدت إلى مقعدي. " ولد أسود، فتاة بيضاء، يبدوان منسجمين معاً. خط أنابيب مرة أخرى." بعد ذلك، وفي كل مرة يظهر فيها خط الأنابيب- تكرر ذلك حوالي عشرين مرة من هنا إلى الساحل- ظل السيد ثورنبيري يشير إليه.

تعمقنا في موضوعات الحوار. كانت الحرارة ثقيلة من رائحة المزارع الرطبة ومياه المستنقع وشذى أزهار الغابة المتخمر. كانت الطيور ذات مناقير طويلة، وسيقان كالعصي، وغاصت بأنوفها، باسطة أجنحتها متخذة شكل الطائرة الورقية حتى تتفادى السقوط.

تقف الأبقار وهي مغمورة حتى الركب في المستنقع، وهي تخور. كانت أشجار النخيل مثل النوافير، أو المقاعد ذات الفرش المريشة، على ارتفاع ثلاثين قدماً- ولم أر أي جذوع، فقط هذه الأوراق الريشية التي انبثقت باتجاه السماء من سطح المستنقع.

قال السيد ثورنبيري: " كنت أنظر إلى أشجار النخيل."

قلت: " إنها تشبه الريش العملاق."

قال: " نوافير خضراء ظريفة الشكل."

قال السيد ثورنبيري: " انظر، المزيد من المنازل" وكانت هذه قرية أخرى.

قال السيد نورثبيري: " حدائق الزهور-انظر إلى زهور الجهنمية تلك. لقد خلبن لبي. الأم في المطبخ، الأطفال في الشرقة. وذلك قد دهن للتو بالطلاء. انظر لتلك الخضروات كلها."

كان الأمر كما قال. مرت القرية، وعدنا مرة أخرى إلى الغابة المغمورة بالمياه. كانت الرطوبة عالية، والآن صار الطقس غائماً. ثقل جفناي. استيقظت لكتابة الملاحظات، لكن لم أجد مجالاً للكتابة مع السيد ثورنبيري الذي يندفع نحو النافذة لالتقاط صورة كل خمس دقائق. وكان يسألني عن سبب كتابتي. دفعني حديثه إلى التكتم. في الضوء المخضّر الخفيف، كان دخان خشب نيران الطبخ قد زاد من تلبد الهواء. كان بعض الناس يطبخون تحت المنازل، في ذلك الفضاء الفسيح تحت الأرضية المرتفعة.

قال السيد ثورنبيري: " إنّهم بارعون كما تقول." متى قلت ذلك؟ "كان كل واحد من المنازل التي مررنا بها يبيع شيئًا ما."

لا، قلت لنفسي، لا، هذا ليس صحيحاً. لم أر أي أحد يبيع أي شيء.

قال السيد ثورنبيري: " الموز، أغضب عندما أفكر في بيعهم إياه بخمسة وعشرين سنتاً للرطل. لقد اعتادوا بيعه بالكف[[42]](#footnote-42)."

"في كوستاريكا؟"

" نيو هامشاير."

صمت للحظة ثم قال: " بافالو." كان يقرأ لافتة محطة. ليست محطة- بل سقيفة.

"ولكنها تذكرني بمدينة نيو يورك." مررنا قبل بضعة أميال بقرية باتان. ذكرني السيد ثورنبيري أنّ في الفلبين هناك مكان اسمه باتان.

مسيرة باتان[[43]](#footnote-43). شيء طريف، للمكانين الاسم ذاته، خاصة اسم مثل باتان. وصلنا إلى قرية ليفربول. استعددت.

قال السيد ثورنبيري:" ليفربول، شيء طريف". كان السيد ثورنبيري تياراً من الوعي- نسخة أقل إيمائية من ليوبولد بلوم. في تلكؤ ستيفن ديدالوس[[44]](#footnote-44). كان ثورنبيري في الحادية والسبعين من العمر. يعيش وحده. وقال إنّه يطبخ بنفسه. وكان يلوّن. وربما كان في هذا تفسير لكل شيء. لقد غرست فيه هذه العزلة عادة الحديث إلى نفسه: كان يتحدث بأفكاره. عاش وحيداً لسنوات. توفيت زوجته في عمر الخامسة والعشرين. لكن ألم يأت على ذكر مأساة زوجية؟ بالتأكيد لم يكن يعني موت زوجته المأساوي. سألته عن هذا الأمر، لأجذب انتباهه من القرى التي نمر بها، وكان يكرر، إنّها خلبت لبّه. قلت: " إذن لم تتزوج ثانية؟"

قال: " لقد مرضت. وكانت هناك ممرضة في المستشفى في حوالي الخمسين من عمرها، بدينة قليلاً، لكنها غاية في اللطف. خلتها كذلك على الأقل. ولكنك لن تعرف الناس ما لم تعاشرهم. لم يسبق لها الزواج قط. خط الأنابيب هناك. أردت أن آخذها للفراش على الفور- افترضت أنّي مريض وهي ممرضتي. حدث ذلك كثيراً. ولكنها قالت: "لا ما لم نتزوج." جفل للحظة، واستأنف الحديث: " كان حفلاً رائعاً. ذهبنا بعده إلى هاواي، ليس هونولولو، ولكن إحدى الجزر الصغيرة. كانت جميلة- أدغال، وشواطيء، وأزهار. لم تحبها هي. قالت: " هادئة أكثر من المحتمل." كونها ولدت ونشأت في بلدة صغيرة بنيو هامشاير، بلدة صغيرة جداً- أنت تعرف هذه القرى- وذهبت إلى هاواي وتقول إنها هادئة جداً. كانت تريد الذهاب إلى النوادي الليلية. لم يكن هناك الكثير من النوادي الليلية. كانت ذات نهدين ضخمين، ولكنها لم تكن تسمح لي بلمسهما. " هذا يؤلم." كدت أن أجنّ. وكان لديها مشكلة مع النظافة. كانت تذهب في كل يوم من أيام شهر عسلنا إلى المغسلة، وكنت أجلس بالخارج لأقرأ الصحيفة بينما تغتسل هي. كانت تغسل الملاءات يومياً. وربما كانت تفعل ذلك في المشافي، ولكن ليس هذا بالأمر العادي في الحياة اليومية. ربما كنت أشعر بخيبة الأمل وقتها." خفت صوته. قال: " أعمدة الهاتف..خنزير...خط الأنابيب مرة أخرى." ثم " كانت كارثة حقيقية. عندما عدنا من شهر العسل قلت لها: " من الواضح أنّ الأمر لن ينجح." وافقتني الرأي، وغادرت المنزل في ذاك اليوم.

حسناً هي في الواقع لم تنتقل للعيش معي. وما عرفته لاحقاً أنّها تقاضيني طلباً للطلاق. كانت تريد النفقة، والإعاشة وكل شيء. كانت سترفع عليَّ قضية في المحكمة."

قلت له: " دعني أفهم، كل ما قمت به هو الخروج في شهر عسل صحيح؟ "

قال السيد ثورنبيري:" عشرة أيام. كان من المفترض أن يمتد لأسبوعين، لكنها لم تحتمل الهدوء. كان المكان هادئاً فوق احتمالها."

"ثم طلبت النفقة؟"

" عرفتْ أنّ أختي تركت لي مالاً كثيراً. لذلك تقدمت ضدي بشكوى."

" وماذا فعلت أنت؟"

ابتسم السيد ثورنبيري. كانت أول ابتسامة صادقة رأيتها على وجهه طوال فترة الظهيرة. قال: " ماذا فعلت؟ قاضيتها بدوري. بتهمة الاحتيال. انظر، هي لديها صديق- رجل. كان يتصل بها عندما كنا في هاواي. قالت لي إنّه أخاها. مؤكد."

كان ما يزال ينظر من النافذة، ولكن فكره في مكان آخر. كان يكتم ضحكته. " لم اضطر لفعل أي شيء بعدها. صعدت على منصة الشهادة. سألها القضاة: " لماذا تزوجتِ من هذا الرجل؟" قالت: " أخبرني إنّه يملك مالاً كثيراً. " أخبرني أنّ لديه مالًا كثيرًا! لقد أوقعت نفسها بنفسها، أرأيت؟ لم تؤخذ على محمل الجد في المحكمة. وأعطيتها خمسة آلاف سعيداً بالتخلص منها." واستأنف مباشرة دون توقف قائلاً: " أشجار النخيل،" ثم "خنزير...سياج...خشب...المزيد من زهور ست الحسن- كانت كابري غنية بها.. اسود مثل آس البستوني، ...، أمريكي عربة."

مرت الساعات، وظل ثورنبيري يتحدث بلا توقف. " طاولة بلياردو... على الرعاية الاجتماعية بلا شك...دراجة..فتاة حسناء...مصابيح."

أردت أن أدفعه من على القطار، ولكن بعد ما أخبرني إياه أشفقت عليه. ربما جلست الممرضة بجانبه هكذا، ربما أنّها قالت لنفسها: "*إن قال ذلك مرة أخرى سأصرخ."*

قلت: " متى كان شهر العسل المحبط هذا؟"

" السنة الماضية."

لقد رأيت منزلاً بثلاثة طوابق، وفي كل طابق شرفة. كان رمادياً، مصنوعاً من الخشب، وآيلًا للسقوط، ذكرني بفندق السكة الحديد الذي رأيته في زكابا. ولكن بدا هذا مسكوناً. كانت جميع النوافذ محطمة، وثمة قاطرة بخارية قديمة صدئة في الفناء الأمامي المعشوشب. ربما كان هذا منزل مشتل- كانت هناك ثلاث كتل من أشجار الموز في الجوار. أما المنزل فكان مهجوراً وقذراً، ولكن من منظر السياج المحطم، والفناء، والشرفات والإسطبل( ربما كان منزل مدرّب)، وكان من الممكن معرفة ماضي المكان الجميل، كان نوعاً من مساكن لوردات الموز الأباطرة في روايات ميغيل استرياس. وفي الغابة المظلمة، وحرارة الطقس بدا المنزل المتهالك رائعاً، مثل شبكة عنكبوت قديمة مهلهلة، ما زال بعض من تناسق تركيبها واضحاً للناظرين.

قال السيد ثورنبيري: " ذاك منزل غوطي كوستاريكي." قلت لنفسي: لقد رأيته أولاً. قال السيد ثورنبيري: " ثور البراهما، بط، جدول، أطفال يلعبون. " وأخيراً "أمواج تتكسر على الشاطيء"، وصلنا الشاطيء وكنا نسير بجانب الساحل ذي النخيل.

كان هذا هو ساحل البعوض، الذي يمتد من بورتو باريوس في غواتيمالا إلى كولون في بنما. وهو موحش، ويبدو كخلفية مثالية لقصة المنبوذين. وما تقع عليه من قرى وموانيء قليلة مهجورة، لقد تراجعت مع النقل، وعادت إلى الغابة. كانت هناك أمواج هائلة تتدحرج باتجاهنا، ورغوة بيضاء زاهية في الغسق، لقد تكسرت تحت أشجار نخيل الجوز مباشرة وبالقرب من القضبان. في هذا الوقت من اليوم، المساء، كان البحر هو آخر ما تبتلعه الظلمة، بدا كأنّه يحمل الضوء الذي ينسرب من السماء، والأشجار سوداء. لذلك في ضوء هذا البحر المنير، والسماء الشرقية التي ما زالت شاحبة، وزخات الأمواج المتكسرة، سار القطار مقعقعاً باتجاه ليمون. كان السيد ثورن بيري ما يزال يتحدث.

قال: " أظنني سأحب هذا المكان." ثم قال إنّه رأى منزلاً، وحيواناً، وناراً فجأة، حتى أصبحنا نتحرك في الظلام، وتوقف صوته. اختفت الأمواج، واشتدت الحرارة. رأيت عبر الأشجار وميض ضوء وهاجًا مريعًا، ونعب السيد ثورنبيري: " ليمون."

*& © &*

بدت ليمون مكاناً مفزعاً. ما إن أمطرت السماء حتى أنتنت البلدة. كانت المحطة على طريق موحل بالقرب من المرفأ، وقد عكست البركُ المباني المتضعضعة، والأضواء المفرطة. رائحة الأوز البحري الميت، والرمل الرطب، والمجاري المغمورة، والبحر، والزيت، والصراصير، والنباتات الاستوائية التي ينبعث عند نقعها البخار الحار المتعفن الذي يذكرك بأكوام السماد في الصيف، ورائحة العفن الفطري والعصف. كانت بلدة صاخبة أيضاً: الموسيقى المجلجلة، والهتافات، وأبواق السيارات. ومنظر الساحل والنخيل، والأمواج كان خادعاً. حتى إنّ السيد ثورنبيري أُصيب بالذهول بعد تفاؤله. رأيت وجهه، كان عابساً كأنّه لا يصدق. تأوه قائلاً: " يا إلهي، إنّها لا تستحق العناء." سرنا عبر البرك، وكان الركاب الباقون ينثرون علينا الماء وهم يمرون بنا مسرعين. قال السيد ثورنبيري:" إنّها تأسرني."

فكرت أنّ هذا حق وقلت: " من الأفضل أن أبدأ البحث عن فندق."

" لماذا لا تقيم في فندقي؟ أوه، أنظر، إنّها تمطر. هذا يأسرني. كأنه خط أنابيب."

قلت: " سأتجول حول المدينة فقط. أنا أصبح كفأر في متاهة عندما أصل مكاناً جديداً."

" بوسعنا تناول العشاء. ربما كان ممتعاً. ما يدريك ربما كان الطعام هنا ممتازًا." حدّق في الطريق وقال: " جئت إلى هنا بتزكية."

قلت: " لم يُزكَّ لي. إنّه يبدو جد غريب."

قال وقد فارقته نبرة الأمل: " ربما سألحق بتلك الجولة التي يفترض أن أكون ضمنها."

"أين ستقيم؟"

أخبرني. كان أغلى فندق في ليمون. فتعذرت بذاك السبب لأبحث في مكان آخر. اقترب رجل ضئيل الحجم ضعيف العقل وسألني بلطف إن كان بوسعه حمل حقيبتي. سُحبت على الشارع عندما أمسك بها. فوضعها على رأسه وسار بساقين مقوّسين- مثل قزم عاملٍ- إلى ساحة السوق. وهنا افترقنا أنا والسيد ثورنبيري.

قلت: " آمل أن تعثر على فوجك." وقال إنّه سعيد لمقابلتي على القطار: وكان الأمر ممتعاً فوق كل شيء. وسار مبتعدا. شعرت بحس ارتياح لا حدود له. كأنني تحررت لتوي من حبس طويل. كان هذا خلاصاً. نقدت القزم أجرة الحمل، وسرت مسرعاً في عكس اتجاه سير السيد ثورنبيري. أخذت أتنزه لأتذوق حريتي وأحرّك ساقيّ بعد طول جلوس.

لم تبد المدينة أفضل حالاً بعد ثلاثة مربعات سكنية. أليس ذاك الذي يقضم بأسنانه بالقرب من برميل الخردة المقلوب جرذًا؟ *إنّه بلد أبيض*، أخبرني بذاك رجل في سان خوسيه. لكن هذه بلدة سوداء، ميناء ساحلي من الأشجار الرطبة، وعفن البحار. جربت عددا من الفنادق. كانت كلها غرف سلالم تغزوها الديدان، والأشخاص المتعرقون يراقبون طاولات في ردهات الطابق الثاني. قالوا لا، لا غرف لديهم. وكنت سعيداً، لأنها بدت متسخة لحدٍ مقرف، والناس أفظاظًا، عليه سرت لبضع مربعات بعد. علي أن أعثر على فندق أفضل. ولكنها صارت أصغر فأصغر، وغاية في الازدحام. في أحدها، وبينما كنت أقف ألهث- أرهقني صعود الدرج- ركض زوج من الصراصير على الحائط ثم بخطوات قصيرة سريعة عبر الأرضية. قلت: صراصير. قال الرجل: " ماذا تريد هنا؟"

كان الفندق مشغولاً هنا أيضاً. اضطررت للتوقف في الفنادق واحداً بعد الآخر. ثم صرت أقف عند كل منها واحداً واحداً. لم تكن فنادق. بل شبكة من الشراشف النتنة، وبضعة غرف، وجزء من شرفة. كان عليَّ أن أعرفها أنّها ملأى: لقد قابلت الأسر المنزعجة تتلمس طريقها هبوطاً على الدرج، وقد حمل النساء والأطفال الحقائب، ولعق الآباء أسنانهم في عجز وهم يغمغمون: علينا البحث في مكان آخر. كان من الضروري بالنسبة لي العودة عبر الدرج الضيق مفسحاً المجال لهذه العائلات لتمر.

في أحد الأماكن (عرفت أنّه فندق من درجه المتداعي، والمصابيح غير المظللة، وأثاثه الذي أكله العث، والرائحة المملة.)، قالت امرأة ترتدي مريولًا: " هم- إنّهم يتكدسون." أشارت إلى ممر به أناس- جدات، وشابات، ورجال يتنهدون، وأطفال بأعين زجاجية، وسود، متعبون، يدفعون الحقائب داخل مقصورة، ويبدل بعضهم ثيابهم وقوفاً في الممر.

لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن الوقت. يبدو متأخراً، وكان الناس الذين لا يبحثون عن غرف في ليمون يتسكعون في الشوارع الرطبة. وقد كست ملامحهم نظرة التطفل تلك التي قد يفسرها الغريب بالسخرية أو على الأقل عدم المبالاة.

ليالي السبت في المدن الغريبة قد تنفّر أهدأ المسافرين. وفوق ذلك قال لي أحدهم: " لا تضيّع وقتك في البحث. ليس ثمة غرف شاغرة في فنادق ليمون. حاول غداً."

"وماذا أفعل هذه الليلة؟"

" ثمة شيء واحد يسعك فعله، أترى تلك الحانة هناك؟" كانت واجهة متجر مقشّرة، عليها خط من الأضواء فوق المدخل، وبالداخل، أشكال-رؤوس بشرية- ودخان، وصوت تكسّر الفخار. " ادخل، واختر فتاة وامض الليلة معها. هذا هو أملك الوحيد."

فكّرت في الأمر. لكني لم أر فتيات. عند الباب عصابة من الفتية، يبحلقون في الرجال الداخلين. جربت فندقًا آخر. كان المالك الأسود قد رأى ما أصابني من قلق بسبب إجابته على سؤالي. قال لي:" إن كنت في حالة طارئة حقاً، وليس لديك مكان آخر، عد إلى هنا. بوسعك أن تجلس على ذلك المقعد." كان مقعداً ذا مسند ظهر مستقيم في شرفته. وثمة حانة في الجهة المقابلة من الشارع، الموسيقى، ومجموعة أخرى من الشبان المحدّقين. صفقتُ للبعوض. كانت الدراجات النارية تمر بي، وصوتها يشبه المحركات الخارجية. كان هذا الصوت، والشبّان، والموسيقى كصرخة إنذار. لكني تركت حقيبتي مع هذا الرجل، وبحثت في شوارع أخرى. لم تكن هناك فنادق، ولا حانات، ولا غرف سكنية، حتى الموسيقى خمدت.

قررت العودة، لكني كنت قد ابتعدت كثيراً، والآن، أضعت طريقي. وصلت إلى منطقة من مدينة ليمون تعرف بجامايكا تاون- في بلد أبيض يتحدث الإسبانية، منطقة سود يتحدثون باللغة الإنجليزية، حيّ فقير.

كانت هذه أسوأ ما رأيت من شوارع في كوستا ريكا، وفي كل ركن منها يجلس عشرة أشخاص يتحدثون، ويضحكون، وكانت في حديثهم قهقهة.

شعرت بالمراقبة، لكن لم أشعر بالتهديد، ولم أشعر بعد بأني أضعت الطريق. كان الأمر كما لو أنّني سقطت في الظلام عبر ثقب في قعر جُبِّ خططي. سأواصل السقوط: لم يكن ثمة شيء أفعله حتى الفجر. قدماي تؤلمانني، كنت منهكاً، ومتسخاً، وأتصبب عرقاً، ولم آكل شيئاً طوال اليوم. لا المكان ولا الزمان يناسبان التفكير في عبثية الرحلة، ومع ذلك بدت كوستاريكا واعدة بما هو أفضل من هذه النهاية المظلمة العقيمة. في منعطف ما سألت بعض الرجال المتسكعين عن الطريق إلى السوق. سألتهم باللغة الإسبانية، فأجابوا بالإنجليزية: عرفوا أني غريب. كانت توجيهاتهم واضحة. قالوا لا مجال لأخطئه. رأيت صفاً من الفنادق، والغرف السكنية التي دخلتها في وقت مبكر من المساء. أثارت فيَّ مشاعر الاشمئزاز وقتها، ولكنها الآن لم تبد سيئة جداً بالنسبة لي. واصلت السير، وبالقرب من ساحة السوق، رجل يقفز بهدوء عبر الشارع، ينخفض أحد كتفيه عن مستوى الكتف الآخر بسبب الحقيبة التي حملها، قبعة زرقاء مضحكة، وقميص أخضر ساطع، وبنطال بحّارة، وزوج من أحذيةرقيقة النعل: ثورنبيري.

" كنت أبحث عنك في كل مكان."

كم افتقدت صحبته: أسعدني- شخص أحادثه.

قلت: " لم أتمكن من العثور على غرفة في أي مكان. ليس ثمة غرف شاغرة في ليمون. لقد قُضي علي."

أمسك بذراعي واجفل قائلاً: " في غرفتي ثلاثة أسّرة. اقم معي."

" أتعني ذلك حقاً؟"

" بالتأكيد- هيا."

شعوري بالراحة لا يوصف. أخذت حقيبتي من الفندق حيث قال الرجل إنّ بوسعي قضاء الليلة في مقعد على شرفته. عدّ السيد ثورنبيري المكان مبولة (وعلى مدى الأيام القليلة التالية كان يقول كلما مررنا به: "وتلك هي شرفتك!")

ذهبت إلى غرفته وغسلت وجهي، ثم احتسينا الجعة، ونحن نتذمر من ليمون.

دعوته إلى تناول الطعام خارجاً من قبيل العرفان. تناولنا السمك المشوي، وقلوب النخيل، وقارورة نبيذ، وأخبرني السيد ثورنبيري قصصاً حزينة عن حياته في نيو هامشاير، وعن شعوره بالوحدة. ربما سيستأجر منزلاً في بنتاريناس ليمضي فيه فصل الشتاء. فهو لا يستطيع الصمود أمام برد الشتاء مجدداً. لقد حوّل حياته لحالة من الفوضى كما قال. إنّه المال- أسهم شركة IBM التي تركتها له أخته. " الأشياء التي أريدها لا تشترى بالمال. ليس المال سوى هراء. إن امتلكته. وإن لم تملكه يصبح مهماً. لم أملكه دائماً.".

قلت: " لقد أنقذت حياتي."

" لم أكن لأتركك تسير على قدميك طوال الليل. إنّه خطر. أكره هذا المكان." هزّ رأسه.

" اعتقدت أنّي سأحبه. لم يكن سيئاً عند النظر إليه من القطار- أشجار النخيل تلك. خدعتني وكالة السفر تلك. قالوا هناك ببغاوات وقرود هنا."

" ربما بوسعك أن تنضم إلى جولة ما غداً."

" لقد سئمت من التفكير في ذلك." نظر إلى ساعته واستأنف: " الساعة التاسعة. وأنا مرهق. هل نتوقف عند هذا الحد؟"

قلت: " أنا لا أذهب للنوم في التاسعة عادةً."

قال السيد ثورنبيري: " أنا أفعل دائماً."

وعليه، ذهبنا للنوم. ثمة مفتاح واحد للغرفة. كنا مثل زوجين عجوزين، يتذمران في صمت عند وقت النوم، ويتثاءبان، ثم في احتشام ارتدينا ثياب النوم. سحب السيد ثورنبيري غطاءه وتنهد. أما أنا فقرأت لبرهة وأطفأت المصباح. ما زال الوقت مبكراً، والأصوات عالية. قال السيد ثورنبيري: " دراجة نارية...موسيقى..اصغ لهم يثرثرون...عربة ...صفارة القطار...تلك لابد أنّها أمواج." ثم نام.

***© © ©***على الرغم مما شعرت به من سوء نية تجاهه على القطار، إلا أنني عددت السيد ثورنبيري منقذي. ولأردَّ الصنيع، عثرت له على رحلة سياحية- بالقارب باتجاه الشمال عبر القناة الساحلية إلى لاغونا ماتينا، وفي الظهر على ساحل الحمم الطويل عند فم نهر ماتينا. ألح السيد ثورنبيري علي لأرافقه ("المال محض هراء") اشتريت لي تذكرة. كان القارب صغيراً. وكانت القناة تغص بالزنابق، لذلك كان الإبحار بطيئاً. إلا أنَّ زهور الأوركيد نمت في تجمعات على الأشجار الاستوائية، وهناك حلقت طيور مالك الحزين والبلون مروراً بنا، وبعدها البجع البني الذي كان يطير في تشكيلات مثل الأوز.

قال السيد ثورنبيري: " لا أرى أية ببغاوات. لا أرى أية قرود"

ذهبت أنا إلى مقدم الزورق وجلست هناك تحت أشعة الشمس، أراقب الغابة وهي تمر. " فراشات." قال السيد ثورنبيري الذي بقي تحت المؤخرة الظليلة.

كانت زرقاء ساطعة، ومربعة الشكل، في حجم حامل القدر، تحاكي زهرة الأركيد التي ترفرف وسطها. قال السيد ثورنبيري: " المزيد من طيور مالك الحزين. أين الببغاوات؟" مثيراً فيَّ رغبة بدفعه خارج القارب. ولكني شعرت بالعار من انفعالي: لقد أنقذني. قال السيد ثورنبيري:" انظر كم كل شيء حولنا أخضر"

وصلنا إلى البحيرة في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثون، وأرسينا القارب هناك لأنَّ الربان الأسود خشي أن يجرفنا المد عند المصب إلى البحر. سرنا إلى شاطيء الحمم الرمادية. سبحت. هتف بي الربان الأسود باللغة الإسبانية لأخرج من الماء. ثمة أسماك قرش في المياه. قال إنّها أشد أسماك القرش جوعاً. سألته الأشد جوعاً؟ قال أعنف أسماك القرش. سألته عما إذا كان قد رأى أياً منها. قال لا. ولكنه يعرف أنّها كانت هناك. قفزت عائداً إلى الماء. صرخ الربّان الأسود: " أسماك القرش!"

قلت: " أين؟" كنت غاطساً في الماء حتى الخاصرة.

"هناك! اخرج! اخرج!"

وأنا أتراجع خارجاً من الماء رأيت الزعنفة الظهرية السوداء لسمكة قرش تمخر سطح الماء. ولكن المخلوق نفسه لم يبد أطول من متر واحد. لقد رأيت أسماك قرش أضخم في ايست ساندويش على رأس الكود وقلت هذا للربّان الأسود. لكنه ظل على رأيه بأنّ السباحة كانت جنوناً مني، فتعاطفت مع مخاوفه، وذهبت في نزهة على الأقدام بدلاً عن ذلك. قابلني السيد ثورنبيري على الشاطيء. سرنا على طول الساحل. قال هو: "خشب طاف، كلها حمم كما تعرف. هذا هو السبب وراء سواد الرمل الشديد". انكسر مسمار قص محرك القارب في رحلة العودة. ونادى الربّان على زورق مارٍ، واختفى لساعة أو أكثر بحثاً في أكواخ القنال عن مسمار قصٍ جديد.

قال السيد ثورنبيري: " قارب الرحلة السياحية الآخر به طاهٍ خاص. وهذا بدون محرك حتى."

قلت:" قد ننقطع هنا لأيام." كان هذا حقداً، لأني بالفعل رأيت الربّان الأسود وهو يقترب منا في زورق صغير. وعند العودة إلى ليمون وجدت لي فندقاً. ذهب زوار العطلة الأسبوعية إلى ديارهم، وتخيرت ما راق لي. لم يكن فندقاً سيئاً، مع إنّ الفراش كان رطباً من الهواء المشبع برطوبة البحر، وأصابني من البعوض عذاب، وغضّ صخب خضخضة الأمواج مضجعي لمنتصف الليل. ومع ذلك، في العزلة- كانت سانحة للتفكير بوضوح- حاولت فهم مفارقة ثورنبيري.

كرّست اليوم التالي للتجول في ليمون، ولكن عند تفحصها عن قرب، لم تبد ليمون أفضل مما كانت عليه في الليلة الأولى تلك. مدينة رطبة نتنة بها برك موحلة، ومبانٍ سلبتها الرطوبة ألوانها. وتحوّلت الواجهات الجصّية إلى لون وقوام الكيك القديم، وفتات الخرسانة يتبعثر على الأرصفة. وفي الحديقة، كانت حيوانات الكسلان ثلاثية الأصابع تزحف على أغصان الشجر، وفي السوق وعلى درابزين المباني المتداعية نسور جرباء. وقد تحلقت نسور أخرى حول البلازا. أكانت في في العالم بأسره مياه آسنة أقذر من هذه؟ جاء كولمبوس إلى هنا مع إبنه فيرديناند. كتب فيرديناند- الذي كان في الرابعة عشر من العمر آنذاك- شهادته عن تلك الرحلة الرابعة، ووصف مدينة ليمون بقوله:" رابية، غنية بالأنهار، وتكثر فيها الأشجار السامقة، التي نمت كثّة كالريحان في الجزيرة الصغيرة أيضاً [جزيرة أوفا- عُرفت باسم كيريفي لدى الهنود]، بجانب بساتين الأشجار العالية جداً.... لهذا السبب سماها الادميرال [كولومبس] لا هويرتا ["La Huerta "أي الحديقة]." ربما كانت كذلك لكن شهادات هذه الرحلة جاءت مناقضة. كان فيرديناند وأبوه ينظران إلى الأمور بطريقة مختلفة أحياناً. كتب فيرديناند لتهدئة مخاوف البحّارة، أرسل الهنود رجلاً عجوزا رفقة "فتاتين واحدة في الثامنة تقريباً من عمرها، والأخرى في عامها الرابع عشر... أظهرت الفتاتان قوة هائلة، لأنّه ومع إنّ المسيحيين كانوا غرباء تماما بالنسبة إليهن في المظهر، والسلوك، والعرق، إلا أنّهما لم تبديا أية إشارات تدل على الحزن أوالخوف، ولكنهما بدتا مبتهجتين محتشمتين طوال الوقت. لذلك عاملهما الأدميرال بالحسنى..." في الرسالة النادرة إلى الملوك، كان لكولمبس نسخة أخرى من هذه الرواية. إذ كتب:"في كارياي [ليمون] والأراضي المجاورة عرّافون. كانوا ليعطونني العالم مقابل ألا أمكث هناك ساعة زمن. وحالما وصلت هناك، سارعوا بإرسال فتاتين، في كامل زينتهما، كانت الكبرى بالكاد في عامها الحادي عشر، والأخرى في السابع، وقد افتقرت كلتاهما للحشمة في التصرف فلم تختلفا عن العاهرات في شيء. فيهما شيء من قوة سحرية كامنة. وحالما وصلتا، وجهت بأن تُهديا مع بعض من شاحناتنا التجارية وأرسلتهما مباشرة إلى الشاطيء..."

زادت حدة رغبتي في مغادرة ليمون ذات صباح، بينما كنت – دون أن يكون لدي ما أفعله خير من هذا- أقف في الساحة أراقب النسور: هل كانت نسوراً، أم صقوراً أم نوعًا آخر من الطيور الجارحة؟ سمعت صوتاً حاداً ورأيت رجلاً أسود هائل الجثة يقترب مني. كان يحمل شيئاً فضيّ اللون، ويرتدي قبعة صوفية، وكان حافي القدمين. التمعت عيناه من لوثة بعقله. وكان يعاني رعشة.

قال: " أنا ابن الرب". هزّ الشيء الفضي، ثم حمله في تبجيل كأنّه حقّ القربان المقدس. كان قلماً ذا سن دوّارة. " أنا ابن الرب." ابتسم الناس. وأفسحوا له ليمر. ربما لم يفهموا اللغة الإنجليزية. " أنا ابن الرب." وقفت أنا جانباً. وجلس السيد ثورنبيري في الاستقبال الصغير بفندقه. على وجهه بدا قلق عميق. كان يتأمل مطوية سياحية. ووثب لدى رؤيتي.

قلت: " لنخرج من هنا."

قال: " لقد حاولت، الطائرة محجوزة بالكامل. والحافلة لن تغادر قبل حلول المساء."

غادر القطار أيضاً، في الخامسة من ذاك الصباح. قلت: " بوسعنا أن نستقل سيارة أجرة."

"سيارة أجرة! إلى سان خوسيه؟"

اتجهنا إلى سيارة أجرة تقف في الساحة. اقتربت من سائق أقل السيارات التي رأيتها أنبعاجاً وسألته: كم تكلف الرحلة من هنا إلى سان خوسيه؟ فكّر للحظة ثم همهم برقم كبير للغاية. ترجمت ما قاله للسيد ثورنبيري الذي أجاب: " قل له إنّا موافقان."

ومن حيث المبدأ أجبرته على تخفيض عشرة دولارات، وألححت عليه أن يوصلنا إلى سان خوسيه في موعد الغداء. وافق، وابتسمت.

قال: " لم أقم بهذا الأمر من قبل."

قال السيد ثورنبيري: " هذه فكرة رائعة. اعتقدت أني لن أخرج أبداً من ذلك المكان."

نظر من خارج النافذة وأغمض نصف إغماضة وقال:" كوخ،" "خنزير." "بقرة." "موز." وكانت حماسته تزداد كلما اقتربنا من سان خوسيه.

قال: " انظر، هناك خط أنابيبنا!".

**-11-**

**خط المحيط الهاديء: قطار الساعة 10:00 إلى بنتاريناس**

**---**

بينما كنت أسير في الشارع الرئيسي بسان خوسيه ذات صباح عقب حادثة ليمون، رأيت الربّان راغلز حاملاً حقيبة في كل يدٍ، ويسرع خارجاً من فندقه. لم يكن يغادر المدينة، كما قال، بل يبدّل فندقه بآخر. لقد حاول في الليلة الماضية، ولأول مرة منذ وصوله إلى سان خوسيه، أن يدعو فتاة إلى غرفته. وماحدث أنّ المدير لم يسمح لها حتى باجتياز بهو الاستقبال.

ما أثار حفيظة آندي قول المدير إنّ لديه معايير ملزمة. ولهذا بحث آندي عن فندق آخر. قال: " أنا خارج. إلى حيث يمكنك أخذ من تريد إلى غرفتك."

" لك أنت أيضاً معاييرك الخاصة."

" أتراهن. سأجعل من رفض الإقامة في فندق لا يمكن فيه دعوة زنجية ذات رأسين عادة تحتذى."

رافقته إلى الفندق. كان مبنى آيلًا للسقوط في حي للدعارة، يقدم مأكولاته للبحارة البنميين. تكدست الحقائب المضادة للمطر في الاستقبال، ولكن الشيء الضخم المحشو القريب من مكتب الحرس بدا فقط مثل حقيبة مانعة للبلل. كان ديبس، يأكل موزة. ما أصغر هذا العالم.

قال آندي: "هذا يشبهه أكثر." لقد رآنا ديبس ندخل. قال: "جبناء،" وعاد إلى موزته. فقد آندي حماسته مع الأيام. كل مرة رأيته فيها كان يردد الشكوى ذاتها. " أكره هذا المكان. لا أدري أي نوع من الأمكنة هو، ولكني لا استطيع محاربته. أغيّر الفنادق حتى أستطيع إدخال مومس إلى غرفتي، وأطلب غرفة هادئة. يضعوني في المقدمة. أشبه بنوافذ المتاحف، مشرعة دائماً، مثل واجهة على شارع رئيسي. الأبواق، والدراجات النارية ودخان العوادم- إنها تدفعني للجنون. لا أستطيع إغلاق النوافذ، ولا أستطيع النوم- ولم أدعُ فتاة إلى غرفتي أيضاً. لن أجلب فتاة إلى ذاك المكان. اسمع. لا أعتقد حتى إنّ هؤلاء الفتيات جميلات، ألا تفعل أنت؟"

لكن الهنود الحمر. تسببوا لآندي بالكآبة أكثر من البحارة البنميين. قدمني إلى رجل من تكساس في السابعة والستين من عمره. كان الرجل يتباهى: " هذه رحلتي الواحدة والأربعون إلى سان خوسيه، تكلفة هؤلاء الفتيات باهظة، إلا إنهن يستحققن كل سنت."

جاء صديقه إلى هنا اثتي عشرة مرة، ولكن صديقه كان أصغر سناً. كان فندق آندي يعج بالهنود الحمر الذي جاءوا من أجل شرب الجعة ومضاجعة العاهرات. يرتدون قبعات رعاة البقر وأحذيتهم، وقبعات البيسبول، وأقمصة طبعت عليها الشعارات. قالوا إنه من الممكن قضاء وقت طيب في سان خوسيه. وقال آندي، وأشكر له ذلك: " لا أريد أن ينتهي بي الأمر مثل هؤلاء المهرجين." في آخر أمسية له، وبإلحاح مني، تلا مرة أخرى قصيدة روبرت سيرفيس. " سيدتي."

لم تكن سان خوسيه فاجرة حقاً بل شكلياً فقط. ومع ذلك شعرت بإقصائي من الحياة الجادة الهادئة للمدينة، مما جعل مقامي هنا أكثر غربة من تجربتي في ليمون. كان غريباً في جميع الأحوال أن تكون مسافراً في مكان مشغول ساكنيه: زيارة طبيب الأسنان، وشراء ستائر، والبحث عن قطع غيار محرك، وأخذ الأطفال إلى المدرسة، وتبني أنماط حياة عامرة بالعفوية والإخلاص. يدخل الرجل الكوستاريكي حامل حقيبة البقالة وابنه الصغير مكتبًا حكوميًا لدفع فاتورة الإنارة الكهربية: كنا شتيتيْن لا يجتمعا. كان الهنود الحمر جزءاً من الواجهة لا غير. وبصفتي عابر سبيل في هذا المجتمع المستقر، عُددت دخيلاً، غريباً يراقب الناس يسيرون على نحو أليف لم أؤثر به ولم أنتمِ إليه. ليس لي عمل هنا، ولكن ساء الأمر أكثر عندما انتبهت إلى مدى التشابه بين الحيوات التي يعيشونها والحياة التي تركتها في وطني. ماذا عن عائلتي؟ سيارتي؟ فاتورة الإنارة خاصتي؟ أسناني؟ كان النظام في سان خوسيه ضرباً من التبكيت. راودني شعور بإهمال مسؤولياتي. رأيت زوجين شابين يختارا مكنسة كهربائية، وشعرت بالذنب والغربة. لم يكن ثمة شيء أكثر تقريعًا بالنسبة لي في جميع أنحاء أمريكا الوسطى أكثر من منظر هذين الزوجين يخرجان وهما يحملان في زهو مكنستهما الكهربائية الجديدة من متجر سان خوسيه. أعتقد أنني بدأت فهم السبب في كوني أكثر سعادة دائماً في الخلفية، لماذا سحرتني غرابة سانتا آنا، ولماذا طلبت أقاصي غواتيمالا أو مجاهل المكسيك. ربما يفسّر هذا حاجتي للبحث عن جاذبية الغموض في الغريب من الأمور: في أكثر الأماكن وحشة يبدو الجميع هامشيا، وعابراً، وغاية في الانزعاج والجوع والإرهاق. يجوز للمسافر أن يكون مجهولاً، أو للمفارقة، منسجماً حتى على النحو العابر ذاته.

*& © ©*

تحتوي الخريطة على رسم للسكة الحديدية التي تمتد جنوب شرقي ليمون وفوق الخط الحدودي إلى داخل بنما، ولكن خط الموز هذا ميت. حتى إن كان نشطًا، فلن يقود إلى مكان سوى بقعة تدعى بوكاس ديل تورو، حيث كان عليَّ استئجار طائرة للسفر إلى مدينة بنما جواً. لم يدع لي هذا الأمر سوى خيار واحد، القطار البطيء إلى بنتاريناس على ساحل المحيط الهاديء، ومن ثم إلى بنما جواً أو براً.

لكن السبب الرئيسي لأخذ قطار بنتاريناس لم يكن ذا صلة بالسفر. أكثر من أي شيء آخر أردت أن أقرأ كتاباً، ولديَّ واحد جيد. فتحت كتاب بو حكاية آرثر غردون بيم مرتان في سان سالفادور ومرة في ليمون، وكان هذا يحدث ليلاً في كل مرة، وفي حين أنني كنت أستمتع بقراءة الرواية، يطاردني عند إطفاء المصباح ما فيها من أحداث مرعبة، فتسهرني. كانت بلا أدنى شك هي أشد القصص التي قرأتها رعباً: رهاب الأماكن المغلقة، وحطام السفينة، والعطش، والتمرد، وأكل لحوم البشر، والدوار، والقتل، والعاصفة- كانت رحلة مزعجة، ومجلبة للكوابيس.

لم تبد في وطني بتلك الدرجة من السوء، ولكن في ثلاث من غرف أمريكا الوسطى- الحارة الخانقة، الضيقة، والأباجورة المرقطة، والفراش الغريب، والجرذ الذي ينخر في السقف – كان الكتاب تجربة رعب محض. وضعته جانباً، وعاهدت نفسي بعدم فتحه مرة أخرى حتى أكون في مقصورة قطار مشمسة. لم تكن وجهة القطار تهمني، بل ما عليَّ قراءته في ظروف مثالية، على متن القطار بقدمين مرفوعتين، ودخان غليوني رائق الأنفاس.

كان هذا هو سببي للذهاب إلى بنتاريناس على ذاك القطار. بدت محطة الخطوط الباسيفيكية واعدة. يمسح أحد الرجال أرضية الاستقبال، والآخر يغسل النوافذ: فهذه العناية مؤشر جيد على دقة مواعيد القطارات. وهناك تمثال طوله ثمانية أقدام ليسوع المسيح في الجهة المقابلة لمنفذ بيع بطاقات السفر: التدين والنظافة. كانت السكة الحديد نفسها أكثر حداثة من خطوط الأطلنطي، تعمل بالكهرباء وذات سرعة وسلاسة في العمل، وبخلاف بوقها الصاخب، فهي صامتة، والمقاعد داخل العربات الزرقاء سليمة غير محطمة. ونادراً ما تزدحم لوجود ثمانية قطارات كل يوم: ظروف مثالية للقراءة. و, لا يلفت المنظر الانتباه فيقلل التركيز. غرب كوستاريكا جد مختلف عن شرقها. بدت الأرض منحدرة نحو الساحل الباسفيكي، ومن شجيرات القهوة على الضواحي المرتفعة إلى مناطق الصناعات الخفيفة، ومصانع الاسمنت، وأفنية الأخشاب التي توفر الإمدادات الخام لنمو البلاد. لم تحن الظهيرة بعد عندما غادرنا هذه الضواحي الصناعية، بل وقت الغداء، ليس فقط للأيادي العاملة في المصنع، بل عمال المكاتب والمدراء أيضاً.

الطبقة الوسطى في كوستاريكا هائلة، ولكنهم ينامون مبكراً ويستيقظون في الفجر، الجميع- الطالب والعامل، ورجل الأعمال، ومدير العقار، والسياسي- يلتزمون بساعات عمل المزارع. معظم الناس على قطار الركاب هذا ذاهبون إلى الساحل. كان المزاج احتفالياً مثل الأمتعة- حقائب زعانف السباحة، والمناشف، والقبعات الشمسية، وسلال الطعام. فهذه عطلة بالنسبة لغالبية الركاب. ثمة عدد قليل فقط من السود على هذا القطار (يقع موطنهم على الشاطيء المقابل)، وذكرتني طريقة جلوس الركاب -البنات على هذه المقاعد، والفتيان هناك، والأمهات يحملن الأطفال، والرجال الأكبر سنًا، والأزواج معاً على مسافة آمنة من نسائهم- بالنزهات التي كنت أراها في عطلات نهاية الأسبوع في بوسطن: عائلات الأحياء الإيطالية.

بالقرب من محطة نورث على القطار المتجه إلى سيتي بوينت. حملت وجوه أولئك الكوستاريكيين سحنة نابولية، وكانت رائحة كرات اللحم تنبعث من أمتعتهم. كانوا يحملون أجهزة المذياع، ويغنون، ويهتفون، ويأكلون المثلجات.

وكنت أنظر من النافذة بين فصول حكاية بيم. هناك أزهار برتقالية لامعة على أغصان أشجار باسقة، وفي الحقول بالقرب من هذه الأشجار صفوف من ثمار ناضجة طماطم، وفليفلة وفول. ازداد الحر مع تقدم النهار، وصارت الأرض أكثر انبساطاً، وهنا، كانت معظم ثمار الطماطم قد قُطفت، والكروم بدأت تذبل، وبعض الحقول صفراء قاحلة. ربما رأيت في فصل غير هذا الشمال حيث أمضينا - قبل مرور القطار بالأراضي الاستوائية المنخفضة- ساعات في المرتفعات ذات الحدائق الخضراء الحديثة في مطلع فصل الربيع.

أما في معظم الطريق إلى بنتاريناس فقد كانت السيادة للمظهر الخريفي: سيقان الذرة الجافة المكسورة متناثرة في الحقول، كانت الأشجار عارية أو تحمل بضعة أغصان بنية الأوراق، والعشب محترق، حتى أعمدة الأسيجة- والتي نبتت بسهولة ونمت لتصبح أشجاراً مورقة- كانت أوراقها تتساقط في الهواء الجاف. كان المزارعون في أوخو دي اغوا وسيرفيلاس يقصّون القش لصناعة التبن. ولكن ليس ثمة اتساق في النشاط الزراعي بهذا البلد. لم يساعد الارتفاع على معرفة المحصولات: كانت كوستاريكا مدارية، وجبلية وحافلة بالمستنقعات، ومحصورة بين محيطين.

وما إن اعتقدت أنَّ الخريف قد وصل إلى هذه المقاطعة حتى دخلنا قرى ظليلة، وبساتين برتقال. وقبيل دخولنا قرية أتينا تسلقنا جرفاً يطل على وادٍ عميق لصخوره ألوان رمادية وبنية. امتد الوادي باتجاه الغرب وكان شقاً في الأفق، لولا سحابة من الغبار علقت فيه، ولهذا خمنت أنّه عميق لابُدًّ. لم أستطع رؤية قاعه. كانت القرى على حافته متربة هي الأخرى: قرى بستة اسطبلات، ومزارع فواكه، والأطفال على أرصفة المحطة يبيعون عناقيد من الكرات الأرجوانية، وهي نوع من الفاكهة لم أره قط من قبل.

أبطأت الباخرة، وصارت الآن أكثر ثباتاً من ذي قبل. و- لم أستطع الحديث بهدوء عن هذا الحدث- قفزت قلوبنا بين أضلعنا بشدة، وتعالت صرخاتنا النابعة من الروح، شاكرين الله على مجيء الخلاص الجميل غير المتوقع الذي بات في متناول اليد. بغتة، وفي الحال، خيمت رائحة ما على المحيط مصدرها الباخرة الغريبة (التي اقتربت منا الآن)، رائحة نتنة، كما لو أنَّ العالم كله لم يعرف لها اسمًا...

هدأ الركاب من شدة الحر. توقفوا عن الغناء، وتحوّل القطار إلى آخر محلي ناعس، يقعقع وهو يشق طريقه بين منحدرات الغابات.

...نظرنا إلى ظهر السفينة بالكامل الآن. هل يسعني أن أنسى قط ما اتسم به ذلك المشهد من رعب ثلاثي الأبعاد؟ خمسة وعشرون أو ثلاثون جسداً بشرياً بينهم عدد من الإناث، يرقدن مبعثرات ما بين مؤخر السفية ومطبخها، وقد بلغت أقصى درجات التحلل وأشدها إثارة للاشمئزاز. لقد رأينا بأم أعيننا أنْ لا روح نجت من تلك السفينة المشؤومة، لكننا لم نستطع إسكات استغاثاتنا من الموتى.

حتى الجراد كان أعلى صوتاً من هذا المحرك، وانتبه الركّاب بالكاد لباعة الفواكه الذين بدوا على الأرصفة القصيرة في محطات القرية.

وبانطلاق أولى صرخاتنا المذعورة، وصلت إجابة من شيء ما، روح ما بالقرب من مقدمة السفينة الغريبة، وتشبه كثيرًا صرخة إنسان قادرة على إدهاش ألطف أذن وخداعها...

ثمة عائلة أمامي مباشرة. جلست الأم في الجهة المقابلة لمقعد بنتيها، اللتين كانتا جميلتين- واحدة في عامها السادس عشر، والثانية أكبر منها بعام أو اثنين. كان الأب يقف على مسافة ما، يتأرجح من أثر قارورة جعة. وكان هنا مقعد خال بين البنتين وضعت عليه سلة. أغلقت كتابي لأريح عينيّ، ثم رأيت ولداً يقف بجانب الباب الخلفي. في البداية خلته كان يراقبني. ثم اقترب. كان يراقب الفتاتين، والمقعد الخالي. زحف نحوهما، واستجمع شجاعته وقال: " هل هذا المقعد محجوز؟"

ضحكت الفتاتان ونقلتا السلة. جلس الفتى. وبعد فترة من الحرج شرع الصبي في الحديث: إلى أين تتجهان ؟ وماذا كانتا تفعلان؟ قال إنّه طالب. أليس من حسن الحظ أنّهم جميعا ذاهبون إلى بنتاريناس على ما يبدو؟ كان يحمل معه جهاز مذياع كما قال. هل ترغبان في سماع شيء من الموسيقى؟ رجاء. قلت لنفسي رجاءً لا تفعل هذا.

لم تزد الفتاتان على الابتسام. لم يعرف الصبي أنّهما تسافران مع والديهما. استمر الأب في احتساء الشراب، لكن كانت الأم على الجانب الآخر من الممر تبحلق في الفتى. كانت ذات وجه بدين، زادها الغضب اسمراراً. كانت أصابعها معقودة، وجسدها منكفئًا من الحنق. والآن صار الفتى يصف قاعات الرقص في بنتاريناس. بوسعكما إمضاء وقتٍ مذهلٍ، قال الفتى، الذي كان يعرف كل الأماكن الرائعة. وبدأ يعدد النوادي الليلية باسمائها.

وكان هذا فوق احتمال الأم. نهضت، وبدأت تهاجم الصبي بصوت عالٍ، وكانت تتحدث بسرعة، لم ألتقط سوى عبارات قليلة منها بهذه السرعة. ولكني لم أسمعها تتهمه بمحاولة خطب ود بنتيها، متحدثة إليهن كما لو أنّه يفتقر للاحترام. قالت: " ليس لديك الحق في ذلك، من تظن نفسك؟"

توقفت هي عن الصراخ. وعبس الفتى في خزي. لم يجب عليها، ولم يستطع المغادرة. كان متمسكاً بموقفه بحسب ميثاق أداء الذكر اللاتيني؛ إلا إنّه كان خجولاً. أما الفتاتان اللتان لم تشاركا في الحوار مع الصبي إلا بالقليل، التزمتا الصمت التام الآن.

عادت الأم مرة أخرى لتنعته بالخنزير والمتطفل. هددته بالإبلاغ عنه لدى المحصّل. ومع كل اتهام كانت تمدّ رأسها باتجاه الفتى، لتقترب كثيراً بوجهها البدين الغاضب من وجهه. ثم أدخلت ذراعيها، ملوِّحةً بقبضتها، وتدفع فكّه بمرفقها. فأزاحت الضربة الفتى جانباً ووضع يده على فمه. نظر إلى أصابعه: دم. والآن بدأ احتجاجه، لكنه كان احتجاجاً خائفاً، متوقعاً أن يُضرب ثانية.

ما زال هناك المزيد: فتاة صغيرة، في عامها الحادي عشر تقريباً- ربما ابنة ثالثة- اندفعت إلى الأمام وبيدها قارورة مشروب الكوكاكولا. رجّت القارورة ورشت الرغوة على وجه الفتى. ما زالت الفتاتان صامتيين. سحب الفتى محرمة من جيبه، وطفق يمسح وجهه، وبرر موقفه في التماس:" لقد قالتا إنَّ المقعد خال...سمحتا لي بالجلوس. اسالوهما، هيا، ستخبرانكم..."

أخذ الأب جرعة من الجعة. ونظر حوله في عجز بينما بحّ صوت زوجته من الصياح. لقد أعجبت بالصبي أكثر لثباته، ولكنه في النهاية- تحت وطأة هجوم المرأة- حمل نفسه واختبأ بين العربات، يلعق جرحه. صممت على البحث عنه. سألت عن الأم. هل كانت مثالاً للأم الكوستاريكية؟

"معظمهن هكذا. هي غاضبة. أثارها حديثي مع بنتيها. قالتا إنّ المقعد خال! انظر ما فعلت بفمي"جذب شفته السفلى وأراني لثته المدماة- " ولكن الأب- الرجل الذي يشرب الجعة- قد اعتذر لي. جاءني قبل فترة وجيزة، وقال: " أنا آسف حيال هذا الأمر، ولكن ماذا أفعل؟ تلك المرأة خنزيرة."

...جلس على ظهره، الجزء حيث تمزق قميصه فصار عارياً، نسر بحري ضخم، منهمك في التهام اللحم الرهيب، وقد انغرس منقاره ومخالبه فيه، وقد تناثر الدم على ريشه الأبيض بكامله.

وبينما كانت السفينة تدور أكثر لتقرّبنا من نظر الطائر بصعوبة أشد، سحب رأسه القرمزي وبعد أن نظر إلينا للحظة، كما لو أنّه مخدر، ارتفع بكسل من الجسد الذي كان يقتات عليه، وطار مباشرة فوق متن سفينتنا، محوّماً هناك لفترة وفي منقاره مادة متجلطة تشبه الكبد. سقطت المضغة المتسارعة بكاملها على الفور أمام قدمي باركر.

كانت هناك يد على ركبتي. قبلًا، جلست امرأة بجانبي. والآن هي تضغط على ركبتي. قالت: " سأعود على الفور. لا تسمح لأي شخص أن يسرق حقيبتي!" وضغطة أخرى، وابتسمت. كانت في عامها الخامس والثلاثين من العمر، ولها سنّا ذهب. سارت هي إلى الجزء الخلفي من العربة، وقرصت مؤخرة المحصل بينما كانت تبرز له تذكرتها. أثار هذا الأمر حماسة محصّل التذاكر، وعندما عادت المرأة إلى مقعدها، صار يتجوّل في المكان ليغازلها. ولكنه انسحب؛ لعدم معرفته بطبيعة العلاقة بيني وبين المرأة على وجه التحديد. ضغطت المرأة رجلي مرة أخرى. " أنت تحب قراءة ذاك الكتاب!"

...قفزت إلى الأمام مسرعاً، ورميت ذاك الشيء المخيف في البحر وأنا أرتعد بشدة...

"عماذا يتحدث؟"

قلت: " السفن، لديكم سفن كثيرة في بنتاريناس."

كنا نمر بكنيسة. في السلفادور أو غواتميالا، كان الركاب ليباركوا أنفسهم، ويرسموا علامة الصليب ببطء، وكان الرجال ينزعون قبعاتهم. هنا، لم تكن الكنيسة مثار اهتمام كبير-وقد كانت كنيسة فخمة، بها برجان اسبانيان مثل دورقين حراريين منتفخين، و زخارف حلزونية، وزجاج معشّق، وزوج من أبراج الأجراس.

لم تثر الكنيسة أية إيماءات تقديس بين ركّاب القطار. وربما كانت حظيرة أيضاً، بيد أنّ حظيرة بذاك الحجم كانت ستدفع ركّاب القطار بالتأكيد لإطلاق صيحات الاستحسان.

تعدّ كوستاريكا في أمريكا الوسطى قطراً فريداً. أصابها الرخاء بالرتابة، ولكن هذا بالتأكيد أفضل مما في الفقر من أمور مثيرة ومطالب ملّحة. والأمر البارز فيها هو علمانيتها. لم أك مستعداً لهذا، لم أجد تعليقاً حول هذا الأمر، وتوقعت بطبيعة الحال بعد ما زرت الكنائس في غواتيمالا والسلفادور أن أرى مجتمعاً مماثلاً يهيمن عليه الكهنة، والركوع، والفقراء الذين يجعلون من المسابح قلائد، ولا تهتم بتلك الأكواخ- انظر إلى الكاتدرائية! أذهلتني المكسيك كونها تٌقْيَة ومناهضة للكنسية في الوقت ذاته: السلطة الكهنوتية لا تناسب المزاج المكسيكي. لم تكن كوستاريكا بهذه أو تلك، بل بدت غير مكترثة بالدين. خمنت أنّ لذاك صلة بالتعددية السياسية- إن صح التعبير لوصف الثقة الواعية بأنّ الانتخابات قطعة من الزيف أكثر من مجرد كذبة أو مناسبة للشغب.

تزامنت الانتخابات الكوستاريكية مع يوم ثلاثاء كوستاريكا مع يوم ثلاثاء المرافع؛ لقد حلّت محلها بالفعل. كانت عيداً- حرفياً، يوم عيد- مفعم بتهنئة الذات، ولم يتسم بارتفاع وتيرة النقاش. لم يكن الرئيس الجديد قد أدى اليمين بعد: فالعطلة لم تنته. ولكن الانتخابات الحرة كانت أشبه بحلِّ بشري لاستبداد متسلط من قبل دين يدعو للتواضع والتوبة، كأنّه دليل على أنَّ المنافسة كانت ممكنة بدون عنف أوتشدد. كراهية كوستاريكا للطغاة جعلتهم غير متصالحين مع الكهنة. أسهم الحظ والبراعة في رفاهية البلاد، التي حافظت عليها بفضل صغر حجمها وانغلاقها على نفسها بدرجة كافية.

منى النفس- فلنقل في هذه الأجزاء العتيقة من فلوريدا (التي تشببها كوستاريكا لحد كبير) هو الراحة ورغد العيش الآن، على الأرض. والمزارع الفقير فقط هو من يؤمن بأنّه سيصبح بورجوازياً في الجنة. طبقة ناهضة تريد متعة الحياة على الأرض وليس لديها الوقت للتدين ولا النزوع إليه: كان هذا واضحاً في كوستاريكا. في وقت الشدة- المرض، الانهيار، والجرح المميت- ربما يتجه المواطن الكوستاريكي إلى الكنيسة، ويطلب معجزة، ولكن أفراد الطبقة الوسطى عامةً لا وقت لديهم للإيمان بالمعجزات، وعليه، وبدون أن يدركوا رفضهم للكنيسة، يبحثون عن الحلول في إطار السياسة أو الأعمال. لقد جعلهم هذا منصفين، ولكنهم مملون. أعظم كنيسة في كوستاريكا تقع في كارتاغو، وهي كاتدرائية سيدتنا عذراء الملائكة الملائكة، وهي القديسة شفيعة كوستاريكا. ولكن مطويات كارتاغو تشير بالكاد إلى أنّ طريق عموم أمريكا السريع يشق البلدة**،** وأنَّ هناك حافلة لسان خوسيه كل خمس دقائق، وأنَّ المكان هناك رائع و" أيضاً بركان إرازو الشهير على مسافة قريبة." لم تُذكر الكنائس في أية مطوية رأيتها. نعم الكاتدرائية بالكاد أنموذج على جمال العمارة، لكن هذا ليس مربط الفرس.

الكوستاريكيون أشدّ فخراً بحداثتهم، غياب العسكرة، ومناخهم، ومصانعهم، وبركانهم، لا بكنائسهم. "مرافق استشفائية وطبية جيدة." بحسب ملاحظة عن سان خوسيه في مطوية سياحية، تبدو أقل تباهيًا عنها طمأنة للمهاجرين المرتقبين. ولم تمنع الكاتدرائيات التي صدّعتها الزلازل، والتماثيل المتداعية على منصاتها دول أمريكا اللاتينية الأخرى من الإعلان عن كنائسها، لكن بالطبع ليس لديهم سوى القليل غيرها للتفاخر به. وماهو أشد أهمية أنّهم مؤمنون. تعني علمانية كوستاريكا أنّ الكنيسة هي أمر محرج أو غير أساسية على الأقل- فالارث التأريخي تحفة متربة أكثر منه برنامجاً روحياً.

لهذا السبب، ربما –شعب كوستاريكا- أسهل شعوب أمريكا اللاتينية معرفة، ويفتقرون للحماسة الدينية، والسياسيون الأكثر صراحة. صارت البلدة والكنيسة الآن على مسافة خلفنا. وكانت هناك المزيد من المحطات يتغير المشهد لدى كل منها: **الآن** منبسط ورحب، والآن وادٍ، والآن يزخر المشهد بالتلال مقطوعة الأشجار، والآن على غير المتوقع قرية قوامها الأكواخ الخفيفة الخضراء المائلة، والأشجار الزرقاء، وهضبة كاملة من العشب الأحمر، ألوان باستيل تتوهج من خلال موشور غبار.

...والآن تملكتني رغبة عارمة في النظر إلى أسفل. لم أستطع، وما كنت، أحبس نظراتي باتجاه الجرف: بمشاعر جامحة لا أستطيع لها تحديداً، نصف رعب، ونصف كبت. ألقيت نظرة إلى الأسفل بعيداً في الهاوية. للحظة تشنجت أصابعي قسرياً بقبضتها، بينما، مع الحركة، دارت في رأسي أضعف فكرة ممكنة عن الهروب النهائي كشبح- وفي التالية اجتاح روحي بكاملها توق للسقوط.

بعد خمسين ميلا أو نحوها- وكان الحر شديداً- استقام الخط، وصعد إلى القطار بعض باعة الطعام (بعيون داكنة، فتيات ونساء بملامح الشرق الأوسط، يرتدين الأوشحة والتنانير الطويلة). كن يحملن سلال البرتقال، واليوسفي، والمانجو، وقراطيس الورق المعبأة بالفول السوداني والكاجو المحروق. إلى الأمام، بحيرة زرقاء بعد أميال من الأراضي الزراعية العطشى. صعد القطار إحدى الهضاب: كانت البحيرة واسعة وقد أزاحت الشمس زرقتها وأضفت عليها لون البياض. ما زالت عاصرة الركبة تجلس في المقعد المجاور. " أبحيرة تلك؟ "

قالت: " ذاك المحيط."

المحيط الهاديء، نظرت حولي بحدس قوي، ثم استأنفت قراءتي. عندما نظرت مرة أخرى كنا نسافر على طول شبه جزيرة باتجاه بنتاريناس. كانت هناك قلة من الأشجار على هذه البقعة من الأرض. كان خط السكة الحديد هناك، وطريق، وصّفٌّ من المنازل، لم يكن ثمة مجال لأي شيء آخر. على جانب المحيط الهاديء، ناقلات راسية، وعلى الجانب المحمي قوارب وزوارق شراعية. ولسبب غير معروف توقف القطار في منتصف الطريق إلى شبه الجزيرة، وظللنا هنا لعشرين دقيقة. هبت نسمات حارة عنيفة عبر نوافذ القطار المفتوحة وصلصت المصاريع، اصطدمت موجات بنية واهنة بالأرصفة الصخرية تحت القطار.

كانت الشمس منخفضة، انحدرت أشعتها عبر العربة وزادت حرارتها. كان الركّاب متعبين، صامتين تماماً. الأصوات الوحيدة هي الريح والبحر. وليس ثمة أرض على الجانب الأيسر من القطار، فقط المحيط اللانهائي.

ربما لم يكن القطار في حال أكثر ثباتاً أو إشراقاً بالضياء من هذه.

أسرعنا إلى أحضان الشلال، حيث فتحت الهوة أمامنا ذراعيها لاستقبالنا. ولكن انبثق في طريقنا شبح بشري مقنع، أكبر بكثير في مقاييسه من أي ساكن بين البشر. ولون بشرة الشبح كان في نصاعة بياض الثلج.

أغلقت كتابي. كان القطار قد تحرك واستمر متوغلاً لنصف ميل في بنتاريناس. كانت بنتاريناس حارة جداً، وحتى في الهواء، كانت رطبة جداً. سرت إلى الشوارع. هناك مساكن، ونُزل متواضعة، وحانات، ومطاعم، وأكشاك بيع التحف، والأشخاص الذين يبيعون أجنحة الماء البلاستيكية، وحكاكّات الظهر، والقبعات الشمسية. كان منتجعًا فقيراً لكنه عامر. ليس ثمة ما يمكن فعله هنا سوى السباحة، ولم أكن أهتم بالماء الذي تناثرت فيه نفايات الميناء، والحبال المهترئة، والقوارير القديمة، وبقع الزيت، وأعشاب البحر التي صارت مثل الأسمال اللزجة. أشتريت كأس ليمونادة، وتساءلت ما إذا كان بإمكاني البقاء هنا، على خليج نيكويا.

قال صاحب الكشك الذي باعني الليمونادة:"لابد أن تذهب إلى الجانب الآخر، هناك حيث يعيش الأمريكيون. إنّه جميل جداً."

رأيت بعضهم وهم يتجولون في شوارع بنتاريناس- الأشخاص الذين جاءوا هنا ليموتوا في هذه المكان الذي جمع بين إشراق الشمس والشباب.

كدت أن أتبع هواي واستقل إحدى الحافلات لألقي نظرة على منازلهم، لكن ساورني شعور أنني أعرف ما سأجد. ضاحية في إقليم مداري قد تستحق الزيارة، إلا إنني لا أثق أنّها تستحق التفحص على مستوى التفاصيل. كما أنني لم أحب ذلك الشعور بالإقصاء الذي سينتابني عند رؤية الناس يجزون العشب، ويدفعون مكانسهم الكهربائية. ولا تمنيت، بعد جميع أسفاري- أن أجد نفسي أصف ساراسوتا، حتى آخر صالة جنائزية و مضمار غولف مصغر. لا ينتمي المسافرون إلى الضواحي، وتتعب العين أسرع في الأماكن الأكثر تحضراً، المسافر غريب، مثلما هو في ساراسوتا. أردت شيئاً جامحاً بكل ما فيه، ولم تثِر فيَّ رومانسية الغرابة الخرقاء، وهؤلاء الأمريكيون الودودون سوى الشعور بالغربة.

**---**

**-12-**

**طلقة بالبوا إلى كولون**

**---**

*كان هذا هو عيد إنقاذ قناتنا*. أبلغ اثنان من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي منطقة القناة بأنّ نيو هامشاير كانت تقف من ورائهم بصلابة في كفاحهم للحفاظ على المنطقة تحت حكم ابنائها "في أيدي الأمريكيين". (ذكرني هذا بالطرفة الغرب-هندية التي تقول: " إلى الأمام إنجلترا، باربادوس وراءك." )

أعلن حاكم نيو هامشاير الجديد عطلة في ولايته تعبيراً عن دعمه.

وذكر أحد الشيخين متحدثاً في مسيرة صاخبة للأمريكيين في بالبوا أنَّ 75 بالمائة من الولايات المتحدة كانت ضد معاهدة قناة بنما. ولكن هذا كله كان أكاديمياً، وكانالضجيج- كانت هناك تظاهرة أيضاً- أكثر قليلا من مجردترديد الهتافات الشوفينية.

سيُصادق على المعاهدة خلال أشهر قليلة فقط. قلت هذا لسيدة زونية[[45]](#footnote-45). قالت إنّها لا تكترث. لقد استمتعت بالمسيرة: " كنا نشعر بالإهمال، كما لو أنّ الجميع ضدنا."

عدّ الزونيون، ثلاثة آلاف عامل لصالح شركة قناة بنما، وعائلاتهم، المعاهدةّ ضرباً من البيع، لماذا ينبغي تسليم القناة خلال عشرين عامًا لهولاء الفاسدين البنميين الذين لا يستحقون؟ احتجوا فحسب، لماذا لا يستمرون في إدارتها كما كان الحال في السنوات الثلاث والستين الماضية؟ وفي نقطة معينة من أي حوار كنت أجريه مع مقيمي بنما المنكوبين، وكان الزونيّ ليضرب الهواء بذراعيه ويصيح، إنّها قناتنا!

قال موظف سياسي أمريكي بالسفارة: " أتريد أن تعرف ما مشكلة هؤلاء الناس؟ هم عاجزون عن تحديد ما إذا كانت القناة دائرة حكومية أم شركة أم دولة مستقلة."

أيّا ما كانت عليه فهي بالتأكيد قضية خاسرة، ولكنها لم تكن أقل أهمية لذلك السبب. أماكن قليلة في العام تضاهي منطقة القناة في أصلها المعقد، ومكانتها الجغرافية الفريدة، أو ضبابية مستقبلها. القناة نفسها تعدّ عجيبة: فقد بُذل لصنعها كل طاقات أمريكا، وكل عبقريتها، وكل خداعها.

والمنطقة لا تخلو من مفارقة: تقع في مكان رائع، ولكنه مزعج. لا يظهر البنميون في الجدل الدائر حول القناة إلا لماماً- إنّهم يريدون القناة لأسباب قومية، ولكن نادراً ما كانت بنما موجودة قبل شق القناة. فإن تحققت العدالةسيُسلم البرزخ بكامله للكولومبيين بلا شك، الذين سُلب منهم عام 1903. يدور النقاش بين أنصار المصادقةوالزونيين ومع أنّهم يبدون ويتصرفون مثل الأشخاص الذين ربما قابلهم جلفر في غلوبدوبدريب، إلا أنّ جميعهم أمريكيون: يبحرون تحت العلم ذاته. على كل حال فكثيراً ما يحرق الزونيون- لا سيما إن شعروا بالغضب- نجومهم وأشرطتهم، ويقطع أطفالهم الدرس في مدرسة بالبوا الثانوية ليدوسوا على رمادها.

أما أنصار المصادقة فيجأرون بإدانتهم للزونيين عندما يكونون وسط الاصدقاء ويجفلون من إظهار أنفسهم عندما يكونون في المنطقة. رفض أحد أنصار المصادقة من السفارة، - كان يرافقني إلى محاضرة كنت بصدد تقديمها في مدرسة بالبوا العليا- بوضوح أن يقدمني إلى الطلاب الزونيين خشية أنّ يثوروا ويقلبوا سيارته إن كشف عن نفسه. قبل ليلتين غرس قاطنون حاقدون المسامير في أقفال بوابات المدرسة بهدف إغلاقها. يا له من جدال عدواني تافه، قلت لنفسي، وراودني شعور ليمويل جلفر أكثر من أي وقت مضى.

إنّها مدينة شركة بالتراضي العام. لا يوجد سوى القليل من القيود على الحرية الشخصية في المنطقة. لا أتحدث عن الضمانات الليبرالية لحرية التعبير أو تكوين الجمعيات، وهي مفاهيم مهدئة لكنها قليلاً ما تستخدم، أعني يلزمالزونيّ أن يطلب إذنا قبل أن يدهن منزله بلون آخر أو حتى طلاء أرضية حمامه بالشيلاك. إن أراد سفلتة طريقه ربما تقدم بطلب مكتوب للشركة، ولكنه سيُرفض، لا يُسمح بغير الحصى. يعيش الزونيّ في منزل شركة، ويقود سيارته على طرقات الشركة، ويبعث أطفاله إلى مدارس الشركة، ويودع نقوده في بنك الشركة، ويقترض المال من اتحاد دائني الشركة، والمحال التجارية في متجر الشركة(حيث الأسعار المخفضة محصورة على من يسكنون نيو أورليانز)، يبحر في نادي الشركة، ويشاهد الأفلام في دار عرض الشركة، وإن كان يأكل خارجاً يأخذ عائلته إلى مقاهي الشركة في وسط بالبوا، ويأكل شرائح لحم الشركة، ومثلجات الشركة. وإن كان ثمة حاجة لسبّاك أو كهربائي فستوّفر الشركة واحداً.

النظام يدفع للجنون، ولكن إن جنّ الزونيّ هناك طبيب الشركة النفسي. المجتمع بكامله منغلق. الأطفال ولدوا في مشفى الشركة، والأشخاص تزوجوا في كنائس الشركة، هناك تعدد في الملل، ولكن يغلب عليهم المعمدانيون، وعندما يتوفى الزونيّ يُحنط في قاعة الموتى الخاصة بالشركة- لكل عقد عمل بند يضمن خدمة دفن وتابوتًا مجاناً.ً.

يطارد المجتمعَ هنا شبحان متنافسان، شبح لينين، وشبح الجنرال بولموس. وليس ثمة لافتات للشركة، ولا لوحات إعلانية أو دعاية نهائياً. لا شيء سوى صلابة العسكر في مظهر مباني الشركة. تبدو المنطقة مثل قاعدة عسكرية هائلة الحجم- المنازل المصفرة، كل الزوايا القائمة، والأسقف المبلطة، والمناظر المتقشفة، والتحذيرات مرسومة بالفولاذ على أسيجة السلك الشائك،و نقاط الحراسة، والزوجات المحبطات، والرجال الصارمون المائلون إلى البدانة. في المنطقة قواعد عسكرية، ولكن هذه لا تختلف عن الضواحي. تفاجأت بهذا. الكثير من هستيريا القناة في الولايات المتحدة التي أثارتها أخبار حياة الزونيين في رفاهية وبذخ، مع الخدم والرواتب العالية، والمتع المدعومة.

وربما كان الأمر أكثر دقة إن تم تصوير الزونييّن كجنود في الجيش، يؤدون فروض الجندية طواعية في المناطق الاستوائية. قضت قيوده وقواعده على مخيلته، وهُزم حتى أدنى دقائق الخطاب السياسي، هو مسيحي، وفخور بالقناة، وبه افتقار قاتم مستتر للثقة بالشركة. راتبه يوازي تقريبا راتب نظيره في الولايات المتحدة فوق كل شيء، المواطن ميكانيكي، أو حداد: لماذا لا يمكنه الحصول على ستة عشر دولاراً في الساعة؟ يعرف هو بعض الحدادين الذين يجنون أكثر من ذلك في أوكلاهوما. ومع ذلك فإنَّ معيشة معظم الزونيين تتسم بالتواضع: الأكواخ، السيارة الواحدة، الخروج إلى المقاهي، ودار العروض السينمائية. ويعيش كبارموظفي الشركة مثل نواب الملك، ولكن ثمة استثناء. هناك نظام تسلطي، كما في جميع المستوطنات، فهي نموذج مصغر من شركة شرق الهند، وتعكس حتى التنظيم الاجتماعي لتلك الشركة الاستعمارية: يعاني الزونيّ من افتقار شهير وعتيق الطراز للتعبئة الاجتماعية، فهو معروف بمرتبه، وناديه، وطبيعة وظيفته. آلية الشركة لا تنطوي على الطبطبة مع مديري الشركة الذين يعملون في ما يعرف بجميع أنحاء المنطقة بالمبنى- مقعد السلطة في مرتفعات بالبوا. الشركة متشددة في فكرتها عن الطبقة، وبالتالي وعلى الرغم من فخر الزونيّ بالقناة- فهو عادة مثقل بمستوى صرامة النظام.

"أعرف الآن ماهي الاشتراكية، " قال لي زونيّ في ميرافلورس. حاولت إقناعه أنّ هذه لم تكن اشتراكية، بل أعلى مستويات الرأسمالية، الشركة الإمبريالية، الأرباح والمثالية، و استغلال العقل السامي. إنّها الاستعمارية في أنقى صورها.

والاستعمار بطبيعته انتقائي. إذاً أين الضحايا، والفقراء والمستَغلون؟المنطقة غاية في النظام، لكنها تبدو فقط كملاذ آمن. أعيد تصنيف مدارس المنطقة قبل أربع سنوات تقريبا- هذا يعني عدم ضرورة إدماجها. السود الذين جلبوا قبل سنوات للعمل في المنطقة عوملوا مثل البنميين. إذن بُسطت قضية الإدماج: حُثَّ السود على مغادرة المنطقة. ولم يبتعدوا كثيراً-لم يستطيعوا ذلك لأنهم احتفظوا بوظائفهم في المنطقة. أما أطراف المنطقة فقد احتلها هؤلاء المرفوضون، والطرف الأقصى من طريق الرابع من يوليو السريع صار حيّا عشوائياً. كانوا يعبرون الطريق السريع في رحلتهم للعمل، وفي المساء يعودون إلى أكواخهم.

وما يثير الاهتمام هو أنّ الزونيّ سيشير إلى الخط الفاصل عندما يتحمس بشكل خاص حيال التمدن الذي حققه في البرزخ قائلاً: " انظرإلى التباين!" ولكن الزونيّ هو الذي قرر وجوب أن يعيش هؤلاء الناس هناك، وأن تقف بنما كلها جانباً، وتسمح له بالاستمرار في عمله.

حدث ولا حرج عن تصلب موقف الزونيين. إذ تعكس صورتهم العاملين بالساعة في قناة السويس أكثر من كادحي الهند أثناء السنوات الأخيرة للحكم البريطاني.

لا يخفى على أحد افتقار الزونيّ لإجادة اللغة الإسبانية، ولكنه يتسم بالفعالية والعمل الجاد في إطار تخصصه. قبل وصولي بأسبوع حاول عمّال المنطقة تنظيم اضراب، لإثبات ما لديهم من قدرة على المساومة، إلا أنهم أخفقوا مثلما كان معتصمو بولندا وتشيكوسلوفاكيا يخفقون دائماً، وربما للأسباب ذاتها: كانوا يعتصمون، وعندما يصل ذروته يتوقف- ليس لديهم الشجاعة لإغلاق القناة. وفي تعاطف مع القضية قطع أطفالهم دروسهم في مدرسة بالبوا الثانوية للعب الهوكي من أجل والديهم-ولأسبابهم الخاصة أيضاً. يعي الزونيون أنَّ العالم الذي يعيشون فيه خاص، ويعرفون ما يواجهه من خطر الفناء. ولكن لأنّهم يعرفون في قرارة أنفسهم أنّ العالم الذي يتوعدهم أقرب إليهم من البلدان الشريرة التي يتهامسون عنها- روسيا، والصين، وكوبا و"العرب"، و"الشيوعيون". يبدأ عالم آكلي لحوم البشر، جاحظو الأعين، الغبي والكبير، من حيث تنتهي المنطقة- هناك تماماً في الجهة الأخرى من طريق الرابع من يوليو السريع، عالم مفترس من الأشخاص الجائعين المتسخين الذين يثرثرون باللغة الإسبانية. حتى ألطف الزونيين لا يملكون أدنى فكرة. أقيمت مأدبة عشاء لتكريم أمينة مكتبة في المنطقة. كانت تتقاعد بعد أربعين عاماً في مكتبة الشركة- تشرف على الطاقم المحلي، وتطلب الكتب، تتجول بين الأكداس، تشهد المناسبات، وتبتدر المذكرات، وتصدر الدلائل، وتتأقلم مع تصنيف ديوي العشري. حضر تكريمها جميع من عرفتهم، ومعظمهم- مما يشير إلى فضلها- من البنميين. ألقيت الخطابات، وكان هناك مدح وعرض تقديمي.

وفي نهايته وقفت أمينة المكتبة على قدميها، وحاولت أن تشكرهم باللغة الإسبانية. تعلثمت وفي النهاية صمتت. لم تتعلم خلال أربعين عاماً ما يكفي من اللغة الإسبانية لنطق جملة عرفان تامة في حق العمال الإسبانيين الذين نظموا العشاء.

كان الزونيّ في ميرافلورس يقول لي: " لا أهتم بما تقول، ولكني متأكد من أنّه يثير شعوراً يشبه الاشتراكية."

كنا نشاهد سفينة نقل البضائع التشيلية **بالما** تمر عبر الهويس. القناة خالية من المضخات. تدخل سفينة الشحن الهويس، والبوابات مغلقة، وخلال دقائق قليلة تنخفض السفينة الضخمة إلى مستوى المحيط الهاديء على آخر درج سائل في هبوطها. البوابات العليا مغلقة، أيضاً، وثمة 50,000 جالوناً من المياه تتدفق من بحيرة مادن لاستبدال ما أزاحته السفينة **بالما** في رحلتها عبر القناة. السفينة مسحوبة بمحركين صغيرين على مسارين بجانب القناة- هذه هو التحسين الوحيد الذي كان ضرورياً في ستين عاماً. كانت السفن تسحب بالبغال، ما زالت المحركات تسمى "بغالاً". لا يستطيع المرء إلا أن يعبر عن انبهاره بطريقة تشغيل القناة، ما أقل ما يمكن مقارنتها به مما صنعه الإنسان على الأرض.

سألت:" مَنْ أولئك الناس."

كان هناك خمسة رجال في أزياء بيضاء نظيفة على الطراز البنمي، يبرمون لفائف أسلاك ويتعثرون من وقت لآخر بينما يشقون طريقهم نحو المقدمة الفولاذية للهويس، والتي تأخذ شكل قوس السفينة الحربية. كانوا في عجلة من أمرهم، ينفخون ويلهثون في حر بلغت شدته 90 درجة، أحذيتهم الجميلة لم تصنع لهذه الأسطح الزلقة. سألت أين يمكنني التسكع حول الهويس، ولكن قيل لي إنّه محظور.

قال المرشد: " إنّهم من أعضاء مجلس الشيوخ، كل ما يأتينا هذه الأيام: الشيوخ."

كان القائد بنمياً أسودَ من محافظة شيريكي. وكتب أطروحته في جامعة بنما حول تأريخ القناة. كان ثنائي اللغة، وتساءلت إن كان من أنصار تسليم القناة.

قال:" إن صودقت معاهدة القناة، فهي نهاية هذا المكان."

" أتريد أن ترى الأمريكيين يديرونها إلى الأبد؟"

قال: " نعم بالتأكيد."

لم تكن هذه وجهة نظر بنمي، ولكنه لم يكن تقليدياً. بعدها، قال كل بنمي قابلته إنَّ القناة لهم، لكنْ البنود التي بموجبها ستعاد لهم تختلف من شخص إلى آخر. ومع ذلك فربما كان الزونيون على حق عندما يقولون إنّ القناة ستتعرض لسوء الإدارة عندما تكون بأيدي البنميين. لا يتطلب اختلال موازينها الكثير: في الحقيقة خسرت المال في بضع سنين، وحتى تحقق أرباحاً، على شركة قناة بنما أن تسحب 35 أو 40 سفينة باليوم في المتوسط عبر الأهوسة الثلاثة، وتكرار هذا الإجراء المعقد كل يوم طوال العام.

هل عفى عليه الزمن؟ قال القائد لا، بخلاف ناقلات قليلة، قد تتحمل جميع السفن في العالم. ألن تكون قناة على مستوى البحر أكثر بساطة؟ قال المرشد: " لا"، المد والجزر في المحيط الاطلنطي مختلف عنه في المحيط الهاديء، وهل كنت أعلم أنَّ هناك أنواعًا سامة من ثعابين البحر في المحيط الهاديء؟ القناة التي تكون بمستوى البحر ستسمح بوصول هذا المخلوق إلى البحر الكاريبي، " الله وحده يعلم ماذا قد يحدث عندئذٍ."

قالت مواطنة للمرشد:" أنا سعيدة بوقوفك إلى جانبي."

قال المرشد: " ابعثي إلي بمن تريدين وسأخبرهم الحقيقة."

أشرت إليه أنَّ تلك هي حقيقتها، مثلما يظل البريطانيون في الهند، أو يجوب المارينز في فيراكروز، أو كولونيل فانديربيلت في نيكاراغوا، لن تدوم المغامرة طويلاً. للأحسن أم الأسوأ (قال بسرعة:" الأسوأ")، يتعين أن تصير القناة ملكاً لجمهورية بنما. بالتأكيد، كان سهلا بالنسبة إليه أنَّ المعاهدة ستصدّق وأنَّ هذا سيحدث؟"ربما سيحدث وربما لن يحدث، لا أستطيع الجزم لكن إن حدث فسيكون الأمر سيئاً."

قالت إحدى الزونيّاتالتي التفتت إليّ: " عظيم! نحن سنعيد القناة، تماماً مثلما سلّمنا فيتنام. إنّه أمر رهيب. علينا البقاء. كان علينا الاحتفاظ بتايوان..."

قلت: " تايوان؟"

"لقد سلّمناها للصينيين. هذا هو السبب في ضرورة الاحتفاظ بهذه القناة. هذه هي فرصتنا الأخيرة. انظر إلى ماحدث في فيتنام بعد أن تخلينا عنها."

قلت: " نحن لم نتخلَّ عن فيتنام."

" نعم فعلنا."

"سيدتي، نحن خسرنا تلك الحرب."

"كان علينا الانتصار فيها. الأن أنت تتحدث مثل المراسلين. لقد جاءوا هنا وقالوا إنَّ جميع سكان المنطقة من الهنود الحمر الذين يعيشون في منازل جميلة. يا إلهي، نحن أناس عاديون."

قلت: " ذاك شيء أثق به."

ولكن عندما قال الناس نحن في بنما، اضطررت للتفكير جيداً لمعرفة من يقصدون.

نحن التي قصدتها الزونيّة تشير إلى جميع سكان منطقة القناة، قال السفير جوردن "نحن" وعنى الولايات المتحدة الأمريكية، أما "نحن" عند انصار المصادقة فتتجاهل الزونيّين: دائما ما ينطوي الضمير على إقصاء. الجنود الأمريكيون في المنطقة كانوا محايدين رسمياً، ولكن عندما يقول رجل الجيش "نحن" فهو يعني ضمنياً أنّه ضد المعاهدة. الجيل الثالث أو الرابع من أهل الهند الغربية، من باربادوس عامةً، يقولون نحن باللغةالإنجليزية ويخشون على وظائفهم، والبنميون الآخرون قالوا "نحن" باللغة الإسبانية وتحدثوا عن تقاليدهم العريقة وثقافتهم الرقيقة، والقبائل الهندية الثلاث، الكونا، والغويميز، والتشوكوز، يتحدث 3بالمائة منهم فقط باللغة الإسبانية، و"نحن" خاصتهم- ينطقونها بلغتهم الأم- في موقف مناهض للمعاهدة. وبالإشارة إلى القناة (والناس في بنما لم يشيروا إلى شيء آخر) لم أسمع أي شخص قط قال **أنا**. تشبث الناس بهوية وآراء مجموعاتهم المعينة، ولم يجرؤوا على الابتعاد من مناطقهم القبلية. مثل جلفرت، كنت عابر سبيل، أتنقل من مجموعةإلى أخرى، مدونًا الشكاوى بخط اليد، والتي زادت حيرة، وضبابية عن أي وقت مضى. لم يشك الجميع، قالت فتاة قابلتها في مدينة بنما: " في معظم الأماكن التي تذهب إليها يقول الناس: "كان عليك أن تأتي إلى هنا في السنة الماضية." "كانوا يقولون لي هذا عندما ذهبت إلى البرازيل، ثم بيرو، ومن ثم كولومبيا. ولكن لا أحد يقولها في بنما. هذا هو الوقت المناسب للزيارة.".

القناة، واهوسة الميرافلورس كانت محطتي الأولى. ولكني أردت معرفة المزيد عن المكان. أمضيت أمسية في النادي بفندق هوليداي إن، أراقب الناس وهم يخسرون أموالهم بالجملة. جعلهم الفوز أكثر تجهماً، لأنَّ أمنية المغامر العزيزة هي أنيخسر. كانوا شاحبين، عابسين، يلقون بأمولهم فعلياً على الأرض- ويقولون، هؤلاء الرجال لدى طاولة البلاك جاك، منحنون على أبراج الرقاقات المتناقصة، ينقرون على أوراق اللعب بأصابعهم مكفهرّين: أعضاء مجلس الشيوخ! كان هناك رجال يرتدون أحذية رعاة البقر، ونساء يسحبن أوراقًا نقدية فئة المائة دولار من وسط صدورهن، وأمريكيون غاضبون يوبخهم موظفو القمار الذين ينظرون شذرا وهم يرتدون بزّات أنيقة، بسبب أنّ الأمريكيين كانوا يبصقون على النرد: (اسدني معروفاً!" صرخ أحد اللاعبين بالنرد، ورمى زوجاً من مكعبات الزهر باتجاه الموظف).

بدا القمار مثل إدمان خال من المتعة، وتعيَّن عليَّ أن أغادر- دقيقة أخرى إضافية كانت لتحولني إلى ماركسي.

في اليوم التالي ألقيت نظرة عن كثب على المباني السوداء لمدينة بنما، على الرغم من أنّ حالتها كانت مزرية-نوافذ محطمة، وشرفات منهارة، وطلاء مقرّح يتقشر على الجدران الخشبية- كانت تعود إلى حقبة الاحتلال الفرنسي لبنما، وحافظت على بعض أناقة التصميم الأصلي. لكنها لم تكن كافية لإبقائي مهتمًا، وعرفت من الحوارات التي أجريتها مع المستأجرين المتضررين فقط أنّ هذه منطقة قبلية أخرى على خلاف مع جيرانها.

في أحد الأيام صباحاً ألقيت محاضرة في كلية منطقة القناة. كان الموضوع عن السفر، ومدى غرابة الحديثعن العالم، ورومانسية المسافة إلى أشخاص لا يستطيعون مغالبة خوفهم بما يكفي لتحمل مشوار قصير إلى مدينة بنما، ويعدّون بلدة كولون التي تقع على امتداد الطريق، أكثر وحشية وخطورة من غابة كاملة من صيادي الرؤوس الأمازونيين.

بعد المحاضرة انخرطت في حوار مع سيدة زونيّة قالت: " لا أعلم ما تتوقع أن تجد هنا في المنطقة، لكني أخبرك أننا نعيش حياة هادئة جداً."

تلك النحن مرة أخرى، ومع إنّها لم تكن ضمير الغوغاء الذي كنت أسمعه، ولكن كلمة أكثر حميمية، تُقال بنوع مما في الزوجية من رقة وتحدٍ. كانت تتحدث عن عائلتها. لقد جاءوا من بنسلفانيا لفترة عامين مبدئياً، ولكنهم أحبّوا المنطقة وقرروا البقاء.

وبعد أحد عشر عامٍ لم يفقد المكان جاذبيته، مع إنَّ أسلوب الشركة في إدارة حيواتهم اتسم بالقمع.

سألتها: "وماذا تفعلين؟"

"لست أنا- إنّه زوجي. هو رئيس ثلاجة الموتى. لا تضحك."

" أنا لا أضحك، هذا مثير للاهتمام."

"أتعتقد أنّه مثير للاهتمام؟ بدأت تضحك هي. لم أستطع كتمان فضولي، وحماستي لزيارة ثلاجة الموتى، وعندما اعتقدت أنني أقنعتها برغبتي في القيام بجولة، وبينما كنا نقود باتجاه المبنى الرمادي القديم، ظلت تقول: " هل أنت واثق من رغبتك في ذلك؟"

كان جون رايس متعهد دفن طويلًا قوي الجسم، وذا بشرة وردية وأسلوب دمث. قالت زوجته: " إنّه مذهل في التعامل مع الأقارب المكلومين- هو يهدئهم ببساطة، لا أعرف كيف يفعل ذلك."

كان لطيف الحديث، دقيقًا، ومهتمًا بعمله- مهتم بالتحنيط على وجه التحديد- وفخورًا بحقيقة إرسال الجثث إليه من جميع أنحاء أمريكا الوسطى والجنوبية. كان ومثله كثر من الزونيين عضواً في نادي إلكز [Elks Club]، وقدامى المحاربين في الحروب الأجنبية، والروتاري. ولكن ربما جعله اهتمامه بدفن الموتى شخصًا اجتماعيًا أكثر من غيره: متعهد الدفن يعتبر شخصية عامة في أمريكا، مثل العمدة، ورئيس الإطفاء، وكانت المنطقة نسخة من أمريكا.

كان السيد رايس أيضاً عضواً في رباعي غنائي محلي، وكان في صوته نوع من الدندنة اللحنية، وتنغيم المغني، وسجْع المحنّط الحزين.

قال السيد رايس في غرفة التابوت، "لنبدأ، هنا لدينا التوابيت ذاتها. إن كنت موظفاً محلياً تحصل على هذا التابوت." كان صندوقاً بسيطاً فضياً من الفولاذ، بمقابض خالية من الزخرفة، صندوقًا معدنيًا مصقولًا بطول الرجل وعمق حوض الحصان. كان مغلقاً، والغطاء محكمًا. من الصعب بالنسبة لي رؤية هذا التابوت المغلق، بدون أن أشعر بقلق واضح حيال ما قد يكون بجوفه.

"وإن كنت أمريكيًا، ستحصل على هذا."

كان هذا التابوت أكبر وأفخم قليلاً. كانت على جانبه زهيرات تشبه النقش الموجود على أركان الغطاء، بعض الزخارف الحلزونية الرومانية، والتشابكات الورقية، وذلك النوع من المقابض الذي ربما تراه على الأبواب في ميدان لويزبيرغ بمدينة بوسطن. تساءلت إنْ كانت هناك فوارق أخرى بين هذا التابوت والتابوت الفضي بخلاف الزخارف والحجم.

قال السيد رايس: " هذا أغلى بكثير، مغلق ومفرغ من الهواء، وانظر إلى الاختلافات في الألوان."

بالطبع كان هذا برونزيًا مذهَّبًا، والآخر فضيًّا. في ملاءمة لمكانة المتوفى. كان هذا تمييزاً عنصرياً. منذ بداية القرن وحتى وقت قريب، كان التعبير عن العرق لدى شركة قناة بنما لا يعتمد على اللونين الأسود والأبيض بل على دلالة الفضي والذهبي. وقد اشتق هذا التعبير الملطَّف من طريقة دفع رواتب العمال: العمال غير المهرة ومعظمهم من السود كانوا يتلقون رواتبهم بالفضة. والعمال المهرة، جميع الأمريكيين البيض كانوا يُنقدون رواتبهم ذهباً. تنطبق هذه الشروط على جميع نواحي الحياة في المنطقة: هناك مدارس ذهبية ومدارس فضية، منازل ذهبية ومنازل فضية وهلم جرًّا حتى التوابيت الذهبية والتوابيت الفضية، الأولى محكمة الإغلاق، والأخرى- مثل المنازل الفضية- بلا إحكام. عليه حتى في هذا الصندوق، يمكن تمييز موظفي القناة، وحتى بعد وقت طويل من تحوله إلى تراب، ويذهب التحلل بدليل عرقه، قد يُنبش قبره، وستعرف من درجات لون ذلك الصندوق ما إذا كانت هذه الذرات بتلك الجبة المتغضنة يوماً ما إنساناً أبيض البشرة، أم أسودها.

لابد أنَّ الشركة ستشعر ببعض الرضا لمعرفة أنّ الخط اللوني- رغم العشب الذي يغطي هذه القبور بالتساوي- الذي كان قاعدة في المدارس والمساكن (وحتى في نوافير المياه، والمراحيض ومكاتب البريد، والمقاهي) ما زال واضحاً تحت التراب.

قال السيد رايس: " في أيامنا هذه يحصل الجميع على هذا التابوت الممتاز. هذا هو السبب في خسارة المشرحة للمال. تكلّف هذه الأشياء الكثير من المال."

في الطابق العلوي تقع غرفة الاستلام. كانت الثلاجات هنا، وعلى جدار الغرفة الجرانيتية الخالية أدراج كبيرة من الفولاذ يعرفها معظم الناس من خلال مشاهد المشرحة في الأفلام، واصطفافها من الأرض إلى السقف الذي لا يشبه شيئاً أكثر من أكداس خزانات الملفات الكبيرة الحجم. مدّ السيد رايس يده إلى أحد الأدراج. ساعد نفسه على الاتزان مرتكزاً على المقبض، الذي ألصقت تحته ديباجة عليها اسم وتأريخ.

قال وهو يسحب بقوة: "لدي رجل في الداخل هنا، توفي قبل شهر. ونحن لا نعلم ماذا نفعل معه. من كاليفورنيا. لا عائلة له ولا أصدقاء."

قلت له: " أفضّل ألا تفتح ذلك الدرج."

فدفعه بلطف، ثم تركه. "لا أحد يرغب في المطالبة به."

كانت الغرفة باردة، انتابتني قشعريرة، وانتبهت إلى أنّ بشرتي أزغبت كجلد الأوزة. كان هذا أشد ما مر بي من برد منذأنغادرت العاصفة الثلجية في شيكاغو.

قلت:" هل نمضي قدماً في جولتنا؟"

ولكن السيد رايس كان يقرأ ديباجة جديدة.

قال: " نعم" وهو يطرق درجاً آخر. " هذا ولد صغير. في العام السادس من العمر فقط." كانت أصابعه تحت المقبض.

" إنّه هنا منذ يونيو الماضي- هل ثمة خطب؟"

"أشعر بالبرد."

" علينا الحفاظ على درجة الحرارة منخفضة هنا. ماذا كنت أقول؟ آهـ نعم."

قال وهو ينظر إلى الديباجة بالقرب من كفه: " سيظل هنا حتى يونيو القادم، ولكنه سيكون بخير."

"بخير؟ من أي ناحية؟"

ابتسم السيد رايس بلطف، كان هذا فخراً مهنياً: " لقد حنطته بنفسي- إنّه جاهز للذهاب. حسنًا،" واستأنف الحديث، والآن صار يتحدث إلى الدرج: "للتأكد فقط. أنظر إليه مرة في الشهر، أفتح الدرج وأفحصه. "

"ماذا ترى؟"

"جفاف."

في طريقنا إلى غرفة حرق الجثث، قلت: " لوهلة ما، حسبتك ستفتح أحد هذه الأدراج التي تركناها وراءنا."

قال السيد رايس: " كنت سأفعل، ولكنك لم ترد أن أفعل ذلك."

"أعتقد أني كنت سأنهار."

"هذا ما يقوله الجميع. لكنه شيء ينبغي عليك رؤيته. الشخص الميت هو مجرد شخص ميت. إنّه أمر يحدث للجميع. الموت أحد الأمور التي ينبغي عليك قبولها. وليس ثمة ما يدعو للخوف."

من الواضح أنّ هذه هي النبرة التي يستخدمها في الحديث مع الحزانى، وقد كان مقنعاً. شعرت أني جاهل ومؤمن بالخرافات. ولكن ماذا إن أخافني؟ كيف أمسح عن ذهني صورة الطفل الذي خطفه الموت وهو في العام السادس من العمر؟ كنت خائفاً من أن ترعبني رؤيته لبقية حياتي."

كانت غرفة الحرق ساخنة: كان الهواء قديماً ومترباً، وكنت أشعر بالحرارة عبر الغرفة من الأفران التي كانت نسخاً أكبر من محارق فحم طفولتي. كست الحرارة الأبواب الحديدة حمرة، وكانت مغطاة بمسحوق ناعم. وقد أضاءت أعمدة أشعة الشمس في النوافذ حبيبات الغبار التي دفعها الهواء الساخن في الغرفة في حالة من الحركة المضطربة.

"السبب هو أنَّ الحرارة شديدة هنا، فقد كان لدينا حرق هذا الصباح." وذهب إلى جانب أحد الأفران وارتعش وهو يفتح الباب الحديدي. " وقال وهو ينظر إلى داخله: " ودفع ببعض الرقائق المحترقة بمسعار النار قائلاً: " مواطن محلي، مجرد رماد وعظم صغير."

كان هناك برميلا ألمونيوم بالقرب من الأفران. رفع السيد رايس غطاء أحدهما- برميل رماد. ومد يده فأخذ بعض الرماد، وقطعة من العظم. قطعة كبيرة من الشظايا الطبشورية، بيّضت مثل صدف البحر بالحرارة، وتغبرت برقائق بسكوت الرماد الرمادية، وكانت ذات مقبض في طرفها، مثل مطرقة نصف كروية من عصور ما قبل التأريخ.

"هذه مجرد بقايا في أغلب الأحوال."

"ذاك يبدو مثل عظم الفخذ." قال السيد رايس: " عظيم، هذا ما هو. كيف تعرف ذلك؟"

"أنا طالب طب فاشل."

"لا ينبغي أن تكون راسباً- فأنت تعرف العظام دون شك!"

أغلق السيد رايس كفه على العظم، وهرسه كقطعة بسكوت. محولاً إياه إلى فتات: " سأريك الخوف في حفنة غبار."

لدينا عمليات بتر كثيرة. كانت هذه رِجلاً كاملة."

أعاد الذرور إلى البرميل ونفض الغبار عن يديه. نظرت داخل البرميل ورأيت دبابيس أمان محترقة، وقطع ملابس محنطة.

" هناك مستشفى تعليمي بالجوار. إنهم يرسلون إلينا أشياء لحرقها- بعد انتهاء الدروس. إنّها في حال مريعة- أدمغة مستأصلة، مفتوحة بالكامل ومشرّحة. يمكن معرفة بعضها بالكاد."

ليس ثمة أناس آخرون في غرف المشرحة هذه، لا أحياء. صارت بسبب الخواء وغياب الأصوات والأثاث مثل الضريح، وانتابني شعور بأني محاصر فيها، ومغلق عليَّ مع هذا المرشد اللطيف الحديث، الذي يعالج التوابيت، ويجفف الجثث، وعظام الفخذ الهشة بعادية عذبتني، وجعلتني أتساءل إنْ كان بطريقته العادية قد نجح في إخفاء بعض الرعب عني. ولكن السيد رايس كان يقول: " يطير المال من أيدينا هنا، بسبب هيكلة الأجور. والمعدات والتوابيت باهظة جدًا، حتى إننا لا نستطيع تحمل نفقاتنا. يحصل العمّال المحليون على هذه التوابيت الجميلة حقاً- آهـ، ها نحن،" قال مقاطعاً نفسه في عتبة غرفة خالية أخرى، "غرفة التحنيط."

هناك أربعة أحواض مائلة في وسط الغرفة، وتحتها خراطيم مطاطية تصب داخل الأرض. وهناك ألواح رخام رمادية أيضاً، مصفوفة على هيئة طاولات، ومروحتا سقف، ورائحة مطهر قوي.

قال السيد رايس: " لقد ظللنا نطالب بمكيّفات هواء لسنوات."

قلت: " لا أستطيع تخيل السبب، فالمكان بارد جدًا هنا."

ضحك: " تبلغ الحرارة ثمانين درجة تقريباً."

غريب: كنت أرتعش مجدداً.

" لكنهم لم يعطونا إياها، هاتان المروحتان لا تكفيان. قد يصبح المكان أثناء العمل نتن الرائحة جداً."

قلت:" كنت أنوي سؤالك عن تسميتك للجثث. هل أشرت إليها قط بـ"المحبوب"؟ أم الجسد، أم الضحية، أم الجثة، أم ماذا؟"

قال السيد رايس: " "المحبوب" هو ما يُقال في الكتب، ولكنها مبالغة. لدى الأشخاص أفكار كثيرة مضحكة حول متعهدي الدفن. جيسيكا ميتفورد ذلك الكتاب[[46]](#footnote-46). لم تذهب إلى أماكن كثيرة. نحن لم نحب ذلك حقاً. " الرفات"- هذا ما يطلق عليها في العادة."

سار إلى أحد تلك الأحواض العميقة واستمر في الحديث:" نحن نضع الرفات على الطاولة هنا، ونزلقها داخل الحوض. ثم نرفع شرياناً. الشريان السباتي مناسب- أنا نفسي أحبّ السباتي: نجففه تماماً. ينزل كل الدم هنا، عبر الأنبوب"- كان يتحدث إلى الحوض، ويستخدم يده ليشير إلى تدفق الدم- "داخل الأرض. ثم- أترى ذلك الخرطوم؟- نحن نملأه بسائل التحنيط. وهو يستغرق وقتاً، وعليك أن تكون حذراً. إنّه أقوى مما يبدو عليه." كنت أغمغم، وأدون الملاحظات بأصابع متجمدة. قلت أعتقد أنّه مذهل. والتقطها السيد رايس.

" إنّه مذهل! لدينا جميع الأنواع هنا. لماذا؟ قبل وقت قريب" قال وهو يضرب بيده حوض التحنيط بحماس، "سقطت حافلة من الجسر- أتعرف الجسر الكبير في الضفة الأخرى من القناة؟ توفي ثمانية وثلاثون شخصاً، وأتوا بهم جميعاً إلى هنا. يا فتى، كان هذا أمراً جللاً. حوادث الطائرات، والسيارات، والغرق، والاغتيال على متن السفن، والأشخاص الذين هوجموا في كولون. مثلا جريمة قتل على متن سفينة تمر عبر القناة- مهمة صعبة جداً، لكنا تولينا أمرها. والهنود؟ إنهم يشربون، ثم يحاولون التجديف بقواربهم فيغرقون. لدينا كل ما يخطر على بالك من الفئات. وهو ما تعبر عنه كلمة مذهل."

التزمت أنا الصمت. ولكن السيد رايس ظل بجانب الحوض. " لقد أقمت هنا في المنطقة لأحد عشر عام، كمتعهد دفن طوال هذه الفترة." وصار الآن يتحدث ببطء وتساؤل، "أتعرف شيئاً؟ لدي شيء جديد كل يوم. أتريد أن ترى غرفة التشريح؟"

نظرت لساعتي.

فقال: " غولي،" وهو ينظر إلى ساعته. "لقد تجاوزت الساعة الواحدة. لا أدري ماذا عنك لكني جائع جداً."

كان مطبخ الإلكز مغلق. فذهبنا إلى نافذة جمعية قدامي المحاربين في الحروب الأجنبية رقم 2537، وطلبنا وجبة تشوب سوي، وشاي مثلجًا. قال السيد رايس:" لكن لا سبيل للمقارنة مع الولايات المتحدة في ما يتعلق بالخدمات. لا تجد هنا من الاهتمام ما يُمنح هناك. في الولايات المتحدة تتلقى خدمات جيدة حقاً، وسيارات كبيرة، وحفلا صغيراً. هنا كل ما يعطونك إياه هو عربة لنقل نعشك."

قلت أنا:" وخدمة تحنيط."

قال هو: " لطالما اهتتمت بالتحنيط."

جاء التشوب سوي[[47]](#footnote-47)، كمية كبيرة من الخضروات الطرية، وطبق من الشعرية. كان هناك القليل من الطاعمين غيرنا في مقهى قدامى المحاربين، ولكنه نظيف، ومعتم، ومكيّف الهواء، مثل أي مقهى في أمريكا. سألت السيد رايس كيف أصبح حانوتياً.

" في العادة، هو نوع من العمل العائلي. يكون والدك حانوتياً فتصبح مثله. عليه فحالتي مختلفة جداً- لم تكن عائلتي تمارس هذه المهنة."

" ثم قررت فحسب، هكذا، أن تكون حانوتياً؟"

ابتلع السيد رايس لقمة من التشوب سوي، وربت على شفتيه بمحرمته، وقال: " لطالما أردت أن أكون متعهد دفن- بحسب ما أذكر. أتعرف شيئاً؟ إنّها أولى ذكرياتي. لا بد أنني كنت في عامي السادس من العمر عندما توفيت جدتي المسنّة. وضعوني في الطابق الأعلى، وأعطوني قطعة حلوى لأبقى هادئاً. كانت أشياء مصنوعة من عرق السوس على هيئة القبعات- قبعات ديربي وستيتسونس. حسناً كنت في الأعلى- كان هذا في بنسلفانيا- وبدأت أصرخ وقلت: " أريد أن أرى جدتي!"

قالوا:"لا، ابقوه في الأعلى، واعطوه المزيد من الحلوى." لكني لم أتوقف عن الصياح، واستسلموا في آخر الأمر وسمحوا لي بالنزول. قادني قريبي من يدي وذهبنا إلى حيث الجدة في تابوتها. أتعرف، لقد كانوا يقيمون الجنائز في المنازل آنذاك. وعندما رأيتها طرحت جميع أنواع الأسئلة، مثل كيف يفعلون ذلك؟" و"من فعل هذا" وما إلى ذلك. كنت مهتماً للغاية. وقررت عندها أنني أريد أن أكون- متعهد دفن. وعندما أصبحت في التاسعة من العمر، أو نحوها كنت على ثقة مما أريد أن أصير عليه." لم أستطع مقاومة تخيل فصل دراسي في بنسلفانيا، ومعلّم ينحني على طفل هاديء وردي الوجه ويسأله، "حدثني يا جوني، ماذا تريد أن تصبح عندما تغدو كبيراً؟"

في النهاية تحول حديثنا إلى معاهدة القناة. سألت ما قديحدث له ولثلاجة الموتى إن صودق على المعاهدة.

" أعتقد أنّ جميعنا سيكون بخير. لا أعلم ما سيحدث بخصوص المعاهدة، ولكن إن تولوا أمرنا فآمل أن يسمحوا لنا بالعمل. معظمنا يحب هذه القناة، ونحن نقوم بعمل ممتاز في المشرحة. أعتقد أنّهم سيعيدون توظيفنا فحسب. الجميع قلقون، لكن لماذا؟ إنّهم لا يستطيعون إدارة القناة بدوننا. وأنا جد مهتم بالبقاء هنا."

***© © ©***

تلقيت دعوة على العشاء في تلك الأمسية. قال المضيف: " سيتعين عليك الغناء مقابل عشائك" سألته عما ينبغي الحديث عنه. قال إنّه لا يهم كثيراً- ربما شيء ما عن الكتابة؟

قال: لا يهم ما تقول، ما يهمهم حقاً هو وجهة نظرك إزاء المعاهدة." قلت إنّه موضوعي المفضل. تحدثت إلى تجمع الكتّاب والفنانين البنميين حول حكاية آرثر غودون بيم. لم يقرأها أحد، وعليه صرت كمن يتحدث عن كتاب ظهر لتوّه، مرشح لقائمة الكتب الأكثر مبيعاً، طازجاً وحافلاً بالطرائف مثل صباح ربيعي في بوسطن. أنصتوا للقصة باهتمام منتشٍ، سلسلة الأحداث الوحشية، والموسيقى الصامتة للنهاية المثيرة، وكانوا ينظرون لي بذات التعابير قصيرة النظر المتواضعة التي رأيتها على وجوه طلابي في قاعات المحاضرات البعيدة، بينما كنت أحاول شرح كيف صنع بو باستخدام هذه العقد الذكية واللفاتقطعاً من الخيط مثل مشنقة جلاد مقنعة. " قال بعدها زميل في فقرة الأسئلة: " أنا مهتم بمعرفة ما موقفك فيما يتعلق بمعاهدة قناة بنما. أتمانع في إخبارنا؟"

قلت: " لا مطلقاً،" وقلت إنّهم يلقون الترحيب فيما يتعلق بآرائهم حول سكن القناة لكنهم قد يقللون من المشاعر التي يكنّها السكان للقناة. لم تكن حقبة يتعلق فيها الناس بوظائفهم، ولكن اتسم الزونيون بالفخر بما يقومون به من عمل، وكانوا متفانين في إدارة القناة. لا يمكن مقارنة أي قدر من القومية الكندية، أو التلويح بالعلم والمهارة التقنية اللازمة لسحب أربعين سفينة في اليوم عبر القناة بأمان. اقررت بأنّ سكان القناة كانوا على جهل كبير ببنما، ولكن ليس للبنميين أدنى فكرة عن تعقيدات الحياة في المنطقة، ونوع الحماسة التي يتمتع بها ساكنيها.

رسمت وجهة نظري ابتسامة خلاف على وجوه الجمهور، ولكن ولعدم وجود معارضة، استأنفت القول بأنَّ منطقة القناة أراضٍ استعمارية في جوهرها، وإنّ المرء قد لا يفهم حقاً أية مستعمرة مالم يقرأ كتابي فرانكشتاين، وبروميثيوس في الأغلال.

وتحدثت على مائدة العشاء مع مهندس معماري عجوز. كان يكتب القصص أيضاً، كما قال، ومعظم قصصه كانت سخرية حول رئيس الحكومة وقائد الحرس الوطني، الجنرال عمر توريخوس. ما كان رأي توريخوس في قصصه؟ قال المهندس المعماري: لقد أراد أن يحظرها، ولكن لم يكن هذا ممكناً لفوز القصص بجائزة أدبية. قلت: "هناك أناس يعتقدون أنَّ توريخوس كان صوفياً."

قال المهندس: "إنّه ليس صوفياً بل من الدهماء، رجل استعراضي- غاية في الذكاء لكنه وافر الحيلة أيضاً."

"إذاً أنت ترى ضرورة بقاء القناة تحت إشراف الأمريكيين."

"لا. سأخبرك. القناة هي حلم كل مواطن بنمي. مثلما لديكم الحلم الأمريكي، هذا هو حلمنا. ولكن ليس لدينا سواه. المأساة الحقيقة تتمثل في أنّه سيأتينا بينما توريخوس على سدة الحكم. سوف ينال هذا الفضل. أترى. سوف يقول، "انظروا ماذا فعلت! لقد أستعدت قناتنا!" وهذا على الأرجح صحيح. فالحكومة الأمريكية شيدت من خلال برنامج المساعدة عددًا من الشقق السكنية أمام مدينة بنما مباشرة. لقد كانت مساكن عامة، رشوة لآلاف البنميين المشردين. وقد عرفت الشقق رسميا باسم مساكن توريخوس. كان من الأنسب بكثير تسميتهاباسم المتبرع الحقيقي، دافع الضرائب الأمريكي. شرحت هذا للمهندس المعماري وقلت إنَّ لدي الحق أكثر من توريخوس في أن يوضع اسمي على الشقق السكنية، بما إنني كنت أدفع الضرائب الأمريكية، والجنرال لم يفعل.

"ولكن أنتم من نصبّه حاكماً."

قلت: "أنا لم أعين الجنرال توريخوس في الحكم."

"أعني حكومة الولايات المتحدة وضعته على سدة الحكم. لقد أرادوه رئيساً، حتى يتمكنوا من التفاوض معه. كانوا سيواجهون صعوبة أكبر في التفاوض مع حكومة منتخبة ديمقراطياً. من المعروف أنّ توريخوس قدم تنازلات لا يمكن أن يقدمها رئيس منتخب ديمقراطياً على الإطلاق."

"ألم يجرِ توريخوس استفتاء حول المعاهدة؟"

" تلك كانت خدعة. لم يعرف أحد عنها شيئاً. هذا لا يثبت شيئاً. ليس للناس رأي أبداً في هذا المعاهدة. وهاهي الولايات المتحدة تمنح توريخوس خمسمائة مليون دولار لجيشه فقط! لماذا؟ لأنّه طلبها. ما أعطوه لسوموزا في نيكاراغوا أقل بكثير وظل في السلطة."

" إذاً أنتم عالقون مع توريخوس."

قال المهندس: " لا، أعتقد عندما تحصل الولايات المتحدة على مبتغاها منه، ستتخلص منه مثل النفايات."

بدأ حماس المهندس يتصاعد. لقد نسي طعامه، وكان يوميء بيد واحدة ويمسح وجهه بمحرمة في اليد الأخرى.

قال: " هل تريد أن تعرف ماذا يشبه توريخوس حقاً؟إنّه فتى حطم سيارته الأولى. تلك السيارة هي جمهوريتنا. والآن هو بانتظار السيارة الثانية ليحطمها. السيارة الثانية هي المعاهدة. وكلمتي لتوريخوس هي: " انس السيارة- وتعلّم كيف تقود أولاً!"

قلت أنا: " عليك أن تأكل شيئاً."

قال وهو يرمق طبقه: " نحن لم نألفه. استبداده غريب علينا. إنّه أول دكتاتور يحكمنا منذ أن حصلنا على استقلالنا عام 1903، لم أعرف له مثيلاً من قبل. السيد ثيرو، نحن لم نعتد على المستبدين."

كنت مهتماً للغاية بما قاله المعماري، كان رأيه سديداً. بعد أيام قليلة من الحديث مع المحامي البنمي الذي ساعد في صياغة النواحي القانونية للمعاهدة. أخفيت اسم المعماري: كان المحامي صديقًا مقرّبًا لتوريخوس، وأنا لم أرد أن يُلقى بهذا الرجل في السجن بسبب التعبير عن آراء مثيرة للفتنة.

سمع المحامي النقاش ثم قال باللغة الاسبانية: " قمامة!"

واستأنف حديثه باللغة الإنجليزية قائلاً: " عمر لم يُولَّ من قبل الغرينغو[[48]](#footnote-48)."

كانت عبارته مرفوضة بالنسبة لي. لكن لحضور السفير الأمريكي لم أستطع أن أقول لهذا البنمي البنيّ: " لا تناديني"غرينغو"، حتى لا أناديك "سبيك[[49]](#footnote-49)"

قال المحامي: " لم يستطع أي من الأشخاص المنتخبين في 1967 الموافقة على مسودة المعاهدة."

قلت وأنا أشيح بعينيّ بعيداً عن السفير:" هل هذا هو السبب وراء إطاحة الجنرال توريخوس بالحكومة عام1968؟"

شخر المحامي ثم قال ببطء:" بعض الناس يعتقدون أنَّ محاولة الانقلاب على توريخوس عام 1969 قامت بتحريض من وكالة الاستخبارات المركزية (C.I.A.). ما قول صديقك في هذا؟"

قلت: " إن كان الانقلاب فاشلاً فعلى الأرجح لم يتم بتحريض من وكالة الاستخبارات المركزية. هاها."

قال السفير:" نحن نخطيء أحياناً." ولكني لم أكن متأكداً تماماً مما قصده بقوله.

قال المحامي:" أظهر توريخوس شجاعة كبيرة في توقيع الاتفاقية"

قلت:" أية شجاعة؟ هو وقَّع، وهو من سيحصل على القناة. تلك ليست شجاعة، إنّها انتهازية."

قال المحامي:" وانت الآن تتحدث مثل صديقك. من الواضح أنّه يساري متطرف."

"في واقع الأمر هو أكثر ميلاً للتحفظ."

قال المحامي: " الأمر سيّان." وسار مبتعداً.

مهمتي الأخيرة قبل أن أستقل القطار إلى كولون تمثلت في تقديم محاضرة بمدرسة بالبوا الثانوية. رأى السيد داتشي الموظف بقسم العلاقات العامة بالسفارة الأمريكية أنّها فكرة جيدة: لم ترسل السفارة متحدثاً إلى مدرسة بالبوا الثانوية قط. ولكني لم أكن موظفاً زائراً، ولم تتحمل وزارة الخارجية نفقات سفري، وليس من سبب يدعو لأن يوجّه إليّ العداء التقليدي الذي يضمره الزونيون للسفارة. وافقت على إقامة المحاضرة إكرامًا لصداقتي بالسيد داتشي (الذي التقيت به في بودابست من قبل). قال رجل السفارة الأمريكية الذي رافقني إنّه يفضل ألا يفصح عن هويته: كان مكاناً صاخباً جداً. زاركل من التحق بمدرسة ثانوية أمريكية في الخمسينيات مدرسة بالبوا العليا. مع جوها الذي يغلي بالفوضى- ذاك النوع من الفوضى الذي يُنزع فيه بناطيل الطلاب المبتدئين في المراحيض، أو رفع شعار ميكي ماوس على سارية العلم- والانكباب على كرات البصاق[[50]](#footnote-50)، والأحذية المطاطية، وقصات شعر البحارة، واللعب في النادي الرياضي، والبحث عن الضحالة الفكرية في صفحات الأنطولوجيا الأدبية. ("أطلق على ثورنتون ويلدر لقب شكسبير أمريكا")، ومع ذلك لا ثقة بالتميز لأنَّ كل شيء غير مألوف يعدّ نقصاً بالضرورة. (إن ارتديت نظارة فانت عبقري، وتعرف في حدود المدرسة باسم "اينشتاين")؛ ندرس مادة "العلوم" لأنّ هذا ما يفعله الروس، ونستخدمه كفرصة لاختلاس النظرللرسومات التشريحية في كتاب العلوم، حسبان التعليم نشاطاً إجتماعياً بالأساس، وتقبّل تعرّق راحتي اليدين وحب الشباب. ويُمدح لاعب خلف الوسط ويسخر من حامل المياه- نعم كانت مدرسة بالبوا العليا مألوفة بالنسبة لي. صرعة الروك آند رول الحالية جعلتها تبدو أقرب إلى الارتداد: إلفيس، شعار كتب على قميص قطني، وعلى آخر بادي هولي. ولتأكيد انطباعي دخلت إلى مسرحية "الأولاد"، وجلت ببصري في المكان. كان خالياً ولكن الهواء يحمل نفحة من دخان السجائر غير المشروعة، وعلى الجدران *بالبوا رقم 1، وأمريكا عظيمة*.ومرارًا، *بنما مقرفة*. لم أدخل إلى مدرسة ثانوية أمريكية منذ عشرين عاماً، كم كان غريبا أن يعاد بناء منزل القرود الذي تخرجت فيه، حتى آخر طوبة، وجرس الحجرة العامة، وحامل اللبلاب، هنا في أمريكا الوسطى. وعرفت في قرارة نفسي ما ستكون ردة فعلي إن كنت في مدرسة ميدفورالثانوية، وأعلن انعقاد اجتماع عام في الساعة العاشرة بدلاً عن درس اللغة اللاتينية: فرصة للتسكع.

كان جموحاً بريئاً على الأرجح، الإشاعات، والثرثرة، والضحك، والوكز، وخشخشة الورق. كان نصف عدد الطلاب البالغ 1285هناك في القاعة التذكارية. أصدر مكبر الصوت صريراً كصوت الجراد، والآن انقطع بالكامل، ليتحول صوتي همسًا. راقبت حشد الطلاب البدناء والضعفاء، ورأيت معلمة تهرع عبر الممر، تشق طريقها عبر صف مقاعد خالية، وقد طوت المجلة التي تحملها لتصبح مثل الهراوة، ضرَبت صبياً يضحك على رأسه. قدمني المدير للجمع. واستُقبل بصيحات الاستهجان لحظة اقترابه من المنصة. أخذت مكاني ورُحب بي بالتصفيق، ولكن بينما كان التصفيق يخفت زاد الشجب. كان موضوعي هو السفر. قال المدير: "لا أعتقد أنَّ بوسعهم تحمل أكثر من عشرين دقيقة."، ولكن بعد عشر دقائق كادت همهمات الجمهور تبتلع كلماتي. لم أتوقف عن الحديث، وأنا أنظر إلى ساعتي، ثم ختمت المحاضرة. أية أسئلة؟

سأل صبي من الصف الأمامي: " كم تجني من المال؟"

وسألت فتاة: " كيف هو الحال في أفريقيا؟"

وكان السؤال الأخير:" لماذا تتكبد عناء السفر بالقطار كل هذه المسافة؟ أعني إن كان يستغرق وقتاً طويلاً جداً"

قلت:" لأنّ بوسعك التزود بست صناديق من الجعة في مقصورتك، وتحتسيها كلها، وبحلول الوقت الذي تصحو فيه تكون قد وصلت."

بدا هذا كافياً بالنسبة لهم. فضحكوا ساخرين وأظهروا تأييدهم، قبل أن يرفعوا أصواتهم استهجاناً.

قلت بعدها للمدير: " طلابكم، ..هم بالأحرى."

فقال محبطاً محاولتي انتقادهم: " إنّهم أولاد لطفاء حقاً، لكني عندما جئت إلى هنا خلت أنني سأجد بعض الأولاد الراقين بالفعل. هذا بلد أجنبي- حسبت أنّهم ربما كانوا عالميين. الأمر المضحك أنهم أقل رقيّا عن الأطفال في الوطن".

قلت: " آه، نعم، أقل رقياً، لم يسعني إلا أن ألاحظ إلقاءهم الطلاء الأحمر على تمثال بالبوا أمام مدرستكم."

قال:" هذا هو لون المدرسة."

"هل يدرسون تأريخ بنما؟"

جعله هذا السؤال يتوقف للحظة. فكر لبرهة قليلة ثم قال متردداً:" لا، لكن لديهم حصص في الدراسات الاجتماعية عندما يصلون إلى المستوى السادس."

"ممتاز، دراسات اجتماعية قديمة!"

" لكن تأريخ بنما- إنّه ليس بشيء قد تدعوه مادة أو أي شيء كهذا."

قلت: " منذ متى تقيم هنا؟"

قال:" ستة عشر عاماً، أعدها وطناً لي. لدى بعض من يعيشون هنا منازل في الولايات المتحدة. وهم يعودون كل صيف. أنا لا أفعل ذلك. أخطط للبقاء هنا. هرب أحد معلمينا في عام 1964- أعتقد أنها كانت النهاية. أتذكر حادثة حرق العلم؟ إن بقي كان ليكمل ثلاثين عاماً من الخدمة ويحصل على معاش تقاعد مجزٍ. ولكنه لم يفعل. سأرى ما سيحدث هنا. لن تعرف أبداً- يحتاج موضوع المعاهدة هذا إلى وقت طويل للتسوية".

اقتربت معلمة أخرى- سيدة شابة- لتسمع ما كان يقوله المدير. وعندما أنهى حديثه، قالت: " هذا ليس وطناً لي. لقد عشت هنا عشرة أعوام، وكنت دائماً أشعر- حسناً- أن مقامي هنا مؤقت. كنت أستيقظ أحياناً في الصباح وأفتح الستائر لأرى أشجار النخيل تلك وأقول لنفسي:" أوه، الجنة!"

سألت معلماً رجلاً وأنا ابتسم بينما كان يرافقني إلى خارج المبنى :"ما رأيك بالتلاميذ؟"

قال: " صاخبون جداً. كانوا يحسنون التصرف، لقد تفاجأت- توقعت مشكلة. لقد كانوا يثيرون الشغب مؤخراً."

وسمعت- من ورائنا- صوت تكسر الزجاج الذي لا أخطئه، وضحكات يافعة، وصيحات المعلم الغاضبة.

***© © ©***

كان طلاب المدرسة الثانوية هم من أطلق على هذا القطار لقب *"رصاصة بالبوا****".*** مثل القناة، هو أمريكي في شخصيته، بمظهر قوي، وإدارة فعالة، ورعاية تامة.

عند الصعود إلى متن القطار في بالبوا هايتس لا تثريب عليك إن خلته قطاراً قديماً متجهًا إلى ورسستر. ومن طريقة بيع التذاكر، والمحصّلين الذين يعتمرون قبعات صغيرة مستديرة، ويثقبونها، ويناولونك الكعب (إبق هذا في مكان واضح)، فهو عتيق الطراز ويمكن الاعتماد عليه حقاً. ولكن ذاك- أيضاً- مثل القناة: القناة والطرق الحديدية كلاهما أكل الدهر عليه وشرب. صمدا حتى العصر الحديث بدون الإضطرار إلى تحديثهما. هو يسافر من الأطلنطي إلى الهاديء في أقل من ساعة ونصف الساعة، ودائماً بدون تأخير في معظم الأحوال.

لقد أقمت في بنما بما يكفي من الوقت للتعرف على بعض المعالم- المبنى الذي يطل على دائرة ستيفنز، المنازل السكنية على مرتفعات بالبوا، وقلعة كلايتون، التي تبدو مثل سجن مشدد الحراسة. معظم المنازل تتشابه لحد رتيب-الشجرتان، وحوض الزهور، والقارب في الزقاق. ليس ثمة مشاة على الأرصفة- ليس هناك أرصفة في معظم الأماكن. وفقط الخدم من يكسرون الرتابة ويشيرون إلى وجود حياة تُعاش، وهم يستريحون أمام أبواب المطابخ.

كانت الوقفة الأولى في ميرافلوريس- "ميرور-فلورز" كما يلحن في نطقها سكان القناة. ثم تختفي القناة وراء هضبة ما، ولا تعود للظهور حتى بيدرو ميغيل حيث في هذه المجموعة من الأهوسة ثمة جرافات منحها شكلها ومداخنها مظهر قوارب نهر المسيسبي العتيقة.

أما القطار، بخلاف غيره من القطارات في أمريكا اللاتينية، فيمثل مقطعا عرضياً من مجتمع البلاد. وقد التحق بالعربات المكيّفة الهواء ضباط الجيش الأمريكي، والزونيون الأعلى أجوراً، والسيّاح، ورجال الأعمال من فرنسا واليابان، والذين جاءوا في هذا الوقت الحرج ليحققوا نجاحات مالية في مجال العقارات أو الاستيراد. وأنا كنت في العربة غير المكيّفة باختياري، مع مجموعة غير متجانسة من البنميين، والزونيين، والمجندين، وعمّال القناة في مناوبة بعد الظهر، والسود الذين يرتدون قبعات مخملية، وبعضهم بجدائل راستفارية، وأثمان زنوج[[51]](#footnote-51)ذوي ضفائر قصيرة، وعائلات كاملة من السود، وبيض، وكل ما بين ذلك من درجات الأعراق.

في العربة المكيّفة كان الركاب ينظرون إلى خارج النافذة منبهرين بالقناة، ولكن هنا في المقاعد الأرخص ثمناً، كان العديد من الركّاب نائمين، ولا يبدو أنَّ هناك من لاحظ مرورنا عبرالغابات التي تزداد كثافة وعتمة، وقد تحولت بكرومها المتدلية إلى غابة مطرية نصف طبيعية. لقد صارت دغلاً، ولكنها ظلت إلى جانب الشرق، وعلى الجهة الغربية قرب القناة ملعب غولف به ممرات عشبية بنية اللون، ولاعبو غولف بائسون يسيرون باتجاه الخلاء- تصيب الأفاعي والعقارب الباعة الجائلين في هذا الطريق.

لا لافتات هنا، ولا لوحات إعلانات على طول الطريق، ولا نفايات، ولا أكشاك هامبورغر، ولا محطات وقود: هذه ضاحية أمريكية في أبهى مثال، انتصار التفاهة، منازل عملية، ومحطات قطار فعالة، وكنائس جدية، وسجون قوية، إذْ في غامبوا هنا، توجد إصلاحية القناة، وهي لا تبدو أفضل أو أسوأ عن ثكنات قلعة كلايتون، أو منازل الزونيين في بالبوا. يشدد على الصرامة شرطي يرتدي قبعة جندي أمريكي من نوع ستيتسن، وهو يميل على رفرف سيارة فرقته، ويبرد أظافره. لم يُذكرني شيء بوجودي في أمريكا الوسطى إلا عند الأنفاق: يصرخ الناس.

خارج النفق، بدأ الدغل الأكثف، وقد ازدحمت الأشجار بجانب بعضها البعض، وزحف الكرم على الكرم، حيث لا طريق ولا ضوء. هذه أحراش بدائية بلا أدنى ما يربطها بالقناة، تعج بالطيور. هذا هو هامش الزونيّ، حيث تستأنف بنما بعد مقاطعة شريط المنطقة. وهي في بريّتها ليست واقعية كقبضة الجيش للمنطقة. لا يهم إن كان هناك تماسيح أو هنود، لأنّ هناك جراء وشرطة، وكل ما تحتاجه لتجاهل الدغل الذي لا ينتهي قبل بداية سلسلة الانديز.

عبرنا الفاصل القاريّ في كليبرا، وكانت هناك سفينتان تعبران القناة. كان ضرورياً من أجل مرور هاتين السفينتين بهذه السلاسة أن يتواصل الحفر لسبع سنوات، وهذا ما حدث. قال لورد بريس: " أعظم حرية انتزعت من الطبيعة على الإطلاق." التفاصيل في تاريخ القناة لديفيد ماكولو[David McCullough]، الطريق بين البحرين: لحفر تسعة أميال وإزالة 96 مليون متر ياردة مربعة من التراب، بكلفة بلغت 90 مليون دولار أمريكي، واستخدمت61 رطلاً من الديناميت لتفجير القناة لشقها، وقد استخدم معظمها هنا في كوليبرا. ولكنها كانت ظهيرة قائظة مشمسة، والطيور تغرد، بدت كاليبرا أكبر بقليل من نهر طبيعي في الأراضي المدارية. لا يمكن تخيّل تأريخ القناة مما يمكن رؤيته في المنطقة، فمعظمه تحت الماء على أية حال. مداخلة باناو فاريلا بأنّ: " مهد الجمهورية البنمية" كان في الغرفة 1162 من فندق والدورف-استوريا بمدينة نيويورك كانت صادقة، ولكن تبدو شنيعة ووهمية، مثل جميع التفاصيل التأريخية المرتبطة بالقناة.

وما الذي سيكون أكثر غرابة من منظر سفينة بحرية عظيمة في الغابة؟ وفي البر تكثر الأهوار والمستنقعات، وتبدأ البحيرة. بحيرة غاتون التي تشكلت بسبب القناة، حتى فُتحت بوابات السد في 1914، حيث كان هناك نهر صغير فحسب وهو نهر الشاجرز. والآن هناك بحيرة شاسعة، أكبر من بحيرة موسهيد في ماين، بالقرب من فريجولز، هبت نسمة باردة عبرها، وكست مياهها لونا أبيضَ وجعلتها متلاطمة. كنت استطيع رؤية جزيرة بارو كلورادو. بينما كانت المياه تعبيء الوادي لتشكّل البحيرة، هربت الحيوانات إلى بارو كلورادو، طارت الطيور إلى أشجارها، وهكذا تحولت هذه الهضبة إلى سفينة نوح. وظلت ملاذاً للحياة البرية.

تصدر الأغنية ذاتها،ستاين الايف[stayin’ alive]من جميع أجهزة المذياع المصغرة في عربتي- عددها خمسة، بينما كان القطار يعبر الجسر من مونتي ليرو إلى شاطيء غاتون. كما لو أنني في لويزيانا، ليس فقط بسبب السود وإذاعتهم وتلك الموسيقى، ولكن لأنَّ معظم الزونيين استقدموا من نيو اورليانز، وهذا الممر كان أشبه عمليًا بقطع جسر لاكوسترين الطويل على بحيرة بونتشارترين على قطار شيكاغو المسمى ليس بمحض الصدفة، قطار بنما المحدود. الجزر في بحيرة غاتون حديثة جداً، ما زالت تبدو كقمم الهضاب في وقت الفيضان، ولكن لا وقت لرؤيتها. وهنا سار القطار بسرعة ستين مقعقعًا عبر الجسر. ندمت على عدم ذهابه إلى أبعد من ذلك، لم أستطع الجلوس حيث أنا، أدخّن غليوني، وأسافر إلى كولومبيا وإكوادور. ولكن ليس هناك قطار ممتاز يصل إلى ذلك الحد، تمامًا كما لا يوجد قطار سيء يصل إلى وجهته في الوقت المناسب. آخر مجموعة من الأهوسة في غاتون، والمباني المحيطة، والمعسكر والمنازل، ولافتات الجيش- أيقظت جميعها ذكريات خلتها طويت في غياهب النسيان.

وضعت تجربتي في بنما في منظورها الصحيح. شعرت في مدرسة بالبوا الثانوية بحزن أليف. لقد كانت مثل مدرستي الثانوية. ولكن مدارس الولايات المتحدة الثانوية تشبه بعضها، فهي جميعاً تتسم بألاعيب خالدة، وتظاهر بالدراسة، ونظرة أكثر هزلية للمناوشات بين الطالب والمعلم.

والجو العام هو ذاته دائماً، ورائحة صمغ وورق الدفاتر، وشمع الممر، غبار الطبشور، ومطاط الأحذية، وقعقعة أبواب صندوق الخزنة البعيد، والصياح والضحك. لم يكن وجودي في مدرسة بالبوا الثانوية ليسعف ذاكرتي، ولكن أثّرت فيّ بحيرة غاتون. كانت غاتون قطعة من ماضي خلت أني فقدتها، نسيتها، وما إن مررت عبرها حتى أدركت كم كانت فريدة. لولا هذه الرحلة لما استطعت استعادة هذه الذكرى. حوالي عام 1953، عندما كنت في الثانية عشرة، نحيل الجسم، أقصر نظراً من أن أمسك بكرة بيسبول، أسداني عمي الذي كان جراحاً بالجيش صنيعًا بدعوته إياي لإمضاء الصيف معه ومع عمتي وأنسبائي في قلعة لي بفريجينيا. كان ضابطاً. اعتاد المجندون المعاقبون بجمع أغلفة العلكة على جانب الطريق تحية سيارته، حتى عندما كانت تقودها عمتي- أفترض أنّهم يحيون الشارة.

كان يحدث هذا دائماً لضباط قلعة لي عندما نكون في طريقنا إلى البركة، إلى ميز ضباط قلعة لي المفتوح. كنا نذهب عادة إلى البركة. وكان هناك صبي في عمري، اسمه ميلر. لديه بقعة صفراء في رداء السباحة الخاص به. قال: " هذه عصارة مخلل، دلقتها عليَّ في ألمانيا." بدا تفسيراً مذهلاً، ولكني صدقته: لديه حربة ألمانية. أقام ميلر في فيرجينيا زمنًا طويلًا بما يكفي ليتجاهل الحر. لم أعرف قط درجات الحرارة هذه. تطوعت لحمل أدوات لعب الغولف من أجل عمي، لكن بعد ست حفر، اضطررت للجلوس في الظل وانتظاره حتى يعود في الثالثة عشرة التي كانت قريبة. حاولت التأقلم مثل ميلر، لكن مهما فعلت كان الأمر ينتهي بي في ظل إحدى الأشجار. قال عمي ربما كنت مصاباً بالاستسقاء. وكان يقول لشريكه في الغولف: " هذا ابن اخي، إنه مصاب بالاستسقاء" كان لقب "دروبسي" يطاردني طوال الصيف. كانت فورتلي معسكر جيش، ولكني لم أجد الأنماط التي رأيتها في أفلام الحرب، بدا المعسكر مثل سجن الولاية الذي كان يستخدم كنادٍ ريفي. بعيداً عن الجنود- تحايا، وتحايا- هناك سود ينتشرون في كل مكان، يقومون بأعمال البستنة، أو يسترخون في قاعة تيستي بريز للمثلجات، أو يسيرون في الطرقات المكشوفة، يقودون شاحنات رش المبيدات الحشرية، التي تجوب الأفنية الخلفية مخلفة سحابة من السم في جمال الضباب، وبعدها أكوام من الجنادب الميتة.

كانت الغابات رقيقة وغنية بأشجار الصنوبر، والأرض أكثر احمراراً مما رأيت قط، والمنازل باردة (وكان لعمتي جلسات "قهوة الصباح"). كانت هناك لافتات مستطيلة قرب الأبواب في المطاعم المجاورة للمعسكر، مثل لوحات الاسماء المصنوعة من القصدير في بوسطن المكتوب عليها دافي وجونز، لكن هنا دائما ما كان الاسم هو وايت [أبيض [WHITE، الذي كنت أعتقد ببراءة أنه كان اسماً. مر قطار بالجوار، إلى هوبويل، وبيتسبرج، صارت الحشرات صاخبة في النهار كما في الليل، والمباني بلون أصفر شاحب، بأسقف من البلاط الأحمر، وأسيجة، واللوحات المطبوعة- مثل هذه. وبينما كان القطار يقترب من بحيرة غاتون، توقفت، كنت في فورتلي، عدت إلى لحظة تسبقها بخمسة وعشرين عاماً، عندما شاهدت بخوف وإثارة مماثلين مباني الجيش، والأشجار القزمة في التربة الحمراء، والزهور اليانعة بلا عد ولا حصر، وفيلق الجيش النسائي، وحافلة المدرسة الصفراء، وصف سيارات فورد زيتونية اللون، وملاعب البيسبول الماسية الشكل، والأشخاص السود، وملعب الرابطة الصغير، والمقابر، والجنود الشباب الذين بدوا بلا هدف عندما لم يكونوا في مسيرتهم العسكرية، والغبار الذي يستقر في الحر. التقى العالمان: هنا كانت فيرجينيا الريفية، وما زلنا في الخمسينيات، والرائحة كانت هي ذاتها والذاكرة غاية في الوضوح. قلت لنفسي: المحطة التالية هي بيتيسبيرج بلا شك. كانت مونتي هوب. لكن مونتي هوب هي امتداد للذكرى ذاتها. لا أسافر كثيراً إلى هذه المسافات البعيدة، وأستطيع بمثل هذه السهولة استكشاف جزء من الماضي ظل تائهاً عني.

وكما في جميع الذكريات ثمة شيء غير دقيق، مثل ذكرى لوحة الاسم [وايت]. أتاح لي منظور السنوات معرفة كيف كان ذاك العالم قديماً وصغيراً، وكيف غُرر بي.

انكسرت التعويذة في كولون. لكولون مظهر مقسّم، لم أستطيع التعود عليه قط. كانت مستعمرة على نحو صريح: مساكن الفقراء على أحد جانبي الخط- ما مر كان لحي السكان الأصليين- والنظير العسكري للمباني الإستعمارية على الجانب الآخر، نادي اليخت، والضباط، والمنازل في الحدائق.

هنا الحكومات، وهناك المحكومون. إنّه الشكل القديم للاستعمار، لأنّه وبخلاف الشركات متعددة الجنسيات الجشعة بذات القدر، والمستترة في أغلب الأحوال، بوسعك أن تعرف على الفور ومن ظاهر الأشياء أنك في مستعمرة. وأنّ صناعة كل سيارة تقول لك إنّها مستعمرة أمريكية.

كانت المساكن مثل تلك التي رأيتها في مدينة بنما، بقايا أثرية متداعية. كانت لتبدو مثل المنازل في الحي الفرنسي بنيو أورليانز مع كسوة من الطلاء ونسبة من مزيل الصدأ، أو تلك التي في الأجزاء الأقدم من سنغافورة. إن بدت بحيرة غاتون، وكثير من أجزاء المنطقة مثل فورتلي، بفريجينيا، حوالي عام 1953، فما يقع خارجها مباشرة يبدو مثل أحياء سنغافورة التجارية المزدحمة النشطة في فترة ما قبل الحرب- نكهة البازار الحامضة، ومتاجر الملابس والتحف، والموردين، ومتعهدي تموين السفن الذين كانوا في كولون من الهنود والصينيين، مثلما هم في سنغافورة. قِيل لي إنَّ الهنود في المنطقة قد جاءوا من الهند ليعملوا على الخطوط الحديدية. وهي ليست حقيقة يسهل التحقق منها- العمال هم عمال: رجال صامتون في كتب التأريخ- ولكن الأيدي العاملة اللازمة لبناء القناة استقدمت من سبعة وتسعين بلداً؛ ولا شك أنّ الهند كانت واحدة منها. لم أستطع العثور في كولون على هندي واحد جاء لهذا الغرض. السيد غولتشاند بدا نموذجياً. لقد كان سندياً وهندوسياً- لديه صورة ملونة للمهاتما في متجره. وبعد فصل الهند، صارت محافظة السند جزءًا من باكستان، وذهب السيد غولتشاند إلى بومباي خوفاً من حكم المسلمين. لم تكن وطناً ولكنها على الأقل كانت هندوسية. أطلق عملاً في الاستيراد والتصدير وعنت له مناسبة في مجال عمله للتعامل مع الفلبينيين. زار الفلبين. وأحبها بما يكفي لنقل أعماله إلى هناك في الستينيات.

أحدثت حرب فيتنام ازدهاراً وجيزاً في الفلبين، فازدهر عمل غولتشاند. حققت نقلته عددًا من الأشياء: أبعدته من مجال التأثير الأنجلوهندي، وقربت بينه وبين الأمريكان. وتعلم اللغة الإسبانية. وهاهو الآن في في النصف الثاني من العالم. لا يفصله سوى المحيط الهاديء عن مركز كولون التجاري، وموعده مع ثروة أكبر في بنما، والمزيد من عمليات الاستيراد والتصدير، والعلاقات مع أمريكا الوسطى، والمدينة التي يعدّها جميع الأمريكيون اللاتينيون عاصمة لهم: ميامي. كان في كولون قبل خمس سنوات، وكرهها. اشتاق لارتباكبومبايالذي يسهل عليه فهمه، والفوضى الأكثر إلفة. " التجارة في كساد." قال السيد غولتشاند. كان يلقي بالمسؤولية على معاهدة القناة. إنّها قصة قديمة: بلغ مسامع التجار أنّ المستعمرة على وشك الانهيار، الكساد، الاقتراع على البيض، الأسعار المنخفضة، لا يمكن إعطاء هذه الأشياء مجاناً.

مارأيك في كولون؟

قال السيد غولتشاند-بلكنة هندية- "عنيفة، ومتسخة"

نصحني بنزع ساعة يدي. قلت سأفعل. ثم سألت رجلاً أسود في محاولة لمعرفة الطريق إلى مكتب البريد، قال: " سأريك الطريق، ولكن تلك،" استأنف حديثه وهو يربت على بلورة ساعتي:" عليك نزعها أو ستفقدها." لذلك نزعتها. كانت لافتات المتاجر ليست سوى عدة واجهات للموضوع ذاته: تخفيض للتصفية.سنبيع كل شيء بغرض التصفية. هنالك تخفيضات اليوم للإغلاق.

قال السيد رايس في مشرحة غورغاس: "لا أعرف ماذا سيحدث"، وهو يتحدث عن المعاهدة. ولكن من هذه اللافتات على المتاجر كان واضحاً أنّها ستصدّق، وسرعان ما ستخلى هذه المتاجر.

سألت هنديًا آخر عما سيفعله إن صودق على المعاهدة. قال: "أبحث عن مقر جديد.، بلد آخر"قال الهنود إنَّ السود كانوا عنيفين، وقال السود إنَّ الهنود كانوا لصوصاً. ولكن السود لا ينكرون أنَّ بعض السود كانوا لصوصًا. ألقوا باللوم على الصغار، الراستات، والعاطلين. بدا الجميع في كولون عاطلاً، حتى أصحاب المتاجر: لا مشترٍ في الأفق. ولكن إن كسدت التجارة- وهي بالتأكيد تبدو كذلك أمام عيني-ربما كان الأمر مفهوماً. انظر إلى البضائع: غلايين يابانية تبدو كما لو أنّها مصنوعة لنفخ فقاقيع الصابون، أجهزة مذياع محوسبة، وآلات تصوير معقدة على نحو سخيف، خدمات عشاء لأربع وعشرين ساعة، وأرائك أرجوانية، ربطات عنق جلدية، وكيمونو بلاستيكي، ومُدىً مطوية، وسكاكين باوي، والتماسيح المحشوة بثمانية أحجام، الأصغر بدولارين، والأكبر- بطول أربعة أقدام- مقابل خمسة وستين، والمدرّعالمحشو مقابل خمسة وثلاثين دولارا، وحتى العلجوم المحشو، مثل كرة كريكيت بأقدام مقابل دولار. والخردوات: فتّاحات رسائل، وبيض العقيق، والسلال الهشة، وبرزت حصائر إذكاء النار بالآلاف من قبل هنود كونا المهجّرين.

من يحتاج هذا الشيء؟

قال صاحب متجر آخر: " إنّها ليست جودة البضاعة بل غياب الزبون. إنّهم لا يأتون."

كنت أشعر بالظمأ. دخلت حانة، وطلبت جعة. شرطي بنمي يقف بالقرب من جهاز تشغيل الأسطوانات الموسيقية. كان يضغط الأزرار.ضجت أغنية "ستاين الايف[Stayin’ Alive”"[في الحانة. التفت نحوي وقال: " هذا ليس مكاناً آمناً."

ذهبت إلى متحف الشمع الفرنسي. قادني رأس المسيح الدامي إلى التفكير في أنّه قد يكون تكريسياً، وهناك أيضاً شهيد في النافذة. صار بالداخل أكثر تشريحية، في وجود مائتي جثة وغرض معروض. هناك أجنّة بالشمع، وأجهزة جنسية، وتوائم سيامية، ومجذومون، ومصابون بالزهري، وعملية قيصرية كاملة. **اكتشف حقيقة تحوّل الرجل إلى امرأة**. هكذا كتب على المطوية. كان المعروض مخنثاً وأصفر. **انظر سرطان الكبد، القلب، والأعضاء الأخرى**! **انظر معجزة الولادة!** وثمة ملاحظة على المطوية تقول إنّ متحف الشمع هذاكان يعمل لصالح الصليب الأحمر البنمي.

إن كنت سأظل في كولون فعليَّ الاختيار بين الفوضى والعنف في حي السكان الأصليين، أو المبيدات الاستعمارية في المنطقة. سلكت أسهل الطرق للخروج، اشتريت تذكرة عائداً إلى مدينة بنما، وركبت القطار في الساعة 5:15. حالما خرجنا من المحطة، زادت قتامة السماء، وبدأت تمطر. كان هذا هو الكاريبي: ربما تمطر في أي لحظة هنا. وكان الفصل الجاف على شاطيء الأطلنطي الذي يبعد خمسين ميلاً من هنا. لن يهطل المطر قبل ستة أسابيع. ربما كان البرزخ ضيقاً لكن السواحل واضحة كما لو أنَّ ما بينها قارة عظيمة. انهمر المطر غزيراً وجرى في الحقول، وسوّد القناة وغضنها بالرياح، وزخ برذاذه على جانبي المقعد وسال على النوافذ. مع أولى القطرات أغلق الركّاب النوافذ، والآن جلسنا نتصبب عرقاً كما لو أنَّ هذا الغيث منهمر فوق رؤوسنا.

" قلت أين تذكرتك؟"

كان هذا هو المحصل، يتحدث بصوت عال في الممر، وهو يتحدث متشدقاً بلكنة موطنه لويزيانا على أحد السود. " تعاون معي يا صديقي- أنت على قطاري!"

كان يتحدث الانجليزية، وفوق كل شيء كان من المنطقة. لكن هؤلاء ليسوا من المنطقة- كانوا عمال المنطقة، معظمهم من السود، الذين كانوا يصنفون "بنميين". عليه بدا الأمر متناقضاً بشكل خاص بالنسبة لهذا المحصّل الأمريكي، وهو يسحب قبعة الخطوط الحديدية المدببة في انفعال، وهو منشغل بثقب التذاكر، ويسير حتى يقف أمام متحدث بالاسبانية ويحمل كعب تذكرته قائلاً: " هذا يكلفك خمسة سنتات أخرى- لقد زادت التكلفة منذ عام." انتقل ثانية: ومشكلة تذاكر أخرى: " لا تعطيني هذا الهراء!" في أوج الامبراطورية في الإنديز الشرقية الهولندية، كان الرجال مثل هذا- ولكنهم هولنديون-يرتدون الأزياء الرسمية الزرقاء، ويديرون القطارات وعربات الترام عبر ميدان. كان هذا في شمال سومطرة، يفصل بينها وبين امستردام عالم. ولكنهم تعلموا صنعتهم في امستردام.

كانوا يعلقون حقائب جلدية ويبيعون التذاكر ويثقبونها، ويقرعون أجراس الترام. ثم صار الأرخبيل أندونيسيًا، ومعظم القطارات وعربات الترام توقعت عن العمل، لأنَّ السومطريين، والجافيين لم يقوموا بإدارتها قط.

أنت على قطاري: كانت صيحة استعمارية. ولكني كنت أذيت هذا المحصّل لو لم أقل ذلك بعد أن أنهى عمله مع جميع الركاب، استرخى، وصار يلقي النكات مع فتاة سوداء مثرثرة، وتجاذب اطراف الحديث مع عائلة شغلت ثلاثة مقاعد طويلة. ومما أثار اندهاش الركّاب الذين يتدلون من النوافذ-كنت جميعها مفتوحة الآن: لقد توقف المطر بعد ثلاثة أميال من مدينة كولون- أنه طارد خمسة صبيان صغار كانوا يلعبون على الرصيف في فريجولس. ضرب بقدميه الأرض وصرخ:" غبي! غبي! غبي! غبي! غبي! غبي!" ثم تحدث إلى الرجل الذي وقف بجانب القطار وهو يحمل عناقيد من السمك الذي صادوه من البحيرة، والتي كانت تبعد عشرين قدماً عن خط الطرق الحديدية.

في بالبوا ومدينة بنما تبدأ مباريات البيسبول في المساء الباكر في الحدائق: مررنا بثلاث منها على التوالي. ثم اثنتين أُخريين.

نزل السياح الأمريكيون الذين كانوا يحتلونجميع المقاعد المكيّفة، من القطار وهم يترنحون وساروا عبر الرصيف إلى حيث حافلتهم المكيّفة. راعني أننا لدينا- لابد- أكبر عدد من السياح المسنين في العالم، حتى عندما يعاملون كأنهم في روضة الأطفال، فهم يتمتعون بفضول حيال العالم. بالنسبة لهم فلتتبارك بناطيلهم الصفراء وأحذيتهم الزرقاء، لقد كان السفر جزءًا من رحلة التقدم في العمر. كانت هذه هي ساعة الذهاب إلى النادي في جميع أنحاء المنطقة. وفي ميز الضباط، وقدامي المحاربين في الحروب الأجنبية، والفيلق الأمريكي والإلكس، وفي كنيسة مركز خدام الرب، و نادي نبلاء الضريح، والماسونيون، ونوادي الغولف، وبيت نجمة عدن رقم 9 من نجمة بيت لحم العتيقة المشهورة، في متاجر بافلوس، وآل موس، وفي مقر اللورد كتشنر رقم 25، وفي مقهى الشركة في بالبوا، كان عمل اليوم قد انتهى بينما كان استعماريو المنطقة المغرمون بالنوادي يتحدثون. كان هناك موضوع واحد، المعاهدة. الساعة السابعة في المنطقة، ولكن أي سنة، من يدري؟ إنّه ليس الحاضر. لقد كان الماضي هو ما يهم الزونيّ، و الحاضر هو أكثر ما يعارضه الزونيون، ولقد نجحوا حتى الآن في إيقاف الساعة، بينما حافظوا على دوران عجلة العمل بالقناة. كان بعض طلاب مدرسة بالبوا الثانوية ينتظرون حلول الظلام بما يكفي حتى يستطيعوا إعمال البراغي مرة أخرى خلسة في الأقفال، ويتلفونها حتى يمنعوا المدرسة من فتح أبوابها. في منتصف الليل تذكرت معلمة الفنون فجأة أنّها نسيت أحد الأفران مشتعلاًوخشيت أن تحترق المدرسة بسببه. فاتصلت بالمدير، الذي بدل منامته، وذهب ليتحقق منه. ولكن لم يكن هناك من خطر: كان الفرن غير موصل بالكهرباء. وحتى الأقفال لم تتلف. في اليوم التالي فتحت المدرسة كالعادة، وكان الجميع بخير في المنطقة. دعيت لمد إقامتي حتى أشهد حفلاً، وأناقش المعاهدة، وأرى الهنود. لكن وقتي لم يسمح، كان شهر مارس قد حل بالفعل، ولم أضع قدمي بعد في جنوب أمريكا. كانت هناك انتخابات وطنية ستنعقد في غضون أيام قليلة بكولومبيا "وهم يتوقعون حدوث مشكلات،" كما قالت الآنسة مكينفن في السفارة.

دفعتني هذه الاعتبارات كما كتب جلفر، إلى تعجيل مغادرتي قبل موعدها المحدد.

**---**

**-13-**

**اكسبرس الشمس إلى بوغوتا**

**---**

*عندما يسألني الغرباء*عن وجهتي،كثيراً ما أجيب "لا مكان". قد يصبح الإبهام عادةً، والسفر شكلاً من أشكال البطالة. على سبيل المثال،ربما لا أذكر سبب مجيئي إلى بارنكويلا. صحيح أنّ عليَّ السفر جواً إلى مكان ما من بنما- ليس ثمة طريق أو خط حديد عبر منطقة دارين غاب بين بنما وكولومبيا، ولكن لِمَ اخترت بارانكويلا؟ هذا ما لم أْحر له جواباً. ربما كان اسمها مطبوعاً بحروف كبيرة على الخارطة، وربما بدت لي مهمة، ربما أخبرني شخص ما عن احتمال أنّها المكان المناسب للعثور على قطار متجه إلى بوغوتا. لكن لم يستند أي من هذه الافتراضات على أساس من الواقع.

كانت بارنكويلا مزعجة وقذرة، وكنت في ورطة إضافية بوصولي إلى جحر الفأر هذا في اليوم السابق للانتخابات البرلمانية الوطنية. ستقع أحداث شغب، إذ حُذِرت: من المتوقع أن يلجأ الغوغاء إلى العنف، وقد نُقل المزارعون من الجبال بالحافلات- باعوا أصواتهم مقابل مائتي بيزو(حوالي خمسة دولارات)، ولهذا نُقلوا مجاناً إلى مراكز الاقتراع. كان الرجل الذي حادثته أدردَ. إن كان شخص ما يتعلم لغة أجنبية فهو يضع عيوب الكلام في الحسبان على الإطلاق.صعُب عليَّ فهم إسبانية هذا الرجل وسط أصوات قضمه العالية. لكني فهمت الرسالة. لن تباع الكحوليات،وستغلق الحانات جميعها، وحالما يبدأ الاقتراع، لن يسمح للحافلات وسيارات الأجرة بمغادرة المدينة التي تقع بالقرب من فم نهر ماجدالينا على ساحل الكاريبي. قال الرجل ستضطر للانتظار. وبينما كنت أنتظر حاولت التفكير في سبب مجيئي لبارنكويلا. شربت بعض المياه الغازية، وكوب قهوة بخمسة سنتات. بدأت قراءة كتاب **حياة جونسون** لبوزويل تحت شجرة نخيل في حديقة الفندق. استمعت إلى السيارات الزامرة. سرت عدة مرات عبر المدينة، ورأيت الشاحنات الممتلئة بالمؤيدين باسماء مرشحيهم على اللافتات والأقمصة، أو شاحنات اكثر امتلاءً تنقل الجنود المسلحين. بدا كما لو أنّه استنفار عسكري لمعركة ما. لُذتُ بالجلوس تحت شجرة نخيلٍ برفقة بوزويل. وحاولت تذكر السبب الذي منعني من الذهاب إلى سانتا مارتا مباشرة، حيث يغادر القطار المتجه إلى بوغوتا.

خلال تجوالي في بارنكويلا قابلت مسؤولاً في مكتب الخدمة الخارجية الأمريكية. علِم إنني عالق بالمنطقة، كان يدير المركز الثقافي. اسمه دادلي سيميس. اتصل بي في يوم الانتخابات في فندقي، وسألني إن كنت أريد رؤية الناس وهم يصوتون. فسألته: " هل ذاك آمن؟"

قال: " سنرى، أعتقد إن لم نجذب الأنظار إلينا فلن يزعجنا أحد."

شذبت شاربي، وارتديت قميصاً متغضناً قصير الأكمام، وبنطالاً داكناً، ونعليَّ المانعيْن للتسرب: قلت لنفسي سأندمج بسهولة. ولكن ذهب جهدي أدراج الرياح، فقد ارتدى دادلي صندلاً، وبرمودا قصيرة فاقعة عليها نقش كاروهات، كانت سيارته شيفروليه كبيرة صاخبة، ليست كمثل أي سيارة رأيتها في بارنكويلا. قال لا تجذب الانتباه، ولكن حدَّق الناس فينا أينما ذهبنا، وكانت قيادة السيارة صعبة في الطرق الضيقة الوعرة وسط المدينة.

وسرعان ما وجدنا أنفسنا في زحام مروري. وطفق الأشخاص الذين باعوا أصواتهم، والذين لم تستطع حافلاتهم العائدة إلى الديار المغادرة قبل يوم آخر، يدورون في المكان مرتدين القبعات الورقية الخاصة بمرشحيهم، وكانوا ينظرون بفضول داخل سيارتنا. كان هناك صياح، وغناء، في عدد من مقار الحملات- غطيت واجهات المحلات بالرايات- مئات الناخبين (الأقمصة القطنية، والقبعات الورقية) يهتفون باسماء المرشحين، وينتظرون النتائج. (في أي حال، لم تُحصَ الأصوات بدقة لأسبوعين). كان بالإمكان تحديد هوية الناخبين بوضوح كداعمين لهذا الحزب أو ذاك. من السهل على أي من أحزاب المعارضة افتعال شجار. ولكن عدد الجنود كبير، والصوت الوحيد المروّع الذي سمعته كان صوت موسيقى طبول الصفيح الرنانة وأصوات النهيق- أحد مقار الأحزاب يحاول إبتلاع الآخر. ناور دادلي بسيارته في شارع خلفي، يلعن الحفر، ويطلق بوقه أمام الزحام. كان الطقس حاراً رطباً، ووجوه هؤلاء الناس تلمع بحبات العرق.

قال دادلي:" أترى أي عنف؟"

قلت لا.

قال: وربما قصد بحديثه الفتية الذين كانوا الآن يضربون المصدات الخلفية لسيارته بقبضاتهم " هؤلاء الناس، يعرفون بأنّهم"شعب كولمبيا السعيد". لم تكن كلمة سعيد هي بالضبط المفردة التي قد اختارها أنا. لقد بدت عليهم الهستريا، كانت أصواتهم حادة، وكانوا يمسحون وجوههم بأقمصة الحملة فيزيدون وجه الرجل المطبوع فيها حلكة على ما فيه، وكانوا يعاكسون الناس من السيارات، وقد رأينا سيارة جديدة تُصدم مؤخرة سيارة جيب وتدفعها داخل شجرة. انفجر مبرّد السيارة الجديدة وتناثر الماء في الشارع.

قال دادلي: " سيشتري له والده سيارة جديدة."

سألت أنا:" من يطلق عليهم لقب شعب كولومبيا السعيد؟"

قال دادلي:" الجميع، لهذا لا يحدث شيء هنا. الحكومة لا تفعل أي شيء هنا. ليسوا مضطرين. هم يعرفون أنّ الناس سعداء، لذلك لا يعطونهم شيئاً."

عُلقت حزم سميكة من سعف النخيل إلى مصدات بعض السيارات، وجميع الحافلات والشاحنات فوق الإطارات مباشرة. كانت تبدو مثل زينة استوائية. لكنّها ليست كذلك. في وقت الانتخابات، كان الكولمبيون ينثرون الزجاج المكسور والبراغي على الطرقات؛ تتعرض إطارات كل سيارة بدون سعف النخل للثقب، ثم يُنهب راكبوها أو يروَّعون بكل سهولة. ولكن إن ثُبتت حزم السعف جيداً فإنها ستكنس الزجاج والبراغي فتزيحها.

قال دادلي:" والآن إن كنت أذكى بقليل لوضعت بعض هذه الأشياء على سيارتي. سأفعل في المرة القادمة. إن عشت حتى ذلك الوقت."

كان دادلي أسودَ. لقد عمل في نيجيريا والمكسيك سنوات عديدة. وهو يتحدث الإسبانية بتشدق. قال إنَّ بارنكويلا كانت أسوأ مكان أقام فيه، وإنّه يتساءل أحياناً إنْ لم يكن أفضل حالاً في موطنه جورجيا.

" هل اكتفيت من هذه الانتخابات؟"

قلت نعم. واكتفيت من بارنكويلا. المدينة بلا مركز. وهي تتشكل من مئات الشوارع المتربة التي تسير بزاوية قائمة، وزحام مروري في كل منعطف، ومسيرة في كل شارع؛ وجنود مرابطون في مراكز الاقتراع، ورجال الشرطة الذين يطلقون صافراتهم بلا هدف. الموسيقى والغوغاء. قالت كلمة العدد في صحيفة وقائع الصباح: " الحياة في ظل الديمقراطية تدفع المرء في العادة ليعدّ حرياته من المسلمات." ربما كانت هذه ديمقراطية- لابد أنّها بدت أكثر فوضوية فلم تُعدّ كذلك. جرى التصويت على قدم وساق ولكن دون تشويق، وبدت الجموع في الشوارع كما أنّها تتوقع حدوث أمر عظيم. ومع ذلك لم يحدث شيء. في الصباح التالي، ادَّعى كل حزب تحقيق نصر ما. ربما كان هذا هو الحل.

في الديكتاتوريات يفوز حزب واحد، وفي ديمقراطية أمريكا اللاتينية تفوز كل الأحزاب، ومثل هذه الانتصارات لا تنتهي إلا بالمشاجرات. إنّها مثل مباراة كرة القدم الأمريكية اللاتينية. حيث لا تهم النتيجة، ولا اللعب، ولا الاستراتيجية سوى القليل، ولكن رضا الجمهور هو الأشد أهمية. وينبغي أن تنشب مشاجرة عامة.ستظل بارنكويلا هي برانكويلا.

قال لي أحد الأمريكيين: " ذهبت مرة إلى بارنكويلا، أخبرني أحدهم أنّ بوينافيتورا هي أسوأ مكان في كولومبيا، ولم أصدق أن ّهناك مكانًا اسوأ من بارنكويلا. كانت سيئة حقاً، ولكنها لم تكن هكذا أبداً."

أثناء فترة الانتخابات كان الألمانيون،البريطانيون،اللبنانيون،الأمريكيون، واليابانيون في حمامهم الشمسي- جميع الجاليات التي تعيش في بارنكويلا، وجميع أعضاء نادي الكبانا، يطبقون حظر التجوال في بركة السباحة والفناء بفندق برادو. قرأت النساء أعداداً قديمة من مجلة فوغ، واستمعت الفتيات للإذاعة، وبرم الرجال الصلبان الذهبية حول أعناقهم وهم بين مغازلة وقعود. وعلى بعد ميل جلس المزارعون في مداخل المنازل، في البلدة، وفي جيوبهم ثمن الأصوات التي باعوها، في انتظار رفع حظر التجوال، حتى يتسنى لهم العودة إلى الجبال.

سلعة واحدة تربط جميع الناس في بارنكويلا: المخدرات. بعضهم يزرعها، والبعض يبيعها، والبعض يشتريها، وبعضهم يدخنها. دخل الكثيرون في بارنكويلا السجن بسبب الاتجار في المخدرات(أمضى هنري تشارير "بابيلون" سنة في السجن ذاته بعد مغادرته جزيرة الشيطان.) ولكن يجني عدد أكبر منهم الملايين من تجارة الحشيش. حتى إنّ هناك جماعة باسم: ماريخوانيروز[[52]](#footnote-52)أيالمحششون. الربح واضح في بارنكويلا- أشد وضوحاً من أي مدينة أخرى في أمريكا الجنوبية، لأنّ بارنكويلا أكثر فقراً من أي مدينة أخرى. أقل من ميل من الشوارع المزدحمة في وسط مدينة بارنكويلا، على الهضاب اللطيفة التي تشرف على سهول ماجدالينا الطينية، والضباب الذي يخيّم على ساحل الكاريبي، والشوارع واحد بعد الآخر حيث أغرب ما رأيت من منازل. هذه منازل المهرّبين، وباعة المخدرات المتجولون، الذين اشتهروا جزافاً بلقب "المافيا". كانت المنازل مشيدة مثل أقبية البنوك. وتحيط بها أسوار عالية، أو أسيجة لا قبل لأحد بتسلقها. معظم الأسيجة مكسوة بألواح رخامية ومنها عدد كبير بلا نوافذ. النوافذ هنا فتحات طويلة، عرضها ست بوصات. وهي ليست مضادة للسرقة فقط، بل مناسبة لتحمل حصار. هذه المنازل تجعل ضاحية بيل اير المحصنّة في كاليفورنيا تبدو أكثر وديّة وأكثر عرضة.

يتساءل المرء- أنّى لسكان مدينة فقيرة كهذه بالمال الكافي لبناء مثل هذه السجون، بكل منزل سلسلة من الألواح مرصوفة مثل الضريح؟ لماذا هذا الكم من كلاب الحراسة، ومكيّفات الهواء، وكابلات الأسلاك الشائكة؟

ربما كان في الخارطة ما يسهّل الوصول إلى إجابة.تحتل بارنكويلا موقعاً استراتيجياً. لديها ميناء. بين الجبال إلى الشرق عدة أودية منبسطة خفية، حيث يمكن للطائرات أن تهبط وتقلع بدون أن تُرصد. الجبال ترتفع لتشكّل شبه جزيرة شاهقة تسمى غواخيرا. الطقس مناسب في غواخيرا لزراعة الماريجوانا، وتعدّ غواخيرا من اقتصادات المحصول الواحد الذي لا يخطيء مدخنو الحشيش في العالم طعم منتجه المشهور بالذهب الكولمبي. تعود معظم المنازل في تلك الضاحية من بارنكويلا للمزارعين الذين جنوا أرباحاً طائلة من تجارة المخدرات. اتسعت مكاسب المزارع والمهرّب معاً. أن تغادر طائرة بطنٍّ من الحشيش الخام ليس بالأمر المألوف. و قد أصبح التهريب مؤسسة تتبوأ فيها بارنكويلا موقع القلب من تجارة الكوكايين. تُزرع أوراق الكوكا في بيرو، وتهرّب إلى كولومبيا الجنوبية، ثم تُعالج في كالي، وتعبأ في بوغوتا، وتشحن إلى الساحل لتستهلك كنشوق. يقدر ثمن الكيلو بنصف مليون دولار في الولايات المتحدة. المخاطر عالية، ولكن العوائد تضاهيها ارتفاعاً. تُستأجر الطائرات في ميامي، الصغيرة منها تقف للتزود بالوقود من عدة محطات على ساحل الكاريبي، والكبيرة منها تطير مباشرة إلى غوخيرا. من وقت لآخر تُنفذ اعتقالات- يعدّ دخول طائرة خالية إلى كولمبيا مخالفة جنائية- ولكن المتعاطين الصغار فقط هم من يُرسلون إلى السجن. يشتري البقية حريتهم، أو يستغل بعضهم علاقاته في بوغوتا. وليس سوى الساذجين من ينكر صلة العديد من السياسيين الكولمبيين اللصيقة بتجارة المخدرات.

المهرّبون الأمريكيون الناجحون قادرون على جني الملايين بهذه الطريقة، يستخدم الكولومبيون أموالهم لشراء المنازل الباهظة، أو السيارات، أو الثلاجات، ومنظومات الصوت، والمجمدات من ميامي، ويقدمون أنفسهم كنبلاء في بارنكويلا. ولكنهم يحاولون- بخلاف منازلهم الغريبة- عدم إثارة الشكوك. استورد أحد تجار المخدرات رولز رويس كورنيش بتكلفة 400.000 دولار أمريكي، لكنْلم يسمح له التجّار الآخرون بقيادتها في شوارع بارنكويلا- رأوا في هذا إسراف مبالغ فيه، قد يتسبب في تعرضّهم للانتقام- ليس هناك ما يمكن عمله لأجلهم. صودرت أموالهم، وصدرت بحقهم أحكام بالسجن لفترات طويلة. عندما مررت ببارنكويلا كان في سجنها عشرون أمريكياً، والقنصلية الأمريكية التي كانت مغلقة لعدد من السنوات، فتحت أبوابها فقط للتعامل معهم. ولكن القنصلية تصدر التأشيرات أيضاً: زاد الطلب على التأشيرات الأمريكية مائة ضعف بعد أن أصبحت بارنكويلا غنية بتجارة المخدرات.

انتهت الانتخابات، ولكن لن يغادر قطار بوغوتا قبل الغد. ولأنَّ لدي يوماً كاملاً لأستغله، فعلت ما يفعله معظم الناس بأوقات فراغهم: خرجت لزيارة المعالم السياحية. أخذت الحافلة المحلية المريعة غرباً على طول طريق الساحل إلى مدينة قرطاجنة القديمة- أسست عام 1533. كانت قرطاجنة-مثل بارنكويلا الآن- مقراً للمهرّبين، والقراصنة، والمغامرين، والتحصينات تشبه منازل بارنكويلا لكن على نطاق أوسع. وقرطاجنة جميلة إن استطعت تجاهل الأكواخ المثيرة للشفقة على طول الطريق، والطريق المروّع، وصرخات البوق والحرارة. إنها مهيبة وجذابة، متحف في الهواء الطلق. القلعة، وأسوار البحر، والميادين، والكنائس والأديرة جميعها رائعة ومصانة جيداً، ولكن يتحفز السياح بالملل والبطالة. وحتى في هذه المدينة الجميلة لم يكن هناك ما يكفي لطرد مشاعر القلق التي ساورتني. تسكعت في فندق بوليفار. غرفة الطعام بالطابق العلوي فارغة، لكنها باردة، والمراوح الأربعة بالسقف تعمل وقد قعقعت أفرع الشجر مرتطمة بالشرفة. تناولتُ قلب نخيل طازجًا، وطبق أرز كوبي، وكتبت خطاباً إلى زوجتي على ورقة من دفتر الفندق، وفي الحال بدا الأمر كما لو أنّ اليوم انتهى على ما يرام. في طريقي لمكتب البريد لأبعث برسالتي، مررت بمتاجر التحف. كانت التحف مطابقة لتلك التي رأيتها في جميع أنحاء أمريكا الوسطى: بضائع جلدية، مطرّزات هندية( أذهلني مرة أخرى أنّ الهنود أُفسدوا، أو عمّيت أعينهم، بتحويلهم إلى طرّازين للحواف، أم هل كانت عقد الكروشيه على مفارش الطاولات فنّاً قومياً؟) المنحوتات الخرقاء، وحوافر الأبقار التي تحوّلت إلى منافض للسجائر، والتماسيح إلى حوامل للمصابيح، والمزيد من العلاجيم المحشوة بأعين زجاجية. كانت التجارة منتعشة. وهنا صف من السيّاح بالقرب من مسجلة النقد: واحد يحمل قناعاً من جوز الهند، والثاني مفرش طاولة مطرّزًا، وغيرهم حصائر من الألياف، وتماسيح. أخيراً، امرأة أكثر تجريدا في عباءة بها بقع من العرق، تحمل سوطاً ملفوفاً. وجدت أحد شوارع قرطاجنة جديراً بالمشاهدة. هنا لم يكن ثمة شيء سوى محال الرهن، على كل منها لافتة تقول: ***نحن نشتري ونبيع كل شيء***. لم تكن الملابس القديمة، ولامحمصات الخبز ولا الساعات، والأحذية المستعملة هي ما جذب انتباهي، بل الأدوات. كانت نصف البضاعة في محال الرهن معدات بناء. هناك مفاتيح ربط، مثاقب، مفكّات براغي بعدة أحجام، مطارق خطافية، مساحج النجارة، فؤوس، ومفاتيح إنجليزية، أثقال الشاقول، شواقيل أفقية، دلاء حمل الجصّ، برامق، وموالج. جميعها مرهونة، وجميعها معروضة للبيع بالتخفيض. وبدأت أسأل لماذا اختفى العاملون على هذه المنازل نصف المشيدة بين قرطاجنة وبارنكويلا: رهن العمال أدواتهم. فإن كانت هناك بضع أدوات في كل متجر، أو فقط بعض المتاجر تبيع الأدوات، لن يبدو الأمر بهذه الدرجة من الوضوح. ولكن متاجر الرهن هذه كانت مثل محلات المعدات، وتقول اللافتات إنّ بضائع الرهن تُحفظ لمدة ثلاثة أشهر ثم تباع، إنّها استقالة وليس خطأ. في هذه المتاجر من الأدوات ما يكفي لإعادة بناء كولومبيا، وكذلك ما يكفي من الأشخاص الذين لا عمل لهم. ولكنه كان مجتمعاً مهرّبا وسارقاً، ليس المطرقة أو المنشار بأداتين- لقد كانتا ضرباً من العملات، وأدوات مقايضة. ولكن ماذا رأيت حتى الآن ؟ فقط هذا الامتداد الساحلي الصغير. لقد قررت المضي قدماً -قلت لنفسي- ربما وجدت شيئاً مختلفاً. بدأت أبحث عن المعلومات حول القطار، وأعدت اكتشاف صعوبات السفر بالقطار في أمريكا اللاتينية، بعد تلك الرحلة الرائعة بالقطار في بنما. لم تكن سهلة أبداً. ولم تكن الخدمة السيئة هي السبب، ولا سوء القطار، بل جهل الجميع بها. المسارات العامة معروفة من المكسيك إلى جنوب أمريكا، يسافر الكثيرون من العاصمة إلى العاصمة. ولكنهم يطيرون، ويستقل المسافرون الأفقر الحافلة. يبدو أنّ القلة منهم فقط يعلمون بوجود الطرق الحديدية، وهؤلاء الذين بدوا على علم بها لم يخوضوا التجربة قط. يقول أحدهم إنّ الرحلة تستغرق اثنتي عشرة ساعة من سانتا مارتا إلى بوغوتا. ويقسم آخر أنّها أربع وعشرون ساعة. قيل لي إنّه لا توجد عربة نوم. ولكن هناك واحدة مدرجة في جدول كوك للقطارات. هل هناك عربة طعام، هل أحتاج إلى حقيبة نوم؟ هل هو مكيّف الهواء؟

قيل لي: " اسدِ نفسك معروفاً، وسافر بالطائرة. هذا ما يفعله الكولمبيون."

وجدت أننيدائماً ما كنت أسافر إلى مكان معروف سالكا مساراً مغموراً. نادراً ما كانت عندي فكرة عن تكلفة السفر، أو ما يستغرقه من وقت، أو حتى ما إذا كنت سأصل.

قلقت بسبب هذا الأمر بعض الشيء، لأني كنت دائماً أفترض أو أستبق النتائج من الخط الأسود الرقيق الذي يمثّل طريق السكة الحديدية على الخارطة. أعرف الآن إنني لست في أوربا، ولكن خدمة هذا القطار كانت أقل موثوقية عن أي خدمة أخرى في آسيا. لا جداول مواعيد مطبوعة محلياً، وقلة فقط من المعلومات متاحة وما يمكن معرفته هو ما قد أحصل عليه في محطة القطار ذاتها، إن حالفني الحظ لمعرفة مكانها. ("*محطة القطار*- هل أنت واثق من أنك تريد *محطة القطار؟"* سؤال طرحه عليَّ عدد كبير من السكان القليلين.)

عادة ما كنت أجد ما أحتاجه من معلومات قبل كل رحلة لدى رجل يكنس غرفة الانتظار، أو بائع مانجو على الباب. كنت أسأل- عند المحطة- هؤلاء الناس(الذين يعرفون الإجابة لأنّهم هناك دائماً: يرون القطارات تجيء وتمضي)، عرفت مواعيد القطارات. ولكن ما زال الأمر صعباً، فلم أرَ شيئاً كتابةً. ليس لديَّ تذكرة، ولا تأكيد رسمي. لم تفتح نوافذ التذاكر إلا بعد بضع ساعات قبل موعد تحرك القطار. لم يُحل الغموض حتى يوم السفر. كنت لأصل إلى نافذة بيع التذاكر، وأذكر وجهتي، ويتفاجأ بائع التذاكر لرؤيتي، ويساوره شيء من الريبة كما لو أنني قد كشفت سره بطريقة شيطانية ما. كان سيتردد ثم يضحك، ولكن اللعبة انتهت- وفزت أنا بالعثور عليه. ليس لديه خيار سوى أن يبعيني التذكرة. وبدا الأمر كما لو أنّها لعبة محكمة كنت أطارد فيها شيئاً استعصى عليَّ في العادة، اكتشاف القطار، والعثور على المحطة، وشراء التذكرة، والصعود على متن القطار وإلقاء نفسي في مقعد صار نهاية في حد ذاته. كان السفر خاتمة عندما لم يكن خيبة أمل. وكنت مشغولاً للغاية بأمر هذه التذكرة لحد أني كنت أحياناً أنسى وجهتي، وعندما أُسأل عنها، كنت أشك في صلة السؤال بالموضوع. فأقول:" لا مكان."

***© © ©***

تقول الأغنية الكولومبية:

لدى سانتا مارتا قطار

ولكن لا ترام لديها!

سانتا مارتا -حيث توفي سيمون بوليفار معدماً في قميص مستعار- هي أقدم بلدة في كولومبيا. أصبحت منتجعاً في السنوات القليلة الماضية، ولكن الفنادق الباهظة كانت خارج البلدة، بعيداً عن الحانات وقاعات البليارد. تزعم البلدة بشدة أنّها مزار بوليفار، وبها تثمال رائع للمحرر كما في سائر المدن التي تماثلها حجماً في أمريكا اللاتينية. هناك مفارقة موجعة في تمجيد بوليفار هذا، ولكنها لا تختلف مع بقية المفاهيم الخاطئة في القارة. جاء بوليفار إلى سانتا مارتا فارًّا من خطر اغتياله في بوغوتا. و عُدّ طاغية في بيرو، وخائنًا في كولومبيا، ومتمردًا في فنزويلا- مسقط رأسه. كان جزاؤه على تحرير أمريكا اللاتينية هو الفقر والذمّ.

الأضرحة اعتبار متأخر، والكلمات المحفورة عليها هي صرخات معركة أطلقها عندما بدت الثورة ناجحة. أي مجلس مدينة استطاع حشد التأييد لنقش حكمه الأخير على هذه الأعمدة المرمرية؟ كتب لفلوريس: "أمريكا لا تُحكم، أولئك الذين يخدمون الثورة يحرثون في البحر. ليس ثمة ما يمكن فعله في أمريكا سوى الهجرة."

جاء بوليفار إلى سانتا مارتا هذه بنيّة الهرب من البلاد. لم تكن مكاناً بالمعنى المعروف في عام 1830، فهي صغيرة جداً الآن: بلدة صغيرة، وشاطيء، وبعض المقاهي، وماخور("سيدي")، شريط من خط الشاطيء على ساحل الكاريبي الأزرق. كانت البلدة خالية في هذا اليوم الصحو من شهر مارس- المبارك بأشعة الشمس. نزلت من حافلة بارنكويلا وسرت على طول جبهة البحر أسأل المارة عن الطريق إلى المحطة. سُرّت فتيات الماخور جداً بدخولي، ورفعن الصوت في إنزعاج عندما قلت إنني لا أريد إلا الاستعلام عن الطريق إلى محطة القطار. كانت نافذة بيع التذاكر مغلقة، ولكن عليها شريط لاصق دونت عليه مواعيد القطارات: مغادرة أحدها ووصول الآخر، واسم المغادر هو اكسبرس الشمس. جلست على المقعد منتظراً فتح النافذة. ثم سمعت صراخاً، ورأيت أربعة من رجال الشرطة يطاردون رجلاً شاباً عبر الردهة. صارعوه حتى ألقوا به أرضاً، وكبلوا بالسلاسل معصميه ورجليه. ثم أجلسوه بجانبي. كان ذا شعر أشعث وجروح حديثة على وجهه، ويتنفس بصعوبة، ولكن ما إن جلس حتى هدأ. وقفت وسرت إلى مقعد آخر. إن قرر الهرب ربما شعر أحد أولئك الرجال المسلحين بحتمية إطلاق النار عليه. كنت متأكداً من موقعي خارج خط النار. سارت سيدة صغيرة الحجم تحمل حقيبة تسوق (هي الأخرى متجهة إلى بوغوتا) نحو السجين. قرّبت وجهها إلى وجهه، وتبادلت بعض الكلمات مع رجال الشرطة. واختارت أن تجلس بالقرب مني.

سألت: " ما هذا؟ ألص؟"

نظرت نحوي، وصّرت عينا واحدة. ترتدي نظارة سميكة شوهت عينيها، وكان على وجهها تعبيرٌ يوحي بالجنون.

همست: "مجنون!"

فتحت نافذة التذاكر. ذهبت إلى هناك وطلبت تذكرة نوم إلى بوغوتا.

" أنت، ألديك عائلة؟"

" نعم."

"هل يسافرون معك؟"

"إنهم في بريطانيا العظمى."

قالت: "لا أستطيع أن أبيع لك تذكرة نوم، هذه المقصورات للعائلات فقط. ستة أشخاص أو أكثر."

اشتريت تذكرة عادية وسألت: " متى يصل القطار؟"

ابتسمت، ولكن بدت في شك من أمرها:" غداً؟"

"لا سبيل إلى مقصورة النوم صحيح؟"

"إن كنت ترغب حقاً في واحدة، اسأل المحصّل عندما تركب القطار. ربما يبيعك واحدة."

قلت لنفسي سأرشو المحصّل. ولكن عندما رأيت القطار وسألت عن مقصورات النوم-غرف صغيرة متسخة برفوف مبطنة- لم أتحمس. أسرعت إلى الشارع وابتعت أرغفة خبز وبعض الجبن، وما أسمته الفتاة: " هراء شرقي." ليس ثمة داع لدفع رشوة في سبيل الحصول على مقصورةالنوم، فليس ثمة تخت للنوم، ولا ماء، ولا أقفال على الأبواب. أفضّل أن أجرب حظي هنا في العربة المكشوفة، والمقاعد البلاستيكية المائلة. حدسي يقول إنّها ستكون رحلة طويلة.

غادرنا عند غروب الشمس، وشعرت في الحال برغبة ملحة للخروج من القطار. كنت حقاً لا أشعر بالراحة. ولم تكن الرحلة تستحق هذا العناء. كان الأطفال يصرخون بين أيدي أمهاتهم، وفور مغادرتنا المحطة، بدأ الناس يرفعون الأصوات بالشكوى من المصابيح المعطلة والازدحام والحر. صرخ صبي على رجل عجوز: كان يسافر مع زوجته المسنّة:" أنت تجلس في مكاني!"

قال الرجل: " لن أنتقل."

كان الجميع يتصبب عرقاً ويغمغم.

قالت امرأة: "أنا لا أستطيع التنفس". "يا لهذه الرائحة!" قال رجل قاسي الملامح من تحت كفه. تأثرت برقة مشهد الرصيف، الآباء يقبّلون أطفالهم قبلة الوداع، والأولاد يودعون صديقاتهم المقربات، والزوج والزوجة يمسكان بأيدي بعضهما البعض. ولكن الآن هاهم الأشخاص أنفسهم هنا يتعالى ضجيجهم في انفعال وأكرههم أنا.

قلت لنفسي: إنّهم مضطرون. لديهم هدف. ذاهبون لمنازلهم، أوأعمالهم،أو لقاء أصدقاء. لم يكن لدي ما يبرر وجودي هنا مثلهم. أنا ضحية خططي. لقد وصلت لهذه المسافة وركبت القطار بلا سبب سوى أن أكون على متن القطار. كان يتجه إلى بوغوتا، وأنا كذلك. ولكن بوغوتا لا تعني لي شيئاً: كنت أقصدها لأغادرها. في أفضل الأحوال قد تكون رحلة كهذه ممتعة، لكنْ بداية هذه الرحلة كانت تعيسة. كان أوان النزول من القطار قد فات، وصار الغروب ليلاً، كانت الصافرة تدوي، والركاب هدأوا لقعقعة العجلات، وابتسموا لكن في حزن. تحسرت لأنّ القطار لن يخرجني من كولومبيا، لكنه سيغوص بي حتى أعمق أجزأئها، على مسارِ حذرني منه الجميع- الحرارة، والبعوض ومستنقعات ماجدالينا- إلى عاصمة لم يمدحها أحد. عبرنا سهلاً أخضرَ خارج سانتا مارتا في الطرف الأقصى حيث الجبال المخملية الشاحبة، غفت الشجيرات التي كانت صفراء في الضوء الذي يشعّ من الشمس في لون السلمون. ثم وعلى مسافة أميال عديدة بمحاذاة الكاريبي، سكبت السماء الوردية لونها على المستنقعات، وعكست البرك الساكنة النجوم التي ظهرت لتوها. هذا بالإضافة إلى النخيل، والحقول الخصبة، التي منحتني بصيصاً من الأمل. تحركت البرك الساكنة بفعل النسمات وفقدت لونها. كان القطار مليئاً تقريباً، ولكن في سيناغا-أولى المحطات- علت صرخة من وسط الحشد المنتظر بالرصيف، واندلعت المشاجرات بينما اندفع الناس إلى العربات. "تعودت كولمبيا –بحماسة- السفرجواً، لا أحد يركب القطارات." يقول دليل السفر لجنوب أمريكا. " قيل لي في بارنكويلا. بعض الناس ينكرون وجود القطار حتى، واضطررت للبحث لأيام لأحصل على معلومات حوله. كيف إذن لي أن أبرر وجود هذا الزحام؟ ربما كان سهلاً جداً. على الرغم من الاحتجاجات بأنّها كانت بلداً غنياً متحضراً، إنّه حقاً بلد المزارعين أنصاف المتعلمين، ويعيش معظم هؤلاء في مناطق يصعب الوصول إليها. أدت الظروف مثل الفقر، والأمية، والبعد إلى نشوء تقاليد شفاهية، تمثلت في هذه الأقاويل عن بريد الأدغال الذي ينقل المعلومات حول القطارات. وصلنا إلى سيناغا متأخرين، ولكن الناس كانوا على الرصيف طوال اليوم: قيل إنّ هناك قطارًا قادمًا. والآن اندفعوا إلى المقاعد القليلة الخالية، وهم يسحبون الصناديق والحقائب وراءهم. أما البقية- وما أكثرهم- فوقفوا ببساطة في الممر أو جلسوا على صناديقهم المصنوعة من الورق المقوى. كان الممر مزدحماً. مثل الركاب المنهكين الواقفين ممسكين بعلَّاقات القطار المحلي في طريق عودتهم. إنّه ذلك النوع من القطارات الذي يغادر من بوسطن في المساء الباكر متجهاً إلى وينشتستر. والفرق بينهما هو أنَّ المسافة التي يقطعها هذا القطار إلى بوغوتا تبلغ 750 ميلاً.

كانت العربة خانقة. وبدأ المطر يهطل، رهام ليلي دافيء فأغلق الركاب النوافذ. لمعت الأضواء، وترنح القطار، وكان الركاب يلتصقون ببعضهم البعض من شدة الزحام حتى إنهم يتذمرون بصوت عالٍ من ترنحه وإن كان خفيفاً. والآن، قلت لنفسي، *سيشغّل أحدهم المذياع*. ولكن قبل أن تكتمل فكرتي، بدأت الموسيقى، صوت بوق مزعج في انسجام مع الحال العام، والخطوة اللاتينية السريعة التي كانت مثل الحمض في أذني. المطر، والموسيقى، والعربة الحارة التي تعبق بالبخار، والبعوض، والمصابيح الخافتة التي بدت مثل ثمار اليوسفي الذاوية. فتحت نافذتي وجذبت كتاب بوزويل، ولكني لم أقرأ جملتين حتى انطفأ الضوء تماماً. كنا في ظلام. وثبت أنّ الظلام أفضل من الضوء الخافت. كان هؤلاء ريفيون: ساعدهم الظلام على النوم. وسرعان ما هدأت العربة، وتوقف المطر، وكان القمر في استدارة واصفرار قرص من جبن الشيدر، ومن النافذة- نافذتي هي الوحيدة المفتوحة- استطعت رؤية السهل ومستنقعاته، وبعض الأكواخ التي تشتعل النيران أمامها. فاحت رائحة الطين والمطر من الأرض القاتمة المغمورة بالمياه، ونام الركاب، أو وقفوا صامتين وهم يهتزون في الممر. كانت الظلمة حالكة وهادئة. قلت لنفسي: *أنا حي*.

في الساعة التاسعة، أو بعدها بقليل مررنا بآركتاكا. ولد الروائي غابريال غارسيا ماركيز هنا، وكانت هذه هي ماكوندو التي وردت في *عاصفة الأوراق ومائة عام من العزلة*. تمكنت في ضوء النيران والمصابيح من رؤية أكواخ الطين، والصور الظلية لأشجار النخيل والموز، ويرقات سروج الليل على العشب الطويل. لم يكن الوقت متأخراً، ولكن هناك قلة من الأشخاص أيقاظ، شباب في أعينهم نظرات جامدة، ظلوا يراقبون القطار وهو يسير إلى جانبهم. قالت امرأة في ماكوندو غارسيا ماركيز "إنّه آتٍ." عندما ترى أول قطار يقترب من البلدة الصغيرة. " شيء مخيف، مثل مطبخ يجّر قرية خلفه." صنعت لنفسي شطيرة هراء، وشربت عبوتي جعة اشتريتهما في سانتا مارتا، وخلدت للنوم. كان الضجيج وإيقاع الطقطقة على القبضان يبعثا على النعاس، ما أيقظني هو الصمت في العربة وسكونها. استيقظت في منتصف الليل، كان القطار قد توقف. لم أعرف أين كنا، ولكن لابد أنّه مكان واسع جداً لأنَّ معظم الناس في العربة بما فيهم الرجل الجالس بجانبي نزلوا. ولكن صعد عدد مساوٍ إلى القطار، عليه لهذا لم يخفّ الزحام. استيقظ الأطفال وبكوا، وتدافع الناس وتقاتلوا على المقاعد الخالية. جلست فتاة هندية في المقعد المجاور لي، وكان من الواضح في أضواء المحطة أنّها ممتلئة. كانت ترتدي قبعة بيسبول، وقميصاً وسروالاً، وتتكون أمتعتها من ثلاثة صناديق كرتونية، وبرميل زيت فارغ. عندما تحرك القطار، تكرفست ناحيتي، ونامت. كان قميصي مبللًا بالعرق، ولم تُجدِ النسمات الندية نفعاً، وعرفت أننا سنظل في هذا المستنقع حتى وقت متأخر من نهار الغد.

خلدت إلى النوم، ولكن استيقظت مجدداً في محطة موحشة- مبنى منخفض، ورجل، ومصباح- رأيت أنّ الفتاة انتقلت إلى الجهة الأخرى من الممر، وكانت تتكيء على رجل يوشوش.

كان الفجر استوائياً، والشمس كرة رمادية في سحابة ندية. تأكدت من عدم تعرضي للسرقة أثناء النوم: جواز سفري، ومالي كانا بآمان في محفظتي الجلدية. وعند التمعن في خريطتي رأيت أننا كنا على بعد ساعة تقريباً من بارانكابيرميخا. كانت الأرض قليلة السكان، تتناوب فيها السافانا والمستنقعات. لم نستطع رؤية ماجدالينا لبعد المسافة. وقد حجبت السحب الحارة منظر الجبال. كان هذا مجرد قطار صغير على مسار مستقيم، يشق طريقه عبر إقليم خال من الطُرق، فقط أكواخ، ومن حين لآخر ثور في العشب، ونسور وطيور مالك الحزين. كانت الأكواخ فقيرة، لم تزد على سقائف من الطين، وأسقف من القش.

"هل لك في كوب قهوة؟"

كان هذا رجلاً يحمل صينية عليها أكواب مملوءة. اشتريت اثنتين ونقدته بالعملة الكولمبية ما يعادل ربع قرش. مع فسحة المقعد الخالي بجانبي استطعت أن أتمدد، وأحتسي القهوة، وأشعل غليوني، وأقرأ بوزويل. لم يكن الأمر غاية في السوء، ولدي ذاك الحس بالفضيلة الذي شعرت به في المكسيك، وأنا أقضي ليلة مضنية في مقعد ضيق.

ظل الطقس غائماً أغلب فترة الصباح، ومعتدلاً أيضاً. قيل لي إنّ الحرارة لن تطاق عندما تشرق الشمس. ربما لم يكن ذاك سوى أقاويل: كل ما قاله لي الناس كان خطأ. قالوا هناك أدغال، ولم أرَ أية أدغال. هذه كلها مستنقعات، وفي الجوار تلال منخفضة، بتكوينات غريبة متداعية، كما لو أنّها تعرضت لفيضان كبير اجتاحها فصارت من بعده صغيرة ممهدة. قال الناس هناك بعوض. كان بعوضًا لكن الخنافس الطائرة كانت أسوأ- فهي لم تعضّ بشراسة فقط، بل علقت في شعري. ولم تكن الحرارة أسوأ منها في سانتا مارتا، ولاماهو أسوأ من زكابا. قالوا إنَّ الثلج سينفذ منا، ولكن في الحقيقة لا ثلج في هذا القطار إطلاقاً، وحتى في ذلك الوقت لم يبد التحذير مهماً بالنسبة لي على وجه التحديد.

عليه بعد ثماني عشر ساعة على قطار المستنقعات هذا أستطيع القول بصدق إنني رأيت قطارات أسوأ في حياتي. هذا ليس إطراءً، لكني أيضاً لا أؤمن بضرورة التأمين على القطار وتحطيمه. تمنيت ألا أفقد صوابي أثناء هذه الرحلة، وبطريقة عملية، قمت بتحديث يومياتي، وانهمكت في الكتابة حتى وقت الغداء. ثم سرت إلى آخر القطار وأنا أحمل مكونات شطيرتي، بحثاً عن طاولة خالية في عربة الطعام غير المستخدمة، صنعت لنفسي شطيرة "غواصة"[[53]](#footnote-53). وسرت مرة أخرى وأخيراً جلست مع بوزويل. برزت الشمس، ولمعت المستنقعات، وكان الكتاب ممتازاً. يعلّق جونسون على كل شيء، بما في ذلك السفر. يسافر بوزويل إلى كورسيكا:" عندما ينصحني حول أسفاري، لا يطيل دكتور جونسون الحديث عن المدن، والأماكن، والصور والعروض، والمناظر الطبيعية. كان يتفق مع رأي لورد إسكس، الذي ينصح قريبه روجر إيرل روتلاند أن يطوي مئات الأميال حتى يتحدث مع رجل حكيم واحد، أفضل من السفر خمسة أميال ليرى بلدة جميلة."

أصبح الكتاب خط حياتي. لا مناظر فيه. من خلال نافذتي حصلت على كل المناظر التي رغبت فيها. ما كان ينقصني هو الحديث، وكان هذا حديثاً عبقرياً، ونصيحة حكيمة، وملاحظات طريفة. وكنت متفقاً مع بوزويل ("لماذا يكون ذيل الثعلب كثيفاً، سيدي؟")، واجتماع هذا القطار ووادي ماجدالينا وبوزيل على حجري ليس سوى التذكرة. قلت لنفسيإن لم يكن لدي ذاك الكتاب لأقرأه وأنا أشق طريقي عبر أراضي كولومبيا، لكانت الرحلة لا تطاق. ولكنه صار مبتذلًا بعد تلك الحوارات فيمنزل السيدة ثريل وفي حانة الميتر، لأدخل في حورات مع بقية الركاب. اعتقدت أنني كنت الأجنبي الوحيد في القطار. كنت مخطئاً- كان عليَّ أن أعرف منذ اللحظة التي رأيت فيها سرواله المقصوص، لحيته الكثة، قرطه، خرائطه، وحقيبة ظهره، أنّه رفيق في الترحال.

كان فرنسياً. يعاني التهاب الحلق. مسافر فرنسي وحلقه ملتهب لأمر ملاحظته مذهلة، لكنْ الأمر يستدعي أكثر من التهاب اللوزتين لمنع فرنسي من التباهي. نظر بازدراء إلى قميصي الذي لا يحتاج إلى كي، وحذائي المانع للتسرب، ونظارتي الشمسية.

قال:" أسائح أنت؟"

قلت بود:" مثلك."

قال: " أنا مسافر" وهو يؤكد الفرق. " لقد جئت من جزيرة سان اندرز. قبلها كنت أسافر عبر الولايات المتحدة."

" وأنا كذلك، لكني جئت عبر أمريكا الوسطى."

"هل رأيت تيكال؟"

"لا، لكني رأيت زكابا. لا أحد يزور زكابا."

"لقد رأيت تيكال. جميلة جداً. لابد أنّك رأيتها. كم استغرق ترحالك؟"

"فوق الشهر بقليل."

" أنا مسافر منذ خمسة أشهر! خمسة. غادرت باريس في شهر أكتوبر. أمضيت شهراً واحداً في مدينة نيو يورك."

"مسافر في مدينة نيو يورك؟"

أوجعه هذا السؤال، فقال: " أجول هنا وهناك، إلى أين أنت ذاهب؟"

"بوغوتا."

"نعم ولكن بعد ذلك؟"

"جنوب الارجنتين."

"باتاغون."

كان يمرر أصابعه على خارطته الفرنسية. قال: " أنا ذاهب إلى هنا، وربت على بروز أخضر في البرازيل. " حتى الأمازون، من ليتيسيا. ستستغرق خمسة عشر يوماً أو أكثر عبر النهر." ونظر إلي. " للأرجنتين حكومة سيئة."

قلت: " للبرازيل حكومة رائعة، سل أولئك الهنود على الأمازون. سيخبروك." ربت على لحيته، لا يعرف على وجه التحديد إنْ كنت أسخر منه. " تشيلي والارجنتين هما الأسوأ. لهذا لا أقصدهما. أتستقل هذا القطار طوال الطريق إلى بوغوتا."

" صحيح."

"أما أنا فلا. سأنزل في لا دورادا. ثم آخذ الحافلة."

"هل ذاك أسرع؟"

"لا، لكنك توفّر المال- خمسة دولارات أو أكثر."

قلت:" لدي خمسة دولارات. بدأ يكح. نهض ليفسح لنفسه مجالاً، وكح، وكان في كل مرة ينحني من وسطه.

قلت: " عليك فعل شيء ما بشأن مرض حلقك. أتريد قرص أسبرين؟"

قال: "لا، إنّه ليس بالأمر الخطير."

عدت إلى بوزويل، ثم نعست ونظرت من النافذة. لم يتغير المشهد. كان الوادي منبسطاً واسعاً، لا ترى له حداً، والأوراق كثيفة لحد يصعب معه تمييزها بوضوح. ولكن في وقت متأخر من النهار عادت السافنا لتأكيد ذاتها، واستطعت التقاط بعض الرسومات بالقلم الرصاص للتلال، والماشية التي كانت ترعى بالقرب من القضبان، والجياد، التي جفلت راكضة لمرأى القطار. سرب من طيور مالك الحزين البيضاء طارت فوق رؤوس العشب مثل قطع من الورق في مهب النسيم. كانت هناك حانة في إحدى البلدات، اسمها "الدانوب الأزرق" بالاسبانية، كانت هذه الحانة قرب ماجدالينا الأقوى بكثير. وبالخارج مربط شدت إليه ثلاثة خيول مسرجة، كان ركّابها عند النافذة، يحتسون الجعة. كان مشهداً ملائماً لخلفية في الغرب البرّي في أرض فقيرة خالية، واكشاك المستوطنين، وحظائر الخنازير، وإشاعات الزمرد. لم يكن الحال أفضل وقت المطر. كان الركّاب إما نائمين أو جالسين في صمت، مصدومين بالحرارة. في وقت متأخر من الظهيرة تلقينا رسالة في إحدى المحطات بوجود قطار منحرف عن مساره بالقرب من بوغوتا، حدث على الأرجح نتيجة انهيار أرضي. أكد الرجل الفرنسي هذا، ولكنه لم يكن مهتماً كما قال لأنّه سينزل في لا دورادا. لم تفاجئني أخبار هذا الانهيار في الحقيقة. قدمني دادلي في بارنكويلا إلى رجل أمريكي كان يعمل على مشكلات النقل. أراني هذا الصديق آخر إحصاءات الانحرافات على الخط بين سانتا مارتا، وبوغوتة. لديه الأرقام حتى عام 1972، لكنها كانت كافية: كان هناك 7116 انحرافاً في عام 1970، و5969 انهياراً في عام 1971، و 4638 عام 1972. قال إنّ الأوضاع تسير إلى الأسوأ. لذلك خرجت من سانتا مارتا وأنا أتوقع أن ينحرف، أويُعلق من قبل شخص ما. (قيل أيضاً إنَّ اللصوص أوقفوا هذا القطار لسرقة الركّاب، لكن الكولومبين على القطار أنكروا هذا السبب.)

سألت المحصّل:" أتعتقد أننا سننجح؟"

قال:" ستكون في بوغوتا اليوم، " تلك هي الحقيقة." بعدها على الفور، ظهرت الجبال، الكورديليرا التابع لسلسلة جبال الإنديز، ثم نهر الماجدالينا البنّي، الذي يجدف على مياهه رجال في زوارقهم الشجرية الطويلة، أو يصطادون من الشاطيء بأدوات مثل شباك صيد الفراشات. " كانت الجبال في البداية تلالًا مبعثرة، وقممًا منعزلة، وبعضها كان مثل القلاع، مربعة الشكل ذات مبانٍ كالحصون مشيدة حول القمم. ولكنه كان وهماً- ليس ثمة مبانٍ. عيني لم تكن مستعدة لمثل هذه المرتفعات، ضلُلت، وجعلت من الغرابة أشكالاً أليفة. تدحرج القطار مباشرة باتجاه هذه القممالخضراء، الرمادية والزرقاء، وما حسبته حلقات من السحب- آثار واهية في السماء- كانت جبالاً أيضاً، بدا كل شيء حولي مثل بخار ذي مادة. بدأ القطار يصعد نحو البخار والضباب. هنا ما زال الطقس حاراً جافاً، وهناك أمطار. دخلنا منطقة المطر التي كانت باردة في غمرة الغيث المنهمر. اكتست الحقول والحدائق بلون أخضر مشرق، وهناك قصور لم أر مثلها قط. كانت على سفح التلال، ووراء الأسيجة والجدران، باسماء مثل "سيفيل"، و"الملجأ." بها برك سباحة، وحدائق زهور، ومروج ملونة مثل السجاجيد. وبعضها مثل القلاع،وأُخر مثل الشاليهات السويسرية، وقد صنعت واحدة من البلاط البرتقالي بالكامل، مثل منزل في حكاية خيالية بأسقف مخروطية. راقب الهنود والأشخاص الشعث في اكسبرس الشمس الذين جاءوا من الساحل هذه المنازل وهي تمر في دهشة وشيء من الحذر. تساءلت ما إذا أدركوا أنّ كل من هذه المنازل الواقعة على سفح الجبل تسكنه أسرة بمفردها. بدت المنازل أسطورية بالنسبة لي، فكيف سيراها شخص من قرية على نهر ماجدالينا؟

سألت أحد الركّاب. فنظر من النافذة، وكان وجهه مبللًا بالمطر. كان الطقس بارداً لكنه ارتدى ملابس خفيفة. "من يعيش في هذه المنازل؟"

قال باللغة الإسبانية: " الزعماء،"

ولكن هذه كولومبيا، حيث لا مستنقع بدون جبل، ولا جبل دون تجمّع من الأكواخ السكنية. كانت الأكواخ أقرب إلى القضبان، وهرع المزارعون في القرى المنحدرة تحت المطر. كان الطقس بارداً، لكنا انتقلنا من السهل إلى الجبال بسرعة كبيرة حتى إنّ قميصي لم يجف بعد من العرق، والآنّ أرتعد برداً. ارتديت معطفي الجلدي وما زلت أرتعش. ثم توقف القطار على سفح هذا الجبل. نزل الجميع كأنّ ذلك وفق إشارة متفق عليها مسبقاً. هناك حافلات تنتظر. لم يُعلن عن خروج قطار عن مساره، ولا الانهيار الأرضي، لكن الجميع كان على علم بذلك. سرنا لآخر أميال قليلة بالحافلة القديمة، وهي تنزلق على الطرقات الجبلية المبتلة بالمطر. لأول مرة في هذه الرحلة شعرت بأنني في خطر مميت. وصلنا مدينة مرتفعة ممطرة غارقة في الظلام.

**-----**

الرصانة الحزينة في منازل بوغوتا الأثرية اسبانية محضة، أما كآبة منظرها فهي إنديزية، تختص بها وحدها دون سواها. القمم الثلاث: الدير، والصليب، وتمثال المسيح مبتلة وقاتمة حتى في نهار يوم مشمس، تمتد المدينة على طول رف ضخم من الجرانيت،يرتفع ميلاً ونصف الميل. يسود فيها مناخ جبلي، حيث سقط المطر في معظم الوقت الذي أمضيته هناك، وأحاطها هذا الرذاذ البارد بهالة من الجلال الكئيب.

لم يتحسن مزاجي. أصابني الارتفاع بالدوار. سرت أترنح من أحد أطراف المدينة إلى الآخر، دائخ قليلاً، ونبضي متسارع.

ربما أضفت أبراج كنيسة بوغوتا على المكان جمالاً متجهماً قبل تطاول ناطحات السحاب. لقد كانت أفضل نماذج العصر الذهبي للعمارة الإسبانية، ومع مناخ يشبه مناخ شمال غرب إسبانيا، ربما صدقت في بعض أجزاء وسط المدينة أنك-بحسب تعبير بوزويل: " تتسكع في سلامانكا."

كانت صلة بوغوتا بإسبانيا قوية، حيث كان الوصول إلى إسبانيا- ولمئات السنين- عبر نهر ماجدالينا ثم البحر أسهل من أي مكان آخر في كولومبيا. كانت بوغوتا بمعزل عن أمريكيا الجنوبية ومناطقها الداخلية النائية ثقافياً وجغرافياً. وظلت كذلك، مدينة شاهقة ذات نظام طبقي منيع.

تقضم الأبقار العشب في حدائق بوغوتا، لكن هذه الإيماءة الرعوية التي تكاد تتوارى، مثل أبراج الكنيسة، خلف عمارات المكاتب العارية من الجمال. تلاشت الصور الإسبانية من ذهني فور رؤيتي أول هندي في بوغوتا. في كولمبيا 365 قبيلة هندية. يأتي البعض إلى بوغوتا بحثاً عن العمل، والبعض جاؤوا لملاقاة الإسبانيين ولم يغادروا بعدها. رأيت امرأة هندية وقررت أن أتبعها. كانت ترتدي قبعة صوفية، من النوع الذي يرتديه المحققون والصحافيون في أفلام هوليوود. ارتدت وشاحاً أسود اللون، وتنورة طويلة، وصندلاً، وأمسكت بحبل رُبط في طرفه قردان. كان القردان محمّليْن بالكثير من الأوعية المعدنية ورزمٍ من الخرق. ولكن لم يكن ذاك هو أغرب مشهد لهذه المرأة الهندية وقرديها في بوغوتا. ساروا على الأرصفة نسبة للاختناق المروري الشديد، مرورًا بالسيدات المهندمات، والشحاذين، وقاعات الفنون التي تعرض رسوماً تافهة (في حال تصدرت أمريكا الجنوبية العالم في إنتاج الفن التجريدي من الدرجة الثالثة، سيتمخض ذلك بلا شك عن انبثاق طبقة ثرية مبتذلة، نهضة في مجال التصميم الداخلي- وبوسعك حضور افتتاح ما كل ليلة تقريباً في مكب نفايات مثل بارنكويلا)؛ استكثرت المرأة الهندية في اللوحات لمحة عجلى، ولكنها واصلت السير مروراً ببنك بوغوتا، والميدان (بوليفار مرة أخرى، وقد انغرس سيفه لدى قدميه)، وتجتاز متاجر التحف ببضائعها الجلدية، والمنحوتات الرديئة، والصاغة الذين يعرضون صوانيّ زمرد على السياح. بدأت تعبر الشارع، والقردان يتهاديان من ثقل ما يحملان، أطلقت السيارات أبواقها، وانحرفت، وأفسح لها الناس في الطريق.

قد يكون هذا فيلما وثائقياً ممتازاً، المرأة الفقيرة وحيواناها في مدينة الملايين الأربعة-العبوس. إنّها عار على كل من وما شهد مرورها، ولم يلتفت أحد وإن رآها قلة منهم. إن صوّر هذا ، ودون حاجة لسيناريو يشرح سيرها من أحد جانبي بوغوتا إلى الآخر، سيفوز بجائزة، وإذا كانت تفصيلة في لوحة تشكيلية فربما غدت تحفة فنية (ولكن لا أحد في أمريكا الجنوبية يرسم البشر بأية إدانة.) إنّه كأن 450 عاماً لم تكن. لا تسير المرأة في مدينة: إنّها تسير في سفح جبل، مع حيوانين واثقي الخطى. إنّها في الإنديز، في وطنها، والجميع في اسبانيا. سارت بدون أن ترفع نظرها، تجاوزت رجلاً يبيع الملصقات، وشحاذين بجوار كنيسة قديمة. وفقدتها عندما انشغلت عيني بلمحة تجاه الملصقات ونظرة على الشحاذين. وقفت، نظرت جانباً، وعندها اختفت. تسليت بالملصقات. كانت لبوليفار، والمسيح، وتشي جيفارا، لكن يصعب تمييزها عن بعضها. بدت كما لو أنّها نسخاً من الشخص ذاته: الأسى ذاته، والعينان ذاتهما، والمظهر العنيد-كالبغال- والوقفة البطولية ذاتها.

لم تختلف الملصقات السياسية في بارنكويلا عن هذه الرمزية- بدا مرشحو جناح اليمين بدناء قانعين، بينما تمثلت في مرشحي اليسار قيم الفدائية، والتحرير، والثورة.

وبقية الملصقات جمعت بين الشقراوات العاريات، وجوزيف ستالين (يحمل تحذيراً من "اليانكي")، وجين فوندا، ومارلون براندو، ودونالد داك.الذي اشتريته كان أفضلها، وهو صورة للمسيح على الصليب، ولكنه استطاع سحب يده بعيداً عن أحد المسامير، وما زال معلقاً على الصليب، ولكن هذه الذراع الحرة أحاطت بكتف أحد مقاتلي الغوريلا. قال المسيح: " أنا أيضاً مضطهد، يا عزيزي الغوريلا الصنديد." انتشر المتسولون في كل مكان، ولكنهم مالوا إلى البقاء قرب الكنائس والأماكن المقدسة، كما يفعلون في كلكتا، ليتلقفوا الناس وهم في يقظة من ضمائرهم. كانوا عميًا، عُرجًا،كسحاء، أطفالاً، نساء، شيباً ورضّعًا- عراة في البرد- يُرقّصون على ركب مسنّات شمطاوات. هنا أختان، واحدة ذات صندوق برتقالي خربشت عليه عبارة تقول إنّها مشلولة (*وهذه أختي...)*. البعض هنا لا يسأل الناس لكن يخيّم فقط في جزيرة مزدحمة وسط المدينة، يغلون سائلًا رماديًا في علب من القصدير، أو يختبئون تحت جدار، أو يعيشون(مثل الصبي الذي كنت أراه كل يوم عندما كنت في بوغوتا) في أنقاض مبنى مهجور. كانت اللافتات التي حملها المتسولون الملحفون صريحة لحد الرثاء: أنا مجذوم،أنا مريض، و نحن يتامى، وبعضهم يحمل صوراً فوتوغرافية على لوحات إعلانية، قصص بسيطة عن سوء الحظ والمرض. كان من يؤدون الحيل يجذبون الجمهور – هم البهلوانات الهنود، والموسيقيون المكفوفون. انظر الشحاذ الأعمى يرقص، والمقعد يغني. السكّير بطل، والمجنون ملك.

ربما كان التعليق حول عدد الشحاذين لا يعد ملاحظة سديدة، كالقولإنّها كانت قارة الجنود والصبية ملمعي الأحذية. ربما قال المرء حتى إن التسوّل في كولومبيا- كما في غيرها- يتطلب قدراً من التنظيم.

ولكن لماذا- تساءلت- كان الكثيرون منهم أطفالاً؟ ليسوا مرضى، ولا عُرجًا، ولم يحملوا لافتات، وعاشوا بين المباني المهدمة، كانوا يركضون في مجموعات عبر الشوارع. كانوا غاية في النشاط، ولكنهم عاشوا كالجرذان. سألت عدداً من الكولمبيين عنهم، وتفاجأ الكولمبيون بمدى الجهل في سؤالي. قالوا: إنّهم مشردون- الكلمة نفسها في اللغة الإسبانية، والفرنسية والإنجليزية. وكان عليَّ الحذر منهم، لأنّ معظمهم من النشالين، والمختلسين. لم يخطر على بال الكولومبي الغني قط أنّ أولاد الشوارع هؤلاء ليسو سوى حشرات- ولماذا سيؤويهم أو يطعمهم عندما يكون من الأرخص نصب سياج عالٍ حول المنزل لمنعهم من الدخول؟ أمضيت أيامي بمدينة بوغوتا وأنا أزور الكنائس (تصاميم داخلية أنيقة بلمسات من الودونية[[54]](#footnote-54): تصارع السيدات في صف للحصول على مقدار نصف لتر من الماء المقدس. وكتب على اللافتة ***لا دوارق، قوارير فقط****.*)ويتسلقن التلال معجبات بالسيارات الأمريكية القديمة- هنا ناش، وهناك ستودبيكر- حتى بدأت أنا نفسي أشتهي واحدة، وندمت على بيع والدي سيارته البونتياك موديل 1938. أذهلني إنّ الصرعة الكبرى التالية في أمريكا ستكون استدعاء المكانة الممتازة لهذه السيارات التي لا تقهر من حقبة الأربعينيات والخمسينيات. وعندما سئمت من الشباب المثيرين للريبة الذين يقتربون مني ("اي ميستر، أنث من نيو جورك؟")، وأحزنني المتسولون والمتشردون، لجأت إلى بوزويل بحثاً عن البهجة. قرأت الفقرة التالية عندما كنت في بوغوتا، في ظهيرة يوم رمادي:

*حيثما كان جزء كبير من الناس يقاسون شقاءً مقيماً لا شفاء منه، فلا بد أنَ ذلك البلد سيء الشرطة، وبائس الحكم: الرعاية الكريمة للفقراء هي المقياس الحقيقي للحضارة. – سادة التعليم، كما قال هو- كانوا متشابهين إلى حد كبير في جميع البلدان، وظروف الطبقات الدنيا، لاسيما الفقيرة، كانت العلامة الحقيقية هي التفرقة القومية.*

---------------

**---**

**-14-**

**اكسبرس كاليما**

**---**

*كان هناك سبب قوي جداً* وراء توقف خط بوغوتا في بلدة ايباجيه التي يأتي بعدها ممر شديد الانحدار يتعين عليك، حتى تتخيله، أن تتصوّر وادي الغراند كانيون[[55]](#footnote-55) مكسواً بالخضرة- مضائق خضراء عميقة، وقمم غنّاء وحواف وجروف. اختفت العبقرية التي شيدت خطوط السكة الحديدية عبر أماكن كهذه عند نهاية هذا القرن تقريباً. وقبل فترة ليست بالطويلة، مدّ الكولمبيون خطوط السكة الحديدية من غيراردوت إلى إيباجيه، ولكن عند وصولهم لهذا الحد صُدموا بوجود ممر كوينديو ذي الشلالات المزبدة، تحفّه الجبال الشامخة، وجدران المضيق الرأسية. ومن اللافت للنظر وجود طريق، ولكنه ليس كالطريق.

يستغرق قطع مسافة خمسة وستين ميلاً من إيباجيه إلى ارمينيا ست ساعات زمن، ومنها يستأنف القطار مسيره، باتجاه الجنوب إلى كالي وبوبايان، حيث تكون الإكوادور على مرمى حجر. شعرت أنّ عافيتي ردت إليَّ عند الهبوط من مرتفعات الكورديليرا قادماً من بوغوتا،. صفا ذهني في هذا الارتفاع المنخفض للخندق المحصور بين سلسلتين جبليتين.

شكّلت التلال تكوينات جميلة، وأكداساً خضراء كبيرة من الرمل الأخضر المسكوب على السهل بجانب القضبان. وامتدت أعمدة خطوط الهاتف بمحاذاة خطوط السكة الحديدية، وكانت المنطقة رطبة لدرجة أنّ جذور النباتات الصغيرة نمت في الاسلاك الزلقة. كانت تنمو في الهواء مثل مجموعة من السحلبيات تتدلى أوراقها وأزهارها.

توقف القطار في غيراردوت. نزل الجميع. ظللت في مقعدي أقرأ بوزويل.

قال المحصّل:" لقد وصلنا. "

كان على الرصيف، ويتحدث إلي عبر النافذة.

قلت:" أنا لم أصل، أنا ذاهب إلى إيباجيه."

"أنت ستستقل الحافلة. لكن هذا القطار لا يذهب إلى هناك."

"لم يخبروني بهذا في بوغوتا."

"ماذا يعرفون في بوغوتا؟ ها!"

سرت إلى حافلة المحطة لاعناً.

كانت حافلة إيباجيه قد غادرت لتوّها، لكن هناك حافلة أخرى متجهة إلى أريمينا ستتحرك في غضون ساعات قلائل. تلك ستعبر بي ممر كوينديو، ليلة في أرمينيا ثم يقعقع بي القطار إلى كالي. اشتريت تذكرتي وذهبت لتناول الغداء.

خرجت من بوغوتا في وقت مبكر فلم أتناول إفطاري، لذا كنت جائعاً للغاية. كان المطعم صغيراً ومتسخاً. طلبت رؤية القائمة. سألت النادلة عما يؤكل لديهم.

قالت: " طبق اليوم، فاصولياء على طريقة أنتيوك[[56]](#footnote-56)"

الفاصولياء على طريقة انتيوك: لم تبد سيئة. نحن في محافظة انتيوكيا. ربما كان هذا الطبق من الأطايب المحلية؟ولكن قد تكون الأسماء خادعة. ربما يسمون هذا الطبق كما يحلو لهم، ولكني أعرف لحم خد الخنزير عندما أراه. زنّ الذباب حولي، وحول الفم الدسم في طبقي. أكلت الفاصولياء، وشريحة خبز قبل أن أُعيد الطبق. تقع غيراردوت على روافد نهر الماجدالينا العليا، ولكن ضحالة النهر هنا لا تسمح لشيء أكبر من زورق كانوي بالإبحار فيه. كان الجسر الذي فوقه يُطلى. وقفت الحافلة في الزحام، ولم تتحرك طوال ساعة ونصف الساعة. هذا ينذر بالتأخر في الوصول إلى أرمينيا. وبما هو أسوأ من ذلك: رحلة ليلية خطيرة عبر ثنيّات ممر كوينديو الحادة.

الكولمبيون أشخاص معتدلو المزاج. اعتادوا انتظار الحافلات المتأخرة، وألفوا ركوب الحافلات والقطارات التي لا تصل. إنّهم لم يشكوا، ونادراً ما كانوا يتحدثون. أنا أشكو، لكن دون مجيب. لذلك قرأت عن د. جونسون. *اعتاد أن يلاحظ كثيراً أنّ ما نتعلمه أكثر مما نستمتع به، وفي الظروف العامة لحياة الإنسان... في رأيه، قال، إنّه لم يمر في حياته- أبداً- بأسبوع قد يتمنى تكراره، لو عرض عليه ملاك تحقيق ذلك. وقلت لنفسي: قبل اسبوع كنت في بارينكويلا*.

نظرت إلى الأعلى. لم تتحرك حافلتنا: اللافتة ذاتها التي تعلن عن الجعة، والطفل ما زال في المدخل و صينية الكعك المقلي خاصته، وأكوام الطوب المكسور، وعلى الطريق، طابور الشاحنات والحافلات."

قلت: " هذا فظيع."

ابتسم الرجل الجالس إلى جواري. وصلنا من مكان غير معروف إلى مكان مجهول. إيباجيه، إرمينيا، وكالي: كانت مجرد اسماء على الخريطة لا أكثر.

"من أين أنت، سيدي؟"

أخبرته.

قال:" بعيد جداً."

"وانت من أين؟"

"أرمينيا" وأومأ إلى السماء. كان معطفه مطوياً على حجره. الطقس حارٌ.

"هل تعتقد أننا سنصل إلى هناك؟"

ابتسم، وهز كتفيه.

قلت:" ليتني في بلدي. لقد كنت مسافراً لكني ظللت أسأل نفسي هل كان الأمر يستحق العناء؟."

ضحك الرجل. إن كانت لغتي الاسبانية أفضل، لترجمت ما قرأته:

*لم يمر في حياته –أبداً- باسبوع قد يتمنى إعادته.*

تحدثنا عن الرجل الذي يدهن الجسر. بسبب هذا العمل التافه توقفت حركة المرور في غيراردوت، ولم يسمح لأي سيارة بعبور الجسر. كان الطلاء صعباً، قال الرجل، أليس كذلك؟

كانوا يحاولون تحسين العمل. جلس وتعرق، وسخر. كان الكولمبيون الساحليون صاخبين ومنفتحي القلوب، ولكن شعب الجبال هذا كان رزيناً وساخراً أحياناً.

قال الرجل: " لا يهم، فأنا عائد إلى دياري. سأكون في منزلي هذه الليلة."

قلت: " أنت محظوظ، بوسعك السير إلى دارك إن أردت."

"لا. لا أستطيع عبور ممر كوينديو مشياً."

المزيد من الانتظار، والمزيد من بوزويل. تحدث سيد إلفينستون عن كتاب جديد كان معجباً به أيما إعجاب، وسأل د. جونسون إن كان قرأه. جونسون:" لقد ألقيت نظرة عليه." "ماذا (قال إلفينستون)، ألم تقرأه من البداية إلى النهاية؟" استاء جونسون من فرض هذا الضغط عليه، وشعر بضرورة الاعتراف بقراءته المتعجلة، وأجاب في ثقة، " لا، سيدي، أتقرأ أنت كتاباً من البداية إلى النهاية؟"

بدأنا نتحرك- ببطء، ولكني كنت ممتناً للحركة بعد كل هذا الانتظار المكفّر للخطايا تحت الشمس. ليس عمال الطلاء وحدهم من أوقف الحركة، بل دورية الشرطة، كانت تصعد إلى الحافلات، وتفتش في الحاويات عن المخدرات. أو ربما ليس المخدرات. صعدوا إلى حافلتنا، ومشطّوا الممر وأيديهم على مسدساتهم. ثم عزلوا نصف دزينة من الأشخاص وأمروهم بإفراغ حقائبهم على جانب الطريق. تكرر هذا أربع مرات خلال الرحلة من غيراردوت إلى أرمينيا، وطُلب مني في إحدى المرات إفراغ حقيبتي.

سألت: "علام تبحثون؟"

لم يجب الشرطي. وفي الحافلة، قال الرجل الجالس إلى جانبي. " لم يكن عليك طرح ذلك السؤال على الشرطي. الم ترأنّه لم يكن يبحث عن أي شيء. إنّه يثير المتاعب فقط."

كانت الجبال ما تزال بعيدة. وحفُّت المسافة بين غيراردوت وإيباجيه ، بالتلال الخضراء والمروج الظليلة والمزارع: الذرة، والماشية، والوديان المروية. بدت مثالية، وفي كل منزل كانت تتفتح زهور الجهنمية، قرمزية وبرتقالية. وقد بدا اللون في ذاته شكلاً من أشكال الثروة.

كان المنظر لطيفاً، والعشب في خضرته الشديدة زاد من شعوري بالاسترخاء: كانت رؤيتي هذا المشهد بمثابة اكتشاف جزء من هذا البلد الفقير حيث يعيش الناس في سعادة، بالمكان الفسيح والطقس المعتدل.

كنت ما أزال أقرأ، وأرفع ناظري من حين لآخر. كم كان كتاب بوزويل مناسباً تماماً لهذه الرحلة، وكثيراً ما حظيت بتوضيح من الكتاب أو تعزيز، أو بنوعٍ من التنفيس -كما حدث في هذا الوادي الغنّاء.

أساليب العيش في مختلف البلدان، وشتى وجهات النظر التي يعتنقها الرجال في سفرهم بحثاً عن مناظر جديدة، سمعوا أخباراً عنها، وسيد متعلم...أسرف في سعادة الحياة البربرية، وذكر مثالاً لضابط كان يعيش بالفعل بعض الوقت في براري أمريكا، اقتبس عنه- عندما كان في تلك الولاية- تأمله هذا بإعجاب، كأنّه على درجة من الفلسفة عميقة: "هأنذا، حراً، بلا قيد، وسط روعة الطبيعةوهاته المرأة الهندية إلى جانبي، والمسدس الذي أكسب منه عيشي عندما أرغب: ماذا –بعد- يُرجى من أجل سعادة الإنسان؟"...جونسون:" لا تسمح لنفسك يا سيدي أن تُثقل بمثل هذا العبث الجسيم. إنّه لأمر محزن، إنّه بهيمي. إن كان للثور أن ينطق فربما تعجب بدوره قائلا: -- هانذا، مع هذه البقرة وهذا العشب، ماذا قد يجد الكائن متعة أعظم؟"

هذا صحيح، لم أستطع افتراض سعادة هؤلاء الفلاحين الكولمبيين. لولا وجود د. جونسون قربي لما انتبهت لما في هذه الملاحظة من عبرة. وقفنا في إيباجيه لنجتاز تفتيشاً بوليسياً، ثم توجهنا إلى خارج البلدة. لم نقطع مائة ياردة قبل أن نبدأ صعود سفح جبل. درنا، وانعطفنا ثانية، ونحن نصعد، وفي دقائق كانت إيباجيه تحتنا، أسقف، وأبراج ومداخن. لقد دخلنا ممر كوينديو.

احتجت وأنا في مزاجي الذي أرهقه السفر إلى كبير جهد للانفصال عن سحري بوزويل وجونسون. ولكن عند ممر كوينديو، وضعت الكتاب جانباً ولم أقربه أياماً عدداً. لم أر شيئاً يُقارن بحسن الطبيعة الفج هذا. لم تكن سلسلة براكين أمريكا الوسطى، ولا وادي الموت بالقرب من زكابا، أو مرتفعات تشيباس الضارية حتى في هذه الضخامة. جرى في أعماق هذا الاخدود الأخضر، نهر، ولكنه كان أبيضَاً و قصيًّا. وما كان من منازل ومزارع صغيرة في الأخدود ثبتت على نحو ما بجانبي الجرف، وكانت الجروف منحدرة لحد أنّ الأكواخ بدت كأنّها مرسومة عليها رسماً. رسم بدائيٌ ثنائي الأبعاد لأكواخ واراض متناثرة.

هذا الانحدار المباشر إلى الأسفل كان يعني أنّ أخاديد الفاصولياء امتدت الواحد فوق الآخر، مثل شقوق رأسية على لوحٍ غسيل. لم أر أناساً يغامرون بالخروج، بدا الأمر كما لو أنّهم سيسقطون إلى الأسفل فور مغادرتهم الباب الأمامي، ولا يسعني الجزم بطريقة عزقهم لحدائقهم التي تشبه أحواض الغسيل. هناك حدائق فقط، بلا حيوانات- لا مجال لها، لا شيء منبسط يتسع لحمل دجاجة، فضلاً عن خنزير. كانت المزارع قليلة- دزينة منها تثير الدوار، مقسمة إلى حصص صغيرة- والبقيةمنحدرات خضراء، وأنهار مندفعة من العدم. كان الطريق مشقوقاً في سفح الجبل، وكان ضيقاً جداً حتى إنّ المباني التي تفتح عليه- جميعها حانات تقريباً- كانت ترتكز فوق الوادي، مستندة على سقالات خشبية.

بنت الطيور اعشاشها في هذه العوارض الشاهقة. كاجاماركا، البلدة الوحيدة على الطريق، تقع على حافة صغيرة. لم أتمكن من رؤيتها قبل دخولها، ولكن بعدها بلحظة واحدة، انزلقت المنازل بعيداً، وصارت كاجاماركا أسقفَ صدئة،كحواف قبعةٍ، قرية ملتصقة بجرف مغناطيسياً.

فسّرت وعورةُ الطريق عزلةَ بوغوتا. هذا هو الطريق الوحيد إلى الجنوب والغرب، الذي يمتد لأقاليم مزارع القهوة، وميناء بينافينتورا الرئيسي. لن يعرف المرء أدنى فكرة عن صعوبة وصول الغاز والطعام إلى بوغوتا، وهو يطير في سماءكولومبيا جيئة وذهاباً. وكلما طال السفر براً، لاحت بوغوتا كمعقل في جبال الإنديز غير مقطوعة الصلة بغيرها من المدن، ومازالت بلداً يولي أهمية كبيرة لمسار النهر والبغل. يصبح هذا الطريق الممهد جزئياً الذي يعبر ممر كوينديو –خياراً مستبعداً في الفصل المطير.

حتى في هذه الظهيرة المشرقة الجافة، توقفت خمس شاحنات معطلة على الطريق، وأقام السائقون معسكرات صغيرة بجانب الشاحنات كما يفعل الأقزام عندما يتمكنون من قتل فيل لا يستطيعون تحريكه- ربما تهكمّا منهم على احتمال وصول مساعدة.

ربما كان السبب في صمت الركّاب على الارجح هو الرعب الذي لا حد له، الذي أثارته مساحات الفراغ على جانب الحافلة أكثر من روعة جمال المرتفعات. كان معظمهم هنودًا، بوجوه داكنة متجهمة تحت قبعات صغيرة مستديرة، متدثرين بمعاطفهم من البرد. كانوا صامدين ولم يتحركوا عدا لحشو أفواههم بقطع من جبن الماعز. شعرت بالجوع بعد وجبة مقززة في غيراردوت، وبينما كنا ننتظر في أحد المنحنيات مرور شاحنة ما، صعد صبي على الحافلة وهو يصيح، "جبن! جبن! جبن!" رددت جدران الوادي صدى الكلمة. وقد لُفَّت كتلٌ منها، في قوام العجينة التي لم تختمر، في أوراق الموز. اشتريت قطعة وأكلتها، قليلاً قليلاً. كانت مالحة، ولها نكهة الغنم. لكنها لم تكن أسوأ من غورغونزولا. مرت أربع ساعات بهذه الطريقة في الحافلة المرهقة: الجبن، المنحنيات، لمحات من الوادي التي كانت تخطف أنفاسي من وقتٍ لآخرعند أعلى نقطة في الممر كنا في السحاب. لا تتلاطم نتف منه في أشكال الجنيّ الذي رأيته قرب بوغوتا ذلك الصباح، بل بخارٌ أبيض لا شكل له دخلناه وضعنا فيه. كان فارغاً، وابتلع الطريق. تسرب إلى داخل الحافلة وحجب الوادي، أخفى القمم في بعض الأماكن وطمسها بعد ذلك في أماكن أخرى. عزل الشمس، أو أطفأها، فمنحها نظرة بصلية لؤلؤية. تغيّر لون البخار من الأبيض إلى الرمادي، ولم يعد ثمة طريق، ولا وادٍ ولا جبال ولا سماء فقط مملكة بحر الضباب الرمادي، مثل مشهد الرعب الذي واجه آرثر بيم في نهاية رحلته[[57]](#footnote-57). كانت أنواعاً من العمى، من رحلة مجهولة، مثل حكايات الأطفال عن الحافلة القديمة التي تطير في الهواء- سحر محض وغامض- والآن ضربتنا الرياح- حتى فقدت كل حس بالمكان والزمان.

كانت أكثر من أي شيء مثل تجربة موت، إن حاولت جهدي، فلن أرى أبعد من لحظية هذه الحافلة السخيفة، إلا بخارًا كثيفًا بلا ملامح، فحواسي في حالة انهيار.

تحوّل الرمادي إلى أبيض، وصار عديم اللون، وظهرت قطع من الخضرة. كنا نهبط الآن. كادت الخضرة أن تتحول إلى سواد في السحابة الخانقة، ثم صارت زيتونية، والحافة غير المسوّرة من الطريق بجانب المضيق الذي قد ننتهي إليه بزلّة واحدة. لن يرانا أحد نسقط، لن يكون هناك صوت بلع، بينما نُزدرَد في تجويف مريءٍ عمقه ميل.

فُتح باب الحافلة-مكسورة مفصلته. انحرفت الحافلة، وفي أحد المنعطفات صدر صوت خبطة. هناك هندي كان يجلس على أحد المقاعد الأمامية، يحمل حزمة على حجره. قفزت الحزمة من بين يديه، وتدحرجت عبر الأرضية ثم خرجت من الباب المفتوح. نهض الهندي.

قال:" رجاء سيدي، لديَّ خمسة بيزو في تلك الحزمة."

حوالي خمسة عشر سنتاً. أبطأ السائق. وقال الهندي:" وبعض مقتنياتي،"

توقف السائق في منتصف الطريق. استطاع بالكاد الميل إلى جانب الطريق- كان الفراغ على بعد خمسة أقدام إلى اليمين. خرج الهندي ومعطفه يصطفق، ركض على الطريق طلباً لحزمته.

قال السائق:" خمسة بيزو، هل هي قيّمة؟" وجذب شاربه. وضج الركّاب بالضحك. تشجّع السائق. "ماذا يهم إن كنا نسافر في الظلام؟ فالرجل يحتاج إلى حزمته وخمسة البيزو خاصته. إيه؟"

كان الركّاب يتصايحون عندما عاد الهندي. وضع حزمته على مقعده، وضربها، ثم جلس عليها. عدنا للسير في قطع من السحاب الذي غطى الشمس وجعلها صفراء شاحبة، تقطر لونها الأصفر على الأشجار والعشب، وفي وادٍ آخر، تقع بلدة صفراء تكتنفها تلال صفراء. كانت هذه هي أرمينيا.

® © S\*  
أرمينيا، وانتيوكيا ليستا بعيدتين، بلدة سيركاسيا. كانت الأسماء أسيوية، ومحيّرة، ولكني كنت أكثر تعباً من أن أتعجب منها. سارت الحافلة عبر المدينة وعلى الرغم من حلول الظلام رأيت فندقاً كبيراً في وسط مجمع سكني. طلبت من السائق أن يقف، ثم سرت عائداً إلى ذلك الفندق ودخلته. واعتقدت أنّ العمل على يومياتي حتى منتصف الليل سيجعلني أنام، ولكن الارتفاع والبرد لم يسمحا لي بذلك. قررت الخروج للتمشية، ورؤية جزء من أرمينيا. إن كانت البلدة مظلمة، أو خطرة بأي حال لما خرجت وحدي. ولكنها كانت جيدة الإنارة، وكانت هذه ليلة الجمعة-السبت كان يوم السوق- في زحمة من أهل الريف الذين جاءوا للبلدة لبيع خضرهم. وقف جمهور من الناس أمام نوافذ متاجر الأجهزة الكهربائية يشاهدون التلفاز. كانوا-عامةً- من المزارعين والهنود والفلاحين من القرى التي لا إضاءة فيها، ناهيك عن التلفاز. انضممت إلى إحدى مجموعات المشاهدين. كان البرنامج وثائقياً عن السكان الأصليين الاستراليين. كثيرون منهم عراة، ولكن ارتدى عدد مساوٍ القبعات وملابس قديمة مهملة لم تكن مختلفة عما ارتداه هؤلاء المشاهدين المفتونين في أرمينيا.

".....هؤلاء أناس من العصر الحجري،" قال الراوي، وعُرض السكان الأصليون وهم يبنون المنازل المائلة، ويقلبون جذوع الأشجار ويجمعون يرقات عث الخشب[[58]](#footnote-58)، يخوزقون السحالي ويحمصونها على النار. السكان الأصليون، بالنظر إليهم من هذا الوادي الكولمبي، لا يبدون على تلك الدرجة من التعاسة، فالطقس مشمس في أقاصي استراليا، وبدا السكان الأصليون وهم يطاردون حيوان الكنغر في يقظة ومكر الصياد. وهنا كان أطفالهم. أورد الراوي ملاحظات كثيفة عن صحتهم وتأريخهم، ربما بدا هذا كأنه مهد التاريخ وبداية استيطان رجال الكهوف في بوغوتا. ولكن الناس في أرمينيا لم يعجبوا سوى من العري، ومرأى القضيب الطويل النحيل والثديين المتدليين. ضحكوا مُحرجين. انطلق صوت الراوي العارف ببواطن الأمور يلفت الانتباه إلى وجبة اليرقات، ومساكن الأغصان، وأدوات الحفر البدائية. قال المرافبون هنا أمام محل الأدوات الكهربائية: " انظر..انظر أين هذا المكان؟ هل هو أفريقيا؟"

قال رجل: " بعيد، بعيد جداً."

بعد خمس دقائق، توقفت عند الرصيف في طريق عودتي إلى الفندق مشياً لأشعل غليوني. سمعت صوت سعال، قادم من مدخل مظلم، وكان سعال طفل. سعال الكبار مزعج في كثير من الأحيان، أما الطفل فعاجز ومثير للشفقة. نظرت إلى المدخل وقلت:" هل أنت بخير؟"

قفز ثلاثة أطفال على أقدامهم. الأطول كان أسود يرتدي سترة رجل انتهت عند ركبتيه، والآخر في قميص ورداء ممزقين، كانوا فتية ناعسين بقسمات إسبانية. قالوا مرحباً. سألت عن أعمارهم. كان الصبي الأسود في عامه العاشر، والآخران تسعة أعوام، وكان أحدهما –صبي نحيل عليل- هو الذي كان يسعل.

قال: " كنت أقوم بحل هذا الحساب." قال الولد ذو الأعوام التسعة الآخر. واراني قطعة ورق كتب عليها عمودًا من الأرقام، بالقلم الرصاص وبنظام، وغطى الورقة. "انظر، حصلت على مليون."

"أحسنت عملاً. سيحبّ معلمك ذلك." ضحكوا. قال الصبي الأسود، " ليس لدينا معلم."

"ولا مدرسة؟"

"كنا نذهب إليها."

"من أين انتم؟"

كانت قرية الطفل الأسود غامضة بالنسبة لي. قال إنّ والديه هناك، لكنهما أرسلاه بعيداً لأنّ عدد الأطفال كبير في منزل الأسرة.

سألته كم عددهم؟ قال:" أكثر من عشرة." كان المنزل صغيراً، ولا طعام هناك.

قال الصبي الثاني:" أمي وأبي في كالي. وهناك منزلي. لدي الكثير من الأخوة والأخوت. لكن لدينا مشكلة. كان أبي يضربني دائماً، ويصفعني. كنت خائفاً، ولذلك أتيت هنا إلى أرمينيا في أحد الأيام."

قلت: " هل هذا أخوك؟"

ضحك الصبي الثالث وبدأ يسعل.

"ذاك صديقي."

قلت:" انظروا، إن أعطيتكم بعض المال هل ستتقاسمونه؟"

قال الصبي الثاني:" نعم". وضع ذراعيه حول الصبي الأسود: "هذا أفضل أصدقائي."

أشرت إلى الصبي الثالث:" ماذا عنه؟"

كان الأصغر، والأشد شعثاً، كان حافياً، وذراعاه نحيلتان متسختان: " هو معنا أيضاً، إنّه يريد البقاء معنا. إنّه يخشى أن يظل في المنزل وحده." قال الصبي الأسود في شيء من الشك. وكنت قادراً من تلك النبرة على معرفة أنّ هذا الصبي الهزيل يُعد عبئاً عليهما. أعطيتهم بعض المال، وأخبرتهم أن يقتسموه، ثم سألت (ولكني كنت أعلم ما الإجابة مسبقاً).

قال الصبي الثاني: " كنا نحاول النوم."

"أين تنامون؟"

"هنا،" أشاروا إلى المدخل، حيث افترشوا قطعة مستطيلة من الكرتون مثل ممسحة الأحذية أمام الباب، بالقرب من الرصيف. كانت ليلة باردة كئيبة، وكان هذا الشارع الجانبي في أرمينيا مظلماً وعاصفاً مثل ممر جبلي-كانت جميع نوافذ المتاجر موصدة.

"أين تأكلون؟"

"يقدم لنا الناس الطعام."

قلت: " عليكم العودة إلى المنزل."

قال الصبي الثاني: " ذاك أسوأ."

قال الولد الأسود:" لا نستطيع العودة إلى المنزل. إنّه بعيد للغاية وصعب. بوسعنا العيش هنا."

"العيش هنا ليس بالفكرة السديدة، أليس كذلك؟"

"نحن مضطرون."

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، ولكنْ إجاباتهم كانت سريعة، وذكاؤهم واضح، وللحظات، كان من الممكن أن أنسى أنهم أطفال صغار. كانوا حكماء في الحياة، ويقظين مثل الكبار، ولكن لا شيء في ذاك المدخل الذي يسكونه، عدا قطعة الكرتون تلك. لقد رأيت أطفالاً يتسولون في الهند، يطلبون روبية واحدة بآلية، القصة المكررة: كانوا فقراء بقدر ماهم ضائعون. ولكن المتسول الهندي لا يسمح بالاقتراب، به خوف وتذلل، وهناك أيضاً حاجز اللغة. لغتي الإسبانية كانت كافية للسؤال عن حيوات هؤلاء الأولاد الصغار، كل إجابة من إجاباتهم فطرت قلبي. على الرغم من أنّهم تحدثوا عن أنفسهم بنبرة استقلال، إلا أنّهم لم يدروا كيف كانوا يبدون، حزانى وكالمتشردين. ما الأمل الذي قد يسكن قلوبهم، العيش خارج هذا الشارع؟ طبعا سيموتون، وسيتهم أي إنسان يستغل أجسادهم الصغيرة ليعبر عن غضبه بالتعاطف مع البلشفية. هذه هي الديمقراطية أليست كذلك؟ انعقدت الانتخابات الأسبوع الماضي وكان هناك الكثير من الكولومبيين في بوغوتا لأعرف مدى جمال هذا البلد وثراءه، إن انتبهت وابتعدت عن اللصوص والمتشردين. من قال هذا الهراء، وكم هو وحشي قتل الأطفال بتلك الطريقة. تحدثنا أكثر قليلاً، لكن بدأ المارة ينظرون لي شذراً في محاولة لاكتشاف ما كان هذا، أمنحرف هو يتملق الأطفال المشردين لأداء بعض الأفعال التي لا ينبغي الحديث عنها؟ ذهبت ولكني لم أبتعد كثيرًا. بعد حوالي 15 دقيقة مررت قربهم. كانوا رقوداً في المدخل. ناموا بعضهم فوق بعض، مثل السردين، وكان الصبي الأصغر في الوسط، استعان الولد الأسود بطي سترته لإبعاد البرد ولفها حول الاثنين الآخرين. كنت أرتدي معطفي الجلدي، ولم أكن أشعر بالدفء. راقبت الأولاد من على البعد. كانوا قلقين ويتململون، أرجلهم العارية ممدودة. سرت إلى الزاوية وتوقفت لأفسح الطريق لسيارة مارة. وعندما هدأ صوتها، سمعت صوت سعال الصبي الأصغر، يسعل مثل مريض السل، متبوعاً بشهيق حاد.

مثل هؤلاء الأطفال لا يظهرون في الأخبار. بأرمينيا صحيفة تظهر أخبار الانتخابات في صفحتها الأولى من عدد الصباح التالي- لماذا مازال عدّ الأصوات مستمرا- وثمة مادة عن حادث وقع في كولومبس في أوهايو، يعلن بانتصار أنَّ عملية دامت سبع ساعات قد أجريت لفصل توأمين سياميين، مارك وماثيو مايرز الآن بحالة طيبة كما قال الطبيب: " مارك يرفس في صحة." وجاء في الأخبار: : العنصر الغريب الذي كان مناسباً لهذه الصحيفة المحلية- إذ يتمتع غرباء الأطوار بشعبية كبيرة في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية. لكنه بدا أكثر وضوحاً بالنسبة لي أنَّ الأطفال الذين ينامون في الليالي الباردة في المداخل، على قطع من الورق المقوَّى، لم يرد لهم ذكرٌ، ولم يلحظ وجودهم أحد: فوق كل شيء، الطفل الذي يعيش في المدخل تعيس الحظ لأنّه لم يولد برأسين. لا تجد كولومبيا غرابة في وجود أطفال مشردين، لأنّه صار أمراً مألوفاً وليس مستهجناً.

قلبت الصفحة. هنا صفحة مليئة بالإعلانات لعقارات سكنية باهظة، **من قال إن عليك مغادرة البلاد لتعيش كما في كاليفورنيا**؟ كانت المنازل مشيدة على بعد ميل من أرمينيا، أي على مسافة ميل واحد من ذلك المدخل. وقد وُصفت بالتفصيل الممل. تتسم "بتصميم داخلي فخم" ومرآب يتسع لسيارتين. وتتوفر فيها أسباب الأمان والراحة، وزاد نص الإعلان، ليعد بأنّ العقار سيكون مسوّراً بالكامل.

*&***©** *©*

محطة السكك الحديدية في ارمينيا قطعة كبيرة صفراء على الطراز الجنوب أمريكي الذي ساد في مطلع القرن، قصر روماني حسّن من مظهره الإهمال فصار أكثر شبهاً بقصر روماني. يصل هذا الخط الحديدي مدن أرمينيا، وميديلين، وبوغوتا في مسار دائري بميناء بينافنتورا البحري. مشكلة محطة الخطوط الحديدية– وهي مشكلة عامة في كولومبيا- تمثلت في تحذير الناس لي بالابتعاد عنها. قالت السيدة في الفندق: "لا تذهب إلى هناك وحدك، ما كنت لأذهب إلى هناك وحدي."

قلت لكني كنت أسافر وحدي.

"إنّها خطرة للغاية."

سألت لماذا.

"اللصوص."

هناك لصوص كما أخبرني الناس في محطات السكة الحديدية، وفي محطات الحافلات، في الأسواق، في الحدائق، في دروب التلال، في الشوارع الخلفية، وفي الطرق الرئيسية. عندما سألت عن موقع جزء معين من البلدة، لم تُقدم لي أية توجيهات. قالوا: "لا تذهب."

وقيل لي في اكسبرس الشمس إنّ بوغوتا خطرة. وفي بوغوتا قلت إنني ذاهب إلى أرمينيا. " لا تذهب– إنّها خطرة." محطة القطار؟ "خطرة." ولكن القطار كان يغادر في السادسة صباحاً. "هذا هو أسوأ وقت- سيسطو عليك اللصوص في الظلام." كيف، إذن، علي الذهاب إلى كالي؟

"لا تذهب إلى كالي- كالي أكثر خطورة من أرمينيا."

أخذت هذه الأخبار على محمل الجد. تحذيرالسائح مثل قصة السرقة في نيويورك: هي همسة خوف أكثر من كونها إخباراً عن تجربة شخصية. ولكن تحذير الكولمبي من مكان ما يعرفه جيداً هو أمر ينبغي الانصياع له. لديه ما يكفي من الأسباب لطمأنة الغريب وإقناعه بالبقاء. ولكن رسالة معظم الكولمبيين كانت: اخرج من البلدة، استأجر تاكسياً، استقل الطائرة، عد إلى بلدك. كان هذا مستحيلاً. تخذت جانب الحذر بنزع ساعتي عند الخروج. ولكن لم أظل أكثر من ليالٍ قلائل في أي مكان، كنت متحركاً دائماً، ومعي حقيبتي وبضعة آلاف من الدولارات (لا فائدة لبطاقات الإئتمان في المناطق النائية). كنت هدفاً سهلاً: عرفت هذا، ولذلك أطلت شاربي-فهو وشعري المرسل لن يجذبا الأنظار إلي. يقترب اللصوص كما قيل لي اثنين اثنين. يغرسان مدية بين أضلاعك أو يمزقان حقيبتك فيفتحاها. وقد هوجمت من قبل-بلغة إنجليزية رديئة النطق(اسمعني يا سيدي، إسمع، أنت صديقي)، أزعجني التعرض للإقصاء والتمييز بعد أن تعبت في إخفاء هويتي. لكني كنت محظوظاً- كنت أركض أو أتسلل بعيدا عن الأنظار. لم أتعرض للسرقة قط في كولومبيا أو أي مكان آخر. التحذيرات المستمرة من خطر اللصوص هذا ألهمتني فانتازيا رفهت عني طول الرحلة في أرجاء كولومبيا. كنت أسير في شارع مظلم وفي جيبي مسدس. اقترب مني لص واشهرخنجراً في وجهي. قال، أموالك، سحبت مسدس وسيطرت عليه، سلبته أمواله حتى آخر بيزو. وداعاً أيها الوغد. صوبت نحوه سيجارة وراقبته يزحف مبتعداً وهو يتوسل للحفاظ على حياته. ولكني كنت نهباً للعصبية في أرمينيا بدون هذا المسدس الخيالي. كانت من الخطورة بمكان. استيقظت مبكرا وهرعت عبر الحي العشوائي المظلم باتجاه الطرف الأقصى من المدينة. كان هذا خطيراً. محطة القطار على جانب شارعه، تضم الهنود المحتشدين، والشخوص التي يصعب تمييز ماهيتها. كان ذاك خطيراً أيضاً. اشتريت تذكرتي وقفزت على متن القطار، وجدت مقعداً في الزاوية، وأبقيت رأسي منخفضاً حتى غادر القطار. توفر هذا القطار الكولومبي بمعايير كولمبية، من أسباب الرفاهية ما يتفوق به على اكسبرس الشمس الذي أخذني في تلك الرحلة الطويلة من الساحل. كانت هناك ستائر شبكية على النوافذ، ولم يكن مزدحماً في هذه الساعة. وكنت إن حالفني الحفظ بمقابلة ذلك الفرنسي المتباهي المتجه إلى الأمازون في كالي، سأقول له إنّ القطار أقل تكلفة من الحافلة بخمس وثلاثين سنتاً. كانت التلال واضحة من شوارع أرمينيا، وخرج القطار وبينما نشق طريقنا بينها، استطعت رؤية سلسلة أخرى زرقاء اللون هناك، وثالثة سوداء وراء هذا السلسلة الخضراء، وأعلى ارتفاعاً وأدق تحديداً. سافرنا عبر وادي كاوكا، مروراً ببساتين البامبو الشبيهة بالسرخسيات التي اجتمعت مقابل النهر الذي كان يجري على طول البلاد. رأيت الطريق أيضاً. الطريق الذي عبر خط السكة الحديد وتسلق سفوح التلال، ولكن ظلت خطوط السكة الحديد ممتدة على استقامة خط ضفة النهر. سارت الحافلات على الطريق جيئة وذهاباً، ثم اختفت عن مدى النظر، وتحرك القطار بسرعة السلحفاة، يضرب باتجاه الجنوب، ويقف على نحو متكرر. سافرنا في الحر القائظ. وكنت متحمساً لأنّ هذا هو الطريق إلى باتاغونيا، هذا الهدير باتجاه الجنوب. كان التأخير، و أثارت جولاتي مشرّقاً ومغرّباً سخطي وجعلتني أفكر في مدى خطأ تقديراتي عندما افترضت وأنا في بوسطن أن بوسعي ركوب قطار محلي والوصول إلى باتاغونيا في غضون شهرين. مضى أكثر من شهر الآن وأين كنت؟ على قطار ناعس في بلد نائي. لا يملك الناس هنا أدنى فكرة عن موقع باتاغونيا. كان هذا مكاناً غنياً- تنمو حبوب القهوة وأشجار الموز معاً، والمزارع على مدى البصر. أين كان ملّاك هذه الأراضي؟ لم أر سوى المزراعين، الأكواخ الصغيرة، الخنازير والجياد النحيلة، والناس الذين يعيشون قانعين وسط القمامة، أشكال بربرية كولومبيا المحصّنة ضد الانتقاد مجتمعة. قصت الماشية التي ترعى كلأ السفوح والمروج، فبدا العشب كأنما جُزّ لتوه، وقد سويت كل مساحة منها على غرار ملاعب الغولف. ولكن كان هذا مفرطاً، ومالم تهطل الأمطار قريباً، ستتعرض المنطقة بكاملها للرعي الجائر، وستعجز عن توفير الغذاء لهذه القطعان. اشتريت زجاجة مياه غازية تحمل علامة تجارية بريطانية من محطة تولوا. شربتها على القطار بعد أن دخلنا في النفق. كانت هناك سيدة مسنّة تراقبني.

قلت مرتبكاً من نظراتها: " إنّ الطقس حار هنا."

قالت:" وهو أشد حرّا في كالي."

"حقاً؟ لقد اعتقدت أنّه أبرد من هنا."

" حار للغاية. سوف لن تحبّه."

"هل انت من كالي؟"

ابتسمت وقالت:" فنزويلا."

سألتها: " منذ متى وأنت تسافرين؟"

"يومان. طرت إلى بوغوتا. وأخذت الحافلة إلى أرمينيا. والآن هذا القطار. سأزور أختي. لم أنت ذاهب إلى كالي؟"

ليس لدي إجابة على هذا . ليس ثمة سبب وجيه للسفر إلى كالي عدا حقيقة أنّها كانت تقع إلى الجنوب من بوغوتا، وفي طريقي إلى الإكوادور. شعرت إنّها ستطرح علي المزيد من الأسئلة الصعبة إن أخبرتها بوجهتي الأخيرة.

قلت: " لدي صديق في كالي."

أصابتني الكذبة بالاكتئاب. ليس لدي صديق في كالي. وبخلاف بعض الأقارب البعيدين في الإكوادو لم أكن أعرفروحاً واحدة في أي مكان من هذه القارة. قُدمت لي عناوين بعض الأشخاص، لكني تخذت عدم البحث عن أصدقاء أصدقائي قاعدة لي في السفر. فعلت هذا في الماضي بشيء من التلكؤ، لكن العواقب كانت محرجة، إن لم تكن كارثية. السفر وحيداً، إدمان أناني، من الصعب تبريره أو حتى تفسيره.

"قالت المراة: " هذا جميل، ستحتاج صديقاً في كالي."

وبهذا اكتمل اكتئابي. حالت شدة الحر بيني وبين القراءة. فوضعت بوزويل في حقيبتي وكذلك ساعتي وخاتمي. أنهيت قارورة المياه الغازية، ونظرت إلى الرجال الذين يغسلون شاحناتهم وسط نهر باراغان. كانت عادة استوائية، غسل السيارات في الأنهار، ولكن هذا المنطقة كانت استوائية و معتدلة. لم تكن التلال الخضراء لتبدو استثنائية في جبال كاتسكيل[[59]](#footnote-59)، عدا ما يخص النخيل الباسق المستقيم على منحدراتها، والموز وذلك الخنزير. عبرنا إلى التلال المنخفضة ذات الخضرة الشعثاء: الموز، الدجاج، والمزيد من الخنازير- كان من المستحيل النظر من النافذة بدون التفكير في الإفطار. زادت وعورة التلال بعد أربعين ميلاً، وعند الستين تغير المناخ بالكامل. صارت التلال الآن بنية وجرداء من فرط الرعي، وجميع المشهد محترق تحت أشعة الشمس، لا شيء أخضر في أي مكان. التلال القفر عديمة الأشجار كانت مكورة على منحدراتها وأقلّ تموجاً. كان بحراً بنيّ اللون من التلال، كما لو كان مدّاً من الطين قد ثار وتُرك ليجف في القمم المنتفخة. كانت هذه هي اللحظة التي تسبق تفتتها إلى كتل، وكثبان رملية، وانزلاقات ترابية. وقد لمعت من ورائها السهول المخملية من الخضرة الباهتة- حقول قصب السكر التي تقع بين سلسلتي جبال الكورديليرا. زاد اتساع حقول القصب من هنا وحتى كالي، وقد وقف عمال قطع القصب في التقاطعات- كان العدد أكبر من أن يسمح لهم بالجلوس- على ظهور الشاحنات المفصلية، العمال المحكومين بالسجن. كانوا أيقاظاً منذ الفجر. كانت الساعة الرابعة صباحاً، وهم في رحلة العودة، يشقوّن الحقول التي عملوا على تنظيفها.

بدت جميع البلدات التي رأيتها من فناءات محطات السكة الحديدية عادية لا تلفت الانتباه. كانت هناك قلة من المصانع في بوغالاغرندي، وحقول الذرة المجففة الذابلة. تتميز أشكال التلال في كل قرية عن الأخرى - كانت في بوغالاقراندي على هيئة خيام السيرك ضخمة و متداعية. و رأيت في تولوا كنيستين، واحدة بها قبة للقديس بطرس، والأخرى مثل رانس[[60]](#footnote-60)، ولكن كانت تولوا على خلاف ذلك مكانا كئيب المنظر، مثل المحطات الرئيسية للخطوط الإسلامية في تركيا الشرقية، كلها غبار وشمس، وأكواخ ومسجد أو اثنين. كانت هناك لافتات بالقرب من المحطات الكولومبية، تشير إلى مكان أو تحذر من المرور، وتشتمل جميعها على قطعة إعلانية. وربما كانت النتيجة النهائية غريبة: **معهد الشرطة القومي إشرب كوكاكولا؛ ممنوع المرور دخن سجائر هومبري؛ هدّيء السرعة بنك كولومبيا**. وبعد بلدة بوغا(محطة قديمة كبرى، بغرف انتظار تحمل ديباجة الدرجة الأولى والدرجة الثانية- ولكنهما كانتا خاليتين ومهجورتين)، استقامت القضبان تماماً، ودائماً ما تشير القضبان المستقيمة هكذا إلى عدم وجود تلال أمامنا، كنا نسافر تحت حرارة الشمس المباشرة عبر السهول، وبدون ما يظللنا سوى السراب المتراقص الذي انعكس من الأرض المليئة بالمستنقعات. كانت الشمس تتوهج عبر الستائر الشبكية. لم استطع تغيير مقعدي، لذا سرت إلى مؤخرة القطار ووجدت بابا مفتوحاً ومظللاً، حيث جلست ودخنت غليوني، وراقبت حقول القصب وهي تسير إلى الوراء. خطرت الفكرة ذاتها على رجل آخر. تحدثنا لفترة. كان يرتدي قبعة مهترئة، وقميصاً باهت اللون، وكان حافياً. قال إنّه يعمل في جمع القهوة. كان يعمل في كالي ولم يرق له جمع حبوب القهوة هناك. كان الأجر زهيداً ولم تكن حبوب القهوة جيدة هي الأخرى. قال: " أرمينيا أفضل مصدر للقهوة." إنّها الأفضل في كولومبيا بكاملها." كانت الأجور أفضل في أرمينيا - أعلى الأسعار كانت من نصيب قهوة أرمينيا.

" كم تجني من المال في كالي؟"

" ثمانون بيزو." كان هذا أقل من ثلاثة دولارات.

" في الاسبوع؟ أم اليوم؟ أم على السلّة؟"

" ثمانون في اليوم."

"لماذا لا يُدفع لك بالسلّة؟"

" يفعلون في بعض المناطق. ليس في كالي."

" هل هو عمل شاق؟"

قال وابتسم:" إنّه عمل، وأؤكد لك إنّها حارّة جداً."

"كم كان أجر اليوم في السنة الماضية؟"

"أربع وستون بيزو." دولاران.

"والسنة التي سبقتها؟"

"ست وخمسون." دولار ونصف.

قلت:" عليه أنت تحصل على أجر أكبر كل عام."

"ولكنه ليس كافياً. هل تعلم تكلفة شراء اللحم، الدقيق، البيض، والخضار؟"

"ربما تحصل على مائة العام القادم."

"يجنون مائة في أرمينيا الآن، ومائة وخمسين أحياناً. هذا هو السبب في ذهابي إلى هناك. أردت العمل في أرمينيا."

"كم ساعة تعمل؟"

"طوال النهار."

" اتبدأ باكراً؟"

"أوهـ، نعم. نحن نبدأ باكراً وننتهي في وقت متأخر."

قلت: " أعتذر عن كثرة الأسئلة."

واستخدم تعبيراً اسبانيا لطيفاً ليبدي تفهمه: " أنا رهن أمرك سيدي."

سألته: "كم تدفع لنصف كيلو من حبوب القهوة؟"

قال: " إن كنت تعمل في مبنىً لن يكلف الكثير."

ثم أخبرته كم يكلف رطلاً من حبوب القهوة في الولايات المتحدة. لم يصدقني في البداية، ثم قال: " ولكن مهما كان ما تقوله، نحن لا نزال فقراء في كولومبيا. الأسعار مرتفعة هنا، والأمر يزداد سوءاً."

هزّ رأسه. " انظر، تلك هي بالميرا. قريباً سنصل إلى كالي."

كنت سعيداً لأني أخذت معطفي الجلدي معي إلى بوغوتا وأرمينيا. والآن، وفي هذه الحرارة بدا حمله أمراً شديد الغرابة. في كالي كنت أشعر بالحر الشديد، فتركته سهواً في القطار، واضطررت إلى الركض عائداً واستعدته. كنت أسير عبر الرصيف عندما لاحظت حمالاً يتحدث بسرعة وغضب مع رجل يحمل زكيبة من البرتقال. فتظاهرت بعقد رباط حذائي، واصغيت السمع:قال الحمّال: " لقد ساعدتك في ذاك العمل، أقل ما يمكنك فعله أن تعطيني شيئاً."

"لن أعطيك أي شيء. أنت لم تفعل شيئاً."

قال الحمّال: " خمسة بيزو، أعطنيها!"

فأشاح العجوز بوجهه بعيداً.

سار الحمّال وهو يفرك يديه عشر درجات. ولكن لم يقل شيئاً.

التفت الرجل العجوز كاشفاً عن أسنانه: " انت ابن عاهرة."

سمعه الحمّال. " انت عاهرة، ووالدتك كانت عاهرة سوداء." رآني أحدّق وقال: " انظر إلى ذلك الرجل الغبي."

***© © ©***كالي "خطيرة جداً" عبارة مملة لحد أني اشتريت بكرة خيط تنظيف الأسنان، حتى أشغل نفسي نهار يوم ما، ونظفت أسناني بعناية. لم أكن محظوظاً بفنادق كالي، ظللت ثلاث ليال في المدينة وفي كل صباح كنت أخرج من منزل المجاذيب. نمت في الليلة السابقة، وانطلقت بحثاً عن واحد جديد. طفت على الكنائس، وشاهدت الصفوف الطويلة للسيدات المسنّات الضئيلات الجسم ينتظرن سماع اعترافاتهن. ماذا قد تكون ذنوبهن؟ كانت لدي أفكار شريرة يا أبتِ. تساءلت عن مصادر التسلية في كالي. قال لي كولمبي في فندقي الثاني: " إن كنت مكانك لذهبت إلى أرمينيا." قلت له:" تلك مدينة صغيرة وجميلة." وقلت إني كنت في أرمينيا بالفعل، وأنّها تذكرني بالأجزاء الأكثر فقراً في الهند. كان هذا التعليق خاتمة دائمة للحوارات: مهما كان الكولمبي يعتقد نفسه فقيراً، كان يشعر بالإهانة عند مقارنة بلده بأي بلد فقير آخر. كانت هناك تلال إلى الجنوب والغرب. اشتريت خارطة للحي في آخر يوم لي في كالي، وانطلقت إلى الريف، سالكاً طريق البغال ومتجاوزاً أعلى الهضاب، كانت تشبه قنة الجلجلثة[[61]](#footnote-61) بصلبانها الثلاثة المنصوبة على قمتها. أمضيت طوال الصباح صعوداً، وعندما توسط الشمس كبد السماء رأيت نهراً يتناثر مائه في مضيق صخري. كانت لدي شطيرة لكن لا ماء، فهرعت إلى هذا النهر لأشرب. وفي الطرف الأقصى منه كوخ، مربوطة إلى أحد جدرانه عنزة. ووقف رجل عجوز بالقرب من الكوخ، يلقي بالأحجار في النهر. بدا كأنه من تلاميذ وردزورث[[62]](#footnote-62)، حتى صار أفضل في الرماية، فأدركت أنّه كان يلقي الأحجار باتجاهي. لم أبتعد أكثر. وصار الرجل الآن يتمتم ويصيح، كان إما مجنوناً أو حسبني من جباة الضرائب. اتجهت إلى مسار آخر، وفي النهاية وجدت بعض الماء. كان هناك أكواخ في كل مكان من هذه التلال، بنيت في أقل الأماكن احتمالاً، في مواجهة الصخور، ومداخل الكهوف، وفي أعماق الحفر الرملية. صرت أخشاها، لأنّ في كل منها كلب مقرف، يركض نحوي ويزمجر وراء مخالبه. كنت خائفاً حقاً من أن يعضني أحد هذه الكلاب المهجنة: لديها مظهر سريع مجنون، ويشجع نباح أحدها الكلاب الأخرى المختبئة في جميع أنحاء سفوح التلال الحجرية. أفسحت لهذه الكلاب مجالاً واسعاً مما أدى لخروجي من درب البغال، وعندها لم تفدني الخارطة شيئاً. قدت نفسي عائداً إلى كالي مهتدياً بالصلبان على الجلجثة كمعلم بارز. ذكرت الكلاب لأحد الكولمبيين في ذاك المساء. قلت يبدو أنّ هناك الكثير من الكلاب الهجين في التلال. أهي خطيرة؟

قال:" بعض الكلاب خطير، ولكن جميع الثعابين فتاكة السم."

"لم أرى أية ثعابين."

"ربما لم ترها لكنها رأتك."

واحتفالاً بمغادرة كالي ذهبت إلى سفرة ليلة يوم الأحد المفتوحة بأحد المطاعم الفاخرة. كانت هناك مجموعة من المبشرين الأمريكيين. ربما كانوا يمضون عطلة الاسبوع خارجمقر بعثتهم. كانوا رجالاً ضخاماً، وامرأتين بدينتين. وصبي بطين، وأطفال أصغر حجماً، كانوا من طائفة الإنجيليين المعمدانيين الأشاوس، والذين يُرون أحياناً واقفين ومعهم سهام مسمومة على الروافد العليا لنهر الأمازون، بعض سكان وسط شمال أمريكا المتداخلين يتلمسون طريقهم مبشرين عبر أكثر أجزاء خارطة أمريكا الجنوبية خواءً فقط ليلتقوا في الموعد المضروب من أجل نشرة الكنيسة في ديارهم، في نوع غريب ومخيف من التضحية. ولكنهم اليوم يستمتعون بوقتهم: لقد خفوا إلى طاولة السفرة مرارا، مثنى، وثلاث وثم الحلوى. "

" هذه الفطيرة شهية!" نظر النادلون في حيرة، واستغرب بينما كان يُطلب منه تقطيع دجاجة أخرى، أو تقسيم كعكة أخرى. راودتني رغبة ملحة في الحديث إلى المبشرين، ولكنهم أنفردوا بأنفسهم- حيث جلس عشرتهم على طاولة طويلة.

وجدت في ساحل البعوض في كوستاريكا، خلفية لقصة عن المنبوذين، هنا، على الطرف الآخر من الغرفة في هذا الفندق في جنوب كولومبيا، أدركت من قد يكون هؤلاء المنبوذين. ارسلهم الله إلى هنا. كانت القطعة الرئيسية بالسفرة منحوتة جليدية طولها ثلاثة أقدام، شيء على هيئة قيثارة، كان يذوب ببطء ويتقطر على مفرش الطاولة أثناء الأمسية. كان أمراً رائعاً لعدم وجود ثلج في أحياء كالي العشوائية، وفي القرى التي رأيتها ذلك النهار، وفي بعض الاماكن القريبة لا ماء حتى. وهنا كان الثلج زينة زائلة، ووجدت شكلها السخيف منكراً. اقتربت مني امرأة بدينة. خلتها في البداية من وفد المبشرين. لكن لا، كانت تتحدث الاسبانية.

سألت هي:" ماذا تسمون كل هذا في اللغة الإنجليزية؟"

قلت:" برتقالاً،" وأنا أشعر مرة أخرى أنّ شاربي كان محاولة فاشلة.

قالت:" مزدهرة،" وقالت باللغة الإسبانية، "أريد تعلّم الإنجليزية. هل لك أن تعلمّني هؤلاء؟"

" [عنب]Grapes."

"[فطائر الكريب] Crepes"

"مساء الخير"، كان هذا رجلاً في ملابس سوداء، وياقة عالية- كاهن. قال: "خذي طعامك، يا ماريا". ابتسمت المرأة في وجهي، ثم سارت إلى الطرف الأقصى من طاولة السفرة. قال الكاهن:" إنّها تتحدث مع الجميع، عليك أن تسامحها. إنّها متخلفة."

كانت المرأة تكدس الطعام على طبقها. لها وجه عريض، وعينان شاحبتان، وشيء من البدانة غير العادية، البدانة التي قد تراها في المعتوهين ونزلاء الدور الذين لا يفعلون شيئاً سوى البحلقة من النافذة. قال الكاهن:" كان والدها ثرياً جداً. توفي قبل عامين. ثرياً للغاية." أحدث الكاهن صوتاً، غُصّ شفقةً.

"هل ماريا من بنات أبرشيتك؟"

"آه لا، إنّها وحيدة تماماً، أنا أعتني بها."

كان للكاهن وجه نحيل كمصارعي الثيران، ونظرة نافذة، رمق ماريا، وعاد بنظره إليّ. كان يبتسم بقلق، وقد وضعت خطوط الريبة هذه الابتسامة بين قوسين. وسرعان ما انضم إلينا رجل وقور في قميص أزرق. قال الكاهن الأول:" هذا هو الأب باديلا. " إنّه راهب كبوشي[[63]](#footnote-63). الأب باديلا، هذا السيد أمريكي. أعذراني، بينما أعتني بماريا." قال هذا وهرع إلى السفرة، بدأت ماريا الحديث مع غريب آخر. التفتت إلى الأب باديلا وقلت: " أنت لا تلبس مثل الكهنة."

قال:" ماعدنا نرتدي تلك الملابس الآن. إنّها ليست الزي الرسمي في كولومبيا."

"الرهبنة الكبوشية؟"

"الجميع."

قلت وأنا أشير إلى الرجل الذي يرتدي ملابس سوداء، يساعد ماريا في وضع الطعام بطبقها: " ولكن صديقك، يرتدي زيه الكهنوتي."

عبس الأب باديلا وقال: " إنّه ليس بكاهن."

أمر غريب: يرتدي الكاهن قميصاً رياضياً، والرجل العادي ياقة كهنوتية.

قلت: " إنّه يبدو مثل أحد الكهنة."

" إنّه مساعد من فئة ما، ولكنه ليس ضمن رعايا أبرشيتي."

رفع الرجل ذو البزة السوداء ناظريه، فوبخته ماريا لتوقفه عن تعبئة طبقها. غرس الرجل شوكته في قطعة من لحم الخنزير.

قلت: " هل هي غنية؟"

قال الأب باديلا: " غنية جداً، لكن الجميع فقراء في منطقتي. لا يملكون شيئاً."

أخبرته بما رايت في أرمينيا- الأطفال الذين يعيشون أمام المداخل. كيف يمكن السماح باستمرار هذه الأوضاع؟

قال: " أنا لا أفهم أن بعض الناس في هذا البلد في ثراء فاحش، والبعض الآخر في فقر مدقع. إنّه وضع مزرٍ. هناك عشرة آلاف طفل يعيشون بتلك الطريقة. لماذا يحدث هذا؟ لا اجد تفسيراً."

أتى الكاهن المزيّف مع ماريا. يقودها كما يفعل حارس حديقة الحيوان مع حيوان نادرٍ غبي. قال: " لقد أرادت أن تطرح عليك سؤالاً."

كانت متحمسة. أمسكت بأداة فضية في يدها. " ماذا تقول لهذه باللغة الإنجليزية؟"

" Spoon [ملعقة]."

قالت: "بون" نطق طفولي. " تعال معي. انضم إلينا في طاولتنا. أنت تعلمني الإنجليزية."

قلت: " أنا أعتذر، علي الذهاب."

قادها الكاهن المزيّف بعيداً. وراقبهما الكاهن باديلا وهما يبتعدان. ثم قال: " أريدك أن تعرف إني لا آتي إلى هنا كثيراً. ربما كانت هذه هي المرة الثانية، أتفهمني؟"

قلت: "نعم."

قال:"حسنٌ. حظاً طيباً في سفرك. ليكن الله معك."

================

**---**

**-15-**

**الأوتوفيرو إلى غواياكيل**

**---**

*قابلت في أمريكا الوسطى و*كولومبيا عددًا من الناس الذين كانوا يسافرون باتجاه الشمال، أخبروني عن تشويق وإثارة الغوياكيل وخطوط كيتو الحديدية- "QG &"كما كان معروفاً لدى من لم يجربوه في إشارة إلى العبارة الإنجليزية "Good and Quick" أي[كفء وسريع].

استغرق بناء هذا الخط سبعة وثلاثين عاماً(انتهى في عام1908)، مع إنّ طوله لم يكد يبلغ الثلاثمئة ميل.

ومن ارتفاع يربو على تسعة آلاف قدمٍ في كيتو، صعد الأوتوفيرو- حافلة معدّلة لُحمت إلى قاعدة مركبة حديدية- إلى مستوى ثلاثة آلاف قدم في أوربينا، ثم هبط سلسلة من المنعطفات المحصورة، والالتفافات(أنف الشيطان[[64]](#footnote-64)وتعرّجها المضاعف،ولفة ألاوسي!) إلى مستوى البحر في ميناء غواياكيل الجنوبي المشبع بالبخار. لم تواجهني صعوبة في الحصول على معلومات بشأنها. كانت المحطة قريبة، والخدمة دائمة، وتكلفة التذكرة لا تزيد عن بضعة دولارات.

كنت واثقاً من سهولة هذه الرحلة، ثقة دفعتني للماطلة. وافقت على تقديم محاضرة في كيتو. دعاني الناس في تلك المحاضرة إلى الحفلات، فذهبت إلى الحفلات وحاولت أن أكون مؤانساً. القطار متوفر: ويمكنني اللحاق به في أي وقت.

كان الطقس في كيتو مصدر دهشتي. كان يتغير باستمرار أثناء النهار. تنخفض السحب أحياناً فتظلل المدينة حتى يخيّل إليك أن بوسعك مدّ يدك وتناول واقتطاع خصل من خيوط ذاك الغمام. أقمت فوق ربوة، وكنت أرى منطقة صافية الهواء، وفوقها مباشرة، هذه الغمامة القريبة. كانت الصباحات في العادة مشمسة، وفترات الظهيرة رمادية، وفي المساء تستقر بعض السحب، ويطوف جزء منها عبر المدينة، فتطفأ له مصابيح البيوت، وتخفت لوحات النيون، وتحجب أخيراً مصابيح الشوارع الصفراء، حتى تبدو كيتو خالية من السكان، أو أقل من ذلك،مجرد شلال هواء تتساقط منه نتف من زغب داكن. وفي صباح أحد الأيام، سقطت زخات من المطر، والطيور الصغيرة جداً- في حجم طيور ساعات الكوكو: لكنها من الطيور الطنّانة، ترنحت على أغصان إحدى الشجيرات لا تبتغي سوى الملاذ تحت ورقة شجر صغيرة تحميها من البلل.

استمتعت بكيتو على الرغم من لهاثي نتيجة البرد والارتفاع. بهرتني كيتو من بين جميع المدن الجبلية بأمريكا الجنوبية كونها الأسعد. وبالنظر إلى الوراء بدت بوغوتا صرحاً قاسياً، مثل عش نسرٍ تسكنه الآن العقبان وفرائسها المحتضرة.

بدت كيتو أسعد حالاً، هضبة أبراج الكنيسة، ومنازل خفيفة ملونة متناثرة على منحدرات الجبال التي ترتفع من ورائها، وعلى منحدرات بيشنشا الأكثر ارتفاعاً ووعورة قامت أكواخ الفئات الأفقر، الذين يمكنهم النظر إلى بيرو من مداخل منازلهم. ولكنْلكيتو أسرار لم أدركها، خلصت بعد شهر إلى أنّها كانت أحد أجمل الأماكن التي رأيتها، وواحدة من أكثرها إقامة للعدل (ليس هناك سجناء سياسيون في الإكوادور)، رُفعت تكلفة الحافلة إلى ستة سنتات، فحطّم مثيرو الشغب جميع الحافلات في المدينة.

نصحتني سيدة:" لا ينبغي أن تحكم على الناس بحسب بلدانهم، في جنوب أمريكا يستحسن دائماً الحكم على الناس وفقاً لارتفاع مدنهم."

كانت هي ذاتها من بوليفيا. حدثتني عن قلة السمات القومية المشتركة مقارنة بسمات الحياة في المرتفعات. كان شعب الجبال الذي يعيش في مرتفعات الإنديز رسمياً صعب الإرضاء. أما شعب الوادي فكان مضيافاً على الدوام، ومن يعيشون على مستوى البحر كانوا ألطفهم جميعاً على الرغم مما فيهم من ميلٍ للكسل والبطالة.

كان من يعيش على ارتفاع أربعة آلاف قدم مثالياً، وكشافاً حقيقياً سواء أكان يعيش في الإكوادور أم بيرو، أم بوليفيا، أو أينما كان.

قدمت المحاضرة في كيتو، وتناولت الطعام أثناءها على مدى أيام، حيث التقيت بالكتّاب والمعلمين، وبائعي الكوكا-كولا. في كيتو واحد من أفضل متاجر الكتب بأمريكا الجنوبية، لكني لم أشتر كتباً: فقد أهداني أصدقائي الجدد الكتب، فانهمكت في قراءة الكتب، وتأمل الطيور الطنّانة بدلاً عن اللحاق بالقطار المتجه إلى غوياكيل.

عقب وصولي بأيام قليلة، لمّحتُ برغبتي لرؤية بعض كنائس كيتو (كانت ستًا وثمانين)، وفي الحال وجدتني مجهّزًا بسيارة وسائق لجولة في هذه الأماكن المقدسة.

كانت هناك لوحة للجحيم في كنيسة يسوعية، إيطالية الطراز اسمها لا كومبانيا. بدت هذه الجدارية من مسافة قريبة أشبه بتجسيد دقيق لمباراة كرة قدم ليلية في السلفادور، ولكن عند النظر إليها عن قرب كانت لوحة بوس[[65]](#footnote-65)، تصويرًا مفصّلًا لأرض الجحيم العظيمة. وقد جيئ بتلاميذ المدارس في كيتو إلى الكنيسة ليروا هذه الجدارية حتى تخيفهم بما يكفي للتمسك بالسراط المستقيم، إذ بينت عليها الخطايا واحدة واحدة، وتلقى المخطئون العقابَ الملائم: الزانية التي تصرخ وخنزير برّي يمزق جسدها، والرجل الدنس، تُسكب عليه النيران عبر قمع في فمه بينما ينفث كلبٌ النار على أعضائه التناسلية فيحرقها. وامرأة فاسدة ترتدي قلادة من العقارب، والسكّير يُجبر على شرب الزيت المغلي، وثعبان يعُض لسان النمّام، وعقرب عملاق يخنق رجلاً ظالماً، والمرابون بوجوههم السامّية الواضحة قد صُيّروا لحماً مفرياً، و قُطِّع المختلسون إرباً إرباً، وغُصّ الشرهون بالقمامة، وشُدّت أجساد الكاذبين على المخلعة[[66]](#footnote-66). وقد كتب بطول الجزء العلوي من الجدارية بحروف من ذهب اقتباس من إنجيل لوقا 13:3 باللغة الإسبانية:

"كَلاَّ! أَقُولُ لَكُمْ: بَلْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ."

كان رعب العقوبات أكبر من كل ما جاء في جحيم دانتي. ربما اشتقت هذه الوحشية المحايدة على الأرجح مما وصفته القديسة تريزا الأفيليّة، الراهبة الاسبانية التي تضمنت اعترافاتها رؤى مرعبة للجحيم. طُوّبت القديسة تريزا في 1622، أي العام ذاته الذي شهد تأسيس كنيسة لا كومبانيا.

تخيلت كيف أسهمت مثل هذه الجدارية بقوة في إقناع الهنود لاعتناق الدين. شكّل الهنود الجزء الأكبر من مرتادي الكنائس في كيتو، وهناك لمسات من براعة هنود الإنكا في هذه الكنائس. كان ربع زينة كنيسة سان فرانسسكو يحمل طابع الإنكا. والكنيسة ذاتها مشيدة على موقع قصر أتاوالبا[[67]](#footnote-67) الصيفي، حيث سادت رموز الإنكا في أنحاء الكنيسة- نُقش اثنان من آلهة الشمس على أقراص ذهبية، وفور دخولك من الباب تتكرر على الجدران الداخلية، بالإضافة إلى صور الفواكه، والزهور، ورموز الحصاد لدى الإنكا تزّين مشاهد الصلب وصور القديسين. كانت طريق الآلام إسبانية، والأقنعة المثبتة على الجدران فوقها وجوه كبيرة ذهبية، بعضها بأغطية للرأس مثل التي يراها المرء في الصور المصغرة على مجوهرات الإنكا- بأفواه مقلوبة إلى الأعلى أو مائلة إلى الأسفل كما في أقنعة الكوميديا والتراجيديا.

كانت الكنائس تزدحم بالمصلين من الهنود جاثين بعباءاتهم وشالاتهم، وهم يحملون أطفالهم. كانوا يضيئون الشموع في كنيسة سانتو دومينغو، يجثون لدى محطات الآلام في سان فرانسسكو، وفي لاكومبانيا كانوا يبجلون قيثارة أول قديسات الإكوادور- سانتا ماريانا المسيح- التي كانت جميلة جداً أمضت حياتها ترتدي حجاباً أسود اللون. وقيل إنّ أحد الرجال رفع هذا الحجاب، ورأى تحته جمجمة القديسة ماريانا عابسة، وهي طريقة الرب ليبين له ما اقترفه من تجاوز. لم يشرح أحد وجود قيثارتها، فالقيثارة لا تحتاج إلى تفسير في أمريكا الجنوبية. نظر إليها الهنود مطولًا، كانوا صغار الحجم، أقوياء، ذوي شعر كثيف أسود، مثل أقزام لطاف،ويسيرون في انحناء حتى عندما لا يحملوا شيئاً، إنّها هيئة الحمّال.

يُمثّل الهنود في الإكوادور نصف عدد السكان تقريباً، لكنّهم يبدون أكثر من ذلك، لأنّ طبيعتهم تجعلهم بارزين. فهم يبيعون ثمار اليوسفيّ، والآثار، والسجائر، والحلوى، وأعواد الثقاب في الشوارع، ويعملون طهاة، وعمالاً باليومية على مواقع البناء- يعيشون في المنزل نصف المبنيّ حتى يكتمل، ثم ينتقلون إلى أساسات منزل آخر يُخطط لبنائه. في أبهى شوارع الضاحية تجد الأب، والأم، والطفل وهم يجمعون حطب الوقود، وينقبون في حافظات القمامة. يسهل التعرّف على الهنود وسط الإكوادوريين بسهولة: إنّهم المثقلون، ويعرفون بالحزم التي يحملونها.

قال لي رجل:" على أحدهم فعل شيء ما بشأنهم، دائماً ما ترى رجلاً ضئيل الجسم، يربط على رأسه عصابة ويحمل حزمة ضخمة ويصعد إلى التل سيراً على الأقدام. ليت بالإمكان تقديم شيء لمساعدتهم."

اقترح أحدهم:" عجلات؟"

قال الرجل الأول: " لن تعمل العجلات على هذه الدروب الجبلية."

قالت امرأة:" نوع من المزالج، يمكنهم سحبها."

قال رجل: " لن يستطيع رفعها فوق التل."

قلت: " أفترض تزويدهم بهندي آخر هو الحل."

وقد قوبل اقتراحي المتهكم بجدية كبيرة.

قال رجل آخر: " ما لم تفهمه، أنّه حالما ارتدى ذلك الهندي حذاءً فلن يعود هندياً."

أخبرني الكاتب الإكوادوري خورخي إكاثا أنّ الهندية في الروايات الإكوادورية هي ما جعلتها إكوادرية.كان كل ما عداها زيفاً وتقليداً، حيث تزخر روايته "هواسيبونجو"[[68]](#footnote-68) بالرموز الهندية في الفلكلور والخطابة. وذلك كما قال لأنّه لم يرغب في اتباع اسلوب إسباني أمريكي، أو أوروبي في كتابة روايته، بل عمد إلى أن تكون عوضاً عن ذلك ملحمة حقيقية تعكس ثقافة أمريكا الجنوبية. ولهذا لزمه كما قال ابتكار عبارة جديدة وسنّ عرف. " أجزم لك، لم ترض الأكاديمية عن هذا أبداً." لقد خططت لركوب القطار إلى غواياكيل في هذا اليوم، لكن أُقنعت بكل سهولة بتغيير خططي، وتناول الغداء مع ثلاثة من الكتّاب الإكوادوريين المسنين بدلاً عن لك، بجانب إيكاثا الذي بدا مذهولاً راجفاً، وأخبرني أنّه لم يعد يرجو شيئاً من كتّاب أمريكا الشمالية("ليس لدى هذه الكتب ما تقوله لي."، كان هناك بنيامين كاريون، والفريدو باريخا. كان باريخا هو الأصغر وبدا مثل عقيد من كنتاكي، سبق له السفر في أرجاء واسعة من الولايات المتحدة. أما كاريون فكان في الثمانينات من عمره وذكرني بالممثل الاستير سيم، تمزج قسماته المذهولة ما بين الوقار والجنون. كانوا يرتدون بدلات مقلمة ويحملون عصياً. وانا أرتدي قميصي الذي لا يحتاج إلى كي، وحذائي المانع للتسرب، كان شعوري مثل صاحب أسهم صغير منح فرصة لمقابلة رؤساء مجلس الإدارة.

كان كاريون بالفعل رئيس صحيفة محلية أسسها بنفسه. واتفقوا جميعاً على رأي واحد: أن جون شتاينبك هو آخر كتّاب أمريكا العظام. وبعده، لم تعد كتابات الأمريكيين جديرة بالقراءة. وهنا استطعت أن أدلي بدلوي، قال إكاثا إنَّ الأدب كان كله كفاحاً، كل كلمة كانت صراعاً، ووصف **نسق رواية هواسبينجو**. ذكرت أنا بورخويس:

قال إيكاثا: " لا، لا، لا"

قلت أنا:" قال بورخيس إنَّ تقاليد الارجنتين كلها وليدة الثقافة الغربية."

قال كاريون:" بورخيس لم يُفهم."

قال إكاثا:" نحن لا نفكر في بورخيس كثيراً."

بدا باريخا غير واثق ولكنه لم يقل شيئاً.

قلت:" لطالما أردت لقاءه."

قال كاريون:" انظر، ما يهم هو المبيعات. لابد من تقبّلك. عليك أن تجعل اسمك معروفاً وإلا فلن ينظر إليك أحد." توسع هو في هذا الموضوع، وكانت حقاً مثل غرفة مجلس إدارة بشركة جنوب أمريكية، لم تجن أرباحاً كافية مؤخراً. أذعن إيكاثاوباريخا لكاريون، الذي كان يقول أن لا معنى لمدح النقّاد إن لم يقرأ كتبك أحد.

كان النشر عملاً تجارياً، والناشرون رجال أعمال يحتاجون لجني المال للحياة. وبالطبع على الكتّاب بيع كتبهم حتى يُعرفوا. كان عالماً بهذا الأمر،فهو أحد أعضاء لجنة جائزة نوبل بأمريكا اللاتينية. قدم الكثير من الكتّاب الممتازين لكن كثيرا ما أظهر أصحاب جائزة نوبل عدم معرفتهم به:" من هذا الرجل؟ لم نسمع به قط."

إنّها مشكلة، قال إيكاثا.

قال باريخا: نعم تلك مشكلة جدية. لابد من دراستها. أردت أن أذكر بورخيس مرة أخرى، لكني شعرت أنّ الرد سيكون لاذعاً. ثم أدركت أنّ باريخا كان يتحدث معي. مشكلة الكتّاب الأمريكيين، كما قال إنّهم دائماً يتماهون مع السياسية الأمريكية-مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، ونيكسون، وفيتنام. وهو لم ير في السياسة الأمريكية مايثير الاهتمام، لذلك اعتقد بعدم جدوى الكتب. قلت إنَّ الروايات الأمريكية- الجيّد منها، كانت مستقلة عن السياسة الأمريكية تماماً.

قال: " بالنسبة لي كلها سيّان."

قلت:" ألا تخلط في هذا بين الصياد والثعلب؟"

لا، لم يكن يعتقد ذلك. اتفق الآخرون معه، وعليه تم تعليق الاجتماع.

قال لي مسؤول سياسي أمريكي في اليوم التالي:" ربما اعتقدوا أنّك تنتقدهم."

قلت حاولتُ أن أكون لبقاً، ولم أذكر سوى بورخيس انطلاقاً من إعجابي بأعماله.

قال: " الأمريكيون اللاتينيون طريفون، يكرهون النقد، أو ما يخالونه كذلك. الحكومة الإكوادورية كانت ثالوثاً دكتاتورياً -الجيش، البحرية، والقوات الجوية- ثلاثة جنرالات، عندما يتعرضون للنقد يزرعون المتفجرات بالقرب من منزل الناقد، وينفذون تفجيراً."

قلت: " يبدو هذا خطيراً."

قال: " لا، لا، لا أحد يؤذى. إنّه تحذير فقط. الضحية الوحيدة هنا هو الناقد الذي يُصاب بنوبة قلبية عند سماع الانفجار."

في مكتب هذا الرجال جدار عليه خارطة للأكوادور. ولكنها لا تشبه خارطة الإكوادور خاصتي في شيء.

أوضح لي الرجل إنّها خارطة للإكوادور ونصف الأراضي تعود لبيرو.

خرائط بيرو الإكوادورية، وخرائط الإكوادور البيروفية، كانت هي الأخرى مختلفة للغاية، تظهر هائلة المساحة، وتحوز محافظة أمازونية.

كان الرجل عبارة عن ثروة من المعلومات. سألته عن الهنود. قال، حسناً هناك عدد قليل جداً من نبلاء الإنكا، وهم يستخدمون الهنود كعمال بأجور زهيدة. غزا الإسبان البلاد، واستُبدلوا بنبلاء الإنكا، في استغلالهم الهنود بالطريقة ذاتها. لم تتغير الأحوال كثيراً: ما زال الهنود في الحضيض. ولأنّهم أميون في الغالب، فهم لا يستطيعون التصويت.

قلت: " أنا متفاجيء كيف لا يخنق الهنود هؤلاء الناس."

كانت هناك حوادث خنق في كيتو منذ أن وصلت. قُبض على الخانق في اليوم التالي. كان الخبر في صحيفة ذا يونيفيرس تحت عنوان **مهووس بربطات العنق**. كان القاتل مثلياً، ولكن ما خفي كان أعظم.كان يصل إلى ضحاياه متنكراً في ملابس امرأة(عُرض وهو يرتدي شعراً مستعاراً نسائياً في سلسلة من الصور.)

خنق أربعة رجال. وقد أوردت الصحيفة اعترافه للشرطة كالتالي: " عندما يدخل في علاقة جنسية مع شخص مميز، أو شخص يرتدي ربطة عنق. تنتابه رغبة في خنقه، ويكون طبيعياً تماماً مع غيره من الناس."

قال الكاتب الأمريكي مورتيز طومسن، كاتب العيش فقيراً، ومزرعة على نهر الزمرد- كتابان رائعان وضعا طومسن في مرتبة واحدة مع المقيم الباتاغوني و. هـ. هدسون- الذي عاش في إحدى أكثر مناطق الإكوادور وحشة، لأربعة عشر عاماً.

"الأمور تتصاعد إن كنت تقود في بعض أنحاء الإكوادور يرشقك الهنود بالحجارة. يجد الكثير من الناس زجاج سياراتهم الأمامي محطماً."

كشرّ وضاقت عيناه الزرقاوان. " لذا أعتقد أنّه ثمة أمل في نشوب ثورة." إنّه مورتيز الذي قال لي ظهر يوم ما في أحد شوارع كيتو:" أنا لا أفهم يا بول، كيف تكتب كتاب سفر، وأنت لا تفعل شيئاً سوى حضور الحفلات؟"

قلت:" أكتب عن الحفلات."

ولكنه كان على حق تماماً. وكنت أنا في حرج من نفسي. فأقسمت على أخذ القطار إلى غواياكيل في اليوم التالي.

لم يكن ثمة قطار في اليوم التالي. كان هناك حلٌ لدى السيد كيديرلنغ في السفارة الأمريكية. ستُنظم لي رحلة إلى غواياكيل بالطيران إن كنت سأقدم محاضرة هناك. سيبرق هو المكتب في غوياكيل ويطلب إليهم حجز تذكرة لي على الاوتوفيرو للعودة إلى كيتو.

قال:" إنّه القطار ذاته. يختلف فقط في الاتجاه."

بدا هذا مناسباً لي، عليه طرت إلى غواياكيل.

***© © ©***

يُنصح زوار غواياكيل برفع أعينهم، فإن كان اليوم صحواً تسهل رؤية قلنسوة جبل تشيمبورازو الجليدية من الشوارع الرطبة في هذه المدينة رديئة الرائحة. وإن نظرت إلى الأسفل فلن ترى سوى الجرذان. كانت قمة تشيمبورازو في غلالة كثيفة من الهواء الأصفر البني، وظلت السماء تزخ مطراً شفافاً طوال اليوم، وظل المشاة يلوذون من المطر تحت مظلات المتاجر المعلقة على الأرصفة. كان المطر يسيل غدراناً في الليل، لكن لم تتأثر الجرذان بالزخات ولا بالمطر المنهمر. الجرذان قادرة على السباحة، وقد تخوض في المياه لثلاثة أيام، وتنخر في كتل الخبث، وتتسلق الجدران الرأسية، بوسعها العيش لأيام بدون طعام، وتتحمل الحرارة المفرطة والبرودة الشديدة، وهي شريرة لا تعرف الخوف، وقوية تكاد لا تقهر بفضل عاداتها في التكاثر. ربما كانت الوحيدة بين الآفات التي تتميز بالضوضاء: إنّها لا تعرف التسلل حقاً، ولا تتلصص، لكنها تتعثر بلا اكتراث في حركة يشوبها بنوع من التأرجح شبه المنحرف. تعلن الجرذان عن نفسها في محيط ثلاثين ياردة أو نحوها: فتثرثر، وتخربش باستمرار، قافزة على بعضها البعض. هي أكثر شراً من أن تحتاج إلى الذكاء.

تنتمي الجرذان في غواياكيل إلى فصيلة [Rattus rattus]، أي جرذ المجاري، أو الجرذ الأسود الذي يتسبب في الموت الأسود، الطاعون الدبلي من آسيا إلى أوربا. كان الوباء يعاود الانتشار في أوربا لأربعمائة عام، وبدأ يتراجع في القرن الثامن عشر عبر الشرق الأوسط إلى آسيا. يُعتقد أنّ الطاعون انتهى في أوربا لأنّ الجرذان السوداء طُردت من قبل فصائل أقوى وغير اجتماعية، ولكنّها أقل خطراً على الإنسان، هي الجرذان البنيّة[*Rattus norvegicus*]. صعدت الجرذان السوداء المفلطحة السفن، وصمدت في حرارة ورطوبة موانيء المدن الافريقية والأمريكية الجنوبية، وجلبت الطاعون، الذي ما يزال مستوطناً هذه القارات. لا إحصائيات لدي حول الموت من الطاعون في غواياكيل- لا يُعد طرح هذا السؤال من التهذيب- ولكن يموت الناس هنا من عضة براغيث الجرذان. إنّه مرض مخيف وقصير الأمد: تصاب بالعضة، وبعدها بيومين تسلم روحك.

هناك لوح به فتحة تهوية على الجدار العلوي بغرفتي في فندق غواياكيل، بقيت ساهراً لليلتين من سقسقة سير مروحة. كان يبدأ في الظلام، سقسقة سير ينزلق على عجلة غير مزيتة. فذكرت ذلك للمدير.

قال:" لا توجد مروحة في غرفتك."

عدت إلى الغرفة، ووقفت على كرسيّ وأمسكت بعود ثقاب لأفحص فتحة اللوح. وما خلته مكيّف هواء كان عشّ جرذان، هناك ثلاثة منها، تهمهم وتسقسق في التراب وراء اللوح. قلت للمدير:" هناك جرذان في غرفتي."

قال:" أها، نعم."

لم يتفاجأ. انتظرت أن يقول شيئاً آخر، ولكنه اكتفى بالابتسام.

قلت:" أظن علينا أن نعطي الجرذان تلك الغرفة. إنها تبدو سعيدة هناك."

قال المدير في تردد:" نعم." لم يدرك توريتي مطلقاً.

"لتحظى الفئران الغرفة، وسأنتقل إلى أخرى."

"أنت تريد تغيير غرفتك، أهذا ما تعنيه؟"

ولكن رائحة الجرذان تفوح من جميع الغرف في هذا الفندق الباهظ التكلفة(سمي تيمناً بمستكشف ألماني شهير وعالم طبيعة صائد للفئران).

كانت رائحة ملابس ممضوغة وفضلات، ورطوبة تنبعث من كل ركن. وقد يرى المرء بسهولة مواضع حفر هذه القوارض في السقف والجدران.

كنت في شوق للذهاب إلى غواياكيل: لدي أقارب بعيدون هناك. في عام 1901 غادر جدي الأكبر قريته أغازانو بالقرب من بياتشنسا في شماليّ إيطالية، وذهب إلى نيويورك مع زوجته وأطفاله الأربعة. كان اسمه فرانسسكو كاليسا، لم تعجبه نيويورك، وخاب أمله كثيراً في أمريكا. بعد عشرين يوماً سيئة على متن السفينة البخارية صقلية، وعيد الميلاد الذي لا يطاق، صارت نيويورك محض جحيم. سافر إلى الارجنتين طلباً لوظيفة في الزراعة، ولكن الحمى الصفراء التي انتشرت في بوينس أيرس جعلته يغيّر خططه. ربما أمل في القيام ببعض الأعمال الزراعية في أميركا، لكنه كان مفلساً في الثانية والخمسين من عمره. كانت حالته ميؤوسًا منها. وعندما نفذ صبره خطط للعودة إلى إيطاليا. عارضت زوجته إرمينجيلدا الأمر، ورفضت في النهاية العودة معه. وهكذا انفرط عقد الزواج: عاد هو إلى بياتشنسا، حيث كانت تعيش ابنته المتزوجة (كانت قد هربت من أمريكا مع زوجها قبل ذلك بعام)، وظلت زوجته في مدينة نيويورك لتربي بقية أطفالهما وحدها، ورفدت العائلة بفرع من الشخصيات العنيدة المنغلقة الذهن. لعمتي الكبرى، التي ظلت في إيطاليا، ابنة اسمها ماريا سيروتي، تزوجت من عائلة تدعى نوريرو تنحدر من محافظة شيافاري[[69]](#footnote-69). كان آل نيرورو معروفين كأطباء، صعد نجمهم عندما أسسوا لأنفسهم في غواياكيل بالإكوادور، حيث كانوا يصنعون البسكويت، والحلوى، والمعكرونة والاسباغيتي. صاروا من العائلات البارزة في الإكوادور، وعادوا بهذه الشهرة إلى شيافاري. لم يكن العثور عليهم في غواياكيل بالمهمة الصعبة. يعرف الجميع آل نوريرو. المفاجأة الوحيدة كانت أنني غريب، وتربطني قرابة بهذه العائلة النافذة الآن.

قابلت دومينغو نوريرو في مصنع العائلة، **لا يونيفيرسال**. كان مبنى كبيراً- قليل مثله بالمدينة.

وكانت معه فتاة إيطالية رائعة الجمال: هي اخته آناماريا، جاءت في زيارة من إيطاليا.

لم يكن من السهل شرح صلات القربى، لكن اسم المكان شيافاري كان بمثابة كلمة السر. كانت آناماريا تعيش في شيافاري. ودمينغو هو الآخر يملك منزلاً هناك، وأمهما تعيش هناك في هذه اللحظة.

عقدنا اجتماع لمّ شمل في مكتبه بالطابق الثالث، الذي غزته رائحة بسكويت الشيكولاتة. كان دومينغو طويلاً رفيعاً، يميل إلى الملامح الإنجليزية أكثر، وقد تذكر زيارة جدتي إلى إيطاليا. كان جده قد أسس المصنع في غواياكيل ولدى وفاة الرائد، انتقلت الأعمال إلى فيسينتو، والد دومينغو الذي تقاعد بسبب سوء حالته الصحية واهتمامه بتأريخ الإنكا، والآن أضاف إلى مجموعته الكبيرة بالفعل من أدب حقبة ما قبل كولومبس تأريخاً، إذ ألّف دراسات تأريخية حول الموضوع، نشرها مؤخراً باللغة الإيطالية، عن تأريخ إكوادور في الحقبة قبل الكولمبية.

كان دومينغو في عامه السابع والعشرين، تزوج وهو ابن تسعة عشر عاماً، زوجته شقراء تشبه العصافير، وطفلاهما في وسامة الأمراء. يخته، *فايرا*، راسٍ على نهر غواياس، وسيارته الشيفروليه إمبالا تقف في المصنع، بينما يركن الجيب، والمرسيدس في قصره بضواحي المدينة. لكنه كان، بالنظر إلى ثروته الكبيرة، رجلاً متواضعاً، وإن كان حزيناً بعض الشيء بسبب تحمله عبء إدارة العمل بكامله.

قال:"لم تكن لي أدنى فكرة عما لديَّ من أقارب كثيرين في الولايات المتحدة. لكن هل تعلم كم لديك من أنسباء في جنوب أمريكا؟ انتشر أفراد آل نوريرو في جميع أرجاء القارة- تمتليء بهم تشيلي."

ربما كان مَنْ رأيتهم ولعنتهم في كولومبيا والإكوادور من لحمي ودمي. تمثل الدليل في فيلا دومينغو، تشبه ذلك النوع من المباني الذي رأيته في أنحاء أمريكا الوسطى وهذا الجزء من أمريكا الجنوبية، وقد جعلني أشك في مدى قابلية النظام القديم للتغيير. كانت هذه مشيدة على الطراز المغاربي، وبأعمدة وبلاط عربي. وبها مسبح بخلفية طبيعية- أشجار الليمون، والنخيل، وأحواض الزهور المنسقة. كان الشعار المنقوش على درع العائلة يقول: *DEUS LO VULTE* أي ما شاء الله، أو بحسب إرادة الله[[70]](#footnote-70).

احتسينا الشراب، وتحدثت مع فيسنتي الكبير، وهو رجل كريم كان رئيسا لنادي غاريبالدي فرع غواياكيل.

كان فيسنتي صورة طبق الأصل من جورجيو فيولا، الغاريبالدينو، في رواية كونراد –نوسترومو. عاش كونراد- في حياته السابقة-القبطان كورزينيوسكي-، وفي نوسترومو، ابتدع كوستاغوان لتنوب عن الإكوادور، ومثل غواياكيل بسولاكو. وبركان تشيمبورازو بجبل هيكيروتا. لم أر في الإكوادور شخصاً على طبيعته مثل فيسنتي نوريرو، ولن يبدو أقل انسجاماً في رواية كونراد أيضاً.

وقَّع أحد كتبه وقدمه لي وانطلقنا في سيارتين نحو نادي اليخوت بغواياكيل.

كنت أمضي اليوم السابق وحدي، ولم أر نادياً، وكانت الجرذان التي تتدحرج من الشجيرات، وتسقسق حول مجرى النهر قد استأثرت باهتمامي. استغرق الغداء طوال فترة الظهر. كنا نتحدث أثناء الطعام، واستطعت رؤية النهر من النافذة. كان عريضاً، تطفو على سطحه حصائر كبيرة من الأعشاب- يدعوها السكان المحليون "الخسّ"- بالإضافة إلى جذوع وأغصان الأشجار، وجعله هذا الحطام والركام أشبه بسيل موسمي أكثر منه نهراً. لكن على الرغم من أنَّ غواياكيل بدت مكاناً متسخاً بالكامل، إلا أنَّ لمَّ الشمل العائلي هذا خفف من وطأة ذلك، حتى إنّه ذكرني بما يربطني بهؤلاء المغامرين. كنا جميعنا نحاول الاستفادة من العالم الجديد، حتى أنا بحذائي المانع للتسرب، ومفكرتي كنت أنهب المكان بعيّني آملاً في نقل بعض الانطباعات.

كانت آناماريا تعمل أيضاً. كان زوجها وطفلاها في إيطاليا. هذه رحلة عمل، كما قالت لي، بلهجة إيطالية جنوية:" أقوم بالكثير من الأعمال، أصنع أجزاء للمراحيض، وإبر حقن مخصصة للاستخدام مرة واحدة، وهذه." أبعدت خصلة عن عينيها واشرأبت عبر الطاولة ملتقطة علبة فارغة بأناملها الرقيقة. "أنا أصنع العلب. أصنع كل شيء."

سألتها: " أتربحين المال؟"

قالت: "نعم، المال- أجني المال" ضحكت. "ولكني مولعة جداً بالطبخ في المنزل."

قال لي دومينغو: " لم تقل لي سبب مجيئك لغوايكيل،"

كان شرح مسألة القطار معقدًا للغاية. قلت أنا أقدم محاضرة في مركز ثقافي محلي، ثم أسافر بالاوتوفيرو عائداً إلى كيتو.

قالت آناماريا :" هذا رائع، عندما تفعله مرة واحدة."

أشاروا إلى محطة القطار، التي كانت تقع على الضفة الأخرى من النهر الملوث، في ديوران. قالوا إنّهم لم يركبوا القطار من قبل، ولكن هذا لم يفاجئني. كنت في أمريكا اللاتينية لفترة طويلة بما يكفي لمعرفة ما كان من وجود ارتباط بين القطارات والتنميط الطبقي،إذ لا يستقلها أو يعرف عنها شيئاً سوى المعوزين، والمعاقين، والحفاة، والهنود، والفلاحين من أشباه المعتوهين.

لهذا السبب كانت القطارات فرصة ممتازة للتعرف على المشكلات الاجتماعية وروعة المناظر الطبيعية بالقارة.

قال دومينغو: " آمل أن تأتي إلى غواياكيل مرة أخرى." ثم افترقنا: ذهب آل نوريرو إلى أشغالهم المربحة، وأنا إلى الاستنزاف غير المربح- محاضرة حول الأدب الأمريكي. والتذكرة التي وُعدت بها؟

قال موظف السفارة في غواياكيل: لقد حاولنا تأمين مقعد لك، لكن الحجز كان كاملاً طوال الأيام القليلة القادمة. إن أردت البقاء في غواياكيل لفترة من الوقت سنتمكن من الحصول على واحدة لك، لكن لا أعدك بشيء."

سألته: " لماذا كان هذا القطار شعبياً للغاية؟"

قال:" إنّه ليس شعبياً، بل صغير الحجم فقط."

في إحدى الليالي بغواياكيل، قال لي رجل إيرلندي في منتصف العمر يرتدي بزة صارخة بنقش الشطرنج.

"ربما لن تصدق ما سأقوله له."

قلت: " اعطني فرصة."

كان دمث الخُلق، رقيق الصوت، ولم يكن أنيقاً في هندامه، كمن لم يعتد على التنسيق بين البدلات وربطات العنق.

مزج صراحته بحميمة همس لا تخلو من روحية. خمنت أن يكون قسيساً.

قال:" كنت قسّاً يسوعياً، أمضيت خمسة عشر عاماً في الخدمة الكهنوتية. خدمت كمبتديء في إيرلندا وروما، وذهبت إلى الولايات المتحدة بعد رسامتي. وعملت في الإكوادور مبشراً لفترة من الوقت، ثم في أبرشية بنيويورك. اعتدت على الذهاب إلى بلفاست بين وقت لآخر لمقابلة عائلتي. كان أمراً سيئاً للغاية في عام اثنين وسبعين- الفظائع البريطانية في يوم "الأحد الدامي". عُذِّب أخي، وحُرقت أختي أمام منزلها. كنت مصدوماً للغاية. كانوا يقولون:" قدم عظة المحبة لإخوتك،" ولكن كيف يسعني أن أعظ أهلي بالمحبة، بعد ما رأيته. بالطبع لم يحدث الأمر هكذا- لم أُصدم بين ليلة وضحاها. بلساورتني شكوك سبع سنوات، ولكن بعد تلك الرحلة صرت في حال سيئة. وعندما عدت إلى نيويورك، قصدت أسقفي وطلبت إذناً للغياب ستة أشهر. كان أمراً طبيعياً جداً، أنت تعلم أنَّ القسس بشراً. يشربون كثيراً أحياناً، ولديهم مشكلات شخصية- يحتاجون الوقت للملمة شتات أنفسهم. لن تكون لديَّ واجبات إن حصلت على إذن الغياب. ليس عليَّ أداء القداسات، ولا المساعدة في مراسمها. أتعلم ما أنا بصدد الإفصاح عنه؟ " كان أسقفي مذهولاً، لم يصدق ما قلته له. قال إنّه جهّز قائمة بالقسس المرتابين. وأنّه قد كتب هذه القائمة فعلاً، باسماء الكهنة الفاسدين الذين خالهم سيتركون الخدمة الكهنوتية عاجلاً أم آجلاً.

لم أكن في القائمة. ولكنه أعطاني إذناً بالغياب لا يختلف عن ذلك، وقال لي:" ستعود." " كان لدي وقت- لم يذهب وقتي في الخدمة الكنسية. وهكذا حصلت على وظيفة في بيع بوالص التأمين. هل نجحت فيها! بعت بوالص التأمين في جميع أنحاء نيويورك. ساعدني عملي كقسيس، أفترض أنك لن تضر بإيمانك إن أردت بيع بوالص التأمين. لم أهتم كثيراً للمال. كان الناس هم مثار اهتمامي، أتحدث إليهم في منازلهم. ولم يعرفوا إني كنت قسّاً. كنت مسوّقاً، أترى، أبيع البوالص بلا هوادة." عدت إلى أسقفي في نهاية الشهور الستة، وطلبت منه إذناً إضافياً للغياب.تفاجأ، نعم، لكنّي لم أكن في قائمته. بل ابتسم لي وقال مرة أخرى. "أعلم أنك ستعود." ولكني عرفت أنني لن أفعل.

"ما أسهل أن تكون قسّاً أليس كذلك؟ حسناً، أنت لن تعلم هذا. ولكنه أمر سهل. كل احتياجاتك مكفولة. لا تدفع أجرة، ولا تشتري طعاماً. لا طبخ، لا تنظيف. وتحصل على الهدايا. " أتحتاج سيارة، أبتِ؟" " هذا شيء صغير لأجلك، أبتِ"، "هل من شيء أقدمه لك أيها الأبّ؟ فقط سمه." لا أريد ذاك، ولا أريد الاستمرار في بيع البوالص- فهذا يشبه أن تكون قسّا على نحو ما. لم أستطع الذهاب إلى المنزل، ولم أستطع البقاء في نيويورك. عرفت شيئاً واحداً- أرغب في الخروج.

" قمت بآخر زيارة إلى بلفاست، رأيت الأسرة، وكانت الأحوال السياسية سيئة كما هي دائماً. رافقني أخي إلى الطائرة، وبينما كنا نسير قلت لنفسي: لن تراني مرة أخرى. كان هذا أصعب شيء فعلته على الإطلاق. أصعب من ترك الخدمة الكهنوتية- إعطاء ظهري لأخي، والسير باتجاه الطائرة. جئت رأساً إلى الإكوادور. ووجدت السعادة هنا دائماً، وكوّنت صداقات. كان هذا قبل سنوات. تزوجت من إكوادورية. لم أكن في حياتي أسعد مني الآن. لدينا طفل عمره أربعة عشر شهراً، وآخر في الطريق-لهذا هي ليست معي اليوم. هل أرتاد الكنيسة؟ طبعاً أفعل. لقد تركت الكهنوت- لكني لم أترك الذهاب للكنيسة. لا أفوّت قداساً. أذهب للاعتراف. أترى، عندما أذهب للاعتراف لا أتحدث للكاهن، أتحدث إلى الله. لدي وظيفة هنا. وهي ليست بالوظيفة المهمة، لكني سأظل هنا لبعض الوقت. أصعب شيء ألا تستطيع إخبار أحد. ماذا تقول، " تركت الكهنوت. تزوجت، لدي أطفال." لا أحد يعرف. سيكون الأمر صعباً على والدتي. ولكن الأشياء الطريفة تحدث، أشياء غريبة. كتبت لي أختي قبل سنوات قلائل. قالت: " إن قررت أن تستقيل فسنتفهم." لماذا قالت ذلك؟ في عيد الميلاد الماضي، أرسلت لي أختي الأخرى المال. قالت:" قد تحتاج هذا." لم يسبق أن فعلت هذا من قبل- الكهنة لا يحتاجون المال. ولكني لا أستطيع مواجهة أمي. أعتقد أنَّ عليَّ المعاناة وحدي دائماً حتى أوفر على الآخرين الشقاء. هل عرفت أمي؟ لا أعرف مدى قدرتها على التفهم. أتعرف ما أقول لك؟ أمر مثير للشفقة جداً. أحلم بالعودة إلى الوطن. وفي واحد من هذه الأحلام، كنت في بلفاست. رأيت منزلي القديم، وسرت إلى الباب الأمامي. لكني لم أستطع الدخول- تجمدت هناك على الدرج، وسرت مبتعداً. يراودني هذا الحلم كل أسبوع.

"آهـ، نعم أراسل أسرتي طوال الوقت. خطاباتي- تلك الرسائل عن نفسي في الأكوادور، والأبرشية وما إلى ذلك- كانت قطعاً أدبية. ليس فيها كلمة صدق واحدة.

أعرف أنّ إخوتي وأخواتي سيتفهمون، لكن أعتقد أنّها ستقتل أمي. إنّها فوق الثمانين من عمرها. لقد أرادتني أن أكون كاهناً، وهي تعيش من أجلي.ولكن عندما تموت سأغادر إلى بلفاست في اليوم التالي- سأكون على متن الطائرة في لحظة. هذا هو ما يؤلمني أكثر شيء. لا يمكنها معرفة أحوالي. وأنا لا أستطيع رؤيتها مرة أخرى.

"هل تعتقد أنَّ عليَّ الكتابة عن ذلك؟ أتمنى ذلك لكني لا أستطيع الكتابة. سأقول لك يا بول- أكتب أنت عنه. ستكون قصة رائعة أليس كذلك؟"

***© © ©***الهنود بالنسبة لذاك الإيرلندي كانوا أشخاصاً مقموعين لم يُمنحوا فرصة، وبالنسبة لخورخي إيكاثا، كان الهنود من بيدهم مفتاح جميع الحضارات، وفي رأي أقاربي البعيدين، آل نوريروس: الهنود مميزون، ولديهم ماض مجيد، أما البقية الغالبة فيرون الهنود عمالاً لقطع الأخشاب وسحب المياه، وفيهم غباء.

سمعت رأياً آخر في غواياكيل. السيد ميدينا كان إكوادورياً عازباً، يميل إلى التعقيد، ذا شارب رفيع ورأس ضيق، وعينين رماديتين حادتين. كانت ربطة عنقه معقودة بعناية، وبنطاله مطوّيًا بدقة، وأطراف حذائه لامعة حادة- كان من الصعب تصديق أنّ هناك خمسة أصابع في هذه الأطراف المعقوفة.

بدأنا الحديث حول الجرذان. كان بعض الناس يسمم الجرذان أوينصب لها الفخاخ، كما قال، ولكن هناك وسيلة فضلى. إن استخدمت أنيناً حاد النبرة لا تطيقه الأذن البشرية،سيكون له أثر طارد للجرذان- فاق الضجيج قدرتها على التحمّل. كانت طواحين الهواء المحلية محاصرة بالفئران، لكن كان هذا الصوت عالي النبرة- أعتقد أنَّ اسمه "الرنين"- ناجعاً. كانت الجرذان تحبس أحياناً في الغرف وتُعالج بالصوت، ويُعثر عليها في الصباح وهي ميتة: كان الصوت بالنسبة لها تعذيباً حتى الموت.

قلت: "لمشغّل الموسيقى ذلك الأثر عليَّ، خاصة مشغّلات الموسيقى الإكوادورية."

قال: "لا يمكنك سماع هذا الصوت مع إنّه يسبب الصداع لبعض السيدات، أتمنى لو يوجد شيء مماثل يمكن استخدامه على الهنود."

قلت: " يا لها من فكرّة طيبة."

نظر لي وعلى وجهه ابتسامة رقيقة. " مشكلة الإكوادور مشكلة عنصرية، الهنود كسالى. هم ليسوا كالهنود. يقومون أحياناً بقص شعرهم وأداء الأعمال، ولكن ليس دائماً. لا يوجد فقراء في الإكوادور- بل الهنود فقط. إنّهم غير متعلمين، وغير أسوياء."

" لماذا لا تعلمونهم أنتم؟ وفروا لهم الأطباء والمدارس. لهذا هم يتسكعون ساهمين فيكيتو وغواياكيل- إنّهم يعتقدون أنّ المدن قد توفر لهم ما يفتقرون إليه في الريف."

" لا فكرة لديهم، حول ما جاؤوا بسببه إلى غواياكيل. إنّهم لا يعرفون ما يفعلون هنا. إنّهم يبيعون بعض الأشياء، ويتسولون، ويعملون قليلاً، ولكنهم جميعاً ضائعون، ودائماً كانوا كذلك."

" حتى قبل أن يأتي الإسبان؟"

" بالتأكيد. هناك مبالغة في تقدير أهمية امبراطورية الإنكا."

سألته:" من يتفق معك؟"

" معظم الناس، لكنهم خائفون من قول ذلك.إن بقيت هنا لفترة أطول ستتفق معي. الإنكا- من هم- ليس لديهم ثقافة عظيمة، ولا أدب، ولا شيء. إنّها لم تبهر الإسبان. ولا تبهرني حتى الآن. لا أعرف ماذا يتحدث حوله هؤلاء الناس عندما يعرضون هذه القدور وهذه الأقنعة. ألم يروا إلى أي حدٍ بسيطة هذه الأشياء؟ الإنكا ليسوا محاربين- لم يحاربوا الإسبان. بل غُلبوا ببساطة."

قلت إنّ الإسبان وصلوا في فترة حرب أهلية. انتزع اتاوالبا عرش الإنكا من أخيه. قال السيد ميدينا:"كان الناس يؤمنون بالقضاء والقدر- اعتقدوا أنَّ الإسبان قد أُرسلوا لعقابهم. لم يكن من الصعب تعميد ثم خنق الناس الذين آمنوا بأنّهم مذنبون بالفعل. لقد كانوا عرقاً رجعيّاً"

" كان للإنكا نظام ضمان اجتماعي أفضل بكثير من أي شيء قد أنتجته الإكوادور."

"إنهم ماترى- أشخاص كسالى بذهنية مختلفة."

"أتقصد مختلفة عنك؟"

"وعنك. هذا الحديث عن الإنكا في الإكوادور فارغ-التأريخ الإكوادوري هو التأريخ الإسباني، وليس التأريخ الهندي."

قلت: "هذه العبارة تشبه المراثي. على قبر من ستكتب؟"

بدأ صبر السيد ميدينا بالنفاذ معي. جمع اصابعه معاً، وقرع الطاولة وقال:" هل تعرف ماهي الفتشية؟ إنّها ديانتهم—الفتشية. يتعين عليهم رؤية التمثال ووضع اليد على الصليب. يستمدون هذا من ديانتهم الخاصة، ومن الفظيع رؤية ذلك. إنّهم لايصدقون مالا يستطيعون رؤيته. هذا هو سبب لمس الأشياء المقدسة، والانبطاح في الكنيسة."

قلت:" يفعل الناس هذه الأمور في بوسطن، بماساتشوسيتس."

قال:" إبق في غواياكيل، ستغير رأيك."

ولكني لا أرى سبباً لبقائي في غواياكيل. بالإضافة إلى ذلك فإنّه يفترض وجود مقعد محجوز لي في الاوتوفيرو. وإن عدت إلى كيتو-كما قيل لي- ربما ركبت الاوتوفيرو إلى غواياكيل من جديد ومنهاأسافر جوّاً إلى بيرو.

قررت فعل هذا وغادرت مباشرة في الغداة. وكانت ستصل إلى كيتو على تلك الرحلة التي ذكرتني بعبثية السفر جواً، وكيف أنّه غير مجدٍأنْ سجَّل كل وصول ومغادرة في لمحة عبر زجاج النافذة: تحتنا ينبسط نسيج مطوي من الحقول المحروثة، ومظهر مدينة في الإنديز مثل قرية من الدمى. لا شيء سوى ذلك. إن كنت سأسافر فلا بد أن يكون براً، حيث لكل موقع، وكل مكان رائحته الخاصة، وعرفت أنني إن حاولت تدوين ما أراه من مصغّرات عبر نافذة الطائرة، سأبدو كرجل على القمر.

وبالعودة إلى كيتو رحّب بي الأشخاص الذين التقيتهم في الأسبوع الماضي كما لو أنني صديق قديم. قصر فترة السفر في العادة تزيد من قوة الصداقة وتتحول إلى حميمية. ولكنْ كان هذا قاتلاً بالنسبة لرجل يحاول اللحاق بقطار ما. كأنني، بينما أكتب هذه السطور، كنت ألمّح باحتشام إلى استمتاعي بعلاقة شغوفة كانت تمنعني من المضي قدماً. (" يوم واحد فقط، عزيزتي، ثم امضِ إلى حال سبيلك وافطري قلبي...") ليس الأمر كذلك، بل كان عملاً أبسط وأنظف، ولكنه ما زال يعني التأخير. لقد تحملت الغرباء لكن الأصدقاء يتطلبون اهتماماً، ويثيرون فيَّ مشاعر الافتضاح. كان من السهل السفر وحدي، دون الكشف عن هويتي، وأنا أبرم شاربي، وأنفخ غليوني، خارجاً وأنا أقفز من مدينة ما فجراً، وكانت جنوب أمريكا معضلة جغرافية لا تُفهم إلا عندما يكون المرء متحركاً: البقاء في مكان واحد كان محيّرا. يشكو الناس من بربرية الأماكن لكن طالما كان الأمر يعنيني فليس بربرية بما يكفي.

قال لي الكاتب ف. س. بريتشيت قبل أن أنطلق مغادراً:" الإكوادور لطيفة، بطريقتها الخاصة." وهي كذلك، ولقد شعرت أنني سأعود إليها حتماً، لأنّي عندما حصلت أخيراً على تذكرة قطاري، كان الأوتوفيرو قد غادر بدوني.

============

**---**

**-16-**

**قطار سييرا**

**---**

*كان اسم* محطة السكة الحديدية الجميلة بلونها الكريمي في ليما هو ديسامبارادوس، وهي مفردة تعني " المهجورة." إلا أنَّ الكلمة كانت كقطعة من الحزن الذي لا أساس له، حتى جاء قطار سييرا عابرّا السهول إلى تشوسيكا، وصاعداً الجدران الوردية لوادي ريماك الضيق، وهنا، بدأ الركّاب يمرضون، عرفت هذا من زيادة ضربات قلبي في بوغوتا، و خمولي الخانق في بنما، لحد أنني كنت على وشك الإصابة بدوار المرتفعات، كان المضيق الصاعد الذي مررت به في الطريق إلى تكليو يشبه عرضاً عضوياً بقدر ماهو منظر طبيعي: إذ عانيت أثناء صعودي جبال الانديز، لكنني حسبتها الأجدر بين جميع رحلات القطارات في العالم بلقب السفر حتى الغثيان.

هدد عمّال السكة الحديدية في بيرو بالإضراب، ولكن على الرغم من أنّ هذا مجرد إشاعة، فقد عززت من احتمالاته السطور المكتوبة على جدران واجهات الكنائس والأديرة الناعمة.: *اسقطوا مع الاستعماريين والظالمين، ادعموا عمّال السكة الحديدية، و المزيد من المال!* وقد تكررت في هذه النصوص المرتجلة بخط عريض كلمة *اضربوا*، ولكن الكلمة الإسبانية التي تدل على معنى الإضراب تعني أيضاً الراحة أو العطلة، لذا يمكن فهم الكلمة في جميع أنحاء ليما على أنّها "اهدأوا"! فإن كان عمال السكة الحديدية لصوصاً أدعياء يستغلون فترة الارتباك السياسي لرفع مطالب غير معقولة، لكنت أشد ثقة بفرصتي في رؤية الإضراب المتوقع من خلال تدخل بعض المحكّمين معسولي الحديث، لكن لم يكن هذا تمثيلاً، لأنّ أجور عمال السكة الحديدية- وعمال بيرو جميعهم في الحقيقة- كانت جد مجحقة. رُصدت في بقية أنحاء أمريكا اللاتينية استفزازات العمّال أو مطالبهم البسيطة، حيث أخفق تزوير الانتخابات، ونجح رجال الجيش والشرطة. كانت بيرو قديما مملكة ذهبية تحتل ثلث القارة، وقامت بقفزة عالية، حيث بدت، في سيماء الهزيمة، عاجزة عن منح هؤلاء العمّال المتذمرين أيّ أمل. لذلك ليس هناك سوى القليل من مدن العالم العظيمة ما يفوق ليما في مظاهر الاستلاب والإفلاس. إنّها ملامح رانغون، الحرارة ذاتها، وأطلال الاستعمار وروائح الجثث: المسيرات الاستعمارية التي سارت قبل وقت طويل بعيداً عن شوارعها ولم تترك للمتفرج سوى البحث والرجاء. ومذاك ظل وصف المكسيك: "مدينة إسبانية مهمة اشتهرت بهندستها المعمارية سابقاً" يزعجني بشدة، فلم تسقط مدينة مثل ما فعلت ليما. مثل ضريح منتهك، لم تبق منه سوى مؤمياء القومية الذاوية، وما يكفي من الدين بالضبط لتعزية جمع صبور بوعد الفرج الأجمل بعد الشدة. كانت ليما – باعتبارها رمزاً لبيرو- أنموذجاً حزيناً لسوء الإدارة الفادح. كان خطاب الحكومة الرسمي مضللاً وبارداً، وزاد من أوار غضب عمال السكة الحديدية الجائعين شعورهم بالخيانة. كنت أشعر بأنّ أي إضراب هنا سيكون مسألة مزمنة، لذلك غادرت ليما على قطار إلى خوانكايو في أول سانحة. وبعد الوصول إلى آخر محطات الجبال، أردت الذهاب براً إلى كوسكو عبر اياكوتشو، وهناك بدأت رحلة الهبوط الطويلة في بوليفيا والارجنتين إلى نهاية الخط في باتاغونيا.

كانت خطة سريعة، لكنْ كيف لي أن أعلم خلال ثلاثة أيام أنني سأعود إلى ليما محاولاً إيجاد طريق آخر إلى كوسكو؟ كان نهر الريماك يجري بمحازاة محطة السكة الحديدية. في الساعة السابعة صباحًاكانت السماء سوداء، ثم أصبحت رمادية عندما صارت الشمس فويق سفوح الإنديز. الجبال الرملية على الحدود منحت ليما شعور مدينة صحراوية تنتهي في أحد أطرافها إلى هضاب حجرية. لا تبعد عن المحيط الهاديء سوى أميال قليلة، ولكن الأرض على درجة من الانبساط لا تسمح برؤية البحر الذي لا تهب نسماته في ساعات النهار. المطر نادر في ليما. وإن هطل، ستحتاج الأكواخ في مدينة الصفيح على ضفة نهر الريماك- التي تقدر بعدة آلاف- إلى أسقف.

بمدينة الصفيح العشوائية شيء من الغرابة، بجانب كونها خالية من الأسقف تماماً، الأكواخ في هذه "القرية اليافعة" بحسب العبارة البيروفية، مصنوعة من القش، والقصب وسيقان البامبو المشقوقة. إنّها سلال صغيرة هشة بلون الكاكاو، مفتوحة على النجوم والشمس، منصوبة بجانب النهر، الذي يبعد أميالاً قليلة عن المحطة. يغسل الناس في مياه هذا النهر، ويشربون منها، ويستخدمونها في الطبخ، وعندما تموت كلابهم، أو عند الرغبة في التخلص من أحشاء الدجاج، يودعون النهر هذه النفايات.

"لا يعني هذا كثرة مرات تناولهم الدجاج." قال لي أحدّ البيروفيين في القطار شارحاً، "كان النهر شريان حياتهم، ومصرفهم الصحي".

بالسفر عبر هذا السهل، لم يتضح منذ البداية كيف يمكن شق هذا الطريق إلى الجرف في الطرف الآخر- فقد بدا منحدراً للغاية، وعارياً جداً، وشاهق الارتفاع، الوديان هنا مجرد شقوق رأسية، وليس ثمة أثر لأشجار أو بشر في أي مكان من هذه الجبال. نظّفت حرقاً، فصارت صقيلة كصخرة عارية. ظلت واجهات الجبال بعيدة على مدى خمسة وعشرين ميلاً، وبدا القطار سريعاً على نحو خادع، ينحدر على طول النهر، ثم يتوقف في كوسيكا. استأنف السير بعد خمس دقائق، ولكنه لم يعد يسير بتلك السرعة التي كانت في بداية اندفاعه.

دخلنا الوادي وتعرّج المسار على جدرانه. كان واديا بالكاد، بل إنّه شق في الصخور، شق من الضيق حتى إنّ صدى صفارة الديزل تلك بالكاد يتردد في جوفه: كانت الجدران أقرب إلى بعضها من أن ترجّع الصدى.

من المفترض وصولنا إلى في الساعة الرابعة، وفي منتصف فترة الصباح اعتقدت أنّ رحلة الوصول ستستغرق وقتاً أقصر، ولكن تباطأ تقدمنا في الظهر حتى تساءلت إنْ كنا سنصل إلى خوانكايو في ذلك اليوم أم لا. راودتني هواجس الإصابة بإعياء المرتفعات قبل مسافة طويلة من تيكليو. لم يكن الخوف بادياً علىّ وحدي، بل وعلى عدد من الركّاب الآخرون، بعضهم من الهنود.

يبدأ الأمر بالدوار، وصداع خفيف. كنت أقف بجانب الباب أستنشق الهواء البارد في هذه الجروف الظليلة. جلست وأنا أشعر بالارتعاش، وإن لم يكن القطار ممتلئاً لاتكأتُ بعرض المقعد. بعد ساعة كنت أتصبب عرقاً، ورغم أنني لم أتحرك من مقعدي، فقد كنت أتنفس بصعوبة. سبب لي بخار العرق في هذا الهواء الجاف رعشة ممرضة. كان الركاب الآخرون هامدين، رؤوسهم تهتز، ولم يتحدث أو يأكل منهم أحد. أخرجت بعض أقراص الاسبرين من حقيبتي، ومضغتها، فلم يزدني ذاك إلا مرضاً، ولم يسكن ألم رأسي. أسوأ شيء في الشعور بالمرض الشديد أثناء السفر هو أنك تعرف إن حدث خلل ما بالقطار- انحراف أو اصطدام- ستكون أضعف من أن تنقذ نفسك. كانت تراودني فكرة أشد رعباً: كنا ربما في ثلث الطريق إلى خوانكايو، ولكن خوانكايو كانت أكثر ارتفاعاً، فخشيت التفكير في ما قد يكون عليه شعوري وأنا في ذلك الارتفاع.

فكرت في النزول عن القطار في ماتوكانا، ولكن لم يكن فيها شيء- بعض العنزات، وثلة من الهنود، وأكشاك مسقوفة بالصفيح على أرض صخرية. لم تشتمل أي من المحطات على ما قد أرى فيه خلاصاً أو ملاذاً. ولكن كان لإعياء المرتفعات هذا جانب عقابي آخر: لقد أفسد علي هذه الرحلة التي بشرت بالجمال الساحر. لم أرَ جروفاً مثل هذه من قبل، ولم أكن أسافر على خطوط في ضخامة هذه الخطوط الحديدية. لماذا كان شعوري مثل كلب مريض في هذا المنظر الذي تكاد عذوبته لا تُصدق؟ تمنيت لو كانت لي القدرة على التركيز- لكنت مندهشاً، ولكن ماحدث أن غدا الجمال إزعاجاً استثنائياً.

الجبال الوردية الشاحبة تحلّت بخطوط غامقة، ورُصِّعت بنقوش من أرق أصداف الحلازين. كان ضرباً من التعذيب شديدٌ أن أكون سقيماً بينها، منهاراً في مقعدي، أراقب الصخور الحمراء تنزلق بهدوء في الوديان، وتشكيلات واجهات الجروف تتغير مع كل تغيير في الارتفاع، حتى إنني بدأت في ربط شدة الجمال بشدة الألم. كانت هذه المرتفعات الحسناء سبباً في مرضي. والآن تؤلمني أسناني، بدأ أحد الأضراس الطواحن يؤلم كما لو أنّ ناراً مسّت عصبه. لم أعرف عندها كيف يلتهب تجويف ضرس متضرر في الأماكن المرتفعة. يتمدد الهواء في هذه الحفرة المغلقة، وينشيء ضغطاً في العصب، ثم يؤلم. كان طبيب الأسنان الذي أخبرني بهذا في القوات الجوية. في إحدى المرات وأثناء هبوط طائرة بحدة، انخفض الضغط في قمرة القيادة، وصرخ أحد رجال قوة الجو- الملّاح- من الألم، ثم انفجر أحد أضراسه. بدأ بعض ركاب القطار يتقيأون. فتقيأوا بذاك الأسلوب المثير للرثاء دون حرج كما يفعل الناس عندما يشتد بهم المرض. تقيأوا على الأرضية، وخارج النوافذ، وزادوا من حدة غثياني. بعضهم كما لاحظت كانوا يندفعون عبر العربات. اعتقدت أنّهم يبحثون عن مكان للتقيؤ، لكنهم عادوا وهم يحملون بالونات. بالونات؟ جلسوا وهم يمسكون بأنوفهم ويتنفسون الهواء من فم البالون.

وقفت مضطرباً واتجهت ناحية الجزءالخلفي من القطار، حيث وجدت رجلاً بيروفياً يرتدي جلباباً، ويملأ البالونات من حاوية أكسجين.

كانوا يناولها للركاب الذين بدا عليهم الكرب، وطفقوا يتنفسون منها ممتنين. أخذت مكاني في الصف، واكتشفت أنّ بضعة أنفاس من الأكسجين كافية لتصفية ذهني، ومساعدتي على التنفس.

كان هناك صبي في عربة الأكسجين تلك، لديه بالون أكسجين هو الآخر، ويرتدي قبعة راعي بقر أنيقة، مزينة بحلقة من مشغولات الحصير الهندية.

قال: "إن علمت أنّها ستؤول إلى هذا، ما كنت سآتي أبداً"

"لقد أخذت هذه الكلمات من طرف لساني."

"هذا الأكسجين ناجع. هل أشعرك بالاشمئزاز يا فتى؟"

تنشقنا الهواء من البالونات.

"هل أنت من الولايات؟"

قلت:" ماساتشوستس."

" أنا من مينسوتا. منذ متى في ليما؟"

قلت: " يوم واحد"

قال: " إنّها ليست بذلك السوء، كنت هناك لشهر من الزمن. إنّها واحدة من أقل مناطق أمريكا الجنوبية كلفة. يقولون إنَّ كوسكو تفوقها في ذلك. أعرف أني سأمضي شهراً أو نحوه هناك، ثم أعود إلى ليما- أحصل على وظيفة في سفينة." نظر إليَّ وقال :" من الذكاء اقتناؤك هذه الملابس الدافئة. تمنيت لو كان لي معطف كذاك. كل ما لدي هي هذه الأشياء التي حصلت عليها من ليما. سأشتري كنزة عندما أصل إلى خوانكايو- إنّهم يصنعونها هناك. بوسعك أن تحصل على كنزات صوف الألبكة بثمن زهيد للغاية. يا إلهي هل أشعرك بالاشمئزاز؟"

دخلنا نفقاً. اجتزنا أنفاقاً أخرى من قبل، ولكن كان هذا طويلاً، وبه أمر مميز: كان على ارتفاع 15.848 قدماً، أعلى نفق سكة حديدية في العالم. كان ضجيج القطار عالياً-يصمّ الآذان في الحقيقة- ولا أعتقد أنني شعرت بإعياء أشد من هذا في حياتي. دفعت بآخر جزء من الغاز في فمي، ابتلعته، وحصلت على بالون آخر.

قال الرفيق الذي من مينسوتا :أشعر بالرغبة في التقيؤ." في الضوء الأصفر الشاحب وبقبعة راعي البقر فوق عينيه، بدا هامداً، ومصدوماً بشدة. لم أشعر أنا نفسي بالعافية، ولكن عندما خرجنا من نفق غاليرا، عرفت أنني اجتزت أعلى نقطة، ونجوت منها. كنت متأكداً من أنني سأصل إلى خوانكايو.

قلت: " إلى أين تتجه هذه السفينة، التي تريد الحصول على وظيفة فيها؟"

قال: " الوطن، سأخذ واحدة إلى الولايات. إن كنت محظوظاً سأعود بحلول نهاية شهر أبريل. أنا شديد الرغبة في رؤية مينابوليس في الربيع."

"هل هي جميلة مثل هذا المكان؟"

"إنّها أفضل من هذا."

كنا الآن على ارتفاع يكفي لرؤية الجهة المقابلة لجبال الأنديز. سلسلة الجبال بكاملها التي في بعض منحنياتها كانت واضحة لمئات الأميال. إنّها ليست قممًا منعزلة، بل تجمعات منها تلتصق ببعضها البعض، ومما يثير الدهشة تزيد ألوانها سطوعًا مع تعمّق المسافة. سألت المينسوتي كيف خطط للوصول إلى كوسكو. قلت لنفسي كان في ليما لمدة شهر، ومعلوماته ستكون جيدة. قال إنّ هناك حافلة، وإن كنت مهتماً سنستقلها معاً. لا تكلف الكثير، لكنه سمع أنّها تستغرق أربعة أو خمسة أيام لتصل إلى كوسكو. يعتمد الأمر على الطريق. كنا في فصل المطر: سيكون الطريق إلى أياكوتشو سيئاً. في لا اورويا، تفرع الخط- يذهب الخط الآخر شمالاً إلى مناجم القصدير والنحاس بسيرو دي باسكو- كان قطارنا قد تأخر. لا أورويا نفسها كانت بائسة وباردة. وصل الأطفال إلى الرصيف للتسوّل، وحمّلت الحقائب. جعل السير حلقي يحترق، لذا جلست وتساءلت إنْ كان علي تناول شيء من الطعام. كان هناك هنود يبيعون البضائع المحاكة- الأوشحة والعباءات- وأيضاً الكعك المقلي، وقِطعًا محروقة من اللحم. شربت كوباً من الشاي الحامض، وتناولت المزيد من الأسبرين. كنت أشد توقاً للعودة إلى القطار حتى أحصل على بالون آخر من الاكسجين. وعندما صعدت، تعثرت امرأة هندية مسنة على الرصيف. كانت تحمل ثلاث حزم- ملابس، وحزمة من أوراق الجرائد الملوثة بالزيت، ومصباح كيروسين. ساعدتها لتنهض. شكرتني وأخبرتني باللغة الإسبانية أنّها كانت ذاهبة إلى خوانكافيليكا، على بعد أميال قليلة من خوانكايو. "وإلى أين تذهب أنت؟"

أخبرتها ثم سألتها إنْ كان الناس هنا يتحدثون الكيتشوا، لغة الإنكا.

قالت: "نعم، تلك هي لغتي. يتحدث الجميع الكيتشوا هنا. سترى في كوسكو."

زحفنا طوال ما تبقى من فترة الظهيرة باتجاه خوانكايو، وكلما تقدمنا، زاد إعجابي من إنجاز هذه السكة الحديدية الجبلية. وقد عُرف على نطاق واسع أنّها من تخطيط الأمريكي هنري ميغز، لكنها في الحقيقة من إنجاز البيروفي ارنستو مالينوسكي الذي قام بمساحة المسار، وأشرف ميغز على المشروع وروّج له، من بداياته في 1870 حتى وفاته في 1877. إلا أنَّ الخطوط الحديدية لم تصل إلى خوانكايو قبل عشرين عاماً آخرى. وعلى الرغم من اقتراح خط يقطع سلسلة الانديز من خوانكايو إلى كوسكو ومسحه منذ عام 1907، إلا إنه لم يبن أبداً. الخط الذي إن بُني لكنت أكثر تفاؤلاً بوصولي إلى البلدة الجبلية الموحلة، كما كان، شعرت بإعياء سلبني القدرة على الأكل، ودوار منعني الاستمرار، أو فعل أي شيء سوى الاستلقاء على التخت وأنا أرتجف. ما زلت أرتدي معطفي الجلدي، وأقرأ قصائد جون دون ونسكياته. كانت أشياء غير مريحة في ليلة باردة بجبال الانديز: *مثلما المرض هو التعاسة العظمى، تعاسة المرض العظمى هي العزلة، عندما تمنع عدوى المرض أولئك الذين يقدمون المساعدة من الحضور، حتى الطبيب نادراً ما يجرؤ على المجيء،إلاعزلة هي عذاب لا يتهددك حتى في الجحيم.*

ثمة شيء مافي جدران جميع غرف هذه البلدة، وشوارعها الموحلة التي تقود إلى خارجها، يجعل عزلتها واقعاً ملموساً، يبث بردها شعوراً محسوساً بالبعد. لم اضطر إلى البحث في الخارطة لمعرفة موقعها القصيّ النائي.

لكني استيقظت في اليوم التالي بفكرة. بدلاً عن سؤال ساكني البلدة عن الطريق إلى كوسكو، سأذهب إلى محطة الحافلات، وأتحدث لمن وصلوا لتوهم بالحافلة عبر طرق الإنديز من كوسكو. كنت على نحوٍ ما سعيداً بذاك التفكير المرتاب، اعتقدت أنّ هناك طريقًا واحدًا يؤدي إلى كوسكو، وكنت مصمماً على اتباع المسار عبر جبال الانديز، لكني بعد إدراك وجود عدد من الخيارات المتاحة لي، كان بوسعي اختيار أفضلها، وأسهلها وإن كان يعني العودة إلى الوراء. كانت الرحلة إلى خوانكايو سيئة، ولكن ماذا لو كانت الرحلة القادمة أسوأ؟

أمضيت الجزء الأكبر من الصباح في الثرثرة مع الركّاب الذين نزلوا من حافلات اياكوتشو. كان الكثيرون غامضين، دائخين من طول السفر، ولكن أخبرني الفصحاء منهم أنّهم تأخروا بسبب المطر والانهيارات الأرضية. اضطروا للنوم في حافلاتهم، وكان اثنان فقط ممن تحدثت إليهم قد زارا كوسكو بالفعل.لقد جاءوا إلى هنا براً لأنه كان الطريق الوحيد المتاح لهم- كانوا يقيمون في خوانكايو.

توجد حانة قريبة جداً من حيث وقفت الحافلات. حانات البيرو من القرون الوسطى. بها طاولات خشبية خشنة، وجدران رطبة، وأرضيات متسخة. ترى الكلاب والدجاج في الحانات البيروفية. تباع فيها البيرة المعلبة، ولكن معظم الشاربين في الأنديز كانوا يفضلون البيرة المخمرة التي تتميز بالمرارة الشديدة والرغوة الصابونية. وهي تقدم في أكواب من البلاستيك. تكاد تطابق نوع الجعة الذي يُحتسى في قرى شرق أفريقيا. جعة الذرة الصفراء التي تغرف من قدور دهينة. استدعت جرعة من جعة خوانكايو إلى ذهني ذكريات عزيزة قديمة في بونديبوجيو بيوغندا.

قال رجل في هذه الحانة: " أتريد معرفة أفضل الطرق المؤدية إلى كوسكو؟"

كان طالبا، وقال إنّه من ليما، وكان يأمل أنّ يُنفذ هناك إضراباً عاماً حتى يفعل شيئاً بصدد ارتفاع الأسعار. " تقول إنك جئت لتوك من ليما، وإنك ربما لا تريد العودة إلى هناك- تبدو بعيدة أليس كذلك؟ ولكن ليما أقرب إلى كوسكو من خوانكايو."

قلت: " لكن كوسكو وراء تلك الجبال مباشرة."

قال:" تلك هي العقبة، إيه؟" واحتسى كوب الجعة خاصته. لاحظت أنّه لم يكن يشرب جعة محلية، ولكنه مثلي حصل على قارورة بيرة.

"السفر فوقها أسهل من عبورها. خذ قطار الصباح إلى ليما. واشتر تذكرة طائرة، ثم تكون في كوسكو بلمح البصر."

"اعتقدت أنّ السياح فقط من يستقلون الطائرة."

"ولكنك سائح."

"ليس تماماً."

"اصغ، حتى بعض الهنود" –همس بالكلمة- "حتى يسافرون بالطائرة."

عدت بالقطار إلى ليما في اليوم التالي، تاركاً الضباب والبرد لأصل إلى ديسامبارادوس في طقس شديد الحرارة. كانت هذه الرحلة بالقطار أقصر، ووصلنا في الوقت المحدد، لكن عندها، وطوال الطريق كنا نهبط إلى الأسفل.

***-----------***قال لي أحد البيروفيين في ليما يوماً ما: "اليست بيرو فظيعة؟" هذه مشاعر غاية في العداء لأمريكا الجنوبية: لا أحد قد وصل إلى هذا المستوى من انتقاد بلاده في حضوري. حتى أشد الكولومبيين تمرداً كانوا يمدحون قهوتهم، وقال الإكوادوريون إنَّ عندهم موزاً طيب المذاق. تساءلت إنْ كان هذا الرجل يسعى للإطراء، فعبرت عن دهشتي، واختلافي المتحفظ مع رأيه. أصرّ على أنني كنت على خطأ: بيرو تحكم بقسوة، وتعادي جيرانها، وتسقط بالكامل في هاوية التشظي.

لم يكن يسعى للحصول على المجاملات. قلت له: " نعم، وقد ذكرت ذلك الآن، إنّه أمر مريع حقاً."

"بيرو تحتضر. ستحدث أشياء فظيعة هنا." كان غاضباً جداً.

قلت إنني أفهم ماذهب إليه تماماً.

قال:" آمل أن تكون بيرو مختلفة عندما تأتي مرة أخرى."

كان أشد مني نقداً. لقد بدأت أعجب بليما، وقد اكتسبت بعض التصالح مع ظروفها السيئة."

لا شيء هناك يعدل الوطنا: لا شيء يشبه وطني هنا. أشعر بالحنين إلى الوطن في الأماكن التي تُشترى فيها المكانس الكهربائية، أو تُدفع فواتير الكهرباء. كان بالناس في ليما شيئًا من الضياع مثلي، فهم يخرجون للتمشية، أو يستريحون حول الميادين لعدم وجود شيء آخر يفعلونه، وعندما يزورون المتاحف، والكنائس تكون دوافعهم مثل دوافعي: الملل المحض. كنت أعلم أنني غريب، لكنْ هؤلاءالناس؟ كانوا فقراء والفقراء غرباء في بلدانهم دائماً. كنا مشردين لكن لأسباب مختلفة تماماً. والحياة في ليما واضحة لأنها تعاش خارج المنازل. ثمة ضواحٍ ثرية، لكن الأثرياء يبقون وراء الأسوار، كان من الخطير في مدينة فقيرة كهذه أن تكشف عن نفسك كشخص قوي أو في حال أحسن. دائماً ما كان المارة الشُّعث يصرخون على راكبي السيارات الفخمة في ليما. أما بقية المجتمع فيتدفق إلى الشوارع، وهناك يجلسون، وسط قذارة المجاري، وروائح الفضلات البشرية الحادة المنتشرة. ربما غسلت بعض الأمطار المدينة، فنظفتها، لكنْ سماء ليما شحيحة المطر. يسمح الدفء للناس بالعيش بالخارج، ولهذا من الممكن السير في المدينة وتصنيف السكان على أنّهم فقراء وعاطلون ومن الشباب.

كان الفقر يحول بين ليما والاختناق المروري (الشوارع واسعة: شقت من أجل مواكب النصر)، ولكنها تعني أيضاً أنّ الحافلات قديمة جداً، ومزدحمة على الدوام. في مركز المدينة سبعة ميادين وحدائق كبيرة. وهي تعجّ بالناس، معظهم يجلسون فقط أو ينامون، ولكن البعض يبيع البرتقال، والحلوى، والنظارات الشمسية، أو يحملون أجهزة تشبه مقاعد "بانجاندرام" المدولبة على الأرصفة، وعليها يلمّعون الأحذية. أما من يفوقونهم في الأعمال التجارية فهم من يعملون على آلات التصوير ذات الصناديق، الذين يصنعون من الأقفاص ما يشبه إلى حد كبير قمرات التصوير المعتمة، أو آلات تصوير كوداك البنية اللون.

وهنا رجل آخر يعمل على تشغيل حامل حيث يمكنك أن تشاهد- مقابل عشرة سنتات- شرائح عرض لبياض الثلج والأقزام السبعة، وسنغافورة، ونيويورك، وروما، وبامبي، أوالحيوانات المتوحشة: وهناك عازف أورغ معه ببغاء، وقرد مجنون، وهنا، خمس بنات أزيائهن كالغجر، يقرأن الطالع بأوراق اللعب.

"لقد جئت من مكان بعيد، يا سيدي،"

قيل لي:" أرى امرأة- تتحدث إليك. إنّها ليست زوجتك."

(ثبت أنَّ المرأة هي إلفيرا هاوي من إلينوي، وقد كانت في كسكو مع زوجها، بيرت، كانت ثملة جداً لكنها لم تعرض عليّ شيئاً من الحميمية."

تعيش العائلات أيضاً في الحدائق، بجميع قدور الطبخ، والشراشف المهلهلة، أمهات يرضعن الأطفال، وأطفال آخرون يبكون على نحو مثير للشفقة، وقنافذ تصيح، ورأيت ولداً نحيلاً ينام على العشب القذر بجانب كلب هزيل. عاهرات، عصابات من الرجال، وعاشقون، ومتسولون-" العالمين" كما يصف الإسبان الزحام. كانوا أشخاصًا ليس لديهم ما يفعلونه. *حلُّ الأزمة حرب شعبية*! طلاء هذه الرسالة المكتوبة بالرذاذ بالقرب من ميدان الجيش، ما زال رطباً، ولكنها بدت كما لو أنّ الحرب قد وقعت وانتهت. آلاف الناس في الحدائق والميادين كأنهم الموتى والجرحى الذين خلفهم النزاع المر وراءه. يمكن وصف معظمهم باللاجئين بدقة. ليس في مباني أمريكا الجنوبية من آثار المعارك والتفجيرات ما تحمله المباني في ليما. ولكن الواجهات المتضررة ليست نتيجة الرصاص أو قذائف المدافع بل البِلَى وما فعل الدهر. تستمر الحرب الطبيقة بدون حاجة لنداء، فهي التي تبث الرائحة النتنة والهمهات لا العظمة الصاخبة للجيوش التي تدمر بعضها بشجاعة في ساحات القتال.

بيرو أفقر من أن تصلح مبانيها المتصدعة، ولا تستطيع تحمل نفقة هدمها. إنّها باهتة محطمة، ولكن ببعضها أروقة وشرفات ما تزال جميلة، وتلك التي لم تمس وتركت للتعفن حُوّلت إلى قاعات للرقص وحانات، وما يبدو كطابور خبز هو جمع من البيروفيين ينتظرون فتح أبواب مبنىً كان أنيقاً في يوما ما، يدلفون منها لمشاهدة فيلم عنيف، أو رقصة في منتصف نهار يومٍ ما. ولكنْ لديَّ انطباع بأنّ الاشمئزاز البيروفي كان شديداً لدرجة هدم مدينة ليما وإعادة بنائها إن وافق ثروة، حتى تضاهي بوغوتا في الحداثة الزائفة.

سرت من الكاتدرائية(المؤمياء المعروضة لم تكن لفرانسسكو بيزارو: كان هيكله العظمي قد وجد مؤخراً في صندوق رصاصي بالسرداب) إلى حديقة الجامعة، ثم درت حول المدينة، وتوقفت أخيراً لدى ميدان بولونيسي، حيث جلست أتأمل ميلودراما نصب الجنرال بولونيسي. كان أغرب تمثال رأيته حتى الآن. كان يرتفع ثمانين قدماً، وفي مقدمته نسخة من النصر المجنح: جنود يسيرون على لوحاته، وفي إحدى حوافه تمثال لرجل يسقط من حصان- كان الحصان هناك، بالحجم الطبيعي ملتوياً على جانبه. ويحتل فصيل عسكري آخر حافة غيرها، بسيوف مشهرة، ونسور، وأكاليل ومدافع بالرخام والبرونز زادت من ارتفاع العمود، وما زال واقفاً، وامرأة كبيرة حزينة تضغط بجسدها على الركيزة العلوية، المزيد من البنادق، والرايات، والقوات- معارك على جميع الجوانب، هزيمة هنا ونصر هناك- وفي الأعلى حوريتان رخاميتان ترفرفان بأجنحتهما، وتمتد أرجلهما في الهواء، الأجنحة مشرعة، والأذرع ممدودة باتجاه القمة، حيث بولونسي نفسه، جُسّدَ بالبرونز، يهرع إلى الأمام وفي إحدى يديه مسدس، وعلم في الأخرى، يواجه الشارع العريض، وقاعات الرقص، والأطفال الصارخين، والحافلات المكتظة بالركاب.

"أتريد شراء بعض الصور؟"

كان هذا مواطنًا بيروفيًا يحمل إلبوم صور فوتوغرافية قديمة: مناجم الصفيح، السيارات القديمة، الركام الثلجي، الكنائس، والقطارات. كانت صوراً عمرها ثمانين عاماً. اشتريت صورتين لقطار قديم، الواحدة بدولار، وتحدثنا.

قال الرجل باللغة الإسبانية: "ستصدقني، كما آمل، إن قلت لك إنني أمضيت بضع سنين في بلدك،"

كان رث الثياب للغاية، يرتدي قبعة صوفية. "كنت أعيش في واشنطن العاصمة."

"هل راقت لك؟"

"ما كان عليَّ المغادرة. ليما ليست مكاناً صالحاً للعيش."

مد يده إلى متاعه وأخرج قطعة ممزقة من الورق . كانت وصلا يؤكد رفعه طلباً للعائدات الضريبية عام 1976. "لقد سُددت لي بالكامل."

قال:" سيسمحون لي بالعودة إن قررت الذهاب."

"لماذا لا تختار الذهاب؟"

"واجهت مشكلات هنا قبل وقت قريب. كان هناك رجلٌ يفرط في الشرب. أراد أن يتشاجر معي، لذا صارعته. لم أستطع الذهاب إلى أي مكان- عليَّ المثول أمام المحكمة. لكن من يدري متى سيسمعون القضية؟"

قلت له:"ستكون بخير، و يمكنك العودة إلى واشنطن بعد المحاكمة."

قال:" لا. فكّر للحظة، ثم حرك شفتيه كما لو كان يتدرب على النطق بعبارة ما، ثم قال بلغة إنجليزية: " أنا مفلس تماماً، مثل بلدي."

**---**

**-17-**

**قطار الركاب إلى ماتشو بيتشو**

**---**

*بيرو أفقر بلد* في أمريكا الجنوبية. بيرو أيضاً هي البلد الذي يقصده أكبر عدد من السيّاح. ترتبط الحقيقتان معاً: بوسع حتى أقل السيّاح خطراً أنّ يعدّ باللغة الاسبانية. الأرقام الصغيرة خاصة تجري على لسانه جرياً- ويعرف أنّ في أطلال بيرو العملاقة وعملتها الرثة صفقة رابحة. كان الطالب الذي قابلته في خوانكايو محقاً: فهناك بعض هنود الكتشوا على الطائرة إلى كوسكو، لكن البقية جميعهم كانوا سياحاً. وصلوا إلى ليما في اليوم السابق، وكانوا يتسكعون في المدينة. كان الجدول في فندقهم كالتالي:

"4:00 صباحاً- نداء الاستيقاظ! 4:45 – الأمتعة في الممر! 5:00 الإفطار! 5:30- اللقاء في بهو الاستقبال!..." في الثامنة صباحاً (علقت لطخات من معجون الحلاقة على حلمات آذان بعض الرجال.)وصلوا إلى كوسكو وتقاتلوا طوال طريقهم مروراً بالهنود(الذين كانوا يحملون أواني الصفيح وحزم الطعام الملطخة بالزيت، والمصابيح، كما كانوا يفعلون في القطار) إلى الحافلات المنتظرة، وهم يهنئون أنفسهم على تكلفة المكان الزهيدة. كانوا لا يعون أنّه من البديهي تماماً أنَّ السفر بالطائرات الذي يتمناه السائحون يقتصر على البلدان أفقر بلدان العالم: السياحة التي راجت أكثر شيء في المجتمعات المستقرة. في العادة يقوم الأثرياء الرحالة بزيارات عشوائية عمياء للكسالى الفقراء.

لنلق نظرة شاملة على البشرية

بدقة من الصين إلى بيرو

كل كدح قلق، وكل نضال دؤوب

انظر إلى المشاهد المكتظة للحياة المترعة

كثيراً ما تثير النتائج مشاعر الغضب في الطرفين كليهما.

كان الزوار يحملون شارات عليها عبارة *سامبا أمريكا الجنوبية*، كما أدت الشارات أيضاً دور ديباجات الاسماء. في هذه الساعة الباكرة والهواء الرقيق، وزخات الارتفاع الشاهق، لم تتسق الوجوه الشاحبة مع إشراق الاسماء: هيلدي ويكر، بيرت والفيرا هاوي، تشارلز ب. كلاب، موري ابّريد، آل بريلز، آل غودتشاكز، بيرني كوش، آل افاتاريانز، جاك هامرمان، نيك ولورلين بوزنان، هارولد وويني كيسي، آل ليوغارد، وميري ماكورث العجوز الضئيلة الجسم.

كانوا جميعاً من فئة عمرية معينة، بظهورهم إحدوداب، وبالسيقان تقوّس، ولديهم أرجل خشبية، ويسير اثنان منهم على عكازين- من الرائع رؤية هذا الأداء في الانديز الشاهقة- ولم يَبدُ أي منهم بخير. ما الذي كانوا يقاسونه، مع الحرارة في ليما، والبرد هنا، والتأخير، وسَحب القدمين صعوداً ونزولاً على السلالم- وما زال عليهم تسلق سلالم الإنكا الرأسية ("لا أعرف أيهما أسوأ، الصعود أم النزول").

لقد أعجبت بهم، لأنهم سيكونون على الطائرة ذاتها في غضون يومين، عائدين إلى ليما، ليستيقظوا مرة أخرى في الرابعة صباحاً، وفي ذلك اليوم يصلون إلى مكان بائس آخر مثل غواياكيل أو كالي.

الوصول إلى كوسكو بعث فيَّ شعوراً بالقشعريرة، وتدهورت حالتي بعد الغداء. لكني قررت ألا أستسلم لغثيان المرتفعات. قمت أتسكع في المدينة وأنا أشعر بالقليل من دوار البحر، مزيج من الغثيان والدوخة. كان المكان يتسم بمظهر العزلة البني القاتم، وما زالت لافتات الهزة الأرضية هنا، الهزة التي ضربت المكان قبل ثلاثين عاماً. كانت معابد وحصون الإنكا المنيعة العصيّة على التدمير هي الوحيدة التي لم تسقط فعلياً. كان الهنود يبيعون كنزات الالبكة، والبُسُط، والعباءات، والقبعات المحاكة في كل ركن من أركان الشارع. مظهر الهنود يتميز بعرض القاعدة، مثل قطع الشطرنج، خاصة النساء، اللواتي يرتدين ثلاث تنانير، واحدة فوق الأخرى، وجوارب ثقيلة للركبة،ممتلئات الجسم، بدينات في قصر، وعندما تنظر إليهن يخيّل إليك أنّه من المستحيل قلبهن. إنّهن يرتدين الملابس الثقيلة لأنهن حائكات خبيرات، ويحصلن على المواد الخام- صوف الالبكة- من حيواناتهن الاليفة. القبعة هي القطعة الوحيدة غير المنسوجة، ونادراً ما يرى المرء هنديًا من دون قبعة، تكون مصنوعة في العادة من الصوف الخام.

طوال الأسابيع القليلة الماضية كنت أسأل الناس عن السبب في ولع الهنود بهذه القبعات: ولم يكن التفسير أصيلًا ولا مثيراً للاهتمام، ولم يشرح أيهم سبب انتشار القبعات الأوربية. سمعت اثنين من السيّاح يعلقون حول الموضوع في كوسكو.

قال الرجل الأول:" لا زلت لا أفهم سر تلك القبعات. إنّها مثل طوابع البريد أليس كذلك؟"

"أهي كذلك؟"

"بالتأكيد، يلعق الجميع طوابع البريد، ولكن ليس ثمة دراسة تحدد ما إذا كان هذا ضاراً بالصحة. إنّه الشيء ذاته في ما يتعلق بتلك القبعات."

لأول مرة منذ أن غادرت الولايات المتحدة في هذه الرحلة العبثية أرى مسافرين آخرين بلا هدف. كنت أقدم نفسي بصفتي معلماً، وهم يدعون أنفسهم طلاباً. للطلاب مزايا: أسعار طلابية، وتذاكر طلابية، وفنادق للطلاب، ورسوم دخول الطلاب. احتج أحد المهرجين العظام كثيفي الشعر، كان في منتصف العمر لدى مكتب بيع بطاقات السفر، وصاح:" انظر، أنا طالب! اسدني معروفاً! إنّه لا يصدق أنني طالب لعين. إيها ــــــــ"

إنّهم سيّاح برسوم مخفضة، عاطلون، وقراصنة مشردون، انجذبوا إلى هذا المكان الفقير بغية توفير المال.

كان حوارهم متوقعاً، ويتمحور بالكامل حول الأسعار، وأسعار الصرف، وأرخص الفنادق، وأرخص الحافلات، وكيف لامريء أن يحصل على وجبة بخمسين سنتاً ("هل كان من الغرينغو؟")، أو كنزة من صوف الألبكة مقابل دولار، أو ملجأ مع بعض هنود الايمارا[[71]](#footnote-71) في قرية مظلمة. كانوا أمريكيين، ولكنهم هولنديون، والمانيون، وفرنسيون وبريطانيون واسكندنافيون كانوا يتحدثون اللغة ذاتها- المال- طوال الوقت.

كانوا يتباهون بمدى صمودهم هنا في الإنديز البيروفية وتغلبهم على النظام. ربما كان مثل هؤلاء المسافرين بالنسبة لهندي يبيع علكة التشكلتس (إما الكنزات أوالعلكة) مثار إحباط.

ترتفع معدلات البطالة في بيرو، وتندر الوظائف، ويصطف المتسولون والمشردون في الشوارع. كيف إذن نفسر تلك الآلاف من الأجانب الذين يرتدون المعاطف، ويتسكعون في الجوار، ويعيشون جيداً، بدون وجود مصادر دعم واضحة؟ كان من السهل فهم السيّاح: لقد جاؤوا ومضوا في هدوء. لكن هذه الكتيبة من حاملي حقائب الظهر هي مصدر القلق واليأس.

إنّهم يؤثرون على بيرو بعدة أشكال. أولاً هم يبقون على معدل الجريمة منخفضاً. ولا يحملون الكثير من المال لكنهم يستميتون في حماية ما لديهم. حيث كان النشالون ولصوص الشوارع البيروفيون الذين اقترفوا خطأ محاولة السطو على أحد هؤلاء المسافرين يخرجون دائماً بمظهر أسوأ من القتال الحتمي الذي يعقب محاولاتهم. وفي عدد من المرات في كوسكو وحولها سمعت صرخة ورأيت رجلاً هولنديًا غاضباً، أو أمريكياً جن جنونه يمسك بحلق أحد البيروفيين. تمثل الخطأ الذي ارتكبه البيروفي في تفكيره بأنّ هؤلاء الناس مسافرين منفردين، وفي الحقيقة كانوا مثل رجال القبائل- لهم أصدقاء يهرعون لإنقاذهم. لم يكن من الصعب عليهم السطو علي، أو سرقة ميري ماكورث، ولكن اللص الملتحي الذي يرتدي عباءة فوق قميصه المكتوب عليه عبارة “كاليفورنيا للعشاق”، وحقيبة ظهره، وما يكفي فقط لتذكرة الحافلة العائدة إلى ليما، كان قصة مختلفة كليًا، لقد كان صعباً، ولم يخف من رد الضربة. كانوا يخفضون الأسعار. ولم يدفعوا بقشيشاً، أو يشتروا أي شيء باهظ الثمن. كانوا يساومون في السوق مثل البيروفيين تماماً. يشترون البندورة، أو الفاكهة بأسعار زهيدة، ولا يدفعون سنتافو واحدًا فوق الثمن المستحق. كان وجودهم في المكان دليلاً على توفر الطعام والسكن بتكلفة زهيدة: كانوا يظلون في منطقة واحدة بليما، ويبعدون عن خوانكايو، وتكثر أعدادهم في كوسكو. قد يدفع السائح أي ثمن إن اضطر لذلك: لأنّه لا يخطط للبقاء طويلاً. وهؤلاء المسافرون الآخرون كانوا بخلاء مقترين. ليس لهم أي أثر واضح على بيرو، لم يحسنّوا من وضعها بالتأكيد، ولكن ربما كان هذا أفضل من المحاولة الفاشلة لاستعمارها بالفنادق باهظة الثمن.

كانت حجة فائدة الفنادق ذات النجوم الخمسة للبلاد بتوفير الوظائف سخيفة، ومخرّبة حتى- لم تزد على أن حوّلت المواطنين إلى نُدل، وخادمات لغسل الأطباق، لا غير. كان أفراد كتيبة حقائب الظهر يميلون إلى الأطلال. وهذا هو أحد تبريرات تفضيلهم كوسكو. تساءلت عما يجذبهم في الأطلال. إنّهم ليسوا علماء آثار، وليسوا طلاباً على الرغم من احتجاجاتهم بخلاف ذلك. من حواراتهم خلصت إلى أنّهم يشعرون بإلفة روحية حيال الإنكا عبّاد الشمس بالإضافة إلى شيء من التآلف الاجتماعي مع الهنود- ويكاد هذا يكون مزيفاً. كان الهنود يصنعون السلال، والقدور، وينسجون الملابس، هذه هي الأمور التي يتحمس لها من يغبطونهم سواء أكانت هذه الغبطة حقيقية أم متخيلة. من ناحية ما هم ليسوا هنودًا: فهم لا يذهبون إلى الكنيسة. ليس فقط لا يشهدون الصلوات- جميع الهنود يفعلون ذلك- ولكنهم لا يطوفون على الأديرة والصوامع، والمعابد الكاثوليكية أيضاً. كانت الصوامع لتثير الاهتمام. بخلاف اللوحات والتماثيل فهناك أدوات الجلد- سياط، ومسافع من حديد، وأطواق قطط من الأسلاك الشائكة، وعصابات رأس فولاذية كانت ترتديها سانتا كاتالينا، وروز التي من ليما في ميتة موجعة ودموية. (إذ أحكم إغلاق وتضييق العصابة حتى يتصبب الدم)، ولكن الطلاب الملتحون والقراصنة لم يذهبوا إلى الصوامع، بل فضلوا السير لستة أميال تحت وطأة الدوار ليروا قلعة ساكسوامان- وهي قلعة صممت لتحاكي شكل فكي الفهد- أو مدرج كوينكو بمنابره الداخلية المظلمة ("البعيدة")، أوالنوافير الفوارة في ضريح تامبو ماتشاي على مسافة أبعد من الطريق. ذهب السيّاح بالحافلة، واستخدم هؤلاء الأشخاص الآخرين طريق الإنكا، وهو درب متحدر على طول الجبال شمالي كوسكو. لم يأتوا ليتأملوا الأسبان، بل ليعيشوا بين بقايا حضارة الإنكا، فهي بالنسبة لهم ما زالت مدينة تابعة للإنكا.

لم يكن ميدان السلاح[بلازا دي آرماس] موقعاً لكنيستين رائعتين، بل مكانًا يعرض فيه الإنكا المومياوات التي سحبوها خارج معبد الشمس في شهر حمل الجنائز. ليس من فائدة للإشارة إلى عدم وجود معبد للشمس في القصر، لأنَّ الحجارة هناك، لقد أدمجت في كنيسة سانتو دومينغو. كل مبنى إسباني كان في وقت ما من مباني الإنكا. والطرق كانت دروباً للإنكا، والمنازل الكبيرة من قصور الإنكا. لم أحمل ديباجة سائح، ولا حقيبة ظهر بل سرت في خط رقيق بين الاثنين، ووجدت نفسي رفقة المكسيكيين، الذين اعتبروا أنفسهم سياحاً، ولكنهم عُدّوا مثل الهيبيز أو أسوأحتى بالنسبة للبيروفيين.

قال لي مكسيكي في إحدى الأمسيات: " دقق جيداً يا بول، هل أشبه البيروفيين؟"

قلت:" لا مطلقاً."

" ما خطب هؤلاء الناس؟ أنا في كوسكو ليومين اثنين، يوقفونني في الشارع ويسألونني عن الطريق! سأخبرك شيئاً- يومان بعد وسأعود إلى المكسيك. ربما كانت متسخة، ولكنها ليست قذرة هكذا." في اليوم التالي، وقبل حلول الظلام مباشرة كنت والمكسيكيون نأخذ طريقا مختصراً عبر بعض الشوارع الخلفية في كوسكو ووجدنا أنفسنا في فناء رطب ظليل. ليس ثمة أضواء في المباني المنخفضة، وبعض الغسيل معلق على الحبل. شق جرو أعرجطريقه إلى بركة صغيرة وشرب، وصاح ديك رومي كبير منتفضاً علينا، وجلست امرأتان على كنبة تحتسيان جعة الذرة من أكواب بلاستيكية. قال أحد المكسيكيين:" أسمع موسيقى." أشرق وجهه، وسار مقتربًا من مصدر الموسيقي: زقاق مظلم بجانب الفناء. دخل، ولكن بعد لحظة واحدة خرج مسرعاً. " إنّها حانة حقيقية."

قلت:" هل ندخل؟"

قال: " ليس هناك مقاعد،" وبدا حريصاً على المغادرة. " سآخذ جعتي إلى الفندق." ذهب المكسيكيون الثلاثة. ودخلت أنا الحانة، فهمت سبب سرعتهم. كانت الحانة تحت الأرض تقريباً. ذات سقف منخفض، تضيئه ستة مصابيح ملطخة بالسخام. في ضوء هذا المصباح تمكنت من رؤية الهنود المهلهلين، يبتسمون في ثمل، ويشربون جعة الذرة من أكواز منبعجة. كانت الحانة على هيئة جرن. في أحد اطرافها رجل عجوز وصبي صغير جداً كانا يعزفان على آلات وترية. كان الصبي يغني بعذوبة بلغة الكيتشوا. وفي الطرف الآخر من الجرن، سيدة هندية بدينة تقلي لحمًا على نار جذوع الخشب- ملأ الدخان أرجاء الغرفة. كانت تطبخ بيديها، تلقي اللحم في النار وتقلبه بيديها وهي تلتقطه وتتفحصه، ثم تأخذ اللحم المطبوخ في كلتا يديها وتضعه في طبق. زحف طفل قرب النار، يكاد يكون عارياً، لم يتجاوز عمره الشهور الستة، وكان كالدمية الطرية. ألقيت نظرة على المكان ولكن قبل أن أغادر لاحظت ثلاثة رجال يشيرون إليَّ.

قال أحدهم باللغة الاسبانية: "يوجد مقعد هنا." وأفسح لي للجلوس في الكنبة. كان الرجل يشرب جعة الذرة. ألحّ علي أن أتذوقها. قلت إنني فعلت في خوانكايو. قال إنّها تختلف هنا. لكنها لم تبد مختلفة بالنسبة لي. كانت بذات المذاق الحامض الذي تتميز به العصيدة الزنخة.

قلت: " إنها تشبه الجعة الأفريقية."

صاح قائلاً:" لا، هذه طيبة."

طلبت جعة عادية، وقدمت نفسي، وأنا أبرر الكذبة سراً بأني كنت معلماً بقولي إنَّ شرح ما يعلّمه المعلم أسهل من تفسير ما يكتبه الكاتب. الكتابة هي مهنة يستحيل وصفها. وحتى عندما لا يفضي الإفصاح إلى ارتباك، فهو يتسبب في احترام مبالغ فيه تتحول معه الحوارات إلى مقابلات. لمعلم الجغرافيا ذريعة بريئة للتواجد في أي مكان عملياً.

قالوا إنّهم من وزارة الأشغال. غوستافو، وابيلاردو مهندسان معماريان، والثالث كان اسمه نابليون برينتيس (كان اسما إنجليزياً ممتازاً، لكني لا أستطيع تحدث اللغة الإنجليزية")وهو مهندس مدني. بدت الوظائف مبهرة، ولكن هندامهم كان بعيداً عن الأناقة مما زاد من كآبة مظهرهم.

قلت لنابليون: " ربما لا تتحدث اللغة الإنجليزية، لكنّي متأكد من تفوقك عليَّ في لغة الكيتشوا."

قال نابليون: " أنا لا أتحدث الكيتشوا."

قال غوستافو" أعرف بعض الكلمات، لكن هذا كل شيء. سوف لن تواجهك صعوبة في تعلمها. إنّها مثل اللغة الإنجليزية تماماً."

"الكيتشوا مثل الإنجليزية؟"

" النحو متطابق تماماً. على سبيل المثال، نقول بالإسبانية كتاب أحمر ولكن في الكيتشوا نقول "أحمر الكتاب"، بتقديم الصفة. مثل اللغة الإنجليزية. هيا قلها."

قلت باللغة الإنجليزية :" Red Book"

ابتسموا للعبارة، تعتعة إنجليزية في هذه المحادثة الإسبانية الرنانة.

قال غوستافو: " سوف لن تجد صعوبة في تعلم الكيتشوا."

لم يكونوا من كوسكو، بل كان ثلاثتهم من ليما.

كانوا قد بُعثوا إلى هنا من قبل وزارتهم لتصميم مشروع إسكان في كويلابامبا، بعد ماتشو بيتشو، على نهر أوروبامبا. وصل أبيلاردو لتوه، وكان الاثنان الآخران في كوسكو منذ بضعة أشهر.

سألت: " منذ متى وأنت هنا يا ابيلاردو؟"

قال: " عام." ونظر للآخرين، وهز رأسه.

وأضاف دون كبير اقتناع: " إنّها ليست سيئة جداً."

قال نابليون:" كلها محطمة! شيء رأئع."

قلت:" أتهتمون بالأطلال؟"

قال نابليون:" لا. "

واستطعت من ضحكتهم أن أفهم أنّه تحدث نيابة عنهم جميعاً.

سألت: " ماهو رأي زوجاتكم في ابتعادكم لفترات مطولة؟"

كان سؤالاً طرحه عليَّ الجميع. تساءلت إن كانت هناك إجابة ذكية قد أستخدمها لاحقاً.

قال غوستافو:"نحن لسنا متزوجين." أتعتقد أنَّ المتزوجين سيذهبوا إلى أماكن مثل كوسكو وكويلابامبا؟"

"أنا متزوج وأذهب إلى خوانكايو."

"هذا شأنك يا صديقي. لكني إن كنت متزوجاً سأظل بالمنزل."

قلت:" أنا أفعل ذلك- كثيراً أو قليلاً."

صاح غوستافو:" كثيراً أو قليلاً!" كان جسده يرتج من الضحك.

"هذا مضحك حقاً."

قال ابيلاردو: " الرجال العازبون مثلنا هم من يُبعثون إلى الأماكن الفظيعة مثل إكويتوس، وبورتو مالدونادو."

سألت: "اليست إكويتوس في الإكوادور؟"

قال غوستافو وهو يضحك:" أحياناً وأحياناً لا."

"وهي كذلك هذه الأيام."

قال نابليون: " إنّها في مالدونادو. وكانت مريعة- أشد حرّاً من البرازيل."

قال ابيلارادو: " ليما جميلة. هل أحببت ليما؟ نعم؟ دائما هناك ما يمكن القيام به في ليما."

كان من الواضح أنّها ستكون سنة طويلة عليه في كويلابامبا.

قال نابليون: "لكني أعتقد أنّ جميع الأطلال موجودة في كوسكو."

همهم ابيلارادو بشيء فظ مثل "أوه، تبول على خصيتي الرب!"

سأل غوستافو:" ماهي الدول الأخرى التي تعرفها؟"

"ماذا عن فرنسا؟ انظر، كم أحتاج للعيش في باريس؟ كم دولاراً باليوم."

قلت: "حوالي أربعين."

بدا محبطاً. " ماذا عن لندن؟"

قلت:" ربما ثلاثون."

قال ابيلاردو: "اذهب إلى ليما، ستكلفك أربعة فقط."

قال نابليون:" إلى مالدونادو، ستكلفك واحداً فقط."

قال ابيلاردو في حزن:" والفتيات في ليما ..."

قال غوستافو:" هناك الكثير من الفتيات هنا، أمريكيات، وألمانيات، ويابانيات، وجميلات أيضاً. اختر ما شئت."

قلت:" ستكونون بخير."

قال غوستاف:" بالتأكيد، سنكون سعداء في كويلابامبا. سنتبادل الأفكار."

كان الولد الصغير والرجل العجوز يعزفان لحناً حزيناً. بدا غاية في الكآبة، هذا الولد الحافي يغني في هذا المكان المنخفض. توقفت الموسيقى. تناول الفتى قبعته القماشية، وسار بين الطاولات يجمع قطع النقود. أعطيناه بعض المال. انحنى ثم عاد إلى أغنياته.

قلت:" إنّه فقير."

قال غوستاف:" سبعون بالمائة من سكان البيرو فقراء، مثل ذلك الصبي."

واصلنا الشرب، ولكن في هذا الارتفاع كان للكحول تأثيرٌ مشلٌّ. شعرت بالثقل والبلادة. ورفضت أن أتناول زجاجة ثالثة من البيرة. بدأ الآخرون يأكلون أطباق اللحم المقلي. تذوقت القليل، ولكني وفرت شهيتي لوقت لاحق. كنت في كوسكو لوقت طويل بما يكفي لمعرفة أنّ بوسعي الحصول على شريحة لحم طيبة وثمار أفوكادو محشوة بدولار ونصف الدولار. تركت الرجال وهم يناقشون فرص بيرو في كأس العالم.

قال نابليون:" نحن لسنا جيدين، أعتقد أننا سنخسر."

لم أجادله، كانت الطريقة الوحيدة للتعامل مع البيروفي هي موافقته في تشاؤمه.

شعرت بعد العشاء بأني أضعف من أن أذهب مشياً، فعدت إلى فندقي- الذي لم يكن فندقاً بل غرفًا قليلة فوق الميدان- استطلعت المكان حول غرفة الطعام فوجدت آلة حاكي قديمة. كانت آلة فيكترولا تحديداً، موديل فيكتور 1904، وقربها مكدسة الأسطوانات ذات ال78 دورة في الدقيقة. كان معظمها مشروخاً. وجدت واحدة غير مشروخة وقرأت الديباجة: بن بيرني وذا لادز. وعبارة شانغهاي ليل (الإخوة وارنر، "موكب المسرح"). وأدرت الذراع، ووضعت القرص قيد التشغيل:

سلكت كل طريق صغير

تسلقت كل تل صغير

للأعلى وجّهت أنظاري

وللأسفل وجّهت البصر

بحثاً عن شنغهائيّ الصغيرة،

كانت هناك أضواء في الميدان. كان الأبرص الذي رأيته في ظهر ذاك اليوم يزحف على قدمه المدماة، مثل بوبل الذي فقد أصابع قدميه[[72]](#footnote-72)، مكومًا بالقرب من النافورة. وعلى الطرف البعيد كانت الكنيسة اليسوعية الجميلة، وبعدها جبال الإنديز سوداء وشاهقة مكللة مثل قبعات الهنود الذين كانوا ينامون هم أيضاً في الساحة.

كنت أحاول نسيانها

لكن ما جدوى ذاك –فلن أفعل

كنت أبحث عاليًا

وكذاك فعلت في الأسفل

كان الطقس بارداً. ولم يك معطفي الجلدي كافياً، وكنت بالداخل. لكن ساد هدوء فلا أبواق تُنفخ، ولا سيارات، ولا أجهزة مذياع، ولا صرخات. فقط أجراس الكنيسة والفكترولا

أبحث عن شنغهائي الصغيرة..

***© © ©***

في الساعة الرابعة صباح كل يوم من أيام الأسبوع تُقرع أجراس كنيسة كوسكو.

كانت تقرع ثانية في الساعة 4:15 ثم في الساعة 4:30، لأنّ هناك كنائس كثيرة، والوادي محصور بين جدران الجبال، وصلصلة أجراس الكنيسة من الرابعة حتى الخامسة صباحاً ذات صوت احتفالي. كانت تدعو كل الناس إلى القداس، لكن لا يستجيب سوى الهنود. كانوا يسيرون أفوجاً إلى قداس الساعة الخامسة في الكاتدرائية، ثم قبيل السادسة تفتح أبواب الكاتدرائية الكبيرة في الفجر الجبلي البارد الغائم، ويتدفق مئات الهنود إلى الساحة، أعداد كبيرة منهم في عباءات حمراء ساطعة، لها من التأثير اللوني ما لمهرجان يوشك أن يبدأ.

بدوا سعداء، وكانوا يؤدون أحد الأسرار الكنسية. يغادر جميعُ الكاثوليك القداسَ وهم يشعرون بخفة في الروح، ورغم أنّ هؤلاء الهنود كانوا قساة الملامح في العادة- تغضنت وجوههم عبوساً- إلا أنّ معظمهم يبتسم في هذه الساعة المبكرة عقب القداس.

يستقيظ السيّاح مع الهنود، لكن السيّاح يتجهون إلى محطة سانتا آنا للحاق بالقطار المتجه إلى ماتشو بيتشو. يحملون وجبات الغداء المغلفة، والمظلات، ومعاطف المطر، وآلات التصوير. يشعرون بالاشمئزاز، ويصلون إلى المحطة في الساعة السادسة. يحصلون على مقعد على قطار الساعة السابعة. ولكن الآن كانت الساعة السابعة، وأبواب المحطة لم تفتح بعد. بدأ مطر خفيف في الهطول وبلغ عدد السيّاح المحتشدين مئتين أو أكثر.

المحطة بلا نظام. يعرف السيّاح هذا ويكرهونه. لقد استيقظوا باكراً أمس ليلحقوا بالرحلة الجوية إلى كوسكو، ووجدوا زحاماً في المطار. واستيقظوا مبكراً من أجل اللحاق بقطار ماتشو بيتشو وهذا الزحام أسوأ. إنّهم لا يتدافعون أو يتزاحمون. بل يقفون في الفجر الرماديّ، يتشبثون بمغلفات الغداء ويهمهمون. معظمهم يسافرون في جولة مدتها 12 يوماً حول أمريكا الجنوبية. لقد أمضوا وقتاً كثيراً على هذا النحو. بانتظار حدوث شيء ما، ولم يرق لهم هذا البتة.

إنّهم لا يريدون التذمر، لأنّهم إن فعلوا فهم يعرفون أنّ الأمريكيين مشهورون بالتذمر. ولكنهم يشعرون بالاشمئزاز. أقف في الزحام، وأنتظر فرصة لأقول: "أنا لا ألومك."

قال أحد أفراد آل غودتشاك:"هل تعتقد أنّهم سيفتحون الأبواب على الأقل ليسمحوا لنا بالدخول إلى المحطة؟"

قال: تشارلز ب. كلاب: " هذا أبسط من أن يفعلوه. إنّهم يؤثرون إبقاءنا قيد الانتظار."

قالت هيلدي التي لاح عليها المرض حقاً:" أنا سئمت جداً من هذا."

كانت المرأة المسكينة فوق السبعين من عمرها، وهي هنا في وسط جبال الانديز، تقف خلف سوق كوسكو القذر، وعلى عتبات المحطة. ولدى قدميها امرأة هندية معها طفل يبكي، وتبيع العلكة ولفافات التبغ، ورجل آخر قذر لحدٍ يبعث على الشفقة، يحمل كومة خوخ مرضوض.

هيلدي من – أين؟ ضاحية نظيفة في وسط الغرب، حيث تتحرك العطارات في الوقت المحدد، ويعرض عليها الأشخاص المهذبون مقاعدهم. إنّها لم تعرف أنّ الأمر سيكون صعباً إلى هذا الحد هنا. لقد كسبت تعاطفي، وإعجابي أيضاً، في عمرها هذا يعُد شجاعة.

"إن لم يفتحوا الأبواب سريعاً سأعود فوراً إلى الفندق."

"لا ألومك."

قالت:" لم أكن بخير منذ أن كنت في لاباز."

"لقد تعرض ماركيت للهزيمة."، قال موري ابّريد وهو رجل قوي من باتون روج، يتحدث وأسنانه مغلقة.

قال جاك هامرمان:"لدى تكساس فريق ممتاز حقاً هذا العام."

"ماذا حدث في نوتردام؟"

كانا يتحدثان عن كرة القدم: الانتصارات، والخسارات، والرجل الملون الذي يفوق طوله ستة أقدام وثماني بوصات. هذا هو النوع من القناعة الذي يذهب بلعنة الانتظار تحت زخات المطر في كوسكو. يتحدث الرجال إلى الرجال وتقف النساء ساخطات.

قال السيد هامرمان:" أردت رؤية فريق جامعة ولاية لويزيانا يهزمهم شر هزيمة."

قال السيدة غودتشاك: "تعتقد أنّهم سيفتحون الأبواب على الأقل."

أخيراً فتحت أبواب المحطة. وكان هناك اندفاع عام إلى الأمام.

كان السيّاح المسنون يزحفون، ولكن لم يتدافعوا. وكان الزحام سمجاً، وشعروا أنّهم يمرون باختبار، كما لو أنّ ردات الفعل العنيفة من جانبهم ستحولهم إلى بيروفيين. دفعتهم مشاعر العار والخزي للتصرف بشيء من الانضباط، وكان هناك زوجان فقط من الارجنتين يمضيان شهر العسل- رجل داكن البشرة جريء وزوجته النحيلة المتشبثة شقا طريقهما بالقوة حتى المقدمة. كان هذا سهلاً عليهما، لقد تخطيا الأمريكيين الألطف جانباً، وربما اندهشا من وصولهما إلى الباب بتلك السرعة الكبيرة.

قال تشارلز ب. كلاب محذراً:" فقط حاول الميل إلى الخلف، هكذا لن تتعثر."

ولدى سماع هذه النصيحة مال الأمريكيون بأجسادهم إلى الوراء.

كانت هناك مقاعد للجميع ما عدا ثلاث نساء هنديات مع أطفالهن، وحزم ملابسهن، واثنين من القراصنة في زي الهنود بقبعتين مترهلتين وعباءتين.

جلس بقيتنا وعلب وجبات الغداء على حجورنا. بعد ساعة من هذا، سرت – أثناءها- موجة من الإحباط بسبب التكهنات حول ما إذا كان القطار سيغادر من الأساس. تنفس الجميع الصعداء بينما كان القطار يتحرك خارجاً من المحطة. ما زال الجو غائماً، وقد لطفت الشبورة الخضراء واجهات الجبال.

كان طريق السيارات مرتفعاً لكن ظل القطار يسير على انخفاض، وهو يدور حول الجبال عبر سلسلة من المضائق التي تجري فيها المياه المندفعة بجانب القضبان. كانت هناك بضع محطات: كنا على عمق كبير في الجبال لا يسمح لنا برؤية أي شيء سوى الجروف المعلقة، حيث أرض المضيق منبسطة، وكانت هناك أكواخ من الطين مبنية بالقرب من أسوار الإنكا الرائعة، والأبنية المتقنة المشيدة بالصخور، مدرجات الإنكا التي صارت قرى هندية. أكواخ الطوب الطيني كانت حديثة، وأسوار الإنكا قديمة، لكن كانت الأسوار مبنية باستخدام العجلات، والأسطح مصقولة، ومركبة بأدوات حجرية.

غنت بيرت هاوي لدى رؤيتها هذه الأبنية الحجرية: " إنكا! إنكا! إنكا! حيثما نظرت – إنكا!"

قال هارولد كيسي :" والآن يذكرني هذا بوايومينغ" وهو يلفت انتباهنا إلى الجروف الصخرية، والجنادل، وجنبات التلال المخضرة.

إنّها تذكر بليوغاردز من أجزاء ماين. يقول آل بريلز لا شيء مثل إنديانا. ويرفع صوته بالضحك. يقول آخر إنّها تشبه الإكوادور. انزعج البقية. الأكوادور هي المحطة التالية.

استمع بيرت وإلفيرا هاوي إلى هذه المقارنات ثم قالا إنّها مثل أفريقيا. هناك أجزاء من أفريقيا تشبه هذه بالضبط. نظرنا من النافذة ورأينا حيوانات اللاما، والألبكة الأصغر حجماً والأغزر صوفاً، والخنازير الكثيفة الشعر، والنساء بقبعاتهن الطويلة، وأوشحتهن، وجوارب الركبة يجمعن خشب الوقود. أفريقيا؟ أصرت إلفيرا أنّها كذلك. تفاجأت هي، كما قالت، لأنَّ بيرت كانت تقول ذلك الصباح في فندقهم- من خارج النافذة في قاعة الكوكتيل بالطابق العلوي- إنّها تذكرني بفلورنسا، إيطاليا: كل الأسقف ذات القرميد البرتقالي، وجميع الكنائس، والضوء.

"لقد رغبت دائماً في الذهاب إلى أفريقيا"، هذه هيلدي، التي بدت أفضل حالاً، وقد جلست.

قال بيرت:" كنا آخر الناس خروجاً من أوغندا."

"لابد أنّ ذلك كان فظيعاً."

"أولئك الهندوس المساكين. نزعوا أقراطهم عند المطار."

تقول إلفيرا: " هذا مخيف. لقد أحببتها."

"ترى جبالاً كهذه، والنساء الأفريقيات يهبطن منها ويحملن على رؤوسهن أشياء."

"ذهب بيرت للصيد."

كما قال: " في النيل." وابتسم. النهر البيروفي يجري بجانب القطار، نهر آنا الصغير المضحك، يبدو أليفاً: ماذا يكون هذا مقارنة بالنيل؟ "لقد رأيت أشياء كبيرة- يسمونها مجاثم لنيل. المياه سوداء مثل ذاك المقعد." قال أبّريد "انظر إلى الفقر."

هذه القرية وراء بلدة أنتا: بعض الأكواخ الطينية، وبعض الخنازير وحيوان ألبكة واحد بفرو متلبد، وفتيات صغار يحملن الأطفال الرضع، ويمسكن بإيديهن أطفالاً يصرخون "مونيز!، مونيز!"

قال بيرت: " هاييتي، هل زرت هاييتي قط؟ ذاك هو الفقر. وذاك هو البؤس. هذا لا يُعد شيئاً. هؤلاء الناس لديهم مزارع- لدى الجميع فدان أو اثنان من الأرض. يزرعون طعامهم بأنفسهم. فوق رؤوسهم سقف. إنّهم بخير. لكن هاييتي؟ إنهم يتضورون جوعاً هناك. أم جامايكا؟ أسوأ حتى."

لم يناقضه أحد. نظرنا من النافذة، وجعلها بيرت تبدو أكثر ازدهاراً.

يقول بيرت:" هذا ليس فقراً."

لا فائدة من إخباري إياه أنّها مزارع مستأجرة، وأنّ هؤلاء الناس لا يملكون شيئاً سوى ملابسهم التي على أجسامهم، والأكواخ تسّرب الماء، وأراض الخضروات مرتفعة على سفح التل، وبعضها على مدرجات الإنكا، وغيرها، مثل البقع الخضراء الفاتحة، هي مثبتة على الجرف، بزاوية ستين درجة. ثمة ما يغويني لأخبره بهذا، لا أحد يملك أي شيء هنا، وأنَّ هؤلاء الهنود أنفسهم مملوكون. ولكن المعلومات تربك هؤلاء السياح: فهم يحبون تخمين معاني الأشياء. "انظر كنوع من الكهوف- أفترض أنهم كانوا يعيشون في أماكن مثل هذه منذ سنوات مضت." و" مدرج ما- لابد أنّه يقود إلى برج مراقبة."

إنّه يوم مشمش لكن المكان هنا مظلم حقاً."

"هذا لأننا في الوادي."

ومضى الحوار، مثل ثورن بيري، في طريقه المضجر بينما ننزلق مجتازين رتل هذه الجبال المفلطحة.

"انظر، المزيد من الهنود."

هناك اثنتان، ترتديان قبعتين كالفطيرة الحمراء، ووشاحين، تدفع واحدة حيوان لاما إلى خارج أحد الحقول، وربما لفائدة السياح صنعت بتباهٍ خيطاً من مغزل صوف خشن، ولفَّت الخيط في أصابعها.

سأل الفيرا:" هل أخذت صورة لذاك يا بيرت؟"

"دقيقة واحدة!"

أخرج بيرت آلة تصويره، والتقط صورة للهنديتين. كان هناك رجل اسمه فاونتين يراقبه. رأى بيرت السيد فاونتين وقال: " هذه آلة تصوير كانون الجديدة - نزلت السوق لتوها."

لم يقل كم دفع فيها، أو شدد على كونها خاصته.

لقد كانت عبارة تفاخر غامضة:" *تلك آلة تصوير كانون الجديدة*." أخذ السيد فاونتين آلة التصوير، واستشعر وزنها بكفه، ونظر عبر العدسة، وقال، "سهلة." قال بيرت "مضغوطة." "تمنيت لو كانت لدي واحة من هذه عندما كنا في رحلتنا بعطلة عيد الميلاد."

كانت هناك همهمات قليلة، ولكن ليس كبير اهتمام.

قال بيرت:" أتعرف ماهي العاصفة بقوة اثنتي عشر؟"

كان الجهل دائماً يبدو مغلفا كالطرد. كانت الهمهمات مثل سرقة مغلف ذلك الشيء البسيط. لا أحد يعرف. " لقد كانت رحلة." قال بيرت " كنا في أحد الأيام خارج أكابولكو. في يوم مشمس لطيف. فجأة تجمعت السحب. وسرعان ما دخلنا في القوة 12." كان الجميع مرضى. استمرت ثماني وأربعين ساعة. ذهبت إلفيرا إلى الحانة وجلست هناك – تماسكت ليومين فقط."

"كانت مصدر اطمئناني."

"لم أستطع النوم، ولم أستطع الأكل. لا يكون الدرامين فعالاً إلا لو تناولته قبل أن تبدأ في التقيؤ. كان مريعاً. تجولت ليومين وأنا أقول: " لا تصدقوه فقط. لا تصدقوه."

كان هناك ماهو أكثر من ذلك. لعشر دقائق ظل بيرت وإلفيرا يقصون رواية الإعصار، حتى بسردهم الرتيب- تبادلوا الأدوار، مقاطعين بعضهم البعض لإضافة التفاصيل- كان تقريراً مرعباً، مثل صفحة من كتاب آرثر غوردون بيم. وكانت قصة الأمواج العالية والرياح الهوجاء، والغثيان، والجبن، وفقدان النوم. كبار السن على السفينة (وضرب هذا على الوتر الحساس للأشخاص المسنين على هذا القطار) كانوا يُلقون حول المكان بقسوة، وعانوا من تكسر الأذرع، وتهشم السيقان. "وكسر زميل قديم فخذه- كان رجلاً عجوزاً لطيفاً. بعض الناس تأذوا بشدة حتى إننا لم نرهم طوال ما تبقى من الرحلة". قال بيرث إنّها كانت الفوضى. ألقت الفيرا اللوم على القبطان الإنجليزي، الذي لم ينذرهم في الوقت المناسب. " لا بد أنّه كان يعرف شيئاً ما." بعد ذلك قال القبطان إنّها العاصفة الأسوأ التي رآها طوال سنوات عمله في البحر . كانت إلفيرا ترمقني بشيء من عدم الثقة. وأخيراً قالت: " أنتم أيها الإنجليز."

"انا لست انجليزياً في الواقع."

"في الواقع." قالت ورسمت على وجهها تعبيراً عن عدم التصديق.

كان بيرت ما يزال يتحدث عن الإعصار، العاصفة، والعظام المكسورة. كان أثر حكايته ليجعل هذه المطر الخفيف الذي يهطل على واد بين جبال الانديز يبدو كزخات مطر ربيعية، ورحلة القطار مجرد مشوار مبهج. عرف بيرت والفيرا أيامًا عاصفة في المحيط الهاديء، كانت رحلة هذا القطار نزهة يوم أحد وبالكاد تثير اهتمام أحد.

قالت الفيرا: " أريد شراباً. بدلًا عن إخبار هؤلاء الناس عن رحلة أخرى، لماذا لا نركز على هذه وتجد لي شراباً؟"

قال بيرت:" أمر طريف. أنا لا أتحدث كلمة واحدة بالإسبانية. لا أتحدث أي شيء سوى الإنجليزية، لكني أستطيع التعبير عن نفسي بوضوح. حتى في نيروبي، وحتى في إيطاليا. أتعرفين كيف تفعلين ذلك؟ أجلس هناك وأقول، " آي-وونت-ايه- دْرِنك." وسيفي ذاك بالغرض دائماً."

سرعان ما حصل على فرصة لإثبات أنّه قادر على كسر حاجز اللغة. دخل المحصّل إلى عربتنا. ابتسم بيرت، وربت على ذراعه. قال: " آي-وونت-ايه- دْرِنك." ابتسم المحصّل وسار مبتعداً.

"هذه أول مرة قط..."

"انظر"

أمامنا، عبر بوابة سوداء من القمم الصخرية، كانت واديًا منبسطًا واسعاً مملوءاً بأشعة الشمس، والطيور كانت تحلّق مائلة في السماء وعلى الجروف مثل علامات التشكيل على حروف العلة، وكانت هناك خطوط خضراء، وأشجار مفلطحة بفعل الرياح على الجبال شديدة الانحدار وراءها. في مركز الوادي، بالسير بجانب زهور الأوركيد البيضاء والفوشية، كان هناك نهرٌ بنيٌّ عكرٌ. كان هذا هو نهر فيلكانوتا. يجري شمالاً حتى ماتشو بيتشو، حيث يصبح نهر الأوروبامبا، ويستمر باتجاه الشمال الشرقي حتى ينضم إلى رافد الأمازون. النهر الذي يجري من سيكواني مروراً بالجليد فوق بلدة بيساك المهدمة، وهناك حيث كان قطارنا يصفر، شكل وادي الإنكا المقدس. شكل هذا الوادي- مسطحاً جدا وأخضر، ومتواريًا- في مكان شاهق جداً، قد جذب الإنكا. جاء الكثير منهم إلى هنا قبل دخول الإسبان كوسكو. وإلى هنا هرب الآخرون يقاتلون حركة مؤخرة الجيش بعد سقوط كوسكو. صار الوادي قلعة للإنكا، ولوقت طويل بعد اقتناع الإسبان بأنّهم أبادوا هذه الإمبراطورية المتحضرة التقية أو أخضعوها، ظلت الإنكا تعيش في حصون هذه الأخاديد. وفي عام 1570، اتبع ثنائي من المبشرين الأوغسطينيين- الأخوان ماركوس ودييغو- إيمانهما المتعصب للاستيلاء على الجبال وعبر هذا الوادي. قاد الأخوان مجموعة متنوعة من الهنود المتحولين الذين حملوا مشاعرهم وأضرموا النار في الأضرحة التي كانت الإنكا ما تزال تتعبد فيها. كان انتصارهم في تشوكويبالتا بالقرب من فيتكوس، حيث النصر الأكبر للرب (تجلى الشيطان هنا، كما قال الإنكا)، وضعوا مشاعلهم في منزل الشمس. تأسست بعض الإرساليات على طول النهر(قضى ماركو في النهاية باستشهاد مروع)، ولكن بعدها بدت الجبال والسماء وهما بالكاد تتمايزان، ولم تُزَرْ الأطلال مرة أخرى. نام الوادي. لم تُجتز مرة أخرى حتى عام 1911، عندما ركض رجل ييل، هيرام بينغهام، بكلمات "المستكشف" لكبلنغ، عبر رأسه (شيء ما مخفي. اذهب وجِده. إذهب وانظر وراء السلاسل../ شيء ضاع وراء السلاسل. ضاع وينتظرك. اذهب!)

وجد مدينة قمة الجبل العريضة، وأسماها ماتشو بيتشو.

كان يؤمن بأنّه وجد مدينة الإنكا الضائعة، لكن جون همنغ يكتب في كتابه غزو الإنكا، أنّ هناك مكان آخر أبعد حتى إلى الغرب، هو إسبيريتو بامبا، يرجح أنّه الأجدر بلقب المدينة الضائعة. وهو جزء من عبقرية الإنكا في حماية أنفسهم بالوديان السرية، مروراً بالانهيارات الصخرية، وعلى الطرف الأقصى من الدروب شديدة الانحدار التي ضاعت وراء السلاسل. معرفتهم المتطورة بالبناء مكنتهم من بناء قلاع محصنة، وأبراج مراقبة من هذه التحصينات الطبيعية. وبعد أميال قليلة من دخولنا وادي فيلكانوتا، جئنا إلى اولانتايتامبو، وإن لم أكن قد قمت بزيارة منفصلة إلى هذا المكان لما عرفت كيف اختير موقعه على نحو مثالي، وكيف أنّ المدرجات وأسوار المعبد لم تكن تُرى حتى يصل المرء إلى قمتها، فهي فقط مخفية من قضبان السكة الحديدية والنهر، وما تراه وتظن انّها مساكن هي أبراج مراقبة الإنكا، وهي أكواخ ذات أسوار سميكة وعالية، وعلى ارتفاع شاهق يصل إلى مئات الأمتار فوق مستوى البحر، على الرفوف الصخرية التي ساعدت المحاربين المحاصرين بتحذيرهم من هجمات الإسبان.

كانت أولانتايتامبو ناجحة من كل النواحي، لما يزيد على أربعمئة سنة مضت. هاجمت كتيبة من الجنود الإسبان يقودها فرانسسكو بيزارو هذه البلدة، وهزمت. " عندما وصلنا إلى تامبو،" كتب أحد الأسبان:" وجدناها محصنة جداً لدرجة أنّها بدت موقعاً مرعباً." كانت المعركة ضارية، وتلقى جنود الأسبان هزيمة نكراء على يد نبّالي الإنكا. تسلح رماة الأقواس الأمازونيون والإنكا بالأسلحة وارتدوا الخوذات والدروع التي صادروها من أعدائهم.

لقد كان لهندسة الإنكا من روعة بابل نصيب: وراء هذه الأسوار حدائق معلقة متوجة بعشرين طناً من صخور المغليث التي نقلت إلى مسافة تبعد أميالاً عدة، ورفعت إلى هذه القمة. لم تكن قلعة على نحو خاص، بل كانت في البداية حديقة ملكية. قال السيد فاونتين:" لا بد أنّها الانهيارات الأرضية." وهو يمر بنا.

لكن بيرت هاوي قال: " هيا، يا لروعة هذين الحذائين.!"

كان ينظر إلى قدميّ متعجباً.

قلت:" مانعان للتسرب."

قال بيرت لإلفيرا: "يا عزيزتي، انظري إلى هذين الحذائين الرائعين!"

لكن الفيرا كانت ما تزال تنظر إلى اولانتايتامبو. لقد أخطأتْ في التعرف إلى برج الساعة في ميدان القرية ظنًا منها إنّه كنيسة، وقالت إنّها تذكرها بالكنائس في كوسكو. ذكر الآخرون الكنائس في ليما وكيتو وكاراكاس، ولا باز، حتى أبعد من ذلك، بينما كنا نسافر عبر وديان الإنكا المقدسة، لم يعلّق أحد على حقول الذرة والقمح، أو الارتفاعات المذهلة لهذه الجروف التي ختمت بالجليد، أو تقدمنا نحو الشمس بجانب هذا النهر البنيّ الصاخب.

أدى ذكر الكنائس إلى مناقشات دينية، ومعها تيار من الآراء المختلطة.

كانت هذه المنابر الذهبية تغيظني حقاً، قال أحدهم. لا أفهم لم لا يذيبوها ويطعموا بعض هؤلاء الأشخاص الجائعين. والتماثيل، قال آخر، إنّها مبالغ فيها، وحشية، ونحيلة على الدوام. كان الجميع يصيح، ويجادل في الوقت ذاته. كانت تماثيل المسيح هي الأسوأ، مضرجة بالدم حقاً. وتماثيل ماري كانت بدينة وترتدي ملابس مثل الدمى بالساتان والمخمل، ويسوع على الصليب بدا رهيباً بين النقوش الذهبية، تبرز أضلاعه إلى الخارج، كنت لتفكر على الأقل بجعلها تبدو بشرية أكثر. ومضى الأمر قُدمًا: دم، وذهب، ومعاناة وأناس راكعون. ما الذي يضطرهم للمبالغة. قال أحد الرجال. عندما لا تقودهم المبالغة سوى للابتذال؟

كنت أتحمل الكثير من هذا. لقد كان هناك استهزاء متعالٍ في تظاهر بالحيرة، والتقزز. "أنا لا أفهم ذلك فحسب. يقولون هذا لكنهم يستغلون عدم فهمهم للتدليل على جهلهم. يؤهلهم الجهل للتمادي في هذا التهكم. لقد شعرت أنَّ لحظتي أزفت للحديث. كنت أيضاً قد رأيت هذه الكنائس ووصلت إلى عدة نتائج. تنحنحت. وقلت: " إنها تبدو مبالغ فيها لأنّها مبالغ فيها."

من الممكن أنَّ الكنائس هنا تضع تماثيل أكثر وحشية للمسيح عن تلك التي في إسبانيا، لكنها بالتأكيد أكثر دموية عن أي شيء آخر قد تراه في الولايات المتحدة، لكنْ الحياة هنا دموية اليس كذلك؟حتى تؤمن بأنّ المسيح قد عانى عليك معرفة أنّه عانى أكثر منك. في الولايات المتحدة تبدو بعض الكدمات على تمثال المسيح، وبعض قطرات الدموع، وبعض الجروح المتوسطة. ولكن هنا؟ إلى أي مدى يمكن أن يعاني أكثر من الهندي؟ لقد عرف جميع أشكال الألم.

كان الإنكا يحبون السلام وأتقياء، ولكن إن خالف أيٌ منهم القانون يُعاقب بصرامة- ربما يدفن حيًا، أو يضرب حتى الموت، أو يثبت على وتد في الأرض ويُداس عليه بحسب الطقوس، أو يعذّب. ومن يرتكبون المخالفات من الرتب الرفيعة تلقى على ظهورهم الصخور الثقيلة من جرف عالٍ، وتعلّق العذارى اللواتي يضبطن وهنَّ يحادثن رجلاً من شعورهنَّ. الألم لم يجلبه الكهنة الإسبان إلى هنا، ولكن المسيح المصلوب كان جزءاً من المشروع الطقوسي.

لُقن الهنود أنَّ المسيح عانى، وعليهم الاقتناع أنَّ معاناته كانت أسوأ من معاناتهم. ومريم بالقدر ذاته، والدة العالم، كانت أصح جسداً، وأفضل هنداماً من أية امرأة في المجتمع.

لذلك نعم، تعد التماثيل مبالغة في حيواتهم، لأنّ هذه الصور تجسد الرب، والأم المقدسة أليس كذلك؟"

اقتناعاً بأني على حق، تحمست لموضوعي. كانت مريم في كنيسة سان فرانسسكو بليما، بغطاء رأسها المتلأليء، والقميص المطرز، تحمل سلة فضية، لتتفوق على أية نبيلة من الإنكا، وعلى الأقل أية امرأة أنيقة من الإسبان. هذه الشخصيات الإلهية ينبغي أن تُشاهد وهي تتفوق على الإسبان والبيروفيين في المعاناة والثروة- ينبغي أن تبدو أكثر شجاعة- أكثر تعرضاً للتعذيب، أغنى، أو أكثر دموية، حتى تبدو أشد بركة. المسيح في أي كنيسة كان مهلهلاً أكثر من أشد المنبوذين وضاعة في الميدان، إنّه أكثر مما ينبغي. ربما كان درس البيروفي- واللاتيني الأمريكي - هو الكنائس المجسدة لمبالغات المخلّص. بالطريقة ذاتها كان تمثال بوذا كمستجد يصور رجلًا أشد جوعاً وهزالا من أنحف بوذي. بهدف جعلك تؤمن بالرب، كان ضرورياً أن ترى ذلك الرب وهو يخوض عذابًا يفوق ما خضته أنت. وعلى مريم أن تبدو أكثر أمومة، وخصوبة، وثراء عن أية امرأة أخرى. الدين يتطلب هذه الكثافة حتى يفضي إلى التقوى.

قد لا يبجّل المؤمن شخصاً مثله- ولابد أن يعطى سبباً لتقديس تمثال الرب. والاستجابة بمدحه بالطريقة المناسبة، بحفظه بالذهب. بعد هذا لم يذكر أحد الدين. نظروا ناحية النافذة وقالوا:" المزيد من الخنازير، " أو "انظر، هل ذاك قوح قزح؟" وعادوا إلى حديثهم على طريقةثورنبيري غير المباشرة، التي تلهيهم عما صار بالنسبة لهم رحلة رتيبة ومملة بالقطار. كان هناك قوس قزح عبر مدينة أوربامبا. كان الإنكا هم البشر الوحيدون على وجه الأرض على حد علمي، الذين عبدوا قوس قزح. والآن نحن قريبون مما أسماه هيرام بينغهام "آخر عواصم الإنكا." توقف المطر. كانت ماتشو بيتشو فوقنا، متوارية وراء الجروف، والنتوءات الصخرية. كان السياح ما يزالون يثرثرون. وقد أخبرت بيرت هاوي بسذاجة عن الفيكترولا في فندقي، وكيف أنّها شغّلت أغنية "شنغهائي الصغيرة." قال بيرت إنَّ بن بيرني كان صبيًا من شيكاغو، وأنه بدأ يتذكر عندما كان يشق الدرب إلى الأعلى. فوق رأس بيرت المتقلب، وكهنة الشمس في ثيابهم الجميلة، يقفون متجهين إلى الشرق في كل فجر على هذا الجانب الأشد انحداراً، وعندما تبدأ الشمس-ربّتهم- بالتوهج فوق الإنديز، يمدّ الكهنة أذرعهم ناحيتها، و(كتب الأب كالانشا في 1639) "يرسلون لها القبلات....أعمق طقوس التسليم والتبجيل". ولكن لماذا نذهب بعيدًا، كنا ما زلنا قريبين من النهر، الذي كان مضطرباً ومظلما لأنه يعكس أوراق شجر الصخر المسامي المعلّق، وليس السماء. "بدت المياه سوداء ومنيعة،" قال بنغهام، "حتى بالنسبة للأمريكيين الذين يؤمنون بالخرافات."

استأنفنا صعود المنحدر. ثرثر السياح، وتوقفنا فقط لالتقاط أنفاسنا، تحولت الأنفاس إلى شكوى. لم تكشف المدينة عن نفسها بالكامل أمام أنظارنا حتى آخر درجة على حافة التل. كانت تمتد على اتساع القمة، مثل هيكل عظمي كبير نظفته نسور الكندور من اللحم. ومرة واحدة، سكت السيّاح.

**---**

**-18-**

**قطار الباناميركانو**

**---**

*قطار البان-امريكان السريع من أعظم قطارات أمريكا الجنوبية*، فهو يقطع ألف ميلٍ من لاباز، في بوليفيا، إلى مدينة وتكومان الأرجنتينية. يعبر حداً دوليًا- وهو ما لا يتسنى إلا لعدد قليل من من قطارات في هذا النصف من الكرة الأرضية- وليس في السفر بالسكة الحديدية متعة كبرى إلا لو كان فيه عبور لحدود بلد ما. تكاد الحدود أن تكون خالية من البشر من البشر، منصوبة بها بها قطع جميلة من المباني المؤقتة- حيث إجراءات ختم الجواز، والنظرات المريبة، والتنمر في الجمارك، والغضب الفدائي الساذج، والتعطيل غير المبرر. اضطررت إلى السير عبر نهر غراندي من تكساس إلى المكسيك، والتطفل على السيارات من غواتيمالا إلى السلفادور. كنت أتطلع إلى ركوب القطار في بوليفيا، والوصول بعد ثلاثة أيام إلى سهول الإنديز العليا في قلب الارجنتين.

ولكن تعيَّن علي في البداية الخروج من بيرو. والآن، بدأ إضراب السكة الحديد. هناك خط واحد قيد العمل، قطار ماتشو بيتشو كان يدار من قبل الجيش البيروفي. كان مكرساً لخدمة السيّاح فقط- سييء جداً إنْ كنتَ هندياً يريد العودة إلى الديار على أي مسار آخر. كان عمال المناجم مضربين هم أيضاً، وعمال البلدية احتلوا قاعة المدينة في ليما بدورهم. تحولت الاحتجاجات السلمية إلى مسيرات غاضبة، وكانت هناك تهديدات بتخريب قطار ماتشو بيتشو. كانت مطالب العمال تتمثل في زيادة الأجور بمعدل ثلاثة دولارات شهريًا. في بيرو يكلف ما وزنه رطلان من اللحم ثلاثة دولارات، ورطلان من اللحم هو متوسط ما بوسع الأسرة البيروفية تحمل نفقته كل شهر.

حُذرت إن لم أغادر بيرو حالاً، وكذلك الحافلات، سيعم الإضراب، وعلى الرغم من أنني أقسمت في كولومبيا أنني لن أضع قدماً في حافلة أمريكية-جنوبية- برحمة السماء، لدي زوجة وأطفال! – فلم يكن لدي خيار سوى ركوب أحدها إلى بونو. ستكون الرحلة بالقطار أسهل، وأمتع، وبالحافلة، كان الطريق مترباً ومرعباً ووعراً. لم أستطع القراءة على هذه الحافلة، وفي ذلك اليوم هجرت يومياتي. بلغنا بحيرة تيتيكاكا في مغرب الشمس وعبرتها بالباخرة اولانتا في آخر الليل. يقول لك الناس إنّ هذه كانت من أجمل الرحلات في القارة، لكنْ لم أر شيئاً، كان الوقت ليلاً.

كانت رحلة بالقطار من غواكوي إلى لاباز، أقصر من أن أتذكرها. تذكرت هنديا محتاراً كان يقف بين الصخور يراقبنا نمر ومعه حيوان لاما. كانت اللاما ملامة خاصة بالنسبة لي.

*اللاما نوع صوفي من الماعز ذي فرو كثيف الشعر، ذات تعابير كسولة، وعنق مستدير، مثل رجل أدب فاشل.*

قبيل لاباز مباشرة، وبينما كان القطار يصعد ويسافر عبر الجبال قبل الهبوط إلى المدينة، كانت هناك قمم سوداء فاحمة مغطاة بالثلوج. كان للثلج مظهر شبحي جاف دائم، نسخة قريبة من البحيرة اللامعة التي تراها في نيو إنجلاند.

كان تصحر بوليفيا واضحاً حالما بلغنا الطرف الجنوبي من البحيرة. لم تكن جافة مثل الكعك المتصدع كالمكسيك، أو قوقعة الحلزون مثل بيرو، أو جفاف غواتيمالا الذاوي: كان جفاف بوليفيا قشرة أرض داخلية صلبة. طبوغرافيا الإحفوريات الحجرية: انجرفت التربة السطحية ببساطة، كاشفة عن عظام البلاد الداخلية. قد لا يبدو المكان أبرد أو أكثر حراً، لكنْ جميع البوليفيين على متن قطار الغواكوي كانوا ودودين، وقد منحهم طراز القبعات الهندية المفضل هنا الديربي البني- مظهراً لا مبالياً.

"عليك البقاء هنا لفترة." قال بوليفيٌ، وأشار إلى القمم الثلجية. " بوسعك الذهاب للتزلج هناك."

كانت السحب رمادية، ويتخللها لون أسود، وبينما كنا نواصل هبوطنا إلى لاباز- زاد اتساع المدينة وقبحها كلما اقتربنا من قاع الوادي- كان هناك شق أزرق-أبيض من برقٍ لمع من السحاب المنهار. ثم صفق الرعد، وبدأ المطر ينهمر. طار الرذاذ على نوافذ القطار، التي كانت في حجم الرخام- كان عجيباً أنّها لم تكسر الزجاج.

كنت أشعر بتوعك- لم أنم جيدا في كوسكو. غفوت على الحافلة في الطريق إلى بونو. قضَّت مضدعي الغلايات المستعرة في الباخرة اولانتا أثناء عبور بحيرة تيتيكاكا. أصبت بتوعك في المعدة، ولأول مرة لم ينفع المقوي الإنجليزي الذي أضفت إليه المورفين. وبالطبع كان هناك الارتفاع العالي: لا باز تقع على ارتفاع 12000 قدماً، وكان القطار قد صعد إلى أعلى من ذلك حتى يصل إلى داخل المدينة. كنت مرهقاً، ونصف نائم، وأشعر بالدوخة، وصعوبة التنفس. لقد نفذ إعياء الارتفاع إلى أمعائي، وعلى الرغم من أنني ظللت أشرب المقوي، وأمضغ القرنفل- بدأ ضرسي يؤلمني ثانية- عرفت أنني لن أشعر بتحسن حتى أغادر لاباز على متن قطار عموم أمريكا السريع[ما يعرف بالبان- امريكان].

كنت أعاني مرضًا آخر أيضاً لكنه على ما يبدو كان ذا فائدة. لم أذكر كيف وجدت فندقًا في لاباز- أعتقد أنني رأيت ما يشبه الفندق، وسرت على أية حال. كنت آخذ بعض أقراص الإسبرين بعد وقت قصير من العثور على غرفة، وأسقطت كوب الماء في الحوض. اتجهت إليه يدي مدفوعاً بالغريزة، وعندها رأيت الدم، والزجاج المكسور في يدي. كانت هذه هي يدي التي أكتب بها، وصار الدم الآن يسيل على ذراعي. وقفت في الممر، وأنا أربط الجرح بمنشفة، وناديت على عاملة الغرفة التي كانت تكنس الأرضية. طقطقت بلسانها تعبيرًا عن الأسى، كان الدم قد بدأ يتسرب عبر المنشفة. أخذت حلقة بلاستيكية من جيب مريولها.

وقالت: "ضع هذه حول رسغك، ستوقف الدم. "تذكرت أنّ الحلقات منهي عنها. طلبت منها عنوان أقرب صيدلية

قالت:" ربما عليك الذهاب إلى الطبيب."

قلت:" لا أنا، متأكد أنّه سيتوقف."

ولكنْ لم أبتعد مسافة مربعين حتى تشبعت المنشفة الجديدة التي لففتها حول يدي، بالدم. لم تكن تؤلمني لكنها بدت قاتلة. خبأتها تحت ذراعي حتى لا أفزع المشاة. ثم تقطر الدم على الرصيف، وقلت لنفسي: يا إلهي. كان إحراجاً عميقاً أن أسير عبر هذه المدينة الرمادية الكبيرة بمنشفة تقطر دمًا من على يدي. تمنيت الآن لو كنت جربت الحلقة المطاطية. تركت على معبر المشاة بقعاً من الدم، وأكثر منها في الميدان. سألت عن اتجاه الصيدلية، ورأيت عندما نظرت خلفي أنّ هناك بركة من الدم حيث توقفت، وبوليفيًا مذعورًا يراقبني. حاولت ألا أركض: يسرِّع الركضُ معدلَ ضربات قلبك، وستنزف أكثر.

كانت هناك خمس فتيات صينيات يدرن الصيدلية، وكنَّ يتحدثن الإسبانية بطريقة مضغ اللبان التي تميز تحدثهن باللغة الإنجليزية. أمسكت بمخلبي النازف فوق إحدى سلال المهملات وقلت: " لدي مشكلة هنا." بحثت عن الكلمات الإسبانية المتعلقة بالجروح، والتعقيم، والضمادة، والشريط، والشاش قبل خروجي من الفندق.

سألت واحدة من الفتيات الصينيات:" أما زال يخرج، الدم؟"

"أعتقد ذلك."

"ازل تلك الضمادة."

حللت المنشفة المعطونة، فتصبب الدم خارج جرح في يدي: كان قطعًا حاداً في عضلي. مفتوح قليلاً، وتتدفق منه الدماء باستمرار. الآن صرت أنزف في الطاولة، تحركت الفتاة بسرعة، جلبت بعض القطن، وبللته بالكحول، ثم ضغطته على نحو مؤلم على الجرح. بعد لحظات كان القطن قرمزياً.

قالت:" ما زال يخرج."

جاءت الفتيات الصينيات الأخريات وبعض العملاء لينظروا.

قالت واحدة: " يا للعار."

قلت:" إنه لا يؤلم. أنا آسف لما سببته من فوضى."

بدون كلمة واحدة، قامت فتاة صينية أخرى بلفّ أنبوب مطاطي حول رسغي، وأحكمت ربطه. وُضع مزيد من القطن على الجرح. ظل هذه القطن أبيض. قالت الفتاة الصينية الثانية:

"إنه لا يخرج الآن"

ولكن تخدرت يدي، ورأيت أنّها تتحول للون الرمادي." أصابني هذا بالذعر، فتخلصت من الأنبوب المطاطي. تدفق الدم مرة أخرى على مرفقي.

"كان عليك ترك الأنبوب المطاطي عليها."

قلت: "أعتقد إنّه خطر."

حاولن كل شيء. سكبن عليها الكحول من الزجاجة، وعصرنها، وصبغنها بالمكركروم، ونثرن عليها مسحوقاً أبيض اللون- والآن بدت يدي مثل عجينة بوليفية. لكن لم ينجح شيء، بدا أنَّ الضغط المباشر على اليد يجعل الدم يتدفق أسرع."

"ضع الأنبوب المطاطي مرة أخرى."

قلت:" لا، إنّه لا ينفع."

"سينفع، إنّه جيد."

قالت الفتاة الأخرى في دهشة:" ما يزال يتدفق."

قالت فتاة ثالثة:" أنت بحاجة إلى خياطة."

قلت:" الأمر ليس كبيراً لتلك الدرجة."

"نعم. اذهب إلى الطبيب، إنه على الجانب المقابل من الطريق."

ذهبت إلى مكتب الطبيب، ولكنه كان مغلقاً: بالخارج للغداء. عدت إلى الصيدلية، وما زلت أنزف.

قلت:" انسين أمر الأنبوب المطاطي، أود شراء معقم وضمادة. أعرف أنّه سيقف- تتوقف الجروح دائماً عاجلاً أو آجلاً."

فتحت فتاة صينية مختلفة ضمادة وساعدتني في لفها على يدي، ثم أعطتني جميع أنواع الشرائط والقوارير التي استخدمنها، وذهبت إلى مكتب السداد، دفعت ثمنها. تسرب القليل بعد- ليس كثيراً، لكن ما يكفي لنقع ضمادة شاش، وبدت مخيفة، مثل ضمادات اللعب التي يرتديها الأطفال لإخافة أصدقائهم. كانت الضمادة سميكة، والدم أحمر فاتح اللون. لكني كنت متأكداً من توقفه عن النزيف. بشراء قهوة محلاة لاستعادة صحتي، ممسكًا بيدي المضمدة في حجري.

سأل النادل: "ياه، ماذا حدث ليدك؟"

قلت ببساطة: " حادث."

وفي المصرف، ذهبت لصرف بعض المال، أرحت يدي المجروحة على المكتب. كانت الصرّافة سريعة، أجرت المعاملة، ولم تسألني عن شيء، حولت عينها عن يدي، وانطلقت خارجاً: كانت أسرع معاملة بنكية أجريتها طوال شهور. ذهبت إلى وكالة الخطوط الحديدية. كان الكاتب مسناً لكن روحه المعنوية مرتفعة، ظل يقول باللغة الإسبانية كلمة تعني "جاهز!" أو "مدفوع!" قال لي اجلس. جلست، ووضعت يدي على مكتبه متظاهراً بتجاهلها.

"تذكرة واحدة إلى بوينس أيرس عبر وتكومان من فضلك."

"مدفوع!"

"درجة النوم الأولى، أود الذهاب في أسرع وقت ممكن."

"مدفوع!"

خلط بعض الأوراق، وبينما كان يكتب تذكرتي قال:" الجرح- هل هو كبير."

"جداً."

"مدفوع،"

أصدر تنهيدة تعاطف. كانت أسهل تذكرة اشتريها قط. لقد شجعتني استجابة البوليفيين ليدي المجروحة لدرجة أني لم أغير الضمادات حتى اليوم التالي. عوملت باهتمام شديد. كنت أسئل أسئلة عنها- هل تؤلم؟ كيف حدث ذلك؟ هل كان كبيراً. أصبحت يدي موضوع حوار رائع، وكان الجميع ممن يمر بي يحدق في قفازي الأبيض.

في ليما حاولت شراء لوحة، لكن السعر كان مرتفعاً لحد فظيع. واستسلمت محبطاً. في لاباز رأيت لوحة أفضل، صورة خاشعة للقديس دومينيك، مرسومة في بوتوسي في منتصف القرن الثامن عشر. ساومته لأقل من ساعة مشيراً بيدي المضمدة ، وسرت خارجاً من المحل واللوحة تحت ذراعي.

قالت سيدة في ذلك المتجر: " من الأفضل أن تحتفظ بتلك اللوحة في حقيبتك. ليس من المسموح بحمل بمثل هذه الأعمال الفنية خارج البلاد."

تحولت اليد المجروحة إلى واحدة من أفضل تجاربي في أمريكا الجنوبية. ولكن لاحقاً خلتني أعاقب حظي: بدأت أقلق من التهاب الجرح وتضرر اليد.

بدت مدينة يلائمها هذا النوع من الذعر، كانت نفسها تعاني الغرغرينا الحضرية، وإن كانت هناك مدينة مبتلاة لحد الجرح- بل و لها لونٌ متفسخٌ متقرحٌ- فهي لاباز. دمامتها الفائقة كانت محزنة بما يكفي لإعزازها، ووجدتها عندما تفحصتها عن قرب مكاناً يُحب. كانت مدينة الأسمنت والخبز العفن، وعواصف الثلج التي أضفت عليها رائحة أعشاب البحر البلغارية الرطبة. مبنية فوق أعمدة خشبية في ممر مرتفع بجبال الإنديز. للناس في لاباز وجوه معتزة ممتلئة، وخالية من المراقبة المتطفلة التي رأيتها في كولومبيا وبيرو. في مقاهٍ من ألواح الخشب في لاباز، نادلوها يرتدون السترات البيضاء، وآلات الاسبيرسو، والفطائر الدبقة، والمرايا، وعلى إحدى الطاولات مديرة متجهمة، أثخن الرجال في بدلات فضفاضة غير منسقة على طاولات أخرى، كان من الصعب تصديق أني لست في أوروبا الشرقية. فقط عندما خرجت رأيت هندية بدينة تمضغ ورق الكوكا في سقيفة خلاط اسمنت عندها تذكرت أين كنت.

ظل المطر ينهمر طوال الوقت: مطر بارد، وابل من قطع الجبن المثلجة. لكن معظم الناس كانوا يرتدون ملابس تناسب الطقس. ارتدوا المعاطف السميكة، والكنزات الثقيلة، والقبعات الصوفية. وحتى القفازات الكاملة والنصفية. كان للهنود مظهرٌ مستديرٌ وضخمٌ، وارتدى بعضهم أغطية آذان تحت قبعات الديربي. رأيت الشمس مرة. ظهرت في صباح ما بين فرقات الضباب الذي حام فوق الوادي، وكانت مشرقة للغاية دون حرارة، مجرد ضوء جاهر سرعان ما كسفه ازدياد الضباب.

كان تقرير الطقس في الصحيفة اليومية هو ذاته في العادة- غائم، ضباب، بعض المطر، لا تغيير- كأنه موسم معين في شمالي ماين، ماعدا أني هنا لم أستطع الإفلات من شعوري بالمنحنيات، والغثيان. كنت مرهقاً لكني لم أستطع النوم. شهيتي ضعيفة، مشروب واحد يكفي لأترنح. وكان من الصعب أن أكون غريباً في مدينة باردة: يظل الناس داخل المنازل، الشوارع خالية بعد إغلاق المتاجر، لا أحد يستلقي في الحدائق، والعزيمة—أو ما بدا كذلك- دائماً ما يُلقى باللوم على المسافر العاطل في المناخ البارد. طويت لوحتي، وخبأتها في حقيبتي، وجهزت نفسي للمغادرة.

***© © ©***

برزت الشمس بينما كان قطار عموم أمريكا يغادر حدود محطة القطار، وبدأ الترحال في دوائر ضيقة عبر بساتين أشجار الكينا على المنحدرات شمال المدينة. وهناك كانت الأشجار الوحيدة التي أراها على مدار أيام عديدة. أطفال متسخون أسنانهم بارزة يركضون من وراء الأشجار، ويتعلقون على القطار، وبعد دقائق يقفزون خارجين منه ويسرعون، وهم يصرخون إلى داخل الأشجار الخفيفة. ثم كانوا يختفون وسط الأشجار الطويلة الرفيعة، النباح القوي.

هناك أكواخ طين على المنحدرات السفلى، ولكن أثناء صعودنا زاد عدد الأكواخ، فقط أبنية من الطين مهجورة وهندي أو اثنان على الرغم من المطر المستمر في الأيام السابقة، كانت الجداول الزلقة جافة وصلبة، وقد شُقّت بعمق في سفح الجبل الخالي من المياه. وبما يحفها من صخر ورمل، عكست التربة أقصى مظاهر البوار. ولكننا صرنا على ارتفاع عالٍ الآن، ربما 13000 قدماً، وما زلنا نصعد فوق ظهر المدينة إلى حافة الهضبة الرمادية الجافة التي تشرف عليها. وعلى هذا المستوى المنحدر سار القطار منعطفاً بدرجة حادة، على يمينه سفح الجبل، وعلى يساره وادٍ عميق من الأسقف غير المتقنة. وبعد حوالي ساعة ما زلنا على مرأى لاباز. كانت تحتنا، وكنا نسير جيئة وذهابًا على سفح الجبل نمر بها مرة بعد أخرى. المدينة التي صارت أكبر حجماً الآن وأكثر فوضوية. جبال الانديز من وراء المدينة، تكللها الثلوج وتتراكم السحب على قممها. كنا فوق بين الأزهار، والأعشاب والطيور المغردة، كان الجو بارداً،مشرقاً، وصافيًا بما يكفي للنظر على مدى مئة ميل.

كانت هناك هضاب، وقمم على ثلاثة من جوانب المدينة، وبينما كنا نمر بها للمرة الأخيرة- وصلنا الآن سهلًا منبسطًا- بدت شريطاً شقت فيه الطرق والقنوات، جرف محمّر يصل غلى المنحدرات الخضراء، والحواف الصخرية السوداء، والقمم البيضاء.

زاد القطار من سرعته، وهو يُطارد من قبل الكلاب السريعة، وعبر السهل الرمادي إلى أولى المحطات، إليماني، على بعد 13500 قدم. كانت هناك خراف على القضبان، ونساء هنديات يبعن البرتقال ببنس للواحدة. اشتريت ست برتقالات وصعدت بسرعة بينما بدأ القطار الحركة. بعد الصعود إلى هذه المحطة ببطء، كان من المفاجئ أن يزيد القطار سرعته، وهو يسابق الرياح عبر السهول المرتفعة.

كان قطاراً بوليفيًا. معظم المقاعد كانت خشبية، وقد ازدحمت صناديق الدرجة الثانية بالهنود في طريقهم إلى الجنوب. كانت هذه المقاعد وعربة الطعام على أحد عربات النوم البوليفية لا تسير لأبعد من فيلازون على الحدود.

تنتمي عربة النوم التي أسافر فيها إلى الخطوط الحديدية الارجنتينية، وستسير طوال الطريق إلى توكومان. كان عمر العربة المحلقة هذه خمسين عاماً، جهزت كل مقصورة فيها بخزانة، ومغسلة، ومبولة داخلية. في مقصورتي تختان. فرناندو، طالب صحافة، له التخت العلوي، وأنا السفلي، وكان امتيازاً لقربه من النافذة والطاولة.

قال فرناندو:" أنت معلم، وكل ما تفعله هو الكتابة. يفترض أن أصبح صحافياً، ولا أحمل قلماً حتى. ينبغي أن تكون أنت الصحافي!"

قلت: " معلم جغرافياً." وأنا أواصل كتابة ملاحظاتي. " وأنت ترى هذه جغرافيا غير عادية."

"هذه؟"

كنا ننظر من النافذة. " ذاك على سبيل المثال."

قال:" آه، نعم ذاك جبل كبير."

كان هذا جبل نيفادا إليماني، يبلغ ارتفاعه أربعة أميال، كتلة قاتمة اللون صلدة تحيط بها الثلوج التي خفقتها الرياح. وهو يقع وراء السهل، حيث دكت العاصفةُ العشبَ الرمادي فسوته بالأرض.

ابتسم فرناندو. لم يفهم رأيي أبداً.

قال: " إنّه مسرور بسعادتي في بلاده." وغادر المقصورة.

سرعان ما صار الجبل وراءنا، وكنا نسرع باتجاه جدار غير منتظم من التلال والسحب الممطرة مروراً بحقول القمح، ورقيعات يغطيها الفلفل. كان الأفق الشرقي أبيض مقببًا. مثل خط السماء في بلدة عربية من رواية خيالية، كان هذا هو الطرف الأبعد من السهول العليا، هذه السلسلة من القمم التي تشبه مساجدَ مدفونة في قبابها، ومناراتها الجاثمة، كانت غاية في الرقة، لكنها رائعة التشكيل حد أنّها بدت أحياناً كالسراب جميلة في غرابة. في الجزء الأقرب من خط السكة الحديدية- ولكن شتان ما بينهما-أكواخ طينية صغيرة، ذات فناءات شيدت من طوب الطين، وبعضها ذو مصاريع، ولكن جميعها بلا نوافذ. كانت مغلقة كلها، ولا أضواء فيها، وليس هناك سوى المساكن، وقد بدت مهجورة. في فياتشا، وهي قرية، توقفنا لأخذ بعض الركاب. والآن ليس هناك سوى مساحة للوقوف في الدرجة الثانية، وقد امتلأت المقاعد الخضراء المهترئة فوق طاقتها، واستطعت أن أرى عند المنعطفات ثلاثة أو أربعة وجوه في كل نافذة. حاولت السير عبر القطار إلى تلك المقاعد دون جدوى، فقد كان المرور مستحيلاً- ازدحمت ممرات الدرجة الثانية بالناس وأمتعتهم.

ليس هناك تباين أكبر من دودة اليراعة المحشوة بالبوليفيين هذه، وتلك السهول الخالية.

أن تعيش في أرض منكوبة

كالحياة في زمن موبوء بالنكبات

انظر هاهي الصخور الجبلية المنحدرة

والنهر الذي يشق طريقه فوق الأحجار

انظر هاهي مساكن من يعيشون في هذه الأرض البائسة

ليس ثمة سيارات في القرى، ولا طرقات، ولا أشجار، فقط أكواخ الطين، والأبقار والهنود المتدثرون من البرد.

ماعدا اللاما التي تمرح عندما ترى القطار، والبغال كثيفة الشعر، التي لا تكترث، في طريق سفرها عبر السهول العليا مثل السفر عبر أراضي تكساس. كانت التلال بعيدة، مستديرة بعض الشيء- والمطر ينهمر على أحدها، بينما تغرب الشمس على أخرى- والسماء شاسعة. الآن بدأت القضبان تستقيم جداً، وقبل أن يغيب ضوء النهار تماماً اشتدت برودة الهواء. في هذه الأرض الخالية هندي يدفع دراجة هوائية على درب ثم يقطع حقلاً قفراً، ولاحقاً، ظهرت امرأة تراقب بعض الخراف الساكنة. في الغسق الذي يحتشد، وعلى بعد بضعة أميال، امرأة هندية وطفلان صغيران ساروا بمشقة عبر أحد السهول وهم يقودون خمسة بغال، كانت تنقل أحمالاً من معدات المزارع، والمجارف، والمعاول. في الغروب الغائم، بدت قرية أياوايو- منازل وكنيسة من الطين- مثل محطة نائية من عصر آخر، فهي تقع وسط السهل، وكانت صغيرة للغاية حتى إنّ القطار لم يتوقف.

صارت الأرض أكثر ارتفاعاً، وسلسلة من الجبال العارية الوعرة بدت- شاهقة حتى إنّها توهجت بضياء الشمس الغاربة، على الرغم من أننا كنا نسافر والليل يوشك أن يرخي سدوله. وطارت نسور الكندور أيضاً على ارتفاع عالٍ فنالها من النور نصيب. آخر هندي رأيته في ذلك اليوم كان يعبر مضيقاً سيراً على الأقدام بعيداً عن القطار. كان يرتدي صندلاً دون جوارب على الرغم من البرد.

رأيت ما خلته في البداية تمثالاً للمسيح، ولكن مع اقترابنا، تغير من هيئة إنسان إلى شكل زجاجة.

كانت زجاجة، ارتفاعها عشرون متراً، مصنوعة من الخشب، تقف في الخواء المحض، وعلى جانبها حروف كبيرة تشكّل عبارة إنكا-كولا. بحلول هذا الوقت، كنت قد حدّثت مفكرتي وكنت سعيداً بنفسي: أنهيت عملي لهذا اليوم، وكنت مستقراً في عربة النوم هذه متجها جنوباً نحو الحدود. ذهبت إلى غرفة الطعام، وهناك وجدت فرناندو، الذي كان يحتسي الجعة مع صديقه فيكتور، ورجل ثالث- الذي كان إما ثملاً أو فظًا بطبعه- لم أحفظ اسمه. قدموا لي دعوة للانضمام إليهم، وطرحوا علي الأسئلة الجنوب أمريكية المعتادة: من أين أنا، وأين كنت، وكاثوليكيًا كنت، وماهو رأيي في بلادهم.

اخبرني رجل في الإكوادور أنّهم يكرهون النقد.

لا تنتقدهم أبداً. لم تنجح هذه النصيحة في بيرو حيث المدح هو ما يثير عداءهم ويجعلهم يظنوني متعاطفاً مع حكومتهم الفاسدة. ولكنَّ البوليفيين، إن كانوا مثل فرناندو وأصدقائه بأي حال- رغبتهم في تلقي الإطراء واضحة.

قلت: " بوليفيا بلد رائع."

قال فيكتور: " هي كذلك، صحيح؟". ابتسم ببرود. ووافقه الجميع الرأي.

بالتأكيد نحن نعرف أننا نكذب.

قال فيرناندو: " خذ بيرو."

تحدث البوليفيون الثلاثة عن بيرو لبضع دقائق.

قلت: " كان معظم البيروفيين ليتفقوا معكم".

قال فيكتور:" تشيلي هي أسوأها على الإطلاق."

سأل الرجل الفظّ: " ماذا عن الإكوادور؟"

قال فرناندو:" لديهم دكتاتورية عسكرية."

كانت ملاحظة غير موفقة. كل البلدان التي أتوا على ذكرها بما فيها بوليفيا كانت تحكمها دكتاتورية عسكرية.

قلت: " إكوادور ستعقد انتخابات."

قال فكتور: " ونحن أيضاً."

بعدها بأربعة أشهر أجريت الانتخابات البوليفية. كان هناك إطلاق نار في جميع أنحاء البلاد، إطلاق نار من مدافع رشاشة غامضة، وصناديق مكدسة بالأصوات. اتفق بشكل عام على أنّ الانتخابات كانت مدبرة، ثم ألغى رئيس الدولة الجنرال بانزير الانتخابات. أعلنت حالة الحصار، والآن تشكلت الحكومة في ما يعرف بالانقلاب السلمي. وخلال خمسة أشهر وقع انقلاب مناهض، وآخر يعد بإجراء انتخابات. كانت بيرو تتراجع، كما قال فيرناندو. قال فكتور إنَّ السوق السوداء تفاقمت في تشيلي لدرجة أنك لا تستطيع شراء عبوة معجون أسنان. قال الرجل الفظّ وقعت مذابح للهنود في البرازيل. وقال فرناندو إنه عرف شيئاً أو اثنين عن الصحف: كانت صحف بوليفيا هي الأفضل في جنوب أمريكا لكن نادراً ما تطبع الارجنتين الأخبار الأجنبية. كان الباقي أقاويل متداولة: كانت برغواي مستنقعًا مسكوتًا عنه. وامتلأت كولومبيا باللصوص، وكان البنميون أغبياء جداً، ويقودهم طاغية، ولا يستحقون القناة. واصلنا احتساء الجعة، ومضى البوليفيون يصغرّون من شأن جيرانهم. أشرت إلى وجود بعض السمات القومية المشتركة وأعدت عليهم ما قالته لي تلك السيدة في الإكوادور حول أثر الارتفاع على الوعي الجنوبي الأمريكي. قالوا إنَّ هذا كلام فارغ، وأصروا على المبالغة في الفروقات. الأغرب من كل هذا أنّهم لم يقولوا الكثير عن بوليفيا-ولا يمكن أن تكون بوليفيا أقرب من هذا إليهم: فهي عربة الطعام قديمة الطراز هذه، والندل المسرعون، إنّها الهنود الذين كانوا يسيرون مكبين على وجوههم في الأزقة، و المطر البارد المنهمر على السهل المرتفع خارج النافذة.

قال فكتور الذي ربما كان يقرأ أفكاري: " نحن نعاني مشكلة واحدة في بوليفيا."

سألت:" واحدة فقط؟ "

قال: " واحدة كبيرة، البحر. على التشيليين أن يسمحوا لنا بقطعة منه- أوربما البيروفيون. نحن نحتاج ميناء بحرياً يخصنا. ويترتب على ذلك الكثير من المشكلات الأخرى. ماذا عسانا فاعلين بلا ميناء بحري؟"

قال فرناندو:" إنّه يحبّ الجعة البوليفية."

قلت: " نعم، إنّها جميلة جداً."

قال فكتور:" انظر إلى ذاك الرجل."

كان هناك رجل على طاولة جانبية يحتسي الجعة. عرفت من نظرة واحدة أنّه كان أمريكياً. ارتدى نعلي لمبرجاك، وواحداً من تلك الأقمصة الصوفية المنقوشة على هيئة مربعات التي يفضلها على نحو خاص الخريجون من طلاب جامعات الولاية.

وقد كان طرفا قميصه يتدليان إلى الأسفل، ولحيته كثة. كان يحتسي الجعة من القارورة مباشرة، يرفعها إلى الأعلى ثم يمسح فهمه بساعده، ويكرع.

قال فكتور: " هذا قبيح."

قال فيرناندو:" كان ليطلب كوباً من النادل."

ابتسم الرجل الفظّ :" انظر إلى ذاك غلغ-غلغ-" حاكى الحركة بإبهامه:" من الزجاجة مباشرة."

قال فيكتور:" قبيح جداً."

قلت:" أعتقد أنّه أمريكي."

قال فيكتور: "لابد أنّه ألماني، يحتسي الألمان البيرة هكذا."

كنا نتحدث باللغة الإسبانية- ودون حذر، كما بدا، وبعدها بلحظة وقف الرجل وقال بإسبانية طليقة تشوبها لكنة أمريكية، "أنا أمريكي، وهذه هي الطريقة الأمريكية في شرب الجعة." وأنهى زجاجته، وكرع، وسار باتجاه عربة الدرجة الثانية.

أثناء تناولنا الطعام، اصبت بمغص حاد. استأذنت، وعدت إلى مقصورتي. كان القطار قد توقف. إنّها أورورو، مدينة كبيرة جداً، هندية في الغالب، تقع بالقرب من بحيرة أرو أرو. زاد المطر، كان يضرب على النوافذ في ما يشبه السيل الذي اضفت عليه مصابيح المحطة لوناً فضياً. ذهبت إلى الفراش وأطفأت المصباح، وانكفأت على نفسي لأخفف من حدة التقلصات. استيقظت منتصف الليل تقريبًا. كان الطقس بارداً جداً في المقصورة، ومترباً للغاية- بدا أنَّ الغبار كان من آثار سرعة حركة القطار- وبالكاد استطعت التنفس.

حاولت فتح المصابيح لكنها لم تعمل. جاهدت لفتح الباب لكنه بدا مغلقاً من الخارج. كنت أختنق، وأتجمد، وفوق ذلك كله مصاب بألم المعدة. لم يكن لدي خيار سوى التحلي بالهدوء. أخذت أربع جرعات من دواء المعدة خاصتي، ثم دفنت وجهي في بطانيتي، وانتظرت حتى يبدأ مفعول المورفين.

عرفت في الفجر لماذا لم أستطع فتح الباب،لأنَّ فيرناندو كان قد أوصده بالمزاليج العلوية والسفلية، وكان ما يزال نائماً في التخت العلوي. كنت ما أزال أشعر بالتوعك الشديد. تخيلت أننا بعد خمس عشرة ساعة سنكون خارج السهل المرتفع، وربما كنا نسير في وادٍ أقرب إلى مستوى البحر. لكني أسأت التقدير. كنا ما نزال على ارتفاع 12000 قدم ونسافر عبر صحراء ضيقة من الصخور الجافة، والفوهات الخالية. زاد الكحول من سوء أعراض إعياء المرتفعات، والثمل في الارتفاعات الشاهقة يجعل المرء يشعر أنه قريب من الموت. كان المنظر عاطلاً عن البهجة، وزاخراً بالصخور الوعرة الحادة. سهلٌ من الصوان المضغوط. وليس ثمة هنود هنا حتى في كورديليرا تشيشا الباردة. كانت برك المياه القليلة التي رأيتها بدت متجلدة، ثم لاحظت أنّها كانت قشوراً من الثلج المترب، وما بعدها، شرائط من الثلج تتخللها الأوساخ، مثل الأسلاك الملفوفة وأسمال الملابس التحتية الممزقة.

الثلج. على إفطار قوامه الشاي وشرائح الخبز المحمص، تحدثت إلى فيكتور. بدا لي أنَّ فرناندو (اختفى الرجل الفظّ) قد قرر أن يهرب من كل شيء. اختارا مدينة في بوليفيا الجنوبية، كان القطار سيتوقف هناك في وقت لاحق من النهار. ماذا يخططان لفعله هناك؟

قال فكتور:" لا شيء."

قلت إني أعرف تمامًا ما كان يعنيه.

قال فكتور: " وربما أقرأ. أحب أن أقرأ الروايات الامريكية."

" من هم كتّابك المفضلون؟"

قال بلا تردد " إي بنغ والا، وأيضاً آرثر ايلي، وتايلا كودواي"

قلت: " إنّي لم أسمع بهم قط."

كانت الكتب في حقيبته. ترجمات اسبانية لإيرفنغ والاس، آرثر هايلي، وتايلر كالدويل.

قال:" هذه،" وهو يرفع رواية تايلر كالدويل "عن سيسيرو. ولكني متأكد من أنك قرأت هؤلاء الكتّاب."

" لم أقرأ كلمة واحدة من أيٍ منها."

"ماذا عن كتابك؟"

"إنّها رواية جاك لندن. مكتب الاغتيال. لم أكن أستمتع بها. " لها رائحة سيئة. نقول باللغة الإنجليزية إت ستنكس."

كررها قائلاً: " إيت سديينكس،"

قلت: " أنا أشعر بالتوعك. إنّه هذا الارتفاع. أعتقد أنّ علي العودة إلى الفراش."

ذهبت واستلقيت على تختي، واستندت على الوسادة، وراقبت تقدمنا عبر الجبال المرقطة بلون مسحوق البارود.

خمنت أننا لابد في هبوط من السهول العليا. ما قد أراه من مستوطنات نمر عبرها بكنائس محطمة، وأسيجة متداعية، ولكن ما عدا ذلك كان خواءً لأميال، لا شيء فيه سوى الصخور والنباتات الصغيرة والجداول البنية الصغيرة.

كان فيرناندو وفيكتور يترددان على المقصورة من وقت لآخر، هل أنت بخير؟ كانا يسألان. كنت أخبرهما أني بخير، ولكني ما زلت أشعر بالإعياء وزاد قلقي: شربت آخر جرعة من دوائي ولم تذهب تقلصات معدتي بعد.

مرت الساعات وظل القطار يضرب في الأرض مثيرًا غضب حيوانات النيص التي صارت الآن تعيش في بطني. ثم وصلنا إلى توبيزا، وودعني فيرناندو وفكتور. كانت توبيزا حتى في النهار المشمس كومة من المنازل البنية على سفح الهضبة، بدت موحشة مثل دوغباتش. ثمة نسور تحوّم حولها، وبعض الهنود الفضوليين ينظرون إلى اثنين من الوافدين الجدد، قد يمضيان معهم أسابيع عديدة. كان مجرد التفكير في الوقوف على رصيف في مكان كهذا، ومراقبة القطار يغادر بينما يهبط الصمت على القرية كافياً ليجعل فرائصي ترتعد.

انتقلنا بسرعة عدّاء وطوال الساعات القليلة التالية سرنا مع الضفة الغربية لنهر عريض موحل، نهر الكامبلايا. هنا نمت بعض الشجيرات والصبّار مثل العصي، وحتى إنّ هناك بعض حقول الذرة بين التلال الجافة. اعتقدت عندئذٍ أننا كنا نهبط إلى ارتفاع أقل، لكنه في الحقيقة لم يتغير كثيراً. خدعني اختفاء المغص: شعوري بالتحسن الطفيف جعلني أعتقد أننا غادرنا السهول العليا. ولكن وادي النهر هذا فقط كان خصباً-البقية كانت صحراء جافة وجبلية، منظر كابوس قاس لحد يثير الجنون. كان ريفًا هائلاً فارغاً. هناك أشجار العليق والصفصاف الصغيرة بالقرب من النهر المتلاشي، ولكن البقية كانت زرقاء متربة- التلال، المضائق، وتشابكات الصبّار الملتفة.

صارت التلال أكثر انبساطاً، واختفى النهر من المشهد، وحتى مسافة أميال إلى الأمام لم يكن هناك سوى هذا اليباب. كان القطار يغير سرعته. زحف ببطء على طول السماء الصافية عبر هذه القفار المتتالية. المشهد الوحيد المثير للاهتمام كان في مكان آخر: إلى الغرب حيث كانت هناك الوديان العميقة، وإلى الشرق، سلسلة جبال ذات قمم مكللة بالثلوج، لا تخلو من شرارة الوهم السرابية تلك التي استشعرتها يوم امس بالقرب من لاباز. الانديز: يسميها الناس كذلك لكنْ لا معنى للاسم. وبدا لي الأمر جديراً بالملاحظة أنّ جبالاً ضخمة جدًا تكسوها الثلوج قد تحمل اسمًا بسيطًا عاماً ولا تعرف بأسماء منفردة. ولكن هذه صحراء متنوعة، آلاف الأميال من الهضاب والأشكال الغريبة، التي لم تعرف باسم غير السهول العليا. حتى الخارطة لا تحتوي على اسماء ولا أوصاف لسوء الحظ. تدحرج القطار عبر أرض السحب: حيث كانت هناك نصف دزينة من المحطات، ولكن الباقي كان مجهولاً. والآن كان جميع من في القطار يسافر إلى المدينة الحدودية التي كان لها اسم.

***© © ©***

عندما صارت فيلازون أقرب أسرع القطار وطرد الجحشان التي ترعى لتبتعد مسرعة. وصلنا إلى المحطة: كان الارتفاع معروفاً- كنا على ذات الارتفاع الذي بلغناه في مدينة لاباز. دُفعت عربة نوم الارجنتين جانباً، ونزل بقية القطار على طول هضبة، ثم خرج عن مدى النظر. كان هناك خمسة منا في عربة النوم هذه لكن لم يعلم أحد متى سنعبر الحدود. وجدت المحصّل، الذي كان يسحق الذباب في الممر، وسألته.

قال:" سنبقى هنا لوقت طويل."

جعل الأمر يبدو كسنوات.

لم تكن المدينة مدينة. بل كانت مباني قليلة أنشئت من قبل نقطة الحدود. كانت شارعاً واحداً غير ممهد وبها صف من الأكواخ المنخفضة مثل المتاجر. كانت جميعها مغلقة.

بالقرب من محطة القطار الصغيرة، حوالي عشرين امرأة نصبن مظلات مربعة مصنوعة يدوياً وجلسن يبعن الفاكهة والخبز وشرائط الأحذية. ولدى الوصول إلى المحطة كان جمهور الهنود قد نزل من القطار، وكان هناك شيء مثل الإثارة: لكن الناس قد ذهبوا، وكذلك القطار. خلا سوق السيدات من المشترين، ولم يتحرك شيء سوى الذباب فوق البرك الموحلة. أغراني هذا بالسير على طول الرصيف، لكن ربما سرت أسرع من اللازم- في الطرف البعيد هناك امرأة هندية مجنونة تصرخ وتبكي بجانب جذع شجرة. لم ينتبه لها أي أحد. اشتريت نصف رطل من الفول السوداني، وجلست على كنبة المحطة، أقشره.

سأل رجلٌ يسرع باتجاهي:" هل أنت في عربة النوم؟"

كان مهلهل الملابس، ومنفعلاً.

أخبرته أنني من عربة النوم.

"في أي وقت تغادر؟"

قلت:" ليتني كنت أعلم."

قال:" أنا ذاهب لأحصل على بعض الإجابات."

دخل إلى المحطة، وقرع أحد الأبواب. هدر صوت من داخل المبنى:" ابتعد!"

خرج الرجل من المحطة. قال: " هؤلاء الناس- جميعهم- بُغاة."

سار عبر البرك عائداً إلى عربة النوم. كانت المرأة الهندية ما تزال تصرخ، ولكن بعد ساعة أو اثنتين اعتدت عليها، وصارت الصرخات جزءاً من صمت فيلازون.

بدت عربة النوم سخيفة جداً، وهي منحرفة عن القضبان. ولم يكن ثمة قطار على مد البصر، لا كنبة أخرى ولا عربة مقطورة. كنا على جرف. على مسافة ميل جنوباً، عبر الجسر وأعلى هضبة أخرى كانت مدينة لا كوياكا الارجنتينية، وهي الأخرى كانت مكاناً مجهولاً، ولكن إلى هناك كانت وجهتنا، على نحو ما في وقت ما. جاء خنزير وشرب من البركة بالقرب من قدمي وتنشق قشور الفول السوداني. تراكمت السحب، وتكتلت في سماء فيلازون، وصلصلت شاحنة بالجوار، وهي تطلق بوقها بلا سبب، مثيرة الغبار، ومتجهة إلى بوليفيا. ما زالت المرأة الهندية تصرخ. نساء السوق جمعن صناديقهن وغادرن. كان هذا وقت الغسق، وبدا المكان أشد مواتًا من ذي قبل. هبط الليل. ذهبت إلى غرفة النوم. كانت تقبع في الظلام: لا كهرباء، ولا إضاءة. اكتظ الممر بالحشرات الطائرة. كان المحصل يضربها بمنشفة.

"أي وقت سنتحرك؟"

قال:" لا أعرف."

كنت أرغب في العودة إلى الوطن. لكن التحلّي بالصبر كان أدعى. عليَّ الإقرار بأنّ هذا الخواء كان محتماً. منطقة خالية تقع بين أكثر تجارب السفر وضوحاً. ما نفع نفاذ صبري أو السعي لتقصير هذا الوقت؟ يتعين علي التأقلم مع الأمر.

صرخت المرأة الهندية، ولعن المحصّل الحشرات الطائرة. غادرت غرفة النوم وسرت باتجاه مبنى خافت الإضاءة، ظننته حانة. لا أشجار، وقليل من ضوء القمر: المسافات كانت خادعة. استغرقت نصف ساعة لأصل إلى المبنى. ولم يخب ظني: كان مقهى. طلبت قهوة، وجلست في الغرفة الخالية أنتظر إحضارها.

ثم سمعت قطاراً يصفر.

وضعت فتاة هزيلة حافية القدمين كوب القهوة.

"أي قطار ذاك؟"

"إنّه القطار المتجه إلى لا كوياكا."

"اللعنة!"

تركت بعض المال وركضت دون أن أمس القهوة طوال الطريق عائداً إلى عربة النوم. عندما وصلت، كان المحرك قد ألحق بالعربة، واحترق حلقي من جهد الركض على هذا الارتفاع الشاهق. كان قلبي يدق بقوة. رميت نفسي على تختي وأنا أتنفس بصعوبة.

في الخارج، كان رجل الإشارة يتحدث إلى أحد الركاب.

قال: "حالة القضبان حتى توكومان سيئة."

"ربما لن نصل إلى هناك قبل أيام."

قلت لنفسي: "خسئت هذه من رحلة".

كنا قد عبرنا الحدود إلى المحطة الارجنتينية فوق التل. ثم فصلت عربة النوم وتركنا مرة أخرى على جانب الطريق. مرت ثلاث ساعات. لم يكن في المحطة طعام، ولكني وجدت امرأة هندية كانت تراقب براد شاي يغلي على نار .

تفاجأت بطلبي شراء كوب من الشاي منها، ونظرت إلى المال بامتنان كبير.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وكان في المحطة أناس متدثرين بألحفتهم ويجلسون على أمتعتهم، يحملون أطفالهم على أذرعهم.

الآن بدأت السماء تمطر، ولكني بدأت أنفعل لتوي، تذكرت أنَّ هؤلاء الناس كانوا ركاب الدرجة الثانية، وقدرهم السيء أفضى بهم إلى الجلوس على هذا الركن القفر من القارة بانتظار وصول قطار. كنت أكثر حظاً منهم، فلدي سريري وتذكرة درجة أولى.

ولا شيء يمكن فعله حيال التأخير. عليه فعلت ما قد يفعل أي رجل عاقل، عالق في الحدود البوليفية الارجنتينية في ليلة ماطرة. ذهبت إلى مقصورتي، وغسلت وجهي. ارتديت ملابس النوم واتجهت للفراش.

كان هناك طَرْقٌ على المقصورة: المحصِّل.

"التذاكر من فضلك."

"أين نحن."

"لا كوياكا"

ما زلنا على الحدود.

"متى سنغادر؟"

"في غضون دقائق قليلة."

بالتأكيد، قلت لنفسي، وعدت إلى النوم. لليأس ونفاذ الصبر أثر مهدئ. ولكني استيقظت في وقت لاحق على صفارة القطار، وصرير الحديد، ثم الأصوات السندان الصادرة عن عملية الربط.

في النهاية، كنا على الطريق. نمت لاثنتي عشرة ساعة. استيقظت مرة أخرى في السادسة صباحاً وعرفت أننا وصلنا المحطة. كانت هناك أشجار حور ثلاث خارج النافذة. في وقت مبكر من الظهيرة، استيقظت مرة أخرى. ما زالت أشجار الحور الثلاث خارج النافذة. لم نتحرك.

كانت هذه هي هومانهواكا، بلدة صغيرة في شمالي الأرجنتين. لم نزد في سفرنا على مائة ميل منذ أن غادرنا لا كوياكا، ونزلنا حوالي ألف قدم. كان الطقس معتدلاً مشمساً، يرافق صحوه هسيس الحشرات وصوت أجراس الكنائس البهيج.

كان يوم الأحد، وبدا المكان هادئاً. لم أعتد على رؤية حدائق الزهور- صفوف من الأقحوان– ونوع من الازدهار المستدام. كانت أول محطة قطار رأيتها على مدى أسابيع، ليس فيها خنزير يتشمم قرب القضبان، أو دجاج يقوق في مكتب ناظر المحطة. تحمست لمنظر الترتيب هذا: من الواضح أنّه بلد مختلف، والقطار المتسخ بكنباته التي غزاها الذباب بدا شاذاً عن المحيط هنا.

كانت هناك امرأة جميلة في الأربعين تقريباً تأخذ فتاة حسناء في جولة حول المحطة. قالت باللغة الإسبانية: " هذا هو القطار المتجه إلى توكومان- لقد قطع المسافة كلها من بوليفيا. ألسنا سعداء لمجيئنا بالسيارة؟"

تنهدت الفتاة وهي تنظر إلى البان-أميركان.

أردت أن أرى المدينة، لكني أخشى أن اتدوفل[[73]](#footnote-73).

كانت هاموهاوكا مكاناً جميلاً، ولكنها كانت على بعد أميال من أي مكان، ولن يكون هناك قطار لمدة ثلاثة أيام.

سألت مساعد غرفة النوم عما يحدث.

قال، القضبان. في مكان ما على طول الخط هناك كسر في القبضان، إما بسبب الفيضان أو انهيار أرضي. لم يكن من الممكن إصلاحه في وقت سابق لأنَّ الرجال لم يتمكنوا من العمل ليلاً. كان الأمر جدياً: شيء يتعلق بالبراكين.

قال:" لن يمكننا المغادرة لساعات."

ذهبت متمشيًا في البلدة، ورأيت الهنود يعودون من الكنيسة بالزهور الذابلة. ثم تذكرت أنّه كان يوم أحد الشعانين.

كانت هناك سعادة كبيرة على وجوه هؤلاء الناس، نوع من وهج ما بعد الكنيسة، البهجة المحضة التي تنضوي تحت اسم القداسة.

كان هناك المئات منهم، وقد حمل كل منهم زهرة. ولكن بقية البلدة كانت مغلقة، المطاعم مغلقة، ومرآب الحافلات مهجور. سرت في دائرة من حديقة البلدة ثم عدت إلى محطة السكة الحديدية.

تغير الطقس في الساعات التي مضت منذ وصول البان-امريكان إلى المحطة. جلب القطار القذارة إلى المحطة وحولها إلى كومة من الأوساخ.

قشور الموز والبرتقال تحت جميع النوافذ-كانت المحطة أشد فخامة من أن تتواجد قربها الخنازير لتأكل هذه القشور، وقد تدفقت المياه من تحت الكنبات، وكانت هناك أكوام من البراز تحت كل أنبوب مرحاض. صارت الشمس قوية، وتجمع الذباب حول المقاعد. يصبح هذا القطار السريع المثير في حركته، نتنًا عند سكونه.

اعتقدت أنني الأجنبي الوحيد في القطار. كان علي أن أعرف أكثر. الخبرة علمتني أنَّ هناك ألمانيًا في الدرجة الثانية دائماً، يتثاءب على حقيبة ظهره، ويبصق بذور البرتقال من النافذة.

في هاموهاوكا كان ولفغانغ. صعد على متن القطار في القطاع البوليفي من القطار أثناء انهمار البرد في اورور، وظل يعاني في الدرجة الثانية مذاك.

لم أره على الرغم من قوله إنّه رآني أشتري الشاي من السيدة الهندية في لا كوياكا. كان يسافر لأشهر عبر جنوب ووسط أمريكا وليس لديه سوى فكرة فضفاضة عن وجهته. كان واثقاً من شيء واحد: إن لم يحالفه الحظ للعثور على وظيفة في بوينس أيرس سيظل في الأرجنتين لبقية حياته.

بصراحة، كان تواقاً للعودة إلى وطنه، كما قال. أحياناً في وجود شخص كهذا- وقد قابلت الكثير منهم- شعرت بالخزي أكثر كوني سافرت سريعاً من بوسطن. قبل شهرين، صعدت على متن قطار ليك-شور المحدود في محطة ساوث، وبعد أيام قليلة من انهمار الثلج كنت أجلجل تحت سماوات صافية متجهاً إلى المكسيك.

لم أُسرق، أو أقع في شدة من المرض: رأيت أماكن جميلة، وقابلت أناساً لطفاء. ملأت مئات الصفحات من مفكرتي، والآن أشعر بالثقة من أنني سأصل إلى إسكويل في باتاغونيا. البلدة الصغيرة التي رأيتها على خارطتي، أصبحت وجهة عشوائية.

مررت بمعظم البلدان، وكنت دائماً أختصر الحديث عندما ألتقي بمسافر كان يخطط لإمضاء شهر في- لنقل- بارنكويلا، أو كوزكو. " أنا لم أحب الإكوادور." أخبرني أمريكي في بيرو:" ربما لم تمنحها الوقت الكافي." لقد كان هناك لمدة شهرين، كانا بالنسبة لي مثل الأبدية.

كانت قصة ولفغانغ مشابهة- شهر هنا، وشهر هناك، وشهران في مكان آخر. لقد كان مقيمًا فعليًا في هذه الأماكن، كان مثل رجل يبحث عن حياة جديدة. عرفت أني كنت بالكاد أمسح الطريق باتجاه الجنوب، طائر مهاجر يستطلع الحال.

لكن لأني لا أملك آلة تصوير، كتبت الكثير، انطباعات عما رأيت كانت حية. واستطعت تذكر المكسيك أو كوستاريكا بمجرد النظر إلى الحوارات التي كتبتها، ومن تفاصيل رحلة القطار من سانتا مارتا إلى بوغوتا شعرت بالقدرة على إعادة ابتكار كولومبيا. كان السفر فوق كل شيء امتحانًا للذاكرة.

إذن، جزئياً لقتل الوقت- ما زال القطار واقفاً في هاموهاوكا- وجزئياً لتخليص نفسي من الذنب الذي شعرت به مع شخص لم ير فيّ أكثر من سائح. سألت ولفغانغ عما يتذكره من الأماكن التي رآها.

قلت:" إنّه اختبار. سأقول اسم مكان وتخبرني أفضل ما تتذكره عنه. تظاهر بأني شخص لم يسافر قط- أريد أن أعرف ما هي عليه هذه الأماكن. حسناً؟"

قال: "هذه لعبة رائعة."

"مستعد؟ انطلاق. المكسيك."

قال ولفغانغ: " يعاني الأمريكيون مشاكل كثيرة هناك."

"غواتيمالا."

"فوّت الحافلة إلى سان سلفادور، وما زالت حقيبة ظهري عليه، وكذلك جواز سفري. أنفقت ثلاثة دولارات على المكالمات الهاتفية. كانت مريعة."

"نيكاراغوا."

"ما كان علي الذهاب إلى هناك."

"كوستاريكا."

"رتيبة."

"كولمبيا."

"الكثير من الأكل الطيب في الأسواق لكني مرضت هناك."

قلت:"ربما كان هو الأكل. ماذا عن الإكوادور؟"

"أمضيت شهراً هناك، أحاول أن أستقل الحافلات."

"بيرو."

"لطيفة ورخيصة."

"بوليفيا."

"جميع الناس في بوليفيا أغبياء."

"الأرجنتين."

قال "سأظل هنا لبضعة أسابيع أو أشهر. إذن؟ هل نجحت في الاختبار؟"

" لقد رسبت يا ولفغانغ."

أصبح عاقلاً فقط عندما تحوّل الحديث إلى سعر الصرف. كان هنا 670 بيزو مقابل الدولار، ولكن هناك بلدات وصل فيها السعر إلى 680. كان الفرق أقل من سنت، ولكن ولفغانغ مثّل تجسيدًا للمقولة التي ابتدعتها مسبقاً في هذه الرحلة: إنّ المسافر الأشد إهمالاً في مظهره هو من لديه فكرة دقيقة عن سعر الصرف.

لم يكن ولفغانغ يبحث عن حياة أخرى. السفر بالنسبة له كما هو لكثيرين غيره، طريقة أخرى لتوفير المال.

بدون أي انذار بدأ القطار التحرك. ركضنا من حيث كنا نقف على الرصيف وقفزنا على القطار. ولفغانغ للدرجة الثانية وأنا للأولى. لم أره مرة أخرى حتى يومين بعدها في توكومان.

سافر البان امريكان عبر وادٍ منبسط أخضر، بجانب نهر واسع جداً لكنه جاف تقريباً- اليو غراندي دي خوخوي.

انبثقت الجبال سريعًا من قلب الوادي. كانت قديمة، متصدعة، عالية الارتفاع، وبلا شجرة واحدة في السلسلة بكاملها. كانت الجروف قرمزية حيث انكشفت للرياح، ملطخة باللونين الماروني والبرتقالي- كانت هذه هي الجروف العالية والقمم، وكانت التلال الأقرب إلى النهر مثل أكوام من الطين.

هذه هضابٌ صغيرة، وحقيقة أنَّ الجبال هنا بلا أية غطاء نباتي أضفت على السلسلة الجبلية مظهر السلطة الباطشة: كانت التضاريس مكشوفة، والحواف وعرة بسبب الانهيارات الصخرية، وقد أكسبتها التعرية لون البياض، وبدت القمم المستديرة للمنحدرات الأكثر انخفاضاً مثل الخيام المتداعية، أو الألحفة- بالثنيات ذاتها- التي يستخدمها الهنود لتغطية مقتنياتهم. جرى غدير بني من خلال قناة شقت في النهر. كان هذا هو كل ما تبقى من ريو غراندي- وعلى كل ضفة كانت هناك أشجار الحور والصفصاف والصبّار والبيوت المبنية من كتل الطين في أطراف الحقول المحروثة. كان منظراً غريبًا، الجبال الجرداء فوق الوادي الأخضر، ومجرى النهر الواسع الذي ليس فيه سوى القليل من الماء، والبَشَريُّ الوحيد رجل عجوز، مثل الصورة النمطية للمستكشف الأشيب الذي يتردد بين الضفتين.

كانت هناك بعض حقول الذرة، وحدائق الطماطم وزهور عباد الشمس، وبساتين الملفوف الأزرق الذي بدا أكبر من الأكواخ عديمة اللون. كنا نتحرك ببطء عبر الأرجنتين ولكن هذا الارتفاع كان أفضل ملاءمة.

تمكنت من الشعور بالتغيير في نفسي، ونمت جيداً. أحببت مظهر الأرجنتين. كان المشهد واسعاً منبسطاً وخصباً. بدت قليلة السكان، مستوطنة قيد الانتظار، وكان من السهل فهم لماذا جاء الويلزيون، والألمان، والطليان إلى هنا واختفوا، ساحبين ثقافتهم إلى واد جبلي ومتجاهلين بقية العالم.

تدفق الغبار من نافذة مقصورتي. كانت يدي الجريحة هي مصدر قلقي. غسلتها وغيرت الضمادة. كنت متأكداً من أنَّ الغبار إذا دخل إلى جرحي الذي لم يشف بعد، فسيصاب بالعدوى.

توقفت العاصفة الرملية في تيل كارا التي تقع تحت أشجار الحور على جانب الجبل. ثمة أشخاص يتنزهون هنا، وبدت مثل جزء ناءٍ من إيطاليا. كان الأشخاص في الغالب من المستوطنين الطليان، المرأة العجوز في زيها الأسود، والرجال مكتنزي البطون يقفون في ظل أشجار التفاح. ولكن تيل كارا كانت واحة. بعد مائة ياردة خارج البلدة، وبعد لافتة [لا تحطموا الأشجار] من الغرابة بمكان، كانت من إمارات التمدن، بدأ الغبار في الطيران، والجبال العارية اكتست علامات من الحجر الرملي الأصفر. كنا قد عبرنا مدار الجدي. كان الخط فعليًا. أحفورة تمتد فوق الجبال، كانت في ذاتها موسومة بالشرائط المطبقة مثلما في الخرائط الطبوغرافية، قرمزي، برتقالي، أخضر، حقاً، كان المشهد بسيطاً ملونًا بوضوح مثل خارطة نسخت بدقة على مربع من الورق أمامي: خط السكة الحديدية الأسود يمتد عبر الوادي البني المحدد باللون الأخضر والكنتور القرمزي والبرتقالي في مواضعه الصحيحة. كان هذا بالقرب من مايمارا. كانت هناك منازل قليلة بادية للعيان، ولكن الكنيسة الصغيرة الصفراء بنيت في منتصف القرن السابع عشر. بدا الناس في هذه البلدات الأرجنتينية كما لو أنهم سيظلوا هناك للأبد. بينما في بوليفيا، بدت البلدات على وشك أن تهجر. ذكرني كلب أعرج في مايمارا بأنني منذ مغادرتي الولايات المتحدة، لم أر كلباً لم يكن أعرجَ، أو امرأة لم تكن تحمل شيئاً، أو هنديًا بدون قبعة، أو – في أي مكان- قطة.

كان من المفترض أن نظل في مايمارا لثلاث دقائق لا أكثر ولكنا لم نزل هناك بعد مضي ساعة، في شمس ما بعد الظهر المشرقة. جلست على عتبات الرصيف، ودخنت غليوني. وجاء رجل كان يسير على درب بالقرب من قضبان السكة الحديد لدى رؤيتي وسألني إلى أين كنت أذهب. كان قصيراً وداكن البشرة جداً، بعينين كالشقين، ووجه عريض، ويدين منتفختين.

افترضت أنّه كان هندياً أو نصف هندي- وصل الأنكا إلى هذا البعد وما وراءه حتى. في بعد خوخوي.

أخبرته أني كنت متجهاً إلى توكومان على هذا القطار. قال إنّه كان هناك بركان على مسافة باتجاه الجنوب، وأنّه تسبب في انهيار طيني وقطع القضبان ففصلها. بدا لي أنّهم يحاولون إصلاحها، ولكن في أي حال تفصلنا عن خوخوي أربع ساعات، وكنت بالتأكيد لن أصل إلى توكومان قبل الغد.

قال هذا القروي الداكن البشرة: " ما هو المغزى من السفر؟ كنت أجوب ارجاء البلاد، خوخوي، لا كوياكا، كل الأماكن. ولكن لم يكن أيٌ منها في جمال مايمارا. لدينا التفاح، والذرة، والكمثرى- كل شيء تحتاجه. الزراعة سهلة هنا، وهي مدينة جميلة. رأيت فيلازون مرة- وكانت قبيحة حقاً. سأكره العيش هناك. هنا. لدي كل ما أحتاجه."

"عظيم."

قال: " عليك أن تبقى هنا."

"لا يبدو أنَّ القطار سيتحرك، عليه أظنني سأقيم هنا."

"إنّه البركان- لقد حطم القضبان. إلى أين تتجه بعد توكومان؟"

بيونس آيرس، ومن ثم باتاغونيا."

"باتاغونيا! تلك بعيدة جداً ويتحدثون لغة أخرى هناك." ابتسم. " إذن أنت في لا كوياكا ومتجه إلى باتاغونيا. إنهما طرفا نقيض الأرجنتين. ما كنت لأذهب إلى هذه الأماكن أبداً. سأفضل البقاء في داري."

"بعد باتاغونيا، سأعود إلى وطني."

"هذه هي الفكرة. لابد أنّه من المريع أن تكون في مكان بعيد جدًا عن وطنك في ظهر يوم أحد مشمس مثل هذا."

"إنه مشمس هنا. أنا متأكد إنّها تمطر في وطني."

قال:" هذا مثير للاهتمام." وشكرني.

اختفى وراء أشجار الحور المجلجلة.

إلى الجنوب من بورما ماركا مباشرة في حوض نهر جاف- كان الوادي العريض محفوفًا بالجبال الغائمة- رأيت موكب أحد الشعانين. خمنت أنّه كان كذاك ولكنه ربما كان أي شيء آخر. كان هناك ألفا شخص على الأقل يشقون طريقهم على طول حوض النهر. كان الكثيرون على ظهور الجياد، وبعضهم يلوح بالأعلام والرايات، وكانت هناك فرقة ترتدي ملابس جميلة، وهي مصدر الشهقات الحزينة. بالقرب من الموكب حمل بعض الناس صندوقاً أبيض، تابوتًا، رمزيًا أو حقيقيًا. وما جعل هذه المجموعة غريبة على نحو خاص هو السماء التي انخفضت فوقهم. كانوا مجموعة من الأشخاص الضئيلين في جصية عملاقة، كانت السمة المهمة فيها هي العضلات الجرانيتية في هذه الغيمة المقتربة.

تحرك القطار، واستمرت السحابة في الانخفاض. وانزلقت على الجبال إلى الوادي وعلى طول حوض النهر. كانت تطفو على أسطح الأشجار، وأظلمت السماء في الظهيرة. تغير المشهد خلال خمس عشرة ساعة من مظهر قوة الأرجنتين المتفوقة إلى بعد الظهيرة الباكي في نيو إنجلاند. بلغ مدى الرؤية حوالي 50 ياردة.

وكان الطقس دافئاً وأبيض شاحبًا، عالم من الشبحية المفاجئة.

بدأت تمطر، وبجانب القطار كان هناك انهياران طينيان. كان الضرر واضحاً، تحطم الجدران، والسقوط على الأنابيب، واندفاع المياه على زكائب الرمل. تعلقت على الباب حتى أرى الانهيار الارضي، وقال مساعد غرفة النوم من خلفي: " هذه هي فولكانو."

"لم أدرك وجود البراكين هنا."

"لا، المدينة تدعى فولكانو."

لقد فهمت الأمر خطأ. ما كنت أظنه بركاناً- الأوصاف التي سمعتها على طول الخط- كانت اسم المدينة فقط.

سألت: "كيف نبلي؟"

"سنصل إلى بوينس أيرس متأخرين يوماً ونصف."

لقد أمضيت بقية ساعات النهار أقرأ كتاب فردرش ديرينمات نهاية اللعبة. عنوانه الأصلي أفضل: القاضي وشانقه.

بعد حبكة جاك لندن الضعيفة السخيفة صدمني ديرينمات بالذكاء والضرورة أيضاً إذ أنّه قليل الحكمة. وقد جعله هذا الأمر يبدو كأنه حكيم. أفضل الكتب للقراءة في القطار هي ذات الحبكة الجيدة، وهي طريقة لتبديد عشوائية الرحلة بالنظام.

رأيت في خوخوي النهر الذي كان جافاً على مسافة بضعة أميال شمالاً في أوج فيضانه. نهر ريو غراندي هنا اسم على مسمى. اصطفت على طول ضفتيه الأشجار الوارفة والأزهار، وطفا فوق الماء ضباب مسائي. بدت خوخوي وادعة رطبة. كانت مرتفعة بما يكفي لتكون جميلة بدون ولا حالة واحدة من إعياء المرتفعات.

ضمخت البراعم التي بللها المطر الهواء المظلم، وهبت نسمة عليلة من اتجاه النهر. بدا المكان ساكناً، لكني سمعت لاحقاً أنَّ خوخوي ضربت بفيضان بلغ من السوء حد إجلاء آلاف الناس من منازلهم. لم يكن ممكنا رؤية كل شيء من القطار.

كانت المحطة تكتظ بالهنود الذين جاءوا لاستقبال الهنود اللذين كانوا على متن هذا القطار القادم من الحدود. كان هذا هو آخر مكان في الارجنتين أرى فيه عدداً كبيرًا من الهنود، وفي الارجنتين أناس كانوا ينكرون وجود الهنود في هذا البلد بأعداد كبيرة.

عليه بدت خوخوي مثل بلدة حدودية ما، في نهاية سلسلة الإنكا العتيقة. كانت خضراء، بلدة مدفونة في وارف من نباتات السبانخ.

كنت لأسعد بالبقاء هنا، وكدت أن أفعل، ولكن بينما كنت أقف على الرصيف رأيت عشرين مركبة تُلحق بقطارنا، ومعها عربة طعام جميلة. كان شعوري رائعاً: لا تقلصات، لا إعياء مرتفعات، واستعدت شهيتي(وكنت حتى الأمس فقط أجلس في فيلازون آكل الفول السوداني)، وفي عطش. ذهبت إلى غرفة الطعام، وطلبت قنينة نبيذ. أعد النادل، الذي كان يرتدي زياً موحداً أسود كل الطاولات- مفارش الطاولات، الأدوات الفضية، آنية الزهور. ولكن هذه التجهيزات كانت سابقة لأوانها. كنت العميل الوحيد في تلك الليلة. (نحن الآن نشق بلدة الجنرال ميغويل مارتن دي غوميز إلى توكومان)، تكوَّن العشاء من خمسة أطباق، حساء الشعرية المنزلي، والسجق والعصيدة، و ضلوع العجل وسلطة القديد، والحلوى. رغم وقوف النادل بالجوار- مزودا اياي بقنينة نبيذ جديدة بين الفينة والأخرى- بعد انتهائي وإشعال غليوني، جلس معي، وقرع كأسي بكأسه، وتحادثنا.

كان يتحدث اللغة الإسبانية بلهجة إيطالية واضحة- وهذا ما يفعله الكثيرون في الارجنتين. ولكن لغته الإيطالية كانت ضعيفة. قال: " أنا إيطالي." ولكنه قالها على غرار ما يقول الأمريكيون عن كونهم بولنديين، أو أرمينيين: إنه إدعاء المهاجرين، أو ذريعتهم، في بلد غير معروف.

قال: " نحن محظوظون بالسفر على متن هذا القطار، إنّه أول قطار منذ أسبوعين ينجح في اجتياز فولكان. هل رأيت الانهيار الأرضي؟"

فعلت، أزاحت تلة الطين الأرصفة على الناحية الأخرى من الخط الحديدي. " حاولت قطارات عديدة العبور قبل أن ينهار النصف الثاني، صوت زقزقة- انحرفت عن الخط. لذلك توقَفَت عن المجازفة. بقيت جالسًا هنا لمدة أسبوعين أنتظر وصول قطار."

يا له من قدر: هذا المضيف ينتظر البان امريكان أسبوعين في خوخوي، ثم يأتي، يلحقون به عربة الطعام هذه، وكل ما يحصل عليه هو زبون واحد- أنا. لكن لم تبد عليه الخيبة.

" أي بلاد زرت؟"

أخبرته.

"وأي منها أحببته أكثر؟"

إنهم يمقتون الانتقاد.

قلت:" الارجنتين."

قال:" بقيتها في فقر شديد. أتعلم كم تكلف أفضل شريحة لحم هنا؟ خمّن."

خمنت أنّها منخفضة جداً: ما يعادل خمسين سنتاً من عملة البيزو.

قال- وكان منزعجاً قليلاً- رطلٌ من شرائح لحم الخاصرة الطريّ يكلف خمسة وسبعين سنتاً. بدت لي حجة مثيرة للريبة على الرفاهية في بلد يتراوح معدل التضخم السنوي فيه ما بين 300 إلى 400%. تقّل قيمة البيزو كل يوم، ويرتفع سعر كل شيء عدا شرائح اللحم. يتناول معظم الأرجنتينيين اللحم مرتين يومياً، وحتى أدنى الكتبة رتبة يطلب قطعة كبيرة منه، مع البطاطا المقلية في وقت الغداء. ويذكرني هذا بأعنف ما قرأت من نقد للأرجنتين ل ف. س. نيبول. نشرت مقالاته في عرض الكتب بمجلة نيويورك، وأثارت جدلاً كبيراً. لم يلفت أحد من قبل الانتباه إلى كراهية نيبول للأرجنتين، ولكن ربما لم يُعرف حينها أنّه كان نباتياً.

"ما رأيك بهذا القطار؟"

افعل ما يحلو لك عدا ان توجه لهم نقداً.

" إنّه واحد من أفضل القطارات التي رأيتها في حياتي."

"لابد أنّه الأفضل. إنّه مجهّز جيداً- مقاعد تسمح بالاستلقاء، ومساحات واسعة، ووسائل راحة. لكن انظر إلى الناس! إنّهم في الدرجة الأولى ويبصقون على الأرض، ويعلقون ثيابهم على حوامل المصابيح، ويضعون أقدامهم على المقاعد الجميلة." أومأ بإشارة استهزاء إيطالية محاكيًا السذج الذين كان يصفهم، وجد الطباخون الذين انضموا إلى مجلسنا هذا الأمر مضحكاً للغاية.

"أتراهم؟ ماذا عسانا فاعلين؟ إنّهم لا يعلمون كيف يستقلون قطاراً، هذا هو لبّ المشكلة."

كان يلقي اللوم على نحو عامٍ. لم يحدد فئة بعينها، وهذا هو المثير في الأمر، لم يأت على ذكر الهنود. شعرت بالراحة لهذا. إحدى متع الأرجنتين- وهي من متع كوستاريكا أيضاً- أنّ بوسع المرء أن يكون نكرة تماماً. كانت الوجوه في قطار البان امريكان في هذه اللحظة هي الوجوه التي قد يراها المرء في أي قطار بالولايات المتحدة، أو أوروبا في هذا الصدد. لم يكن صعباً في الأرجنتين أن تدخل وسط زحام ما وتختفي. كان أمراً مريحاً أن أكون مغموراً، وأضفى على سفري المزيد من البساطة، وسمح لي بالبحلقة في الناس لأطول فترة دون أن يلاحظ وجودي أحد.

نمت جيداً في تلك الليلة، ولكني استيقظت لأسمع المضيف وهو يطرق على باب مقصورتي.

هتف: "استيقظ، لقد وصلنا إلى توكومان. انهض!"

فتحت الباب.

"اسرع سيدي. لقد غادر الركاب الآخرون جميعهم."

"كيف يمكنني الذهاب إلى أيرس؟"

"لقد فاتك القطار. عليك اللحاق بقطار نجمة الشمال اليوم. انظر،" قال وهو يسحب حقيبتي خارج الباب،" كنا هنا في الليلة السابقة، يواجه جميع الركاب الآخرين المشكلة ذاتها."

ساعدني على الخروج إلى محطة بيلغرانو في توكومان التي اكتست بلون الفجر الرمادي. كان برد الصباح قد تكثف بالفعل إلى رطوبة تشبّع الهواء. ثمة ضباب يلف أشجار النخيل في حديقة المحطة بغلالة من الغرابة. وضعت حقيبتي في نافذة الأمتعة اليسرى، وذهبت لتناول طعام الإفطار.

==================

**---**

**-19-**

**قطار نجمة الشمال إلى بوينس أيرس**

La Estrella del Norte

("The North Star")

to Buenos Aires

**---**

حباني القدر بضربة حظ. لا سبيل لمغادرة السهول العليا- عالم القذارة ذاك- أفضل من التسلل ليلاً عبر حدود الأرجنتين المنبسطة، لأتعرف إلى مقارها الخالية صباح اليوم التالي، وفي الغداة، وصلت إلى العاصمة الإقليمية الكبرى، وتجولت في شوارعها والمدينة لم تستيقظ من نومها بعد.

لم تتجاوز الساعة السابعة والنصف: حتى متاجر القهوة لم تفتح. أشجار النخيل الملكي والأروكاريا تقطر بالندى في غمرة الضباب. كان هذا يومي، فبوسعي أخذ قطار الشمال في المساء على غرفة النوم والاستيقاظ في بوينس آيرس إن لم يقنعني شيء بالبقاء في توكومان. وهو مسار لا يخلو من مجازفة. في مفكرتي قصاصة اقتطعتها من صحيفة في بوغوتا، حيث ينعي العنوان المكتوب باللغة الاسبانية: وفاة 50 شخصاً في مأساة السكة الحديدية بالأرجنتين. " القطار، نجمة الشمال، كما قالت الشرطة، كان بصدد مغادرة محافظة توكومان عندما اصطدم بشاحنة ثقيلة في أحد التقاطعات الأرضية. لم ينقضِ شهر واحد بعد على الحادث الذي أذيع بكل ما لشعب جنوب أمريكا من حماس للنكبات.

قال لي حمّال في محطة توكومان: " سوف لن تجد صعوبة في الحصول على تخت في ذلك القطار، فقد أصيب الناس بالذعر من ركوبه منذ حادث اصطدامه".

كانت توكومان أقدم، وأكثر انبساطاً ونظافة، ورتابة مما توقعت. كانت بلدة إقليمية نموذجية، نائية مكتفية بذاتها، وكونها بلدة أرجنتينية، لذلك يغلب فيها الطابع الأوربي بالكامل على الطراز القديم، بداية من البدل المقلمة، والشوارب السود للرجال المسنين الذين يتسكعون في المقاهي، أو يلمعّون أحذيتهم في الميدان، وحتى الأزياء المدرسية الهلامية الفضفاضة للفتيات اللواتي يتوقفن في طريقهن إلى مدرسة الدير حتى يعصرن بأيديهن ركبة المسيح في صليب الكاتدرائية- تعبيراً عن التقوى. كانت أوربا القديمة تتجسد في واجهات المنازل بوسط المدينة، وفي جميع الأعمال الورقية بالمصرف (تدوّن جميع الصفقات في ثلاث نسخ)، وفي بهجة النساء المفتعلة بالتسوّق، والنفخة الكاذبة، وتصفيفات شعر الشباب. كانت البيوت فرنسية، المباني الرسمية إيطالية باروكية، والأضرحة والتماثيل جنوب أمريكية خالصة- كانت تبرز أكثر مع التوغل جنوباً، ويزداد عرى الآلهات والجنيات، ويغدو الأبطال أصلب عوداً، ووضعياتهم أشد شراسة.

بعد الهنود ذوي الأقفاص الصدرية البرميلية، الذين يعيشون بين الصخور في الهواء الطلق بالسهول العليا، والمزارعين في القرى المتداعية بالقرب من الحدود، وأودية  الشمال التي يجري فيها النهر المتثائب المتصدع، كنت مستعداً لمواجهة أي شيء عدا توكومان.

كانت كئيبة، ولكن الكآبة كانت جزءاً من مزاج الأرجنتين.

لم تكن سوداوية دراماتيكية، بل انقباض الروح، و الحزن المشوب بالشعور بالذنب الذي ينتاب المهاجرين في الظهيرة الماطرة بعيداً عن المنزل. لا شقاء هناك، وإن كانت هناك أعمالٌ وحشية، فهي تظل أسراراً خفية، وتمارس في غرف التعذيب بأقسام الشرطة، أو المعسكرات المكتظة بالعمال في مزارع القصب. بلغت الساعة الرابعة بعد الظهر قبل أن أعثر على حانة- لهذا الحد كانت توكومان نقية.

أستغرقت نزهتي على الأقدام النهار بطوله. كان اليوم غائماً ومشبعاً بالرطوبة، وكان الضوء ضعيفاً لحد أنّ المصوّر في ساحة الاستقلال (أُعلن استقلال الارجنتين من توكومان في 1816)، لم يحصل على صورة مناسبة لي حتى كرر المحاولة.  وما الذي- ربما النغمات الكئيبة من فيلم لبونويل[[74]](#footnote-74)؟- جعلني أخال توكومان مكاناً من النوع الذي قد يُبعث إليه طفل بريء ليقضي أسبوعاً مروّعاً في صحبة عمته العذراء، بين منازل الورثة المتربة.

تخيلت خادمات حسناوات مضطهدات في منازل ضيقة، والدقات المستمرة لساعات مصنوعة من الذهب المقلّد في ردهات ذات أسقف عالية.

 لكن هذا محض خيال، ورتوش متسكع.

وجدت مكتباً سياحياً. قدمت لي السيدة ثلاث مطويات، تحثني كل منها على مغادرة توكومان: لأذهب إلى الجبال، وإلى الغابات خارج البلدة، وإلى زيارة خوخوي، وأثار هذا استغرابي. من الواضح أنّ  موقع توكومان على بعد يوم واحدٍ بالسيارة من خوخوي هو أحد أسباب جاذبيتها

تمثل مصدر العجب في توكومان في النسخ المبتذلة من تماثيل خيالة براري أمريكا الجنوبية- مجموعات الكرات، وألعاب الفروسية، والخناجر باهظة الأثمان، وكانت هناك أيضاً غرابيل الملح، والمآزر، والتقاويم، والصناديق المصنوعة من ألياف الصبّار، جميعها تحمل وسم توكومان. كانت المكتبات تثير انبهاري أكثر من أي شيء آخر رأيته في هذه الرحلة، أو ربما كان هذا انحيازاً عنيداً شكلته بعد رؤية ثلاثة من مؤلفاتي مترجمة إلى الإسبانية على واجهة العرض؟  كتبت ملاحظة عن عنوان الناشر في بوينس آيرس: كنت لأجري بحثاً عنه عندما أصل. لم أفعل الكثير في توكومان عدا شراء بيتزا، سميكة، على الطراز النابولي، مزينة بأسماك الأنشوجة. ذكرني هذا بالمداخلة الحزينة التي سمعتها في بيرو، إذ قال أحدهم: "الأوقات سيئة للغاية في بيرو. حتى الأنشوجة هجرت مياهنا وسبحت بعيداً." وبينما كان النهار ينجلي صرت أكثر صرامة في قراري بمغادرة توكومان على قطار نجمة الشمال.  التقيت بولفغانغ في وقت لاحق، وسرنا معاً إلى محطة القطار. كان سعيداً. ارتفع سعر صرف الدولار في أربع وعشرين ساعة إلى خمسة بيزو. " وسيرتفع أكثر في الغد." سَرَّه ما آلت إليه الأمور. ورأيته في بوينس آيرس وهو يستيقظ كل صباح ليتحقق من الارتفاع في معدل التضخم. كان ولفغانغ يرى في التضخم ربحاً وفيراً.

كان قطار نجمة الشمال ينتظر على الرصيف. تنهد ولفغانغ وقال: "بعد هذا لن أستقل أي قطار."

"أترغب في قراءة شيء ما؟" أخذت رواية دورينمات وناولته إياها.

قال بعد أن تفحصها:" قرأتها من قبل باللغة الألمانية." ولكنه احتفظ بها قائلاً: " بوسعي ممارسة لغتي الإنجليزية."

كان أوزوالدو صاحب التخت السفلي في مقصورتي على قطار نجمة الشمال، مندوب مبيعات سريع الحديث، وثّاباً، في طريقه إلى روزاريو لبيع بعض اللحم. كان يرغب في السفر بالطائرة، ولكن شركته اعترضت لارتفاع التكلفة. " لقد اصطدم هذا القطار ذاته قبل شهر تقريباً. قتل الكثيرين- واحترقت الأسرة، كان حادثاً فظيعاً." نظر من النافذة، وهو يباعد بين الستائر. آمل ألا يحدث معنا هذا. لا أريد أن أتعرض لحادث قطار. ولكن ينتابني شعور سيء حيال هذا القطار."

كان الحوار معه يبعث على الكآبة الشديدة، لحد أنني انسحبت منه إلى عربة الطعام، وجلست على الطاولة وفي يدي صحيفة توكومان، وقارورة من الجعة. كان هناك خبر شامت في الصحيفة عن أحزاب اليمين وفوزها في الانتخابات الفرنسية، وعن الاختطافات في إيطاليا ("لقد غادر إرهابيونا جميعهم إلى أوربا"، قال لي رجل ارجنتيني في بوينس ايرس. تفوح الانتقامية من شفقته. " والآن ستعرفون طعم ما كنا نقاسيه.". الصحافة في الأرجنتين صنعت ثروة سياسية من نشر أخبار البلدان الأخرى." "بعد إذنك،" قال اوزوالدو وهو يجلس في طاولتي. كان يحمل كتاباً إسبانيًا مصوّراً، سمكه بوصة تقريباً، وعنوانه دارتنيان- اسم الرجل المثير المتعجرف على غلاف الرواية. لم تبد القراءة مغرية حتى بالنسبة لمندوب بيع اللحوم. تجاهلته ووجهت نظري إلى الخارج عبر النافذة. غادرنا توكومان، والمدينة، ثم المحافظة، ودخلنا مقاطعة سانتياغو ديل ايستيرو المتاخمة. في غسق مكلل بالضباب، كانت حقول القصب وبساتين البرتقال وافرة الخضرة، مثل إيرلندا في الغلس. ثمة نيران في بعض أفنية المزارع، وما يكفيني من الضوء لأتبين سقائف عمال قَطْع القصب المصنوعة من الطوب في صف من الأسطح، وعلى البعد أسقف وأعمدة منازل الملّاك، والجياد الجميلة تقف بجوار السياج. ثم هبط الظلام على حقول القصب، والإشارة الوحيدة على الحياة هنا  هي الأضواء الصفراء للسيارات التي تسير راجفة في طرق البلاد.

قال اوزوالدو وقد وضع كتابه المصوّر جانباً: " هذا هو المكان الذي وقع فيه الحادث."

اتكأ مرة أخرى على الطاولة، كما لو كان متوقعاً أن يُلقى به من مقعده، ولكن القطار استمر في السير باتجاه الارجنتين. وكان هناك رجل يغني في المطبخ.

قُدم طعام العشاء في الساعة العاشرة- أربعة أطباق، تشتمل على شريحة لحم سمين، مقابل دولارين. كانت عربة طعام يرتدي النادلون والمضيفون فيها أزياء أكثر رسمية من ملابس الطاعمين.

كانت الطاولات مشغولة كلها، جمع من مقلدي الأوربيين الصاخبين المتخمين. انضم إلينا رجلان، وبعد فترة من الصمت، وبعض النبيذ، بدأ أحدهما يتحدث حول سبب ذهابه إلى بيونس آيرس: أصيب والده بنوبة قلبية للتو. كان يتحدث بلغة إسبانية أرجنتينية عاطفية، محوّلًا كل صوت "ل" مضاعف إلى صوت "ذا" الروسية.

قال الرجل- وهو يحشو فمه بالخبز: " والدي في الخامسة والثمانين من العمر، لم يمرض يوماً في حياته. كان يدخّن طوال الوقت، يأكل لفافات التبغ فعلياً. كان قوياً وصحّياً. تفاجأت عند الاتصال بي وإخباري أنّه تعرض لنوبة قلبية.

قلت:" لم يمرض ذاك الرجل يوماً في حياته."

قال الرجل الثاني:" والدي كان كذلك، صعب المراس، رجل من العصر القديم حقاً. ولم يمت بنوبة قلبية. علّته كانت في كبده."

قال أوزوالدو:" حسناً والدي ..."

كان الرجل الأول يدخّن ويأكل لا شعورياً، يخرج الدخان من منخريه بينما كان يمضغ الخبز. وكان يهتف بين الفينة والأخرى : " يا زعيم!" " يا زعيم!، المزيد من الخبز- أنا جائع، وبينما تفعل، احضر معك بالمرة قارورة جعة إضافية- ظمآن."

فيهم مباهاة بالغة، هؤلاء الرجال، كانوا ملآنين بالحديث ويفتقرون إلى الفكاهة. لم يكونوا عاطلين، في الحقيقة صدمني جدّهم في العمل. ولكن من بين جميع الأشخاص الذين قابلتهم في جنوب أفريقيا، كان الارجنتينيون أقل اهتمامًا بالعالم الخارجي، أو أي موضوع آخر لا يمت للأرجنتين بصلة مباشرة.

 كانوا يشتركون في هذه الصفة مع مواطني جنوب أفريقيا، كما لو أنهم عالقون في قعر العالم ومحاطون بالبربرية. لديهم لهجة تنمر متغطرسة، حتى عندما يتحدثون إلى بعضهم البعض،  وكانوا تافهين حتى النخاع. كان هذا هو تقييمي حول قطار نجمة الشمال. وقبل أن أصل إلى بيونس آيرس، لم أقابل أناساً لطفاء وأذكياء، مما دفعني لمراجعة رأيي. في نصف الساعة التالية تحدث اوزالدو والرجلان الآخران حول كرة القدم. لقد انتصرت الأرجنتين مؤخراً على بيرو، وكانوا واثقين من فرص الأرجنتين في كأس العالم بشهر يوليو.

" هل تتحدث الإسبانية؟" كان هذا هو الرجل الأول، الذي أصيب والده بالنوبة القلبية. كان يحمل كسرة خبز في طريقها إلى فمه.

قلت:" نعم، بمستوى كافٍ على ما أعتقد."

"أنت لا تتحدث كثيراً. لذلك سألت."

"أنا لست مهتماً بكرة القدم."

ابتسم للآخرين.

" أعني أنك لا تشارك بالحوار."

"أي حوار؟"

قال بنفاذ صبر: "هذا."

"حول كرة القدم."

"لا، حول كل شيء. نحن نتحدث- أنت لا. وأنت جالس فقط."

قلت:" وعليه؟"

"ربما هناك خطب ما."

إذن هذا ما كان: الشك، الخوف، الاحساس بأنّ الصمت يعني الرفض؛ الشعور بالنقص القديم المرتبط بأمريكا الجنوبية.

قلت: " ليس من خطب. أنا سعيد جداً بوجودي هنا. الأرجنتين بلد رائع."

قال الرجل: " إنّه سعيد." ما زالت كسرة الخبز في يده. قرّب إليه كأس نبيذه وقال: " أتريدون معرفة ما يفعله الناس في إسبانيا؟ هذا هو، جاهزون؟ يغمّسون قطعة الخبز هكذا." غمّس قطعة الخبز في النبيذ. " ثم يأكلونها هكذا." وأكل قطعة الخبز المبللة، وقال وهو ما يزال يمضغ: " أترى  يضعون الخبز في النبيذ في إسبانيا."

قلت: " إن كنت تظن هذا أمرًا غريبًا، فهاك هذه القصة."

ابتسموا: لقد شاركت في الحوار.

"يضع الإيطاليون الفواكه في النبيذ، يقطعون الأجاص، والخوخ والمشمش، والموز ويضعونها في كأس النبيذ. يحركونه، ويأكلون الفاكهة، ثم يشربون النبيذ. تخيل أنّهم يفعلون هذا بكأس النبيذ!"

لم يستوعبوا هذا الأمر جيداً. حدقوا فيّ.

وفي النهاية، قال أوزالدو: نحن نفعل ذاك أيضاً."

اختتمت الوجبة بالقهوة وكريمة الكراميل، وعندها شرع الرجل الثاني في وصف ممل لاسماء الخبز في مختلف أجزاء الأرجنتين.

"والآن هذا، في توكومان، نسميه بَن. ولكن إن ذهبت إلى قرطبة تجدهم يسمونه قرصاً. وهناك في سالتا، يسمونه كعكاً. ولكن الرغيف، ماذا يسمونه في ..."

وأسهب في حديثه ذاك، وأدلى الآخرون بدلوهم حول الاختلافات الإقليمية. شعرت أنني لا أملك ما أضيفه. تمنيت لهم ليلة طيبة، وسرت عبر القطار المسرع، ذاهباً لفراشي.

ساورني حلم. كنت بصحبة سيدة  جميلة ذكية في منزل إدوارديّ الطراز. اهتز المنزل، وهبطت الأرض وارتفعت مثل مجداف، وسرت الشقوق على الجدران من أسفل إلى أعلى. توسلت إلي المرأة أن أشرح لها ما هذه الهزّة. نظرت من النافذة الأمامية المكسورة، ثم سرت إلى داخل الفناء. كان في الفناء ارتعاش، استطعت الوقوف بصعوبة، لكني لم أكن أراه بل أشعر به. كانت المرأة بجانب النافذة، وبدأت جميع لبنات البناء حولها تنهار.

قلت:" أنت تقفين على حقل مغناطيسي. هناك سلك مشحون بالكهرباء."

" السبب في اهتزاز المنزل يكمن في هذه المغناطيسية..."

استيقظت. كان القطار يهتز كما الفناء في منامي. ولم أعد أذكر اسم المرأة.

كان يوماً مشمساً، وبعد ذاك بلحظات توقفنا في سان لورينزو على نهر البارانا. على الضفة الأخرى للنهر محافظة إنتر ريوس، وتليها الأورغواي.

كانت الأرض مسطحة وزهور مجد الصباح تتخلل الأسيجة، والجياد تقضم العشب في المراعي الشاسعة. كان أوزوالدو يحزم أمتعته. " صار أولئك الرجال الذين تناولنا معهم وجبة العشاء الليلة الماضية مرحين بعدما غادرت. لم يكن عليك الذهاب للفراش باكراً. كنت لتستمع إليهم، كان من المثير للاهتمام أنّ أحدهم يعمل في تجارة اللحوم. كان يعرفني! حسناً ليس على نحو شخصي لكنه سمع بي."

كان أوزوالدو مسروراً جداً بهذا. أنهى حزم امتعته، وما زال كتابه المصوّر على المقعد. "أتريد كتابي؟"

التقطته، وألقيت نظرة عليه. كانت قصة دارتنيان ملهاة اسبانية، مرسومة بفظاظة. مكتوب عليها ألبوم صور كبير." "عشر قصص بالتمام ملونة بالكامل." نظرت إلى القصص: " وداعاً كاليفورنيا"، "نحن الفيلق"، "أور-غرند قاتل الفايكنغ" رعاة بقر، ومحققون، ورجال كهوف وجنود واعلانات عن كيفية إصلاح أجهزة التلفاز في وقت فراغك.

قلت:" لدي كتاب."

قال أوزالدو:" أنا أعرضه عليك بلا مقابل."

"لا أقرأ الكتب المصوّرة."

"هذا جميل."

اردت أن أقول إنّ الكتب المصوّرة للأطفال، والأميين. ولكن لا ينبغي أن ينتقد الشخص هؤلاء الناس.

قلت:" أشكرك، هل قرأت قط لمؤلفين أرجنتينيين؟"

قال وهو يطرق على كتابه المصوّر في يدي، " هذا كتاب إرجنتيني. من بوينس آيرس."

"كنت أفكر في الكتب الأخرى. بدون صور."

"قصص؟"

"نعم. بورخيس. على سبيل المثال."

"أي بورخيس؟"

خورخي لويس."

"لا أعرفه."

هنا شعر بالملل والانزعاج أكثر مما فعل بسبب قلة حماستي عندما أعطاني كتابه المصوّر.

ودعني في شيء من الاقتضاب، ونزل من القطار عندما توقفنا في روزاريو. كانت روزاريو ضاحية صناعية، وتقع على ضفة نهر البارانا أيضاً.

امتزجت الروائح: دخان المصنع، والأشجار المزهرة، والنهر الساخن. في واحدة من فيلات الطبقة الوسطى الراسخة هذه ولد تشي جيفارا. ولكنها ليست روازريو التي صيّرته ثائراً بل تجربته في غواتيمالا- عندما دعمت المخابرات المركزية الامريكية أربينز في 1954- التي أثارت فيه الإيمان بأنّ أمريكا الجنوبية كانت في حاجة ماسة لمحرر آخر. قادني ترحالي عبر هذه البلدان إلى الاستنتاج ذاته. بطريقة ما كان قدر جيفارا أسوأ من بوليفار. انهيار جيفارا كان كاملاً: طوى النسيان نواياه، ولكن استعار أصحاب متاجر الألبسة أسلوبه (سمي واحد من أفخم محلات الملبوسات في لندن تشي جيفارا). ليس ثمة طريق أسرع لتدمير رجلٍ ما، أو السخرية من أفكاره أكثر من جعله تياراً للموضة. نجاح جيفارا في التأثير على مصممي الملابس كان جزءاً من مأساته. في الحقول التي امتدت ما بعد روزاريو لمحة من شهر سبتمبر. الأخاديد الناضبة، مخلفات قشور الذرة، وعمال الحصاد يترنحون بحزم القش. بعد ذاك تنتهي المزارع، وتحل محلها المراعي، تقف الماشية على العشب الأخضر، ومصدات الرياح من أشجار الصمغ. ما أشد الهدوء والنظام هنا.

كان هنا معسكر جيش، وضاحية، ومصنع. كانت معسكرات الجيش لتبدو في مناطق أخرى من أمريكا الجنوبية مخيفة كالسجون، ولكن هذه المعسكرات لم تكن محصنة، والجنود في مناورة عسكرية- كانوا يهاجمون دبابة في حقل بالقرب من القضبان- بدوا كما لو أنّهم من فتيان الكشافة.

لم تبد الضاحية خانقة، ولا المصنع لطخة في نسيج المشهد. كان من السهل الانخداع بالمظاهر، ولكن بعد ما رأيته، كنت أحتاج إلى الاطمئنان الذي يبعثه هذا النظام، خفة الهواء، والنظر إلى هذا الصقر الذي يوازن نفسه في السماء. كانت هناك محطات صغيرة على الخط، لكنْ قطار نجمة الشمال لم يتوقف عندها. ازدادت أعداد المستنقعات- الأنهار، أغرقت روافد نهر البارانا ضفافها، وفاضت على الشوارع المتسخة. دلت على الفيضان خضرته: أشجار صمغ طويلة زرقاء، وغابات كثيفة.

في بيوت المزارع أناقة ورحابة، ولكن هناك أكواخ مربعة صغيرة أيضاً، كل منها في قطعة من الأرض يحيط بها سياج، المنازل الصغيرة، والحدائق الصغيرة، والمسابح الصغيرة.

ثم بدأت المنازل تتكدس- السقائف على حافة المستنقع، منازل أكبر، وبعدها مبانٍ، خزانات مياه، وأبراج كنيسة. حان وقت الغداء. فتيات المدارس في أزيائهن البيضاء يقفزن على الأرصفة، وفي المحطة التي تدعى ج. ل. سواريز كان سكان الضواحي ينتظرون القطار، ووراء النقش- **ولوا بيرون**- منازل صغيرة كئيبة في شوارع ضيقة، وتحيط بها أسيجة، وأشجار موز للزينة فقط. كان الطباخون والنُدُل من عربة الطعام ينزلون في سان مارتن، حيث كانت جميع المنازل تقريباً من طابق واحد، وفي ميغوليت نزل عدد أكبر وساروا مروراً بنادي الغولف- هنا لاعب ينتظر القطار ليخرج قبل أن  يتخذ وضعية الإقعاء.لابد أنّ المدينة نفسها، كما علمت، قريبة. صارت المنازل أجمل، وفي جمالها ما يبعث على الخوف، مثل منازل الأشباح في قصص بورخيس. كانت مشيدة على الطراز الفرنسي، وذات شبك معدني قوطي، وشرفات، ومصاريع موصدة. كانت في لون بيت العنكبوت ومثله تماماً تبدو هشة ونصفها متوارٍ وراء الأشجار. كان الفضاء الواسع التالي حديقة تحممت بضوء الشمس، ثم شارع عريض تكتنفه الأشجار، ولمحة من أوروبا، وسرعة الناس وملابسهم الراقية على رصيف مزدحم. كما لو أنني كنت أسافر في نفق لأشهر وخرجت لتوي من الجانب الآخر، على الطرف القصي من الكوكب، في مكان كان مألوفًا لحد جنوني، له رصانة بوسطن، لكنه أكبر بكثير.

***© © ©***كانت محطة ريتيرو من أعمال الإنجليز، وشيدت على الطراز الإنجليزي، بأسقف عالية مقوّسة تدعمها عوارض مصبوبة في مصانع حديد ليفربول، وأعمدة وأرضيات رخامية، ومظلات مزخرفة بالنقوش، وعمود من ضوء الشمس يبرز ارتفاعها، وفي الحقيقة كان كل شيء كاتدرائي لا ينقصه سوى المنابر والمقاعد. كانت محطات وخطوط السكة الحديدية في الأرجنتين بريطانية المظهر لسبب وجيه جداً: معظمها بنيت وكانت تدار من قبل الإنجليز  الذين أتى بهم خوان بيرون في 1947، في واحدة من أسوأ الصفقات التجارية على الإطلاق. إن انتظر لبضع سنين فقط كانت شركات الخطوط الحديدية البريطانية الخاسرة لتعطيها لهم مجاناً. ظلت خطوط الأرجنتين الحديدية تخسر المال مذاك.

ولكن تبقت المعدات، وكانت مبعث شعوري بالارتياح، بعد رحلة طويلة، أن أصل إلى هذه المحطة في قلب مدينة جميلة ومنظمة. ذكرني هذا بطول المسافة التي قطعتها، وهذا الوصول الذي كان أهم من المشاهد الجوية في الإنديز والسهول العليا. لم يكن كافيًا بالنسبة لي أن أعرف أنني في مرتفعات غير مأهولة: احتجت أن أتأكد من أنني وصلت إلى ثقافة مضيافة واضحة وتستحق العناء.

بيونس آيرس من أول نظرة، ولأيام تلتها، هي كثيب النمل الأكثر تحضراً. بها كل أناقة العالم القديمة في مبانيها وشوارعها، وفي أهلها، كل ابتذال وصحة العالم الجديد تتجلى بوضوح. جميع حوامل الصحف، ومحلات بيع الكتب- يا له من مكان مثقف، يقول المرء لنفسه، يا للثراء، يا للجمال. تزيت نساء بيونس ايرس جميعهن بأجمل الثياب، جادات في تأنقهن، على نحو هجرته أوروبا. لقد توقعت مكاناً بادٍ ازدهاره، ماشية، و رعاة أبقار سهول أمريكا الجنوبية، ودكاتورية قاسية. لم أخالها فاتنة، ساحرة العمارة، أو شديدة الغواية.

كانت مدينة رائعة للتنزه على الأقدام. وأثناء المشي شعرت أنّها مدينة جميلة للإقامة، كنت مستعداً لبنما وكوزكو، لكن بيونس آيرس لم تكن كما توقعت. في قصة "إيفلين" من كتاب "ناس من دبلن" لجيمس جويس "ناس من دبلن"، قالت البطلة التي تحمل الاسم ذاته وهي تتأمل حياتها الرتيبة، وفرصتها لمغادرة دبلن مع فرانك: *لقد رماه حظه الميمون في بيونس آيرس، وجاء لهذا البلد فقط لقضاء العطلة.*

فرانك مغامر في العالم الجديد وجعبته مليئة بالقصص (لقد أخبرها قصص الباتاغونيين الرهيبين)، سرعان ما عرض عليها الزواج وحثها على الهروب من دبلن. صممت هي على المغادرة، ولكن في آخر لحظة- *اضطربت بحار العالم في قلبها قلقاً*- خذلتها شجاعتها. ركب فرانك القطار-الزورق وظلت هي في دبلن. *مثل حيوان عاجز*.

كانت قصص ناس من دبلن حزينة- قصص قليلة تفوقها حزناً- ولكن "إيفلين" لم تكن في رأيي قصة فرصة ضائعة حتى رأيت المدينة التي فوتتها. لا مأساة تعدل في نظري العجز في الوصول إلى بوينس آيرس. وقع في خلدي أنّ جويس اختار المدينة لاسمها، ليغادر عفونة دبلن إلى "الأهواء الطيبة" بأمريكا الجنوبية. ولكن الفتاة الأولى التي قابلتها في بوينس أيرس كانت إيرلندية، صاحبة مزرعة، وتتحدث الإسبانية بلكنة البروغ. كانت قد أتت من ميندوزا للمنافسة على بطولات الهوكي العالمية، وسألتني- مع إنني كنت أعتقد الإجابة أنَّ واضحة- ما إذا كنت أنا الآخر لاعب هوكي. في أمريكا يصبح الإيرلنديون قساوسة، وساسة، ورجال شرطة- كانوا يسعون للمراكز التقليدية.  وتقلدوا الوظائف التي تضمن لهم درجة من الاحترام. في الأرجنتين، أصبح الإيرلنديون ملاك مزارع، وتركوا للإيطاليين إدارة المرور. من الواضح أنّ إيفلين أضاعت الفرصة.

في فوضى المهاجرين ببيونس آيرس، التي يعيش فيها ثلث سكان الأرجنتين جميعهم، بحثت سدى عما يُعد سمات أمريكوجنوبية. اعتدت على مظاهر أطلال المدن المدفونة تحت الأرض، وثقافة المتسوّلين، واقتصاد الضيعات، والقناعة، والعائلات الثرية التي تجثم على صدور الهنود والحكومة بالمحسوبية، والخنزير على رصيف السكة الحديدية. بعد الأطفال الجياع في كولومبيا، والتدهور في البيرو وهي حقائق ماثلة، كان من الصعب التعود على الرقابة الصحافية في الأرجنتين، التي كانت غامضة ومثيرة للجدل، وانطباعية في الغالب.

لقد كنت أتعامل مع بدهيات جليّة مضخمة. اكتشفت نظرية المرتفعات، وهنا في المدينة التي بدت داعمة لها، ضعفت ثقتي في الأساس الذي قامت عليه-النظرية. ومع ذلك حاولت تقييمها بالسير في شوارعها، لاستعادة حيويتي- لم أمارس السير في الحقيقة منذ أن غادرت كوزكو- لم يبدُ غريبًا عليَّ أن هذا المكان قد أخرج للعالم عشرة من عازفي حفلات الكمان من الدرجة الأولى، وفاني فوكسي، راقصة التعري، وتشي جيفارا، وخورخي لويس بورخيس، وأدولف إيتشمان جميعهم دون تمييز، شعروا بدفء الوطن هنا.

كان في تكوين المدينة ما يشير إلى هذا التراكب الثقافي. نمت أشجار سهول البامبا بأغصانها "المياسة" ذات الأزهار الزهرية في الحدائق، ولكن الحدائق كانت إنجليزية وإيطالية، وهذا يظهر في أسمائها، حديقة بريتانيكا، وحديقة باليرمو. كان القسم الأوسط من المدينة فرنسي العمارة، والصناعي منها ألمانيًا، والمرفأ إيطاليًا.

مقاييس المدينة فقط كانت أمريكية، أبعادها، في ما يتعلق بالمساحة، أضفت عليها إلفة. كانت مدينة نظيفة. لا أحد ينام في المداخل أو الحدائق- هذا الاعتقاد صادم في السياق الأمريكوجنوبي. وجدت المدينة آمنة للسير في جميع الأوقات، في الثالثة صباحاً كانت الشوارع ما تزال مزدحمة. نسبة لرطوبة النهار، تلعب مجموعات الأولاد كرة القدم في الحدائق المضاءة بالكشافات حتى بعد منتصف الليل. كانت مدينة ينعدم فيها الهنود- قليلون، ربما شردوا جنوبي توكومان، والموجود منهم هنا جاؤوا من البورغواي، أو من الضفة الأخرى لنهر لا بلاتا في الأورغوي. كانوا يعملون في المنازل، ويعيشون في أحياء فقيرة نائية، مع قلة من دوافع البقاء.

إنها ثقافة انقسام، ولكنه كان بلداً منقسماً. قال الأرجنتينيون الذين قابلتهم إنها كانت بَلَديْن- الأراضي العليا في الشمال غنية بالفلكور والجبال والمستوطنين أشباه البرابرة، السهول الرطبة جنوباً، بمزارع ماشيتها، وخوائها، ما زال منها جزء كبير خالياً (اشتقت كلمة البامباس من كلمة بلغة الايمارا تعني "الفضاء"). يتعين عليك السفر لآلاف الأميال حتى تتمكن من رؤية هذا القسم، وكان الارجنتينيون يسافرون على مسارات منتقاة فقط، رغم أنّهم يدعون التحلي بروح المغامرة-. هم يعرفون تشيلي. بعضهم يعرف البرازيل. أمضوا عطلات نهاية الاسبوع منغمسين في رفاهية مونتيفيديو. أما الأغنياء فلهم وطن ثانٍ في واحة باريلوتشي الباتاغونية. ولكنهم لا يسافرون كثيراً إلى شمال الارجنتين، ولا يعرفون، أو حتى يهتمون كثيراً ببقية أجزاء امريكا الجنوبية. اذكر كيتو وسوف يخبرونك أنّها كالجحيم، وصغيرة، وفقيرة وبدائية. والذهاب في رحلة إلى بوليفيا أمر غير جدير بالتفكير فيه. صلاتهم تميل أكثر لأن تمتد إلى أوربا. يستحوذ عليهم وَهْمُ الفَرْنَسَة، وقد قيل في كثير من الأحيان إنّ عاصمتهم تشبه باريس، وإنّهم لا يشعرون بضرورة التحقق من ذلك بزيارة لفرنسا. يفضلون المحافظة على صلة رحمهم بأوروبا، فيسافر الكثيرين إلى إسبانيا، ولكن يزور حوالي ربع مليون منهم إيطاليا سنوياً. أكثرهم مغامرة هم عشاق الإنجليز. هم لا يعرفون الولايات المتحدة على وجه التأكيد، وجهلهم هذا يجعلهم يحتقرونها. " ولكن ماذا تعلم عن الأرجنتين؟" يسألونني في محاولة لاستباق محاضراتهم- هم يشعرون بالحرج الشديد على ما يبدو حيال سجلهم السياسي- قلت أشياء مثل: " حسنًا، عندما كنت في خوخوي..."، أو "والآن هوماخواكا رائعة للغاية..." أو "ما أبهرني في لا كوياكا.." " لم أقابل واحداً زار كوياكا، أو استقل القطار في رحلة عبر الحدود. الشخص في بيونس آيرس الذي يرغب في التحدث عن قذارة المحافظات النائية، يخبرك عن حجم  الصراصير في روزاريو القريبة.

**© © ©**

وصلت إلى بيونس آيرس في بداية موجة الحر التي قال عنها الناس خريف الأرجنتين. خمسة أيام بلياليها على القطار من لاباز تركتني جثة هامدة. كنت أعاني نوبة برد سيئة، ويدي المجروحة تخفق بالألم، وعلى مدى أيام لم أفعل شيئًا سوى النقاهة، أقرأ، أشرب النبيذ، وألعب البلياردو حتى استعدت نفسي بالكامل.

في النهاية شعرت بالعافية بما يكفي لأرى ناشري بالأرجنتين. ولكن لم يحالفني الحظ برقم الهاتف. صفر المتلقي ثم طنّ، ولكن لا صوت يُسمع لبشر فيه. قررت مقابلة موظف الاستقبال بالخصوص. قلت له: " لدي مشكلة في الاتصال بهذا الرقم."

"بيونس آيرس؟"

"نعم. شركة في كارلوس بيليريجيني."

"لكن كارلوس بيليريجيني على بعد أربعة مبانٍ من هنا."

"اريد الاتصال بهم."

قال: " ستجدهم أسرع إن سرت إليهم."

سرت إلى المكتب وقدمت نفسي بصفتي مؤلف ثلاثة كتب رأيتها في متجرهم بتوكومان.

قال السيد نافيرو، المدير التنفيذي للشركة: "كنا نتوقع شخصاً أكبر سناً بكثير."

قلت: "بعد ما مررت به، أشعر بأني في الثمانين من عمري."

دخلت سيدة مكتب السيد نافيرو لدى سماعها بوصولي وقالت: " هناك لواء في الحكومة قرأ كتبك. إنّه وزير النقل، وهو يوصيك بأن تستقل القطار إلى سالتا."

قلت إنني زرت سالتا بالفعل، أو على الأقل بضعة أميال منها.

" إنّه يريدك أن تأخذ القطار من سالتا إلى أنتوفاغاستا في تشيلي."

قلت إنني أفضل ألا أفعل.

" يتساءل اللواء أيضاً عن الأماكن الأخرى التي تود الذهاب إليها."

قلت جنوباً، إلى باتاغونيا.

" سيمنحك بطاقات السفر. متى ترغب في الذهاب."

وهكذا تمت الترتيبات.

قال السيد نافيرو" نتمنى لك إقامة ممتعة في الأرجنتين. لقد مررنا بأوقات عصيبة ولكن الأمور أحسن الآن"

بدا الأمر كذلك. لم تقع أي عمليات خطف سياسية لعامين. قال صديقي بروس تشاتوين، الذي عاد مؤخراً من باتاغونيا إنَّ جماعة غوريلا المدن كانت في إجازة الأورغواي أو تتزلج في جليد سويسرا.

أطيح بإيزابيل بيرون، وجردت من السلاح، وتعيش تحت الإقامة الجبرية في وادٍ ناءٍ مع طيور الكناري الأليفة خاصتها، وخادمتها. كنت أكثر تهكماً حيال الأخبار الرسمية عن السجناء السياسيين: " ليس هناك سجناء سياسيون في جمهورية الأرجنتين بكاملها." هكذا قال العقيد دوتي، مدير دائرة السجن القومية. " إنّهم مخرَّبون جانحون وليسوا سجناء سياسيين."

بعد وصولي بوقت قصير توفي ستّون "مخرباً جانحاً" في أعمال شغب بسجن في بيونس آيرس.

أُطلق على بعضهم النار، وخُنق آخرون. لم أستطع لفت انتباه السيد نافيرو لهذه القضية، وبدا من الفظاظة الإصرار على ذلك. لقد كان حريصاً على إسعادي. هل رغبت في إرسال برقية لأي أحد؟ هل تمنيت كتابة بعض الرسائل لسكرتيرته الحلوة؟ هل كان فندقي مريحاً؟ أهناك أي شخص أود لقاءه في الارجنتين؟ هل أرغب في إرسال شخص ما بالطيران إلى باتاغونيا ليتولى أمر بعض الترتيبات من أجلي هناك؟

قال:" ما أرمي إليه هو إرسال شخص ما بالطائرة إلى باتاغونيا. وتأخذ أنت القطار. وعندما تصل إلى هناك سيكون معك شخص قريب حال نشأت أية مشكلات. كل ما عليك أن تفعله هو أن تقول نعم، وسوف يُنفّذ الأمر."

شرحت له إنّ هذا قد يكون مفيداً في جبال كولومبيا، ولكن لا أتوقع أية مصاعب في باتاغونيا."

قال: " حسناً إذن، أفترض أنك تعرف أنَّ هذا هو بلد اللحم. لابد أن تحصل على قطعة كبيرة من اللحم احتفالاً بوصولك إلى بوينس آيرس."

كانت أكبر شريحة لحم رأيتها على الإطلاق. على هيئة حذاء كرة قدم من مقاس 12، طرية كما اللفت المسلوق. في هذا المطعم بالتحديد كان من الضروري أن أحدد القطع والعجل. تقول الفخذ، إذن ثور، والخاصرة إذن العجل.

"نعم الأمور هادئة في الوقت الحالي." قال السيد نافيرو وهو يصب النبيذ. قال إنّ إيزابيل بيرون تعرضت لكارثة، ولكن معظم الناس يعدونها مثيرة للشفقة أكثر منها خبيثة. أما الجنرال فيديلا، وهو رجل كالجثة في مظهره، يعرف باسم "الجمجمة" أو "العظم" فقد كان خجولاً، رجلاً حذراً يأمل معظم الناس أن يعيد الأرجنتين إلى الحكم المدني. راعني أنَّ الأرجنتين كانت بيروقراطية، ومتمردة مثل إيطاليا تماماً.

كان هذا بلداً متقدماً، ملحق جغرافياً بالعالم الثالث، لكنه غير متقدم سياسياً، بحكومة غير جديرة بالثقة واحتقار للسياسة. فدائية بدون إيمان راسخ بالشرعية أو الانتخابات الحرة، تحولت إلى عدائية فوضوية وطائفية بغيضة.

ينظر للسياسة على أنّها غش لأنّها كانت غير فعالة. ومع أعلى معدل للتعلم في أمريكا اللاتينية، وفي العالم (91.4%)، فلا عذر لاستبداد الأرجنتين.

حتى أكثر الشهود طيبة يضطر للاعتراف بالإهمال في الموقف الذي يتسامح مع الاستبداد. وقال إنّ البديل هو الفوضى السياسية. أليس هذا- أشرت أنا- موغل في الطفولية؟

قال السيد نافيرو: " لا أعرف، ولكني سأخبرك بما أظنه. هذا بلد ثري جداً. لدينا موارد. ومستوى معيشي مرتفع- والأمور طيبة تماماً حتى في الشمال حيث كنت. أعتقد أنني على حق في أننا أناس مجتهدون في العمل. بعض الناس هنا يعملون بجد شديد، ولكن لدينا عيب واحد فادح. هل بوسعك أن تخمن ماهو؟"

قلت لا، لم أستطع.

"يعمل الجميع كل بمفرده. ولكننا لا نستطيع العمل مع بعضنا البعض. لا أعرف لماذا يحدث هذا، ولكننا لا نستطيع العمل معاً كفريق واحد."

قلت: " ما كنت لأتوقع من حكومة عسكرية فرضت نفسها على البلاد أنها قد تلهم الناس للعمل معاً. لماذا لم يعقدوا انتخابات؟"

قال السيد نافيرو:" نحن لا نفتأ نأمل. أود تغيير الموضوع، بعد إذنك."

"حسناً."

" كنت أقرأ مقالك عن روديارد كيبلنغ. إنّه رائع."

كان عرضاً لكتاب، ولكنه طويل، وقد ظهر قبل بضعة أسابيع على الصفحة الأمامية لمجلة كتب نيويورك تايمز. تفاجأت أنَّ السيد نافيرو رآه- أنا نفسي لم أره، على خلاف السيد نافيرو، لم يكن لدي اشتراك بريد جوي، وعلى أية حال كنت في بيرو أو بوليفيا عندما نُشر.

قال السيد نافيرو: " هل تعلم من قد يكون مهتماً بآرائك عن كيبلنغ؟ بورخيس."

"حقاً؟ لطالما رغبت في لقائه."

قال السيد نافيرو: " لقد نشرنا له. أنا متأكد من إمكانية ترتيب اللقاء."  لم أسمع من السيد نافيرو في الحال. في هذه الأثناء أرسل مدير علاقاته مراسلاً لفندقي ليجري مقابلة معي.

كان المراسل  صغير الحجم، رفيعاً، وحريصاً على معرفة رأيي في الأرجنتين. بالكاد كنت أعرف من أين أبدأ. وبعيداً عن صعوبة التعبير عن التعقيدات السياسية باللغة الإسبانية ("كيف للمرء أن يقول عنف فوضوي وطائفية بغيضة؟")، كان هناك تحذير اعتدت أخذه على محمل الجد من الوصية : لا تنتقدهم- إنّهم لا يطيقون الانتقاد.

خال المراسل ترددي خوفاً. فشجعني قائلاً: " الارجنتين مثقفة، أليس كذلك؟"

" أوهـ، نعم، مثقفة جداً."

كتب هذا في مفكرته.

"متحضرة، صحيح؟"

"بالتأكيد."

كان يخربش وهو سعيد جداً.

"قطارات ممتازة، قطارات إنجليزية؟"

"صدقت."

"فتيات جميلات." قال وهو ما زال يبتسم، ويكتب.

"فاتنات."

"وبيونس آيرس؟ إنّها مثل..."

قلت: " باريس،"

قال: " بالطبع،" وأعاد غطاء قلمه. انتهت المقابلة.

في تلك الليلة ذهبت إلى حفل برفقة الرجل الذي ترجم كتبي إلى الأسبانية للطبعات الأرجنتينة. حاز إعجابي لأنه وجد مصدر اقتباس أغفلته سهوًا في أحد كتبي، عبارة عن سطرين من كتاب توماس مور، ***رسائل مُعترضة***. لكن، عندها، درّس رولاندو كوستا بيكاسو في أوهايو وميتشغان، حيث يعد هذا الأمر من المعلومات العامة. هو أيضاً، حثني على مقابلة بورخيس.

"ليس السؤال ما إذا كنت أريد مقابلة بورخيس، ولكن هل يريد بورخيس ذلك؟"

قال رولاندو:"إنّه يقرأ مقالك عن كيبلنغ الآن. إن أحبه، سيرغب في مقابلتك. والآن هنا شخص ينبغي أن تلقاه." أضاف وهو يتبسط معي باتجاه رجل نبيل متقدم في السن.

ابتسم الرجل وشد على يد قائلاً بالإسبانية: " سعدت بلقائك."

قال رولاندو: لقد ترجم أعمال إزرا باوند[[75]](#footnote-75) للغة الإسبانية."

قلت بالإنجليزية- كان الرجل مترجماً فوق كل شيء: " لابد أنّه كان من الصعب ترجمة شعر باوند إلى الإسبانية."

ابتسم الرجل ولم يقل شيئاً.

قلت: " الأناشيد، صعبة" وقلت لنفسي: صعبة إن لم تكن محض هراء."

قال الرجل:" نعم. الأناشيد."

"أيها أحببت أكثر؟"

هز كتفيه. ابتسم لرولاندو، كأنه يطلب المساعدة.

ولم أدرك إلا بعد وقت طويل أنّ هذا الرجل، الذي كان قُدم إلي كمترجم ومفكر ارجنتيني لا يستطيع تحدث اللغة الإنجليزية. قلت لنفسي، لكن كيف يجوز هذا في حق مترجم إزرا باوند. لابد أنَّ هذا الجهل كان مزية عظيمة، ولا شك لدي أنَّ هذه الإصدارات رائجة أكثر من الأصول.

في وقت متأخر من عصر غد، رنّ جرس هاتفي.

" يود بورخيس مقابلتك."

قلت: " رائع، متى؟"

"في غضون خمس عشرة دقيقة."

**---**

**-20-**

قطار أنفاق بوينس أيرس

**---**

على الرغم من اسمها الغريب، فإنَّ خطوط أنفاق بوينس آيرس عبارة عن شبكة فعالة قوامها خمسة من خطوط قطارات الأنفاق، تضاهي شبكة أنفاق بوسطن حجماً وقد بنيت بعدها بخمس سنوات، أي في عام 1913 (الأمر الذي يجعلها من شبكة شيكاغو أو موسكو)، وكما حدث في بوسطن سرعان ما أدى ذلك لخروج عربات الترام عن ساحة العمل.

كانت شقة خورخي لويس بورخيس في مايبو، على بعد منعطف واحد من محطة ميدان الجنرال سان مارتن، على خط ريتيرو- كونستيتوثيان. وبتُّ في شوق لتجربة خط الأنفاق منذ أن سمعت بوجوده. تمنيت بشدة، أن أتحدث إلى بورخيس. كان بالنسبة لي في مقام السيدة استير استانهوب عند اسكندر كينغليك: "الموضوع المثير للاهتمام في أي وقت وأي وسط" كان عبقرياً غريب الأطوار، وربما أكثر من نبي متخفٍ في أعماق بلد شيطاني.

في إيوثن، وهو أحد كتب الرحلات الأثيرة لدي يقول المؤلف: ('Eothen' ، بالكاد الكلمة الوحيدة التي يصعب العثور عليها في الكتاب، كما آمل" وتعني " القادم من الشرق")، يكرّس كينغليك فصلاً بأكمله للقائه مع السيدة استير. شعرت أنني لن آتي بأقل منه مع بورخيس. دخلت إلى قطار الأنفاق، وبعد رحلة قصيرة، وجدت منزله بسهولة. كانت اللوحة النحاسية على مهبط الطابق السادس تحمل اسم بورخيس. قرعت الجرس، فتح لي الباب طفل في السابعة من عمره تقريباً. عندما رآني لعق اصبعه حرجاً. كان ابن الخادمة. الخادمة بارغوانية، هندية ممتلئة القوام، دعتني إلى الدخول، ثم تركتني في البهو ومعي قطة بيضاء كبيرة الحجم. كان هناك مصدر ضوء واحد خافت يحترق في الردهة، لكن بقية الشقة كانت مظلمة.

ذكرني الظلام أنّ بورخيس كان ضريراً.

قادني فضولي وقلقي إلى صالة صغيرة. مع إنّ الستائر كانت مسدلة والمصاريع موصدة، لكني استطعت رؤية شمعدان، وفضيات العائلة التي يذكرها بورخيس في واحدة من قصصه، بعض اللوحات، وصور قديمة، وكتب. كان الأثاث بسيطاً- أريكة ومقعدان قرب النافذة، طاولة سفرة دفعت إلى أحد الجدران، وجدار ونصف من أرفف الكتب. احتك شيء ما بقدمي، أشعلت الضوء كانت القطة قد تبعتني إلى هنا.

لا سجّاد على الأرض حتى لا يتعثر به الرجل الضرير، لا أثاث بارز قد يصطدم به. لمع خشب الأرضية المصقول، ليس من ذرة غبار في أي مكان من الشقة. اللوحات كانت غير واضحة، ولكن هناك ثلاثة نقوش من الفولاذ اتسمت بالدقة، عرفت فيها مشاهد من روما لبيرانيسي. أشبهها ببورخيس لوحة هرم سيستيوس، وربما كانت رسماً إيضاحيًا من كتابه حكايات. سماه بيانكوني،كاتب سيرة بيرانيسي، "ريمبرانت الأطلال" قال بيرانيسي: " أريد إنتاج أفكار عظيمة. أؤمن أنني لو كُلفتُ بتخطيط عالم جديد لكنت من الجنون بما يكفي للتعهد به." كان شيئاً قد يقوله بورخيس نفسه. كانت الكتب مزيجاً من الأضداد.كان أحد اركانها يحوي طبعات من كتب جميع المؤلفين تقريباً: كلاسيكيات مترجمة إلى الإنجليزية- هوميروس، دانتي، فيرجيل. وثلاثة رفوف لكتب الشعر بدون ترتيب معين- تينيسون وإ. إ. كامينغز، وبيرون، وبو، ووردزورث، وهاردي. هناك مراجع، الأدب الإنجليزي لهارفي، وكتاب اقتباسات أكسفورد، وعدد من القواميس بما فيها قاموس دكتور جونسون- وموسوعة ذات غلاف جلدي..

ليس ثمة طبعات فاخرة، كانت أعمدة الكتب بالية، والقماش باهتًا، ولكنها إشارات على أنّها كانت مقروءة. عليها بصمات الأصابع، وبها دلائل ورقية للإشارة إلى الصفحات. تغيّر القراءة مظهر الكتب. حالما يُقرأ لا يعود مظهره كما كان أبداً. ويترك الناس بصمتهم الفريدة على ما يقرأونه من كتب. يرى من له متعة في القراءة هذا التغيير على الصفحات، والطريقة التي تضع بها بصمتك على الكتاب، بقراءته. هناك صوت احتكاك وهمهمة مميزة في الممر. ظهر بورخيس من الردهة خافتة الإضاءة، يتلمس طريقه بطول الجدار. كان يرتدي ملابس رسمية، بدلة زرقاء غامقة، وربطة عنق داكنة اللون؛ وكانت نعلاه الأسودان غير محكميْ الرباط، وسلسلة ساعته تتدلى من جيبه. كان أطول قامة مما توقعت، وعلى وجهه سحنة إنجليزية، بذقنه وجبينه إمارات جدية شاحبة. عيناه متورمتان، مفتوحتان وكفيفتان، ولكنه يتمتع بصحة ممتازة، بالنسبة لتعثره والارتعاش الطفيف في يديه. فيه من الكيميائي تلك الدقة الضاجة. بشرته صافية- تخلو يداه من علامات السن- وفي وجهه صرامة. أخبرني الناس أنّه "في الثمانين تقريباً". كان عندها في التاسعة والسبعين من العمر، ولكنه بدا أصغر بعشر سنوات. قال لشبيهه في قصة "الآخر": " عندنا تصل إلى عمري، ستخسر بصرك تماماً في الغالب. لكنك ستظل تميز اللون الأصفر والأضواء والظلال بصعوبة. لا تقلق. العمى التدريجي ليس بمأساة. إنّه مثل غسق صيفي بطيء."

قال : "نعم" وهو يبحث عن يدي، ويشد عليها، قادني إلى مقعد. قال: " اجلس هنا من فضلك. ثمة مقعد ما هنا في مكان ما. ارجوك خذ راحتك كما لو كنت في منزلك". كان يتحدث بسرعة لحد أنني لم أع لكنته قبل أن ينهي حديثه. بدا منقطع الأنفاس. ويتحدث في دفعات، ولكن بدون تردد ما عدا عندما يبتدر موضوعاً جديداً. ثم، في تأتأةٍ، رفع يديه الراعشتين، وبدا كأنه يختطف الموضوع من الهواء، ويفضّ الأفكار عنه بينما يتصل الحديث.

قال: " هل أنت من نيو إنجلاند؟، هذا رائع. ذاك أفضل مكان يُنتمى إليه. كل الأمور بدأت من هناك. إيمرسون، ثورو، ميلفيل، هاوثورن، لونغفيلو. لقد أشعلوا شرارة البداية. إن لم تكن لهم لما كان هناك شيء. كنت هناك- كانت جميلة."

قلت: " لقد قرأت قصيدتك عنها. "نيو إنجلاند 1967" التي تبدأ ب: لقد غيروا ملامح حلمي..

قال:" نعم، نعم." كان يحرك يديه في نفاذ صبر. مثل رجل يرجّ نرداً. كان لا يتحدث عن عمله، كاد في ذاك أن يرقى إلى مرتبة الرفض. " كنت أحاضر في هارفارد. كرهت هذا العمل- أحب التدريس. لقد استمتعت بوجودي في الولايات المتحدة- نيو إنجلاند. وتكساس كانت مميزة. كنت هناك مع والدتي. كانت كبيرة السن تجاوزت الثمانين. ذهبنا لرؤية آلامو." توفيت والدة بورخيس قبل فترة ليست بالطويلة، في عمر يناهز التاسعة والتسعين. كانت غرفتها ما تزال كما تركتها عند الوفاة.

"هل تعرف أوستن؟"

قلت إنني أخذت القطار من بوسطن إلى فورت ورث، ولم أفكر كثيراً في فورت ورث.

قال بورخيس:"كان عليك أن تذهب إلى أوستن. ما عداها لا يعني لي شيئاً- الغرب الأوسط، أوهايو، شيكاغو، ساندسبيرغ هو شاعر شيكاغو، ولكن ما كان؟ إنّه جعجاع فقط- اخذ كل شيء عن ويتمان. كان ويتمان عظيماً، أما ساندبيرغ فلم يك شيئاً. وكذلك البقية." قال هذا وأصابعه ترتعش فوق خارطة خيالية لأمريكا الشمالية. " كندا؟ اخبرني. ماذا أنتجت كندا؟ لا شيء. لكن الجنوب رائع. تثير خسارتهم الحرب الأهلية الشفقة- ألا تظنها كذلك؟ ها؟ "

قلت إنني اعتقدت أنَّ الهزيمة كانت حتمية بالنسبة للجنوب. لقد كانوا يزهون بالماضي، قانعين، والآن هم الوحيدون في الولايات المتحدة الذين يتحدثون عن الحرب الأهلية دون سواهم. الناس في الشمال لا يتحدثون عنها. إن فاز الجنوب، ربما كنا وفرنا على أنفسنا بعض ذكريات الحلفاء هذه."

قال بورخيس: " بالطبع يتحدثون عنها. كانت خسارة فادحة بالنسبة لهم. لكنهم اضطروا للخسارة. كانوا زراعيين. ولكني أتساءل- هل الخسارة سيئة جداً؟ ألم يقل لورنس -في أعمدة الحكمة السبعة- شيئاً عن خزي النصر؟ كان الجنوبيون شجعان، ولكن ربما لم يكن رجل الشجاعة بارعاً في الجندية. ما رأيك؟"

قلت إنّ الشجاعة وحدها لا تجعلك جندياً ممتازاً، ولا شيء أكثر من الصبر وحده يجعلك صياداً ماهراً. ربما تُعمي الشجاعةُ الرجلَ عن المهالك، والشجاعة المفرطة دون حذر قد تؤدي إلى التهلكة.

قال بورخيس: " لكن الناس يحترمون الجنود. هذا هو السبب وراء ألا أحد يفكر حقاً في الأمريكيين. إن كانت أمريكا قوة عسكرية بدلاً عن كونها امبراطورية تجارية فقد يتطلع إليها الناس. من يحترم رجال الأعمال؟ لا أحد. ينظر الناس لأمريكا ولا يرون سوى مندوبي مبيعات مسافرين، فيضحكون."

رفرف بيديه ثم جذبهما، وغيّر الموضوع.

" كيف أتيت إلى الأرجنتين؟"

"أخذت القطار إلى المكسيك، بعد تكساس."

"ما رأيك بالمكسيك؟"

" متداعية لكن جميلة."

قال بورخيس: " أنا أكره المكسيك والمكسيكيين. إنّهم متطرفون في قوميتهم. ويكرهون الإسبان. ما الذي قد يحدث لهم إن كانوا يحملون تلك المشاعر؟ وليس لديهم شيء. إنّهم يتظاهرون فقط- كونهم متحيزين لبلدهم. ولكن ما يحبونه بشكل خاص هو التظاهر بأنّهم من الهنود الحمر. هم يعشقون التظاهر. لا يملكون شيئاً مطلقاً. ولا قبل لهم بالقتال، ها؟ إنّهم جنود فقراء جداً، يخسرون دائماً. انظر إلى ما يستطيع قلة من الجنود فعله في المكسيك! أنا لا أحب المكسيك أبداً."

توقف عن الحديث، ومال إلى الأمام. جحظت عيناه. وجدت يده ركبتي وربت عليها مؤكداً على حديثه.

قال: " ليس لدي هذه العقدة، أنا لا أكره الإسبان. على الرغم من أنني أفضّل الإنجليز. بعد أن فقدت بصري في 1955 قررت أن أفعل شيئاً جديداً كليةً، لذلك تعلمت الأنجلو -ساكسونية. اسمع..."

تلا صلاة الرب[[76]](#footnote-76) كاملة باللغة الانجلوسكسونية.

" كانت تلك هي الصلاة الربانية. والآن- هل تعرف هذا؟"

قرأ السطور الافتتاحية من قصيدة الملّاح.

قال: " الملّاح، اليست جميلة؟ أنا بعض انجليزي. جدتي من نورثامبرلاند، ولدي أقارب آخرون من ستافوردشاير. " ساكسون، وقلط[[77]](#footnote-77)، والدنمرك" ، هذا واضح أليس كذلك؟ كنا دائماً نتحدث الإنجليزية في المنزل. يحادثني أبي باللغة الإنجليزية. ربما كنت بعض نوريجي- كان الفايكنغ في نورثامبرلاند. ويورك- يورك مدينة جميلة أليس كذلك؟ كان لي فيها أسلاف أيضاً."

قلتُ:" كان روبنسون كروزو من يورك."

"أكان حقاً؟"

"انا ولدت في عام كذا وكذا في مدينة يورك، من عائلة كريمة..."

"نعم، نعم، لقد نسيت ذلك."

قلت إنَّ الأسماء النوردية كانت شائعة في كافة أرجاء شمال إنجلترا، وأعطيت اسم ثورب كمثال. كان اسم مكان ولقب عائلة.

قال بورخيس: " مثل دورDor/ الألماني. أو دورب الهولندي."

"هذا غريب. سأخبرك شيئاً. أنا أكتب قصة اسم شخصيتها الرئيسية ثورب."

" هذا إحياء لأسلافك من نورثامبرلاند."

"ربما. الإنجليزيون أشخاص رائعون. ولكنهم خائفون. لا يريدون امبراطورية. فرضها عليهم الفرنسيون والإسبان. ولهذا لديهم إمبراطورية. كان هذا أمراً عظيماً. أليس كذلك؟ لقد خلفوا وراءهم الكثير. انظر ما قدموا للهند- كيبلنغ! أحد أعظم الكتّاب."

قلت إنَّ قصة كيبلنغ كانت مجرد حبكة في معظم الأحيان، أو تمريناً في اللهجة الإيرلندية، أو فظاظة صاخبة. مثل ذروة "في نهاية الممر." حيث يصور رجلٌ البعبعَ من على قزحية رجل ميت، ثم يحرق الصور لأنّها مرعبة. ولكن كيف وصل البعبع إلى هناك؟"

قال هو:" لا يهم- لقد كان بارعاً دوماً. الجزء المفضل لدي هو: " الكنيسة التي كانت في انطاكية." يا لها من قصة عجيبة. وما أعظمه من شاعر. أعرف أنك تتفق معي- قرأت مقالك في نيويورك تايمز. ما أريدك أن تفعله هو أن تقرأ علي بعض من قصائد كيبلنغ. تعال معي." نهض على قدميه، وقادني إلى أحد رفوف الكتب قائلاً: " على ذاك الرف- أترى جميع كتب كيبلنغ؟ الآن إلى اليسار توجد مجموعة القصائد. إنّه كتابّ ضخم."

كان يحرك يديه بخفة بينما أجول بعيني عبر طبعة كيبلنغ التي تحمل رسم الفيل في غلافها الأمامي. وجدت الكتاب وحملته عائداً إلى الأريكة.

قال بورخيس: " إقرأ لي " أغنية آلة الهارْب للسيدة الدانماركية." ففعلت ما طُلب مني.

بأي امرأة ضحيت.

وبأي قلب دافيء وفدانِ بيت

من أجل أرملة ذات شيبٍ مقيت؟

قال: " أرملة ذات شيبٍ مقيت، هذا قول جيدٌ. لا يمكنك أن تقول مثل هذا بالإسبانية. ولكني أقاطعك- واصل."

استأنفت مرة أخرى، ولكنه أوقفني في المقطع الثالث. " ... تخلل أصابعي الحشائش عشر مرات لتمسك بك"- يا للجمال.."

و مضيت أقرأ تقريع المسافر هذا- انتابني الحنين لمجرد قراءته- ويتعجب بورخيس بين كل مقطع وآخر من الإبداع في تعبير بعينه. كان هادئاً في رهبة هذه التراكيب الإنجليزية. مثل هذه الأسلوب مستحيل في الإسبانية. تعبير شعري بسيط مثل" world-weary flesh" [جسم هدّه السفر]، وعند ترجمته إلى الإسبانية يغدو:" أصبح هذا الجسم باليّا من أثر السفر." يضيع الغموض واللطف في اللغة الإسبانية، وبورخيس ساخط على عدم محاولته كتابة أبيات مثل أبيات كيبلنغ.

قال بورخيس: " الآن ثاني القصائد المفضلة لدي. " أغنية الشرق والغرب."

وهنا زادت وتيرة المقاطعة عنها في "أغنية آلة الهارْب"، ولكن على الرغم من أنّها لم تكن من القصائد المؤثرة عندي قط، لكنْ بورخيس لفت انتباهي إلى مافيها من أبيات رائعات متوقفاً في عدد من المقاطع، لا يفتأ يكرر قوله، " لا يمكنك فعل ذاك باللغة الإسبانية."

قال: " اقرأ لي واحدة أخرى."

قلت: "ماذا عن " الطريق الذي يشقّ الغابة؟"، وقرأته وسرت تلك القشعريرات في جسدي.

قال بورخيس: " إنّه مثل هاردي. كان هاردي شاعراً مُجيداً، ولكني لا أستطيع قراءة رواياته. كان عليه الاكتفاء بالشعر."

" لقد فعل، في نهاية المطاف. تخلى عن كتابة الروايات."

قال بورخيس:"لم يكن عليه كتابتها من الأساس. أتريد أن ترى شيئاً ممتعاً؟"

قادني عائداً إلى الرفوف وأراني موسوعته البريطانية. كانت من الطبعة الحادية عشرة النادرة، ليست كتاباً من الحقائق بل عملاً أدبياً. أشار إلي بالنظر تحت تبويب الهند، والتحقق من التوقيع على اللوحات الإيضاحية. كانت للوكوود كيبلنغ. " والد كيبلنغ- أترى؟"

أخذنا جولة بين رفوف كتبه. كان فخوراً لا سيما بنسخته من قاموس جونسون ("اُرسل لي من سجن سينغ-سينغ، من طرف شخص مجهول")، ونسخته من كتاب موبي ديك، ونسخته من كتاب ألف ليلة وليلة من ترجمة السير ريتشارد بيرتُن.

كان يخربش في الرفوف ويسحب مزيداً من الكتب، قادني إلى دراسته، وأراني مجموعة توماس دي كوينسي خاصته، وبيوولف[[78]](#footnote-78)- بلمسها، وبدأ يسرد اقتباسات منها- والأساطير الآيسلندية.

قال:"هذه أفضل مجموعة من الكتب الانجلوسكسونية في بيونس آيرس. إن لم تكن في أمريكا الجنوبية بأسرها."

"نعم، على ما أظن."

"عدنا إلى مكتبة البهو. نسى أن يريني نسخته من كتاب بو. قلت إنني قرأت مؤخراً حكاية آرثر غوردون بيم.

قال بورخيس:" أمس فقط تحدثت عن بيم إلى بيوي كاساريس[[79]](#footnote-79)". كان بيوي كاساريس مشاركاً في سلسلة من القصص. " نهاية ذلك الكتاب غريبة- الظلام والنور."

"والسفينة التي تحمل الجثث."

قال بورخيس في شيء من الشك: " نعم، قرأتها قبل وقت طويل. قبل أن أفقد بصري. إنّها أعظم كتب بو."

"سأكون سعيداً لقراءتها لك."

قال بورخيس:"تعال غداً ليلاً. تعال في السابعة والنصف. يمكنك أن تقرأ لي بعضاً من فصول بيم ومن ثم نتناول العشاء."

أخذت معطفي من المقعد. كانت القطة البيضاء تمضغ الكمّ. كان الكمّ رطباً، ولكن القطة كانت نائمة آنذاك. نامت على ظهرها، كما لو أنّها أرادت أن تُحك بطنها، كانت مغمضة العينين.

كانت هذه هي الجمعة العظيمة. وثمة مواكب في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية، كان الناس يحملون صور المسيح، ويصعدون بالصلبان إلى الجبال البركانية وهم يرتدون أكفانًا سوداء ويجلدون أنفسهم بالسياط، وهم يذكرون محطات الصليب على الركب، ويسيرون حاملين الجماجم.

لكن يندر في بيونس آيرس رؤية مثل هذه الأنشطة الحزينة. يتجسد الاحتفال في هذه المدينة العلمانية في مشاهدة الأفلام.

جوليا، الفيلم الذي حاز على عدد من جوائز الأوسكار، افتتح في الجمعة العظيمة، ولكن خلت دار العرض من الزوار. في الجانب المقابل، عند وزارة الكهرباء، كانت تُعرض الوصايا العشر- الملحمة الإنجيلية. يمتد طابور شباك التذاكر مسافة مربعين. وثَمَّ حشد مشابه في كنيسة يسوع الناصرّي بزيفيريلي، حيث وقف زوار المسرح- خمسمائة زائر أو أكثر- في خشوع تحت المطر.

أمضيت اليوم بطوله وأنا أسوّد الملاحظات التي جمعتها على حِجري في الليلة الماضية. سمح لي كفّ بصر بورخيس بالكتابة دون انتباه بينما كان يتحدث. مرة أخرى استقللت قطار الأنفاق وفاءً بموعدنا المضروب.

هذه المرة كانت شقة بورخيس مضاءة. أعلنت عن حضوره أصوات خطواته الزاحفة قبل أن يظهر، كان يرتدي ملابسه الكاملة في الليلة الرطبة الحارّة كما فعل مساء أمس.

قال:" هذا أوان بو، أرجوك تخذ لك مقعداً."

كان مجلد بو على مقعد كرسيّ قريب. التقطته ووجدت بيم، لكن قبل أن أشرع في القراءة قال بورخيس: " كنت أفكر في أعمدة الحكمة السبعة. كل صفحة منها في غاية من الروعة، لكنه في النهاية كتاب ممل. إنّي لأعجب من ذلك."

" لقد أراد أن يكتب كتاباً عظيماً. جورج برنارد شو أخبره أن يستخدم الكثير من الفاصلات المنقوطة. عمد لورنس إلى التفصيل، معتقداً أنّه إن كان رصينا للغاية لعُدّ عظيماً. ولكنه ممل، ولا طرافة فيه. كيف لكتاب عن العرب أن تعوزه الفكاهة؟"

قل بورخيس:" كتاب مغامرات هكلبيري فين كتاب عظيم وطريف، لكنْ نهايته غير جيدة. يظهر توم سوير فيسوء الكتاب. وهناك نيغر جيم." بدأ بورخيس يبحث في الهواء بيديه واستأنف:" نعم كان لدينا عبد هنا في ريتاير. لم تكن عائلتي ثرية جداً. كان لدينا خمسة أو ستة عبيد. ولكن بعض الأسر اقتنت ثلاثين أو أربعين منهم."

لقد قرأت أنّ ربع سكان الأرجنتين كانوا من السود في وقت ما. ليس هناك سود في الأرجنتين الآن. سألت بورخيس عن السبب في ذلك.

" هذا أمر غامض. ولكني رأيت كثيراً منهم على ما أذكر."

بدا بورخيس شاباً لدرجة كان من السهولة نسيان أنّ عمره يناهز قرناً من الزمان. العهدة على بورخيس، ولكنه كان أفصح شاهدٍ قابلته في رحلتي.

" كانوا طباخين، وبستانيين، وعمالاً مهرة. لا أعرف ما حدث لهم."

" يقول الناس إنّهم ماتوا بالسّل."

" لماذا يموتوا بالسّل في مونتيفيديو؟ إنّها غير بعيدة من هنا...ها؟ هناك قصة أخرى، لا تقل عنها سخافة، إنّهم اقتتلوا مع الهنود، وأفنى الهنود والزنوج بعضهم بعضاً. ربما وقع هذا في عام 1850 أو نحوها، ولكنه ليس صحيحاً. ما زال هناك كثير من الزنوج في بيونس آيرس- كانوا موجودين بكثرة. ربما في عام 1910 على وجه التحديد." ضحك فجأة وقال:" إنّهم لا يجتهدون في العمل. كان من الرائع أن تحمل دماءً هندية، ولكن الدم الأسود لم يكن أمراً سائغاً أليس كذلك؟ هناك بعض العائلات البارزة في بوينس آيرس التي يسري في دمائها- لمسة من القار، صحيح؟ كان عمّي يقول لي: " خورخي أنت كسول مثل زنجي بعد الغداء." أترى، إنّهم لا يعملون كثيراً في الظهر. لا أعرف السبب وراء قلة عددهم هنا، لكن في الأورغواي أو البرازيل قد تصادف رجلاً أبيض من الفينة والأخرى..ها؟ إن كنت محظوظاً، إيه؟ ها!"

كان بورخيس يضحك بطريقة مثيرة للشفقة ومسليّة. أضاء وجهه.

" اعتقدوا أنهم كانوا من السكان من الأصليين! سمعت امرأة سوداء تقول لامرأة أرجنتينية، " حسنًا على الأقل نحن لم نأت هنا على متن باخرة!" كانت تعني أنّها تعدّ الإسبان مهاجرين. "على الأقل لم نأت هنا على متن باخرة!"

"متى سمعت هذا؟"

قال بورخيس: " قبل سنوات طويلة، ولكن الزنوج كانوا بارعين في الجندية. قاتلوا في حرب الاستقلال."

قلت: " هذا ما فعلوه في الولايات المتحدة. ولكنْ الكثيرون كانوا يقاتلون إلى جانب البريطانيين. وعدهم البريطانيون بالحرية لقاء الخدمة في المشاة البريطانية. كان أحد الأفواج الجنوبية من السود بكامله- أثيوبيو لورد دنمور، هكذا كان اسمه. انتهى بهم الأمر في كندا."

"فاز زنوجنا بمعركة ثيريتو. قاتلوا في الحرب ضد البرازيل. كانوا من أمهر رجال المشاة.

قاتل الغاوتشو على ظهور الخيل، والزنوج على الأقدام. كان هناك فوج- السادس كما أسموه، ليس بفوج المولاتو والسود، ولكن في الإسبانية يدعى "فوج ذوي البشرة البنيّة والسمراء." حفاظاً على مشاعرهم. في مارتن فيرو، يطلقون عليهم لقب "أصحاب السحنات المتواضعة." حسناً، يكفي، يكفي. لنقرأ آرثر غوردون بيم."

" أيّ فصل؟ ماذا عن الفصل الذي تقترب فيه سفينة تكتظ بالجثث والطيور؟"

" لا، أريد الأخير. عن الظلام والنور."

قرأت الفصل الأخير، حيث ينجرف القارب إلى القطب الجنوبي، تصبح المياه أكثر دفئاً، ثم تشتد حرارتها، شلال الرماد الأبيض، والبخار، وظهور العملاق الأبيض. يقاطع بورخيس من وقت لآخر، قائلاً باللغة الإسبانية: " هذا ساحر."؛ "ذاك عذب،"، و"يا للروعة!"

وعندما انتهيت قال: " اقرأ الفصل قبل الأخير."

قرأت الفصل 24: هروب بيم من الجزيرة، مطاردة البرابرة الغاضبين، والإسهاب في وصف الدوار. أبهجت تلك القطعة المرعبة بورخيس، فصفق بيديه في النهاية.

قال بورخيس: " والآن ماذا عن كيبلنغ؟ هلا نتأمل قصة " السيدة باثيرست" ونحاول معرفة مدى جودتها؟"

قلت: " ينبغي عليَّ إخبارك بأنني لا أحب "السيدة باثيرست" إطلاقاً."

" لا بأس. لابد أنّها سيئة. إذن فلنقرأ من كتاب حكايات بسيطة من الجبال. اقرأ "وراء الحدود."

قرأت "وراء الحدود" وعندما وصلت إلى الجزء حيث تغني بسيسا أغنية حب إلى ترياغو، حبيبها الإنجليزي، يقاطع بورخيس وهو يتلو:

وحدي على سطوح المنازل، إلى الشمال

ألتفت، وأرقب البرق في السماء

لخطواتك في الشمال سناء

عد إليّ، حبيبي، أو فإني للفناء!

قال بورخيس: " اعتاد والدي أن يتلو هذه."

وعندما أنهيت القصة قال:" والآن دورك لتنتقي واحدة."

قرأت له قصة مدخّن الأفيون، " بوابة الأحزان المائة."

قال بورخيس:" كم حزينة هي. هذا فظيع. الرجل لا يستطيع فعل شيء. لكن انتبه كيف يكرر كيبلنغ السطور ذاتها. لا حبكة في القصة تماماً، لكنها جميلة."

"لمس سترة بدلته. " كم الساعة؟" وسحب ساعة جيبه، وتحسسها بيديه. " التاسعة والنصف- علينا أن نأكل."

بينما كنت أعيد كتاب كيبلنغ إلى موضعه- ألّح بورخيس على إعادة الكتب إلى مكانها بالضبط- قلت ، " هل تعيد قراءة أعمالك قط؟"

"لا. لم أكن راضياً عن أعمالي. كان النقاد يبالغون في أهميتها. أفضل قراءة"- اندفع إلى ارفف الكتب، وأصدر إيماءة جمع بيديه- "أعمال كتاب حقيقيين. ها!" التفت إليّ وقال، " هل تعيد قراءة أعمالي؟"

"نعم، "بيير مينارد"..."

" هذه أول قصة كتبتها قط. كنت في السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين آنذاك. قال والدي: "اقرأ كثيراً، اكتب كثيراً، ولا تتسرع بالنشر"- كانت هذه هي كلماته بالضبط. أفضل ما كتبت من قصص كانت "المتطفل"، و"الجنوب" أيضاً. لا شيء سوى صفحات قلائل. أنا كسول- صفحات قليلة، وانتهيت. ولكن "بيير مينارد" فهي نكتة وليست قصة."

"كنت أعطي تلاميذي الصينيين "الجدار، والكتب" للقراءة."

" تلاميذ صينيون؟ أخالهم ظنوها مليئة بالعويل."

أعتقد أنّها كذلك. إنّها قطعة غير ذات بال، بالكاد تستحق القراءة. هلم نأكل."

أخذ عصاه من الأريكة في البهو، وخرجنا، نزلنا بالمصعد الضيق، وعبرنا البوابات المصنوعة من الحديد المطاوع.

كان المطعم عند أول زاوية- لم أستطع رؤيته، لكن بورخيس كان يعرف الطريق. إذن قادني الضرير. كان السير على هذا الشارع البوينس-ايرسيّ مع بورخيس كرفقة الشاعر كفافي في أنحاء الإسكندرية، أو كيبلنغ في شوارع لاهور. المدينة تنتمي إليه، وله يد في ابتكارها.

كان المطعم مزدحمًا في ليلة الجمعة العظيمة هذه، وكان صاخباً فوق العادة، ولكنْ سرى همس بين الطاعمين حالما دخل بورخيس وهو يطرق بعصاه الأرض، متلمساً طريقه عبر الطاولات-من الواضح أنّه يعرف المكان جيداً. عُرف بورخيس، ولدى دخوله توقف الحديث والأكل، وساد صمت فيه مافيه من الخشوع والفضول، دام حتى جلس بورخيس وأخطر النادل بطلباتنا.

تناولنا لبّ النخيل، والسمك والعنب. احتسيت أنا النبيذ، واقتصر بورخيس على الماء. كان يميل رأسه جانباً ليأكل، محاولاً غرس شوكته في قطع لبّ النخيل. حاول تالياً بالملعقة، ثم بأصابعه بعد أن تملكه الإحباط.

قال: "هل تعلم الخطأ الكبير الذي يقترفه الناس عندما يحاولون تصوير دكتور جيكيل ومستر هايد؟ إنّهم يستخدمون الممثل ذاته ليؤديا دوري الرجلين كليهما. عليهم توظيف ممثليْن مختلفيْن. هذا ما كان يقصده ستيفنسن. جيكيل كان رجلين. ولن تكتشف قبل نهاية الفيلم أنّهما الرجل ذاته. لابد من تلقي تلك الصدمة في النهاية. شيء آخر. لِمَ يجعل المخرجون هايد زير نساء دائماً؟ لقد كان فظاً جداً في الواقع."

قلت: " هايد يطأ على طفل، ويصف ستيفنسن صوت تهشّم العظام."

"نعم، يمقت ستيفنسن القسوة، ولكنه لا يناهض الشغف الجسدي."

"هل تقرأ لكتّاب معاصرين؟"

" لا أتوقف عن القراءة لهم قط. أنطوني بورجس ممتاز- هو رجل كريم جداً بالمناسبة. نحن متشابهان- بورخيس، بورجس. الاسم ذاته."

"هل هناك غيره؟"

قال بورخيس: " روبرت برواننغ، " وتساءلت إنْ كان يستدرجني. " الآن، لابد أنّه كاتب قصة قصيرة. إنْ فعل، سيكون أعظم من هنري جيمس، ولكان الناس يقرأون له حتى الآن." بدا بورخيس يأكل نصيبه من العنب. " الطعام طيب في بيونس آيرس، ألا تتفق معي؟"

" في معظم المناحي، تبدو مكاناً راقياً."

نظر إلى الأعلى. " ربما كان الأمر كذلك، ولكن هناك انفجارات يومياً."

"لا يذكرون ذلك في الصحف."

"إنّهم خائفون من نشر الأخبار."

"كيف عرفت أنّ هنالك تفجيرات؟"

قال: " بسهولة. أنا أسمعها."

في الحقيقة، بعد ثلاثة أيام كان هناك حريق دمر جزءاً كبيراً من استديو التلفزة الملونة الجديد الذي شُيد لبث فعاليات كاس العالم. وعُزي ذلك إلى "عطل كهربائي." بعدها بخمسة أيام فجّر قطاران في لوماس دي زامورا، وبيرنال. وعقب ذلك بأسبوع، اغتيل وزير في الحكومة، وعثر على جثته في أحد شوارع بوينس آيرس، وقد ثُبتت عليه ملاحظة تقول: " هدية من المونتوريرو[[80]](#footnote-80)".

قال بورخيس: " لكن الحكومة ليست حزينة جداً. فيديلا رجل عسكري حسن النية." ابتسم بورخيس وقال في بطء: " هو ليس ذكياً جداً، لكنه على الأقل رجل نبيل."

" ماذا عن بيرون؟"

" كان بيرون وغداً. أمي كانت في السجن تحت حكم بيرون. وأختي كانت في السجن. ونسيبي. كان بيرون قائداً سيئاً، وأيضاً أخاله جباناً أيضاً. لقد سرق البلاد. كانت زوجته عاهرة."

"إيفيتا؟"

"عاهرة رخيصة."

شربنا القهوة. نادى بورخيس على النادل وقال بلغة إسبانية: "ساعدني في الوصول إلى الحمام." وقال لي: " أنا مضطر للذهاب ومصافحة الأسقف. ها!"

في طريق العودة عبر الشوارع، توقف هو عند مدخل الفندق، وطرق على أعمدته المظلة المعدنية مرتين بعصاه.

ربما لم يك ضريراً كما يتظاهر، وربما كانت معلماً مألوفاً. لم يترنح خوفاً. قال: " تلك جالبة للحظ."

وبينما كنا ننعطف إلى مايبو قال: " كان والدي يقول، " ما أسخف قصة المسيح. أن يموت من أجل خطايا العالم. من قد يصدق هذا؟ إنّه هراء أليس كذلك؟"

قلت: " تلك خاطرة وافقت وقتها، الجمعة العظيمة."

قال: " لم أفكر في هذا! أوهـ. أجل!" ضحك بشدة حتى أذهل اثنين من المارة.

وبينما كان يبحث عن مفتاح باب مسكنه، سألته عن باتاغونيا.

قال: "زرتها، لكني لم أعرفها جيداً. سأخبرك عن هذا. إنّها مكان كئيب. مكان كئيب جداً."

" كنت أخطط للسفر بالقطار غداً."

" لا تذهب غداً. تعال لزيارتي. أحب قراءتك."

" أعتقد أنَّ بوسعي السفر إلى باتاغونيا الأسبوع المقبل."

قال بورخيس: " إنّها كئيبة."

فتح الباب، والآن زحف إلى المصعد، وسحب بوابته المعدنية فاتحاً إياها.

قال: " بوابة الأحزان المائة" ودخل وهو يكتم ضحكته.

بورخيس لا يكلّ. ألحّ علي لزيارته مراراً. كان يظل ساهراً، تواقاً للحديث، والقراءة له، وكان رفيقاً رائعاً. لقد حولني إلى بوزويل شيئاً فشيئاً. في كل صباح عندما أستيقظ أجلس وأكتب حواراتنا التي جرت في الليلة الماضية، ثم أسير حول المدينة، وعند هبوط الليل، أستقل قطار الأنفاق.

قال بورخيس أنّه نادراً ما يخرج. " لا أذهب إلى السفارات، ولا الحفلات- أكره الوقوف والشرب."

حُذرت من حدة مزاجه أو سوئه. ولكن ما رأيت كان أقرب للملائكية. وفيه شيء من دجّال- لديه أسلوب في الخطابة، وعرفت أنّه كا ن يردد شيئاً قاله مائة مرة من قبل. بداياته فيها تلعثم، ولكنه يهديء ذلك بحركات كفيه. يبدو عليه الوقار من وقت لآخر، لكنه أيضاً قد يظهر العكس، كالطلاب، له وجه ساحر في انتباه، وأصابعه مشتبكة معاً.

يغدو وجهه ارستقراطياً عند الاسترخاء، وعندما يكشف عن أسنانه الصفراء في ابتسامة واسعة كان يظهر بهجته- يضحك على نكاته بشدة- يضيء وجهه، ويبدو كممثل فرنسي أدرك أنّه نجح في سرقة الأضواء. ("سرقة الأضواء!" كان بورخيس ليقول. " لا تستطيع قول هذا باللغة الإسبانية. لهذا كان الأدب الإسباني رتيباً.")

كان وجهاً مثالياً لمعلم روحي، إلا أنّه كان يوظف ملامحه بطريقة معينة، فيبدو مثل بهلوان، ولكن ليس مغفلاً. كان ألطف الرجال، وليس من عنف في حديثه ولا إيماءاته.

قال: " لا أعرف الانتقام، لم أشعر به قط. ولا أكتب عنه."

"ماذا عن إما زونز؟"

"نعم تلك هي الوحيدة. لكن القصة أعطيت لي، ولا أظنها جيدة حتى."

"إذن أنت لا تعترف حتى بالانتقام لشيء وجِّه ضدك."

"الانتقام لا يغير ما حدث لك. ولا المغفرة.لا موضوعية في الانتقام أوالمغفرة."

"ماذا يسعك فعله؟"

قال بورخيس:"أنسى، هذا كل ما يسعك فعله. عندما يُساء إليّ، أتظاهر أنّه حدث قبل مدة طويلة، لشخص آخر."

"أو ينجح ذلك؟"

"قليلا أو كثيراً" برزت أسنانه الصفراء وهو يقول: " قليلا في أكثر الأحيان."

بالحديث عن عبثية الانتقام، وصل، وارتعشت يداه لموضوع جديد، ولكنه هادف، الحرب العالمية الثانية.

قال: "عندما كنت في ألمانيا، بعد الحرب مباشرة، لم أسمع كلمة مناهضة لهلتر. في برلين، قال لي الألمان"- وهنا تحدث بالألمانية- " " حسنًا، ما رأيك في أطلالنا؟" يحب الألمان الشفقة- أليس ذلك مريعاً؟ أروني أطلالهم. أرادوا أن أرثى لهم. ولكن لماذا أضطر إلى تدليلهم؟ قلت "- وغمغم بالجملة باللغة الألمانية- "لقد رأيت لندن.""

واصلنا حديثنا حول أوروبا، تحول الحوار إلى الدول الاسكندنافية وحتماً إلى جائزة نوبل. لم أقل الأمر الواضح، أنَّ بورخيس نفسه قد رُشح للجائزة. ولكنه قال من تلقاء نفسه: " إن عُرضت علي، سأسرع إليها وألتقفها بيديّ كلتيهما. لكنْ مَن نالها من الكتّاب الأمريكيين؟"

قلت: " شتاينبك."

"لا، لا أصدق ذلك."

"إنّها الحقيقة."

" لا أصدق أنّ شتاينبك قد حصل عليها. ومع ذلك قد حصل عليها طاغور، وقد كان كاتباً فظيعاً. كتب قصائد مبتذلة- أقمار، وحدائق. قصائد غثّة."

" ربما فقدت هذه القصائد شيئاً ما عندما تُرجمت من اللغة البنغالية إلى الإنجليزية."

" لا يمكن إلا أن تزداد قيمة بذاك. لكنها مبتذلة." ابتسم، وصار وجهه ملائكياً- والسبب الأكبر يتمثل في كونه ضريراً.

وجرى الأمر على هذا المنوال مراتٍ كثيرة: استطعت مراقبته وهو يفكّر في ذكرى. قال: " جاء طاغور إلى بيونس آيرس."

"أكان هذا بعد فوزه بجائزة نوبل؟"

" لابدّ أنّها كذلك. لا أتخيل فيتوريا أوكامبو يدعوه إن لم يكن قد فاز بها." ضحك لذلك وقال: " واشتجرنا أنا وطاغور."

"علام تشاجرتما؟"

كان لبورخيس صوت احتفالي. كان يحتفظ به من أجل جمل بعينها من الرفض الباعث على التجمد. والآن ها هو يلقي برأسه إلى الوراء ويقول بذلك الصوت: " لقد تفوه بهرطقات عن كيبلنغ."

تقابلنا هذا المساء لقراءة قصة كيبلنغ" مخاشنة النهار،" ولكن لم نصل إليها قط. تأخر الوقت، واقترب وقت العشاء، فتحدثنا عن قصص كيبلنغ، ثم عن قصص الرعب عامةً.

" إنّها قصص رائعة جداً. أحب قصص الرعب الرومانسية. كانت حبكته جيدة جداً، لكنْ أسلوبه فظ. ولقد أهديته قصة ذات مرة. ولكنها لم تكن جيدة مثلهنّ- كانت تلك شديدة السوداوية."

"أعتقد أنّ كيبلنغ كان يكتب عن أطفاله المتوفين. توفيت ابنته في نيويورك، وقتل ابنه في الحرب. ولم يعد إلى الولايات بعدها أبداً."

قال بورخيس: " حسناً لقد نشبت بينه وبين صهره تلك المشكلة."

قلت: "لكنهم لم يأخذوا آراءه على محمل الجد."

""لم يأخذوا آراءه على محمل الجد" لا يمكنك أن تقول هذا في اللغة الإسبانية!"

كان مبتهجاً، ثم تظاهر بالحزن. " لا يمكن أن تقول أي شيء باللغة الإسبانية."

خرجنا لنأكل. سألني عما كنت أفعل في أمريكا الجنوبية. قلت إني قدمت بعض المحاضرات في الأدب الأمريكي، وعندما قدمت نفسي للجمهور المتحدث باللغة الإسبانية بوصفي نِسويًّا خالني الناس رجلًا يعترف بانحراف ما. قال بورخيس إنّ علي تذكّر أنَّ لاتينيي أمريكا لم يتحلوا بالكياسة في هذا الموضوع. مضيت في حديثي لأقول إنني تحدثت عن مارك توين، وفولكنر، وبو، وهمينغواي.

سأل هو:" ماذا عن همينغواي؟"

قلت: " لقد اقترف خطأ واحداً فادحاً. أعتقد أنّه خطأ خطير. لقد كان معجباً بالمتنمرين."

قال بورخيس: " أتفق معك لأقصى حد."

كانت وجبة طيبة، وبعدها سرنا عائديْن إلى شقته السكنية- مرة أخرى طرق أعمدة مظلة الفندق- قال، " نعم أعتقد أننا، أنا وأنت، نتفق بشأن معظم الأمور، ألسنا كذلك؟ إيه؟"

قلت: " ربما، لكن علي في هذه الأيام الذهاب إلى باتاغونيا." قطار أنفاق

قال بورخيس: " نحن لا نقول باتاغونيا. نقول شوبوت أو سانتا كروز. لا نقول باتاغونيا أبداً."

"و. هـ. قال باتاغونيا."

"ما الذي كان يعرفه؟ أيام ضائعة في باتاغونيا ليس بالكتاب الرديء، ولكنك تلاحظ ألا ناس فيه- فقط طيور وزهور. هكذا هي الحياة في باتاغونيا. لا بشر هناك. مشكلة هدسون أنّه كان يكذب طوال الوقت. ذلك الكتاب مليء بالأكاذيب. لكنه يصدّق كذباته وسرعان ما يصعب عليه التفريق بين الحقيقة وغيرها. فكّر بورخيس للحظة، ثم قال. " لا شيء في باتاغونيا. إنّها ليست صحراء، ولكنها أقرب ما يمكن الوصول إليه في الارجنتين. لا، لا شيء في باتاغونيا."

قلت لنفسي، إن كان الأمر كذلك، ولا شيء هناك حقاً- إذن فهذا هو المكان المثالي لإنهاء هذا الكتاب.

-----------------------

-21-

قطار بحيرات الجنوب السريع

**---**

باتاغونيا هي أيضاً طريق العودة. لقد ألغيتُ عدة حجوزات قطارات من أجل إمضاء المزيد من الوقت مع بورخيس، إلا أنني أنهيت المماطلة الآن ووضعت خططاً صارمة للرحيل جنوباً. لديَّ أيام قليلة قبل مغادرة بيونس آيرس، لكنْ تجولت في المدينة بنفسي بمعزل عن دفء الأرجنتين في عطلة عيد الفصح الطويلة. تصيبني بالكآبة الآن. أصاب روحي إحباطٌ بما مسّها من الحزن الذي نفضه أهلها عنهم مؤقتاً. كان هذا في جزءٍ منه من تأثير لا بوكا، الحي الإيطالي القريب من المرفأ، حيث كان هناك أطفال يسبحون في الميناء الطافح الزيت، الذي تنبعث منه رائحة الشر، ورأيت من الزيف ما طغى على الجمال في المنازل والمطاعم المشيدة على الطراز الصقلّي، بعض البؤس كان متكلفاً، وما عدا ذلك وخم لا غير. ذهبت إلى مقبرة تشاكريتا- يبدو أنَّ الجميع يفعل ذلك. وجدت قبر بيرون، ورأيت نساء يقبّلن وجهه البرونزي المخيف، ويجدلن أغصان القرنفل حول المقبض على باب الضريح ("معجبات!"قال رجل يقف بالجوار. همست زوجته: " كلعبة كرة القدم،"). في إحدى الليالي وأنا أقود باتجاه ضاحية ما مع رولاندو، تخطانا شرطي على دراجة بخارية، لوّح لنا بإشارة إلى جانب الطريق. تحدث رولاندو.

قال الشرطي إننا تجاوزنا إشارة حمراء. أصرّ رولاندو أنَّ الإشارة كانت خضراء. في النهاية اتفق معنا الشرطي على أنّ إلاشارة كانت خضراء.

قال الشرطي بنبرة ابتزاز خجول : "لكنْ الأمر يتعلق بكلمتك مقابل كلمتي. هل تريدان البقاء هنا طوال الليل، أم ترغبان في تسوية هذا الأمر الآن؟"

منحه رولاندو من قطع البيزو ما يعادل سبعة دولارات فحيانا الشرطي وتمنى لنا عيد فصح سعيدًا.

قلت لرولاندو : " سأغادر."

"ألا تحب بيونس آيرس؟"

قلت: "كلا، أحبها، لكني أريد المغادرة قبل أن أغير رأيي."

© @ ©

استغرق قطار محطات الجنوب السريع ساعة حتى يخرج من المدينة. غادرنا في الخامسة، في عصر يوم مشمس، ولكن عندما بدأنا نسرع عبر السهوب، وهي مراعٍ معتدلة واسعة، بدأ الظلام يحلّ. ثم غابت أضواء شفق الغروب، وفي ذلك الظلام الجزئي كان العشب رمادياً، والأشجار سوداء، وكانت بعض الماشية هادئة كالحجارة، وفي أحد الحقول بدت خمس بقرات ناصعات كالغسيل المنشور.

هذه هي خطوط روكا الحديدية العامة. تعرضت مؤخراً لتفجير ولكنه خط يسهل تفجيره. يمتد هذا الخط عبر محافظات لا بامبا، وريو نيغرو عبر مراعٍ خالية، وصحراء، ويشق هضبة باتاغونيا العظمى. لا يتطلب تفجير القطارات في هذه المناطق القليلة السكان كثير مهارة. يستطيع أي شخص أن يصبح إرهابيًا هنا. ولكن قال ملازم غرفة النوم ألا شيء يدعو للقلق. لسبب ما، كان الإرهابيون يفضلون قطارات الشحن، ربما لفداحة الضرر الذي يلحق بقطارات الشحن، ولكن هذا كان قطار ركّاب بالكامل.

قال: " استرخ، واستمتع. دع القلق علينا. فهذه هي وظيفتنا."

كان لعربة النوم شكل غير مألوف. كانت قديمة، مصنوعة من الخشب، وكانت ألواح الخشب الداخلية من خشب المهوغني المصقول الداكن. كانت طويلة جداً، وفي الوسط بهو، وما يشبه غرفة المعيشة، بمقاعد منجدة، وطاولات للعب الورق. وثمة أبواب أيضاً، هنا حيث يجتمع الركّاب- معظمهم كبار السنّ- ليتحدثوا عن مدى برودة الطقس في باتاغونيا. مُنحت تذكرة درجة أولى. ظللت في مقصورتي، وكتبت عن بوينس آيرس وبورخيس، وندمت على عدم سؤاله وأنا ألعب دور بوزويل :" لماذا يكون ذيل الثعلب كثيفاً يا سيدي؟"

على العشاء في تلك الأمسية الأولى- نبيذ، نوعان من السلطة، وشرائح اللحم القياسية- جلس على طاولتي رجل يرتدي زيّاً عسكرياً.

كان الأمر لمجرد راحة النادل- لم يكن سوى ستة منا يأكلون في عربة الطعام، فأجبرنا على الجلوس معاً لنوفّر على النادل الحركة في أنحاء العربة بطولها لخدمتنا. كان العسكري شاباً. سألته عن وجهته.

قال: " كومودور ريفادافيا، إنها مكان قبيح."

"إذن أنت أيضاً ذاهب إلى باتاغونيا."

قال وهو يجذب زيّه الرسمي: "ليس لي أي خيار، أنا في الخدمة."

"هل أنت مضطر لذلك؟"

"الجميع- لعامٍ."

"قد يصبح الأمر أسوأ. لستم في حالة حرب."

"لا حرب، ولكن مشكلة- مع تشيلي، على قناة بيغل. كان ينبغي أن تنشب هذا العام! هذه سنة سيئة للعمل في الخدمة العسكرية. ربما تعيَّن علي القتال."

"فهمت. أنت لا تريد قتال التشليين؟"

"أنا لا أريد قتال أيٍ كان. أريد أن أبقى في بيونس آيرس. ما رأيك بها؟ جميلة إيه؟ فتيات حسناوات، أليس كذلك؟"

" أي نوع من الجيوش هو جيش تشيلي؟"

" ليس قوياً- ليس كبيراً جداً. ولكن البحرية التشيلية ضخمة. لديهم بواخر، وزوارق، ومدافع، وكل شيء. لا يقلقني الجيش- البحرية هي مصدر خوفي. إلى أين أنت ذاهب؟"

قلت: " إيسكويل"

شخر قائلاً. " لماذا هي؟"

"القطار يذهب إليها."

" القطار يذهب إلى باريلوتشي أيضاً. إلى هناك ينبغي أن تذهب. الجبال، البحيرات، الجليد، المنازل الجميلة. إنّها مثل سويسرا، أو النمسا."

" لقد زرت سويسرا والنمسا."

"الجليد رائع."

"لقد أتيت إلى جنوب أمريكا هرباً من الثلج. كان عمق الثلج حيث أتيت يصل إلى عشرة أقدام."

"ما أقوله إنّ جمال إيسكويل قليل جداً، لكن باريلوتشي بديعة."

"ربما سأعمل بنصيحتك وأذهب إلى باريلوتشي بعد إيسكويل."

"انس ايسكويل. انس باتاغونيا. إنّها أماكن قبيحة. أنا أخبرك، بيونس آيرس هي الأجدر بالزيارة."

إذن حتى هنا، على بعد مرمى حجر من المدينة التي رسمت دائرة حول اسمها على خارطتي في بوسطن، يحاولون تثبيط عزيمتي.

لدى سماع نقيق الضفادع ذاك في الليل، أطللت من النافذة، ورأيت الحباحب. لم أنم جيداً- سبب لي النبيذ أرقاً. (أهذا هو السبب الذي يدعو الأرجنتينيين لتخفيفه دائماً بمزجه بالماء؟)- ولكن، مع استيقاظي كان لقلبي في قرص القمر البرتقالي الكبير سلوىً وراحة.

قرب الفجر بدأت أشعر بالنعاس، فنمت طوال المرور بمدينة باهيا بلانكا، وهي مدينة أردت رؤيتها، ولم استيقظ حتى بدأنا نعبر نهر ريو كولورادو.

يظن بعض الناس أنّ هذه هي حدود باتاغونيا، وفي الحقيقة لا شيء يمكن رؤيته بعد أن وصلنا إلى الضفة الأخرى. لقد قيل لي إنَّ العدم هو السمة الغالبة لباتاغونيا. ولكن ظهرت المراعي، ومعها الماشية التي ترعى تحت السماء الصافية. طوال الساعات القليلة التالية كان هذا هو كل شيء: العشب، الماشية، السماء. وكان الطقس بارداً. كانت البلدات صغيرة، ليست أكثر من تجمع لمباني المزارع ذات الأسقف المسطحة، التي سرعان ما تحولت إلى نقط سوداء مع سير القطار.

وصلنا بعد الساعة الحادية عشرة مباشرة ذلك الصباح إلى بلدة كارمن دي باتاغون، على الضفة الشمالية لنهر ريو نيغرو. على الطرف الآخر من الجسر كان فيدما. هذا النهر الذي عددته حداً فاصلاً حقيقياً بين الجزء الخصب من الأرجنتين وهضبة باتاغونيا الترابية. هدسون بدأ كتابه حول باتاغونيا بوصف لواد هذا النهر، وتتسق عدم دقته مع جميع التسميات الخاطئة للمعالم الجغرافية التي رأيتها منذ أن كنت في المكسيك.

يقول هدسون: " بلا شك قد أخطأ السكان الأصليون في تسمية النهر (كوسار ليوفو) أو النهر الأسود، مالم تقتصر إشارة الكنية على شخصيته السريعة الخطرة، لأنّه ليس بأسود الهيئة على الإطلاق...الماء، الذي يتدفق من الانديز عبر قارة من الحجر والحصى، جميل الصفاء، ولونه أخضر بحريّ شفاف."

ظللنا في الضفة الشمالية، في محطة على المنحدر. سيدة في الظل كانت تبيع أكوام التفاح الأحمر الزاهي خمسة خمسة. كانت تبدو كتاجرة نشيطة من النوع الذي تراه في يوم خريفي ببلدة فيرمونت الريفية- وردية الخدين، بشعر مصفف على هيئة كعكة، وسترة بنية، فوق تنورة ثقيلة.

اشتريت بعض التفاح وسألت إنْ كان باتاغونيّاً.

قالت نعم، لقد زُرع هنا. ثم : " أليس هذا يوماً جميلاً!"

كان مشمساً، والنسمات العاصفة تعبث بأشجار الحور اللومباردي. كنا قد تأخرنا لساعة أو نحوها، ولكني لم أهتم. في الحقيقة كلما تأخرنا كان أفضل، إذ أنني كنت أنوي النزول من القطار عند إنغينيرو جاكوباتشي في الساعة المزعجة الواحدة والثلث صباحاً. قطار الربط المتجه إلى إيسكويل لم يكن ليغادر قبل السادسة صباحاً، عليه بالكاد أهتم لموعد وصولي إلى جاكوباتشي.

قال تشارلز داروين الذي جاء إلى كارمن على قناة بيغل، إنَّ المشهد كان " أقرب إلى لوحة فاتنة بلمسة من شمس ساطعة."

ولكنه وجد البلدة قذرة: " هذه المستعمرات الإسبانية-مثل البريطانية- لا تحمل عناصر التطور ذاتياً."

عبرنا النهر، كان عرضه لا يتجاوز بضع مئات من الياردات، ولكن التجربة كانت منعشة بالنسبة لي، حتى بعد تكررها عدة مرات في أمريكا الجنوبية: دخلنا إلى أرض مختلفة على الطرف الأقصى. كانت التربة مكونة من الرمل والحصى، لا ظل هنا، والأرض بنيّة اللون.

وهناك في كارمن دي باتاغون ماشية ترعى، وقد نمت أشجار الحور، واخضرّ العشب. لكن لا عشب بعد فيدما. كان هناك غبار وأجَمَة، وفي الحال هب إعصاران ودوّما باتجاه الأفق. كنت في عربة الطعام أتناول غدائي.

مدّ مندوب مبيعات مواد بلاستيكية في طريقه إلى مستوطنة ويلش في تريليو يده باشمئزاز ناحية النافذة وقال: " يوجد الكثير من هذه على طول الطريق إلى جاكوباتشي."

ربما ظننته في البداية مكاناً خصباً. في الأفق شريط كثيف من الخضرة الممتدة، تبرز من بينها شجيرات كثيفة. في وسط المسافة صفرة مخضرة، منطقة ما بين الشحوب والوعورة تتناثر فيها بقع بنية. تكتشف الخداع عند الاقتراب: تلك الشجيرات القليلة، الشائكة صغيرة الأوراق تنشيء وهماً بالخضرة، ولا شيء يغطي السهل سوى هذه النباتات الجافة الهشة. تضرب الشجيرات الشوكية بجذورها في التراب. والأخرى أشنات ملونة وتشبه الفطر في مظهرها. وليس من عشب حتى على الأرض، فقط هذه الشجيرات، وربما كانت ميتة.

الطيور أيضاً يحول ارتفاعها الشاهق دون التعرف عليها. لا وجود للحشرات مطلقاً. ولا رائحة للمكان. وهذه ليست سوى بداية باتاغونيا. كنا ما زلنا نسافر على طول الساحل، حول خليج سان ماتياس. ولا يكاد المرء يعرف بقربنا الشديد من البحر على الرغم من أننا كنا في منتصف النهار، ما لاح في البداية كأنه بحيرة صار أكبر وأشد زرقة، وثبت أنّه المحيط الأطلسي. ما زالت النتوءات الشجرية الصغيرة تتخلل الأرض، وقد سمم ماء المد المالح التربة فتفاقم مواتها. مررنا بقرى أدرجت أسماؤها على الخارطة كمدن، ولكنها في الواقع لا تحتاج إلى تسمية. ماهي؟ ستة مبانٍ مسطحة، دمرها الطقس، ثلاثة منها مراحيض، وأربع أشجار متباعدة المسافة، وكلب أعرج، وقليل من الدجاج، وريحٌ تهبّ بشدة ليرفرف زوج من البناطيل النسائية المنشورة أفقياً على حبل غسيل. وأحياناً، في وسط الصحراء، ثمة منازل منعزلة، صنعت من اللبِن، أو الطوب الترابي. كانت هذه أحجية، في قوة الورق المقوى. السياج المصنوع من أغصان الشجر والعصي- بِمَ يحيط؟ وماذا يمنع من الدخول- لم يساعد على فهم الغرض من هذه بناء الأكواخ.

جئنا إلى سان انطونيو اويستي، مدينة صغيرة على مياه خليج سان ماتياس الزرقاء، تبدو كواحة. نزل حوالي أربعين شخصاً من القطار هنا، إذ أنّهم قد يلحقون بالحافلات في الموقف المحلي إلى المدن البعيدة على ساحل باتاغونيا- كومودورو ريفادافيا، وبويرتو مادرين. عندما عرفت بتوقف القطار، نزلت وتنزهت في الهواء الطلق.

مال النادل من نافذة عربة الطعام.

" إلى أين أنت ذاهب؟"

"إيسكويل."

"لا!"

"عبر جاكوباتشي."

"لا! ذلك القطار حجمه هكذا فقط!" وأشار إلى مسافة قصيرة بأصبعيه.

تجنبت في الولايات المتحدة والمكسيك أن أخبر الناس بوجهتي: لم أظن أنَّ بساطتهم ستتحمل ذلك. ثم في امريكا الجنوبية، ذكرت باتاغونيا: كان الخبر يُستقبل بتهذيب. ولكن هنا، كلما اقتربت من إيسكويل، كل ما بدت المسافة أبعد، والآن قد تكون أبعد من أي وقت مضى. فهمت الرسالة: لم يصل أحد في ترحاله إلى مكان كهذا؛ كانت ايسكويل هي بداية الرحلة. ولكن علي أن أعلم دائماً ألا نية لي للكتابة حول وجودي في مكان- فهذا يتطلب مهارة مُنَمْنِمٍ. كنت مهتماً أكثر بالرحلة والطريق، في شاعرية المغادرة. وقد وصلت إلى هنا بركوب قطار أنفاق يزخر بمسافري بوسطن، الذين ذهبوا إلى أعمالهم وتركوني والقطار. ظللت فيه، والآن أنا في سان أنطونيو اويستي في محافظة ريو نيغرو الباتاغونية. كان السفر متعة، ووجودي في هذه المحطة كان يبعث على الضجر.

واصلنا الطريق إلى الجنوب الشرقي، باتجاه محافظة تشوبوت. لم يعد المشهد أخضر، حتى على ذلك النحو الخادع. كانت تسوده درجات من اللونين البني والأخضر، وقلّت فيه الشجيرات القصيرة القميئة، بأوراق أقل. كانت هناك نباتات صغيرة أكثر صلابة تحتها، مثل المرجان في صلابتها وشكلها المروحي. التربة ليست مسحوقة بما يكفي لاستخدامها في صنع الطوب الطيني. كانت هناك منازل على مسافات متباعدة، ولكنها مصنوعة من الأخشاب، وكان أمراً مفاجئاً بالنسبة لي أن أرى الأخشاب في مكان يخلو من الأشجار. هدسون وغيره من المسافرين الباتاغونيين ذكروا حياة الطيور- كان هدسون يقرأ صفحات طويلة عن أغنية الطائر في الصحراء- ولكني لم أر شيئاً سوى طيور السنونو الضخمة وصقر واحد طوال فترة ما بعد الظهر. يفترض أن يكون هنا طيور الريا، والبشروش، ومالك الحزين، ولكن عندما تذمرت لنفسي من عدم رؤيتها، تذكرت ثورنبيري في كوستاريكا ("أين الببغاوات والقرود؟")، وتوقفت عن البحث عنها. كان مدى خواء المكان مدهشاً. سماه بورخيس كئيباً. لم يكن كئيباً. لم يكن شيئاً بالكاد. ما فيه من مادة لا يكفي ليمنحه مزاجاً. ما الصحراء سوى لوحة خالية. أنت من يمنحها سماتها ومزاجها، من ينشيء السراب ويبث الحياة فيه. لكني كنت فضولياً، كانت الصحراء مهجورة، وخالية كما شعرت. ينصب الغبار الناعم من النوافذة، ويكسو الممر، ويستقر على البهو الصغير في وسط عربة النوم.

كان في البهو رجال، ولكن من كانوا أقرب إلى جدار العربة تواروا خلفه. تفصلني عنهم مسافة سبعة أقدام. لم أمانع وجود الغبار بهذه الشدة من قبل، كان من الصعب تحمله. كان يجد طريقه للتراكم في العربة متطايراً خلال دعامة الباب، ومن الشقوق في أطر النوافذ. كانت هناك بعض المفاجآت. كنت قد فقدت كل أمل في رؤية شي ما ينمو في باتاغونيا عندما رأيت- في بلدة فالشيتا- شجر الحور يحيط بحقل من كرم العنب- كرم هنا في هذه الأرض المهجورة- وبستان تفاح. فسّر النهر الصغير في فالشيتا الأمر- فهو يتدفق من الجنوب، من المنصة البركانية بالهضبة. ولكن فالشيتا كانت قرية، وكان واضحاً من القرى الموجودة على البعد باتجاه الشرق أنّها من عطايا هذا النهر الذي يجري باتجاه الشمال. أسست حيث يمكن أن تُشقّ الآبار. كنت أخرج من القطار عند كل محطة، حتى آخذ نَفسي ببساطة. لكن انقضى اليوم، وتزايدت برودة الجو، حتى كاد أن يكون بارداً الآن. علّق الركّاب على البرد، كانوا معتادين على هواء بوينس آيرس الثقيل. ظلوا متدثرين في البهو المترب، بعضهم يضع المناديل على الأفواه، وهم يتحدثون في مواضيع غير مهمة.

" كيف هو الطقس في باريلوتشي؟"

"ممطر- ممطر بشدة".

"أوهـ يا سيدي، أنت لا تقول الحقيقة. أنت تتصرف بقسوة شديدة."

"حسناً، الطقس رائع."

"أنا أعرف أنّه كذلك. باريلوتشي جميلة. وسنكون هناك صبيحة الثلاثاء!"

كانت لديهم آلات تصوير. كدت أضحك بصوت عالٍ من فكرة أنّ الجميع قد أتى بآلة تصوير إلى هنا بنية أخذ لقطات للمشاهد. هذا مثالي جداً! أنت ترى سمة غير مألوفة في المشهد فتدرك أنّها بركة طين، منحتها النسمة أضلاعاً. كانت الشمس قبيل السابعة مشرقة منخفضة الارتفاع، ولبضع دقائق توهجت الشجيرات الصغيرة الشائكة رديئة الرائحة بجمال، ملقيةً بظلال طويلة عبر الصحراء. هناك انجرافات وانفجارات في البعيد، وصار المشهد مألوفاً، كان أرضاً بنية عارية كالتي قد تراها في الرسوم الإيضاحية للإنجيل المدرسي، عليها ديباجة : " فلسطين"، أو "الأرض المقدسة،" ثم انظر: غبار، وشجيرات ذاوية، وسماء زرقاء، وقذارة.

انضم إليّ على العشاء تلك الليلة زوجان شابان كانا في البرازيل مؤخراً. استُقبلا من بيونس آيرس، وأظنهما كانا في شهر العسل. كان هذا وقت الغروب، والسماء بألوان زرقاء وصفراء ساطعة، والمشهد أسود، وكنا قد وصلنا لتونا إلى محطة مينيستيرو راموس ميكسيا التي عصفت بها الرياح. لم تكن على الخارطة. كانت المرأة تتحدث: تناولا إفطارات شهية في البرازيل، وهناك الكثير من السود، وكل شيء كان باهظ الثمن، ومن خارج النافذة كان الصبية يبيعيون الجوز والعنب في رصيف مينيستيرو.

غابت الشمس واصبح الجو بارداً في الحال، وجنّ الليل، وسار الناس بقرب القطار إلى حيث الأضواء الساطعة التي كانت معلقة على أعمدة المحطة. تحركوا من الظلام واستقروا قرب النور مثل الفراشات.

بدت غرفة طعامنا المتربة غاية في الرفاهية مقارنة بهذه المحطة النائية. أصيب الزوجان الشابان بالخجل- قبل برهة قليلة كانا يتحدثان عن الفقر في البرازيل.

في الخارج نادى صبي، " العنب! العنب! العنب" كان يرفع سلته إلى النافذة.

قالت السيدة: " إنهم فقراء جداً هنا. قدم لنا النادل شرائح اللحم لتوه لكن لم يشرع أيٌ منا في تناول طعامه. قال زوجها:" إنّهم منسيون."

كان الناس على رصيف المحطة يضحكون ويومئون. للحظة اعتقدت أننا ربما تعرضنا للخداع بسبب شعورنا بالذنب- الناس في مينيستيرو يبدون مبتهجين للغاية. تحرك القطار، وهجمنا على شرائح اللحم خاصتنا. عندما غادر هذان الزوجان وعادا إلى مقصورتهما استأذن المحصّل في الجلوس. قلت:"بكل سرور." وصببت له كأس نبيذٍ.

قال هو: " كنت أود أن أسألك من أين حصلت على تذكرتك المجانية؟"

قلت: " من أحد الجنرالات."

لم يواصل الحديث في الموضوع. " الأرجنتين غالية أليس كذلك؟ خمن كم أجني من المال؟"

أخبرني رجل في بوينس أيرس أنّ متوسط الأجور في الأرجنتين كان يكافيء 100 دولار أمريكي تقريباً من عملة البيزو. وقال إنني نجحت في تخمين ما جناه هذا الشهر.

قال المحصّل: " أقل، أقل بكثير." قال إنّه جنى حوالي 80 دولاراً في الشهر. " كم يكسب المرء في الولايات المتحدة؟" لم أجد الشجاعة لأخبره الحقيقة، فقررت تخفيف الصدمة وقلت له إنّ المحصّل يجني 100 دولار في الأسبوع.

قال:" هذا ما ظننته، أترى، أكثر بكثير مما نكسب نحن."

قال: " لكنْ تكلفة الطعام باهظة في الولايات المتحدة. وقليلة هنا."

"أرخص بقليل. لكنْ كل شيء غيره مكلّف. أتريد ملابس؟ أتريد أحذية؟ إنّها غالية الثمن. وربما تظن أنّ الأرجنتين فقط هي الباهظة. لا هذا ينطبق على جميع أنحاء أمريكا الجنوبية. هناك بلدان أسوأ منا بكثير."

صبّ لنفسه كأساً آخر من قارورة النبيذ الخاصة بي، وأضاف إليها بعض الصودا، وغمغم:" عندما يأتي الناس ليشاهدوا كأس العالم في يوليو، سوف يتفاجأون جداً. مثلك ها؟ أي مدينة متحضرة هذه؟ هذا ما سيقولونه. ثم سيعرفون كم هي غالية. ويرغبون في العودة إلى ديارهم!"

سألت:" هل أنت مهتم بكرة القدم؟"

قاطعني:" لا" ثم فكر للحظة وقال ببطء. " لا، أنا أكره كرة القدم. أنا لا أعلم لماذا بالضبط. وأنا في هذا الأمر مخالف للعادة. معظم الناس مجنونون بها. لكن، هل تريد أن تعرف السبب الحقيقي وراء رفضي؟"

"نعم، تفضل."

" إنّها قذرة جداً. غير منصفة. شاهد مباراة كرة قدم- وستعرف. هم يركلون كواحل بعضهم البعض دائماً. والحكام لا يكترثون مطلقاً. ركل، ركل- لكم، لكم. هذا غباء وغير منصف. يحب الناس اللعبة لخشونتها. إنّهم يحبون مشاهدة المشاجرات، والكواحل النازفة." شرب النبيذ بشراهة. " أنا؟ أحب أن أرى البراعة. والآن التنس رياضة نظيفة ولطيفة وآمنة. وكرة السلة ممتازة. وبدون شجارات، ولا ركل. يكتب الحكام الأخطاء- ثلاث مخالفات ثم تُطرد إن تجاوزتها."

استمر الحوار. أخبرني إنّه كان يعمل في السكة الحديدية لاثنتين وثلاثين سنة.

سألته:" هل زرت باتاغونيا؟"

ربت على النافذة قائلاً: " هذه هي باتاغونيا." كان الظلام دامساً بالخارج، لكنْ التراب ما زال ينهال عبر الشق بين الحافّة والإطار. ربما كان يشير إلى ذلك الغبار.

" أفهم أنك عملت مع البريطانيين عندئذٍ."

"آهـ. البريطانيون. أحببتهم، على الرغم من كوني ألمانياً."

"هل أنت ألماني؟"

"بالتأكيد."

ولكنه كان يتحدث كما يفعل الأمريكيون. يقول بعض مواطني تشارلوتسفيل، بفريجينيا، نحن إنجليزيون، وهم يشيرون إلى حقيقة أنّ أسلافهم هجروا بلدات التعدين المكسوة بالسخام في يوركشاير وجنوا ما يكفي من المال من تربية الخنازير ليصبحوا نبلاء، ويطردوا اليهود عن نوادي الصيد المحلية. في مدرستي الثانوية، كان ثمة صبي بارع في الجبر فسّر الأمر بكونه ألبانياً." وهذه الضبابية المحضة والحيرة العرقية كانت واضحة في الأرجنتين. أخبرني المحصّل الأرجنتيني بلقب عائلته.

كان ألمانياً، قال: " اسمع، اسمي الأول هو أوتو!" وهو لا يتحدث الألمانية بطبيعة الحال. السيد دي أنجلو ورفاقه ذوو الوجوه المنتفخة في عربة الطعام لا يتحدثون الإيطالية. السيد كوفاكز ثاقب التذاكر لم يكن يتحدث الهنغارية. المهاجر الوحيد الذي قابلته في الأرجنتين والذي سينتزع من جذوره كان أمريكيا- خلته مثل السيد توتاليتاريان: كان مؤمناً بالطواغيت، المصطلح "Totalitarian" له جرس أرميني. كان يرتدي معطفاً واقياً، وطاقية زرقاء صغيرة، ويقرأ الصحيفة الأرمينية يومياً، الصحيفة التي كانت تصدر في بوينس آيرس. غادر ارمينيا قبل ستين عاماً.

قال أوتو - المحصّل: " أنازل أنت في جاكوباتشي؟"

"نعم، متى نصل؟"

"حوالي الثانية، صباح الغد."

"ما الذي قد أفعله في جاكوباتشي؟"

"انتظر، لا يغادر قطار إيسكويل قبل الخامسة والنصف."

"هل سبق أن ركبت ذلك القطار؟ أفعلت؟"

لسان حال أوتو يقول: لابد أنّك تمزح! ولكني أتمتع بضمير رقيق، وحضور بديهة كافٍ لأقول:" لا ليس ثمة عربة نوم في ذلك القطار."

فكر للحظة واحتسى جرعة من النبيذ." هذا قطار يفتقر إلى كثير من الأشياء. أنت تعلم. إنّه صغير."

كان يستخدم تعبير تصغير إسباني مركّب: " إنّه صغير- بطيء. يستغرق ساعات وساعات. ولكن اخلد للنوم يا سيدي، سأوقظك عندما نصل إلى هناك."

شرب آخر ما لديه من نبيذ ومياه غازية. ثم أخذ يدير مكعبات الثلج في كوبه، قبيل أن يلقي بها في فمه. عندها نهض ونظر عبر النافذة المظلمة إلى باتاغونيا السوداء والقمر الأصفر الذي تغير شكله فصار نموذجاً مثاليًا للمحاق. قضم الثلج،كرنش-كرنش، بأضراسه. عندما لم أستطع تحمل الصوت أكثر، ذهبت للفراش. كانت هناك بضعة أمور تؤذي الروح البشرية، أكثر من وقوف شخص وراءك بينما يمضغ الثلج ويمص مكعباته.

**---**

**-22-**

**اكسبرس باتاغونيا العتيق**

**---**

لم يكن من الضروري أن يوقظني أوتو، فقد سبقه الغبار. لقد ملأ المقصورة، وبينما كان قطار بحيرات الجنوب يغذُّ السيْر عبر الهضبة حيث يندر هطول المطر (ما نفع الأحذية المضادة للتسرب هنا؟.)، ارتفع الغبار، ودفعته سرعتنا بين زجاج النوافذ المصلصل، والأبواب المصطفقة. استيقظت من النوم وأنا اشعر بالاختناق، فجعلت لوجهي من ملاءة السرير كمامة، حتى أستطيع التنفس. وعندما فتحت الباب لفحت وجهي سحابة من الغبار. لم تكن عاصفة ترابية عادية، بل هي أقرب لكارثة في بئر منجم: صوت القطار، والظلمة، والغبار، والبرد. لا خطر من نومي حتى أصل إلى إنجينيرو جاكوباتشي. كنت مستيقظاً تماماً بُعيد منتصف الليل مباشرة. صررت أسناني وانطحنت حبات الرمل بين أضراسي.

رتبت حقيبتي، وحشوت جيوبي بالتفاح الذي اشتريته في كارمن دي باتاغون، وذهبت إلى الدهليز لأنتظر إشارة المحصّل أوتو. جلست هناك. كان الغبار يدوّم خارج الممر، ويتجمّع حول المصابيح، ويغطي المرايا والنوافذ بفرو الهامستر. ثبتُّ منديلاً على وجهي. لا فائدة من الغسيل، فليس ثمة صابون هنا والمياه باردة كالثلج.

ظهر أوتو بعد فترة من الوقت. كان يرتدي زيّ السكة الحديدية الرسمي فوق بيجامته، وبدا منهكاً.

ربت على ساعة رسغه وقال بصوت مرتعش: " جاكوباتشي، عشرين دقيقة."

رغبت في العودة إلى فراشي. آخر ما كنت أريده هو أن أغادر أمان هذا القطار إلى الظلمة خارجه. كان القطار مغبراً فقط، ولدي هنا ملاذ، وفي الخارج محض خواء، ولا شيء محدد. كل من قابلتهم حذروني من أخذ القطار المتجه إلى إيسكويل. أنا مضطر للذهاب إلى إيسكويل للعودة إلى وطني. توقعت أنّني سأكون الشخص الوحيد النازل في محطة إنجنيرو جاكوباتشي، ولم يصدق حدسي. كان هناك زوج من الرجال المسنين يحملان براميل نفط كبيرة الحجم ضمن متاعهما، امرأة تحمل طفلاً معلقاً إلى عنقها، ويلتصق آخر بظهرها، وزوجان حزمت حقيبتهما بالخيوط والأحزمة، والآخرون كانوا أشبه بالظلال. المحطة صغيرة- ليس سوى غرفة واحدة على الرصيف لجميعنا. كسى الإرهاق والشحوب وجوه الناس في مقاعد الدرجة الثانية الذين أيقظتهم حدة التوقف المفاجيء وأنوار المحطة.

ظل صوت القطار مكتوماً حوالي نصف ساعة على الرصيف، ثم تحرك ببطء شديد مغادراً. غادر الغبار والأضواء الخافتة والصمت. بدا كما لوأنّه أخذ معه العالم.

شابت الضبابية مسافة ذلك القطار السريع وارتفاعه – شعرت الآن بالشوق للعودة إلى متنه. وفي جاكوباتشي حصلنا على الأرقام: نحن على ارتفاع ألف ميل من بيونس آيرس، ومنذ أن كنا في كارمين دي باتاغون، وهي على مستوى سطح البحر، صعدنا إلى ما يربو عن ثلاثة آلاف قدم على رصيف لم يهبط مرة أخرى حتى مضيق ماجلان. في هذه الريح، وهذا الارتفاع وهذا الوقت من الليل- الثانية صباحاً- كان البرد شديداً في جاكوباتشي. قال الناس لا أحد يتوقف في جاكوباتشي. أستطيع إثبات خطأ هذه المقولة. نزل الركاب من القطار. افترضت أنّهم قد يكونون-مثلي- في انتظار القطار المتجه إلى إيسكويل. نظرت حولي بحثاً عنهم. لقد اختفوا. أين؟ في تلك الريح وذلك الظلام، تلك الأكواخ في الصحراء.

لم يبدلوا القطار- هم يعيشون في جاكوباتشي. خلصت لاحقاً إلى أنّ هذه فكرة ساذجة، ولكن في ذلك الوقت فكرت حول مدى غرابة أنّ هناك أناسًا- مهاجرين وأطفال مهاجرين- اختاروا العيش هنا من دون جميع الأماكن.

لا ماء هنا، ولا ظل، والطرق سيئة، وفرص العمل بأجرٍ ضئيلة. ومهما كان الناس أقوياء فهم لا يملكون طاقة الهنود وأصالتهم، الهنود الذين لم يعيشوا في هذا الجزء من باتاغونيا على أية حال. إلى الشمال الشرقي كانت مراعي باهيا بلانكا الخصيبة، وإلى الغرب البحيرات- فردوس باريلوتشي التيرولية. من أجل بضعة خراف وقطيع من الماشية، وعناد  مدهش، عاش الناس في هذه البلدة البتاغونية الصغيرة حيث ينقسم خط السكة الحديدية، تقاطع السكة الحديدية في الصحراء. ولكنها كانت فكرة ساذجة. بعض الناس يحتاج إلى فضاء أكبر مما يتطلبه العشب أو الشجر، وبالنسبة لهم كانت المدن والغابات مدعاة للحيرة والارتباك. قال لي رجل ويلزيّ في باتاغونيا بوسعك أن تعيش على طبيعتك هنا. حسناً، كان في ذلك قدر كبير من الحقيقة.

تركت حقيبتي في الرصيف، وتمشيت قليلاً، ودخنت غليوني. لن يكون هناك قطار إلى بيونس آيرس قبل ثلاثة أيام.

لفت ملصق لليونسكو مثبت على جدار المحطة انتباهي لحالة سوء التغذية في أمريكا اللاتينية. كما في غواتيمالا هناك لافتة تقول: استخدم القطار- هو أرخص. وأخرى تقول: القطار صديقك- كن صديقاً له. ومعلق على عمود في الرصيف جرس برونزي، مثل جرس مدرسة قديمة. كان قد قرعه ناظر المحطة قبل خروج قطار بحيرات الجنوب مباشرة، ولكن لم يصعد أحد.

ذهب القطار في اتجاه، وركاب جاكوباتشي في اتجاه آخر. وهكذا تُركت مثل اسماعيل: " وأنا هربت وحدي فقط لأخبرك." كان الطقس بارداً في هذا المكان الكئيب، ولكن لا خيار لدي سوى الانتظار أربع ساعات حتى وصول القطار الصغير البخاري الذي يمشي الهوينى إلى إيسكويل. ولكني فكرت أيضاً: إنّه مثالي. إن كان أحد أغراض السفر هو منح نفسك إثارة المستكشف الكامنة بأنك وحدك، وأنك بعد خمسة عشر أو عشرين ألف ميل قد فقت من سواك، وإن انطلقت في مهمة استكشافية فردية في بقعة نائية، إذن فقد حققت حلم المسافر. يسافر القطار ألف ميل من بيونس آيرس، ويتوقف في منتصف الصحراء، وتنزل عنه. تنظر حولك، فإذا بك وحدك. مثل الوصول، في حد ذاته يعدل الاكتشاف- ففيه تلك الفردانية. كانت السماء مرصعة بالنجوم بتشكيلات غير مألوفة، وحتى القمر كان مختلفاً، مثل نسخة انتبودية من القمر الذي ألفته. كان كل هذا جديداً. في أفضل كتب الرحلات تُدرج كلمة "***وحدي"*** في كل صفحة مثيرة، في قوة و رسوخ العلامة المائية. زاد التفكير في هذا الأمر قلقي، فكرة القدرة على الحديث عنه- لأني شرعت عامداً إلى كتابة كتاب، ألم أفعل؟  وحدي، وحدي: كانت برهان نجاحي: كان علي السفر إلى مكان بعيداً جداً للوصول إلى هذه الحالة من العزلة. قال صوت- نقيق ضفدع- "شاي؟"

كان ناظر المحطة. ارتدى معطفاً شتوياً وملفحة، وحذاء مشققاً، وعلى ياقة معطفه ديباجة فضية كُتب عليها خطوط روكا الحديدية العامة. أتاح موقد الغاز الصغير في مكتبه بعض الحرارة، واهتزت غلاية شاي صغيرة منبعجة على شواية مصنوعة يدوياً من السلك. اعتقدت أنّ من الأفضل أن أشرح له فقلت: " أنا بانتظار القطار المتجه إلى إيسكويل."

"إيسكويل مكان جميل جداً."

كان هذا هو المشهد من جاكوباتشي. هذا هو شخص قابلته يمدح إيسكويل. ولكن بما أنني رأيت جزءاً من جاكوباشي استطعت تفهم السبب. دائمًا ما يذكر الناس في بيلشيرتاون، وماساتشوسيتس هوليوك بالخير.

 وضع حزمة من أوراق نبات المتّة (وهي من شجرة البهشية دائمة الخضرة) في كوب صغير وأدخل فيه مصاصة فضية. كان الكوب عظمياً، قرن بقرة منقوش عليه كتابة تزينه.

قال: " يمكنك القيام بأمور كثيرة في إيسكويل. فنادق، مطاعم. هناك مزارع كبيرة. سر حتى خمسين كيلومتراً و ستجد حديقة غناء- أشجارًا، وعشبًا وكل شيء. نعم، إيسكويل مكان جميل."

صبّ الماء المغلي على الأوراق، وناولني الشاي.

"أتحبّه؟"

"جيد جداً. أحبّ المتّة." وضع الكثير من السكّر عليها. فصار مذاقها مقرفاً.

"أقصد الكوب."

نظرت للكوب.

قال: " إنّه قرن بقرة. من البارغواي."

ويقول النقش الذي عليه الشيء ذاته. قلت له أنّها أعجبتني.

 "هل زرت البارغواي؟"

هزّ رأسه: " زوجتي. أخوها هناك. ذهبت إلى هناك العام الماضي." ابتسم واستأنف: " بطائرة".

كان يؤمي، وهو يصنع كوب شايٍ آخر. طرحت عليه بعض الأسئلة عن جاكوباتشي، والقطار، وباتاغونيا. كانت ردوده عادية. أراد الحديث عن المال. كم كلفّت حقيبتي؟ كم كان ثمن المنزل في الولايات المتحدة؟ كم كنت أجني من المال. كم كلّفت سيارتي. ومن إجاباتي أخبرته كم يكلّف رطلٌ من لحم العجل في ماساتشوسيتس. وأصابه ذلك بالصدمة. توقف عن التذمر وبدأ يتباهى بسعر لحم الخاصرة. لم يقل سوى، أتريد معرفة شيء غريب؟ كان متقدماً في السن بما يكفي لمعرفة قصة رائعة. لكنه كان نصف نائم، وكان الطقس بارداً حوالي الثالثة صباحاً، فتركته وخرجت. سرت حتى القضبان، وبعيداً عن أضواء المحطة. كانت الرياح في الشجيرات الشائكة تشق الشجيرات مثل رمل في شلال. عبقت رائحة الغبار في الهواء. كان القمر يلمع فوق الشجيرات بشعاع أزرق يمر عبر رتابة باتاغونيا الوعرة.

سمعت دمدمة. كان هناك كوخ أسود منخفض على مسافة ثلاثين ياردة تقريبًا، وافترضت أنَّ وقع خطواتي على حصباء الخط الحديدي قد أيقظ كلباً. بدأ ينبح. أيقظ نباحه آخر بالجوار، ورفع صوته بالنباح. لم أتمكن من التغلب على خوف طفولتي من أنّ يعضني كلب. تشلّ الكلاب الكبيرة حركتي بنباحها. في أسوأ كوابيسي كلاب أيرلندية مستذئبة يسيل لعابها. أشد الكلاب عنفاً يملكها أشخاص مسنّون، ونساء جميلات، ورجال دميمون في منتصف العمر، وأزواج لم ينجبوا. يقول هؤلاء الناس: لن يؤذيك. وهم يستمتعون بذعري. وأود أن أقول ربما لا، لكن ربما أؤذيه أنا. في جنوب أمريكا- وهذه الحقيقة لا تخفى على أحد- كلاب كثيرة مسعورة.  ليست كلاب الشوارع الجبانة التي رأيتها في سيلان وبورما، بل مخلوقات أنيقة ناعمة أشبه بالذئاب يحبّها السكّان. لطالما كانت في القرى الهندية في بيرو وبوليفيا كلاب تبدو أكثر انتباهاً من الهنود أنفسهم. كانت تلك الكائنات السخيفة تطارد القطار. كنت خائفاً من الإصابة بالسعار. " العلاج ليس بأفضل من المرض." لم يكن خوفي بلا سبب. لقد رأيت إعلانات تحذر الناس من خطر الكلاب المسعورة. ثمة كلب أصغر مما يشي به نباحه- في حجم حقيبة اليد- يشق طريقه بين الشجيرات الشائكة، ويتجه بسرعة إلى إحدى الشاحنات."  جثم ثم زمجر مستدعياً كلباً آخر. وضعت كفيّ في جيبيّ بدأت أتقهقر إلى الوراء. التفت إلى الوراء ناحية أضواء المحطة- كان من الغباء أن أنجرف إلى هذا الحد البعيد. صارت الكلاب الآن معاً  على القضبان وتقترب مني، ولكن بحذر، مسرعة إلى الأمام، وتنبح عاليًا، وتظل منخفضة. بحثت عن عصا لأضربها بها (هل سيغضبها الضرب ويحوّلها إلى قاتلة، أم سيطردها بعيداً؟)، ولكن هذه صحراء. باستثناء شجيرات الحور القليلة في المحطة، ليس ثمة شجرة واحدة على مدى مئات الأميال. أردت أن أجري، ولكني علمت أنّها ستعدّ ركضي علامة على الجبن، وقد تقفز علي. ظللت على حالي أسير القهقرى، وعينيّ مثبتة عليها، وفي داخلي من مشاعر الخوف ما لا يدع مجالاً للكراهية. عندما اقتربت من المحطة، منحتني أشجار الحور الأمل على الأقل أستطيع تسلق إحداها لتأمين نفسي. ولكن هنا ضوء أيضاً بدا مقلقاً للكلاب، فاعتصمت بالظل، تتجول بين عربات السكة الحديدية، وعندما رأتني آمنا على الرصيف، طفقت تطارد بعضها. كانت صغيرة، غبية، مثيرة للشفقة، وعاجزة، ومن موقعي الآمن كرهتها. وصل الصخب إلى مسامع ناظر المحطة. قال: " لا تبتعد كثيراً. حولنا كلاب كثيرة."

 سحبت حقيبتي إلى مقعد خشبي. وأبعدت كل كتاب سوى بوزويل، وشرعت في قراءته من جديد. كانت يداي باردتين. تركت الكتاب جانبًا، وارتديت كنزة أخرى، واستلقيت على المقعد ويدايّ في جيبيّ، تحت لافتة القطار صديقك. حدّقت في المصباح، وتلوت الشكر على نجاتي من عضة كلب مسعور. سواء أكان منطقياً أم لا فهذا ما أخشاه. في السفر معتزلاً قدراً كبيراً من الرضا، لكن هناك مخاوف كثيرة أيضاً. أسوأها هو أكثرها ثباتاً: الخوف من الموت. من المستحيل إمضاء شهور من السفر وحيداً والوصول إلى باتاغونيا دون أن ينتابني شعور كما لو أنّ المرء اقترف عملاً غاية في الغباء. في الساعات الباردة قبيل الفجر، في مكان مهجور كهذا، تبدو الفكرة برمتها طائشة، ومجازفة غير ضرورية، وبلا معنى كليّة. لقد وصلت وحدي، وأوشكت على الوصول إلى وجهتي، لكن هل كان ذاك هو المغزى؟ لقد نويت أن أستمتع، وليس لدي شيء لأثبته. ولكني أجد هذا الخوف في كل يوم. المرور بحادث سيارة، قراءة خبر عن تحطم قطار، رؤية نعش أو مقبرة، في الجزء الخلفي من حافلة منحرفة عن الطريق، أو ملاحظة باب الحريق المغلق (كانت أبواب الحريق في معظم الفنادق التي نزلت فيها يظل مغلقاً طوال الليل لمنع اللصوص من الدخول) أو خربشة بطاقة بريدية، ورؤية الغموض في جملتي: *هذه هي رحلتي الأخيرة*- كلها قرعت ناقوس الموت المهيب في الطرف القصي من عقلي.

تركت مكاناً آمناً ورحلت إلى آخر محفوف بالمخاطر. كانت الخطورة لا تقل عن الموت، وبدأ وشيكاً أكثر حتى لأنني حتى الآن لم أصب بسوء. بدا لي أنَّ السفر هنا، بهذه الطريقة، يعد بحثاً عن المتاعب. الانهيارات الأرضية، تحطم الطائرة، تسمم الغذاء، الشغب، الانفجارات، أسماك القرش، الكوليرا، الفيضانات، الكلاب المسعورة: كانت هي الأحداث اليومية في هذه المنطقة تحديداً- كنت بحاجة إلى حياة مسحورة لأتجنبها. وأنا مستلق هناك على المقعد، لم أهنيء نفسي على مدى ما قطعت من مسافة، لأنني كنت على مسافة قريبة من وجهتي، بل عرفت أنّ الناس الذين ضحكوا عندما أخبرتهم بوجهتي. كانوا محقين في سخريتهم، فقد رأوا عبثيتها بطريقتهم البسيطة. قال السيد ثورنبيري في أدغال كوستاريكا: "أعرف ما أريد رؤيته. الببغاوات والقرود! أين هي؟" في باتاغونيا جمال الغوناق("تبصق عليك حيوانات الغوناق[[81]](#footnote-81)"). ولكنْ هل يستحق الأمر فعلا أن تغامر بحياتك لتراها؟ أم بعبارة أخرى، هل يستحق سماع سجع طائر الناي المشهور حتى ليلة واحدة والمرء نصف متجمد في مقعد خشبي بمحطة قطار في باتاغونيا؟ لم أعتقد ذلك حينها. ولم يبد الأمر حقاً كقصة مختلفة تماماً، نسيت خوفي. لكني كنت محظوظاً. في العادة وطوال هذه الرحلة، كنت أنظر من نافذة القطار، وأقول لنفسي: " يا له من مكان مريع لأموت فيه." كنت قلقاً أيضاً من فقدان جواز سفري، أو تذكرة العودة، أو حتى السطو على مالي كله، ومن الإصابة بعدوى فيروس الكبد الوبائي، وإمضاء شهرين في المستشفى في مكان كئيب مثل غواياكيل، أو فيلازون. هذه مخاوف واعية.

يقول الأشخاص اللطفاء لطمأنتنا:" نحن نضع حيواتنا على المحك يومياً، عند عبور الطريق فقط." ولكن هناك مخاطر أكبر في الإنديز، والبلدان البدائية، وأي شخص يظن غير ذلك فهو ساذج.

ومع ذلك، على ذاك المقعد في جاكوباتشي كنت سعيداً بتركي الجميع خلفي. على الرغم من أنّ هذه كانت بلدة بشارع رئيسي، ومحطة قطار، وناس، وكلاب، وأضواء كهربائية، فهي كانت أقرب إلى نهاية الأرض بما يكفي لرسم انطباع بأنني كنت مستكشفاً وحيداً في أرض غريبة. ذلك الوهم) وهو أيضا وهم في القطب الجنوبي، وفي أعالي نهر النيل) كان فيه ما يكفي من الإشباع بحيث يزيد من رغبتي في التقدم. غفوت، ولكن استيقظت بردان. حاولت البقاء مستيقظاً والمحافظة على دفء جسمي. ذهبت للتمشية ثلاث مرات، وأفسحت للكلاب مجالاً واسعاً على الرصيف. كانت هناك  ديوك صغيرة، لكن ليس ثمة ما يشير إلى طلوع الفجر، فقط صوت  الريح لا سواه، وهي تهب باتجاه المحطة.

***©                                    ©                                 ©***

وصلت إلى إنجينيرو جاكوباتشي في الظلام. كان الظلام ما زال حالكًا عندما صعدت إلى القطار. أعطاني ناظر المحطة المزيد من الشاي، وقال إنَّ بوسعي الصعود إلى العربة. كانت صغيرة كما قيل لي، يملؤها الغبار الذي دخل عبر النوافذ. ولكن على الأقل لدي مقعد. وفي الساعة الخامسة بدأ الناس يتجمعون. كانوا على نحو لا يصدق، قد أتوا لتوديع الأهل والأصدقاء في هذه الساعة.

لاحظت هذه العادة في جميع أنحاء بوليفيا والأرجنتين، هذه الوداعات، والقبلات الكثيرة، والعناق والتلويح، والرجال المنتحبون في المحطات الكبرى يفارقون زوجاتهم وأطفالهم، ووجدت الأمر مؤثراً وبه شيء من الغرابة مع استحقاقهم الذكوري الذي يصل إلى حد السخف.

كان هناك صفير، صافرة بخارية- أسطوانة مزمار حادة. قُرع جرس المحطة. تزاحم المودعون من القطار، صعد الركّاب، وقبل السادسة بقليل انطلقنا.

كان القمر ساطعاً في سماء زرقاء. لم تظهر الشمس بعد، والأرض حول جاكوباتشي كانت رمادية زرقاء، وبنيّة شاحبة.  خرجنا من البلدة قبل أن يتوهج الأفق الشرقي. أسعدتني التلال. في ظلام وصولنا خلتها ستكون منبسطة مثل الأرض التي رأيتها في الغسق، تلك الأرض القفر حول قرية مينستيرو روموس ميكسيا. حيث كان الصبية باعة العنب يقفزون ويزقزقون وسط الغبار. ولكن اختلفت هذه، ولم تكن السماء غائمة، عليه اطمأننت لأنَّ اليوم سيكون دافئاً. أكلت تفاحة، وأخرجت كتاب بوزويل، وعندما أشرقت الشمس خلدت إلى النوم بهدوء.

كان قطاراً قديماً، وعلى الرغم من أنني لابد قد تعودت هذه المرة على غرابة الخطوط الحديدية الجنوب أمريكية، لكني ما زلت أراها غريبة. هناك صبي يجلس في الجهة المقابلة من الممر يراقبني وأنا أتثاءب.

سألت: هل لهذا القطار اسم؟"

"لا أفهم."

"اسم القطار الذي أخذته إلى بيونس آيرس نجمة الشمال، ويدعى قطار باريلوتشي السريع قطار بحيرات الجنوب. والقطار المتجه إلى مندوزا اسمه لايبريتار. هذا النوع من الأسماء."

ضحك وقال: " هذا القطار أقل أهمية من أن يكون له اسم. تتحدث الحكومة عن التخلص منه."

"ألا يدعى سهم إيسكويل أو شيء مثل هذا؟"

هزّ رأسه بالنفي.

"أو أكسبرس باتاغونيا؟"

قال: " قطار باتاغونيا العتيق، ولكن حريّ بالإكسبرس أن يكون فائق السرعة."

قلت:" هو لم يكن كذلك قط. لقد كنت في قطار اسكبرس متجه إلى توكومان وصل متأخراً يوماً كاملاً. استغرقنا ست ساعات لمغادرة محطة واحدة، فوق في الهوماهواكا."

قال الصبي:"الفيضانات".

"الأمطار. الأمطار لا تهطل هنا، ولكنه يظل قطاراً بطيئاً. إنّها هذه الهضاب. انظر، نحن نسير في دوائر."

لقد كنا. هضاب وأودية باتاغونيا التي أحببتها لتنوعها وجمالها الظاهر كانت سبباً في بطء سيرنا. ما كانت هذه الرحلة لتستغرق أكثر من ثلاث ساعات إن كانت على مسار مستقيم، ولكنا لن نصل إلى إيسكويل قبل الثامنة والنصف- رحلة أربع عشرة ساعة تقريباً. كانت الهضاب لا تشبه الهضاب بقدر ما تشبه كعكات السوفليه الفاشلة. كان قطاراً بخارياً، وللمرة الأولى منذ مغادرة المنزل تمنيت لو أحضرت معي آلة تصوير، لألتقط صورة لها. كانت كغلاية شاي جافة على عجلات، عليها رقع حديدية، ومن تحتها أنابيب مسرّبة، وصمامات تقطر، وأكواع معدنية تطلق نفثات من البخار على الجانبين. كانت تعمل بالنفط، وعليه فلم تنفث دخاناً أسودَ، ولكنها مصابة بمتاعب في الشعب الهوائية، وتتنفس في اختناقات وشهيق على المرتفعات، وتصفر على نحو غريب عند المنحدرات عندما تبدو خارجة عن السيطرة. كان ممراً ضيقاً، والعربات الصغيرة مصنوعة من الخشب. الأولى ليست أنظف من الثانية، على الرغم مما لمقاعد الأولى من مساند ظهر مرتفعة. كانت الآلة كلها تصرّ، وعندما تسرع في السير وهذا فيما ندر، كانت وصلاتها تصدر هذا الاهتزاز، وتصلصل نوافذها، وتئن أحشاؤها التي في ظني كانت على حافة الانشطار- تنفجر إلى شظايا وتسقط في واحد من الأودية الجافة. كان المشهد يبدو من عصور قبل التأريخ، النوع الذي يشبه خلفية لهيكل ديناصور في متحف: مجرد تلال  وأخاديد مفزعة، شجيرات شوكية وصخور، وكل شيء قد صقلته الريح فبدأ كما لو أنّ طوفاناً عظيماً عرّاه وكشفه، وجرّده من كل سماته المميزة. ما زالت الريح تعمل عليها، وقد منعت الأشجار من النمو، وجرفت التربة ناحية الغرب، فعرّت المزيد من الصخور، بل انتزعت تلك الشجيرات القميئة من جذورها.

لم يهتم الناس في القطار بالنظر من النافذة، ماعدا في المحطات، وهذا فقط لشراء العنب أو الخبز. إحدى فضائل السفر بالقطار أنك تعرف موقعك بالنظر من النافذة. لا داع للافتات. تل، نهر، مرج- تخبرك معالم الأرض كم قطعت من المسافة. ولكن هذا المكان بلا معالم، أو على الأحرى، كان كله معالم، لا يكاد أحدها يتميز عن الآخر- آلاف من التلال، وأحواض الأنهار الجافة، ومليار شجيرة، وكلها تشبه بعضها. غفوت، واستيقظت، مرت ساعات، ولم يتغير المشهد عند نافذة القطار. وكانت المحطات تشبه بعضها- سقيفة ورصيف خرساني، ورجال يحدّقون، وصبية يحملون سلالاً، وكلاب، وشاحنات محطمة بصندوق.

بحثت عن الغوانق. ليس ثمة ما أفعله أفضل من هذا. ولكن هناك مخلوقات أخرى- طيور من جميع الأنواع، صغيرة مغردة، وسريعة، وسنونوات، وصقور داكنة اللون، وبواشق. باتاغونيا إن لم تكن شيئاً آخر فهي ملاذ للطيور. هناك بوم أيضاً، والنسور الكبيرة كلما اقتربنا من الانديز، وفي أقصى الجنوب، طيور القطرس بأحجامها الهائلة.

استمر قبح المشهد بدون توقف، ولم تكن بي رغبة في التزحزح عن هذا القطار.

كتب روبرت لويس استيفنسن: *وهنا أيضًا نحن نمتن للقطار بقدر ما أنا ممتن لرب ما يسوقنا بسرعة عبر هذه الظلال، مجتازين أخطارًا كثيرة لا نعلمها. بخفة نضرب في هذه الأراضي الرهيبة: كالنسر الذي يحلّق بأمان عبر الأعاصير، عابراً أسماك القرش****.***

الرفيق الجالس قبالة الممر كان نائماً. نظرت إليه وإلى الآخرين، وصدمني شبههم بي. عددت نفسي في وقت مبكر من رحلتي مسافراً غير معقول- لا بطاقات ائتمان، ولا حقيبة ظهر. لم أكن مهندماً بما يكفي لأكون سائحاً في رحلة عشرة أيام عبر الأطلال والكاتدرئيات، ولا كنت متسخاً، أو مهلهلاً بما يكفي لأكون متسكعاً. كان الناس يسألونني ماذا كنت أعمل، وعندما أقول لهم معلّم جغرافيا (إجازة عيد الفصح) تساورهم الريبة في أمري. ذكرت زوجتي وأطفالي: ولكن لماذا أنا هنا وهم هناك؟ لم تكن لدي إجابة جاهزة لذاك السؤال. اعتبرني السيّاح متعجرفاً، وبدا أنّ المتسكعين يحسبونني متطفلًا، ولم يفهمني السكان المحليون. كان من الصعب إقناع أي منهم بعدم وجود دوافع خفية لدي، وأني لم أك هارباً، أو فنانًا محتالًا، أو رجلًا ذا خطط. كانت لدي خطة- وهذا أسوأ مافي الأمر- لكني لم أرغب في الإفصاح عنها.

إن كنت أخبرت ثورنبيري أو ولفغانغ أو السيدة في فيراكروز أو بيرت والفيرا هاوي، أنني كنت كاتباً كانوا إما صمتوا أو بحسب تعبير بيرت هاوي: " وضعوا بضع طبقات من الهراء في أذني."

لكنْ على متن هذا القطار، اكسبرس باتاغونيا العتيق، بدوت مثل الجميع. بالكاد غير حلي ، مهندم قليلاً، مع حقيبة قديمة، أوروبيٌ في غموض، بشارب متدلٍ، وزوج بال من أحذية مانعة للتسرب. كان الأمر مريحاً، كنت في آخر المطاف مغموراً. ولك يا له من مكان غريب لتكون مغموراً فيه. اندمجت مع الواجهة، لكن يا للخلفيةّ مذهلة: أنا أنتمي لهذا القطار.

استيقظ الصبي.

سأل:" كم تبعد نوركوينكو؟"

قلت: " لا أدري، تبدو كلها مثل بعضها بالنسبة لي."

قال الرجل الجالس خلفي: "ساعتان تقريباً."

لم ينظر للنافذة. نظر إلى ساعته. كان المشهد لا يساعد على تحديد مكاننا.

كان اسم الصبي رينالدو. ولقبه دافيز- كان ويلزياً. يعج هذا الجزء من باتاغونيا بأشخاص من عائلات جونز، وويليام، وباويلز، وريتشارد، عائلات ويلزية هاجرت عبر الهضبة من راوسون وتريليو، وبويرتو مادرين بنية إيجاد مستعمرة ويلزية جديدة.

هم أقوياء، ومستقلون، ومبهمون. ليسوا  من المغنين أو الحالمين الذين قد يرتبطون لدى المرء بويلز، ولكنهم سلالة مختلفة تماماً، رواد كنائس، مزارعون مربو خراف وإنجيليون متزمتون بعاطفة عظيمة لوطن لم يروه قط، وللغة يتحدثها القليل فقط (رواية كلاسيكية ويلزية بعنوان "صعود الإنديز" للسيدة الويلزية إلونيد مورغان، التي ولدت في خليج بيسكاي أثناء الهجرة العظمى). أراد رينالدو أن يتحدث الإنجليزية، لكن لغته لم تكن مفهومة بالنسبة لي، عليه تحدثنا بالإسبانية.

قال: " لقد تعلمت الإنجليزية على سفينة حشن. وهي ليست بالمكان المناسب لتعلّم اللغة."

كان على متن سفينة لعامين، والآن كان في طريق عودته إلى الديار.

قلت: " إن كنت على متن سفينة لا بد أنك زرت بوسطن."

قال: " لا، لكني زرت جميع أنحاء أمريكا. القارة بأكملها."

" نيو يورك؟"

"لا."

"نيو أورليانز؟"

"لا." والآن بدا محتاراً. " أمريكا- ليست الولايات المتحدة."

"أمريكا الجنوبية؟"

"هذا صحيح، كل أنحائها. كل أنحاء أمريكا. وآسيا، سنغافورة، وهونغ كونغ. وبومباي. وأفريقيا- ديربان، وكيب تاون، وبورت إليزابيث. لقد ذهبت إلى كل مكان."

كانت السفينة التي أبحر فيها بيروفية، ولكن الطاقم في الغالب من الصينين والهنود- " الهنود الآخرون، ليسوا هنودنا. أحببتهم، قليلاً أو كثيراً. كانوا يتحدثون، ولعبنا الورق. لكنْ الصينيون، كرهتهم! ينظرون إليك- لا يريدون أن يقولوا شيئاً. فإن أرادوا شيئاً فهم فقط" وحرك يديه كمن يأخذ شيئاً بسرعة- " يخطفون خطفاً، هذا كل ما يفعلونه."

سألته ما كان انطباعه عن جنوب أفريقيا. فاجأتني إجابته.

قال: "جنوب أفريقيا مكان سيء جداً. جميل جداً، لكن المجتمع هناك قاسٍ. لن تصدقني، ولكن لديهم لافتات هنا وهناك كتب عليها :" للبيض فقط." سيارات أجرة، حافلات، متاجر،- "فقط للبيض". الأشخاص البيض من هنا والسود من هناك. غريب أليس كذلك؟

ومعظم الناس من السود!" قال هذا بدهشة أكبر من الغضب، ولكنه أضاف أنّه لا يؤيد ذلك.

سألته: " لِمَ لا؟"

قال: " ليس أمراً جيداً "للبيض فقط"، "للسود فقط" إنّه نظام غبي. ينبي عن وجود مشكلات كبيرة."

أثلج صدري أنَّ باتاغونياً غير متعلم أظهر مثل هذه الفطنة.

قلت: " أتفق معك."

قال: " أفضَل إمضاء حياتي في بارانكويلا عنها في ديربان. وبارانكويلا فظيعة حقاً."

قلت: " هذا صحيح. أنا كنت ببارانكويلا. كرهتها."

" أليست حظيرة خنازير؟ مكان قبيح حقاً."

" كانوا يجرون انتخابات عندما كنت هناك."

"يجرون انتخابات؟ ها! لا شيء هناك البتة!"

كان يضحك، وهو يفكر في بارانكويلا. تجاوزته بنظري، إلى خارج النافذة، للتلال الشبيهة بالكثبان، والشجيرات المنخفضة، والشمس التي تغشي العيون، ونفثات الغبار التي يلقيها علينا القطار بحركته. كان هناك نسر كوندور- لا ترفرف نسور الكوندور بأجنحتها- يحلّق على هيئة دوئر من البعد. اشمئزاز الباتاغوني من بارانكويلا كان كراهة للانحلال البطيء، التعفن والحشرات. هنا لا شيء متعفن.  سرعان ما تتحول الميتة إلى جثة جافة- تذوي وتصير عظاماً. ليس هناك رطوبة، ولا شيء آسن. إنّها نظافة الصحراء والتدمير السريع بواسطة الشمس والهواء الجاف، بريّة جافة، وأحفور على خاصرة نبات. لا تنجو هنا من الأحياء سوى القلة، ولكن تلك العصيّة على التدمير فعلاً.

قلت: " إذن فقد رأيت العالم، لكن لماذا أنت عائد إلى منزلك؟"

"لأنني رأيت العالم. لا يوجد مكان كهذا. سأحصل على وظيفة، ربما في بناء المنازل، أو إصلاح المحركات. في نوركوينكو أو إيسكويل."

قلت: " أنا ذاهب إلى إيسكويل."

" الأسرع أن تأخذ الحافلة من باريلوتشي."

"لقد كنت أريد أن أستقل قطار باتاغونيا السريع."

"العتيق!"

وعندما وصلنا إلى نوركوينكو  سحب حقيبته إلى الباب وقال: " ملكة إنجلترا- أتعلم من أقصد؟"

"الملكة إليزابيث؟ ماذا عنها؟"

" تملك مزرعة مواشي خارج إيسكويل. الكثير من الماشية- جميل جداً."

أمضيت فترة ما بعد العصر على ذلك القطار كما أمضيتها على متن القطارات طوال الرحلة عبر الأمريكتين. تذكرت الناس الذين عاملوني بقسوة؛ وتدربت على التعليقات اللاذعة التي انتويت إطلاقها. تذكرت المواقف المحرجة في حياتي، واسترجعت الانتصارات والهزائم الساحقة. تخيلت نفسي متزوجاً شخصية أخرى، وأنجبت أطفالاً، وحصلت على الطلاق. رشحت نفسي رئيساً لجمهورية موز، وحاولت التأقلم مع المعارضة الصاخبة. ذهبت إلى مدرسة الطب وأسست لي مسلكاً خاصاً في ممارسته، وأجريت عمليات حرجة. قصصت حكاية مضحكة طويلة على جمع غفير ولكن في النهاية صارت الجائزة إلى شخص آخر. توفيت، وتحدث الناس عني بصوت عالٍ. كان عصر تسفار نموذجيًا إلى حد كبير.

كنت أستخدم قرية ليليك على خارطتي كمعلم بارز. ولكن ليليك ما زالت تبعد عنا ساعات.

كان القطار يكدّ في السير ونادراً ما يستقيم مساره، مع وقفات من وقت لآخر- صيحة، الجرس، الصفارة، النباح، ثم ننطلق مجدداً. أدركت أنَّ رحلتي شارفت على النهاية، لكني لم أكن حزيناً عندما تذكرت ذلك، في بضع ساعات، وربما عند حلول الليل، كان القطار يأخذني إلى وجهتي، وهناك ينتهي الأمر. كان عقلي يسابقني إلى محطة إيسكويل، الطائرة إلى بيونس آيرس، وصولي إلى الديار. نعم كنت لأستقل سيارة أجرة للمطار- وتباً للتكلفة. اقتربت وجهتي، ونفذ صبري. ولكن هذا المشهد علمني الصبر، والحذر، والعناد. يلزم رؤيته قدرٌ من التمحيص. لمحة واحدة منه لا تنبيك شيئاً. ارتفع ضجيج المحرك على طول ضيق القضبان بجانب الصحراء وهو يطوي المسافة، دائماً يبدو على وشك أن ينفجر مبعثراً أحشاءه في زخات من المعدن والبخار، أو يتوقف في سلسلة من القمم على منحدر، يتدحرج القهقهرى إلى عمق الوادي، ويبقى للأبد. بدت معجزة أن يستطيع محرك مثل هذا الاستمرار، ووصل بي الأمر حداً لم تعد اختناقات المحرك في نظري ضعفاً بل قوة ونشاطاً. و لكن لم يكن هناك ما يكفي في المحرك أو المشهد لإثارة اهتمامي. ركزت على بوزويل، وأكلت العنب، وغفوت.

انحدرت الشمس، وصارت التلال أعلى إلى الغرب، وتبعتها الشمس. كانت الرياح أبرد. عرفت ألا فرصة لدخول إيسكويل قبل حلول الظلام. عندما هبط الظلام، حدث على نحو فجائي على الطريقة الباتاغونية، في سرعة إسدال ستار، تشبع الليل بالبرد. وفي صمت الصحراء كان صوت الريح، والقطار المتهالك.

توقف القطار في محطات أصغر بالقرب من إيسكويل، ارتعش المحرك في الظلام، ووراءه كانت السماء غربالاً هائلاً من النجوم الزرقاء.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة عندما رأيت المصابيح. فبحثت عن المزيد.

لم يكن هناك المزيد. لا شيء في هذه الأماكن، قلت لنفسي لا شيء في هذه الأماكن ما لم تكن فوقها. لم أعرف في تلك اللحظة أننا كنا فوق إيسكويل. توقعت ما هو أكثر- واحة، وربما أشجار حور أكثر ارتفاعاً، مرأى حانات قليلة مضيافة، ومطاعم مزدحمة، وكنيسة تغمرها الأضواء، أي شيء يشير إلى وصولي. أو ربما أقل: مثل واحدة من تلك المحطات الصغيرة على طول الخط، مثل جاكوباتشي، ظلال قليلة، بضعة كلاب، وجرس. أُخلي القطار بسرعة. وجدت رجلاً بقبعة تبدو رسمية، وديباجة الخطوط الحديدية على قميصه.

هل من فندق قريب؟

قال: " إيسكويل تعج بالفنادق، بعضها جيد، أيضاً."

طلبت منه أن يسمي واحداً. وفعل. ذهبت إليه- ليس من قلة الخيارات- وأخذت دشاً بارداً. ثم إلى المطعم.

" ماذا ستشرب؟ نبيذ أحمر؟"

قلت: " نعم"

"وماذا ستأكل؟ شريحة لحم؟"

"نعم."

المعتاد. لكن الجو كان مختلفاً هنا. كشعور صالونات الغرب الجامح. الناس في البلدة وفي نهاية الأسبوع، وجوه ناعمة، يرتدون سترات جلدية بالداخل هنا، ورجل واحد مع كتابه يستند إلى مقعد كرسي.

يسرع النُدُل بالصواني. رأيت ساعة، تقويماً، وصورة لما كان على الأرجح فريق كرة قدم محلي، ولوحة لوجه قديس. كنت أخطط للذهاب في نزهة على الأقدام، بحثاً عن حانة ما. كانت عضلاتي تؤلمني من الرحلة، وأردت أن أتمدد. ولكن هناك، في ذلك المقعد، بدأت أغفو. طردت نعاسي، وطلبت الحساب.

انزلقت الرمال والحصى من بين صفحات كتاب بوزويل إلى صدري وأنا مستلقٍ في السرير. قرأت جملة، وراقبت الرمل وهو ينزلق خارجاً، وعندما هممت بمسحه غلبني النعاس.

***©                                             &***

كانت نيتي أن أصل إلى إيسكويل في يوم سبت النور، وأستيقظ يوم أحد الفصح، وأشهد شروق الشمس. لكن مضى الفصح. وهذا التأريخ ليس مميزاً، بالإضافة إلى أنني تأخرت في النهوض. استيقظت وخرجت. كان يوماً مشمساً عليل النسمات- وهو الطقس المعتاد يومياً طوال العام في ذلك الجزء من باتاغونيا.

سرت إلى المحطة. المحرك الذي أخذني إلى إيسكويل بدا محطماً في الانزلاق، كما لو أنّه لن يعمل ثانية.

لكنه سيتحمل مائة سنة أخرى، كنت متأكداً من ذلك. تجاوزته في سيري، مروراً بمنازل من طبقة واحدة، إلى أكواخ من غرفة واحدة، ثم إلى حيث تحول الطريق إلى درب ترابي. كان هناك منحدر صخري، وبعض الخراف، والبقية شجيرات وحشائش. إن نظرت عن كثب لرأيت أزهاراً صغيرة زهرية وصفراء على هذه الشجيرات. كانت الرياح تحركها. اقتربت أكثر. اهتزت، لكنها كانت جميلة. وراء رأسي امتدت صحراء شاسعة.

كانت المفارقة الباتاغونية كالتالي: يعينك على المكوث هنا أن تكون صانع منمنمات، أو مهتمًا بالمساحات الواسعة الخالية. هذه ليست بيئة متوسطة للدراسة. إما شسوع مساحة الصحراء، أو منظر الزهرة الصغيرة. عليك الاختيار بين الدقيق والشاسع. شتتت المفارقة انتباهي. لم أكترث بالوصول قدر اهتمامي بالرحلة ذاتها. وكنت لآخذ بنصيحة جونسون. ترجم في بداية مسيرته المهنية كتاباً لمسافر برتغالي في أبيسينيا. كتب جونسون في مقدمته:

*لقد أمتع القاريء بلا ابتذال رومانسي، أو خيال مجنون، أيا ما كان يرويه، سواءً أكان صحيحاً أم لا على الأقل الناس، ومن لا يقول شيئاً يتجاوز حدود الممكن، له الحق في المطالبة بأن يصدّقه من لا يستطيع مناقضة ما جاء به.*

رآني الخروف. كانت الخراف الأصغر سناً ترفس بأظلافها. وعندما نظرت مرة أخرى، كانت قد اختفت. كنت نملة في كثيب نمل أجنبي.

كان من المستحيل التحقق من حجم أي شيء في هذا الفضاء. ليس ثمة طريق عبر الشجيرات، ولكني استطعت النظر فوقها، فوق هذا المحيط من الأشواك التي بدت حادة جداً من على البعد، وقاسية في الجوار، أشبه بباقة من الزهور المشوهة عند النظر إليها عن قرب. كانت هادئة تماماً وبلا رائحة.

علمت أنني في الخواء، ولكن لشد ما تفاجأت من كل ذلك أنني ما زلت في هذا العالم بعد كل هذا الوقت، على بقعة في الجزء الأسفل من الخريطة. كان المشهد يشي بالتعب، ولكني لا أستطيع إنكار أنه كان واضح السمات، وأنني موجود فيه. كان هذا اكتشافاً- نظْرته. قلت لنفسي، إن العدم مكانٌ.

على البعد بلغ عمق الوادي الباتاغوني الصخور الرمادية، وقد زينته خطوط العصور، وفلقته الفيضانات. أمتدت أمامه سلسلة من التلال، عرّتها وصدّعتها الرياح التي كانت تغني الآن بين الشجيرات، التي اهتزت لهذا الغناء. ثم تصلبت مرة أخرى وسكنت. كانت السماء زرقاء صافية. ثمة غيوم طفيفة، وبيضاء كزهرة سفرجل، حملت شبحاً صغيراً من البلدة أو من القطب الجنوبي.

 رأيتها تقترب. تموج عبر الشجيرات، ثم مرت من فوقي، قشعريرة عابرة، ثم  انثنت إلى الشرق. لا أصوات هنا. هذا الذي رأيته، لكنْ وراءه جبال وجليد وقطارس، وهنود، لا شيء هنا للحديث عنه، لا شيء يعطلني أكثر. فقط المفارقة البتاغونية. الفراغ العريض، والبراعم المتناهية الصغر لشجيراتٍ من عائلة الميرمية. العدم ذاته، الذي ربما كان بداية لمسافر جسور كان النهاية بالنسبة لي. لقد وصلت باتاغونيا، وضحكت عندما تذكرت أنني جئت إلى هنا من بوسطن، على قطار الأنفاق الذي يأخذه الناس في طريقهم إلى العمل.

1. قصيدة مشهورة لروبرت براوننغ عن شخصية رحالة خفي اسمه وارنغ Waring. [↑](#footnote-ref-1)
2. في الاصل Dash of lavander، عبارة تشير إلى الرجال الذين يتسمون ببعض النعومة أو شيء من مظاهر الأنوثة. [↑](#footnote-ref-2)
3. Matt Helm [↑](#footnote-ref-3)
4. Leopold Bloom [↑](#footnote-ref-4)
5. Delmore Schwartz [↑](#footnote-ref-5)
6. لغة اثنية الشيوا الأفريقية-يتحدثها شعب الشيوا في ملاوي، ولغة بعض الأقليات في زامبيا وموزمبيق. [↑](#footnote-ref-6)
7. في الأصل Bloody Maryكوكتيل يتكون من الفودكا وعصير البندورة، والفلفل الأسود ومزيج من الأعشاب والعصائر بنسبة معينة و :Screwdriver كوكتيل قوامه الفودكا وعصير البرتقال[المترجمة]. [↑](#footnote-ref-7)
8. هو اسم صاحب السيرة :Lovecraft ويمكن فهم ترجمته الحرفية: صنعة الحب. [↑](#footnote-ref-8)
9. في إشارة لاختلاف لهجة بوسطن عن لهجة فلاغستاف. إذن تنطق كلمة God بصوت مائل إلى الألف في لهجة بوسطن بدلاً عن الميل إلى الواو في لهجة فلاغستاف. [↑](#footnote-ref-9)
10. في الأصل Shee وهو عرق أسطوري عبقري ينسب إليه صناعة المحركات البخارية، وينتمي إلى البا بولاية إيوا [المصدر: https://creatures.fandom.com/wiki/Shee] [↑](#footnote-ref-10)
11. سكوبس: اسمه الكامل John Thomas Scopes وهو معلم شاب لمادة العلوم بالمدارس الثانوية،اتهم بتدريس نظرية التطور في مخالفة لقوانين ولاية تينيسي. [↑](#footnote-ref-11)
12. في الأصل Redneck أي الرقبة الحمراء، وتشير إلى احتراق بشرة العنق من التعرض الطويل للشمس، وهي من سمات الأمريكيين البيض من العمال والمزارعين أو الريفيين غير المتعلمين. [↑](#footnote-ref-12)
13. لقب مكسيكي يطلق على المواطنين الأمريكيين من غير اللاتينيين أو ذوي الأصول الإسبانية. [↑](#footnote-ref-13)
14. في الأصل: Quetzalcoatl وهو ثعبان أسطوري ذو ريش عبدته حضارات أمريكا الوسطى القديمة. [↑](#footnote-ref-14)
15. Hernan Cortes: جندي إسباني مغامر فتح امبراطورية الأزتيك. [↑](#footnote-ref-15)
16. شخصية خيالية تدور حولها رواية "فم الحصان" للأديب الإنجليزي جويس كيري. [↑](#footnote-ref-16)
17. *El Sol de San Luis* a [↑](#footnote-ref-17)
18. في الأصل "Pomp and Circumstance"، أغنية تتويج الملك إدوارد السابع، من تأليف الشاعر الإنجليزي إدوارد الغار 1901  
     [↑](#footnote-ref-18)
19. شاعر الأغنية المذكورة في الفقرة السابقة. [↑](#footnote-ref-19)
20. قطعة موسيقية على غرار المارشات العسكرية ألفها جون فيليب سوسة عام 1889 بناء على طلب من صحيفة واشنطن بوست لتعزف في حفل مسابقة كتابة مقالات للأطفال. [↑](#footnote-ref-20)
21. مؤلف وموسيقي ألماني Weber [↑](#footnote-ref-21)
22. فيلم أمريكي عن قصة برنارد شو بجماليون. حائز على جائزة الأوسكار عام 1964 [↑](#footnote-ref-22)
23. Jacques Soustelle عالم اجتماع وسياسي واكاديمي فرنسي مهتم بفترة ما قبل الاستعمار [المترجمة] [↑](#footnote-ref-23)
24. الاقتباس من موقع [الانبا تيكلا هيمانوت-الإنجيل آية آية](https://st-takla.org/Bibles/BibleSearch/showVerses.php?book=76&chapter=6&vmin=13&vmax=13) [↑](#footnote-ref-24)
25. الرواية الوحيدة المكتملة للكاتب الأمريكي إدجار آلان بو. [↑](#footnote-ref-25)
26. جدول مواعيد توماس كوك سابقاً، يعرف الآن بجدول المواعيد القاريّ أو الأوربي. هو جدول مواعيد القطارات في أوربا وبعض البلدان خارجها. [↑](#footnote-ref-26)
27. فيلم موسيقي درامي أنتج في 1977. [↑](#footnote-ref-27)
28. عربات مريحة وعربات نوم من صنع شركة بالمانز Pullmans [↑](#footnote-ref-28)
29. سوموزا رئيس نيكاراغوا من 1967 إلى 1972 ومن 1974 إلى 1979. [↑](#footnote-ref-29)
30. يشير إلى الجزء من الملعب غير المظلل [↑](#footnote-ref-30)
31. قطعة نقدية من فئة ربع الدولار قطرها 24.26 مم [↑](#footnote-ref-31)
32. *الفئران الجرابية/ أو السناجب الأمريكية*  [↑](#footnote-ref-32)
33. حجرة المقدسات [↑](#footnote-ref-33)
34. أكبر معسكرات اعتقال اليهود في الحدود الألمانية البولندية [↑](#footnote-ref-34)
35. Mhaw مدينة هندية. [↑](#footnote-ref-35)
36. جمعية سرية عنصرية [↑](#footnote-ref-36)
37. كتيبة موت يمينية تعرف في غواتيمالا باسم Mano Blanca مانو بلانكا، أي اليد البيضاء بالاسبانية. [↑](#footnote-ref-37)
38. The Brighton Belleكان أشهر قطار كهربائي في العالم. [↑](#footnote-ref-38)
39. في إشارة لروايته بالاسم ذاته[ Mosquito Coast] المنشورة عام 1981. [المترجمة] [↑](#footnote-ref-39)
40. Vara : وحدة قياس طول تعادل 84 سنتمترا أو 33 بوصة، ويعمل بها في أمريكا اللاتينية وتكساس. [↑](#footnote-ref-40)
41. يقاس نضج الأشجار بعدة عوامل منها طولها، أو عمرها حيث يتفاوت النضج بين عامين وثلاثين عاماً بحسب نوع الشجرة. وتعتبر بعض الأشجار ناضجة عندما تصل إلى طول عشرة أقدام. [[المصدر](https://treesdownunder.com.au/how-long-does-it-take-to-grow-a-tree/#:~:text=When%20a%20tree%20grows%20taller,as%20long%20as%2030%20years.)] [المترجمة] [↑](#footnote-ref-41)
42. الكف هو مجموعة أصابع الموز المرتبطة مع بعضها ضمن سبيطة/عنقود واحد. [المترجمة] [↑](#footnote-ref-42)
43. يشير المؤلف إلى مسيرة باتان الجنائزية التي أجبرت فيها اليابان أسرى الولايات المتحدة والفلبين على قطع مسافات طويلة للوصول إلى معسكرات اعتقالهم مات أثناءها الكثير منهم. [المترجمة] [↑](#footnote-ref-43)
44. في الأصل Leopold Bloom  وStephan Dedalus وهما شخصيتان رئيسيتان في اثنين من أعمال جيمس جويس. [↑](#footnote-ref-44)
45. في الأصل [Zonian]الزونيون هم الأشخاص المرتبطون بمنطقة قناة بنما، جسم سياسي تكون في الفترة ما بين عام 1903وحتى دمج منطقة قناة بنما في جمهورية بنما في الفترة 1979-1999. كان معظمهم من المغتربين الأمريكيين المخلصين للولايات المتحدة الأمريكية. ساعدوا في بناء القناة وإدارتها. وكثير من الزونيين ينحدرون من عائلات العاملين الأمريكيين المدنيين الذين جاءوا إلى المنطقة منذ تأسيسها في مطلع القرن العشرين. [↑](#footnote-ref-45)
46. يشير المؤلف إلى كتاب الطريقة الأمريكية للموت American Way to Death Theلجيسيكا ميتفورد[Jessica Mitford] عن استغلال متعهدي الدفن لأقارب المتوفين باستنزافهم ماديا مقابل مراسم غير ضرورية للدفن والجنازة. [↑](#footnote-ref-46)
47. طبق صيني مشهور من اللحم وبراعم الفاصوليا. [↑](#footnote-ref-47)
48. في الأصل Gringo لقب عنصري يطلقه سكان أمريكا اللاتينية على ذوي الأصول الأمريكية الشمالية. [↑](#footnote-ref-48)
49. في الأصل Spic أو Spick لقب عنصري يطلقه الأمريكيون على ذوي الأصول الأمريكية اللاتينية. [↑](#footnote-ref-49)
50. كرات كان يصنعها طلاب المدارس من الورق بعد مضغه وتطريته باللعاب. [↑](#footnote-ref-50)
51. أي نسبة العرق الزنجي فيهم تبلغ ثمناً [↑](#footnote-ref-51)
52. جاءت في الأصل باللغة الإسبانية marijuaneros [↑](#footnote-ref-52)
53. في الأصل Submarin sandwich وهو رغيف خبز طويل مشقوق ومحشو بمكونات منوعة كاللحم والجبن والخضاروالتوابل، ويشيع في الولايات المتحدة الأمريكية ، وتختلف تسمياته من ولاية لأخرى، لكنه استقى تسميته من شكله. [↑](#footnote-ref-53)
54. في الأصلVoodoo : ديانة تعددية أفريقية، مشوبة بعبادة أرواح الأسلاف. [لمترجمة] [↑](#footnote-ref-54)
55. الأخدود الأمريكي العظيم باللغة الإنجليزية [Grand Canyon]‏: هو [أخدود](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%AE%D8%AF%D9%88%D8%AF) بالغ العمق والاتساع، يقع في الجزء الشمالي الغربي من ولاية [أريزونا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B1%D9%8A%D8%B2%D9%88%D9%86%D8%A7) الأميركية، ويعبر عددًا من ولايات [الولايات المتحدة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%8A%D8%A7%D8%AA_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D8%AD%D8%AF%D8%A9) بدًأ من [جبال الروكي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D8%A8%D8%A7%D9%84_%D8%B1%D9%88%D9%83%D9%8A) امتدادًا إلى سواحل [كاليفورنيا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%83%D8%A7%D9%84%D9%8A%D9%81%D9%88%D8%B1%D9%86%D9%8A%D8%A7). يعتبر أحد أروع المشاهد الطبيعية في العالم. يبلغ طوله 349 كيلومتراً. أما أقصى عمقه فيناهز 1,740 متراً. [المترجمة] نقلاً عن [ويكيبديا]. [↑](#footnote-ref-55)
56. إحدى مدن كالفورنيا وضاحية من ضواحي سان فرانسسكو. [↑](#footnote-ref-56)
57. يشير المؤلف إلى كتاب حكاية آرثر غوردون بيم للكاتب إدجار الآن بو الذي كان يقرأه قبل كتاب بوزويل أثناء سفره. حيث تنتهي الحكاية بمواجهة البطل لهجوم قبائل بدائية متوحشة قبل أن يفر إلى المحيط. [المترجمة] [المصدر: ويكيبديا] [↑](#footnote-ref-57)
58. في الأصل : witchetty grubsوهي كانت ولا زالت من أعمدة النظام الغذائي للسكان الأصليين. وهي يرقات عث الخشب الكبيرة الحجم، والغنية بالبروتين. اكتسبت اسمها من الشجرة التي تتغذى على عصارة جذورها [ويتشيتي]. [↑](#footnote-ref-58)
59. **جبال كاتسكيل**[بالإنجليزية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%84%D8%BA%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%86%D8%AC%D9%84%D9%8A%D8%B2%D9%8A%D8%A9): [Catskill Mountains]‏ وهي منطقة جبلية واسعة تقع في الجزء الجنوبي الشرقي من [الولايات المتحدة الأمريكية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%8A%D8%A7%D8%AA_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D8%AD%D8%AF%D8%A9) [بولاية نيويورك](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%8A%D9%88%D9%8A%D9%88%D8%B1%D9%83_(%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%8A%D8%A9))، تقع على بعد 100 ميلا إلى الشمال والشمال الغربي من مدينة [نيويورك](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%8A%D9%88%D9%8A%D9%88%D8%B1%D9%83) و40 ميلا جنوب غربي [ألباني](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%84%D8%A8%D8%A7%D9%86%D9%8A_(%D9%86%D9%8A%D9%88%D9%8A%D9%88%D8%B1%D9%83)). [المترجمة] [المصدر: ويكيبيديا] [↑](#footnote-ref-59)
60. **رانس**: في الأصل: Rheimsوبالفرنسية:[Reims]: هي مدينة تقع في مقاطعة [شامبانيا أردين](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B4%D8%A7%D9%85%D8%A8%D8%A7%D9%86_-_%D8%A3%D8%B1%D8%AF%D8%A7%D9%86) في شمال [فرنسا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D8%B1%D9%86%D8%B3%D8%A7)، وتقع على بعد 144 كلم شمال شرق [باريس](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%B3). تأسست قبل مئات السنين، في أثناء [الإمبراطورية الرومانية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%85%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D8%B7%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D9%85%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9). أثرت المدينة بشكل كبير على [التاريخ الفرنسي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE_%D9%81%D8%B1%D9%86%D8%B3%D8%A7) حيث كانت المكان الذي اعتلى فيه ملوك فرنسا على العرش.[المترجمة] [المصدر: ويكيبيديا] [↑](#footnote-ref-60)
61. **الجلجثة** هي اسم يشير إلى مكان يقع خارج مدينة [القدس](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%AF%D8%B3) القديمة، يعتقد بحسب [الإنجيل](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D9%86%D8%AC%D9%8A%D9%84) أن [يسوع](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%8A%D8%B3%D9%88%D8%B9) صلب عنده. تعود تسمية هذه المنطقة إلى الآرامية גגולתא *جاجولثا* بمعنى موقع [الجمجمة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D9%85%D8%AC%D9%85%D8%A9).[المترجمة] [المصدر:ويكيبيديا] [↑](#footnote-ref-61)
62. في الأصل Wordsworthian نسبة للشاعر ويليام وردزورث William Wordsworth. شاعر إنجليزي رومانسي، اشتهر بتأكيده على أهمية الطبيعة في التطور الفكري والروحي للفرد.[المترجمة] [[المرجع](https://www.sparknotes.com/poetry/wordsworth/themes/#:~:text=Wordsworth%20repeatedly%20emphasizes%20the%20importance,to%20a%20love%20of%20humankind.)] [↑](#footnote-ref-62)
63. **الرهبنة الكَبّوشية** هي [رهبنة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B1%D9%87%D8%A8%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9) [كاثوليكية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%83%D8%A7%D8%AB%D9%88%D9%84%D9%8A%D9%83%D9%8A%D8%A9) نشأت عام 1525 بوصفها حركةً إصلاحية ضمن نطاق [الرهبنة الفرنسيسكانية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D8%B1%D9%86%D8%B3%D9%8A%D8%B3%D9%83%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9)، حيث استقلت عنها نهائياً عام 1619.[المترجمة][المرجع: ويكيبيديا] [↑](#footnote-ref-63)
64. سلسلة من التلال الجبلية شديدة الانحدار والتعرّج تميزها واحدة من أخطر السكك الحديدية بالعالم. سميت بأنف الشيطان لما يوحي بها شكلها.[المترجمة] [↑](#footnote-ref-64)
65. **هيرونيموس** بوس (1450 - 9 أغسطس 1516) رسام هولندي من القرنين الخامس عشر والسادس عشر. تصور العديد من أعماله الخطيئة والفشل الأخلاقي الإنساني.[المترجمة] [نقلاً عن ويكيبيديا]. [↑](#footnote-ref-65)
66. **المخلعة** هي أشهر أدوات التعذيب وأكثرها استعمالاً على مدى العصور، ويعود استعمالها إلى الحضارات القديمة، وتوسع الرومان في استخدامها. [↑](#footnote-ref-66)
67. **أتاوالبا** (بالإسبانية: Atahuallpa)‏ هو آخر ملوك الإنكا وابن واين كاباك من زوجته باتشا وهي أميرة من مملكة كيتو المحتلة وأخ واسكار. [↑](#footnote-ref-67)
68. في الأصل *Huasipungo*  وتعني مدخل الباب بلغة الكتشوا، ظهرت ضمن حركة الكتابة باللغات الأصلية التي سبقت الواقعية السحرية بأمريكا اللاتينية. [↑](#footnote-ref-68)
69. Chiavari بلدية تابعة لجنوا- إيطاليا [↑](#footnote-ref-69)
70. يعود الشعار إلى فترة الحملات الصليبية الأولى وهو باللغة اللاتينية التي شاع استخدامها في الكنائس الكاثوليكية. [المترجمة] [المصدر:[ويكيبيديا الإنجليزية](https://en.wikipedia.org/wiki/Deus_vult)] [↑](#footnote-ref-70)
71. قبيلة من الهنود الامريكيين تسكن المرتفعات في البيرو وبوليفيا، وتتحدث لغة الكتشوا. [↑](#footnote-ref-71)
72. # في إشارة لقصيدة إدوارد لير الشهيرة The Pobble Who Has No Toes.

    [↑](#footnote-ref-72)
73. في إشارة لما حدث مع دوفيل Dufill أحد الركاب الذين تعرف إليهم الكاتب وفاته القطار عندما تأخر في الصعود على متنه، ولم يعرف له أثر بعدها. [↑](#footnote-ref-73)
74. **لويس بونويل** بالإسبانية: (Luis Buñuel) ‏ (22 فبراير 1900 - 29 يوليو 1983) مخرج إسباني، حصل أيضا على الجنسية المكسيكية وعمل في [إسبانيا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D8%B3%D8%A8%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A7)، [المكسيك](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%83%D8%B3%D9%8A%D9%83)، [فرنسا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D8%B1%D9%86%D8%B3%D8%A7) [والولايات المتحدة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%8A%D8%A7%D8%AA_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D8%AD%D8%AF%D8%A9). يعتبر واحدًا من خيرة المخرجين في تاريخ السينما. [↑](#footnote-ref-74)
75. إزرا أو عزرا باوند من رواد الحركة الشعرية الحداثية والتصويرية الأمريكية، وما سمي بالحركة الدّوامية) 1955-1972. ( [↑](#footnote-ref-75)
76. صيغة صلاة مسيحية سميت بصلاة الرب لأنّها الوحيدة التي علمها المسيح بنفسه لتلاميذه. وردت في إنجيل متّى: [ 9:6-13 ] كالآتي: "فصلوا أنتم هكذا: آبانا الذي في السموات ...الخ." [المترجمة] [↑](#footnote-ref-76)
77. القلط أو السلت بالإنجليزية Celt أقوام من الهنود الاوربيين كانوا يسكنون مناطق واسعة من أوربا واشتهروا عند العرب بقصر القامة، وربما لذلك علاقة باستخدام مفردة القلطي بمعنى القصير. [[ويكيبيديا الحرة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D9%84%D8%B7#cite_note-1) بتصرف] [↑](#footnote-ref-77)
78. **بيوولف**، **بيولف** أو **بياوولف**([بالإنجليزية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%84%D8%BA%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%86%D8%AC%D9%84%D9%8A%D8%B2%D9%8A%D8%A9): Beowulf)‏، تنطق ‎[/](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B3%D8%A7%D8%B9%D8%AF%D8%A9:%D8%A3%D8%B5%D8%AF_%D9%84%D9%84%D8%A5%D9%86%D8%AC%D9%84%D9%8A%D8%B2%D9%8A%D8%A9)‏[ˈbeɪəwʊlf](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B3%D8%A7%D8%B9%D8%AF%D8%A9:%D8%A3%D8%B5%D8%AF_%D9%84%D9%84%D8%A5%D9%86%D8%AC%D9%84%D9%8A%D8%B2%D9%8A%D8%A9)‎[/](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B3%D8%A7%D8%B9%D8%AF%D8%A9:%D8%A3%D8%B5%D8%AF_%D9%84%D9%84%D8%A5%D9%86%D8%AC%D9%84%D9%8A%D8%B2%D9%8A%D8%A9))هي [ملحمة شعرية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B4%D8%B9%D8%B1_%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%85%D9%8A) وطنية إنجليزية قديمة تمتاز بأسلوب [المعلى](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B9%D9%84%D9%89_(%D8%B4%D8%B9%D8%B1)). [↑](#footnote-ref-78)
79. أديب أرجنتيني اسمه بالاسبانية :" Adolfo Bioy Casares". [↑](#footnote-ref-79)
80. الجناح اليساري لجماعة الغوريلا المسلحة في الأرجنتين. [↑](#footnote-ref-80)
81. مفردها الغوناق، وهو حيوان بري غير مستأنس من فصيلة الجمليات وصنفا فرعياً من اللاما، يعيش في أمريكا الجنوبية. [المترجمة/ويكيبديا بتصرف] [↑](#footnote-ref-81)